كتاب الروضتين في أخبار الدولتين

تأليف الشيخ الامام العالم الفاضل الصدر الكامل
الاوحد فريد عصره وحيد دهره مجموع الفضائل
شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسمعيل
ابن ابراهيم المقدسي الشافعي
تغمده الله تعالى
برحمته
آمين

م

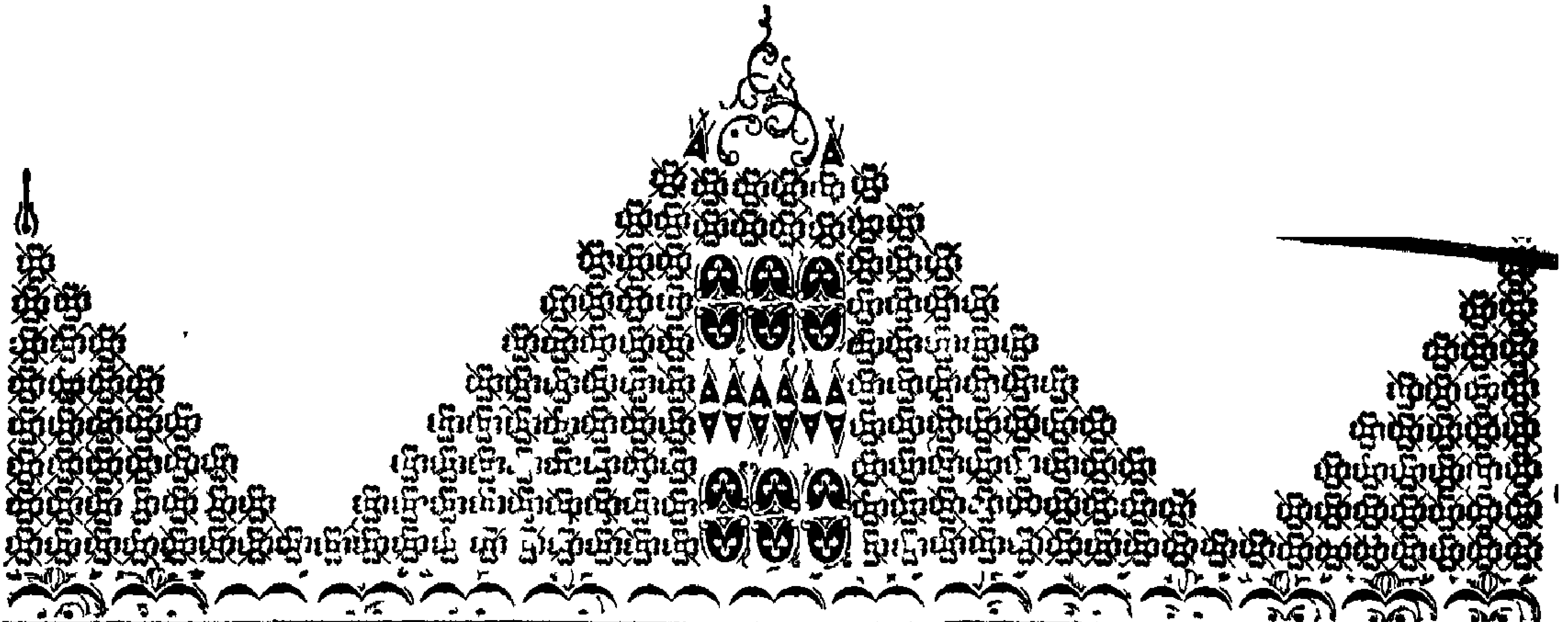
رواية الشيخ الامام مجد الدين أبي المظفر يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعي سماعا عنه

(الجزء الاول)

(طبعة جديده)

بمطبعة وادي النيل بمصر القاهرة

سنة ١٢٨٧



الحمد لله الذى بلطفه تصلح الاعمال * وبكرمه وجوده تدرك الآمال * وعلى وفق مشيئته تتصرف الافعال * وبارادته تتغير الاحوال * واليه المصير والمرجع والمآل * سبحانه هو الباقى بلا زوال * والمنزه عن الحلول والانتقال * عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال * ذو العرش والمعارج والطول والاكرام والجلال * نحمده على ما أسبغ من الانعام والافضال * ومن به من الاحسان والنوال * حمدا لا توازنه الجبال * ملء السموات والارض وعلى كل حال * ونصلى على رسوله ونبيه * وخيرته من خلقه وصفيه * وخليله ووليه * وحبيبه المفضال * سيدنا أبى القاسم محمد بن عبد الله ذى الشرف الباذخ * والفضل الشامخ * والعلم الراسخ * والجمال والكمال * صلى الله عليه وعلى الملائكة المقربين * والانبياء والمرسلين * وعترتهم الطيبين * ما أفل كوكب وطلع هلال * وعلى آل محمد وصحبه خير صحب وأكرم آل * وعلى تابعيهم باحسان وجميع الاولياء والابدال * وعفا عن المقصرين من أمته أولى الكسل والملال * وحشرنا فى زمرته * متمسكين بشريعته * مقتدين بسنته * متعظين بما ضرب من الامثال * مندرجين تحت لوائه * فى جملة أوليائه * يوم لا بيع فيه ولا خلال * (أما بعد) فانه بعد ان صرفت جل عمرى * ومعظم فكرى * فى اقتباس الفوائد الشرعيه * واقتناص الفرائد الادبيه * عن لى أن أصرف الى علم التاريخ بعضه * فأحوز بذلك سنة العلم وفرضه * اقتداء بسيرة من مضى * من كل عالم مرتضى * فقل امام من الائمة الا ويحكى عنه من أخبار من سلف فوائد جمه * منهم امامنا أبو عبد الله الشافعى رضى الله عنه قال مصعب الزبيرى ما رأيت أحدا أعلم بأيام الناس من الشافعى ويروى عنه انه اقام على تعلم أيام الناس والادب عشرين سنة وقال ما أردت بذلك الا الاستعانة على الفقه قلت وذلك عظيم الفائده * جليل العائده * وفى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من أخبار الامم السالفه وأنباء القرون الخالفه * ما فيه عبر لذوى البصائر * واستعداد ليوم تبلى السرائر * قال الله عز وجل وهو أصدق القائلين * وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين * وقال سبحانه وتعالى ولقد جاءهم من الانباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغن النذر * وحدث النبى صلى الله عليه وسلم

بحديث أم ذرع وغيره مما جرى فى الجاهليه * والايام الاسرائيليه * وحكى عجائب مارآه ليلة أسرى به وعرج * وقال حدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج * وفى صحيح مسلم عن سماك بن حرب قال قلت لجابر بن سمرة أكنت تجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم كثيرا كان لا يقوم من مصلاه الذى صلى فيه الصبح والغداة حتى تطلع الشمس فاذا اطلعت قام وكانوا يتحدثون فيأخذون فى أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم * وفى سنن أبى داود عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال كان نبى الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا عن بنى اسرائيل حتى نصبح ما يقوم الا الى عظم صلاه * قلت ولم تزل الصحابة والتابعون فمن بعدهم يتفاوضون فى حديث من مضى * ويتذاكرون ما سبقهم من الأخبار وانقضى * ويستنشدون الاشعار * ويتطلبون الآثار والاخبار * وذلك بين من أفعالهم * لمن اطلع على أحوالهم * وهم السادة القدوه * فلنا بهم اسوه * فاعتنيت بذلك وتصفحته * وبحثت عنه مدة وتطلبته * فوقفت والحمد لله على جملة كبيرة من أحوال المتقدمين والمتأخرين * من الانبياء والمرسلين * والصحابة والتابعين * والخلفاء والسلاطين * والفقهاء والمحدثين * والاولياء والصالحين * والشعراء والنحويين * وأصناف الخلق الباقين * ورأيت أن المطلع على أخبار المتقدمين * كأنه قد عاصرهم اجمعين * وانه عندما تفكر فى أحوالهم أو تذكرهم * كأنه كان مشاهدهم ومحاضرهم * فهو قائم له مقام طول الحياه * وان كان متعجل الوفاه * قال نعيم بن حماد كان عبد الله بن المبارك يكثر الجلوس فى بيته فقيل له الا تستوحش فقال كيف أستوحش وأنا مع النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وفى رواية قال قيل لابن المبارك يا أبا عبد الرحمن تكثر القعود فى البيت وحدك فقال أنا وحدى أنا مع النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعنى النظر فى الحديث وفى رواية اخرى وأنا مع النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين لهم باحسان قلت وقد أنشدت لبعض الفضلاء

كتاب اطالعه مؤنس * احب الى من الآنسه
وادرسه فيرينى القرو * ن حضورا وأعظمهم دارسه

وقد اختار الله سبحانه لنا ان نكون آخر الامم واطلعنا على أنباء من تقدم لنتعظ بما جرى على القرون الخاليه * وتعيها أذن واعيه * فهل ترى لهم من باقيه * ولنقتدى بمن تقدمنا من الانبياء * والائمة الصلحاء * ونرجو بتوفيق الله عز وجل ان نجتمع بمن يدخل الجنة منهم * ونذاكرهم بما نقل الينا عنهم * وذلك على رغم أنف من عدم الادب * ولم يكن له فى هذا العلم ارب * بل أقام على غيه واكب * والمرء مع من أحب * هذا وان الجاهل بعلم التاريخ راكب ظهر عمياء * خابط خبط عشواء * ينسب الى من تقدم أخبار من تأخر * ويعكس ذلك ولا يتدبر * وان رد عليه وهمه لا يتأثر * وان ذكر فلجهله لا يتذكر * لا يفرق بين صحابى وتابعى * وحنفى ومالكى وشافعى * ولا بين خليفة وأمير * وسلطان ووزير * ولا يعرف من سيرة نبيه صلى الله عليه وسلم أكثر من انه نبى مرسل * فكيف له بمعرفة أصحابه وذلك الصدر الاول * الذين بذكرهم ترتاح النفوس * ويذهب البوس * ولقد رأيت مجلسا * جمع فيه ثلاثة عشر مدرسا * وفيهم قاضى قضاة ذلك الزمان * وغيره من الاعيان * فجرى بينهم وأنا أسمع ذكر من تحرم عليه الصدقة وهم ذوو القربى المذكورون فى القرآن * فقال جميعهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب * وعدلوا بأجمعهم فى ذلك عما يجب * فتعجبت من جهلهم حيث لم يفرقوا بين عبد المطلب والمطلب * ولم يهتدوا الى أن المطلب هو عم عبد المطلب * وان عبد المطلب هو ابن هاشم * فألحقهم بلوم كل لائم * ان هذا أصل من أصول الشريعة قد أهملوه * وباب من أبواب العلم جهلوه * ولزم من قولهم اخراج بنى المطلب من هذه الفضيله * فابتغيت الى الله تعالى الوسيله * وأنفت لنفسى من ذلك المقام * فأخذت بعلم أخبار الانام * وتصحيح نسبتها * وايضاح محجتها * فان كثيرا ممن يحفظ شيأ من الوقائع يفوته معرفة نسبتها الى أربابها * وان نسبها خلط فيها وصرفها عن أصحابها * وهو باب واسع غزير الفوائد * صعب المصادر والموارد * زلت فيه قدم كثير من نقلة الاخبار * ورواة الآثار * ثم أردت ان اجمع من هذا العلم كتابا يكون حاويا لما حصلته * وأتقن فيه ما خبرته * فعمدت الى أكبر كتاب وضع فى هذا الفن على طريقة المحدثين وهو تاريخ مدينة دمشق حماها الله عز وجل الذى صنفه الحافظ الثقة أبو القاسم على بن الحسن العساكرى رحمه الله وهو ثمانمائة جزء فى ثمانين مجلدا فاختصرته وهذبته * وزدته فوائد من كتب أخر جليلة واتقنته * ووقف عليه العلماء * وسمعه الشيوخ والفضلاء * ومر بى فيه من الملوك المتأخرين * ترجمة الملك العادل نور الدين * فأطربنى ما رأيت من آثاره * وسمعت من أخباره * مع تأخر زمانه * وتغير خلانه * ثم وقفت

بعد ذلك فى غير هذا الكتاب على سيرة سيد الملوك بعده الملك الناصر صلاح الدين فوجدتهما فى المتأخرين * كالعمرين رضى الله عنهما فى المتقدمين * فان كل ثان من الفريقين حذا حذو من تقدمه فى العدل والجهاد * واجتهد فى اعزاز دين الله أى اجتهاد * وهما ملكا بلدتنا * وسلطانا خطتنا * خصنا الله تعالى بهما * فوجب علينا القيام بذكر فضلهما * فعزمت على افراد ذكر دولتيهما بتصنيف * يتضمن التقريظ لهما والتعريف * فلعله يقف عليه من الملوك * من يسلك فى ولايته ذلك السلوك * فلا يبعد انهما حجة من الله على الملوك المتأخرين * وذكرى منه سبحانه فان الذكرى تنفع المؤمنين * فانهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقة الخلفاء الراشدين * ومن حذا حذوهم من الائمة السابقين * ويقولون نحن فى الزمن الاخير * ومالأولئك من نظير * فكان لما قدر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين الزام الحجة عليهم بمن هو فى عصرهم * من بعض ملوك دهرهم * فلن يعجز عن التشبه بهما احد * ان وفق الله الكريم وسدد * وأخذت ذلك من قول أبى صالح شعيب بن حرب المدائنى رحمه الله وكان احد السادة الاكابر فى الحفظ والدين * قال انى لاحسب يجاء بسفيان الثورى يوم القيامة حجة من الله على هذا الخلق يقال لهم ان لم تدركوا نبيكم فقد رأيتم سفيان الا اقتديتم به وهكذا أقول هذان الملكان حجة على المتأخرين * من الملوك والسلاطين * فلله درهما من ملكين تعاقبا على حسن السيره * وجميل السريره * وهما حنفى وشافعى * شفى الله بهما كل عى * وظهرت بهما من خالقهما العنايه * فتقاربا حتى فى العمر ومدة الولايه * وهذه نكتة قل من تفطن لها ونبه عليها * ولطيفة هدانى الله بتوفيقه اليها * وذلك ان نور الدين رحمه الله ولد سنة احدى عشرة وخمسمائة وتوفى سنة تسع وستين * وولد صلاح الدين رحمه الله سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وتوفى سنة تسع وثمانين * فكان نور الدين أسن من صلاح الدين بسنة واحدة وبعض أخرى وكلاهما لم يستكمل ستين سنه * فانظر كيف اتفق ان بين وفاتيهما عشرين سنة وبين مولديهما احدى وعشرين سنة وملك نور الدين دمشق سنة تسع وأربعين * وملكها صلاح الدين سنة سبعين * فبقيت دمشق فى المملكة النورية عشرين سنة وفى المملكة الصلاحية تسع عشرة سنه * تمحى فيها السيئة وتكتب الحسنه * وهذا من عجيب ما اتفق فى العمر ومدة الولاية ببلدة معينة لملكين متعاقبين مع قرب الشبه بينهما فى سيرتيهما والفضل للمتقدم فكانت زيادة مدة نور الدين كالتنبيه على زيادة فضله * والارشاد الى عظم محله * فانه أصل ذلك الخير كله * مهد الامور بعدله وجهاده * وهيبته فى جميع بلاده * مع شدة الفتق * واتساع الخرق * وفتح من البلاد * ما استعين به على مداومة الجهاد * فهان على من بعده على الحقيقه * سلوك تلك الطريقه * لكن صلاح الدين أكثر جهادا * وأعم بلادا * صبر وصابر * ورابط وثابر * وذخر الله له من الفتوح أنفسه * وهو الذى فتح الارض المقدسه * فرضى الله عنهما فما أحقهما بقول الشاعر (كم ترك الاول للآخر)

وألبس الله هاتيك العظام وان * بلين تحت الثرى عفوا وغفرانا
يسقى ثرى أودعوه رحمة ملأت * مثوى قبورهم روحا وريحانا

وقد سبقنى الى تدوين مآثرهما جماعة من العلماء * والاكابر الفضلاء * فذكر الحافظ الثقة أبو القاسم على بن الحسن الدمشقى فى تاريخه ترجمة حسنة لنور الدين محمود بن زنكى رحمه الله ولاجله تمم ذلك الكتاب وذكر اسمه فى خطبته وذكر الرئيس أبو يعلى حمزة بن أسد التميمى فى مذيل التاريخ الدمشقى قطعة صالحة من أوائل الدولة النورية الى سنة خمس وخمسين وخمسمائة وصنف الشيخ الفاضل عز الدين أبو الحسن على بن محمد بن عبد الكريم الجزرى عرف بابن الاثير مجلدة فى الايام الاتابكية كلها وما جرى فيها وفيه شئ من أخبار الدولة الصلاحية لتعلق احدى الدولتين بالاخرى لكونها متفرعة عنها وصنف القاضى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الموصلى عرف بابن شداد قاضى حلب مجلدة فى الايام الصلاحية وسياق ما تيسر فيهما من الفتوح واستفتح كتابه بشرح مناقب صلاح الدين رحمه الله تعالى وصنف الامام العالم عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد بن حامد الاصفهانى كتابين كلاهما مسجوع متقن بالالفاظ الفصيحة والمعانى الصحيحة أحدهما الفتح القدسى اقتصر فيه على فتوح صلاح الدين وسيرته فاستفتحه بسنة ثلاث وثمانين وخمسمائة والثانى البرق الشامى ذكر فيه الوقائع والحوادث من الغزوات والفتوحات وغيرهما مما وقع من سنتورود ه دمشق وهى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة الى وفاة صلاح الدين وهى

سنة تسع وثمانين فاشتمل على قطعة كبيرة من أخبار أواخر الدولة النورية الا ان العماد في كتابيه طويل النفس في السجع والوصف يمل الناظر فيه * ويذهل طالب معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسيه * فحذفت تلك الاسجاع الا القليل منها استحسنتها في مواضعها ولم تك خارجة عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع نحو ماستراه في أخبار فتح البيت المقدس شرفه الله تعالى وانتزعت المقصود من الاخبار من بين تلك الرسائل الطوال * والاسجاع المفضية الى الملال * وأردت ان يفهم الكلام الخاص والعام واخترت من تلك الاشعار الكثيرة قليلا مما يتعلق بالقصص وشرح الحال * ومافيه من نكتة غريبة وفائدة لطيفة ووقفت على مجلدات من الرسائل الفاضليه * وعلى جملة من الاشعار العماديه * مما ذكره في ديوانه دون برقه وعلى كتب اخرى من دواوين وغيرها فالتقطت منها أشياء مما يتعلق بالدولتين أو باحديهما وبعضه سمعته من أفواه الرجال الثقاة * ومن المدركين لتلك الاوقات * فاختصرت جميع ما في ذلك من أخبار الدولتين وما حدث في مدتيهما من وفاة خليفة أو وزير * أو أمير كبير * أو ذى قدر خطير * وغير ذلك * فجاء مجموعا لطيفا * وكتابا ظريفا * يصلح لمطالعة الملوك والاكابر * من ذوى المآثر والمفاخر * وسميته (كتاب الروضتين في أخبار الدولتين) ولله در حبيب بن أوس حيث يقول

ثم انقضت تلك السنون وأهلها * فكأنها وكأنهم أحلام

(فصل) أما الدولة النورية فسلطانها الملك العادل نور الدين أبو القسم محمود بن عماد الدين اتابك وهو أبو سعيد زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر التركي ويلقب زنكي أيضا بلقب والده قسيم الدولة ويقال لنور الدين بن القسيم وسنتكلم على أخبار أسلافه عند بسط أوصافه وقدمت من اجمال أحواله ما يستدل به على أفعاله ذكر الحافظ أبو القاسم في تاريخه انه ولد سنة احدى عشرة وخمسمائة وان جده آق سنقر ولي حلب وغيرها من بلاد الشام ونشأ أبوه زنكي بالعراق ثم ولي ديار الموصل والبلاد الشامية وظهرت كفايته في مقابلة العدو وعند نزوله على شيزر حتى رجع خائبا وفتح الرها والمعرة وكفرطاب وغيرها من الحصون الشامية واستنقذها من أيدي الكفار فلما انقضى أجله قام ابنه نور الدين مقامه وذلك سنة احدى وأربعين وخمسمائة ثم قصد نور الدين حلب فملكها وخرج غازيا في اعمال تل باشر فافتتح حصونا كثيرة من جملتها قلعة عزاز ومرعش وتل خالد وكسر ابرنس انطاكية وقتله وثلاثة آلاف افرنجي معه وأظهر بحلب السنة وغير البدعة التي كانت لهم في التأذين وقمع بها الرافضة وبنى بها المدارس ووقف الاوقاف واظهر العدل وحاصر دمشق مرتين وفتحها في الثالثة فضبط أمورها وحصن سورها وبنى بها المدارس والمساجد وأصلح طرقها ووسع أسواقها ومنع من أخذ ما كان يؤخذ منهم من المغارم بدار البطيخ وسوق الغنم والكيالة وغيرها وعاقب على شرب الخمر واستنقذ من العدو ثغر بانياس والمنيطرة وغيرهما وكان في الحرب ثابت القدم حسن الرمي صليب الضرب يقدم أصحابه ويتعرض للشهادة وكان يسأل الله تعالى ان يحشره من بطون السباع وحواصل الطير ووقف رحمه الله وقوفا على المرضى ومعلمي الخط والقرآن وساكني الحرمين وأقطع أمراء العرب لئلا يتعرضوا للحجاج وأمر باكمال سور المدينة واستخراج العين التي بأحد وبنى الربط والجسور والخانات وجدد كثيرا من قني السبيل وكذا صنع في غير دمشق من البلاد التي ملكها ووقف كتبا كثيرة وحصل في أسره جماعة من أمراء الفرنج وكسر الروم والارمن والفرنج على حارم وكان عدتهم ثلاثين ألفا ثم فتح حارم وأخذ أكثر قرى انطاكية ثم فتح الديار المصرية وكان العدو قد أشرف على أخذها ثم أظهر بها السنة وانقمعت البدعة وكان حسن الخط كثير المطالعة للكتب الدينيه متبعا للآثار النبويه مواظبا على الصلوات في الجماعات عاكفا على تلاوة القرآن حريصا على فعل الخير عفيف البطن والفرج مقتصدا في الانفاق متحريا في المطاعم والملابس لم تسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضجره واشهى ما اليه كلمة حق يسمعها أو ارشاد الى سنة يتبعها وقال أبو الحسن بن الاثير قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه الى يومنا هذا فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ولا اكثر تحريا للعدل والانصاف منه قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره وجهاد يتجهز له ومظلمة يزيلها وعبادة يقوم بها واحسان يوليه وانعام يسديه ونحن نذكر ما نعلم به محله في أمر دنياه وأخراه فلو كان في امة لافتخرت به فكيف ببيت واحد اما زهده وعبادته وعلمه فانه كان مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها لا يأكل ولا يلبس ولا

يتصرف فيما يخصه الامن ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين احضر الفقهاء واستفتاهم فى أخذ ما يحل له من ذلك فاخذ ما أفتوه بحله ولم يتعده الى غيره ألبتة ولم يلبس قط ماحرمه الشرع من حرير اوذهب اوفضة ومنع من شرب الخمر و بيعها فى جميع بلاده ومن ادخالها الى بلد ما وكان يحد شاربها الحد الشرعى كل الناس عنده فيه سوا

حدثنى صديق لنا بدمشق كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين زوجة نور الدين و وزيرها قال كان نور الدين اذا جاء اليها يجلس فى المكان المختص به وتقوم فى خدمته لا تتقدم اليه الا ان يأذن فى أخذ ثيابه عنه ثم تعتزل عنه الى المكان الذى يختص بها و ينفرد هو تارة يطالع رقاع أصحاب الاشغال أوفى مطالعة كتاب أتاه و يجيب عنهما وكان يصلى فيطيل الصلاة وله أوراد فى النهار فاذا جاء الليل وصلى العشاء ونام يستيقظ نصف الليل و يقوم الى الوضوء والصلاة الى بكرة فيظهر الركوب و يشتغل بمهام الدولة قال وانها قلت عليها النفقة ولم يكفها ما كان قرره لها فارسلتنى اليه اطلب منه زيادة فى وظيفتها فلما قلت له ذلك تنكر واحمر وجهه ثم قال من أين أعطيها ما يكفيها مالها والله لا أخوض نار جهنم فى هواها ان كانت تظن ان الذى بيدى من الاموال لى فبئس الظن انما هى أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ومعدة لفتق ان كان من عدو الاسلام وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها ثم قال لى بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكا وقد وهبتها اياها فلتأخذها قال وكان يحصل منها قدر قليل قال ابن الاثير وكان رحمه الله لا يفعل فعلا الا بنية حسنه كان بالجزيرة رجل من الصالحين كثير العبادة والورع شديد الانقطاع عن الناس وكان نور الدين يكاتبه و يراسله و يرجع الى قوله و يعتقد فيه اعتقادا حسنا فبلغه ان نور الدين يدمن اللعب بالكرة فكتب اليه يقول ما كنت اظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية فكتب اليه نور الدين بخط يده يقول والله ما يحملنى على اللعب بالكرة اللهو والبطر وانما نحن فى ثغر العدو قريب منا و بينما نحن جلوس اذ يقع صوت فنركب فى الطلب ولا يمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا ونهارا شتاء وصيفا اذ لا بد من الراحة للجند ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماما لا قدرة لها على ادمان السير فى الطلب ولا معرفة لها أيضا بسرعة الانعطاف والطاعة لراكبها فى الحرب فهذا والله الذى بعثنى على اللعب بالكرة قال ابن الاثير فانظر الى هذا الملك المعدوم النظير الذى يقل فى أصحاب الزوايا المنقطعين الى العبادة مثله فان من يجئ الى اللعب يفعله بنية صالحة حتى يصير من أعظم العبادات وأكبر القربات يقل فى العالم مثله وفيه دليل على انه كان لا يفعل شيئا الا بنية صالحة وهذه أفعال العلماء الصالحين العالمين وحكى عنه انه حمل اليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة فلم يحضرها عنده فوصفت له فلم يلتفت اليها و بينا هم معه فى حديثها واذا قد جاءه رجل صوفى فامر بها له فقيل له انها لا تصلح لهذا الرجل ولو أعطى غيرها كان أنفع له فقال اعطوها له فانى أرجو ان اعوض عنها فى الاخرة فسلمت اليه فسار بها الى بغداد فباعها بستمائة دينار اميرى أوسبعمائة دينار قلت قرأت فى حاشية هذا المكان من كتاب ابن الاثير بخط ابن المعطى اياها قال أعطاها الشيخ الصوفية عماد الدين أبى الفتح بن حمويه بغير طلب ولا رغبة فبعثها الى همدان فبيعت بألف دينار قال ابن الاثير وحكى لنا الامير بهاء الدين على بن السكرى وكان خصيصا بخدمة نور الدين قد صحبه من الصبا وأنس به وله معه انبساط قال كنت معه يوما فى الميدان بالرها والشمس فى ظهورنا فكلما سرنا تقدمنا الظل فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا فاجرى فرسه وهو يلتفت وراءه وقال لى اتدرى لاى شئ أجرى فرسى وألتفت ورائى قلت لا قال قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا تهرب ممن يطلبها وتطلب من يهرب منها قلت رضى الله عن ملك يفكر فى مثل هذا وقد أنشدت بيتين فى هذا المعنى

مثل الرزق الذى تطلبه * مثل الظل الذى يمشى معك
أنت لا تدركه متبعا * فاذا وليت عنه تبعك

قال ابن الاثير وكان يعنى نور الدين رحمه الله يصلى كثيرا من الليل ويدعو و يستغفر ويقرأ ولا يزال كذلك الى ان يركب

جمع الشجاعة والخشوع لربه * ما أحسن المحراب فى المحراب

قال وكان عارفا بالفقه على مذهب الامام أبى حنيفة رضى الله عنه ليس عنده تعصب بل الانصاف سجيته فى كل شئ وسمع الحديث وأسمعه طلبا للاجر وعلى الحقيقة فهو الذى جدد للملوك اتباع سنة العدل والانصاف وترك

المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك فانهم كانوا قبل ذلك كالجاهلية همة أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه والزم بذلك اتباعه وذويه فاقتدى به غيره منهم واستحيوا ان يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه ومن سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامه قال فان قال قائل كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة وتجبى اليه الاموال الكثيرة فليذكر نبى الله سليمان ابن داود عليهما السلام مع ملكه وهو سيد الزاهدين فى زمانه ونبينا صلى الله عليه وسلم قد حكم على حضرموت واليمن والحجاز وجميع جزيرة العرب من حدود الشام الى العراق وهو على الحقيقة سيد الزاهدين قال وانما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لا خلو اليد عنها قال وأما عدله فانه كان أحسن الملوك سيرة وأعدلهم حكما فمن عدله انه لم يترك فى بلد من بلاده ضريبة ولا مكسا ولا عشرا بل اطلقها رحمه الله جميعها فى بلاد الشام والجزيرة جميعها والموصل واعمالها وديار مصر وغيرها مما حكم عليه وكان المكس فى مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون دينارا وهذا لم تتسع له نفس غيره وكان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائنا من كان القوى والضعيف عنده فى الحق سواء وكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف حاله بنفسه ولا يكل ذلك الى حاجب ولا أمير فلا جرم سار ذكره فى شرق الارض وغربها قال ومن عدله انه كان يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها ويقول نحن شحر لها نمضى أوامرها فمن اتباعه أحكامها انه كان يلعب بدمشق بالكرة فرأى انسانا يحدث آخر ويومى بيده اليه فأرسل اليه يسأله عن حاله فقال لى مع الملك العادل حكومة وهذا غلام القاضى ليحضره الى مجلس الحكم يحاكنى على الملك الفلانى فعاد اليه ولم يتجاسر ان يعرّفه ما قال ذلك الرجل وعاد يكتمه فلم يقبل منه غير الحق فذكر له قوله فالقى الجوكان من يده وخرج من الميدان وسار الى القاضى وهو حينئذ كمال الدين ابن الشهرزورى وأرسل الى القاضى يقول له انى قد جئت محاكما فاسلك معى مثل ما تسلكه مع غيرى فلما حضر ساوى خصمه وحاكمه فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين فقال نور الدين حينئذ للقاضى ولمن حضر هل ثبت له عندى حق قالوا لا فقال اشهدوا انى قد وهبت له هذا الملك الذى قد حاكمنى عليه وهوله دونى وقد كنت أعلم انه لا حق له عندى وانما حضرت معه لئلا يظن انى ظلمته فحيث ظهر ان الحق لى وهبته له قال ابن الاثير وهذا غاية العدل والانصاف بل غاية الاحسان وهى درجة وراء العدل فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة للحق الموافقة معه قلت وهذا مستكثر من ملك متأخر بعد فساد الازمنة وتطرّق الكلمة والا فقد انقاد الى المضى الى مجلس الحكم جماعة من المتقدمين مثل عمر وعلى رضى الله عنهما ثم حكى نحو ذلك عن أبى جعفر المنصور وقد نقلنا ذلك كله فى التاريخ الكبير وفيه عن عبد الله بن طاهر قريب من هذا لكنه أحضر الحاكم عنده ولم يمض اليه وقد بلغنى ان نور الدين رحمه الله تعالى استدعى مرة أخرى بحلب الى مجلس الحكم بنفسه أو نائبه فدخل حاجبه عليه متعجبا واعلمه ان رسول الحاكم بالباب فانكر عليه تعجبه وقام رحمه الله مسرعا ووجد فى أثناء طريقه مامنعه من العبور من حفر جب بعض الحشوش واستخراج ما فيه فوكل من ثم وكيلا وأشهد عليه شاهدين بالتوكيل ورجع قال ابن الاثير ومن عدله انه لم يكن يعاقب العقوبة التى يعاقب بها الملوك فى هذه الاعصار على الظنة والتهمة بل يطلب الشهود على المتهم فان قامت البينة الشرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعدّ فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشرّ ما يوجد فى غير ولايته مع شدّة السياسة والمبالغة فى العقوبة والاخذ بالظنة وأمنت بلاده مع سعتها وقلّ المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر قال وحكى لى من أثق به انه دخل يوما الى خزانة المال فرأى فيها مالا أنكره فسأل عنه فقيل ان القاضى كمال الدين أرسله وهو من جهة كذا فقال ان هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال فى هذه الجهة شئ وأمر بردّه واعادته الى كمال الدين ليردّه على صاحبه فأرسله متولى الخزانة الى كمال الدين فردّه الى الخزانة وقال اذا سأل الملك العادل عنه فقولوا له عنى انه له فدخل نور الدين الخزانة مرة أخرى فرآه فأنكر على النوّاب وقال ألم أقل لكم يعاد هذا المال على أصحابه فذكروا له قول كمال الدين فردّه اليه وقال للرسول قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا المال وأما أنا فرقبتى دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدى الله تعالى يعاد قولا واحدا قال ومن عدله أيضا بعد موته وهو من أعجب ما يحكى ان انسانا كان بدمشق غريبا استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين رحمه الله فلما توفى تعدّى بعض الاجناد على هذا الرجل فشكاه

فلم ينصف فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شق ثوبه وهو يقول يانور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا أين عدلك وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق ما لا يحصى وكلهم يبكي ويصيح فوصل الخبر الى صلاح الدين فقيل له احفظ البلد والرعية والا خرج عن يدك فأرسل الى ذلك الرجل وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه وطيب قلبه ووهبه شيئا وأنصفه فبكى أشد من الاول فقال له صلاح الدين لم تبكي قال أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته فقال صلاح الدين هذا هو الحق وكلما ترى فينا من عدل فمنه تعلمناه قلت ومن عدله انه بنى دار العدل قال ابن الاثير كان نور الدين رحمه الله أول من بنى دار الكشف وسماها دار العدل وكان سبب بنائها انه لما طال مقامه بدمشق وأقام بها أمراؤه وفيهم أسد الدين شيركوه وهو أكبر أمير معه وقد عظم شأنه وعلا مكانه حتى صار كانه شريك في الملك واقتنوا الاملاك وأكثروا تعدى كل واحد منهم على من يجاوره في قرية أو غيرها فكثرت الشكاوى الى كمال الدين فانصف بعضهم من بعض ولم يقدم على الانصاف من أسد الدين شيركوه فانهى الحال الى نور الدين فامر حينئذ ببناء دار العدل فلما سمع أسد الدين بذلك أحضر نوابه جميعهم وقال لهم اعلموا ان نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار الا بسببي وحدي والا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين والله لئن أحضرت الى دار العدل بسبب أحدكم لاصلبنه فامضوا الى كل من بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معه وأرضوه بأي شئ أمكن ولو أتى ذلك على جميع ما بيدي فقالوا له ان الناس اذا علموا هذا اشتطوا في الطلب فقال خروج املاكي عن يدي أسهل علي من ان يرانى نور الدين بعين أني ظالم أو يساوي بيني وبين أحاد العامة في الحكومة فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم وأرضوا خصماءهم وأشهدوا عليهم فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات وكان يجلس في الاسبوع يومين وعنده القاضي والفقهاء وبقي كذلك مدة فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين فقال نور الدين لكمال الدين ما أرى أحدا يشكو من شيركوه فعرفه الحال فسجد شكرا لله تعالى وقال الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا قال ابن الاثير فانظر الى هذه المعدلة ما أحسنها والى هذه الهيبة ما أعظمها والى هذه السياسة ما أسدها هذا مع انه كان لا يريق دما ولا يبالغ في عقوبة وانما كان يفعل هذا لصدقه في عدله وحسن نيته قال وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية اليه فيهما فانه أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأيا وأجودهم معرفة بأمور الاجناد وأحوالهم وبه كان يضرب المثل في ذلك سمعت جمعا كثيرا من الناس لا أحصيهم يقولون انهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه كانما خلق عليه لا يتحرك ولا يتزلزل وكان من أحسن الناس لعبا بالكرة وأقدرهم عليها لم ير جوكانه يعلو على رأسه وكان ربما ضرب الكرة ويجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ويرميها الى آخر الميدان وكانت يده لا ترى والجوكان فيها بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب وكان اذا حضر الحرب أخذ قوسين وتركشين وباشر القتال بنفسه وكان يقول طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها سمعه يوما الامام قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي وهو يقول ذلك فقال له بالله لا تخاطر بنفسك وبالاسلام والمسلمين فانك عمادهم ولئن اصبت والعياذ بالله في معركة لا يبقى من المسلمين أحد الا أخذه السيف وأخذت البلاد فقال ياقطب الدين ومن محمود حتى يقال له هذا قبلي من حفظ البلاد والاسلام ذلك الله الذي لا اله الا هو قال وكان رحمه الله يكثر اعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج خذلهم الله تعالى وأكثر ما ملكه من بلادهم به ومن جيد الرأي ما سلكه مع مليح بن ليون ملك الارمن صاحب الدروب فانه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفرا وحضرا وكان يقاتل به الافرنج وكان يقول انما حملني على استمالته ان بلاده حصينة وعرة المسالك وقلاعه منيعة وليس لنا اليها طريق وهو يخرج منها اذا أراد فينال من بلاد الاسلام فاذا طلب انحجر فيها فلا يقدر عليه فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئا من الاقطاع على سبيل التألف حتى أجاب الى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج قال وحيث توفي نور الدين رحمه الله وسلك غيره غير هذا الطريق ملك المتولي الارمن بعد مليح كثيرا من بلاد الاسلام وحصونهم وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لا يمكن رقعه قال ومن أحسن الاراء ما كان يفعله مع أجناده فانه كان اذا توفي أحدهم وخلف ولدا أقر الاقطاع عليه فان كان الولد كبيرا استبد بنفسه وان كان صغيرا رتب معه رجلا عاقلا يثق اليه فيتولى أمره الى ان يكبر فكان الاجناد يقولون هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عليها وكان ذلك سببا عظيما من الاسباب

الموجبة للصبر فى المشاهد والحروب وكان ايضا يثبت اسماء اجناد كل أمير فى ديوانه وسلاحهم خوفا من حرص بعض الامراء وشحه ان يحمله على ان يقتصر على بعض ما هو مقرّر عليه من العدد و يقول نحن كل وقت فى النفير فاذا لم يكن أجناد كافة الامراء كاملى العدد والعدد دخل الوهن على الاسلام قال ولقد صدق رضى الله عنه فيما قال وأصاب فيما فعل فلقد رأينا ما خافه عيانا قال وأما فعله فى بلاد الاسلام من المصالح مما يعود الى حفظها وحفظ المسلمين فكثير عظيم من ذلك انه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها فمنها حلب وحماه وحمص ودمشق وبارين وشيزر ومنبج وغيرها من القلاع والحصون وحصنها واحكم بناءها واخرج عليها من الاموال ما لا تسمح به النفوس وبنى أيضا المدارس بحلب وحماه ودمشق وغيرها للشافعية والحنفية وبنى الجوامع فى جميع البلاد فجامعه فى الموصل اليه النهاية فى الحسن والاتقان ومن أحسن ما عمل فيه انه فوّض أمر عمارته والخروج عليه الى الشيخ عمر الملا رحمه الله وهو رجل من الصالحين فقيل له ان هذا لا يصلح لمثل هذا العمل فقال اذا وليت العمل بعض أصحابى من الاجناد والكتّاب اعلم انه يظلم فى بعض الاوقات ولا يفى الجامع بظلم رجل مسلم واذا وليت هذا الشيخ غلب على ظنى انه لا يظلم فاذا ظلم كان الاثم عليه لا علىّ قال وهذا هو الفقه فى الخلاص من الظلم وبنى أيضا بمدينة حماه جامعا على نهر العاصى من أحسن الجوامع وأنزهها وجدّد فى غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدّم اما بزلزلة أو غيرها وبنى البيمارستانات فى البلاد ومن اعظمها البيمارستان الذى بناه بدمشق فانه عظيم كثير الخرج جدّا بلغنى انه لم يجعله وقفا على الفقراء حسب بل على كافة المسلمين من غنى وفقير قلت وقد وقفت على كتاب وقفه فلم أر مشعرا بذلك وانما هذا كلام شاع على ألسنة العامة لنفع ما قدّره الله تعالى من مزاحمة الاغنياء للفقراء فيه والله المستعان وانما صرح بأن ما يعزو حوده من الادوية الكبار وغيرها لا يمنع منه من احتاج اليه من الاغنياء والفقراء فخص ذلك بذلك فلا ينبغى ان يتعدّى الى غيره لا سيما وقد صرح قبل ذلك بأنه وقف على الفقراء والمنقطعين وقال بعد ذلك من جاء اليه مستوصفا لمرضه أعطى وروى ان نور الدين رحمه الله شرب من شراب البيمارستان فيه وذلك موافق لقوله فى كتاب الوقف من جاء اليه مستوصفا لمرضه أعطى والله أعلم وبلغنى فى أصل بنائه نادرة وهى ان نور الدين رحمه الله وقع فى أسره بعض أكابر ملوك الفرنج خذلهم الله تعالى فقطع على نفسه فى فدائه مالا عظيما فشاور نور الدين أمراءه فكل أشار بعدم اطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين ومال نور الدين الى الفدى بعد ما استخار الله تعالى فأطلقه ليلا لئلا يعلم أصحابه وتسلم المال فلما بلغ الفرنجى مأمنه مات و بلغ نور الدين خبره فأعلم أصحابه فتعجبوا من لطف الله تعالى بالمسلمين حيث جمع لهم الحسنيين وهما الفدا وموت ذلك اللعين فبنى نور الدين رحمه الله بذلك المال هذا البيمارستان ومنع المال الامراء لانه لم يكن عن ارادتهم كان قال ابن الاثير وبنى أيضا الخانات فى الطرق فأمن الناس وحفظت أموالهم و باتوا فى الشتاء فى كن من البرد والمطر وبنى أيضا الابراج على الطرق بين المسلمين والفرنج وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادى فاذا رأوا من العدوّ أحدا أرسلوا الطيور فأخذ الناس حذرهم واحتاطوا لانفسهم فلم يبلغ العدوّ منهم غرضا وكان هذا من ألطف الفكر وأكثرها نفعا قال وبنى الربط والخانقاهات فى جميع البلاد للصوفية ووقف عليها الوقوف الكثيرة وأدرّ عليهم الادرارات الصالحة وكان يحضر مشايخهم عنده ويقربهم ويدنيهم ويبسطهم و يتواضع لهم فاذا أقبل أحدهم اليه يقوم له مذ تقع عينه عليه و يعتنقه و يجلسه معه على سجادته ويقبل عليه بحديثه وكذلك كان أيضا يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام و يجمعهم عنده للبحث والنظر فقصدوه من البلاد الشاسعة من خراسان وغيرها وبالجملة كان أهل الدين عنده فى أعلى محل وأعظمه وكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك وكانوا يقعون عنده فيهم فينهاهم واذا نقلوا عن انسان عيبا يقول ومن المعصوم وانما الكامل من تعدّ ذنوبه قال وبلغنى ان بعض أكابر الامراء حسد قطب الدين النيسابورى الفقيه الشافعى وكان قد استقدمه من خراسان وبالغ فى اكرامه والاحسان اليه فحسده ذلك الامير فنال منه يوما عند نور الدين فقال له يا هذا ان ما تقول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها وهى العلم والدين وأما أنت واصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت وليست لكم حسنة تغفرها ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك وأنا أحتمل سيآتكم مع عدم حسناتكم أفلا أحمل سيئة هذا ان صحت مع وجود حسنته على انى والله لا أصدّقك فيما تقول وان عدت ذكرته أو غيره بسوء لأؤدّبنك فكف عنه قال ابن الاثير هذا والله هو الاحسان والفعل

الذى ينبغى ان يكتب على العيون بماء الذهب وبنى بدمشق أيضا دارا للحديث ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفا كبيرة وهو أول من بنى دار الحديث فيما علمناه وبنى أيضا فى كثير من بلاده مكاتب للايتام وأجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة وبنى أيضا مساجد كثيرة ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن قال وهذا فعل لم يسبق اليه بلغنى من عارف باعمال الشام ان وقوف نور الدين فى وقتنا هذا وهو سنة ثمان وستمائة كل شهر تسعة آلاف دينار صورية ليس فيها غير ملك صحيح شرعى ظاهرا وباطنا فانه وقف ما انتقل اليه ووزن ثمنه أو ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه قال وأمّا هيبته ووقاره فاليه النهاية فيهما ولقد كان كما قيل شديدا فى غير عنف رقيقا فى غير ضعف واجتمع له ما لم يجتمع لغيره فانه ضبط ناموس الملك مع أجناده وأصحابه الى غاية لا مزيد عليها وكان يلزمهم بوظائف الخدمة الصغير منهم والكبير ولم يجلس عنده أمير من غير ان يأمره بالجلوس الا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف وأما من عداه كاسد الدين شيركوه ومجد الدين بن الدايه وغيرهما فانهم كانوا اذا حضروا عنده يقفون قياما الى ان يأمرهم بالقعود وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم اذا دخل عليه الفقيه أو الصوفى أو الفقير يقوم له ويمشى بين يديه ويجلسه الى جانبه كأنه أقرب الناس اليه وكان اذا أعطى أحدهم شيئا يقول ان هؤلاء لهم فى بيت المال حق فاذا أقنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا وكان مجلسه كما روى فى صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس حكم وحياء لا تؤبن فيه الحرم وهكذا كان مجلسه لا يذكر فيه الا العلم والدين وأحوال الصالحين والمشاورة فى أمر الجهاد وقصد بلاد العدوّ لا يتعدى هذا بلغنى ان الحافظ ابن عساكر الدمشقى رضى الله عنه حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق فرأى فيه من اللغط وسوء الادب من الجلوس فيه ما لا حدّ عليه فشرع يحدّث صلاح الدين كما كان يحدّث نور الدين فلم يتمكن من القول لكثرة الاختلاف من المحدّثين وقلة استماعهم فقام وبقى مدّة لا يحضر المجلس الصلاحى وتكرّر من صلاح الدين الطلب له فحضر فعاتبه صلاح الدين يوسف على انقطاعه فقال نزهت نفسى عن مجلسك فانى رأيته كبعض مجالس السوقة لا يستمع فيه الى قائل ولا يردّ جواب متكلم وقد كنا بالامس نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل كانما على رؤسنا الطير تعلونا الهيبة والوقار فاذا تكلم أنصتنا واذا تكلمنا استمع لنا فتقدّم صلاح الدين الى أصحابه انه لا يكون منهم ما جرت به عادتهم اذا حضر الحافظ قال ابن الاثير فهكذا كانت أحواله جميعها رحمه الله مضبوطة محفوظة وأما حفظ أصول الديانات فانه كان مراعيا لها لا يهملها ولا يمكن أحدا من الناس من اظهار ما يخالف الحق ومتى أقدم مقدم على ذلك أدّبه بما يناسب بدعته وكان يبالغ فى ذلك ويقول نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق والاذى الحاصل منهما قريب أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الاصل قال وحكى ان انسانا بدمشق يعرف بيوسف بن آدم كان يظهر الزهد والنسك وقد كثر أتباعه أظهر شيئا من التشبيه فبلغ خبره نور الدين فاحضره وأركبه حمارا وأمر بصفعه فطيف به فى البلد جميعه ونودى عليه هذا جزاء من أظهر فى الدين البدع ثم نفاه من دمشق فقصد حرّان وأقام بها الى ان مات قال ويسوق الله القصار الاعمار الى البلاد الوخمة قلت وذكر العماد الكاتب فى أوّل كتابه البرق الشامى انه قدم دمشق فى شعبان سنة اثنتين وستين وخمسمائة فى دولة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى وأخذ فى وصفه بكلامه المسجوع فقال

كان ملك بلاد الشام ومالكها والذى بيده ممالكها الملك العادل نور الدين أعف الملوك وأتقاهم وأثقبهم رأيا وأنقاهم وأعدلهم وأعبدهم وأزهدهم وأجهدهم وأظهرهم وأطهرهم وأقواهم وأقدرهم وأصلحهم عملا وأنجعهم أملا وأرجحهم رأيا وأوضحهم رأيا وأصدقهم قولا وأقصدهم طولا وكان عصره فاضلا ونصره واصلا وحكمه عادلا وفضله شاملا وزمانه طيبا واحسانه صيبا والقلوب بمهابته ومحبته ممتليه والنفوس بعاطفته وعارفته متمليه وأوامره ممتثله وحدّه منزه عن الهزل ونوابه فى أمن من العزل ودولته مأمولة مأمونه وروضته مصوبة مصونه والرياسة كامله والسياسة شامله والزيادة زائده والسعادة مساعده والعيشة ناضره والشيعة ناصره والانصاف صاف والاسعاف عاف وأزر الدين قوى وظمأ الاسلام روى وزند النجح ورى والشرع مشروع والحكم مسموع والعدل مولى والظلم معزول والتوحيد منصور والشرك مخذول وللتقى شروق وما للفسوق سوق وهو الذى أعاد رونق الاسلام الى بلاد الشام وقد غلب الكفر وبلغ الضرّ فاستفتح معاقلها واستخلص عقائلها

وأشاع بها شعار الشرع فى جميع الحل والعقد والابرام والنقض والبسط والقبض والوضع والرفع
وكانت للفرنج فى أيام غيره على بلاد الاسلام بالشام قطائع فقطعها وعفى رسومها ومنعها ونصره الله عليهم مرارا
حتى أسر ملوكهم وبدد سلوكهم وصان الثغور منهم وحماها عنهم وأحيا معالم الدين الدوارس وبنى للائمة المدارس
وأنشأ الخانقاهات للصوفية وكثرها فى كل بلد وكثر وقوفها وقرر معروفها وأدنى للوافدين من جنى جنانه قطوفها
وأجد الاسوار والخنادق وأنمى المرافق وحمى الحقائق وأمر فى الطرقات ببناء الربط والخانات فضافت
ضيوف الفضائل وفاضت فيوض الافاضل وهو الذى فتح مصر وأعمالها وانشأ دولتها ورجالها ثم ذكر العماد
فى أثناء حوادث سنة تسع وستين وهى السنة التى توفى فيها نور الدين قال
وفى هذه السنة أكثر نور الدين من الاوقاف والصدقات وعمارة المساجد المهجورة وتعفية آثار الآثام واسقاط كل
ما يدخل فى شبهة الحرام فما أبقى سوى الجزية والخراج وما يحصل من قسمة الغلات على قويم المنهاج قال وأمرنى
بكتب مناشير لجميع أهل البلاد فكتب أكثر من ألف منشور وحسبنا ما تصدق به على الفقراء فى تلك الاشهر فزاد
على ثلاثين ألف دينار وكانت عادته فى الصدقة انه يحضر جماعة من أماثل البلد من كل محلة ويسألهم عمن يعرفون
فى جوارهم من أهل الحاجة ثم يصرف اليهم صدقاتهم وكان له برسم نفقة الخاص فى كل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ
ألفى قرطيس يصرفها فى كسوته ونفقته وحوائجه المهمة حتى أجرة خياطه وجامكية طباخه ويستفضل منه ما يتصدق
به فى آخر الشهر وأما ما كان يهدى اليه من هدايا الملوك وغيرهم فانه كان لا يتصرف فى شئ منه لا قليل ولا كثير بل
اذا اجتمع يخرجه الى مجلس القاضى ويحصل ثمنه ويصرف فى عمارة المساجد المهجورة وتقدم باحصاء ما فى محال
دمشق فأناف على مائة مسجد فأمر بعمارة ذلك كله وعين له وقوفا قال ولو اشتغلت بذكر وقوفه وصدقاته فى كل بلد
لطال الكتاب ولم أبلغ الى أمد ومشاهدة أبنيته الدالة على خلوص نيته يغنى عن خبرها بالعيان ويكفى أسوار البلدان
عن الربط والمدارس على اختلاف المذاهب واختلاف المواهب وفى شرح طوله طول وعمله لله مبرور مقبول وواظب
على عقد مجالس الوعاظ ونصب الكراسى لهم فى القلعة للانذار والاتعاظ وأكبرهم الفقيه قطب الدين النيسابورى
وهو مشغوف ببركة أنفاسه واغتنام كلامه واقتباسه ووفد من بغداد ابن الشيخ أبى النجيب الاكبر فبسط له فى كل
أسبوع المنبر وشاقه وعظه وراقه معناه ولفظه وكذلك وفد اليه من اصبهان الفقيه شرف الدين عبد المؤمن بن شوروة
وما أيمن تلك الايام وأبرك تلك الشتوه قال ولما أسقط نور الدين الجهات المحظوره والشبه المحذورة عزل الشحن
وصرف عن الرعية بصرفهم المحن وقال للقاضى كمال الدين ابن الشهرزورى انظر أنت ذلك واجعل أمور الناس فيها
على الشريعة قال ولم يكن لمال المواريث الحشرية حاصل ولا لديوانه طائل فجعل نور الدين ثلث ما يحصل فيه لكمال
الدين الحاكم فوفره نوابه وكثروه وما كان نور الدين يحاسب القاضى على شئ من الوقوف ويقول أنا قد قلدته على
ان يتصرف بالمعروف وما فضل من مصارفها وشروط واقفها يأمره بصرفه فى بناء الاسوار وحفظ الثغور
وكانت دولته نافذة الاوامر منتظمة الامور قلت وحكى الشيخ أبو البركات الحسن بن محمد بن هبة الله انه حضر مع عمه
الحافظ أبى القاسم رحمه الله مجلس نور الدين لسماع شئ من الحديث فمر فى اثناء الحديث ان النبى صلى الله عليه وسلم
خرج متقلدا سيفا فاستفاد نور الدين أمرا لم يكن يعرفه وقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتقلد السيف يشير
الى التعجب من عادة الجند اذ هم على خلاف ذلك لانهم يربطونه بأوساطهم قال فلما كان من الغد مررنا تحت القلعة
والناس يجتمعون ينتظرون ركوب السلطان فوقفنا ننظر اليه معهم فخرج نور الدين رحمه الله من القلعة وهو متقلد
للسيف وجميع عسكره كذلك فرحمة الله على هذا الملك الذى لم يفرط فى الاقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم بمثل هذه
الحالة لما بلغته رجع بنفسه ورد جنده عن عوايدهم اتباعا لما بلغه عن نبيه صلى الله عليه وسلم فما الظن بغير ذلك من
السنن ولقد بلغنى انه أمر باسقاط القابه فى الدعاء له على المنابر ورأى له وزيره موفق الدين خالد بن القيسرانى
الشاعر فى منامه انه يغسل ثيابه وقص ذلك عليه ففكر ساعة ثم أمره بكتابة اسقاط المكوس وقال هذا تفسير منامك
وكان فى تهجده يقول ارحم العشار المكاس وبعد ان أبطل ذلك استجعل من الناس فى حل وقال والله ما أخرجناها
الا فى جهاد عدو الاسلام يعتذر بذلك اليهم عن أخذها منهم وعلى الجملة كان نور الدين رحمه الله فردا فى زمانه من بين

سائر الملوك ولو لم يكن الا استماعه للموعظة وانقياده لها وان اشتملت على ألفاظ قد أغلظ له فيها قرأت فى تاريخ اربل لشرف الدين ابن المستوفى رحمه الله قال المنتخب الواعظ هو أبو عثمان المنتخب بن أبى محمد بن البحترى الواسطى ورد اربل ووعظ بها وكان له قبول عظيم وسافر الى نور الدين محمود بن زنكى من آق سنقر الى الشام لسبب الغزاة وأنفذ له نور الدين جملة من مال فلم يقبلها ثم ردها عليه أنشدنى له يحيى بن محمد بن صدقة قصيدة عملها فى نور الدين وحلف انه سمعها من لفظه

شعر

مثل وقوفك أيها المغرور ❊ يوم القيامة والسماء تمور
ان قيل نور الدين رحت مسلما ❊ فاحذر بأن تبقى ومالك نور
أنهيت عن شرب الخمور وأنت من ❊ كأس المظالم طائح مخمور
عطلت كاسات المدام تعففا ❊ وعليك كاسات الحرام تدور
ماذا تقول اذا نقلت الى البلى ❊ فردا وجاءك منكر ونكير
وتعلقت فيك الخصوم وأنت فى ❊ يوم الحساب مسحب مجرور
وتفرقت عنك الجنود وأنت فى ❊ ضيق اللحود موسد مقبور
ووددت انك ما وليت ولاية ❊ يوما ولا قال الانام أمير
وبقيت بعد العز رهن حفيرة ❊ فى عالم الموتى وأنت حقير
وحشرت عريانا حزينا باكيا ❊ قلقا ومالك فى الانام مجير
أرضيت ان تحيى وقلبك دارس ❊ عافى الخراب وجسمك المعمور
أرضيت ان يحظى سواك بقربه ❊ أبدا وأنت مبعد مهجور
مهد لنفسك حجة تنجو بها ❊ يوم المعاد لعلك المعذور

قلت ولعل هذه الابيات من أقوى الاسباب المحركة للسلطان فى ابطال تلك المظالم والخلاص من تلك المآثم رضى الله عن الواعظ والمتعظ بسببه ووفق من رام الاقتداء به ونقلت من خط الصاحب العالم كمال الدين أبى القاسم عمر ابن أحمد بن هبة الله بن أبى جرادة فى كتاب تاريخ حلب الذى صنفه وسمعت من لفظه ان نور الدين رحمه الله كان مع أبيه بحلب فلما حاصر أبوه قلعة جعبر وقتل عليها قصد حلب وصعد قلعتها وملكها فى شهر ربيع الاول سنة احدى وأربعين وخمسمائة وأحسن الى الرعية وثبت العدل ورفع الجور وأبطل البدع واشتغل بالغزو وفتح قلاعا كثيرة من عمل حلب كانت بيد الفرنج وحدث بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء أجاز واله منهم أبو عبد الله بن رفاعة بن غدير السعدى المصرى روى عنه جماعة من شيوخنا مثل أبى الفضل أحمد وأبى البركات الحسن وأبى منصور عبد الرحمن بنى أبى عبد الله محمد بن الحسن بن هبة الله الشافعى قال ووقفت على رقعة بخط الوزير خالد بن محمد بن نصر ابن صغير القيسرانى كتبها الى نور الدين وجوابها من نور الدين على رأس الورقة وبين السطور فنقلت جميع ما فيهما قال وكان رحمه الله كتب رقعة يطلب من ابن القيسرانى ان يكتب له صورة ما يدعى له به على المنابر حتى لا يقول الخطيب ما ليس فيه ويصونه عن الكذب وعن ما هو مخالف لحاله ونسخة الورقة بخط خالد

أعلى الله قدر المولى فى الدارين وبلغه آماله فى نفسه وذريته وختم له بالخير فى العاجلة والآجلة بمنه وجوده وفضله ومجده وقف المملوك على الرقعة وتضاعف دعاؤه وابتهاله الى الله تعالى بان يرضى عنه وعن والديه وان يسهل له السلوك الى رضاه والقرب منه والفوز عنده انه على كل شئ قدير رأى المملوك ما يعرضه على العلم الاشرف زاده الله شرفا وهو ان يذكر الخطيب على المنبر اذا أراد الدعاء للمولى اللهم اصلح عبدك الفقير الى رحمتك الخاضع لهيبتك المعتصم بقوتك المجاهد فى سبيلك المرابط لاعداء دينك أبا القاسم محمود بن زنكى بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين فان هذا جميعه لا يدخله كذب ولا زيادة والرأى أعلى وأسمى ان شاء الله تعالى فكتب نور الدين على رأس الرقعة بخطه ما هذا صورته مقصودى ان لا يكذب على المنبر انا بخلاف كل ما يقال لا أفرح بما لا أعمل قلة عقل عظيم الذى كتب جيد أكتب به نسخ حتى نسيره الى جميع البلاد وكتب فى آخر الرقعة ثم تبدأ بالدعاء اللهم أره الحق اللهم اسعده اللهم انصره اللهم وفقه

من هذا الجنس قال وحدثنى والدى قال استدعانا نور الدين أنا وعمك أبو غانم وشرف الدين بن أبى عصرون الى الميدان الاول وأشهدنا عليه بوقف حوانيت على سور حمص فلما اشهدنا عليه التفت الينا وقال بالله انظروا أى شئ علمتموه من أبواب البر والخير دلونا عليه واشركونا فى الثواب فقال شرف الدين بن أبى عصرون والله ما ترك المولى شيئا من أبواب البر الا وقد فعله ولم يترك لاحد من بعده فعل خير الا وقد سبقه اليه وقال قال لى والدى دخل فى أيام نور الدين الى حلب تاجر موسر فات بها وخلف بها ولدا صغيرا ومالا كثيرا فكتب بعض من بحلب الى نور الدين يذكر له انه قد مات ههنا رجل تاجر موسر وخلف عشرين ألف دينار أو فوقها وله ولد عمره عشر سنين وحسن له ان يرفع المال الى الخزانة الى ان يكبر الصغير يرضى منه بشئ ويمسك الباقى للخزانة فكتب على رقعته أما الميت فرحمه الله وأما الولد فانشاه الله وأما المال فثمره الله وأما الساعى فلعنه الله قال وبلغتنى هذه الحكاية عن غير نور الدين أيضا وحدثنى الحاج عمر بن سنقر عتيق شاذبخت النورى قال سمعت الطواشى شاذبخت الخادم يحكى لنا قال كنت يوما أنا وسنقرجا واقفين على رأس نور الدين وقد صلى المغرب وجلس وهو مفكر فكرا عظيما وجعل ينكت بأصبعه فى الارض فتعجبنا من فكره وقلنا ترى فى أى شئ يفكر فى عائلته أوفى وفاء دينه فكانه فطن بنا فرفع رأسه وقال ما تقولان فقلنا ما قلنا شيئا فقال بحياتى قولا لى فقلنا تعجبنا من افراط مولانا فى الفكر وقلنا يفكر فى عائلته أوفى نفسه فقال والله انى أفكر فى وال وليته أمرا من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم أوفيمن يظلم المسلمين من أصحابى وأعوانى وأخاف المطالبة بذلك فبالله عليكم والا فخبزى عليكم حرام لا تريان قصة ترفع الى أو تعلمان مظلمة الا وأعلمانى بها وأرفعاها الى.

وسمعت قاضى القضاة بهاء الدين أبا المحاسن يوسف بن رافع بن تميم قال كان نور الدين ينفذ كل سنة فى شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر الملا شيئا يفطر عليه فكان ينفذ اليه الاكياس فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك فكان نور الدين يفطر عليه وكان اذا قدم الموصل لا يأكل الا من طعام الشيخ عمر الملا قال وكان نور الدين لما صارت له الموصل قد أمر كمشتكين شحنة الموصل ان لا يعمل شيئا الا بالشرع اذا أمره القاضى به وان لا يعمل القاضى والنواب كلهم شيئا الا بامر الشيخ عمر الملا قال وكان لا يعمل بالسياسة وبطلت الشحنكية فى أكابر الدولة وقالوا لكمشتكين قد كثر الدعار وارباب الفساد ولا يجئ من هذا شئ الا بالقتل والصلب فلو كتبت الى نور الدين وقلت له فى ذلك فقال لهم أنا لا أكتب اليه فى هذا المعنى ولا أجسر على ذلك فقولوا للشيخ عمر يكتب اليه فحضر واعنده وذكروا له ذلك فكتب الى نور الدين وقال له ان الدعار والمفسدين وقطاع الطريق قد كثروا ويحتاج الى نوع سياسة فمثل هذا لا يجئ الا بقتل وصلب وضرب واذا أخذ مال انسان فى البرية من يجئ يشهد له قال فقلب نور الدين كتابه وكتب على ظهره ان الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم وشرع لهم شريعة وهو أعلم بما يصلحهم وان مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال فيها ولو علم ان على الشريعة زيادة فى المصلحة لشرعه فما لنا حاجة الى زيادة على ما شرعه الله تعالى قال فجمع الشيخ عمر الملا أهل الموصل وأقرأهم الكتاب وقال انظروا فى كتاب الزاهد الى الملك وكتاب الملك الى الزاهد وسمعت صقر بن يحيى بن صقر المعدل يقول سمعت مقلدا يعنى الدولعى يقول لما مات الحافظ المرادى وكنا جماعة الفقهاء قسمين العرب والاكراد فمنا من مال الى المذهب وأردنا ان نستدعى الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون وكان بالموصل ومنا من مال الى علم النظر والخلاف وأرادوا ان يستدعى القطب النيسابورى وكان قد جاء وزار البيت المقدس ثم عاد الى بلاد العجم فوقع بيننا كلام بسبب ذلك ووقعت فتنة بين الفقهاء فسمع نور الدين بذلك فاستدعى جماعة الفقهاء الى القلعة بحلب وخرج اليهم مجد الدين يعنى ابن الداية عن لسانه وقال لهم نحن ما أردنا ببناء المدارس الا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة واظهار الدين وهذا الذى جرى بينكم لا يحسن ولا يليق وقد قال المولى نور الدين نحن نرضى الطائفتين ونستدعى شرف الدين بن أبى عصرون وقطب الدين النيسابورى فاستدعاهما جميعا وولى مدرسة ابن أبى عصرون لشرف الدين ومدرسة النفرى لقطب الدين قال وعلقت أيضا من خط فقيه كان معيدا بالنظامية يقال له أبو الفتح بنجة بن أبى الحسن بن بنجة الاشترى وكان ممن ورد دمشق وجمع لنور الدين سيرة مختصرة قال كان نور الدين يقعد فى الاسبوع أربعة أيام أو خمسة أيام فى دار العدل للنظر فى أمور الرعية وكشف الظلامة لا يطلب بذلك درهما ولا دينارا ولا زيادة ترجع الى خزانته وانما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله وطلبا للثواب والزلفى فى الآخرة

ويأمر بحضور العلماء والفقهاء ويأمر بازالة الحاجب والبواب حتى يصل اليه الضعيف والقوى والفقير والغنى ويكلمهم باحسن الكلام ويستفهم منهم بأبلغ النظام حتى لا يطمع الغنى فى دفع الفقير بالمال ولا القوى فى دفع الضعيف بالقتال ويحضر فى مجلسه العجوز الضعيفة التى لا تقدر على الوصول الى خصمها ولا المكالمة معه فيأمر بمساواته لها فتغلب خصمها طمعا فى عدله ويعجز الخصم عن دفعها خوفا من عدله فيظهر الحق عنده فيجرى الله تعالى على لسانه ما هو موافق الشريعة ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الامور الغامضة فلا يجرى فى مجلسه الا محض الشريعة قال وأما زمانه فهو مصروف الى مصالح الناس والنظر فى أمور الرعية والشفقة عليهم وأما فكره ففى اظهار شعار الاسلام وتأسيس قاعدة الدين من بناء المدارس والربط والمساجد حتى ان بلاد الشام كانت خالية من العلم وأهله وفى زمانه صارت مقر العلماء والفقهاء والصوفية لصرف همته الى بناء المدارس والربط وترتيب أمورهم والناس آمنون على أموالهم وأنفسهم ولو لم يكن من هذه الخصال الا ما علم منه وشاع انه اذا وعد وفى واذا أوعد عفا واذا تحدث بشئ وقف عليه ولا يخالف قوله ولا يرجع عن لفظه ومنطقه لكفى ولا يجرى فى مجلسه الفسق والفجور والشتم والغيبة والقدح فى الناس والكلام فى اعراضهم كما يجرى فى مجالس سائر الملوك ولا يطمع فى أخذ أموال الناس ولا يرضى بان يأخذ أحد من أموال الشريعة شيئا بغير حق قال وبلغنا بأخبار التواتر عن جماعة يعتمد على قولهم انه أكثر الليال يصلى ويناجى ربه مقبلا بوجهه عليه ويؤدى الصلوات الخمس فى أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها قال وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم ممن دخل اوديار القدس للزيارة حكاية عن الكفار انهم يقولون ابن القسيم له مع الله سر فانه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره وانما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل فانه يصلى بالليل ويرفع يده الى الله ويدعو فالله سبحانه وتعالى يستجيب له دعاءه ويعطيه سؤله وما يرد يده خائبة فيظفر علينا قال فهذا كلام الكفار فى حقه قال وحدثنا الشيخ داود المقدسى خادم قبر شعيب على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام قال حضرت فى دار العدل فى شهر ربيع الاول سنة ثمان وخمسين فقام رجل وادعى على الملك العادل ان أباه أخذ من ماله شيئا بغير حق قال وأنا مطالب لك بذلك فقال نور الدين أنا ما أعلم ذلك فان كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها وأنا أرد اليك ما يخصنى فانى ما ورثت جميع ماله كان هناك وارث غيرى فمضى الرجل ليحضر البينة فقلت فى نفسى هذا هو العدل قال وحضر رجل زاهد فيه سمة الخير معروف بالصلاح والسداد فسألت عنه فقالوا أخو الشيخ أبى البيان وكان قد اودع عند أخيه أبى البيان وديعة وقد توفى فادعى المودع على هذا الشيخ انه يعلم بالوديعة وطالبه بالرد عليه فأنكر هذا الرجل علمه بالوديعة فأوجب عليه القاضى كمال الدين حكم الشرع ان يحلف انه لا علم له بهذه الوديعة فحلف على ذلك فجعل المودع يشنع عليه ويقول انه حلف كاذبا ويتكلم فى عرضه ويقول فى حقه من التخمس وغيره فحضر عند الملك العادل شاكيا منه وذاكرا سيرته وطريقته ومن الذى يقدر ان يقول فى حق هذا ويتعرض بالتماسه من الملك العادل والتقدم باحضاره والانكار عليه فيما يقول فى حقه فلما فرغ من الكلام ورمى ما كان فى جعبته من دعوى الحقيقة والطريقة وكان حاصله التماس الانكار عليه فقال الملك العادل أليس ان الله تعالى يقول فى كتابه واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما فاذا كان هو يجهل عليك ويقول فى حقك بالجهل ما لا يجوز فيجب عليك ان لا تعمل معه مثل معاملته فتكون مثله فكانك قابلت الاساءة بالاساءة ومن حقك ان تقابل الاساءة بالاحسان فقلت فى نفسى الحق ما قال الملك العادل أما قراء هذا فى كتب التفاسير فثبت فى قلبه وأجراه الله على لسانه وأنطقه به قال وحضر جماعة من التجار وشكوا ان القراطيس كان ستون منها بدينار وتزيد وتنقص فيخسرون فسأل الملك العادل عن كيفية الحال فذكروا ان عقد المعاملة على اسم الدينار ولا يرى الدينار فى الوسط وانما يعدون القراطيس بالسعر تارة ستين بدينار وتارة سبعة وستين بدينار وأشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين ان يضرب الدينار باسمه وتكون المعاملة بالدنانير الملكية وتبطل القراطيس بالكلية فسكت ساعة وقال اذا ضربت الدينار وأبطلت المعاملة بالقراطيس فكانى خربت بيوت الرعية فان كل واحد من السوقة عنده عشرة الاف وعشرون ألف قرطاس أى شئ يعمل به فيكون سببا لخراب بيته قال فأى شفقة تكون أعظم وأكثر من هذا على الرعية قال وحضر صبى وبكا عند الملك العادل وذكر ان أباه محبوس على أجرة حجرة من حجر الوقف فسأل عن حاله

فقالوا هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصوفي وهو رجل زاهد قاعد في حجرة للوقف وليس له قدرة على الاجرة وقد حبسه وكيل الوقف لانه اجتمع عليه أجرة سنة فسأل الملك العادل كم أجرة السنة فقالوا مائة وخمسون قرطاسا وذكروا سيرته وطريقته وفقره فرق له وأنعم عليه وقال نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه الى الاجرة ويقعد فيها وتقدم بذلك وباخراجه من الحبس فوصل الى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح حتى كأن الانعام كان في حقه أخبرنا افتخار الدين عبد المطلب الهاشمي قال كان عند القاضي تاج الدين عبد الغفور بن لقمان الكردري قاضي حلب غلام قد جعله لمجلس الحكم يدعى سويدا يحضر الخصوم الى مجلس الحكم فحضر بعض التجار وادعى ان له على نور الدين دعوى فقال الكردري لسويد المذكور امض الى نور الدين وادعه الى مجلس الحكم وعرفه انه حضر شخص يطلب حضوره وكان نور الدين في الميدان فجاء سويد الى باب الميدان فخرج اسماعيل الخزندار فوجده مقدم سويد اليه وقال سيرني تاج الدين يعني القاضي وذكر انه حضر تاجر وذكر ان له دعوى على المولى نور الدين وقد أنفذني تاج الدين وقال لي كذا وكذا فضحك اسماعيل الخزندار ودخل على نور الدين ضاحكا وقال له مستهزئا يقوم المولى فقال الى أين فقال حضر سويد غلام تاج الدين الكردري وقال ان تاج الدين أرسله يطلب المولى الى مجلس الحكم فأنكر نور الدين على اسماعيل استهزاءه وقال تستهزئ بطلبي الى مجلس الحكم وقال نور الدين يحضر فرسي حتى نركب اليه السمع والطاعة قال الله تعالى انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا وأطعنا ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة فاستدعى سويدا وقال له امض الى القاضي تاج الدين وسلم عليه وقل له انى جئت الى هاهنا امتثالا لامر الشرع واحتاج في الحضور الى مجلسه الى سلوك هذه الازقة وفيها الاطيان وهذا وكيلي يسمع الدعوى وان توجهت على يمين أحضر ان شاء الله تعالى قال فحضر الوكيل وسمع الدعوى وتوجهت اليمين فقال الكردري قد توجهت اليمين فليحضر فلما بلغ نور الدين ذلك وعلم انه لا مندوحة عن حضور مجلسه لليمين استدعى ذلك التاجر وأصلح الامر فيما بينه وبينه وأرضاه وسمعت قاضي القضاة بهاء الدين يقول حكى لي السلطان الملك الناصر صلاح الدين قال أرسلني الملك العادل نور الدين الى عمي أسد الدين شيركوه وكان لا يفعل شيئا الا بمشورته فقال امض وقل لاسد الدين قد خطر في بالي ان أبطل هذه الضمانات باسرها والمؤن والمكوس واخذ رأيه في ذلك قال فجئت اليه وأنهيت ما قال لي فقال امض وقل له يا مولانا اذا فعلت ذلك فالاجناد الذين أرزاقهم على هذه الجهات من أين تعطيهم وتحتاج اليهم للغزاة وخروج العساكر قال السلطان صلاح الدين فقلت لعمي هذا أمر قد ألهمه الله اياه فساعده عليه فصاح في وقال امض اليه وقل له ما أقول لك قال فعدت الى نور الدين فأنهيت اليه ما قال عمي فقال امض اليه وقل له اذا كنا نغزو من هذه الجهات نتركها ونقعد ولا نخرج قال فعدت الى عمي وقلت ما قال فقال قل له ان تركوك تقعد فجيد هو فراجعته في ان لا يثبطه عن ذلك فصاح في وقال امض اليه وقل له ما اقول لك فجئت اليه وقلت له ذلك فترك ذلك مدة ثم أمضى ما كان عزم عليه قال لي صقر بن يحيى بلغني ان موفق الدين خالد رأى في النوم كأن نور الدين دفع اليه ثيابه ليغسلها فقص منامه على نور الدين فتمعر وجه نور الدين فخجل موفق الدين وبقي أياما على غاية من الخجل فاستدعاه يوما نور الدين وقال تعال قد آن لك ان تغسل ثيابي اقعد واكتب باطلاق المؤن والمكوس والاعشار واكتب للمسلمين انى قد رفعت عنكم ما رفعه الله تعالى عنكم واثبت عليكم ما أثبته الله عليكم قال فكتب موفق الدين توقيعا سمعت خليفة ابن سليمان بن خليفة الفقيه يقول سمعت أبي يقول لما كسر نور الدين يعني كسرة البقيعة تكلم البرهان البلخي فقال أتريدون ان تنصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور كلا وكلا ما مع هذا فلما سمعه نور الدين قام ونزع عنه ثيابه تلك وعاهد الله تعالى على التوبة وشرع في ابطال المكوس الى ان خرج في نوبة حارم وكسر الافرنج سمعت صديقنا شمس الدين اسماعيل بن سودكين بن عبد الله النوري وكان ابوه أحد مماليك نور الدين فاعتقه يقول سمعت والدي يقول كان نور الدين محمود رحمه الله يلبس في الليل مسحا ويقوم يصلي فيه قطعة من الليل قال وكان يرفع يديه الى السماء ويبكي ويتضرع ويقول ارحم العشار المكاس قال لي قاضي القضاة بهاء الدين سير نور الدين الى بغداد كتابا يعلم الخليفة بما أطلق وبمقداره ما أطلق ويسأله ان يتقدم الى الوعاظ بأن يستحلوا من التجار ومن جميع المسلمين له في حل مما كان قد وصل اليه يعني من أموالهم فتقدم بذلك وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك حدثني رضي الدين

أبو سالم عبد المنعم بن المنذر ان نور الدين حين خرج لاخذ شيزر خرج أبو غانم بن المنذر صحبته فأمره نور الدين بكتابة منشور باطلاق المظالم بحلب ودمشق وحمص وحرّان وسنجار والرحبة وعزاز وتل باشر وعداد العرب فكتب عنه توقيعا نسخته

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقرب به الى الله سبحانه وتعالى صالحا وأطلقه مسامحا لمن علم ضعفه من الرعايا رعاهم الله لضعفهم عن عمارة ما أخربته أيدى الكفار أبادهم الله عند استيلائهم على البلاد وظهور كلمتهم فى العباد رأفة بالمسلمين المتاغرين ولطفا بالضعفاء المرابطين الذين خصهم الله سبحانه بفضيلة الجهاد واستحنهم بمجاورة أهل العناد اختبار الصبرهم واعظاما لاجرهم فصبروا احتسابا وأجزل الله لهم أجرا وثوابا انما يوفى الصابرون أجورهم بغير حساب وأعاد عليهم ما اغتصبوا عليه من املاكهم التى أفاء الله عليهم بها من الفتوح العمريه وأقرّها فى الدولة الاسلاميه بعد ما طرأ عليها من الظلمة المتقدّمين واسترجعه بسيفه من الكفرة الملاعين فطمس عنهم بذلك معالم الجور وهدم أركان التعدّى وأقرّ الحق مقرّه لقوله تعالى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها والله يضاعف لمن يشاء ثم لما أعانه الله بعونه وأيده بنصره وقمع به عادية الكفر وأظهر بهمته شعائر الاسلام وأظفره بالفئة الطاغيه وأمكنه من ملوكها الباغيه فجعلهم بين قتيل غير مقاد وهارب ممنوع الرقاد وآخرين مقرنين فى الاصفاد هذا عطاؤنا فامنن أو امسك بغير حساب وان له عندنا لزلفى وحسن مآب علم ان الدنيا فانيه فاستخدمها للآخرة الباقيه واستبقى ملكه الزائل بأن قدّمه أمامه وجعله ذخرا للمعاد فالتقوى مادّة داره اذا انقطعت المواد وجادّه واضحه حين يلتبس الجواد يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله فصفح لكافة المسافرين وجميع المسلمين بالضرائب والمكوس وأسقطها من دواوينه وحرّمها على كل متطاول اليها ومتهافت عليها تجنبا لا ثمها واكتسابا لثوابها فكان مبلغ ما سامح به واطلقه وأنفذ الامر فيه اتباعا لكتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فى كل سنة من العين مائة ألف وستة وخمسون ألف دينار جهة ذلك حلب خمسون ألف دينار عزاز عن مكس جدّدته الفرنج خذلهم الله على المسافرين عشرة آلاف دينار تل باشر أحد وعشرين ألف دينار المعرّة ثلاثة آلاف دينار دمشق المحروسة لما استنجد به أهلها واستصرخ من فيها خوفا على نفسهم وأموالهم من استيلاء العدوّ وضعفهم عن مقاومة ما كان يؤخذ منهم فى كل سنة وهو رسم يسمونه القسم عشرون ألف دينار حمص ستة وعشرين ألف دينار حرّان خمسة آلاف دينار سنجار ألف الرحبة عشرة آلاف دينار عداد العرب عشرة آلاف دينار وما وقفه وتصدّق به وأجراه فى سبل الخيرات ووجوه البرّ والصدقات تقدير ثمنه مائتا ألف دينار وتقدير الحاصل من ارتفاعه فى كل سنة ثلاثون ألف دينار من ذلك ما وقفه على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وأئمتها ومدرّسيها وفقهائها وما وقفه على دور الصوفية والربط والجسور والبيمارستانات والجوامع والمساجد والاسوار وما وقفه على السبيل فى طريق الحجاز وما وقفه على فكاك الاسرى وتعليم الايتام ومقرّ الغربا وفقراء المسلمين وما وقفه على الاشراف العلويين والعباسيين وما ملكه لجماعة من الاولياء والغزاة والمجاهدين هذا جميعه سوى ما أنعم به على أهل الثغور حرسها الله تعالى من أملاكهم التى تقدّم ذكرها فانه يضاهى هذا المبلغ وزيادة عليه جعل ذلك ذريعة عند الله وتقرّبا اليه مضافا الى ما أنفقه فى الغزاة والجهاد واستئصال شافة أهل الكفر والعناد من خزائنه المعموره وأمواله الموروثة المذخوره طلبا لما عند الله والله عنده حسن الثواب فالواجب على كل امام عدل وسلطان قادر ان يمدّه ويودّه ويشدّ عضده ويقوّى عزمه وينفذ حكمه وعلى كل مسلم ان يواصله بالدعاء آناء الليل وأطراف النهار كتبه خادم دولته وغذى نعمته عبد الرحمن بن عبد المنعم بن رضوان بن عبد الواحد بن محمد بن المنذر الحلبى غفر الله له ورحمه ورضى عنه الى كل من يصل اليه من أئمة الدين وفقهاء المسلمين وأصحاب الزوايا المتعبدين وكافة التجار والمسافرين أحسن الله توفيقهم وسدّد الى اغراض الخير تفويقهم ليشعروا بذلك من حضرهم من التجار والمتردّدين اليهم من السفار ليعرفوا قدر ما أنعم الله به عليه وعليهم ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم ويعدوه بأدعيتهم ويبرؤا ذمّته مما سبق من أخذ مؤنتهم فانه لم يصرف ذلك الا فى خدمة وجه برّ وتجهيز جيش ومعونة مجاهد وردع كافر ومعاند فهم شركاؤه فى الثواب

قال لى رضى الدين أبو سالم بن المنذر فلما وقف نور الدين على قوله ويرى نمتمته مما سبق استحسن ذلك كثيرا ووعده باقطاع حسن واتفق موته بعد ذلك قلت ونقلت من خط الشيخ الامين أبى القاسم عبد الرحمن بن الحسين ابن الخضر ابن الحسين بن عبدان الازدى الدمشقى وقف المولى نور الدين بستان الميدان سوى الغيضة التى من قبليه بعد عمارته واصلاح ما يحتاج اليه على تطبيب المساجد التى يأتى ذكرها وهى جامع دمشق المحروسة جامع قلعة دمشق مدرسة الحنفية التى جدّدها نور الدين مسجد ابن عطية داخل باب الجابية مسجد بن لبيد بالفسقار مسجد سوق الرماحين المسجد المعلق بسوق الصاغه مسجد دار البطيخ المعلق مسجد العباسى بسوق الاحد مسجد نور الدين بجوار بيعة اليهود جامع الصالحيين بجبل قاسيون يبتاع بذلك عود وطيب ويفرّق على هذه الاماكن النصف للجامع بدمشق والنصف الثانى يقسم على احد عشر جزأ جزآن للمدرسة وتسعة أجزاء لتسعة المساجد الباقية لكل مسجد جزءا واحدا تطيب هذه الاماكن فى الاوقات الشريفة ومواسم الاجتماعات وليالى شهر رمضان والاعياد وأيام الجمع وقت عقد الجمعة فى الجوامع وليالى الجمعة والخميس والاثنين ونقلت من خطه أيضا ان نور الدين رحمه الله حضر عنده بقلعة دمشق يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة القاضى زكى الدين أبو الحسن على بن محمد بن يحيى القرشى والفقهاء الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون والخطيب عز الدين أبو البركات بن عبد والامام عز الدين أبو القاسم على بن الماسح الشافعيون وشرف الدين أبو القاسم عبد الوهاب بن عيسى المالكى وشرف الاسلام نجم الدين عبد الوهاب الحنبلى ورضى الدين أبو غالب عبد المنعم بن محمد بن أسد التيمى رئيس دمشق ونظام الدين أبو الكرام المحسن بن أبى المضا متولى الوزارة بدمشق والاعيان من شهود العدالة بدمشق وهم عبد الصمد بن تميم وعبد الواحد بن هلال والصائن أبو الحسين وغيرهم فسألهم نور الدين عن المضاف الى أوقاف المسجد الجامع بدمشق من المصالح التى ليست وقفا عليه وان يظهر كل واحد منهم ما يعلمه من ذلك ليعمل به ويقع الاعتماد عليه وقال لهم ليس يجوز لاحد منكم ان يعلم من ذلك شيئا الا ويذكره ولا ينكر شيئا مما يقوله غيره الا وينكره والساكت منكم مصدّق للناطق ومصوّب لقوله وليس العمل الا على ما تتفقون عليه وتشهدون به وعلى هذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يجتمعون ويتشاورون فى مصالح المسلمين فكل من الحاضرين شكره على ما قصده وأثنى عليه ودعا له بالبقاء ثم أمر نور الدين متولى أوقاف الجامع والمساجد والبيمارستان وقنى السبيل وما يجرى مع ذلك ان يقرأ عليه بحضرمن المذكورين ضريبة الاوقاف موضعا موضعا ليفرد ما يعلمون انه للمصالح دون الوقف فافتتح بالسوق المستجدّ تحت المأذنة الغربية بجوار البيمارستان فقال الصائن وابن تميم وابن هلال هذا السوق بكماله لمصالح المسلمين وليس من وقف الجامع لانه أحدث فى طريق المسلمين وقد صرف فى الجامع من أجوره أوفى مما غرم على عمارته من وقفه فصدّقهم الحاضرون على ما شهدوا به ومبلغ ذلك خمس وعشرون عضادة ثم عين للمصالح أيضا مافى زيادة الجامع القبلية وزيادة باب البريد فى الصف القبلى والشامى من العضائد والحوانيت والحجر التى طباقها وطباق الطريق بحضرتها وجميع بيوت الخضراء من قبلة الجامع والفرن المستجدّ بها ودار الخيل والمساكن والحوانيت المجاورة لدار الخيل وحانوت الخواصين فى الصف الغربى واثنا عشر حانوتا متلاصقات فى الصف الشرقى تعرف بالمعتصميات ونصف حانوت والفرجة المستجدّة بحضرة دار الوكالة الى سوق على وعدّتها ثلاثة عشر حانوتا ومصطبة وثلاث حوانيت فى الصف الشامى من سوق على ملصق الفرجة من شرقها وحانوت بالفسقار فى الصف القبلى يعرف بسكنى ثعلب الفقاعى وحوانيت اللبادين والتى بحضرة الفوارة وتحت اللبادين وقيسارية العقيقى بسوق الاحد وتعرف بدار الشجرة وحانوتان فى الصف الشرقى بحضرة فندق الزيت من غرب درب التمارين وحانوت بقنطرة الشماعين فى الصف الشامى بحضرة البياطرة وقطعة بجوار المأمونية من غربها والعضائد التى فى الصف الشامى من سوق الاحد وهى خمس عشرة عضادة وستة أسهم من طاحونة السقيفة وذلك كله بعضه ميراث عن بنى أمية كالخضراء ودار الخيل وبعضه اشترى بمال الوقف والمصالح وبعضه أخذ ممن باد أهله الموقوف عليهم ولم يكن له مال وبعضه أحدث فى الطريق فلما شهدوا بصحة جميع ما ذكروا ان منافع ذلك وأجوره جارية فى المصالح قال نور الدين ان أهم المصالح سدّ ثغور المسلمين وبناء السور المحيط بدمشق والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم فصوّبوا ما أشار اليه وشكروه ثم

سألهم عن فواضل الاوقاف هل يجوز صرفها فى عمارة الاسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين فأفتى شرف الدين عبد الوهاب المالكى بجواز ذلك ومنهم من روى فى مهلة النظر وقال الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون الشافعى لا يجوز ان يصرف وقف مسجد الى غيره ولا وقف معين لجهة الى جهة غير تلك الجهة واذا لم يكن بد من ذلك فليس طريقة الا ان يقترضه من اليه الامر فى بيت مال المسلمين فيصرفه فى المصالح ويكون القضاء واجبا من بيت المال فوافقه الائمة الحاضرون معه على ذلك ثم سأل ابن أبى عصرون نور الدين هل أنفق شئ قبل اليوم على سور دمشق وعلى بناء الكلاسة من شأم الجامع وعلى انشاء السقف المقرنص تحت النسر بالجامع وعلى الرصاص المعمول على سطح الرواق الشامى من الجامع وسائر العمارات المتعلقة بالجامع المعمور بغير اذن مولانا وهل كان الا مبلغا للامر العالى فى عمل ذلك فقال نور الدين لم ينفق ذلك ولا شئ منه الا باذنى وأنا أمرت به وبفتح المشهدين من الجامع المعمور اللذين كانا مخزنين وكتب مبلغا عنى ومؤديا أمرى قلت وقد رأيت المحضر الذى كتب فيه صورة ما جرى فى ذلك المجلس وهو مشتمل على فوائد حسنة وتأكيد لما نقل من سيرة هذا الملك فى وقوفه مع أوامر الشرع وفى ذلك المحضر خطوط لجماعة الحاضرين وصورة ما كتبه المالكى المفتى (حضرت المجلس المذكور عمره الله وزينه بالعدل أبدا ما عاش صاحبه وشهدت على ما تضمنه من المشورة المباركة وما نسب الى الجماعة من الشهادة بالمواضع المشهورة كما نسب اليهم وقد أخل بذكر دار الحجارة وقد ذكروها فى المصالح المشهورة وما نسب الىّ من الفتوى فقد كنت قيدته بالحاجة وفراغ بيت المال أو ضعفه عن القيام بما يحتاج اليه المسلمون ومهماتهم الدينية كتبه عبد الوهاب بن عيسى بن محمد المالكى)

(فصل) وقد مدح نور الدين رحمه الله تعالى باشعار كثيرة وأوصافه فوق ما مدح به وكان فى أول دولته شاعرا زمانهما أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير وأبو الحسن أحمد بن منير ولهما فيه اشعار فائقة سيأتى جملة منها فى مواضعها وقد رأيت ان أقدم منها شيئا هنا قرأت فى ديوان محمد بن نصر القيسرانى (كتبت الى نور الدين سلام الله وحنانه ورأفته وامتنانه وروحه وريحانه على من عصم بعز العواصم وخصم بحجته الدهر المخاصم والجم بهيبته العائب والواصم الذى انتضى فى سبيل الله سيوف الجهاد وارتضى بعز سلطانه شعار العباد والزهاد واهتدى الى طاعة الله وليس غير الله من هاد ومن أصبحت أطراف البلاد أوطاد المملكته ومعاقل الكفار فى عقال ملكته ومركز الشكر مراكز أعلامه وألويته ومن عادت به ثغور الشام ضاحكة عن ثغور النصر وممالك الاسلام متوجة بتيجان الفخر وصعاب الامور منقادة اليه بازمة القهر ومن رأى الحكم دارسة فبنى مدارسها والهمم يابسة فسقى منابتها ومغارسها والمنابر شامسة فأمكن من صهواتها فوارسها ومن عمر ربع السنن بعدما عفى وأنقذ من الفتن من كان منها على شفا ومن نشر اعلام الفضل وأنشر بعد الوفاة أيام العدل ومن أنار بوجهه الايمان وأخذ الناس به من الزمان توقيع الامان شعر

ذو الجهاد ين من عدوّ ونفس ❁ فهو طول الحياة فى هيجاء
فهو المالك الذى ألزم الناس ❁ سلوك المحجة البيضاء
قد هديت الملوك للعدل لما ❁ سرت فى الناس سيرة الخلفاء
قاسما ما ملكت فى الناس حتى ❁ لقسمت التقى على الاتقياء
شيم الصالحين فى جنن الترك ❁ وكم من سكينة فى قباء
أنت حينا تقاس بالاسد الورد ❁ وحينا تعدّ فى الاولياء
صاغك الله من صميم المعالى ❁ حيث لا نسبة سوى الالاء
وكان القباء منك لماضىّ ❁ من الطهر مسجد بقباء
أنت الا تكن نبيا فانك ❁ الا خلائق الانبياء
رأفة فى شهامة وعفاف ❁ فى اقتدار وسطوة فى حياء
وجمال بمنطق بجلال ❁ وكمال متوج ببهاء
واذا ما الملوك خافت سهام الذ ❁ م زرّت عليك درع الثناء
اعجب الناس منك انك فى الحر ❁ ب شهاب الكتيبة الشهباء

وكان السيوف من عزمك الما ❊ ضى أفادت ماعندها من مضاء
ولعمرى لواستطاع فداك الـ ❊ قـوم بالامهات والأباء

وله فيه شعر

لله عزمك أى سيف وغى ❊ طبعت مضاربه على القهر
مازفت الحرب العوان به ❊ الا انجلت عن معقل بكر
هل وجه نورالدين غيرسنى ❊ صدع الدجى عن نجله البدر
ملك مهابته طليعته ❊ أبدا امام جيوشه تسرى
كم فل كيدهم بصاعقة ❊ شغلت قلوبهم عن الفكر
تركت حصونهم سجونهم ❊ فالقوم قبل الاسرفى أسر
عصم العواصم فهى ضاحكة ❊ تجلو الظبى ثغرا على الثغر
فاذا سرايا خيله قفلت ❊ نهضت سرايا الخوف والذعر
ورمى القلاع بمثل جندلها ❊ حتى استكان الصخر بالصخر
ياسائلى عن نهج سيرته ❊ هل غير مفرق هامه الفجر
عال حقيق من تأمله ❊ ان يحيى العمرين بالذكر
وشهامة فى الله خالصة ❊ عقدت عليه تمائم الاجر
وندى يد ماضر واردها ❊ ان لا يبيت مجاور البحر
هذا المخيم فى ذرى حلب ❊ وثناؤه أبدا على ظهر

وله فيه وقد وصف داره

دار تغار الشمس فى أفق ❊ من حسنها والشمس مغيار
يزأر فيها ضيغم ماله ❊ غير سيوف الهند أظفار
تمسى وتضحى وهو جارلها ❊ والله ذوالعرش له جار
لسيفه الباتر من دهره الـ ❊ جائر ما يهوى و يختار
قد ملأ الاسفار من ذكره ❊ نشرله فى الارض إسفار
حمد يضوع الجو من طيبه ❊ كأنما راويه عطار
ان خطرت فى قلبه خطرة ❊ أجابها ماض وخطار
وان دعاداعيه يوم الوغى ❊ سيوفه لبته أقدار
وانما صارمه مرسل ❊ له من التأييد أنصار
يامالك الدنيا ولكنها ❊ دنيا لها فى الدين آثار
ويا جوادا ما لا لائه ❊ غير قضاء الحمد مضمار

وله فيه أيضا

تدارك ملة العربى ذبا ❊ الى ان عده منه معد
وحل ذرى العواصم وهى نهبى ❊ فأجلى الشرك حتى ليس ضد
ثنى يده عن الدنيا عفافا ❊ ومال بها عن الاموال زهد
رأى حط المكوس عن الرعايا ❊ فأهدر قبل ما أنشاه بعد
ومد لها رواق العدل شرعا ❊ وقد طوى الرواق ومن يمد
وبات وعند باب العرش منها ❊ لدولته دعاء لا يرد

وله فيه

ملك أشبه الملائك فضلا * وشبيه بمالك الامر جنده
عم احسانه فأصبح يتلى * شكره فى الورى ويدرس حمده
فسقى الله ذكره أيما حلـ * ـل ولافاته من النصر رفده

ولـه فيـه

ضحكت تباشير الصباح كأنها * قسمات نور الدين خير الناس
المشترى العقبى بأنفس قيمة * والبائع الدنيا بغير مكاس
وسرى دعاء الخلق يحرس نفسه * ان الدعاء يعد فى الحراس
راض الخطوب الصم بعد جماحها * وألان من قاب الزمان القاسى
وأعاد نور الحق فى مشكاته * وأقام وزن العدل بالقسطاس
واختار مجد الدين سائس ملكه * فحمى السياسة منه طود راسى
فهو الخبير بكل داء معضل * ياسو جراح زماننا ويواسى
وأذل سلطان النفاق بعزة * خضعت لها الأساد فى الاخياس
وعرته أقران الخطوب فصدها * ألوى يمارسها أشد مراس
ولوان فيض النيل فائض نيله * لم تفتقر مصر الى مقياس
سكنت شعب الدهر بعد تحمط * وألنت من عطفيه بعد شماس
وفتحت باب الحظ بعد رتاجه * وأذنت للاطماع بعد الياس
حتى منحت الخلق كل مسرة * فالناس فى عرس من الاعراس

وله فيـه

سام الشآم و بالها من صفقة * لولاه ماعنت على يد سائم
ولشمرت عنها الثغور وأصبحت * فيها العواصم وهى غير عواصم
تلك التى جمحت على من راضها * ودعوت فانقادت بغير شكائم
واذا سعادتك اجتبت فى دولة * قام الزمان لها مقام الخادم
حصن بلادك هيبة لا رهبة * فالدرع من عدد الشجاع الحازم
هيهات يطمع فى محلك طامع * طال البناء على يمين الهادم
كلفت همتك السمو فخلقت * فكأنما هى دعوة فى ظالم
وأظن ان الناس لما لم يروا * عدلا كعدلك ارجفوا بالقائم

وله فيـه

قلت يقول الله لا خائفا * مع حكم القرآن حكم القران
لا راقب النجم ولا سائلا * ما فعل السعدان والنيران
بل غرت للاسلام حتى لقد * دان له من بالطواغيت دان
رعت نواميس نواقيسها * بحلية الآذان وقت الأذان
تمحو تصاوير الدمى عن يد * تبنى المحاريب خلال المجان
هذا وكم أنشأت من منبر * فارسه فارس سحر البيان
من نال بالاخلاص مانلته * كان من الله مكين المكان
ياشائما بالشام صوب الحيا * ودانيا من كل قاص ودان
هذى سجوف الملك مرفوعة * عن ملك أخباره كالعيان
أوضح سبل العدل مفتنة * فللبرايا بالدعاء افتنان

ألغى حقوقا كلها باطل * الى مآل حط مال الضمان
عطفا ورفقا بالرعايا وان * أصبح تأديب ملوك الزمان
كم بين من نام على نشوة * وشاهد فى صهوة من حصان
فى كل يوم ينثنى سيفه * ببلدة بكر وأخرى عوان

وقرأت فى ديوان أحمد بن منير الطرابلسي من قصائد يمدح بها نور الدين رحمه الله تعالى

يا محيي العدل ويا منشره * من بين اطباق البلى وقد همد
وركن الاسلام الذى وطده * طال وارسى العز فيه ووطد
وشارع المعروف اذ لاسفه * يجنح للقول ولا تسمح يد
محوت ما أثبته الجور مضى * عليه اخلاد الليالى مخلد
من كل مكاس يظل قاعدا * لما يسوء المسلمين بالرصد
كانت لارجاس اليهود دولة * أزالها منك الهصور ذو اللبد
الملك العادل لفظ طابق الـ * معنى وفى الوصف معار مسترد
خير النعوت ما جرى الوصف على * صفحته جرى النسيم فى الومد
عدل جنيت اليوم حلو ريعه * وسوف يجنى لك أحلى منه غد
لا زال للاسلام منك عدة * يقيم منه كل زيغ وأود
الناس أنت والملوك شرط * تعدّ ليثا ويعدّون نقد
مثلك لا يسخو به زمانه * ومثل ما أوتيت لم يؤت أحد

وله فيه أيضا

أيا نور دين خبا نوره * ومذ شاع عدلك فيه اتقد
رآك الصليب صليب القناة * أمين العثار متين العمد
تهمّ فتسلبه ما اقتنى * وتدنى فتثكله ما احتشد
زبنتهم أمس عن صرخد * فقضوا كأن نعاما شرد
ويوم العريمة أقبلتهم * عراما يثعلب منه الاسد
حبست مليكهم فى الصفاد * وعفوك عنه أعم الصفد
وقبل ازرتهم فى الرها * موازق مزقن جرد الجرد
بقيت ترقع خرق الزما * ن قياما لابنائه ان قعد
تثقف من زيغه ما التوى * وتصلح من طبعه ما فسد

وله فيه

أيا ملك الدنيا الحلاحل والذى * له الارض دار والبرية أعبد
وليست بدعوى لا يقوم دليلها * ولكنه الحق الذى ليس يجحد
أخو الغزوات كالعقود تناسقت * تحل باجياد الجياد وتعقد
لسان بذكر الله يكسو نهاره * بهاء وجفن فى الدجى ليس يرقد
وبذل وعدل أغرقا وتألقا * فلا الورد مثمود ولا الباب موصد
مرام سمائىّ وحزم مسدّد * ورأى شهابىّ وعزم مؤيد

وله فيه

أبدا ينكب عن ضلال سادرا * بثقوب زندك أو تدلّ على هدا
سدت الكهول من الملوك مراهقا * وشأوت شيبهم البوازل أمردا

ان شيدوا صرحا أناف مناره * أو يسجدوا للكاس جدّد مسجدا
واذا استهزتهم قلائد معبد * هزته موعظة فعرّف معبدا
قسما بشام الشام منك مهندا * أرضاه مشهورا وراع مقلدا
وتمسك الاسلام منك بعروة * الله أبرم حبلها فاستحصدا
أشفى فكنت شفاءه من حادث * غاداه عارضه مرّدى بالردا
كنت الصباح لليله المادجى * والغوث كف لظاه حين توقدا
لله يوم أطلعتك به النوى * يجتاب من مهج الاصافر مجسدا
نشوان غنتك الظبى مفلولة * وأمال عطفيك الوشيج مقصدا
فى معرك ماقام بأسك دونه * الا أقام المشركين وأقعدا
ولكم مكرّ قمت فيه معلما * أرضى الهك والمسيح وأحمدا
يوم العريكة والخطيم وحارم وشعاب ياسوطا وهاب وصرخدا
لا يعدم الاشراك جدّك انه * ما سلّ فيهم حا كما الا اعتدا
أهمدتهم من بعد ما ملأ والملا * زجلا فهل كانت سيوفك مرقدا
طلعت نجوم الحق من آفاقها * وأعادها كرّ العصور كما بدا
وهوى الصليب وحزبه وتبختر الا * سلام من بعد التساقف أعيدا
سبق المحلى للمخطى فرفعه * نسق بثم وقد رفعت بالابتدا

وله فيه

محمود اربى على اسلافه * ان زاد فى حب الحسيب نجار
ملك اذا تليت مآثر قومه * كسد اللطيم وهجن النوار
ملأ الفرنجة جور سيفك فيهم * فلهم على سيف المحيط جوار
يوما يزرك جوف عرقة معلما * جوف له خلف الدروب أوار
وتجر فى الاردن فضلة ذيله * نقع بأكناف الانط مثار
اما تبيح حريم انطاكية * أو يجتأ الداروم منك دمار
عفى جهادك رسم كل مخوفة * وصفت بصفوة عدلك الاكدار
ومحا المظالم منك نظرة راحم * لله فى خطراته أسرار
غضبان للاسلام مال عموده * فلنوره مما عراه نوار
وجذمت كل يد تسور على يد * فاحلت ذاك السور وهو سوار
لم يبق ماكس مسلم سلقا ولا * ساع لمظلمة ولا عشار
هدوا كما هدت ثمود وقادهم * بخسارهم مما أتوه قدار
الغار فى الدنيا شقوا بلباسه * ولباسهم يوم الحساب النار
كم سيرة أحييتها عمرية * رفعت لها فى الخافقين منار
ونوافل صيرتهن لوازما * باقاتها تستعبد الاحرار
تقفو طريق الصالحين مسابقا * لهم وتطلع خلفك الابرار
نفس السيادة زهد مثلك فى الذى * فيه تفانت يعرب ونزار
ومتى ادّعى ماتدعيه محكم * أوهى معاقد دينه دينار
لله ماظفرت به منك المنى * وتكشفت من ركنك الاستار
وسقى الغمام ثرى أبيك فانه * أزكى ثرى قطرت عليه قطار

شهدت نضارة عودك الغض الجنى * ان الذى استخلصت منه نضار
أما نهارك فهو ليل مجاهد * والليل من طول القيام نهار
فلذلك النصر العزيز أدلة * أى اتجهت وللفتوح أمار

وله أيضا فيه رحمه الله تعالى

رأينا الملوك وقد ساجلو * ك تمنوا منونا وغرّوا غرورا
أب لك ان يدركوه أب * يزار فينسى الاسود الزئيرا
وجد اذا جدّ يوم الرها * ن ابقى لتاليه جدّا عثورا
تصب عصاك على من عصاك * يوما عبوسا بها قمطريرا
لقد البس الشام هذا الإبا * ء بوسا من الامن ايناوثيرا
تداركت أرماقه والقلو * ب نوافر ان يستجنّ الصدورا
أقمت جثاثا وكانت جثا * وشدّت قصورا وكانت قبورا
وكم لك من غضبة للهدى * تميت الهوى وتجب الذكورا
اذا قطب الباس كانت ردى * وان ضحك العفو عادت نشورا
كملت فوقيت عين الكمال * تبيد السنين وتفنى العصورا
وجاد لنا بك رب برا * ك للكفر نارا وللدين نورا
اذاما خدمت فولى كريما * وأما عبدت فعبدا شكورا
امام المحاريب برّا حصورا * وتحت الحروب هزبرا هصورا
تبارك من شاد هذى الخلال * فى ظلة الملك طودا وقورا
وألف فى مقعد التاج منـ * ك سطوا سعيرا وعفوا غيرا

وله فيه

عقل الحق ألسن المدعينا * أنت خير الملوك دنيا ودينا
وأسد الانام قولا وأفعا * لا ونفسا ونية ويقينا
أنت أسناهم ابا واباء * وأمر أ حيا وأمرع حينا
بسط الرزق فى البسيطة كفاك * فكلتا يديك تلفى يمينا
فيد تحسم النوائب عنا * ويد تقسم الرغائب فينا
أيها البحر لو تساجلك الابحر * عامت فى ساحليك سفينا
ولكان المحيط منها محاطا * مثل نون الهجاء أو خيل نونا
مشرعا مترعا ومنا مهينا * وربا عافيا وكعا لبونا
ومحيا طلقا ومالا طليقا * وابتهاجا قصدا وحبلا متينا
بين ذب يميت عادية الشر * ك وهب يحيى به المسلمونا
تتسنى من الفتوح ألوفا * أنت أعلى من أن تعدّ المئينا
كلما حزت ثوب نصر عزيز * من مرام قبلت فتحا مبينا
صرف الله عنك صرف زمان * أنت علمت صرفه ان يهونا
يابن من طبق البسيطة آثا * را وعلّ المنابذين الاجونا
وعدت حصنه على شرح هذا الد * ين من شلة الاعادى حصونا
كم تعالى صهيلها فى ربى الشا * م فأعلى خلف الخليج الرنينا
كان صنوا لرشيد أبقاك للحكـ * ـمة والبأس بعده المأمونا

سمع الله فيك دعوة سكن * أوطنوا من جاك حصنا حصينا
غرّقتهم مدى الخطوب فاحييـ * ـت رفاتا من التراب دفينا
البسوا عدلك المدبج فاختا * لوا بنات فى وشيه وبنينا
سهرت عينك الكلوء وناموا * تحت أكناف رعيها آمنينا

قلت فهذا أنموذج من أشعار هذين المحلين فيه مع انهما ماتا فى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة قبل ان يفتح نور الدين دمشق وبقى نور الدين حيا بعدهما احدى وعشرين سنة يترقى كل عام فى ازدياد من جهاد واجتهاد ولو كانا أدركا ذلك لاتيا فى وصفه بعجائب المدائح مع انه قد تولى ذلك غيرهما ممن لم يبلغ شأوهما ولابى المجد المسلم بن الخضر ابن قسيم الحموى من قصيدة فيه

تبدو الشجاعة من طلاقة وجهه * كالرمح دل على القساوة لينه
ووراء يقظته اناة مجرّب * لله سطوة بأسه وسكونه
هذا الذى فى الله صح جهاده * هذا الذى بالله صح يقينه
هذا الذى بخل الزمان بمثله * والمشمخرّ الى العلى عرنينه
ملك الورى ملك أغرّ متوّج * لا غدره يخشى ولا تلوينه
ان حلّ فالشرف التليد أنيسه * أوسار فالظفر الطريف قرينه
فالدهر خاذل من أراد عناده * أبدا وجبار السماء معينه
والدين يشهد انه لمعزه * والشرك يعلم انه لمهينه
مازال يقسم ان يبدّد شمله * والله يكره ان تمين يمينه
فتح الرها بالامس فانفتحت له * أبواب ملك لا يزال مصونه

ومدائح نور الدين رحمه الله كثيره وذكر الحافظ أبو القاسم انه كان قليل الابتهاج بالشعر ومات حادى عشر شوّال سنة تسع وستين وخمسمائة ودفن بقلعة دمشق ثم نقل الى قبته بمدرسته بجوار الخواصين قلت وقد جرّب استجابة الدعاء عند قبره وهذا ذكر طرف من مناقبه جملة ونحن بعد ذلك نأتى بأخباره وأخبار سلفه مفصلة مرتبة وما جرى فى زمانهم على سبيل الاختصار ان شاء الله تعالى

(فصل) أصل البيت الاتابكى هو قسيم الدولة اق سنقر جدّ نور الدين فنذكره وما تم فى أيامه ثم نذكر ولده زنكى وما تم فى أيامه ثم نذكر ولده محمود بن زنكى ثم نذكر ما بعده وهى الدولة الصلاحية الايوبية وما تم فى أيامها فنقول كان اق سنقر تركيا من أصحاب السلطان ركن الدين ملكشاه بن الب ارسلان وهو عم دقاق بن تتش بن الب أرسلان الذى كان سلطان دمشق وقبره بقبة الطواويس بها بنته والمشهد والدته وكان السلطان ملكشاه من جلة الملوك السلجوقية المتغلبين على البلاد بعد بنى بويه بالعراق فكان قسيم الدولة من أصحابه وأترابه وممن ربى معه فى صغره واستمرّ فى صحبته الى حين كبره فلما أفضت السلطنة بعد أبيه اليه جعله من أعيان أمرائه وأخص أوليائه واعتمد عليه فى مهماته وزاد قدره علوّا الى ان صار يتقيه مثل نظام الملك الوزير مع تحكمه على السلطان وتمكنه من المملكة فأشار نظام الملك على السلطان ان يولى اق سنقر مدينة حلب واعمالها وأراد بذلك ان يبعده عن خدمة السلطان ويتخذ عنده يدا بذلك قال ابن الاثير ومن الدليل على علوّ مرتبته تلقبه قسيم الدولة وكانت الالقاب حينئذ مصونة لا تعطى الا لمستحقيها وفى سنة سبع وسبعين وأربعمائة سير السلطان ملكشاه الوزير فخر الدولة بن جهير وكان زوج ابنة نظام الملك الى الموصل وسير معه جيشا عظيما وجعل المقدّم على الجيش قسيم الدولة اق سنقر فساروا نحو الموصل ولقيهم فى الطريق الامير ارتق التركمانى جد ملوك الحصن وماردين فاستصحبوه معهم فحصروا الموصل وحاربوا من بها وتسلموها وسار صاحبها الى السلطان فردّها عليه وكانت يومئذ لاحد أمراء بنى عقيل وهو شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران العقيلى وكان ملكه من السندية بالعراق على نهر عيسى الى منبج وما بينهما من البلاد الفراتية كهيت والانبار وغيرها وملك الموصل وديار بكر والجزيرة بأسرها وملك مدينة حلب وكان عادلا حسن السيرة عظيم السياسة

واتفق ان وقع بينه وبين صاحب انطاكية خلاف وذلك ان انطاكية كان الروم قد استولوا عليها سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ولم يزالوا بها الى هذه السنة ففتحها سليمان بن قيلمش وهو جد الملك غياث الدين كيخسرو صاحب قونية وغيرها وكان لشرف الدولة صاحب حلب على صاحب انطاكية الرومى جزية يأخذها كل سنة فانقطعت عنه بسبب أخذ سليمان البلد فأرسل شرف الدولة يطلب منه ما كان يأخذه من الروم وتهدده فقال أنا فى طاعتك وهذا الفتح بسعادتك والخطبة والسكة لك وأست بكافر حتى أعطيك ما كنت تأخذه من الروم فلج شرف الدولة فى طلب المال فالتقيا فقتل شرف الدولة وانهزم عسكره وسار سليمان الى حلب فحصرها وسار اليها من دمشق تاج الدولة تتش بن الب أرسلان اخو السلطان ملكشاه فالتقى عسكر تتش وسليمان فقتل سليمان وانهزم عسكره وملك تتش مدينة حلب دون القلعة وأرسل أهل القلعة الى ملكشاه ليسلموها اليه وهو يومئذ بالرها وكان سبب مسيره اليها ان ابن عطية النميرى كان قد باعها من الروم بعشرين ألف دينار وسلمها اليهم فدخلوها وأخربوا المساجد وأجلوا المسلمين عنها فسار ملكشاه اليها فى هذه السنة فحصرها وفتحها وأقطعها الامير بزان فلما أتاه رسل أهل القلعة بحلب بالتسليم سار اليهم فلما بلغ مسيره الى أخيه تاج الدولة رحل عن حلب الى دمشق ووصل السلطان الى حلب وبالقلعة سالم بن مالك بن بدران العقيلى وهو ابن عم شرف الدولة فسلمها الى السلطان بعد قتال وأعطاه السلطان عوضا عنها قلعة جعبر وكان قد ملكها فى هذه السفرة من صاحبها جعبر النميرى وكان شيخا كبيرا أعمى فبقيت بيد سالم وأولاده الى ان أخذها منهم الملك العادل نور الدين كما سيأتى فلما ملك السلطان حلب أرسل اليه الامير نصر بن على بن المقلد بن منقذ الكنانى صاحب شيزر ودخل فى طاعته وسلم اليه اللاذقية وفامية وكفرطاب ثم ان نظام الملك أشار على السلطان بتسليم قلعة حلب وأعمالها وحماه ومنبج واللاذقية وما معها الى قسيم الدولة آق سنقر فأقطعه الجميع وبقيت بيده الى ان قتل سنة سبع وثمانين وأربعمائة كما سيأتى وأقطع السلطان مدينة انطاكية الامير باغى سغان ولما استقر قسيم الدولة فى الشام ظهرت كفايته وحمايته وهيبته فى جميع بلاده ثم ان السلطان استدعاه الى العراق فقدم اليه فى تجمل عظيم لم يكن فى عسكر السلطان من يقاربه فاستحسن ذلك منه وعظم محله عنده ثم أمره بالعود الى حلب فعاد اليها فلما مات السلطان ملكشاه سير قسيم الدولة جيشا الى تكريت فملكها وفى سنة احدى وثمانين قصد قسيم الدولة شيزر فنهبها وعاد الى حلب وفى سنة ثلاث وثمانين اجتمع قسيم الدولة وبزان وحصروا مدينة حمص فملكوها ومضى ابن ملاعب الى مصر وفى سنة أربع وثمانين وملك قسيم الدولة حصن فامية من الشام وملك الرحبه

(فصــل) وفى عاشر رمضان سنة خمس وثمانين قتل الوزير نظام الملك أبو على الحسن بن على بن اسحاق قتله صبى ديلمى بعد الافطار وقد تفرق عن طعامه الفقهاء والامراء والفقراء وغيرهم من أصناف الناس وحمل فى محفة لنقرس كان به الى خيمة الحرم فلاتيه صبى ديلمى مستغيثا به فقربه منه ليسمع شكواه فقتله وقتل الصبى أيضا فعدمت الدنيا واحدها الذى لم تر مثله وكان تلك الليلة قد حكى له بعض الصالحين انه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام كأنه أتاه وأخذه من محفته فتبعه فاستبشر نظام الملك بذلك وأظهر السرور به وقال هذا أبغى وإياه اطلب وكان قد بلغ من الدنيا مبلغا عظيما لم ينله غيره وكان عالما فقيها دينا خيرا متواضعا عادلا يحب أهل الدين ويكرمهم ويجزل صلاتهم وكان أقرب الناس منه وأحبهم اليه العلماء وكان يناظرهم فى المحافل ويبحث عن غوامض المسائل لانه اشتغل بالفقه فى حال حداثته مدة وأما صدقاته ووقوفه فلاحد عليها ومدارسه فى العالم مشهورة لم تخل بلد من شئ منها حتى جزيرة ابن عمر التى هى فى زاوية من الارض لا يؤبه لها بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة وهى التى تعرف الآن بمدرسة رضى الدين وأعماله الحسنة وصنائعه الجميلة مذكورة فى التواريخ لم يسبقه من كان قبله ولا أدركه من كان بعده وكان من جملة عباداته انه لم يحدث الا توضأ ولا توضأ الا صلى وكان يقرأ القرآن حفظا ويحافظ على أوقات الصلوات محافظة لا يتقدمه فيها المتفرغون للعبادة حتى انه كان اذا غفل المؤذن أمره بالاذان واذا سمع الاذان أمسك عن كل ما هو فيه واشتغل باجابته ثم بالصلاة وكان قد وزر للسلطان عضد الدولة الب ارسلان والد ملكشاه قبل ان يلى السلطنة فى حياة عمه السلطان طغرلبك أول الملوك السلجوقية ببغداد فلما توفى طغرلبك سعى نظام الملك فى أخذ السلطنة لصاحبه الب ارسلان وقام المقام الذى تعجز عنه الجيوش الكثيرة واستقرت السلطنة له وبقى معه الى ان توفى ثم وزر بعده

لولده السلطان ملكشاه الى ان قتل وكان قد تحكم عليه الى حد لا يقدر السلطان على خلافه لكثرة مماليكه ومحبة العساكر له والامراء وميل العامة والخاصة اليه لحسن سيرته وعدله وهذا كلام أبى الحسن بن الاثير وقرأت فى كتاب المعارف المتأخرة ويسمى عنوان السير لمحمد بن عبد الملك بن ابراهيم الهمدانى قال وزر نظام الملك أبو على الحسن ابن على بن اسحاق الطوسى للسلطان الب ارسلان ولولده السلطان ملكشاه أربعا وثلاثين سنة وقتل بالقرب من نهاوند وعمره ست وسبعون سنة وعشرة أشهر وتسعة عشر يوما اغتاله أحد الباطنية وقد فرغ من فطوره قال وقيل ان السلطان ملكشاه الف عليه من قتله لانه سئم طول عمره ومات بعده بشهر وخمسة أيام وقد تقدم نظام الملك فى الدنيا التقدم العظيم وأفضل على الخلق الافضال الكثير وعم الناس بمعروفه وبنى المدارس لاصحاب الشافعى ووقف عليهم الوقوف وزاد فى الحلم والدين على من تقدمه من الوزراء ولم يبلغ أحد منهم منزلته فى جميع أموره وعبر جيحون فوقع على العامل بانطاكية بما يصرف على الملاحين وملك من الغلمان الاتراك الوفا وكان جمهور العساكر وشجعانهم وقتا كهم من مماليكه قلت وأنشد أبو سعد السمعانى فى ذيل تاريخ بغداد فقال أنشدنى عمى الامام أبو القاسم أحمد بن منصور السمعانى غير مرة من لفظه للامير شبل الدولة يعنى مقاتل بن عطية ابن مقاتل البكرى

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة ❊ ثمينة صاغها الرحمن من شرف
عزت ولم تعرف الايام قيمتها ❊ فردها غيرة منه الى الصدف

(فصل) عاش السلطان ملكشاه بعد نظام الملك خمسة وثلاثين يوما ومات فى منتصف شوال سنة خمس وثمانين وعمره ثمانية وثلاثون عاما ونصف عام وكانت مملكته قد اتسعت اتساعا عظيما وخطب له من حدود الصين الى الداروم من أرض الشام وأطاعه اليمن والحجاز وكان يأخذ الخراج من ملك القسطنطينية وأطاعه صاحب طراز واسبيجاب وكاشغر وبلاسغون وغيرها من الممالك البعيدة وملك سمرقند وجميع ما وراء النهر ثم ان صاحب كاشغر عصى عليه فسار السلطان اليه فلما قارب كاشغر هرب صاحبها منه فسار فى طلبه ولم يزل حتى ظفر به وأحسن اليه واستصحبه معه الى أصفهان وعمل السلطان من الخيرات وأبواب البر كثيرا منها ما أصلحه وعمله من المصانع بطريق مكة وحفر من الآبار وبنى مدرسة عند قبر الامام أبى حنيفة رحمة الله عليه وبنى الجامع الذى بظاهر بغداد عند دار السلطنة وهو الذى بنى منارة القرون فى طرف البرية الى الكوفة بمكان يعرف بالسبعى وبنى مثلها بسمرقند أيضا قيل انه خرج سنة من الكوفة لتوديع الحجيج فجاوز العذيب وبلغ السبعية بقرب الواقصة وبنى هناك منارة نزل فى أثنائها قرون الظبى وحوافر الحمر الوحشية التى اصطادها فى طريقه وبعد موته وتنازع ابناه تكياروق ومحمد ودامت الحروب بينهما نحو ثنتى عشرة سنة الى ان توفى تكياروق واستقرت السلطنة لمحمد وفى مدة تلك الحروب ظهرت الفرنج بالساحل وملكوا انطاكية أولا ثم غيرها من البلاد وكان السلطان قد أقطع أخاه تاج الدولة تتش مدينة دمشق وأعمالها وما جاورها كطبرية والبيت المقدس فلما توفى ملكشاه طمع تاج الدولة فى السلطنة فسار الى حلب وبها قسيم الدولة فصالحه وراسل بوزان صاحب حران وباغى سغان صاحب انطاكية فسار وامعه نحو الرحبة ونصيبين فأخذهما وأرسل صاحب الموصل ابراهيم بن قريش بن بدران يأمره بالخطبة له وان يعطيه طريقا الى بغداد فامتنع فالتقيا فهزم صاحب الموصل وقتل وأخذت بلاده وسار الى ميافارقين فملكها وسائر ديار بكر ثم سار الى أذربيجان فالتقى هو وابن أخيه تكياروق مع ملكشاه فانتقل قسيم الدولة وبوزان الى تكياروق فرجع تاج الدولة الى الشام ورجعا الى بلادهما بأمر تكياروق ليمنعا تاج الدولة عن البلاد ان قصدها فجمع تاج الدولة العساكر وسار عن دمشق نحو حلب فاجتمع قسيم الدولة وبوزان وأمدهما السلطان ركن الدين تكياروق بالامير كربوقا وهو الذى صار فيما بعد صاحب الموصل فالتقوا بالقرب من تل السلطان بينه وبين حلب نحو من ستة فراسخ فانهزم جيش قسيم الدولة وأخذ أسيرا فقتله تاج الدولة صبرا ودخل بزان وكربوقا حلب فحصرهما تاج الدولة حتى فتحها وأخذهما أسيرين وأرسل الى حران والرها وكانتا لبزان فامتنع من بهما من التسليم فقتل بزان وأنفذ رأسه وتسلم البلدين وأما كربوقا فانه سجنه بحمص فلم يزل الى ان أخرجه الملك رضوان بعد قتل أبيه تاج الدولة قال ابن الاثير وكان قسيم الدولة أحسن الناس سياسة لرعيته وحفظا لهم وكانت بلاده بين عدل عام ورخص شامل وأمن واسع وكان قد شرط على أهل كل قرية فى بلاده متى أخذ عند

احدهم قفل أو أحد من الناس غرم أهلها جميع ما يؤخذ من الاموال من قليل وكثير فكانت السيارة اذا بلغت قرية من بلاده القوا رحالهم وناموا آمنين وقام أهل القرية يحرسونهم الى ان يرحلوا فأمنت الطرق وتحدث الركبان بحسن سيرته وفى المحرم من سنة سبع وثمانين وأربعمائة توفى الخليفة المقتدى بأمر الله فجأة وهو أبو القاسم عبد الله ابن الامير محمد بن القائم بأمر الله وعمره تسع وثلاثون سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام وكانت خلافته تسع عشرة سنة وخمسة أشهر وأمه تركية وبويع من بعده ولده المستظهر بالله أبو العباس أحمد ويلقب محمد بن القائم والد المقتدى بالله الذخيرة مات فى حياة أبيه فلم يل الخلافة

﴿ذكر اخبار زنكى﴾

والد نور الدين رحمهما الله تعالى على سبيل الاختصار فى فصول الى حين وفاته ثم نذكر أخبار نور الدين على ترتيب السنين لما قتل قسيم الدولة آق سنقر لم يخلف من الاولاد غير واحد وهو عماد الدين زنكى والد نور الدين وكان حينئذ صبيا له من العمر نحو عشر سنين فاجتمع عليه مماليك والده وأصحابه وفيهم زين الدين على وهو صبى أيضا ثم ان الامير كربوقا خلص من السجن بعد قتل تاج الدولة سنة سبع وثمانين وأربعمائة وتوجه الى حران وقد اجتمع معه عسكر صالح فلكها ثم سار الى نصيبين فلكها ثم الى الموصل فلكها وأزال عنها على بن شرف الدولة العقيلى وسار نحو ماردين فلكها وعظم شأنه وهو فى طاعة ركن الدولة تكياروق فلما ملك البلاد أحضر مماليك قسيم الدولة آق سنقر وأمرهم باحضار عماد الدين زنكى وقال هو ابن أخى وأنا أولى الناس بتربيته فاحضروه عنده فاقطعهم الاقطاعات السنية وجعهم على عماد الدين زنكى واستعان بهم فى حروبه وكانوا من الشجاعة فى أعلى درجاتها فلم يزالوا معه فتوجه بهم الى آمد وصاحبها من أمراء التركمان فاستنجد بمعين الدين سقمان بن أرتق جد صاحب الحصن فكسرهم قوام الدولة كربوقا وهو أول مصاف حضره زنكى بعد قتل والده ولم يزل كربوقا الى ان توفى سنة ربع وتسعين وأربعمائة وملك بعده موسى التركمانى فلم تطل مدته وقتل وملك الموصل شمس الدولة جكرمش وهو أيضا من مماليك السلطان ملكشاه فاخذ زنكى فقربه وأحبه واتخذه ولدا لمعرفته بمكانة والده فبقى معه الى ان قتل سنة خمسمائة فلا جرم ان زنكى رعى هذا لجكرمش لما ملك الموصل وغيرها من البلاد فانه أخذ ولده ناصر الدين كورى فأكرمه وقدمه وأقطعه اقطاعا كثيرا وجعل منزلته أعلى المنازل عنده واتخذه صهرا ثم ملك الموصل بعد جكرمش جاولى سقاوه فاتصل به عماد الدين زنكى وقد كبر وظهرت عليه امارات السعادة والشهامة ولم يزل معه حتى عصى على السلطان محمد وكان جاولى قد عبر الى الشام ليملكه من الملك فخر الملك رضوان فارسل السلطان الى الموصل الامير مودود وأقطعها اياها سنة اثنين وخمسمائة فلما اتصل الخبر بجاولى فارقه زنكى وغيره من الامراء فلما استقر مودود بالموصل واتصل به زنكى أكرمه وشهد معه حروبه فسار مودود الى الغزاة بالشام ففتح فى طريقه قلاعا لهم من شجنان كانت للفرنج وقتل من كان بها منهم ثم سار الى الرها فحصرها ولم يفتحها فرحل وعبر الفرات فحصر تل باشر خمسة وأربعين يوما ثم سار الى معرة النعمان فحصرها ثم حضر عنده أتابك طغتكين صاحب دمشق فسارا الى طبرية وحاصروها وقاتلوها قتالا شديدا وظهر من اتابك زنكى شجاعة لم يسمع بمثلها منها انه كان فى نفر وقد خرج الفرنج من البلد فحمل عليهم هو ومن معه وهو يظن انهم يتبعونه فتخلفوا عنه وتقدم وحده وقد انهزم من بظاهر البلد من الفرنج فدخلوا البلد ووصل رمحه الى الباب فاثر فيه وقاتلهم عليه وبقى ينتظر وصول من كان معه فحيث لم ير أحدا حمى نفسه وعاد سالما فعجب الناس من أقدامه أولا ومن سلامته آخرا ثم التقى الجمعان فهزم الفرنج لعنهم الله ووصلوا الى مضيق دون طبرية فاجتمعوا به وجاءتهم نجدة فاذن الامير مودود للعسكر فى الرجوع الى بلادهم والاجتماع اليه فى الربيع فلما تفرقوا دخل دمشق وأقام بها فخرج يوما يصلى الجمعة فلما صلاها وخرج الى صحن الجامع ويده بيد طغتكين وثب عليه انسان فضربه بسكين معه فجرحه أربع جراحات وكان صائما فحمل الى دار طغتكين واجتهد به ليفطر فلم يفعل وقال لا لقيت الله الا صائما فانى ميت لا محالة سواء أفطرت أو صمت وتوفى من بقية يومه رحمه الله فقيل ان الباطنية بالشام خافوه فقتلوه وقيل بل خافه طغتكين فوضع عليه من يقتله وكان خيرا عادلا حسن السيره

قال ابن الاثير حدثني والدي رحمه الله قال كتب ملك الفرنج الى طغتكين ان أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله ان يبيدها فلما قتل الامير مودود أقطع السلطان بلاد الموصل وغيرها للامير حيوش بك وسير معه ولده الملك مسعود الى الموصل ثم انه جهز آق سنقر البرسقي في العساكر وسيره الى قتال الفرنج وكتب الى عساكر الموصل وغيرها يأمرهم بالمسير معه فساروا وفيهم عماد الدين زنكي وكان يعرف في عساكر العجم بزنكي الشامي فسار البرسقي الى الرها في خمسة عشر ألف فارس فحصرها وقتل من بها من الفرنج والارمن وضاقت الميرة عن العسكر فرحل الى سميساط وهي أيضا للفرنج فاخرب بلدها وبلد سروج وعاد الى بلد شبختان فاخرب ما فيه للفرنج وأبلى زنكي في هذه المواقف كلها بلاء حسنا ثم عادت العساكر تحدث بما فعله وعاد البرسقي الى بغداد وأقام زنكي بالموصل مع الملك مسعود والامير حيوش بك الى سنة أربع وعشرين وخمسمائة وقد علا قدره وظهر اسمه

(فصل) وفي سنة احدى عشر وخمسمائة ولد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله وفيها غرقت سنجار من سيل المطر وهلك منها خلق كثير ومن أعجب ما يحكى ان السيل حمل مهدا فيه طفل فتعلق المهد في شجرة ونقص الماء فسلم ذلك الطفل وغرق غيره من الماهرين بالسباحة وفيها ايضا زلزلت أربل وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة وفيها في الرابع والعشرين من ذي الحجة توفي السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه وعمره سبع وثلاثون سنة وأربعة أشهر وستة أيام وأول ما خطب له ببغداد في ذي الحجة سنة اثنين وتسعين وأربعمائة وقطعت خطبته عدة مرار ولقي من المشاق والاخطار ما لم يلقه أحد الى أن توفي أخوه بركياروق فحينئذ استقرت له السلطنة وصفت له ودانت البلاد وأصحاب الاطراف لطاعته وكان اجتماع الناس عليه بعد موت أخيه اثني عشرة سنة وستة أشهر وكان عادلا حسن السيرة شجاعا وأطلق المكوس والضرائب في جميع البلاد ومن عدله انه اشترى عدة مماليك من بعض التجار وأمر ان يوفي الثمن من عامل خوزستان فاوصل اليه البعض ومطل بالباقي فحضر التاجر مجلس الحكم وأخذ غلام الحاكم ووقف بطريق السلطان واستغاث اليه فأمر من يستعلم حاله فعاد الحاجب واعلم السلطان حاله فعظم عليه وضاق صدره وأمر في الحال ان يحضر عامل خوزستان ويلزم بمال التاجر ثم انه ندم على تأخره عن مجلس الحكم وكان يقول كثيرا لقد ندمت على تركي حضور مجلس الحكم ولو فعلته لاقتدى بي غيري ولم يمتنع أحد عن اداء الحق

قال ابن الاثير وهذه الفضيلة ذخرها الله تعالى للبيت الاتابكي فان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي فعل ما ندم السلطان محمد على تركه وقد تقدم ذلك ولما علم الامراء وغيرهم من خلق السلطان محبة العدل واداء الحق وكراهية الظلم ومعاقبة من يفعله اقتدوا به فامن الناس وظهر العدل وولي بعد السلطان محمد ابنه محمود وعمره يومئذ أربع عشرة سنة فقام بالسلطنة وجرى بينه و بين عمه سنجر حرب انهزم فيها محمود وعاد الى عمه بغير عهد فأكرمه واقطعه من البلاد من حد خراسان الى الداروم باقصى الشام ومن الممالك همذان واصفهان وبلد الجبال جميعه وبلاد كرمان وفارس وخوزستان والعراق واذربيجان وارمينية وديار بكر وبلاد الموصل والجزيرة وديار مضر وديار ربيعه والشام وبلد الروم الذي بيد قليج ارسلان وما بين هذه الممالك من البلاد * قال ابن الاثير ورأيت منشوره بذلك وفي سادس عشر ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة توفي الامام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العباس أحمد ابن المقتدي بأمر الله وكان عمره احدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوما ومضى في أيامه ثلاث سلاطين خطب لهم ببغداد من السلجوقية وهو أخو ملكشاه تاج الدولة تتش وركن الدولة بركياروق بن ملكشاه وأخوه غياث الدين محمد بن ملكشاه وكان المستظهر رحمه الله كريم الاخلاق لين الجانب مشكور المساعي يحب العلم والعلماء وصنفت له من التصانيف الكثيرة في الفقه والاصول وغيرها وكان يسارع الى اعمال البر والمثوبات حسن الخط جيد التوقيعات ولما توفي صلى عليه ولده المسترشد بالله ودفن في حجرة كانت له يألفها وفي أيامه توفي جماعة من العلماء ففي شعبان سنة ثمان وثمانين وأربعمائة توفي قاضي القضاة أبو بكر محمد بن المظفر الشامي وفي ذي القعدة منها توفي القاضي عبد السلام بن محمد القزويني المعتزلي مصنف حدائق ذات بهجة في تفسير القرآن

يزيد على ثلثمائة مجلد قال ابن الاثير رأيت منه تفسير الفاتحة فى مجلد كبير وفى ذى الحجة توفى الامام أبو نصر الحميدى مصنف الجمع بين الصحيحين وفى شوّال سنة احدى وتسعين توفى الكامل نقيب النقباء طراد بن محمد الزينبي وله نحو تسعين سنة وفى سنة اثنين وخمسين ومائة توفى أبو زكريا التبريزى اللغوى وفى ذى الحجة منها توفى أبو الفوارس الحسين بن على بن الخازن صاحب الخط المشهور وفى سنة خمس وخمسمائة توفى الامام أبو حامد الغزالى وفى سنة سبع وخمسمائة توفى الامام أبو بكر محمد بن أحمد الشاشى الفقيه رحمهم الله أجمعين

(فصل) لما ولى السلطان محمود السلطنة أقرّ أخاه مسعودا على الموصل مع أتابكه حبوش بك فبقى مطيعا لاخيه الى سنه أربع عشرة وخمسمائة فحسن له الخروج عن طاعته وطلب السلطنة فاظهر العصيان وخطب للملك مسعود بالسلطنة وكان زنكى يشير بطاعة السلطان وترك الخلاف عليه ويحذرهم عاقبة العصيان فلم ينفع فالتقى الاخوان فى عسكريهما فهزم عسكر مسعود واسر جماعة من الامراء والاعيان منهم الاستاذ أبو اسمعيل الحسين ابن اسماعيل الطغرائى وزير مسعود فقتله السلطان محمود وقال قد صح عندى فساد اعتقاده ودينه وكان قد جاوز ستين سنة وكان حسن الكتابة جيد الشعر قلت وقيل انه قتل سنة ثلاث عشرة أو أربع مائة عشرة أو ثمانى عشرة وخمسمائة وقيل ان الذى قتله هو السلطان طغرل بن محمد بن ملكشاه ذكر ذلك كله أبو سعد السمعانى فى تاريخه وسماه الحسين بن على بن عبد الصمد الديلى وأنشد له اشعارا حسانا منها

اذا مالم تكن ملكا مطاعا ❊ فكن عبدا لمالكه مطيعا
وان لم تملك الدنيا جميعا ❊ كما تهواه فاتركها جميعا
هما سيان من ملك ونسك ❊ ينيلان الفتى الشرف الرفيعا
ومن يقنع من الدنيا بشئ ❊ سوى هذين يحيى بها وضيعا

ثم استأمن مسعود وأتابكه حبوش بك فأمنهما السلطان وأخذ الموصل منهما فاقطعها اق سنقر البرسقى مع اعمالها كالجزيرة وسنجار ونصيبين وغيرهما فى صفر سنة خمس عشرة وسيره اليها وأمره بحفظ عماد الدين زنكى وتقديمه والوقوف عند اشارته ففعل البرسقى ذلك وزاد عليه لمكان زنكى من العقل والشجاعة وتقدّم والده فى الايام الركنية وكانت سيرة ملكشاه عندهم كالشريعة المتبعة فأعظم الناس عندهم أكثرهم اتباعا لسيرته وفى سنة ست عشرة وخمسمائة اقطع أتابك زنكى مدينة واسط وشحنكية البصرة وظهر من كفايته فى البلدين مالم يظنه أحد فازداد شأنه عظما وهاب الامير دبيس بن صدقة الاسدى صاحب الحلة ناحيته وجرت بينه وبين البرسقى حروب ومواقعات وهم دبيس بقصد بغداد فسار البرسقى اليه وتبعه الخليفة المسترشد بالله بنفسه فانهزم عسكر دبيس وقتل منهم وأسر خلق كثير وكان لعماد الدين زنكى أثر حسن فى هذه الواقعة أيضا بين يدى الخليفة وذلك فى أول المحرم سنة سبع عشرة وأما دبيس فانه لما انهزم لحق بالملك طغرل بن السلطان محمد وصار معه من خواص أصحابه وكان عاصيا على أخيه السلطان محمود وأمر السلطان محمد للبرسقى ان يرجع الى الموصل فعاد واستدعى زنكى من البصرة ليسير معه الى الموصل فقال زنكى لاصحابه قد ضجرنا مما نحن فيه كل يوم قد ملك البلاد أمير ونؤمر بالتصرف على اختياره وارادته ثم تارة بالعراق وتارة بالموصل وتارة بالجزيرة وتارة بالشام فسار من البصرة الى السلطان محمود فأقام عنده وكان يقف الى جانب تخت السلطان عن يمينه لا يتقدم عليه أحد وهو مقام والده قسيم الدولة من قبله وبقى لولده من بعده ثم أتى السلطان الخبر ان العرب اجتمعت ونهبت البصرة فأمر زنكى بالمسير اليها واقطعه اياها لما بلغه عنه من الحماية لها فى العام الماضى وقت اختلاف العساكر والحروب ففعل ذلك فعظم عند السلطان وزاد محله وكان قد جرى بين برتقش الزكوى شحنة بغداد وبين الخليفة المسترشد بالله نفرة فتهدّده المسترشد فسار عن بغداد الى السلطان فى رجب سنة تسع عشرة شاكيا من المسترشد وحذر السلطان جانبه واعلمه انه قد جمع العساكر عازما على منعه من العراق فسار السلطان الى بغداد وجرى بينه وبين المسترشد حروب ووقائع ثم اصطلحا وعادا الى ما كانا عليه وأقام السلطان ببغداد الى عاشر ربيع الآخر ونظر فيمن يصلح ان يلى شحنكية بغداد والعراق يؤمن معه من الخليفة ويضبط الامور فولى ذلك زنكى مضافا الى ما بيده من الاقطاع وسار السلطان عن بغداد وفى سنة عشرين وخمسمائة قتل اق سنقر البرسقى بالجامع

العتيق بالموصل بعد الصلاة يوم الجمعة ثار به من الباطنية ما يزيد على عشرة أنفس فقتل بيده منهم ثلاثة وقتل رحمه الله وكان عادلا لين الاخلاق حسن العشرة وكان يصلي كل ليلة صلاة كثيرة ولا يستعين فى وضوءه بأحد فقرر السلطان ولده عز الدين مسعودا على ما كان لابيه من الاعمال وهي الموصل وديار الجزيرة وحلب وحماه وجزيرة ابن عمر وغيرها وكان شابا عاقلا فضبط البلاد فلم تطل أيامه وتوفى سنة احدى وعشرين وولى الامر بعده أخوه الصغير وقام بتدبير دولتهما الامير جاولى وهو مملوك تركى من مماليك أبيهما فجرت الامور على أحسن نظام

(فصل) فى ولاية زنكى الموصل وغيرها من البلاد التى كانت بيد البرسقى وذلك فى شهر رمضان من سنة احدى وعشرين وسبب ذلك ان عز الدين البرسقى لما توفى وقام بالبلاد بعده أخوه الصغير وتولى امره جاولى أرسل الى السلطان محمود يطلب ان يقر البلاد عليه وكان المرسل بذلك القاضي بهاء الدين أبو الحسن على بن الشهرزورى وصلاح الدين محمد الياغبساني فحضرا ببغداد ليخاطبا السلطان فى ذلك وكان يخافان جاولى ولا يرضيان بطاعته والتصرف بحكمه وكان بين صلاح الدين وبين نصير الدين جقر مصاهرة فأشار عليهما ان يطلبا البلاد لعماد الدين زنكى ففعلا وقالا للوزير قد علمت أنت والسلطان ان بلاد الجزيرة والشام قد استولى الفرنج على أكثرها وتمكنوا منها وقويت شوكتهم وكان البرسقى يكف بعض عاديتهم فمذ قتل ازداد طمعهم وهذا ولده طفل صغير ولا بد للبلاد من شهم شجاع يذب عنها ويحمى حوزتها وقد أنهينا الحال اليكم لئلا يجرى خلل أو وهن على الاسلام والمسلمين فنحصل نحن بالاثم من الله تعالى واللوم من السلطان فأنهى الوزير ذلك الى السلطان فأعجبه وقال من ترى ان يصلح لهذه البلاد فذكرا جماعة فيهم عماد الدين زنكى وعظما محله أكثر من غيره فأجاب السلطان الى توليته لما علم من شهامته وكفايته فولى البلاد جميعا وكتب منشوره بها وسار من بغداد الى البوازيج ليملكها ويتقوى بها ويجعلها ظهره ان منعه جاولى عن البلاد فلما استولى عليها سار عنها الى الموصل فخرج جاولى الى لقائه وعاد فى خدمته الى الموصل فسيره الى الرحبة وأعمالها وأقام هو بالموصل يصلح أمورها ويقرر قواعدها فولى نصير الدين دزدارية قلعة الموصل وفوض اليه أمر الولاية جميعها وجعل الدزدارية فى البلاد جميعها له وجعل الصلاح محمدا الياغبساني أمير حاجب الدولة وجعل بهاء الدين قاضى قضاة بلاده جميعها وما يفتحه من البلاد ووفا لهم بما وعدهم وكان بهاء الدين أعظم الناس عنده منزلة وأكرمهم عليه وأكثرهم انبساطا معه وقربا منه ورتب الامور على أحسن نظام وأحكم قاعدة وكانت الفرنج قد اتسعت بلادهم وكثرت أجنادهم وعظمت هيبتهم وزادت صولتهم وامتدت الى بلاد المسلمين أيديهم وضعف أهلها عن كف عاديهم وتتابعت غزواتهم وساموا المسلمين سوء العذاب واستطار فى البلاد شرر شرهم وامتدت مملكتهم من ناحية ماردين وشبختان الى عريش مصر لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحماه وحمص ودمشق وكانت سراياهم من ديار بكر الى آمد ومن ديار الجزيرة الى نصيبين ورأس عين وأما أهل الرقة وحران فقد كانوا معهم فى ذل وهوان وانقطعت الطرق الى دمشق الا على الرحبة والبر ثم زاد الامر وعظم الشر حتى جعلوا على أهل كل بلد جاورهم خراجا وإتاوة يأخذونها منهم ليكفوا أذيتهم عنهم ثم لم يقنعوا بذلك حتى أرسلوا الى مدينة دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والارمن وسائر بلاد النصرانية وخيروهم بين المقام عند أربابهم والعود الى أوطانهم فمن اختار المقام تركوه ومن آثر العود الى أهله أخذوه وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغارا وأما أهل حلب فان الفرنج أخذوا منها مناصفة أعمالها حتى فى الرحا التى على باب الجنان وبينها وبين المدينة عشرون خطوة وأما باقى بلاد الشام فكان حال أهلها أشد من حال أهل هذين البلدين فلما نظر الله سبحانه وتعالى الى بلاد المسلمين ولاها عماد الدين زنكى فغزا الفرنج فى عقر ديارهم وأخذ للموحدين منهم بثارهم واستنقذ منهم حصونا ومعاقل وسيأتى تفصيل ذلك وما فتحه من البلاد الاسلامية هو وابنه من بعده ان شاء الله تعالى

(فصل) ثم شرع زنكى رحمه الله فى أخذ البلاد فافتتح جزيرة ابن عمر ثم مدينة اربل فى رمضان سنة اثنتين وعشرين ثم عاد الى الموصل وسار فى جمادى الاولى سنة ثلاث وعشرين الى سنجار فتسلمها وسير منها الشحن الى الخابور فملكه ثم قصد الرحبة فملكت قسرا ثم افتتح نصيبين وسار الى حران وكانت الرها وسروج وغيرهما من ديار الجزيرة للفرنج لعنهم الله وأهل حران معهم فى ضيق عظيم فراسلوا زنكى بالطاعة واستحثوه على الوصول اليهم ففعل وهادن

الفرنج مدّة يسيرة يعلم انه يفرغ فيها من الاستيلاء على ما بقى له من البلاد الشامية والجزرية وكان اهم الاشياء عنده عبور الفرات وملك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشامية فلما عبر الفرات ملك مدينة منبج وحصن بزاعة وحاصر حلب ثم فتحت له فرتب أمورها وسار عنها الى حماه فملكها وقبض على صاحب حمص وحصرها وذلك سنة ثلاث وعشرين وفى سنة أربع وعشرين اتفق صاحب أمد مع صاحب حصن كيفا وغيرهم من الملوك وجمعوا عساكر نحو عشرين الفا وقصدوا زنكى فلقيهم فهزمهم وملك سرجة ودارا ثم صمم على الجهاد فنازل حصن الاثارب وكان أضر شئ على أهل حلب فجمع الفرنج جمعا عظيما فهزمهم وقتلهم مقتلة عظيمة بقيت عظام القتلى بتلك الارض مدّة طويلة ثم رجع الى الحصن فملكه عنوة فاخربه ومحا أثره وأزال من تلك الارض ضرره ثم رحل الى حصن حارم فانفذ من لم يحضر المعركة من الفرنج ومن نجا منها يسألون الصلح ويبذلون له المناصفة على ولاية حارم فاجابهم الى ذلك لان عسكره كان قد كثرت فيهم الجراحات والقتل فاراد ان يستريحوا فهادنهم وعاد عنهم وقد ايقن المسلمون بالشام بالامن وحلول النصر وسيرت البشائر الى البلاد بذلك وفيها استولى زنكى على مدينة حماه وما فيها وكان فيها بهاء الدين سونج بن تاج الملوك بورى فاخذ رجاله ثم طلب فى اطلاقهم خمسين ألف دينار فاتفق حضور دبيس بن صدقة بن مزيد أمير العراق بدمشق منهزما فطلبه زنكى وأطلق من كان عنده من سونج وأصحابه ذكر ذلك الرئيس أبو يعلى وفى سنة خمس وعشرين وخمسمائة توفى السلطان محمود بهمذان وكان عمره نحو ثمان وعشرين سنة وكانت ولايته ما يقارب أربع عشرة سنة وكان حليما كريما عاقلا عادلا كثير الاحتمال وطلب السلطنة بعده ولده داود بن محمود وأخواه مسعود وسلجوق شاه أبنا محمد وعمهما سنجر بن ملكشاه ومعه طغرل بن السلطان محمد فجرت بينهم حروب واختلافات كثيرة ظفر فيها سنجر بن ملكشاه ومعه طغرل بن السلطان وخطب لابن أخيه طغرل بالسلطنة فى همذان وأصفهان والرى وسائر بلاد الجبل وفى سنة سبع وعشرين سار الخليفة المسترشد بنفسه الى الموصل فى ثلاثين ألف فارس فحصرها ثلاثة أشهر ثم عاد الى بغداد ولم يبلغ غرضا وفى سنة تسع وعشرين استولى زنكى على سائر قلاع الحميدية وولايتهم منها قلعة العقير وقلعة شوش وحاصر مدينة أمد ثم مدينة دمشق وفيها توفيت والدته بالموصل وفى المحرم سنة تسع وعشرين توفى السلطان طغرل بن محمد ابن ملكشاه فخرج السلطان مسعود والتقى هو والخليفة المسترشد فى عسكرين عظيمين عاشر رمضان فهزم عسكر الخليفة وقبض عليه وعلى خواصه وأنفذ السلطان شحنة الى بغداد فقبض جميع أملاك الخليفة وهجم جماعة من الباطنية على المسترشد وهو فى الخيمة فقتلوه وكتب السلطان الى شحنة بغداد يأمره بالبيعة لابنه أبى جعفر المنصور ابن المسترشد فبايعه فى السادس والعشرين من ذى القعدة ولقب بالراشد وكان عمر المسترشد ثلاثا وأربعين سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام وكانت خلافته سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وكان شهما شجاعا مقداما فصيحا وتمكن فى خلافته تمكنا عظيما لم يره أحد ممن تقدمه من الخلفاء من عهد المنتصر بالله الى خلافته الا ان يكون المعتضد والمكتفى لان المماليك كانوا قديما يخلعون الخلفاء ويحكمون عليهم ولم يزالوا كذلك الى ملك الديلم واستيلائهم على العراق فزالت هيبة الخلافة بالمرة الى انقراض دولة الديلم فلما ملك السلجوقية جددوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس لاسيما فى وزارة نظام الملك فانه أعاد الناموس والهيبة الى أحسن حالاتها الا ان الحكم والشحن بالعراق كان الى السلطان وكذلك العهد وضمان البلاد لم يكن للخلفاء الا اقطاع يأخذون دخله وأما المسترشد فانه استبدّ بالعراق بعد السلطان محمود ولم يكن للسلطان محمود معه فى كثير من الاوقات سوى الخطبة واجتمعت عليه العساكر وقاد الجيوش وباشر الحروب وفى سنة ثلاثين وخمسمائة سار الراشد الى الموصل صحبة زنكى ملتجئا اليه وذلك ان جماعة حسنوا له الخروج من بغداد لمحاربة السلطان مسعود فأجابهم الى ذلك وظهر منه تنقل فى الاحوال وتلوّن فى الاراء وقبض على جماعة من أعيان أصحابه وخافه الباقون وتقدّم السلطان مسعود وحصر بغداد واستظهر عليها فخرج الراشد ملتجئا الى زنكى فسار به الى الموصل ودخل مسعود بغداد وأمر بخلع الراشد ومبايعة عمه أبى عبد الله محمد بن المستظهر بالله ففعل ذلك ولقب المقتفى لامر الله وأما الراشد فان السلطان سنجر أرسل الى أتابك يأمره باخراجه عن بلده فسار الى أذربيجان ثم الى همدان فاجتمع اليه ملوك وعساكر كثيرة وسار السلطان اليهم فتصافوا

فانهزم الراشد وقصد اصبهان فقتلة الباطنية بها فى السابع والعشرين من رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ودفن باصبهان وفى سنة اثنتين وثلاثين أيضا تزوج زنكى بالخاتون صفوة الملك زمرّد ابنة الامير جاولى أم شمس الملوك اسماعيل واخوته بنى تاج الملوك بورى بن طغتكين أتابك وهى أخت الملك دقاق واليها ينسب مسجد خاتون الذى هو مدرسة لاصحاب أبى حنيفة بأعلى الشرف القبلى بأرض دمشق بأرض صنعاء وتسلم قلعة حمص

(فصل) فى جهاد زنكى للفرنج كان فى سنة اثنتين وثلاثين خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه خلق عظيم لا يحصون كثرة من الروم والفرنج وغيرهم من أنواع النصارى فقصد الشام فخافه الناس خوفا عظيما وكان زنكى مشغولا بما تقدم ذكره لا يمكنه مفارقة الموصل فقصد ملك الروم مدينة بزاعة وحصرها وهى على مرحلة من حلب وفتحها عنوة وقتل المقاتلة وسبى الذرية فى شعبان ثم سار عنها الى شيزر وهى حصن منيع على مرحلة من مدينة حماه فحصرها منتصف شعبان ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقا وارسل صاحبها أبو العساكر سلطان ابن منقذ الى زنكى يستنجده فنزل على حماه فكان يركب كل يوم فى عساكره ويسير الى شيزر بحيث يراه ملك الروم ويرسل السرايا يتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب ثم يعود آخر النهار وكان الروم والفرنج قد نزلوا على شرقى شيزر فارسل اليهم زنكى يقول لهم انكم قد تحصنتم بهذه الجبال فأخرجوا عنها الى الصحراء حتى نلتقى فان ظفرتم أخذتم شيزر وغيرها وان ظفرت بكم أرحت المسلمين من شركم ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم وانما كان يفعل هذا ترهيبا لهم فأشار الفرنج على ملك الروم بلقائه وقتاله وهونوا أمره فقال لهم الملك أتظنون ان معه من العساكر ما ترون وله البلاد الكثيرة وانما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا وتصحروا له فحينئذ ترون من كثرة عسكره ما يعجزكم وكان أتابك زنكى مع هذا يراسل فرنج الشام ويحذرهم ملك الروم ويعلمهم انه ان ملك بالشام حصنا واحدا أخذ البلاد التى بأيديهم منهم وكان يراسل ملك الروم يتهدده ويوهمه ان الفرنج معه فاستشعر كل واحد من الفرنج والروم من صاحبه فرحل ملك الروم عنها فى رمضان وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوما وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها فسار زنكى خلفهم وظفر بطائفة منهم فى ساقة العسكر فغنم منهم وقتل وأسر وأخذ جميع ما خلفوه ورفعه الى قلعة حلب وكفى الله المؤمنين القتال وكان المسلمون بالشام قد اشتدّ خوفهم وعلموا ان الروم ان ملكوا حصن شيزر لا يبقى لمسلم معهم مقام لاسيما مدينة حماه لقربها ولما يسر الله تعالى هذا الفتح مدح الشعراء الشهيد أتابك فأكثروا منهم أبو المجد المسلم بن الخضر بن المسلم بن قسيم الحموى له قصيدة قد ذكرتها فى ترجمته فى التاريخ أولها

بعزمك أيها الملك العظيم * تذل لك الصعاب وتستقيم
ألم تر ان كلب الروم لما * تبين انك الملك الرحيم
فجاء يطبق الفلوات خيلا * كأن الجحفل الليل البهيم
وقد نزل الزمان على رضاه * فكان لخطبه الخطب الجسيم
فحين رميته بك فى خميس * تيقن ان ذلك لا يدوم
وابصر فى المفاضة منك جيشا * فأحزن لا يسير ولا يقيم
كأنك فى العجاج شهاب نور * توقد وهو شيطان رجيم
أراد بقاء مهجته فولى * وليس سوى الحمام له حميم
يؤمل ان تجود بها عليه * وأنت بها وبالدنيا كريم
أيلتمس الفرنج لديك عفوا * وأنت بقطع دابرها زعيم
وكم جرعتها غصص المنايا * بيوم فيه يكتهل الفطيم
ولما ان طلبتهم تمنى الـ * منية جوسلينهم اللئيم
أقام يطوف الافاق حينا * وأنت على معاقله مقيم
فسار وما يعادله مليك * وعاد وما يعادله سقيم
اذا خطرت سيوفك فى نفوس * فأول ما يفارقها الجسوم

وله أيضاً من قصيدة مدح بها صلاح الدين محمد بن أيوب العمادى التوتان صاحب حماه

وما جاء كلب الروم الا ليحتوى ❊ حماة وهل يسطو على الاسد اكلب
أراد بها ان يملك الشام عنوة ❊ وقد غلبت عنه الضراغمة الغلب
وما ذم فيها العيش حتى صدمنه ❊ فمال جناح الجيش وانكسر القلب
فولى وأطراف الرماح كأنها ❊ نجوم عليه بالمنية تنصب

ولابن منير قصيدة فى مدح أتابك زنكى رحمه الله سيأتى بعضها عند ذكر فتحه مدينة الرها ان شاء الله تعالى ومنها

وما يوم كلب الروم الا أخو الذى ❊ أزحت به ما فى الجناجن من نبل
اتاك بمثل الروم حشداً وانه ❊ ليفضل اضعافاً كثيراً عن الرمل
فقاتلته بالله ثم بعزمة ❊ تصك قلوب العاشقين بما يسلى
توهم ان الشام مرعى ومادرى ❊ بأنك أمضى منه فى الشزر والسحل
فطار وخير المغنمين نماؤه ❊ اذا ردّ عنه مغنم المال والاهل

قال ابن الاثير ومن عجائب ما يحكى فى هذه الحادثة ان الخبر لما وصل بقصد الروم شيزر قام الامير مرشد بن على أخو صاحبها وهو ينسخ مصحفاً فرفعه بيده وقال اللهم بحق من أنزلته عليه ان قضيت بمجئ الروم فاقبضنى اليك فتوفى بعد أيام ونزل الروم بعد وفاته ولما عاد الروم الى بلادهم نزل أتابك الى حصن عرقه وهو من اعمال طرابلس فحصره وفتحه عنوة ونهب ما فيه وأسر من به من الفرنج وأخربه وعاد سالماً غانماً وفيها ملك قلعة دارا من حسام الدين تمرتاش وفيها توفى بهاء الدين على بن القاسم الشهرزورى قاضى الممالك الاتابكية وكان أعظم الناس منزلة عنده وفيها ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب بتكريت

﴿فصل﴾ فى فتح شهرزور وبعلبك وحصار دمشق قال ابن الاثير كانت شهرزور واعمالها وما يجاورها من البلاد والجبال فى يد قفجق بن ارسلان تاش التركمانى وكان مالكها نافذ الحكم على قاصى التركمان ودانيهم يرون طاعته فرضاً حتماً فتحامى الملوك قصد ولايته ولم يتعرضوا لها لحصانتها فعظم شأنه وازداد جمعه فلما كانت سنة أربع وثلاثين بلغ الشهيد اتابك عنه ما اقتضى ان يقصد بلاده فهزم عسكره وملك بلاد شهرزور وغيرها فأضافها الى بلاده واصلح احوال أهلها وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان وسار الى الموصل عازماً على المسير الى الشام فانه كان لا يرى المقام بل لا يزال ظاعناً اما لرد عدو يقصده واما لقصد بلاد عدو واما للغزو والفرنج وسد الثغور وكانت مياثر السروج أثر عنده من وثير المهاد والسهر فى حراسة المملكة أحب اليه من عرض الوساد وأصوات السلاح الذى سمعه من الغنا لا يجد لذلك كله عنا وفى هذه السنة وهى سنة أربع وثلاثين ولد تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى وفيها سار الشهيد فى جنوده بعد ملك شهرزور الى مدينة دمشق فحصرها وصاحبها حينئذ جمال الدين محمد بن بورى بن طغتكين وكان محكوماً عليه والغالب على أمره معين الدين بن مملوك جده طغتكين وكان اتابك قد أمر كمال الدين ابا الفضل بن الشهرزورى بمكاتبة جماعة من مقدمى احداثها وزناطرتها واستمالتهم واطمعهم فى الرغائب والصلات ففعل ذلك فأجابه منهم خلق كثير الى تسليم البلد وخرجوا متفرقين الى كمال الدين وجدد عليهم العهود وتواعدوا يوماً يزحف فيه الشهيد الى البلد ليفتحوا له الباب ويسلموا البلد اليه فاعلم كمال الدين الشهيد أتابك بذلك فقال لا أرى هذا رأياً فان البلد ضيق الطرق والشوارع ومتى دخل العسكر اليه لا يتمكنون من القتال فيه لضيقه وربما كثر المقاتلون لنا فنعجز عن مقاومتهم لانهم يقاتلون على الارض والسطوحات واذا دخلنا البلد اضطررنا الى التفرق لضيق المسالك فيطمع فينا أهله وعاد عن ذلك العزم بحزمه وحذره

ومن العجب ان محمد بن بورى صاحب دمشق توفى وأتابك يحصره فضبط آنز الامور وساس البلد فلم يتغير بالناس حال وأرسل الى بعلبك فأحضر ولده مجير الدين آتق بن محمد بن بورى ورتبه فى الملك مكان أبيه فمشى الحال بتمكين معين الدين آنز وحسن تدبيره وهذا مجير الدين آتق هو الذى منه أخذ نور الدين محمود بن زنكى دمشق كما سيأتى ولما دخل مجير الدين دمشق اقطع بعلبك معين الدين آنز فأرسل اليها نائبه وتسلمها فلما علم الشهيد ذلك سار الى بعلبك

وحصرها عدّة شهور فلكها عنوة وترك بها نجم الدين أيوب والد صلاح الدين دزدارا وعزم على العود عنها الى دمشق فجاءته رسل صاحبها ببذل الطاعة والخطبة فأجابه الى ذلك وعاد عن قصد دمشق وقد خطب له فيها وصار أصحابها فى طاعته وتحت حكمه قال يحيى ابن أبى طى الحلبى واتفق ان الامراء المنازلوا من بعلبك أفسدوا ذخائرها فقبض عليهم اتابك زنكى وقتل بعضهم وصلبهم وكان ولى قتلهم صلاح الدين محمد بن أيوب الناغبسانى فحكى انه أحضر اليه فى جملة الامراء شيخ مليح الشيبة ومعه ولد له أمرد كأنه فلقة قمر فقال الشيخ لصلاح الدين سألتك بحياة المولى اتابك الاصلبتنى قبل ولدى لئلا أراه يعالج سكرات الموت وبكى وكان نجم الدين أيوب واقفا فرحم الشيخ وبكى وسأل صلاح الدين فى اطلاقه فقال ما أفعل خوفا من المولى اتابك فذهب نجم الدين الى اتابك وسأله فى الشيخ وولده وقص عليه ما قاله فاذن باطلاقه واطلاق من بقى من الجماعة ووهبه نصف بعلبك وقيل ان نجم الدين ورد على اتابك وهو قد ملك بعلبك فسأله فى الامراء فأطلقهم له وولاه بعلبك وكتب له ثلثها ملكا واستقر فيها هو وأهله ولم يزل بها الى أيام نور الدين محمود بن زنكى فأخرجه منها على ما سنذكره ثم ان اتابك بعد ملكه بعلبك سار الى دمشق فنزل البقاع فوردت هدية صاحب دمشق ويطلب العود ويعطيه خمسين ألف دينار ويعطيه حمص فأشار نجم الدين على زنكى بقبول ذلك وقال هذا مال كثير وقد حصل بلا تعب وبلد كبير بلا عناء ودمشق بلد عظيم وقد آلف أهله هذا البيت وتمرنوا على سياستهم وقد بلغتهم الاحوال التى جرت ببعلبك فامتنع زنكى من قبول ما أشار به ففاته ذلك ولم يظفر بغرضه

(فصل) ثم سار اتابك الشهيد فى هذه السنة وهى سنة أربع وثلاثين الى بلاد الفرنج فأغار عليها واجتمع ملوك الفرنج وساروا اليه فلقيهم بالقرب من حصن بارين وهو للفرنج فصبر الفريقان صبرا لم يسمع بمثله الا ما يحكى عن ليلة الهرير ونصر الله المسلمين وهرب ملوك الفرنج وفرسانهم فدخلوا حصن بارين وفيهم ملك القدس لانه كان أقرب حصونهم وأسلموا اعدّتهم وعتادهم وكثر فيهم الجراح ثم سار الشهيد الى حصن بارين فحصره حصرا شديدا فراسلوه فى طلب الامان ليسلموا ويسلموا الحصن فأبى الا أخذهم قهرا فبلغه ان من بالساحل من الفرنج قد ساروا الى الروم والفرنج يستنجدونهم وينهون اليهم ما فيه ملوكهم من الحصر فجمعوا وحشدوا وأقبلوا الى الساحل ومن بالحصن لا يعلمون بشئ من ذلك لقوّة الحصر عليهم فأعادوا مراسلته فى طلب الامان فأجابهم وتسلم الحصن وساروا فلقيتهم امداد النصرانية فسألوهم عن حالهم فأخبروهم بتسليم الحصن فلاموهم وقالوا عجزتم عن حفظه يوما أو يومين فحلفوا لهم انا لم نعلم بوصولكم ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حصرنا والى الآن فلما عمى الاخبار عنا ظننا انكم قد أهملتم أمرنا فحقنا دمانا بتسليم الحصن قال ابن الاثير وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج عن المسلمين فان أهله كانوا قد خربوا ما بين حماه وحلب من البلاد ونهبوها وتقطعت السبل فأزال الله تعالى بالشهيد رحمه الله هذا الضرر العظيم وفى مدّة مقامه على حصن بارين سير جنده الى المعرة وكفرطاب وتلك الولاية جميعها فاستولى عليها وملكها وهى بلاد كبيرة وقرى عظيمة قلت وقد قال القيسرانى يذكر هزيمة الفرنج ويمدح زنكى قصيدة أوّلها

حذار منا وانى ينفع الحذر ❊ وهى الصوارم لا تبقى ولا تذر
وأين ينجو ملوك الشرك من ملك ❊ من خيله النصر لا بل جنده القدر
سلوا سيوفا كأغماد السيوف بها ❊ صالوا فما غمدوا نصلا ولا شهروا
حتى اذا ما عماد الدين أرهقهم ❊ فى مأزق من سناه يبرق البصر
ولو تضيق لهم ذرعا مسالكهم ❊ والموت لا ملجأ منه ولا وزر
وفى المسافة من دون النجاة لهم ❊ طول وان كان فى أقطارها قصر
وأصبح الدين لا عينا ولا أثرا ❊ يخاف والكفر لا عين ولا أثر
فلا تخف بعدها الافرنج قاطبة ❊ فالقوم ان نفروا ألوى بهم نفر
ان قاتلوا قتلوا أو حاربوا حربوا ❊ أو طاردوا طردوا أو حاصروا حصروا
وطالما استفحل الخطب البهيم بهم ❊ حتى أتى ملك آراؤه غرر
والسيف مقترع أبكار أنفسهم ❊ ومن هنالك قيل الصارم الذكر

لا فارقت ظل محيي العدل لامعة * كالصبح تطوى من الاعداء مانشروا
ولا انثنى النصر عن أنصار دولته * بحيث كان وان كانوا به نصروا
حتى تعود ثغور الشام ضاحكة * كأنما حل فى أكنافهم عمر

وقال ابن منير

فدتك الملوك وأيامها * ودام لنقضك ابرامها
وزلت لعيشك أقدامها * وزال لبطشك إقدامها
ولو لم تسلم اليك القلو * ب هواها الماصح اسلامها
أيا محيي العدل لما نعا * ه أيامى البرايا وأيتامها
ومستنقذ الدين من أمة * أزال المحاريب أصنامها
دلفت لها تقتفيك الاسو * د والبيض والسمر آجامها
جزرت جزيرتها بالسيو * ف حتى تشاءمها شامها
وصارت عوارى أكنافه * متى شئت أرخص مستامها

قال ابن الاثير ولما وصل الروم والفرنج الى الشام ورأوا الامر قد فات أراد واجبر مصيبتهم بنازلة بعض بلاد المسلمين فنازلوا حلب وحصروها فلم ير الشهيد ان يخاطر بالمسلمين ويلقاهم لانهم كانوا فى جمع عظيم فانحاز عنهم ونزل قريبا منهم يمنع عنهم الميرة ويحفظ أطراف البلاد من انتشار العدو فيها والاغارة عليها وأرسل القاضى كمال الدين بن الشهرزورى الى السلطان مسعود ينهى اليه الحال بأمر البلاد وكثرة العدو ويطلب منه النجدة وارسال العساكر فقال له كمال الدين أخاف ان تخرج البلاد من أيدينا ويجعل السلطان هذا حجة وينفذ العساكر فاذا توسطوا البلاد ملكوها فقال الشهيد ان هذا العدو قد طمع فى وان أخذ حلب لم يبق بالشام اسلام وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار قال فلما وصلت الى بغداد وأديت الرسالة وعدنى السلطان بانفاذ العساكر ثم أهمل ذلك ولم يتحرك فيه بشئ وكتب الشهيد الى متصلة يحثنى على المبادرة بانفاذ العساكر وأنا أخاطب فلا ازاد على الوعد قال فلما رأيت عدم اهتمام السلطان بهذا الامر العظيم أحضرت فلانا وهو فقيه كان ينوب عنه فى القضاء فقلت خذ هذه الدنانير وفرقها فى جماعة من أوباش بغداد والاعاجم واذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا وانت معهم واستغاثوا بصوت واحد واسلاماه وادين محمداه ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطنة مستغيثين ثم وضعت انسانا آخر يفعل مثل ذلك فى جامع السلطان فلما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر قام ذلك الفقيه وشق ثوبه وألقى عمامته عن رأسه وصاح وتبعه أولئك النفر بالصياح والبكاء فلم يبق بالجامع الا من قام يبكى وبطلت الجمعة وسار الناس كلهم الى دار السلطان وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم فاجتمع أهل بغداد وكل من بالعسكر عند دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثون وخرج الامر اعن الضبط وخاف السلطان فى داره وقال ما الخبر فقيل له ان الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر الى الغزاة فقال أحضروا ابن الشهرزورى قال فحضرت عنده وأنا خائف منه الا انى قد عزمت على صدقه وقول الحق فلما دخلت عليه قال يا قاضى ما هذه الفتنة فقلت ان الناس قد فعلوا هذا خوفا من الفتنة والشر ولا شك ان السلطان ما يعلم كم بينه وبين العدو وانما بينكم نحو أسبوع ولئن أخذوا حلب انحدروا اليك فى الفرات وفى البر وليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد وعظمت الامر عليه حتى جعلته كانه ينظر اليهم فقال اردد هؤلاء العامة عنا وخذ من العساكر ما شئت وسربهم والامداد تلحقك قال فخرجت الى العامة ومن انضم اليهم فأخبرتهم وعرفتهم الحال وأمرتهم بالعود فعادوا وتفرقوا وانتخبت من عسكره عشرة آلاف فارس وكتبت الى الشهيد أعرفه الخبر وانه لم يبق غير المسير وأجد استئذانه فى ذلك فأمرنى بتسييرهم والحث على ذلك فعبرت العساكر الجانب الغربى فبينما نحن نتجهز للحركة واذا قد وصل نجاب من الشهيد يخبر بأن الروم والفرنج قد رحلوا عن حلب خائبين لم ينالوا منها غرضا ويأمرنى بترك استصحاب العساكر فلما خوطب السلطان فى ذلك أصر على انفاذ العساكر الى الجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها وكان قصده ان تطأ عساكره البلاد بهذه الحجة فيملكها

فلم أزل أنوصل مع الوزير وأكابر الدولة حتى أعدت العساكر الى الجانب الشرقى وسرت الى الشهيد قال ابن الاثير فانظروا الى هذا الرجل الذى هو خير من عشرة آلاف فارس يعنى كمال الدين رحم الله الشهيد فلقد كان ذا همة عالية ورغبة فى الرجال ذوى الرأى والعقل يرغبهم ويخطبهم من البلاد ويوفر لهم العطا (حكى لى والدى) قال قيل للشهيد ان هذا كمال الدين يحصل له فى كل سنة منك مايزيد على عشرة آلاف دينار أميريّة وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار فقال لهم بهذا العقل والرأى تدبرون دولتى ان كمال الدين يقل له هذا القدر وغيره يكثر له خمسمائة دينار فان شغلا واحدا يقوم فيه كمال الدين خير من مائة ألف دينار وكان كما قال رحمه الله تعالى

﴿فصل﴾ قال وفى سنة سبع وثلاثين سار الشهيد الى بلد الهكارية وكان بيد الاكراد وقد أكثروا فى البلاد الفساد الا ان نصير الدين جقر نائب السلطان الشهيد بالموصل كان قد ملك كثيرا من بلادهم فلما بلغها الشهيد حصر قلعة الشعبانى وهى من أعظم قلاعهم وأحصنها فلكها وأخربها وأمر ببناء قلعة العمادية عوضا عنها وكانت هذه العمادية حصنا كبيرا عظيما فأخربه الاكراد لعجزهم عن حفظه لكبره فلما ملك اتابك الشهيد البلاد التى لهم قال اذا عجز الاكراد عن هذا الحصن فأنا بحول الله لا أعجز عنه فأمر ببنائه وكان رحمه الله ذا عزم ونفاذ أمر فبنى الحصن وسماه القلعة العمادية نسبة الى لقبه عماد الدين وفى هذه السنة خطب لاتابك بآمد وكان قد أرسل الى صاحبها يطلب منه الانفصال عن موافقة ركن الدولة داود صاحب الحصن والانتماء الى خدمته والخطبة له فأجابه الى ذلك وفيها ملك الشهيد مدينة عانة وفيها حصر مدينة حمص مرة أخرى وفتحها فى شوّال وقصد ولاية دمشق فشتى بها وفى سنة ثمان وثلاثين عزم السلطان مسعود على قصد الموصل بعساكره وكان قد وقع بينه وبين الشهيد وحشة فتردّدت الرسل بينهما حتى استقرت الحال على مائة ألف دينار أماميّة يحملها الشهيد الى السلطان وطلب ان يحضر الشهيد فى خدمته فامتنع واعتذر باشتغاله بالفرنج فعذره وشرط عليه فتح الرها وكان من أعظم الاسباب فى تأخر السلطان عن قصد الموصل انه قيل له ان مملكة البلاد لا يقدر على حفظها من الفرنج غير اتابك عماد الدين فانها قد وليها قبله مثل جاولى سفاوة ومودود وجيوش بك والبرسقى وغيرهم من الاكابر وكان السلاطين يمدّونهم بالعساكر الكثيرة ولا يقدرون على حفظها ولا يزال الفرنج يأخذون منها البلد بعد البلد الى ان وليها اتابك فلم يمدّه أحد من السلاطين بفارس واحد ولا بمال ومع هذا فقد فتح من بلاد العدو عدّة حصون وولايات وهزمهم غير مرة واستضعفهم وعز الاسلام به ومن الاسباب المانعة له أيضا ان الشهيد كان لا يزال ولده الاكبر سيف الدين غازى فى خدمة السلطان مسعود بأمر والده وكان السلطان يحبه ويقرّبه ويعتمد عليه ويثق به فأرسل اليه الشهيد يأمره بالهرب والمجىء الى الموصل وأرسل الى نائبه بالموصل يأمره ان يمنعه من دخول الموصل ومن المسير اليه أيضا ففعل ذلك وقال له ترسل الى والدك تستأذنه فى الذى تفعله فأرسل اليه فعاد الجواب انى لا أريدك مهما السلطان ساخط عليك فالزمه بالعود اليه فعاد ومعه رسول الى السلطان يقول له انى لما بلغنى ان ولدى فارق الخدمة بغير اذن لم اجتمع به ورددته الى بابك فحل هذا عند السلطان محلا كبيرا وأجاب الى ما أراد الشهيد ولما استقر المال حمل منه نحو عشرين ألف دينار ثم ان الامور تقلبت وعاد أصحاب الاطراف خرجوا على السلطان فاحتاج الى مداراة الشهيد وأطلق له الباقى استمالة له وفى هذه السنة سار الشهيد الى ديار بكر ففتح عدّة بلاد منها طنزة واسعرد وملك مدينة المعدن الذى يعمل منه النحاس من ارمينية ومدينة حيزان وأخذ من اعمال ماردين عدّة مواضع ورتب أمور الجميع وملك مدينة حانى وحاصر آمد وأرسل عسكرا الى مدينة عانة فلكها وقد تقدّم ذكرها فى السنة قبلها

﴿فصل﴾ فى فتح الشهيد الرها فى جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة وكانت لجوسلين وهو عاتى الفرنج وشيطانهم والمقدّم على رجالهم وفرسانهم وكانت مدة حصارها ثمانية وعشرين يوما وأعادها الى حكم الاسلام وهذه الرها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلا وهى احدى الكراسى عندهم فأشرفها البيت المقدّس ثم انطاكية ثم رومية ثم قسطنطينية والرها وكان على المسلمين من الفرنج الذين بالرها شرّ عظيم وملكوا من نواحى ماردين الى الفرات على طريق شبختان عدّة حصون كسروج والبيره وجملين والموزر وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر وماردين ورأس عين والرقة وأما حرّان فكانت معهم فى الخزى كل يوم قد صبحوها بالغارة

فلما رأى الشهيد الحال هكذا أنف منهم وعلم انه لا ينال منها غرضا مادام جوسلين بها فأخذ فى اعمال الحيل والخداع لعل جوسلين يخرج منها الى بعض البقاع فتشاغل عنها بقصد ما جاورها من ديار بكر التى بيد الاسلام كحانى وجبل جور وآمد فكان يقاتل من بها قتالا لا فيه ابقاء وهو يسر حسوا فى ارتغاء فهو يخطبها وعلى غيرها يحوم ويطلبها وسواها يروم ووكل بها من يخبره بخلوعرينها من آساده وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ظن انه لا فراغ له اليه وانه لا يمكنه الاقدام عليه ففارق الرها الى بلاده الشامية ليلاحظ اعماله ويتعهد ذخائره وأمواله فأقبل الشهيد مسرعا بعساكره الى الرها ثم وصف ابن الاثير الجيش وأنشد

بجيش جاش بالفرسان حتى ❋ ظننت البر بحرا من سلاح
وألسنة من العذبات حمر ❋ تخاطبنا بأفواه الرياح
وأروع جيشه ليل بهيم ❋ وغرته عمود للصباح
صفوح عند قدرته ولكن ❋ قليل الصفح ما بين الصفاح
وكان ثباته للقلب قلبا ❋ وهيبته جناحا للجناح

وألح الشهيد فى حصارها فلكها عنوة فاستباحها ونكس صلبانها وأباد قسوسها ورهبانها وقتل شجعانها وفرسانها وملأ الناس أيديهم من النهب والسبى ثم انه دخل البلد فراقه فأنف لمثله من الخراب فأمر باعادة ما أخذ من اثاث ومال وسبى ورجال وجوار وأطفال فردوا عن آخرهم لم يفقد منهم الا الشاذ والنادر فعاد البلد عامرا بعد ان كان داثرا ثم رتب البلد وأصلح من شأنه وسار عنه فاستولى على ما كان بيد الفرنج من المدن والحصون والقرايا كسروج وغيرها وأخلى الديار الجزرية من معرة الفرنج وشرهم وأصبح أهلها بعد الخوف آمنين وكان فتحا عظيما طار فى الآفاق ذكره وطاب بها نشره وشهده خلق كثير من الصالحين والأولياء

قال ابن الأثير (حكى) لى جماعة أعرف صلاحهم انهم رأوا يوم فتح الرها الشيخ أبا عبد الله بن على بن مهران الفقيه الشافعى وكان من العلماء العاملين والزاهدين فى الدنيا المنقطعين عنها وله الكرامات الظاهرة ذكروا عنه انه غاب عنهم فى زاويته يومه ذلك ثم خرج عليهم وهو مستبشر مسرور وعنده من الارتياح ما لم يروه أبدا فلما قعد معهم قال حدثنى بعض اخواننا ان أتابك زنكى فتح مدينة الرها وانه شهد معه فتحها يومنا هذا ثم قال ما يضرك يا زنكى ما فعلت بعد اليوم يردد هذا القول مرارا فضبطوا ذلك اليوم فكان يوم الفتح ثم ان نفرا من الاجناد حضر واعند هذا الشيخ وقالوا له منذ رأيناك على السور تكبر أيقنا بالفتح وهو ينكر حضوره وهم يقسمون انهم رأوه عيانا قال وحكى لى بعض العلماء بالاخبار والانساب وهو أعلم من رأيت بها قال كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت الرها وكان بها بعض الصالحين من المغاربة المسلمين وكان الملك يحضره ويكرمه ويرجع الى قوله ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين فلما كان الوقت الذى فتحت فيه الرها سير ملك الفرنج هذا جيشا فى البحر الى افريقية فنهبوا وغاروا وأسروا وجاءت الاخبار الى الملك وهو جالس وعنده هذا العالم المغربى وقد نعس وهو شبيه النائم فأيقظه الملك وقال يا فقيه قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت وكيت أين كان محمد عن نصرتهم فقال له كان قد حضر فتح الرها فتضاحك من عنده من الفرنج فقال لهم الملك لا تضحكوا فوالله ما قال عن غير علم واشتد هذا الملك فلم يمض غير قليل حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين فأنساهم شدة هذا الوهن رخاء ذلك الخبر لعلو منزلة الرها عند النصرانية قال وحكى لى أيضا غير واحد ممن أثق اليهم ان رجلا من الصالحين قال رأيت الشهيد بعد قتله فى المنام فى أحسن حال فقلت له ما فعل الله بك فقال غفر لى قلت بماذا قال بفتح الرها قلت وهناه القيسرانى عند فتح الرها بقصيدة أولها

هو السيف لا يغنيك الا جلاده ❋ وهل طوق الاملاك الا نجاده
وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا ❋ سناها وان فات العيون اتقاده
سمت قبة الاسلام فخرا بطوله ❋ ولم يك يسمو الدين لولا عماده
وزاد قسيم الدولة ابن قسيمها ❋ عن الله ما لا يستطاع زياده
ليهن بنى الايمان أمن ترفعت ❋ رواسيه عزا واطمأن مهاده

وفتح حديث فى السماع حديثه * شهى الى يوم المعاد معاده
أراح قلوبا طرن عن وكناتها * عليها قواف كل صدر فؤاده
لقد كان فى فتح الرهاء دلالة * على غير ما عند العلوج اعتقاده
يرجون ميلاد ابن مريم نصرة * ولم يغن عند القوم عنه ولاده
مدينة أفك منذ خمسين حجة * يفل حديد الهند عنها حداده
تفوت مدى الابصار حتى لوانها * ترقت اليه خان طرفا سواده
وجامحة عز الملوك قيادها * الى ان ثناها من يعز قياده
فأوسعها جر القراع مؤيد * بصير بتمرين الالد لداده
كأن سنا لمع الاسنة حوله * سرار ولكن فى يديه زناده
فأضرمها نارين حربا وخدعة * فاراع الاسور هاوانهداده
فصدت صدود البكر عند اقتضاضها * وهيهات كان السيف حتما سفاده
فيا ظفرا عم البلاد صلاحه * بمن كان قد عم البلاد فساده
فلا مطلق الا وشد وثاقه * ولا موثق الا وحل صفاده
ولا منبر الا ترنح عوده * ولا مصحف الا أنار مداده
فان يشكل الابرتر فيها حياته * والا فقل للنجم كيف سهاده
وباتت سرايا القمص تقمص دونها * كما تتنزا عن حريق جراده
الى أين يا اسرى الضلالة بعدها * لقد ذل غاويكم وعز رشاده
رويدكم لا مانع من مظفر * يعاند أسباب القضاء عناده
مصيب سهام الرأى لوان عزمه * رمى سد ذى القرنين أصمى سداده
وقل لملوك الكفر تسلم بعدها * ممالكها ان البلاد بلاده
كذا عن طريق الصبح فليتنه الدجى * فيا طالما غال الظلام امتداده
ومن كان املاك السموات جنده * فأية أرض لم ترضها جياده
ولله عزم ماء سيحان ورده * وروضة قسطنطينية مستراده

وله من قصيدة هنأ بها القاضى كمال الدين بن الشهرزورى أولها

هى جنة المأوى فهل من خاطب

يقول فيها

ان الصفائح يوم صافحت الرها * عطفت عليها كل اشوس ناكب
فتح الفتوح مبشرا بتمامه * كالفجر فى صدر النهار الآيب
لله أية وقفة بدرية * نصرت صحائبها بأيمن صاحب
ظفر كمال الدين كنت لقاحه * كم ناهض بالحرب غير محارب
وأمدكم جيش الملائك نصرة * يكتائب محشوة بكتائب
جنبوا الدبور وقد تمور ريح الصبا * جند النبوة هل لها من غالب
أترى الرها الورهاء يوم تمنعت * ظنت وجوب السور سورة لاعب
لا أين يا أسرى المهالك بعدها * ضاق الفضاء على نجاة الهارب
شدا الى أرض الفرنجة بعدها * ان الدروب على الطريق اللاحب
أفغركم والثار رهن دمائكم * ما كان من اطراق لحظ الطالب
واذا رأيت الليث يجمع نفسه * دون الفريسة فهو عين الواثب

وقال ابن منير

صفات مجدك لفظ جلّ معناه ❋ فلا استزدّ الذى أعطاكه الله
ياصارما بيمين الله قائمه ❋ وفى أعالى أعادى الله حدّاه
أصبحت دون ملوك الارض منفردا ❋ بلا شبيه اذا الاملاك أشباه
فداك من حاولت مسعاك همته ❋ جهلا وقصر عن مسعاك مسعاه
قل للاعادى الاموتوابه كمدا ❋ فالله خيبكم والله أعطاه
ملك تنام عن الفحشاء همته ❋ تقى وتسهر للمعروف عيناه
مازال يسمك والايام تخدمه ❋ فيما ابتلاه يؤدى ماتوخاه
حتى تعالت عن الشعرى مشاعره ❋ قدرا وجاوزت الجوزاء نعلاه
وقد روى الناس أخبار الكرام مضوا ❋ وأين مما رووه مارأيناه
أين الخلائف عن فتح أتيح له ❋ مظلل أفق الدنيا جناحاه
على المنابر من أنبائه ارج ❋ مقطوبة بفتيق المسك رياه
فتح أعاد على الاسلام بهجته ❋ فافتر مبسمه واهتز عطفاه
يهذى بمعتصم بالله فتكته ❋ حديثها نسخ الماضى وأنساه
ان الرها غير عمورية وكذا ❋ من رامها ليس مغزاه كمغزاه
أخت الكواكب عزا ما بغا أحد ❋ من الملوك لها وقافواتاه
حتى دلفت لها بالعزم يشحذه ❋ رأى يبيت فويق النجم مسراه
مشمرا وبنو الاسلام فى شغل ❋ عن بدء غرس لهم أثمار عقباه
يامحيى العدل اذ قامت نوادبه ❋ وعامر الجود لما امّح مغناه
يانعمة الله يستصفى المزيد بها ❋ للشاكرين ويستقنى صفاياه
أبقاك للدين والدنيا تحوطهما ❋ من لم يتوجك هذا التاج الاهو

ولابن منير ايضا من قصيدة تقدم بعضها

أيا ملكا ألقى على الشرك كلكلا ❋ أناخ على أماته كلكل الثكل
جمعت الى فتح الرها سدّ بابه ❋ بجمعك بين النهب والاسر والقتل
هو الفتح أنسى كل فتح حديثه ❋ وتوّج مسطور الرواية والنقل
فضضت به نقش الخواتم بعده ❋ جزيت جزاء الصدق عن خاتم الرسل
تجرّدت للاسلام دون ملوكه ❋ تبشك أسباب المذلة والخذل
أخو الحرب غذته القراع مفطما ❋ يشوب باقدام الفتى حنكة الكهل

وله من قصيدة أخرى

بعماد الدين أضحت عروة الديـ ❋ ـن معصوبا بها الفتح المبين
واستزادت بقسيم الدولة القسـ ❋ ـم من ادحاض كيد المارقين
ملك اسهر عينا لم تزل ❋ همها تشريد هم الراقدين
لاخلت من كحل النصر فقد ❋ فقأت غيظا عيون الحاسدين
كل يوم مر من أيامه ❋ فهو عيد عائد للمسلين
لو جرى الانصاف فى أوصافه ❋ كان أولاها أمير المؤمنين
ماروى الراون بل ماسطروا ❋ مثل ماخطت له أيدى السنين
اذا ناخ الشرك فى أكنافه ❋ بمأى ألف تلاها بثين

وقعة طاحت بكلب الروم من * قطعة البين الى قطع الوتين
ان حمت مصر فقد قام لها * واضح البرهان ان الصين صين
والرها لو لم تكن الا الرها * لكفت قطع الشك الممترين
هم قسطنطين ان يفرعها * ومضى لم يحومنها قسطنطين
ولكم من ملك حاولها * فتحلا الحين وسما فى الجبين
هى أخت النجم الا انها * منه كالنجم لرأى المبصرين
منيت منه بليث قائد * بعران الذل آساد العرين
زارها يزأر فى أسد وغى * تبدل الاسد من الزأر الانين
صولجوا بالبيض من بضرب نثـ * ـر الهام فى ساحاتها نثر الكرين
يا لها من ثغر أضحكت * من بنى القلف ثغور الشامتين
برنست رأس برنس ذلة * بعدما جاست حوايا جوسلين
وسروج مذوعت أسراجه * فرقت جماعها عنها عضين
تلك أقفال رماها الله من * عزمه الماضى بخير الفاتحين
شام منه الشام برقا ودقه * مؤمن الخوف مخيف الآمنين
كم كنيس كنست قد رامها * منه بعد الروح فى ظل السفين
دنت الآجال من آجالها * فأخلتها القطا بعد القطين
ومنار يجتلى صلبانه * بين بيض تتبارى فى البرين
قرعته البيض حتى بدّلت * قرعة الناقوس تثويب الاذين
بالقسيمات مقسوم لها الـ * ـدهر فى علك لجين أو لحين
سل بها حرّان كم حرّى سقت * بردا من يوم ردت ما ردين
سمطت أمس سميساط بها * نظم جيش منهج للناظرين
وغدا يلقى على القدس لها * كلكل يدرسها درس الدرين
همة تمسى وتضحى عزمة * ليس حصن ان تحطه بحصين
قل لقوم غرّهم امهاله * ستذوقون شذاه بعد حين
انه الموت الذى يدرك من * فرّ منه فسحقا للعاملين
وهو يحيى ممسكا عروته * انها حبل لمن تاب متين
من يطع ينج ومن يمكر يكن * من غداة عبرة للآخرين
بك ياشمس المعالى ردّت الـ * ـروح فى الميتين من دنيا ودين
أقسم الجدّ بأن تبقى لكى * تملك الارض يمينا لا يمين
وتفيض العدل فى اقطارها * منسيا مؤلم عسف الجائرين
لا تزل دارك كيف انتقلت * كعبة محفوظة بالطائفين
كل يوم يجتلى جيدها * من نظيم المدح بالدرّ الثمين
كلما أخلص فيها دعوة * لك قالت ألسن الخلق أمين

(فصل) لما فرغ الشهيد من أخذ الرها واصلاح حالها والاستيلاء على ماوراءها من البلاد والولايات سار الى قلعة البيرة وهى حصن حصين مطل على الفرات وهو لجوسلين أيضا فحصره وضايقه فأتاه الخبر بقتل نائبه بالموصل والبلاد الشرقية نصير الدين جقر بن يعقوب فرحل عنها خوفا من ان يحدث بعده فى البلاد فتق يحتاج الى المسير اليها فلما رحل عنها سير اليها حسام الدين تمرتاش بن ايلغازى صاحب ماردين عسكرا فسلمها الفرنج اليهم

خوفا من الشهيد ان يعود اليهم فيأخذها وكان قتل النصير فى ذى القعدة سنة تسع وثلاثين وسببه ان الملك الب ارسلان المعروف بالخفاجى ولد السلطان مسعود وأصحاب الاطراف يرون ان البلاد التى بيده للملك الب ارسلان وانه نائبه فيها وكان اذا ارسل رسولا أو أجاب عن رسالة فانما يقول قال الملك كذا وكذا وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليجمع العساكر باسمه ويخرج الاموال ويطلب السلطنة فعاجلته المنية قبل ذلك وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة وبها نصير الدين وهو ينزل اليه كل يوم يخدمه ويقف عنده ساعة ثم يعود فحسن المفسدون للملك قتله وقالوا له انك ان قتلته ملكت الموصل وغيرها ويعجز اتابك ان يقيم بين يديك ولا يجتمع معه فارسان عليك فوقع هذا فى نفسه وظنه صحيحا فلما دخل نصير الدين اليه على عادته وثب عليه جماعة فى خدمة الملك فقتلوه والقوا رأسه الى أصحابه ظنا منهم ان أصحابه اذا رأوا رأسه تفرقوا ويملك الملك البلاد وكان الامر بخلاف ماظنوا فان أصحابه وأصحاب اتابك الذين معه لما رأوا رأسه قاتلوا من بالدار مع الملك واجتمع معهم الخلق الكثير وكانت دولة الشهيد مملوءة بالرجال الاجلاد ذوى الرأى والتجربة فلم يتغير عليه بهذا الفتق شئ وكان فى جملة من حضر القاضى تاج الدين يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى أخو كمال الدين فدخل الى السلطان وخدعه حتى أصعده الى القلعة وهو يحسن له الصعود اليها وحينئذ يستقر له ملك البلاد فلما صعد القلعة سجنوه بها وقتل الغلمان الذين قتلوا النصير وأرسلوا الى اتابك يعرفونه الحال فسكن جاشه واطمأن قلبه وأرسل زين الدين على بن بكتكين واليا على قلعة الموصل وكان كثير الثقة به والاعتماد عليه فسلك بالناس غير الطريق التى سلكها النصير وسهل الامر فاطمأن الناس وأمنوا وازدادت البلاد معه عمارة ولما رأى الشهيد صلاح أمر الموصل سار الى حلب فجهز منها جيشا الى قلعة شيزر وبينها وبين حماه نحو أربعة فراسخ فحصرها قلت كذا وقع فى كتاب ابن الاثير وقد وهم فى قوله الب ارسلان المعروف بالخفاجى فالخفاجى غير الب ارسلان على ماذكره العماد الكاتب فى كتاب السلجوقية فانه قال كان مع زنكى ملكان من أولاد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه احدهما يسمى الب ارسلان وهو فى معقل من معاقل سنجار والآخر يسمى فرخشاه ويعرف بالملك الخفاجى وهو بالموصل وكان هذا الملك قد أسلمه الى الاميرد بيس بن صدقة فانتزعه منه زنكى فى حرب جرت فكانت زوجة زنكى خاتون السكمانية تربيه حتى بلغ وكان النصير يقبض عنانه ويبسط فيه لسانه ويقول ان عقل والا عقلته وان ثقل طبعه والا ثقلته فدبر فى قتله مع أصحابه فقطعوه فى دهليز داره لما دخل للسلام على الملك ثم أصعد القاضى تاج الدين الملك الى القلعة فلم يرله أثر والتقط مماليكه ثم عطف زنكى على الملك الآخر الب ارسلان فاستخرجه من معقله وعنى بتفاصيل أمره وجمله وضرب له نوبتيه ونوبا ورتب له فى حالتى ركوبه وجلوسه رتبا وأغرى بتولى اكرامه وتوخيه وغرضه خفاء ماجرى من هلاك أخيه ثم ذكر قصة موت زنكى على قلعة جعبر كما سيأتى وفى سنة أربعين وخمسمائة أرسل اتابك الى زين الدين على يأمره بارسال عسكر الى حصن فنك يحصره فسير خلقا كثيرا من الفرسان والرجالة فأقاموا عليه يحصرونه الى ان أتاهم الخبر بقتل الشهيد اتابك وهذا الحصن هو مجاور جزيرة ابن عمر وهو للاكراد البشنوية وله معهم مدة طويلة يقولون نحو ثلثمائة سنة وهو من أمنع الحصون مطل على دجلة وله سرب الى عين ماء لا يمكن ان يحال بين أهله وبينها قلت وفى هذه السنة أنشد ابن منير بالرقة عماد الدين زنكى يهنيه بالعافية من مرض عرض له فى يده ورجله قصيدة أولها

يابدر لاأفل ولامحاق ❊ ولايرم مشرقك الاشراق
بالدين والدنيا الذى يشكو وهل ❊ يهتز فرع لم يقمه ساق
لن تورق القضب ويجرى ماؤها ❊ الا اذا ما التاثت الاعراق
انّ الرعايا ماسلمت فى حمى ❊ للخطب عن طرقته إطراق
غرست بالعدل لهم خمائلا ❊ ترتع فى حديقها الاحداق
ياهضبة الدين التى عاذبها ❊ فعاد لابغت ولاارهاق
لولم تحطه راحتلاوقافلا ❊ أصبح لاشام ولاعراق
عمادين مذ أقام زيغه ❊ حيى ومات الشرك والنفاق

يا محيي العدل الذى فى ظله * تسر بلت زينتها الآفاق
يفديك من لان مهاد جنبه * لما نبا بجنبك الاقلاق
من لشبا سيفك انبطت له الـ * عذب وماعيشته زعاق
تجترع السم ولولم تجنه * بحده لعزه الدرياق
ملوك أطراف حمى أطرافها * عزمك هذا اللاحق السباق
لولم ترق ماء كرى العين لما * ساغت بأفواههم الارياق
شققت من دونهم مرج الردا * وشق أكبادهم الشقاق
أقسم لو كلفتهم ان يسمعوا * حديث أيامك ما أطاقوا
لما اشتكيت دب فى أهوائهم * توجس للسمع واستراق
تطاولوا لاعدمت أمالهم * قصرا ولاجانبها الاحقاق
توهموها غسقا ثم انجلت * والصفو من مشربهم غساق
لئن ألم ألم بقدم * خد السها لنعلها طراق
أو كان مد يده الى يد * يجرى بها الآجال والارزاق
فالنصل يعلى صدأ وتحته * حد حسام وسنا رقراق
رمى الصليب بصليب الرأى عن * زوراء أوهى نزعها الاغراق
ونوم من خلف الخليج سهر * والعيش فى فرنجة سياق
ماتوا فلاهمس ولا اشارة * خوف هموس زاره ازهاق
لا سبلت منك الليالى ما كست * ولاعرت جدتك الاخلاق

﴿فصل﴾ فى وفاة زنكى رحمه الله قال ابن الاثير كانت قلعة جعبر قد سلمها السلطان ملكشاه الى الامير سالم بن ملك العقيلى لما ملك قسيم الدولة مدينة حلب فلم تزل بيده وبيد أولاده الى سنة احدى وأربعين فسار الشهيد اليها فحصرها وحصر فنك لئلا يبقى فى وسط بلاده ما هو لغيره دون قلعة العزم الذى كان عنده والاحتياط وأقام عليه يحصره بنفسه الى ان مضى من شهر ربيع خمس ليال فبيناهو نائم دخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه ولم يجهزوا عليه وهربوا من ليلتهم الى القلعة ولم يشعر أصحابه بقتله فلما صعد أولئك النفر الى القلعة صاح من بها الى العسكر يعلمهم بقتله فبادر أصحابه اليه فأدركه أوائلهم وبه رمق ثم ختم الله له بالشهادة أعماله

لاقى الحمام ولم أكن مستيقنا * ان الحمام سيبتلى بحمام

فأضحى وقد خانه الامل وأدركه الاجل وتخلى عنه العبيد والخول فأى نجم للاسلام أفل وأى ناصر للايمان رحل وأى بحرندى نضب وأى بدر مكارم غرب وأى أسد افترس ولم ينجه قلة حصن ولا صهوة فرس فكم أجهد نفسه لتمهيد الملك وسياسته وكم أذبها فى حفظه وحراسته فأتاه مبيد الامم ومفنيها فى الحدث والقدم فأصار بعد القهر للخلائق مقهورا وبعد وثير المضاجع فى التراب معفرا مقبورا رهين جدث لا ينفعه الا ما قدم فطويت صحيفة عمله فهو موثوق فى صورة مستسلم ثم دفن بصفين عند أصحابه على أمير المؤمنين على رضى الله عنه قلت وذكر العماد الكاتب فى كتاب السلجوقية قال قصد زنكى حصار قلعة جعبر فنازلها وكان اذا نام ينام حوله عدة من خدامه الصباح وهو يحبهم ويحبونه ولكنهم مع الوفاء منه يجفونه وهم أبناء الفحول القروم من الترك والروم وكان من دأبه انه اذا انقم على كبير أرداه واقصاه واستبقى ولده عنده وأخصاه فنام ليلة موته وهو سكران فشرع الخدام فى اللعب فزجرهم وزبرهم وتوعدهم فخافوا من سطوته فلما نام ركبه كبيرهم واسمه برتقش فذبحه وخرج ومعه خاتمه فركب فرس النوبة موهما انه يمضى فى مهم وهولا يرتاب به لانه خاص زنكى فأتى الخادم أهل القلعة فأخبرهم وذكر الحديث قلت ثم نقل الى الرقة فدفن بها وقبره الآن فيها قال ابن الاثير وكان حسن الصورة مليح العينين قد وخطه الشيب طويلا وليس بالطويل البائن وخلف من الاولاد سيف الدين غازيا وهو الذى ولى بعده ونور الدين محمودا الملك العادل وقطب

الدين مودود وهو أبو الملوك بالموصل ونصرة الدين أميرأميران وبنتا فانقرض عقب سيف الدين من الذكور والاناث ونور الدين من الذكور ولم يبق الملك الا فى عقب قطب الدين ولقد أنجب رحمه الله فان أولاده الملوك لم يكن مثلهم قلت ومن عجيب ماحكى انه لما اشتد حصار قلعة جعبر جاء فى الليل ابن حسان المنبجى ووقف تحت القلعة ونادى صاحبها فأجابه فقال له هذا المولى اتابك صاحب البلاد وقد نزل عليك بعساكر الدنيا وأنت بلا وزير ولا معين وأنا أرى ان أدخل فى قضيتك وآخذ لك من المولى اتابك مكانا عوض هذا المكان وان لم يفعل فأى شئ تنتظر فقال له صاحب القلعة انتظر الذى انتظر أبوك وكان بلك بن بهرام صاحب حلب قد نزل على أبيه حسان وحاصره فى منبج أشد حصار ونصب عليه عدة مجانيق وقال يوما لحسان وقد أحرقه بحجارة المجنيق أى شئ تنتظر اما تسلم الحصن فقال له حسان انتظر سهما من سهام الله فلما كان من الغد بينا بلك يرتب المجنيق اذ أصابه سهم غرب وقع فى لبته فخر ميتا ولم يكن من جسده شئ ظاهر الا ذلك المكان لانه كان قد لبس الدرع ولم يزرها على صدره فلما سمع ابن حسان ذلك من مقالة صاحب قلعة جعبر رجع عنه وفى تلك الليلة قتل اتابك فكان هذا من الاتفاقات العجيبة والعبر الغريبة ذكر ذلك يحيى بن أبى طى فى كتاب السيرة الصلاحيه

(فصل) فى بعض سيرة الشهيد اتابك زنكى وكانت من أحسن سير الملوك وكانت رعيته فى أمن شامل يعجز القوى عن التعدى على الضعيف قال ابن الاثير حدثنى والدى قال قدم الشهيد الينا جزيرة ابن عمر فى بعض السنين وكان زمن الشتاء فنزل بالقلعة ونزل العسكر فى الخيام وكان فى جملة أمرائه الامير عز الدين أبو بكر الدبيسى وهو من أكابر أمرائه ومن ذوى الرأى عنده فدخل الدبيسى البلد ونزل بدار انسان يهودى وأخرجه منها فاستغاث اليهودى الى الشهيد وهو راكب فسأل عن حاله فأخبر به وكان الشهيد واتفاوالدبيسى الى جانبه ليس فوقه أحد فلما سمع اتابك الخبر نظر الى الدبيسى نظر مغضب ولم يكلمه كلمة واحدة فتأخر القهقرى ودخل البلد وأخرج خيامه وأمر بنصبها خارج البلد ولم تكن الارض تحتمل وضع الخيام عليها لكثرة الوحل والطين قال فلقد رأيت الفراشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته فلما رأوا كثرته جعلوا على الارض تبنا ليقيموها ونصبوا الخيام وخرج اليها من ساعته قال وكان ينهى أصحابه عن اقتناء الاملاك ويقول مهما كانت البلاد لنا فأى حاجة لكم الى الاملاك فان الاقطاعات تغنى عنها وان خرجت البلاد عن أيدينا فان الاملاك تذهب معها ومتى صارت الاملاك لاصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليهم وغصبوهم أملاكهم ثم ذكر ماتجدد فى أيامه من عمارة البلاد لاسيما بالموصل وذلك لحسن سيرته فكان يقصده الناس ويتخذون بلاده دار اقامة وهو الذى أمر ببناء دور المملكة بالموصل ولم يكن بها للسلطان غير الدار المعروفة بدار الملك مقابل الميدان ثم رفع سورها وعمق خندقها وهو الذى فتح الباب العمادى واليه ينسب قال وكانت الموصل أقل بلاد الله فاكهة وكان الذى يبيع الفواكه يكون عنده مقراض يقص به العنب لقلته اذا أراد ان يزنه فلما عمرت البلاد عملت البساتين بظاهر الموصل وفى ولايتها قال ومن أحسن آرائه انه كان شديد العناية بأخبار الاطراف وما يجرى لاصحابها حتى فى خلواتهم لاسيما دركات السلطان وكان يغرم على ذلك المال الجزيل فكان يطالع ويكتب اليه بكل مايفعله السلطان فى ليله ونهاره من حرب وسلم وهزل وجد وغير ذلك فكان يصل اليه كل يوم من عيونه عدة قاصدين وكان مع اشتغاله بالامور الكبار من أمور الدولة لايهمل الاطلاع على الصغير وكان يقول اذا لم يعرف الصغير ليمنع صار كبيرا وكان لايمكن رسول ملك يعبر فى بلاده بغير أمره واذا استأذنه رسول فى العبور فى بلاده اذن له وأرسل اليه من يسيره ولا يتركه يجتمع بأحد من الرعية ولا غيرهم فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولم يعلم من أحوالها شيئا وكان يتعهد أصحابه ويمتحنهم سلم يوما خشكنانكة الى طشت دار له وقال احفظ هذه فبقى نحو سنة لايفارق الخشكنانكة خوفا ان يطلبها منه فلما كان بعد ذلك قال له أين الخشكنانكة فأخرجها فى منديل وقدمها بين يديه فاستحسن ذلك منه وقال مثلك ينبغى ان يكون مستحفظا لحصن وأمر له بدزدارية قلعة كواشى فبقى فيها الى ان قتل اتابك وكان لايمكن أحدا من خدمه من مفارقة بلاده ويقول ان البلاد كبستان عليه سياج فمن هو خارج السياج يهاب الدخول فاذا خرج منها من يدل على عورتها ويطمع العدو فيها زالت الهيبة وتطرق الخصوم اليها قال ومن صائب رأيه وجيده ان سير طائفة من التركمان الايوانية مع الامير اليارق الى الشام وأسكنهم بولاية

حلب وأمرهم بجهاد الفرنج وملكهم كلما استنقذوه من البلاد للفرنج وجعله ملكا لهم فكانوا يغادون الفرنج بالقتال ويراوحونهم وأخذوا كثيرا من السواد وسدّوا ذلك الثغر العظيم ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم الى نحو سنة ستمائة قال ومن آرائه انه لما اجتمع له الاموال الكثيرة أودع بعضها بالموصل وبعضها بسنجار وبعضها بحلب وقال ان جرى على بعض هذه الجهات خرق أوحيل بيني و بينه استعنت على سدّ الخرق بالمال في غيره قال وأما شجاعته وأقدامه فاليه النهاية فيهما وبه كانت تضرب الامثال ويكفي في معرفة ذلك جملة انه ولا يته أحدق بها الاعداء والمنازعون من كل جانب الخليفة المسترشد والسلطان مسعود وأصحاب أرمنية وأعمالها بيت سكمان وركن الدولة داود صاحب حصن كيفا وابن عمه صاحب ماردين ثم الفرنج ثم صاحب دمشق وكان ينتصف منهم و يغزو كلا منهم في عقرداره و يفتح بلادهم ماعدا السلطان مسعود فانه كان لا يباشر قصده بل كان يحمل أصحاب الاطراف على الخروج عليه فاذا فعلوا عاد السلطان محتاجا اليه وطلب منه ان يجمعهم على طاعته فيصير كالحاكم على الجميع وكل يداريه و يخضع له و يطلب منه ما تستقرّ القواعد على يده قال وأمّا غيرته فكانت شديدة ولاسيما على نساء الاجناد فان التعرّض اليهنّ كان من الذنوب التي لا يغفرها وكان يقول ان جندي لا يفارقوني في أسفاري وقلما يقيمون عند أهلهم فان نحن لم نمنع من التعرّض الى حرمهم هلكن وفسدن قلت وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري وذكر حديث رجم النبي صلى الله عليه وسلم ماعزا قال ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا قال أو كلما انطلقنا غزاة في سبيل الله خلف رجل في عيالنا له نبيب كنبيب التيس عليّ الا اوتي برجل فعل ذلك الا نكلت به قال ابن الاثير وكان قد أقام بقلعة الجزيرة دزدارا اسمه نور الدين حسن البربطي وكان من خواصه وأقرب الناس اليه وكان غير مرضي السيرة فبلغه عنه انه يتعرّض للحرم فأمر حاجبه صلاح الدين الباغبسالي انه يسير مجدّا ويدخل الجزيرة فاذا دخلها أخذ البربطي وقطع ذكره وقلع عينيه عقوبة لنظره بهما الى الحريم ثم يصلبه فسار الصلاح مجدا فلم يشعر البربطي الا وقد وصل الى البلد فخرج الى لقائه فأكرمه ودخل معه البلد وقال المولى اتابك يسلم عليك ويريد ان يعلي قدرك ويرفع منزلك ويسلم اليك قلعة حلب ويوليك جميع البلاد الشامية لتكون هنالك مثل نصير الدين فتجهز وتحدّر مالك في الماء الى الموصل وتسير الى خدمته ففرح ذلك المسكين فلم يترك له قليلا ولا كثيرا الا نقله الى السفن ليحدرها الى الموصل في دجلة فحين فرغ من جميع ذلك اخذه الصلاح وأمضى فيه ما أمر به وأخذ جميع ماله فلم يتجاسر بعده أحد على سلوك شئ من أفعاله قال وأما صدقاته فقد كان يتصدّق كل جمعة بمائة دينار أميري ظاهرا ويتصدّق فيما عداه من الايام سرا مع من يثق به وركب يوما فعثرت به دابته فكاد يسقط عنها فاستدعى أميرا كان معه فقال له كلاما لم يفهمه ولم يتجاسر على ان يستفهمه منه فعاد عنه الى بيته وودّع أهله عازما على الهرب فقالت له زوجته ماذنبك وما حملك على هذا الهرب فذكر لها الحال فقالت له انّ نصير الدين له بك عناية فاذكر له قصتك وافعل ما يأمرك به فقال أخاف ان يمنعني من الهرب فاهلك فلم تزل زوجته تراجعه وتقوّي عزمه فعرّف النصير حاله فضحك منه وقال له خذ هذه الصرّة الدنانير واحملها اليه فهي التي أراد فقال الله الله في دمي ونفسي فقال لا بأس عليك فانه ما أراد غير هذه الصرّة فحملها اليه فحين رآه قال أمعك شئ قال نعم فأمره ان يتصدّق به فلما فرغ من الصدقة قصد النصير وشكره وقال من أين علمت انه أراد الصرة فقال له انه يتصدّق في هذا اليوم بمثل هذا القدر يرسل الى من يأخذه من الليل وفي يومنا هذا لم يأخذه ثم بلغني انّ دابته عثرت به حتى كاد يسقط الى الارض وأرسلك اليّ فعلمت انه ذكر الصدقة قال وحكى لي من شدّة هيبته ما هو أشدّ من هذا قال والدي خرج يوما الشهيد من القلعة بالجزيرة من باب السر خلوه وملاح له نائم فأيقظه بعض الجاندارية وقال له اقعد فحين رأى الشهيد سقط الى الارض فحركوه فوجدوه ميتا قال وكان الشهيد قليل التلوّن والتنقل بطئ الملل والتغير شديد العزم لم يتغير على أحد من أصحابه مذ ملك الى ان قتل الا بذنب يوجب التغير والامراء والمقدّمون الذين كانوا معه أولا هم الذين بقوا أخيرا من سلم منهم من الموت فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له وكان الانسان اذا قدم عسكره لم يكن غريبا ان كان جنديا اشتمل عليه الاجناد وأضافوه وان كان صاحب ديوان قصد أهل الديوان وان كان عالما قصد القضاة بني الشهرزوري فيحسنون اليه ويؤنسون غربته فيعود

كانه أهل وسبب ذلك جميعه انه كان يخطب الرجال ذوى الهمم العليه والاراء الصائبة والانفس الابيه ويوسع عليهم فى الارزاق فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف قلت وما أحسن ما وصفه به أحمد بن منير من قوله فى قصيدة

فى ذرا ملك هو الدهـ * ـر عطاء واستلابا
من له كف تبذ الغيـ * ـث سحا وانسكابا
فاتح فى وجه كل * أزمة للنصر بابا
ترجف الدنيا اذا حر * ك للسير الركابا
وتحـ ـزا المشمخرا * ت اختلالا واضطرابا
وترى الاعـ ـداء من * هيبته تأوى الشعابا
واذا ما لفحتهـ ـم نا * ره صاروا كبابا
يا عماد الدين لا زا * ت على الدين سحابا
جاعـ ـلا من دونه * سيفك ان ريع حجابا
فالبس النعماء فى الام * ن الذى طبت وطابا
وأصف عيشا ان أعـ * ـداءك قد صاروا ترابا

وقال العماد الكاتب استولى زنكى على الشام من سنة اثنتين وعشرين الى أن قتل فى سنة احدى وأربعين وهو الذى فتح الرها عنوه واحتل بها من السعادة ذروه فتسنى بفتح الرها للمسلمين وجاس بلاد جوسلين وعاد جميعها الى الاسلام فى عهد ولد زنكى نور الدين وصارت عقود الفرنج من ذلك الحين تنفسخ وأمورها تنتسخ ومعاقلها تفرع وعقائلها تفترع وقال الرئيس أبو يعلى التميمى كانت الاعمال بعد قتل زنكى قد اضطربت والمسالك قد اختلت بعد الهيبة المشهوره والامنة المشكوره وانطلقت أيدى التركمان والحرامية فى فساد الاطراف والعيث فى سائر النواحى والاكناف ونظمت فى صفة هذه الحال أبيات من قصيدة

كذاك عماد الدين زنكى تنافرت * سعادته عنه وخرت دعائمه
وكم بيت مال من نضار وجوهر * وأنواع ديباج حوتها مخاتمه
وأضحت بأعلى كل حصن مصونة * يحامى عليها جنده وخوادمه
ومن صافنات الخيل كل مطهم * يروع الاعادى حليه وبراجمه
فلو رامت الكتاب وصف شياتها * بأقلامها ما أدرك الوصف ناظمه
وكم معقل قد رامه بسيوفه * وشامخ حصن لم تفته غنائمه
وكانت ولاة الارض فيها لامره * وقد أمنتهم كتبه وخواتمه
وأمن من فى كل قطر لهيبة * يراع بها اعرابه وأعاجمه
وظالم قوم حين يذكر عدله * فقد زال عنهم ظلمه وخصائمه
وأصبح سلطان البلاد بسيفه * وليس له فيها نظير يزاحمه
وزاد على الاملاك بأسا وسطوة * ولم يبق فى الاملاك ملك يقاومه
فلما تناهى ملكه وجلاله * وراعت ولاة الارض منه لوائمه
أتاه قضاء لا ترد سهامه * فلم تحمه أمواله ومغانمه
وأدركه للحين فيها حمامه * وحامت عليه بالمنون حوائمه
وأضحى على ظهر الفراش مجدلا * صريعا تولى ذبحه فيه خادمه
وقد كان فى الجيش اللهام مبيته * ومن حوله ابطاله وصوارمه
وسمر العوالى حوله بأكفهم * تذود الردى عنه وقد نام نائمه

ومن دون هذا عصبة قد ترتبت * بأسهمها يردى من الطير حائمه
وكم رام فى الايام راحة سره * وهمته تعلو وتقوى شكائمه
وكم ملك للسفر آمن سبله * ومسرح حى لن تراع سوائمه
وكم ثغر اسلام حواه بسيفه * من الروم لما أدركته مراحمه
فمن ذا الذى يأتى بهيبة مثله * وينفذ فى أقصى البلاد مراسمه
فلو رقيت فى كل مصر بذكره * أراقه ذلت هناك أراقمه
فمن ذا الذى ينجو من الدهر سالما * اذا ما أتاه الامر والله حاتمه
ومن رام صفوا فى الحياة فبارى * له صفو عيش والحمام يحاومه
فاياك لا تغبط مليكا بملكه * ودعه فان الدهر لا شك قاصمه
وقل للذى يبنى الحصون لحفظه * رويدك ماتبنى فدهرك هادمه
وفى مثل هذا عبرة ومواعظ * بها يتناسى المرء ماهو عازمه

قال وفى ثامن عشر جمادى الآخرة من السنة وصل الخادم برتقش القاتل لعماد الدين زنكى وانفصل من قلعة جعبر لخوف صاحبها من طلبه منه فوصل دمشق ميقنا انه قد أمن بها ومدلا بما فعله وظنا منه ان الحال على ماتوهمه فقبض عليه وأنفذ الى حلب من صحبه من حفظه وأوصله فأقام بها أياما ثم حمل الى الموصل وذكر انه قتل بها قلت وللحكيم أبى الحكم المغربى قصيدة فى مرثية الشهيد عماد الدين زنكى رحمه الله منها

عين لا تذخرى المدامع وابكى * واستهلى دما على فقد زنكى
لم يهب شخصه الردى بعد ان كا * نت له هيبة على كل تركى
خير ملك ذى هيبة وبهاء * وعظيم بين الانام بزرك
يهب المال والجياد لمن يمـ * ـمه مادحا بغير تلكى
ان دارا تمدنا بالرزايا * هى عندى أحق دار بترك
فاسكبوا فوق قبره ماء ورد * وانضحوه بزعفران ومسك
أى قتل جرى له فى الاعادى * بعد ما استفتح الرها أى فتك
كل خطب أتت به نوب الدهـ * ـر يسير فى جنب مصرع زنكى
بعد ما كاد ان تدين له الرو * م ويحوى البلاد من غير شك

(فصل) فيما جرى بعد قتل زنكى من تفرق أصحابه وتملك ولديه غازى ومحمود قال الرئيس أبو يعلى توجه الملك ولد السلطان المقيم كان معه فيمن صحبه وانضم اليه الى ناحية الموصل ومعه سيف الدين غازى بن عماد الدين اتابك وامتنع عليهم الوالى بالموصل على كوجك أياما الى حين تقررت الحال بينهم ثم فتح الباب ودخل ولده واستقام له الامر وانتصب منصبه وعاد الامير سيف الدولة سوار وصلاح الدين يعنى محمد بن أيوب الياغبسانى فى تلك الحال الى ناحية حلب ومعهما الامير نور الدين محمود بن زنكى وحصل بها وشرع فى جمع العساكر وانفاق المال فيها واستقام له الامر وسكنت الدهماء وفصل عنه الامير صلاح الدين وحصل بحماة ولايته على سبيل الاستيحاش والخوف على نفسه من أمر يدبر عليه وقال الحافظ أبو القاسم لما راهق نور الدين لزم خدمة والده الى ان انتهت مدته على قلعة جعبر وسير فى صبيحة الاحد الملك الب ارسلان بن السلطان مسعود الى الموصل مع جماعة من أكابر دولة أبيه وقال لهم ان وصل أخى سيف الدين غازى الى الموصل فهى له وأنتم فى خدمته وان تأخر فانا أقرر أمور الشام وأتوجه اليكم ثم قصد حلب ودخل قلعتها يوم الاثنين سابع ربيع الآخر ورتب النواب فى القلعة والمدينة قال ابن أبى طى الحلبى لما اتصل قتل اتابك باسد الدين شيركوه ركب من ساعته وقصد خيمة نور الدين وقال له اعلم ان الوزير جمال الدين قد أخذ عسكر الموصل وعول على تقديم اخيك سيف الدين وقصده الى الموصل وقد انضوى اليه جل العسكر وقد أنفذ الى جمال الدين وأرادنى على اللحاق به فلم أعرج عليه وقد رأيت ان أصيرك الى حلب وتجعلها

. كرسى ملكك وتجمع فى خدمتك عساكر الشام وأنا أعلم ان الامر يصير جميعه اليك لان ملك الشام يحصل بحلب ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق فركب وأمر ان ينادى فى الليل فى عساكر الشام بالاجتماع فاجتمعوا وساروا فى خدمة نور الدين الى حلب ودخلوها سابع ربيع الاول ولما دخلوا حلب جاء أسد الدين الى تحت القلعة ونادى واليها واصعد نور الدين اليها وقرر امره ومشى أحواله فكان نور الدين يرى له ذلك وأسد الدين يمن بأنه كان السبب فى توليته وقال ابن الاثير لما قتل اتابك الشهيد ركب الملك الب ارسلان ابن السلطان مسعود وكان مع الشهيد واجتمعت العساكر عليه وخدموه فأرسل جمال الدين الوزير الى الصلاح يقول له المصلحة ان يترك ما كان بيننا وراء ظهورنا ونسلك طريقا يبقى به الملك فى اولاد صاحبنا ونعم بيته جزاء لاحسانه الينا فان الملك قد طمع فى البلاد واجتمعت عليه العساكر ولئن لم نتلاف هذا الامر فى أوله ونتداركه فى بدايته ليستعز الخرق ولا يمكن رقعه فأجابه الصلاح الى ذلك وحلف كل واحد منهما لصاحبه فركب الجمال الى الملك نخدمه وضمن له فتح البلاد وأطمعه فيها ومعه الصلاح وقالا له ان اتابك كان نائبا عنك فى البلاد وباسمك كنا نطيعه فقبل قولهما وظنه حقا وقربهما طمعا ان يكونا عوناله على تحصيل غرضه وأرسلا الى زين الدين بالموصل يعرفانه قتل الشهيد ويأمرانه بالارسال الى سيف الدين غازى وهو ولد عماد الدين زنكى الاكبر واحضاره الى الموصل وكان بشهرزور وهى اقطاعه من أبيه ففعل زين الدين ذلك وكان نور الدين محمود بن الشهيد قد سار لما قتل والده الى حلب فلكها وذلك باشارة أسد الدين شيركوه عليه بذلك وقال الجمال للملك ان من الرأى ان يسير الصلاح الى مملوكك نور الدين بحلب يدبر أمره وكانت حماه اقطاع الصلاح فأمره فسار وبقى الجمال وحده مع الملك فأخذه وقصد الرقة فاشتغل بشرب الخمر والخلوة بالنساء وأراد ان يعطى الامراء شيئا فمنعه خوفا من ان تميل قلوبهم اليه وقال لهم الاقطاع الجزيل والنعم الوافرة وشرع الجمال يستميل العسكر ويحلف الامراء لسيف الدين بن اتابك الشهيد واحدا بعد واحد وكل من حلف يأمره بالمسير الى الموصل هاربا من الملك وأقام بالملك فى الرقة عدة أيام ثم سار به نحو سنجار وكان سيف الدين غازى قد دخل الموصل واستقر بها فقوى حينئذ جنان جمال الدين ووصل هو والملك الى سنجار فأرسل الى دزدارها وقال له لا تسلم البلد ولا تمكن أحدا من دخوله ولكن أرسل الى الملك وقل له إنا تبع الموصل فتى دخلت الموصل سلمت اليك ففعل الدزدار ذلك فقال الجمال للملك المصلحة اننا نسير الى الموصل فان مملوكك غازى اذا سمع بقربنا منه خرج الى الخدمة فحينئذ نقبض عليه ونتسلم البلاد فساروا عن سنجار وكثر رحيل العسكر الى الموصل هاربين من الملك فبقى فى قلة من العسكر فساروا الى مدينة بلد وعبر الملك دجلة من هناك فلما عبرها دخل الجمال الموصل وأرسل الامير عز الدين أبا بكر الدبيسى الى الملك فى عسكر وهو فى نفر يسير فاخذ وادخله الموصل فكان آخر العهد به واستقر أمر سيف الدين وأقر زين الدين على ما كان عليه من ولاية الموصل وجعل الجمال وزيره وأرسلوا الى السلطان مسعود فاستحلفوه لسيف الدين فحلف له وأقره على البلاد وأرسل له الخلع وكان هذا سيف الدين قد لازم خدمة السلطان مسعود فى أيام أبيه سفرا وحضرا وكان السلطان يحبه كثيرا ويأنس به ويبسطه فلما خوطب فى اليمين وتقرير البلاد له لم يتوقف قال ابن الاثير فانظروا الى جمال الدين وحسن عهده وكمال مروءته ورعايته لحقوق مخدومه وهذا المقام الذى ثبت فيه يعجز عنه عشرة آلاف فارس ولقد قلّ من قال الناس ألف منهم كواحد وهو معذور لانه لم ير مثل جمال الدين قال ولما استقر سيف الدين فى الملك أطاعه جميع البلاد ما عدا ما كان بديار بكر كالمعدن وحيزان واسعرد وغير ذلك فان المجاورين لها تغلبوا عليها قال ولما فرغ سيف الدين من اصلاح أمر السلطنة وتحليفه وتقرير أمر البلاد عبر الى الشام لينظر فى تلك النواحى ويقرر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين وهو بحلب وقد تأخر عن الحضور عند أخيه وخافه فلم يزل يراسله ويستميله فكلما طلب نور الدين شيئا أجابه اليه استمالة لقلبه واستقرت الحال بينهما على ان يجتمعا خارج العسكر السيفى ومع كل واحد خمسمائة فارس فلما كان يوم الميعاد بينهما سار نور الدين من حلب فى خمسمائة فارس وسار سيف الدين من معسكره فى خمسة فوارس فلم يعرف نور الدين أخاه سيف الدين حتى قرب منه فحين رآه عرفه فترجل له وقبل الارض بين يديه وأمر أصحابه بالعود عنه فعادوا وقعد سيف الدين ونور الدين بعد ان اعتنقا وبكيا فقال له سيف الدين لم امتنعت من المجىء الى أكنت تخافنى على نفسك والله ما خطر ببالى ما تكره

فلمن أريد البلاد ومع من أعيش وبمن اعتضد اذا فعلت السوء مع أخى وأحب الناس الىّ فاطمأن نور الدين وسكن روعه وعاد الى حلب فتجهز وعاد بعسكره الى خدمة أخيه سيف الدين فامر سيف الدين بالعود وترك عسكره عنده وقال لا غرض لى فى مقامك عندى وانما غرضى ان يعلم الملوك والفرنج اتفاقنا فمن يريد السوء بنا يكف عنه فلم يرجع نور الدين ولزم الى ان قضيا ما كانا عليه وعاد كل واحد منهما الى بلده قلت ومن قصيدة لابن منير فى نور الدين

أيا خير الملوك أبا وجدا * وأنفعهم حيا الغليل صاد
علوا وغلوا وقال الناس فيهم * شوارد من ثناء أو أحاد
وما اقتسموا ولا عمدوا ابناهم * بمنصبك القسيمى العمادى
وهل حلب سوى نفس شعاع * تقسمها التمادى والتعادى
نفى ابن عماد الدين عنها الـ * شكاة فاصبحت ذات العماد
تبختر فى كساء عدل و بذل * مدبجة التهائم والنجاد
وفى محرابها داود منـــــه * يهذب حكمة آيات صاد
تجاوزت النجوم فاين تبغى * ترق فلا خلوت من ازدياد

(فصل) فيما جرى بعد وفاة زنكى من صاحب دمشق والافرنج المخذولين قال ابن أبى طى فى سابع يوم من استقرار نور الدين بحلب اتصل خبر مقتل أتابك بصاحب انطاكية البيمند فخرج فى يومه بعساكر انطاكية وقسم عسكره قسمين قسما أنفذه الى جهة حماه وقسما أغار به على جهة حلب وعاث فى بلادها وكان الناس آمنين فقتل وسبى عالما عظيما وتمادى حتى وصل الى صلدى ونهبها ووصل الخبر الى حلب فخرج أسد الدين شيركوه فيمن كان بحلب من العساكر وجدّ فى السير ففاته الفرنج وأدرك جماعة من الرجالة يسوقون الاسرى فقتلهم واستنقذ كثيرا مما كانت الفرنج أخذته وسار مجتنبا عن طريق الفرنج الى ان شن الغارة على بلد ارتاح واستاق جميع ما كان للفرنج فيه وعاد الى حلب مظفرا وقال ابن الاثير لما قتل الشهيد سار مجير الدين صاحب دمشق فى عسكر الى بعلبك وحاصرهم وبها نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين فسلمها اليه واخذ منه مالا وملكه قرايا من اعمال دمشق وانتقل أيوب الى دمشق وأقام بها وقال ابن أبى طى اشتدّ صاحب دمشق فى القتال وصبر نجم الدين أيوب أحسن صبر فاتفق ان الماء لما شاء الله من حصن بعلبك غار حتى لم يبق منه شئ فصار أهل القلعة يستمدون من البلد فلما ملك البلد منع من يريد الماء من القلعة فاشتد الامر فطلبوا الامان والمصالحة فاستحلف صاحب دمشق نجم الدين وأقر له الثلث الذى كان أتابك قد جعله له فيها وأقره فيها ولما بلغ ذلك نور الدين خاف ان يفسد عليه أسد الدين الى صاحب دمشق بحصول نجم الدين عنده ومال نور الدين الى مجد الدين أبى بكر بن الدايه حتى ولاه جميع أموره وجميع مملكته فشق ذلك على أسد الدين قال الرئيس ابو يعلى لما اتصل خبر موت زنكى بمعين الدين أنر شرع فى التأهب والاستعداد لقصد بعلبك وانتهاز الفرصة فيها بآلات الحرب والمنجنيقات فنزل عليها وضايقها ولم يمض الأيام قلائل حتى قل الماء فيها فلة دعتهم الى النزول على حكمه وكان الوالى بها ذا حزم وعقل ومعرفة بالأمور فاشترط ما قام له به من اقطاع وغيره وسلم البلد والقلعة اليه ووفى له بما قرر الامر عليه وتسلم ما فيه من غلة وآلة فى أيام من جمادى الأولى من السنة وأرسل معين الدين الوالى الى بحمص وتقررت بينه و بينه مهادنة وموادعة يعودان بصلاح الاحوال وعمارة الاعمال ووقعت المراسلة فيما بينه وبين صلاح الدين بحماه وتقرر بينهما مثل ذلك ثم انكفأ بعد ذلك الى البلد عقيب فراغه من بعلبك وترتيب من رتبه لحفظها والاقامة فيها قال ووردت الاخبار فى أيام من جمادى الآخرة من السنة بان ابن جوسلين جمع الافرنج من ناحية وقصد مدينة الرها على غفلة بموافقة من النصارى المقيمين فيها فدخلها واستولى عليها وقتل من فيها من المسلمين فنهض نور الدين صاحب حلب فى عسكره ومن انضاف اليه من التركمان وغيرهم زهاء عشرة آلاف فارس و وقعت الدواب فى الطرقات من شدّة السير ووافوا البلد وقد حصل ابن جوسلين وأصحابه فيه فهجموا عليهم ووقع السيف فيهم وقتل من آرمن الرها والنصارى من قتل وانهزم الى برج يقال له برج الماء فحصل فيه ابن جولسين فى تقدير عشرين فارسا من وجوه أصحابه وأحدق بهم المسلمون وشرعوا

فى النقب عليهم حتى تعرقب البرج فانهزم ابن جولسين فى الخفية من أصحابه وأخذ الباقون ومحق بالسيف كل من ظفر به من نصارى الرها واستخلص من كان فيه أسيرا من المسلمين ونهب منها شئ كثير من المال والاناث والسبى وانكفأ المسلمون بالغنائم الى حلب وسائر الاطراف وقال ابن الاثير لما قتل زنكى كان جوسلين الفرنجى الذى كان صاحب الرها فى ولايته غرب الفرات فى تل باشر وما جاورها فراسل أهل الرها وكان عامتهم من الارمن وواعدهم يوما يصل اليهم فيه فأجابوه الى ذلك فسار فى عساكره اليها وملكها وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين فقاتلهم وجدّ فى قتالهم فبلغ الخبر نور الدين وهو يومئذ بحلب فسار اليها بعسكره فهرب جوسلين ودخل نور الدين مدينة الرها ونهبها وسبى أهلها وفى هذه الدفعة نهبت وخربت وخلت من أهلها ولم يبق منهم بها الا القليل ووصل خبر الفرنج الى سيف الدين غازى بالموصل فجهز العساكر الى الرها فوصل العساكر وقد ملكها نور الدين فبقيت بيده ولم يعارضه فيها أخوه سيف الدين قال ومن عجيب ما جرى ان نور الدين أرسل من غنائمها الى الامراء وأرسل الى زين الدين على جملة من الجوارى فحملن الى داره ودخل لينظر اليهنّ فخرج وقد اغتسل وهو يضحك فسئل عن ذلك فقال لما فتحنا الرها مع الشهيد كان فى جملة ما غنمت جارية مالت نفسى اليها فعزمت على ان أبيت معها فسمعت منادى الشهيد وهو يأمر باعادة السبى والغنائم وكان مهيبا مخوفا فلم أجسر على اتيانها وأطلقتها فلما كان الآن أرسل الىّ نور الدين سهمى من الغنيمة وفيه تلك الجارية فوطئتها خوفا من العود قلت للقيسرانى قصيدة يمدح بها جمال الدين وزير الموصل ذكر فيها فتح الرها أوّلها

أما آن ان يزهق الباطل * وان يخز العدّة الماطل
الى كم يغب ملوك الضلال * سيف باعناقها كافل
فلا تحفلن بصوت الذئا * ب وقد زار الاسد الباسل
وهل يمنع الدين الافتى * يصول انتقاما فيستاصل
أبا جعفر أشرقت دولة * أضألها بدرك الكامل
فاما نصبت لرفع اسمها * فانكما الفعل والفاعل
ليهنك ما افرج النصر عنـ * ـه وما ناله الملك العادل
فقل للحقاق الطريق الطريـ * ـق فقد دلف المقرم البازل
وجاهد فى الله حق الجها * د محتسب بالعلى قافل
وهل يمنع السور من طالع * يشايعه القدر النازل
فان بان فتح الرها جنة * فساحلها القدس والساحل
فهل علمت علم تلك الديا * ر ان المقيم بها راحل
أرى القمص يأمل فوت الرما * ح ولا بدان يضرب الشائل
يقوى معافله جاهدا * وهل عاقل بعدها عاقل
وكيف بضبط بواقى الجها * ت لمن فات حسبته الحاصل

ولابن منير من قصيدة فى نور الدين

ملك ما أذل بالفتح ارضا * قط الا أعزها اغلاقه
والوها فى الرها ازجى اليها * عارضا شيب الدجى ابراقه
لجأت جارة اليه فخلى * عطلا من اعناقها اعناقه
تلك بكر الفتوح فالشام منها * شامة والعراق بعد عراقه
أين كان الملوك عن وجهها الطلـ * ـق برينا اضاءة اطلاقه
سنة سنها أبوه بكلب الرو * م لما أظلّه ارهاقه
خافقا قلبه الى أمل عا * جله دون نيله اخفاقه

قسمت راية المواضى القسمـ * ـات وابتز من لهاه عراقه
وكذا أنت يا ابنه ماعدا من * خلقه فيك خصلة خلاقه
وكفى الحر انه ابن سحاب * ماونى سحه ولا اصعاقه
لم يمت من سددت ثلمته يا * من على الدين كظه اشفاقه
رهبة لم تدع على الارض ثلبا * خلف صدر ينشق عنه شقاقه
كلما طن ذكرها منه فى السمـ * ـع تكافى النافقاء نفاقه
وجهاد عن حوزة الدين لم يأ * ل له ركضه ولا انفاقه

وله فيه من قصيدة أخرى

بنور الدين روّض كل محل * من الدنيا وجدّد كل بال
أقام على ثنية كل خوف * سهادا بات بكلأ كل كال
وصوّب عدله فى كل أوب * فعوّض عاطلا منه بحال
ينكسر رأيه رأى المحامى * وتقبل خوفه قبل القتال
لقد أحصدت للاسلام عزا * يفوت سنامه يد كل قال
وأصبحت العواصم محفات * عصاما غير منتكث الحبال

(فصل) وقفت على توقيع كتب فى ذى القعدة سنة احدى وأربعين عن خليفة مصر يومئذ وهو الملقب بالحافظ وعليه علامته ونصه (الحمد لله رب العالمين)
الى القاضى الاشرف أبى المجد على بن الحسن بن الحسين البيسانى (وهو والد القاضى الفاضل وكان يومئذ متولى القضاء والحكم بمدينة عسقلان) قد انتهى الى حضرة أمير المؤمنين ان قوما من أهل ثغر عسقلان حماه الله قد صاروا يؤدّون توقيعات بقبول أقوالهم من غير تزكية من شهوده المعروفين بالتزكية لهم مع كونهم غير مستوجبين للشهادة ولا مستحقين لسماع القول فانكر أمير المؤمنين ذلك من فعلهم وخرج عالى أمره بان لا يسمع قول شاهد ولا يتقدم لخطابة ولا لصلاة بالناس ولا لتلاوة فى موضع شريف الا من زكاه أعيان شهود الثغر المحروس وهم فلان وفلان وعدتهم ثمانية أنفس عبد الساتر بن عبد الرحمن عبد العزيز بن مفضل على بن قريش أحمد بن حسن أحمد ابن على عبد الرحمن بن محسن اسامة بن عبد الصمد على بن عبد الله قلت وهذا احسن ما يؤرخ عن امام تلك الدولة المباينة للشريعة على ما سيأتى ان شاء الله تعالى وقال الرئيس أبو يعلى وفى شوال من سنة احدى وأربعين ترددت المراسلات بين نور الدين ومعين الدين انر الى ان استقرت الحال بينهما على اجمل صفة واحسن قضية وانعقدت الوصلة بين نور الدين وبين ابنة معين الدين وتأكدت الامور على ما اقترح كل منهما وكتب كتاب العقد فى دمشق بحضر من رسل نور الدين فى الثالث والعشرين من شوال وشرع فى تحصيل الجهاز وعند الفراغ منه توجهت الرسل عائدة الى حلب فى صحبتهم ابنة معين الدين ومن فى جملتها من خواص الاصحاب فى النصف من ذى القعدة قال وتوجه معين الدين الى ناحية صرخد وبصرى بالخيل والرجل وآلات الحرب ونزل على صرخد وبها المعروف بالتونتاش غلام امين الدولة كشتكين الاتابكى الذى كان واليها اولا قلت هو الذى تنسب اليه المدرسة الامينية قبلى الجامع بدمشق قال وكانت نفس التونتاش قد حدثته لجهله انه يقاوم من يكون مستوليا على دمشق وان الافرنج يعينونه على مراده وكان قد خرج من حصن صدخد الى ناحية الفرنج للاستنصار بهم وتقرير أحوال الفساد معهم فنازل معين الدين بينه وبين العود الى أحد الحصنين وراسل نور الدين فى انجاده على الكفرة فأجابه وكان مبرزا بظاهر حلب فى عسكره فثنى اليه الاعنة وأجد المسير فوصل الى دمشق فى التاسع والعشرين من ذى الحجه فأقام أياما يسيره (ودخلت سنة اثنتين واربعين وخمسمائة) فتوجه نور الدين نحو صرخد ولم يشاهد احسن من عسكره وهيئته وعدته ووفور عدته واجتمع العسكر ان وارسل من بصرخد اليهما يلتمسون الامان والمهلة اياما وتسلم المكان وكان ذلك منهم على سبيل المغالطة والمخاتلة الى ان يصل عسكر الافرنج لترحيلهم وقضى الله تعالى وصول من اخبر بتجمع الفرنج

واحتشادهم ونهوضهم فى فارسهم وراجلهم مجدين السير الى ناحية بصرى وعليها فرقة وافرة من العسكر محاصرة لها فنهض العسكر فى الحال الى ناحية بصرى فسبقوا الفرنج اليها فحالوا بينهم وبينها ووقعت العين على العين فانهزم الكفار وولوا الادبار وتسلم معين الدين بصرى وعاد الى صرخد فتسلمها وعاد العسكر ان الى دمشق فوصلاها يوم الاحد السابع والعشرين من المحرم وفى هذا الوقت وصل التونتاش الذى خرج من صرخد الى الفرنج بجهله وسخافة عقله الى دمشق من بلاد الافرنج من غير أمان ولا تقرير واستئذان توهما منه انه يكرم ويصطنع بعد الاساءة القبيحة والارتداد عن الاسلام فاعتقل فى الحال وطالبه اخوه خطلخ بما جناه عليه من سمل عينيه وعقد لهما مجلس حضره الفقهاء والقضاة واوجبوا عليه القصاص فسمل كما سمل اخاه واطلق الى داراه بدمشق فاقام بها قلت وقد ذكر ابن منير وقعة بصرى هذه وغيرها من الوقعات التى يأتى ذكرها فى قصيدة قد تقدم بعضها منها

اى شأن ادركت يانور دين الـــله اعيى على الملوك لحاقه
نطق الحاسدون بالعجز عن ما ※ لك محلى بالنيرات نطاقه
غض أبصارهم لحاق جواد ※ ليس الا الى المعالى سباقه
سل بصيرا كم اعتقت يوم بصرى ※ من أسارى الموت الزؤام عتاقه
كم عرام على العريمة شبت ※ ضاق منه على الصليب خناقه
ولكم هبوة بهاب واختيب ※ بها لها صكت الاسارى رباقه
بسط الذل فوق بسطة باسو ※ طاول لكن طواه عنه ارتفاقه

وفى هذه السنة ولد ببعلبك الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب وقيل فى سنة فتح زنكى الرها قال أبو يعلى وفى ليلة الجمعة الثالث من ربيع الاول توفى الفقيه شيخ الاسلام أبو الفتح نصر الله بن محمد بن عبد القوى المصيصى بدمشق كان بقية الائمة الفقهاء المفتين على مذهب الامام الشافعى ولم يخلف بعده مثله قال وفى جمادى الآخرة تقررت ولاية حصن صرخد للامير مجاهد الدين بزان بن مامين على مبلغ من المال والغلة وشروط وايمان دخل فيها وقام بها واستبشر أهل تلك الناحية لما هو عليه من حب الخير والصلاح والتدين والعفاف قال وفى الحادى والعشرين من شوال وهو مستهل نيسان أظلم الجو ونزل غيث ساكن ثم أظلمت الارض فى وقت العصر ظلاما شديدا بحيث كان ذلك كالغدوة بين العشائين وبقيت السماء فى عين الناظرين اليها كصفرة الورس وكذلك الجبال وأشجار الغوطة وكل ما ينظر اليه من حيوان وجماد ونبات ثم جاء فى أثر ذلك من الرعد القاصف والبرق الخاطف والهدات المزعجة والرجفات المفزعة ما ارتاع لها الشيب والشبان فكيف الولدان والنسوان وقلقت لذلك الخيل فى مرابطها وبقى الامر على هذه الحال الى وقت العشاء الآخرة ثم سكن بقدرة الله تعالى وأصبح على الارض والاشجار وسائر النبات غبار فى رقة الهواء بين البياض والغبرة قال ابن الاثير وفى سنة اثنتين وأربعين فتح نور الدين ارتاح بالسيف وحصن باراة وبصرفوت وكفرلاثا وكان الفرنج قد طمعوا وظنوا انهم بعد قتل الشهيد يستردون ما أخذ منهم فلما رأوا من نور الدين هذا الجد علموا ان ما أملوه بعيد

(فصل) فى نزول الفرنج على دمشق ورجوعهم وقد خذلهم الله عنها قال الرئيس أبو يعلى وفى هذه السنة تواصلت الاخبار من ناحية القسطنطينية وبلاد الفرنج والروم وما والاها بظهور ملوك الافرنج من بلادهم منهم الالمان والفنش وجماعة من كبارهم فى العدد الذى لا يحصر لقصد بلاد الاسلام بعد ان نادوا فى سائر بلادهم ومعاقلهم النفير النفير اليها والاسراع نحوها وخلوا بلادهم وأعمالهم خالية شاغرة من حماتها والحفظة لها ثم استصحبوا من ذخائرهم وأموالهم وعددهم الشئ الكثير الذى لا يحصى بحيث يقال ان عدتهم ألف ألف من الرجالة والفرسان ويقال أكثر من ذلك وغلبوا على اعمال قسطنطينية واحتاج ملكها الى الدخول فى مداراتهم ومسالمتهم والنزول على أحكامهم وحين شاع خبرهم واشتهر أمرهم شرعت ولاة الاعمال المصاقبة لهم والاطراف الاسلامية القريبة منهم فى التأهب للمدافعة لهم والاحتشاد على المجاهدة فيهم وقصدوا منافذهم ودروب معابرهم لكى يمنعوهم من العبور والنفوذ الى بلاد الاسلام وواصلوا شن الغارات على أطرافهم واستحر القتل فيهم والفتك بهم الى ان هلك منهم

العدد الكثير وحل بهم من عدم القوت والعلوفات والمير وغلاء السعر ان وجد ومما أفنى الكثير منهم بالجوع والمرض ولم تزل أخبارهم تتواصل بهلاكهم وفناء اعدادهم الى أواخر سنة اثنتين وأربعين بحيث سكنت النفوس بعض السكون

(ودخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة) وتواترت الاخبار بوصول مراكب الفرنج وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية صور وعكا واجتماعهم مع من بها من الفرنج ويقال انهم بعد ما فنى منهم بالقتل والمرض والجوع وصل تقدير ثمانمائة ألف وقصدوا البيت المقدس وقضوا حجهم وعاد من عاد منهم الى بلادهم فى البحر وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلق العظيم وهلك من ملوكهم من هلك وبقى الالمان أكبر ملوكهم ومن هو دونه واختلفت الاراء بينهم فيما يقصدون منازلته من البلاد الاسلامية الى ان استقرت الحال على منازلتهم دمشق وبلغ ذلك معين الدين فاستعد لحربهم فجاؤا فى تقدير خمسين ألفا ودنوا من البلد ثم قصدوا المنزلة المعروفة بنزول العساكر فيها فصادفوا الماء مقطوعا فقصدوا ناحية المزة فخيموا عليها لقربهم من الماء وزحفوا الى البلد بخيلهم ورجلهم ووقف المسلمون بازائهم فى يوم السبت سادس ربيع الاول ونشبت الحرب بين الفريقين واجتمع عليهم من الاعمال والاجناد والاتراك والقتال واحداث البلد والمطوعة والغزاة الجم الغفير واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة الاعداد وغلبوا على الماء وانتشروا فى البساتين وخيموا فيها وقربوا من البلد وحصلوا منه بمكان لم يتمكن أحد من العساكر قديما وحديثا منه واستشهد فى هذا اليوم الفقيه الامام يوسف الفندلاوى المالكى رحمه الله قريب الربوة على الماء لوقوفه فى وجوههم وترك الرجوع عنهم اتبع أوامر الله تعالى فى كتابه الكريم وقال بعنا واشترى وكذلك عبد الرحمن الحلحول الزاهد رحمه الله جرى أمره هذا المجرى

(فصل) قلت وذكر الامير أسامة بن منقذ فى كتاب الاعتبار ان ملك الالمان الفرنجى لما وصل الى الشام اجتمع اليه كل من بالشام من الافرنج وقصد دمشق فخرج عسكرها وأهلها لقتالهم وفى جملتهم الفقيه الفندلاوى المالكى والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحول رحمهما الله وكانا من خيار المسلمين فلما قاربوهم قال الفقيه عبد الرحمن اما هؤلاء الروم قال بلى قال فالى متى نحن وقوف قال سر على اسم الله فتقدما فقاتلا حتى قتلا فى مكان واحد رحمهما الله تعالى ثم قال أبو يعلى وشرعوا فى قطع الاشجار والتحصن بها وهدوا القناطر وباتوا تلك الليلة على هذه الحال وقد لحق الناس من الارتياع لهول ما شاهدوه والروع مما عاينوه ما ضعفت به القلوب وحرجت معه الصدور وباكروا الظهور اليهم فى غد ذلك اليوم وهو الاحد وزحفوا اليهم ووقع الطراد بينهم واستظهر المسلمون عليهم وأكثروا القتل والجراح فيهم وأبلى الامير معين الدين فى حربهم بلاء حسنا وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يشاهد فى غيره بحيث لا ينى فى جهادهم ولا ينثنى عن دمارهم ولم تزل رحاء الحرب دائرة بينهم وخيل الكفار محجمة عن الحملة المعروفة لهم حتى تتهيأ الفرصة لهم الى ان مالت الشمس الى الغروب وأقبل الليل وطلبت النفوس الراحة وعاد كل منهم الى مكانه وبات الجند بازائهم وأهل البلد على أسوارهم للحرس والاحتياط وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم وكانت المكاتبات قد نفذت الى ولاة الاطراف بالاستصراخ والاستنجاد وجعلت خيل التركمان تتواصل ورجالة الاطراف تتتابع وباكرهم المسلمون وقد قويت شوكتهم ونفوسهم وزال عنهم روعهم وثبتوا بازائهم وأطلقوا فيهم السهام ونبل الجرخ بحيث يقع فى مخيمهم فى راجل أو فارس أو فرس أو جمل ووصل فى هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها رجالة كثيرة من الرماة فزادت بهم العدة وتضاعفت العدة وانفصل كل فريق الى مستقره فى هذا اليوم وباكروهم من غد يوم الثلاثاء وأحاطوا بهم فى مخيمهم وقد تحصنوا باشجار البساتين وأفسدوها رشقا بالنشاب وحذفا بالاحجار وقد أحجموا عن البروز وخافوا وفشلوا ولم يظهر منهم أحد وظن انهم يعملون مكيدة أو يدبرون حيلة ولم يظهر منهم الا النفر اليسير من الخيل والرجل على سبيل المطاردة والمناوشة خوفا من المهاجمة الى ان يجدوا لحملتهم مجالا وليس يدنو منهم أحد الا صرع برشقة أو طعنة وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الاحداث والضياع وجعلوا يقصدونهم فى المسالك وقد أمنوا فيقتلون من ظفروا به ويحضرون رؤسهم لطلب الجوائز عليها وحصل من رؤسهم العدد الكثير وتواترت اليهم أخبار العساكر الاسلامية بالمسارعة الى جهادهم واستئصال شأفتهم فأيقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار واعملوا الاراء بينهم فلم يجدوا لنفوسهم خلاصا من الشبكة التى حصلوا فيها غير الرحيل فرحلوا سحر يوم الاربعاء التالى

مفلولين وحين عرف المسلمون ذلك برزوا اليهم فى بكرة هذا اليوم وساروا فى آثارهم بالسهام بحيث قتلوا فى أعقابهم من الرجال والخيول والدواب العدد الكثير ووجدوا فى آثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتلاهم وخيولهم مالا عدد له ولا حصر يلحقه بحيث لها أرايح من جيفتهم تكاد تصرع فى الجو وكانوا قد أحرقوا الربوة والقبة الممدودية فى تلك الليلة واستبشر الناس بهذه النعمة التى أسبغها الله عليهم وأكثروا من الشكر له تعالى على ما أولاهم من اجابة دعائهم الذى واصلوه فى أيام هذه الشدة: فلله الحمد على ذلك والشكر واتفق عقيب هذه الرحمة اجتماع معين الدين مع نور الدين عند قرية من دمشق للانجاد لها وقال ابن الاثير خرج ملك الالمان من بلاد الافرنج فى جيوش عظيمة لاتحصى كثرة من الفرنج الى بلاد الشام فاتفق هو ومن بساحل الشام من الفرنج فاجتمعوا وقصدوا مدينة دمشق ونازلوها ولا يشك ملك الالمان الا انه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعساكره قال وهذا النوع من الفرنج هوا كثرهم عددا وأوسعهم بلادا وملكهم أكثر عددا وعددا وان كان غير ملكهم أشرف منه عندهم وأعظم محلا فلما حاصروا دمشق وبها صاحبها مجير الدين انق بن محمد بن بورى ابن طغتكين وليس له من الامر شئ وانما كان الامر الى مملوك جده طغتكين وهو معين الدين انر فهو كان الحاكم والمدبر للبلد والعسكر وكان عاقلا دينا خيرا أحسن السيرة فجمع العسكر وحفظ البلد وحصرهم الفرنج وزحفوا اليهم سادس ربيع الاول فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم وكان فيمن خرج الشيخ الفقيه حجة الدين أبو الحجاج يوسف بن دوناس المغربى الفندلاوى شيخ المالكية بدمشق وكان شيخا كبيرا زاهدا عابدا فخرج راجلا فرآى معين الدين فقصده وسلم عليه وقال له ياشيخ أنت معذور ونحن نكفيك وليس بك قوة على القتال قال قد بعت واشترى فلا نقيله ولا نستقيله يعنى قول الله تعالى (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) الآية وتقدم فقاتل حتى قتل رحمه الله عند النيرب شهيدا وقوى أمر الفرنج وتقدموا فنزلوا بالميدان الاخضر وضعف أهل البلد عن ردهم عنه وكان معين الدين قد أرسل الى سيف الدين يستغيث به ويستنجده ويسأله القدوم عليه ويعلمه شدة الامر فجمع سيف الدين عساكره وسار مجدا الى مدينة حمص وارسل الى معين الدين يقول له قد حضرت ومعى كل من يطيق حمل السلاح من بلادى فان أنا جئت اليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوابى وأصحابى وكانت الهزيمة والعياذ بالله علينا لا يسلم منا أحد لبعد بلادنا عنا وحينئذ تملك الفرنج دمشق وغيرها فان أردتم ان ألقاهم وأقاتلهم فتسلم البلد الى من أثق اليه وأنا أحلف لك ان كانت النصرة لنا على الفرنج انى لا آخذ دمشق ولا أقيم بها الا مقدار ما يرحل العدو عنها وأعود الى بلادى فماطله معين الدين لينظر ما يكون من الفرنج فأرسل سيف الدين الى الفرنج الغرباء يتهددهم ويعلمهم انه على قصدهم ان لم يرحلوا وأرسل معين الدين اليهم أيضا يقول لهم قد حضر ملك الشرق ومعه من العساكر مالا طاقة لكم به فان أنتم رحلتم عنا والا سلمت البلد اليه وحينئذ لا تطمعون فى السلامة منه وأرسل الى فرنج الشام يخوفهم من أولئك الفرنج الخارجين الى بلادهم ويقول لهم أنتم بين أمرين مذمومين ان ملك هؤلاء الفرنج الغرباء دمشق لا يبقون عليكم ما بايديكم من البلاد وان سلمت أنا دمشق الى سيف الدين فأنتم تعلمون انكم لا تقدرون على منعه من البيت المقدس وبذل لهم ان يسلم اليهم بانياس ان رحلوا ملك الالمان عن دمشق فأجابوه الى ذلك وعلموا صدقه واجتمعوا بملك الالمان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع امداده وانه ربما ملك دمشق فلا يبقى لهم معه مقام بالساحل فأجابهم الى الرحيل عن دمشق فرحل ورحل فرنج الساحل وتسلموا حصن بانياس من معين الدين وبقى معهم حتى فتحه نور الدين محمود رحمه الله كما سنذكره

(فصل) قلت وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر رحمه الله فى تاريخه ان الفقيه الفندلاوى رؤى فى المنام فقيل له أين أنت قال فى جنات عدن على سرر متقابلين وقبره الآن يزار بمقابر باب الصغير من ناحية حائط المصلى وعليه بلاطة كبيرة منقورة فيها شرح حاله وأما عبد الرحمن الحلحولى فقبره فى بستان الشعبانى فى جهة شرقه وهو المسجد المحاذى لمسجد شعبان المعروف الآن بمسجد طالوت وكان مقامه فى حياته فى ذلك المكان رحمه الله وقرأت قصيدة فى شعر أبى الحكم الاندلسى شرح فيها هذه القصة منها

بشطى نهر داريا * أمور ما توأتينا * وأقوام رأوا سفك الدماء فى جلق دينا
أتانا مائتا ألف * عديدا أو يزيدونا * فبعضهم من اندلس * وبعض من فلسطينا

ومن عكا ومن صور * ومن صيدا وتبنينا ❊ اذا أبصرتهم أبصر * ت أقواما مجانينا
ولكن حرقوا فى عا * جل الحال البساتينا ❊ وجازوا المرج والتعدي * ل أيضا والميادينا
تخالهم وقد ركبوا * فطائرها جوادينا ❊ وبين خيامهم ضموا ال * خنازر والقرابينا
ورايات وصلبانا * على مسجد خاتونا ❊ وقلنا اذا رأيناهم * لعل الله يكفينا
سماهم معين قد * أعان الخلق والدينا ❊ وفتيان تخالهم * لدى الهيجاء شياطينا
فولوا يطلبون المر * ج من شرقى جسر ينا ❊ ولكن غادروا اليا * س تحت الترب مدفونا
وشيخا فندلاويا * فقيها يعضد الدينا ❊ وفتيانا تفانوا من * دمشق نحو سبعينا
ومنهم مائتا علج * وخيل نحو تسعينا ❊ وباقيهم الى الآ * ن من القتل يفرونا

وللعرقلة حسان فى مدح مجير الدين صاحب دمشق حينئذ قصيدة ذكر فيها هؤلاء الفرنج أولها

عرج على نجد لعلك منجدى ❊ بنسيمها وبذكر سعدى مسعدى

يقول فيها

من قاتل الافرنج دينا غيرة ❊ والخيل مثل السيل عند المشهد
ردّ الامان بكل ندب باسل ❊ ومن الجياد بكل نهد أجرد
ومن السيوف بكل عضب أبيض ❊ ومن العجاج بكل نقع أسود
حتى لوى الاسلام تحت لوائه ❊ وغدا بمجد من شريعة أحمد

وقرأت فى ديوان محمد بن نصر القيسرانى قصيدة فى مدح تاج الملوك بورى جدّ مجير الدين أنشده اياها عند كسرة الفرنج على دمشق فى أواخر سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة وهى واقعة تشبه الواقعة فى زمن مجير الدين أول القصيدة

الحق مبتهج والسيف مبتسم ❊ وسال أعداء مجير الدين مقتسم
قدت الجياد وحصنت البلاد وأمّ ❊ نت العباد فأنت الحل والحرم
وجئت بالخيل من أقصى مرابطها ❊ معاقد الحزم فى أوساطها الحزم
حتى اذا ما أحاط المشركون بنا ❊ كالليل يلتهم الدنيا له ظلم
وأقبلوا لا من الاقبال فى عدد ❊ يؤود حاسبه الاعياء والسأم
أجريت بحرا من الماذى معتكرا ❊ أمواجه بأواسى اليأس تلتطم
وسست جندك والرحمن يكلؤه ❊ سياسة ما يعفى اثرها ندم
وقفت فى الجيش والاعلام خافقة ❊ بالنصر كل قناة فوقها علم
يحوطك الله صونا عن عيونهم ❊ والله يعصم من بالله يعتصم
حتى اذا بدت الآراء ضاحكة ❊ وأقبلت أوجه الاقبال تبتسم
اتبعت جنّ سراياهم مضمرة ❊ فيها نجوم اذا جدّ الوغى رجوا
والنصر دان وخيل الله مقبلة ❊ ترجوا الشهادة فى الهيجاء وتغتنم
صاب الغمام عليهم والسهام معا ❊ فما دروا أيما الهطالة الديم
سروا لينتهبوا الاعمار فانتهبوا ❊ قتلا ويغتنموا الاموال فاغتنموا
وأقبلت خيلنا تردى بخيلهم ❊ مجنونة وعلى ارماحنا القمم
وأدبر الملك الطاغى يزعزعه ❊ حرّ الاسنة وهو البارد الشيم
وافوا دمشق فظنوا انها جدة ❊ ففارقوها وفى أيديهم العدم
وأيقنوا مع ضياء الصبح أنهم ❊ ان لم يزولوا سراعا زالت الخيم
فغادروا أكثر القربان وانجفلوا ❊ وخلفوا أكبر الصلبان وانهزموا
مستسلمين لايدى المسلمين وقد ❊ أغرى الفنا بتفادى خطفهم نهم

لايملك الجسم دمعا عن مقاتله * كانه حين يغشاه الردى ضيغم
وحاولوا المسجد الادنى فاعبرت * عن مسجد القدم الاقصى [redacted]

(فصل) قال ابن الاثير لما رحل الفرنج عن دمشق سار معين الدين انر الى بعلبك وأرسل الى نور الدين وهو مع أخيه سيف الدين يسأله ان يحضر عنده فاجتمعا فوصل اليهما كتاب القمص صاحب طرابلس يشير عليهما بقصد حصن العريمة وأخذه ممن فيه من الفرنج وكان سبب ذلك ان ولد الفنش صاحب صقلية خرج مع ملك الالمان الى الشام وتغلب على العريمة وأخذها من القمص وأظهر انه يريد أخذ طرابلس منه أيضا وجد هذا الذى ملك العريمة هو الذى عزا افريقية وفتح مدينة طرابلس الغرب فلما استولى هذا على العريمة كاتب القمص نور الدين ومعين الدين فى قصده فسارا اليه مجدين فصحباه وكتبا الى سيف الدين يستنجدانه ويطلبان منه المدد فأمدهما فحصروا الحصن وبه ابن الفنش ونقبوا السور فأذعن الفرنج واستسلموا وألقوا بأيديهم فملك المسلمون الحصن وأخذوا كل من به من رجل وصبي وامرأة وفيهم ابن الفنش وأخربوا الحصن وعادوا الى سيف الدين وافتتح نور الدين أيضا باسوطا وهاب وقال الرئيس أبو يعلى قتل أكثر من كان فيه يعنى فى حصن العريمة وأسروا وأخذوا ولد الملك وأمه ونهب ما فيه من العدد والخيول والاثاث عسكر سيف الدين الى مخيمه بحمص ونور الدين عاد الى حلب ومعه ولد الملك وأمه ومن أسر معهما وانكفأ معين الدين الى دمشق قال ووردت الاخبار فى رجب من ناحية حلب بأن نور الدين صاحبها كان قد توجه فى عسكره الى ناحية الاعمال الافرنجية وقصد افامية وظفر بعدة من الحصون والمعاقل الافرنجية وبعدة وافرة من الافرنج وان صاحب انطاكية جمع الفرنج وقصده على حين غفلة منه فنال من عسكره وأثقاله وكراعه ما أوجبته الاقدار النازلة وانهزم بنفسه وعسكره وعاد الى حلب سالما فى عسكره لم يفقد منه الا النفر اليسير بعد قتل جماعة وافرة من الافرنج وأقام بحلب أياما بحيث جدد ما ذهب له من اليزك وما يحتاج اليه من آلات العسكر وعاد الى منزله وقيل لم يبعد وذكر بن أبى طى ان أسد الدين لما كان فى نفسه على نور الدين من تقديم ابن الداية عليه لم ينصح يومئذ وهى وقعة يغرا ومر به نور الدين فقال له ما هذا الوقوف والغفلة فى مثل هذا الوقت والمسلمون قد انكسروا فقال ياخوند ايش ننفع نحن انما ينفع مجد الدين أبو بكر فهو صاحب الامر فاستدرك نور الدين ذلك وطيب قلب أسد الدين بعد ذلك وألزم مجد الدين ان يعرف لاسد الدين حقه وأصلح بينهما قال وقتل فى هذه الكسرة شاهنشاه بن أيوب أخو الملك الناصر وقيل فى كسرة البقيعة قلت وهو والد عز الدين فرخشاه وتقى الدين عمر والست عذرا المنسوب اليها العذراوية داخل باب النصر بدمشق وقبره الآن بالتربة النجمية جوار المدرسة الحسامية بمقبرة العونية ظاهر دمشق رحمهم الله قلت ولابن منير من قصيدة تقدمت اعتذارا عما جرى فى هذه الغزاة قال

لم يشنه من ماء يغرا ان نزالا * الاشابات ذادعنها انذلاقه
كان فيها ليث العرين حمى الا * شبال منه غضبان كالنار ماقه
وشبيه النبى يوم حنين * اذ تلافا أدواءهم درياقه
وهى الحرب خلها عسن الكر * إن عض بأسها الانياقه

(فصل) وقال ابن الاثير وفى سنة ثلاث واربعين ايضا سار نور الدين الى بصرى وقد اجتمع بها الفرنج فى قضهم وقضيضهم وقد عزموا على قصد بلاد الاسلام فالتقى بهم هنالك واقتتلوا اشد قتال ثم أنزل الله نصره على المسلمين وانهزم الفرنج وكانوا بين قتيل وأسير وفى هذه الوقعة يقول القيسرانى من قصيدة أولها

ياليت ان الصدود مصدود * اولا فليت النوم مردود
الى متى تعرض عن مغرم * فى خده للدمع اخدود
قالوا عيون البيض بيض الظبى * قلت ولكن هذه سود
يخاف منها وهى فى جفنها * والسيف يخشى وهو مغمود

ثم خرج الى المدح فقال

وكيف لاتثنى على عيشنا الـ * محمود والسلطان محمود
فليشكر الناس ظلال المنى * ان رواق العدل ممدود

ونيرات الملك وهاجة * وطالع الدولة مسعود
وصارم الاسلام لاينثنى * الا وشلو الكفر مقدود
مناقب لم تك موجودة * الا ونور الدين موجود
مظفر فى درعه ضيغم * عليه تاج الملك معقود
نال المعالى مالكا كما * فهو سليمان وداود
ترتشف الافواه اسيافه * ان رضاب العز مورود
وكم له من وقعة يومها * عند ملوك الشرك مشهود
والقوم امام هوى صرعة * أو موثق بالقد مشدود
حتى اذا عادوا الى مثلها * قالت لهم هيبته عودوا
طالب بثار ضمنته الظبى * فكل ما يضمن مردود
والكر والفر سجال الوغى * فطارد طورا ومطرود
وانما الافرنج من بغيها * عادوا وقد عاد لها هود
قد حصحص الحق فجاحد * فى قلبه بأسك مجحود
فكل مصر بك مستفتح * وكل ثغر بك مسدود

وقال أيضا قصيدة فى نور الدين وأنشده اياها بظاهر حلب وقد كسر الافرنج على يغرا وهزمهم الى حصن حارم وقد كانت الفرنج هزمت المسلمين أولا بهذا الموضع أولها

تفى بضمانها البيض الحداد * وتقضى دينها السمر الصعاد
وتدرك ثارها من كل باغ * فوارس من عزائمها الجلاد
ويغشى حومة الهيجا همام * يشد بضبعه السبع الشداد
أظنوا ان نار الحرب تخبو * ونور الدين فى يده الزناد
وجند كالصقور على صقور * اذا انقضوا على الابطال صادوا
اذا اخفوا مكيدتهم أخافوا * وان أبدوا عداوتهم أبادوا
ونصرة دولة حاميت عنها * وهل يخشى وأنت لها عماد
وان تسل القوافى ما تلاه * بآنب ما يؤنبها سناد
جرت بالنصر أقلام العوالى * وليس سوى النجيع لها مداد
وطالت أروس الاعلاج خصبا * فنادى السيف قد وقع الحصاد
أحطت بهم فكان القتل صبرا * ولا طعن هناك ولا طراد
وللابرنس فوق الرمح رأس * توسد والسنان له وساد
ترجل للسلام ففرسوه * وليس سوى القناة له جواد
غضيض المقلتين ولا نعاس * وعاريها وليس به سهاد
فسر واستوعب الدنيا فتوحا * فلا هضب هناك ولا وهاد
وزر بيني الوغى مثوى حبيب * فمن عن باب مسلمه ذياد
ولا فى باب فارس غير ثكلى * بفارسها يضئ بها الحداد
لانطاكية يحمى ذراها * وقد دانت لسطوتك البلاد
واذعنت الممالك واستجابت * ملبية لدعوتك العباد

قلت ووقعة أنب هذه كانت عظيمة وقد أكثر كذلك الشعراء لها وسيأتى ذكرها قريبا ان شاء الله تعالى

(فصــل) قال أبو يعلى التميمي وفي رجب من هذه السنة ورد الخبر من ناحية حلب بأن صاحبها نور الدين ابن أتابك أمر بإبطال حي على خير العمل في أواخر أذان الغداة والتظاهر بسب الصحابة وأنكر ذلك انكارا شديدا وساعده على ذلك جماعة من أهل السنة بحلب وعظم هذا الأمر على الاسماعيلية وأهل التشيع وضاقت له صدورهم وهاجوا وماجوا ثم سكنوا وأحجموا للخوف من السطوة النورية المشهوره والهيبة المحذوره قلت وأنشده ابن منير في رمضان

فداك من صام ومن أفطرا ❊ ومن سعى سعيك أو قصرا
وما الورى أهلا فتفدى بهم ❊ وهل يوازي عرض جوهرا
عدل تساوى تحت أكنافه ❊ مطافل العين وأسد الشرى
يا نور دين الله كم حادث ❊ دجى وأسفرت له فانشرى
وكم حمى للشرك لا يهتدى الـ ❊ وهم له غادرته مجزرا
يا ملك العصر الذي صدره ❊ أفسح من أقطارها مصدرا
وابن الذي طاول أفلاكها ❊ فلم يجد من فوقه مظهرا
مناقب تكسر كسرى كما ❊ تقصر عن ادراكها قيصرا
ما غاص في أوصافها شاعر ❊ الا رأى أوصافها أشعرا
لله أصــــل أنت فرع له ❊ ما أطيب المجنى وما أطهرا
ما حلب البيضاء مذ صنتها ❊ الا حرام مثل أم القرى
شيدت في معمور أرجائها ❊ لكل باغي عمره مشعرا
فأصبح الشادي إذا ثوب الـ ❊ داعي له هلل أو كبرا
لا عدم الاسلام من كفه ❊ كهف لمن أرهق أو أحصرا
كما نما ساحته جنة ❊ أجرت بها راحته كوثرا
تصرم الشهر الذي كنت في ❊ أوقاته من قدره أشهرا
جهاد ليل في نهار غزا ❊ إذ كنت فيه الأصبر الأشكرا
أصدق ما يرشفه سامع ❊ ما هز من أوصافك المنبرا
أبقاك للدنيا وللدين من ❊ خلاك في إيلهما نيرا
حتى ترى عيسى من القدس قد ❊ نجا الى سيفك مستنصرا

قال أبو يعلى وفي رجب أذن لمن يتعاطى الوعظ بالتكلم في الجامع المعمور بدمشق على جاري العادة والرسم فبدا من اختلافهم في أحوالهم وأغراضهم والخوض في قضايا لا حاجة اليها من المذاهب ما أوجب صرفهم عن هذه الحال وابطال الوعظ لما يتوجه معه من الفساد وطمع سفهاء الأوغاد وذلك في آخر شعبان منها قال وكثر فساد الفرنج المقيمين بصور وعكا والثغور الساحلية في الأعمال الدمشقية بعد رحيلهم عن دمشق فأغار معين الدين على أعمالهم وخيم في ناحية من حوران بالعسكر وكاتب العرب واستدعى جماعة وافرة من التركمان وأطلق أيديهم في نهبهم والفتك بهم فلم يزل على النكاية فيهم والمضايقة لهم الى أن ألجأهم الى طلب المصالحه

(ودخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة) فجددت المهادنة في المحرم مدة سنتين وأنفذ نور الدين الى معين الدين يعلمه أن صاحب انطاكية قد جمع افرنج بلاده وظهر يطلب بهم الافساد في الأعمال الحلبية وانه قد برز في عسكره الى ظاهر حلب للقائه والحاجة ماسة الى معاضدته فندب معين الدين مجاهد الدين بزان بن مامين في فريق وافر من العسكر الدمشقي للمصير الى جهته وبذل المجهود في طاعته ومناصحته وبقي معين الدين في باقي العسكر بناحية حوران قال وفي صفر من السنة وردت البشائر من جهة نور الدين بما أولاه الله تعالى وله الحمد على حشد الفرنج المخذول ولم يفلت منهم الا من أخبر ببوارهم وتعجيل دمارهم وذلك أن نور الدين اجتمع له من العسكر ستة آلاف فارسا مقاتلة

سوى الاتباع والسواد فنهض بهم الى الفرنج فى الموضع المعروف بأنب وهم فى نحو أربعمائة فارس وألف راجل فقتلوهم وغنموهم ووجد اللعين البرنس مقدمهم صريعا بين حماته وأبطاله فعرف وقطع رأسه وحمل الى نور الدين وكان هذا اللعين من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية وشدة البأس وقوة الحيل وعظم الخلق مع اشتهار الهيبة وكثرة السطو والتناهى فى الشر وذلك يوم الاربعاء الحادى والعشرين من صفر ثم نزل نور الدين فى العسكر على باب انطاكية وقد خلت من حماتها والذابين عنها ولم يبق فيها غير أهلها مع كثرة عددهم وحصانة بلدهم وترددت المراسلات بينه وبينهم فى طلب التسليم اليه وإيمانهم وصيانة أموالهم فوقع الاحتجاج منهم بأن هذا أمر لا يمكنهم الدخول فيه الا بعد انقطاع آمالهم من الناصر لهم والمعين على من يقصدهم وحملوا ما أمكنهم من التحف والمال ثم استمهلوا فامهلوا ثم رتب نور الدين بعض العسكر للاقامة عليها والمنع لمن يصل اليها ونهض فى بقية العسكر لمنازلتها ومضايقتها فالتمسوا الامان فأومنوا على أنفسهم وسلموا البلد فى ثامن عشر ربيع الاول وانكفأ نور الدين فى عسكره الى ناحية انطاكية وقد انتهى الخبر بنهوض الفرنج من ناحية الساحل الى صوب انطاكية لانجاد من بها فاقتضت الحال مهادنة من فى انطاكية وموادعتهم وتقرر ان يكون ما قرب من الاعمال الحلبية له وما قرب من انطاكية لهم ورحل عنهم الى جهة غيرهم بحيث كان قد ملك فى هذه النوبة مما حول انطاكية من الحصون والقلاع والمعاقل وغيرها المغانم الجمة وفصل عنه الامير مجاهد الدين بزان فى العسكر الدمشقى وقد كان له فى هذه الوقعة ولمن فى جملته البلاء المشهور والذكر المشكور لما هو موصوف به من الشهامة والبسالة وأصابة الرأى والمعرفة بمواقف الحروب وقال ابن أبى طى حمل أسد الدين على حامل صليب الفرنج فقتله وقتل البرنس صاحب انطاكية وجماعة من وجوه عسكره ولم يقتل من المسلمين من يقوم به وعاد المسلمون بالغنائم والاسارى وكان لاسد الدين فى هذه الحرب اليد البيضاء ومدحه بها بعض الشعراء الحلبيين بقصيدة يقول فيها

ان كان آل فرنج أدركوا فلجا * فى يوم يغرا ونالوا امنية الظفر
ففى الخطيم خطمت الكفر منصلتا * أبا المظفر بالصمصامة الذكر
نالوا بيغرانهابا وانتهبت لنا * على الخطيم نفوس المعشر البتر
واستقودوا الخيل عريا واستقدت لنا * قوامص الكفر فى ذل وفى صغر

قال وحصل لاسد الدين من هذه الكسرة سلاح كثير وعدة أسارى وخيول كثيرة فأنفذ لاخيه نجم الدين منها شيئا وفى هذه السنة عظم أمر أسد الدين وقال ابن الاثير سار نور الدين الى حصن حارم وهو للفرنج فحصره وخرب ربضه ونهب سواده ثم رحل عنه الى حصن آنب فحصره فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب انطاكية وساروا اليه ليرحلوه عن آنب فلم يرحل بل لقيهم وتصاف الفريقان واقتتلوا وصبروا وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر فى الحرب على حداثة سنه ما تعجب منه الناس وانجلت الحرب عن هزيمة الفرنج وقتل المسلمون منهم خلقا كثيرا وفيمن قتل البرنس صاحب انطاكية وكان عاتيا من عتاة الفرنج وذوى التقدم فيهم والملك ولما قتل البرنس خلف ابنا صغيرا وهو بيمند فبقى مع أمه بانطاكية فتزوجت أمه ببرنس آخر وأقام معها بانطاكية يدبر الجيش ويقودهم ويقاتل بهم الى ان يكبر بيمند ثم ان نور الدين غزا بلد الفرنج غزوة أخرى وهزمهم وقتل فيهم وأسر وكان فى الاسرى البرنس الثانى زوج أم بيمند فلما أسره تملك بيمند انطاكية بلد أبيه وتمكن منه وبقى بها الى ان أسره نور الدين بحارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة على ما نذكره ان شاء الله تعالى وأكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الفتح وقتل البرنس فمن قال فيه القيسرانى الشاعر من قصيدة أنشده اياها بجسر الحديد الفاصل بين عمل حلب وعمل انطاكية أولها

هذى العزائم لا ما تدعى القضب * وذى المكارم لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتى متى خطبت * تعثرت خلفها الاشعار والخطب
صافحت يا ابن عماد الدين ذروتها * براحة للمساعى دونها تعب
ما زال جدك يبنى كل شاهقة * حتى ابتنى قبة أوتادها الشهب
لله عزمك ما أمضى وهمك ما * أقضى اتساعا بما ضاقت به الحقب

ياساهد الطرف والاجفان هاجعة * وثابت القلب والاحشاء تضطرب
أغرت سيوفك بالافرنج راجفة * فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة * أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
قل للطغاة وان صمت مسامعها * قولا لصم القنا فى ذكره أرب
مايوم آنب والايام دائلة * من يوم بغرابعيد لاولا كثب
أغرّكم خدعة الآمال ظنكم * كم أسلم الجهل ظنا غرّة الكذب
غضبت للدين حتى لم يفتك رضى * وكان دين الهدى مرضاته الغضب
طهرت أرض الاعادى من دمائهم * طهارة كل سيف عندها جنب
حتى استطار شرار الزند قادحه * فالحرب تضرم والآجال تحتطب
والخيل من تحت قتلاها تقرّ لها * قوائم خانهن الركض والخبب
والنقع فوق صقال البيض منعقد * كما استقل دخان تحته لهب
والسيف هام على هام بمعركة * لا البيض ذو ذمّة فيها ولا اليلب
والنبل كالوبل هطال وليس له * سوى القسى وأيد فوقها سحب
وللظبى ظفر حلو مذاقته * كانما الضرب فيما بينهم ضرب
وللاسنة عما فى صدورهم * مصادر أقلوب تلك أم قلب
خانوا فخانت رماح الطعن أيديهم * فاستسلموا وهى لا نبع ولا غرب
كذاك من لم يوق الله مهجته * لاقى العدى والقنا فى كفه قصب
كانت سيوفهم أوحى حتوفهم * يارب حائنة منجاتها العطب
حتى الطوارق كانت من طوارقهم * ثارت عليهم بها من تحتها النوب
أجسادهم فى ثياب من دمائهم * مسلوبة وكان القوم ماسلبوا
أبناء ملحمة لوانها ذكرت * فيما مضى نسيت أيامها العرب
من كان يغزو بلاد الشرك مكتسبا * من الملوك فنور الدين محتسب
ذو غرّة ماسمت والليل معتكر * الا تمزق عن شمس الضحى الحجب
أفعاله كاسمه فى كل حادثة * ووجهه نائب عن وصفه اللقب
فى كل يوم لفكرى من وقائعه * شغل فكل مديحى فيه مقتضب
من بات الاسد أسرى فى سلاسله * هل يأسر الغلب الا من له الغلب
فلكوا سلب الابرنس قاتله * وهل له غير انطاكية سلب
من للشقى بما لاقت فوارسه * وان يسائرها من تحته قتب
عجبت للصعدة السمراء مثمرة * برأسه ان أثمار القنا عجب
سما عليها سموّ الماء ارهقه * أنبوبة فى صعود أصلها صبب
مافارقت عذبات التاج مفرقه * الا وهى منه لا تاج ولا عذب
اذا القناة ابتغت فى رأسه نفقا * بدا لثعلبها من نحره سرب
كنا نعدّ حمى أطرافنا ظفرا * فلكتك الظبى ماليس نحتسب
عمت فتوحك بالعدوى معاقلها * كان تسليم هذا عند ذا جرب
لم يبق منهم سوى بيض بلا رمق * كما التوى بعد رأس الحية الذنب
فانهض الى المسجد الاقصى بذى لجب * يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب
وائذن لموجك فى تطهير ساحله * فانما أنت بحر لجه لجب

يامن أعاد ثغور الشام ضاحكة * من الظبي عن ثغور زانها الشنب
مازلت تلحق عاصيها بطائعها * حتى أقمت وأنطاكية حلب
حللت من عقلها أيدى معاقلها * فاستجفلت والى ميثاقك الهرب
وأيقنت انها تتلو مراكزها * وكيف يثبت لاجوق ولاطنب
أجريت من ثغر الاعناق أنفسها * جرى الجفون امتراها بارح حصب
ومارڪزت القنا الا ومنك على * جسر الحديد هزبر غيله اشب
فاسعد بما نلته من كل صالحة * يأوى الى جنة المأوى لها حسب
ان لايكن أحد الابدال فى فلك الـ * تقوى فلا نتمارى انك القطب
فلو تناسب أفلاك السماء بها * لكان بينكما من عفة نسب
هذا وهل كان فى الاسلام مكرمة * الا شهدت وعباد الهوى غيب

وله فيه من قصيدة أخرى

ألا لله درك أى درّ * صريح جاء بالكرم الصريح
وعسكرك الذى استولى مسيحا * على ما بين فامية وسيح
ووقعتك التى بنت العوالى * صوادر عن قتيل أو جريح
بآنب يوم أبرزت المذاكى * من النقع الغزالة فى مسوح
غداة كانما العاصى اجرارا * من الدم عبرة الجفن القريح
وقد وافاك بالابرنس حتف * أتيح له من القدر المتيح
قتلت أشحهم بالنفس اذلا * يجود بنفسه غير الشحيح
ملأت بهم ضرائحهم فامسوا * وليس سوى القشاعم من ضريح
وعدت الى ذرا حلب حميدا * سمو البدر من بعد الجنوح
فان جليت بغرتك الليالى * فكم لسناك من زمن مليح
رويدك تسكن الهيجا فوافا * بحيث تريح من تعب المريح
فأنت وان ارحت الخيل وقتا * فهمك غير همّ المستريح

وقال أحمد بن منير يمدحه ويذكر ظفره بالبرنس وأصحابه وحمل رأسه الى حلب وأنشده أيضا اياها بجسر الحديد

أقوى الضلال واقفرت عرصاته * وعلا الهدى وتبلجت قسماته
وانتاش دين محمد محموده * من بعدما غلبت دما عبراته
ردّت على الاسلام عصر شبابه * وثباته من دونه وثباته
ارسى قواعده ومدّ عماده * صعدا وشيد سوره سوراته
وأعاد وجه الحق أبيض ناصعا * اصلاته وصلاته وصلاته
لما توا ڪل حزبه وتخاذلت * أنصاره وتقاصرت خطواته
رفعت لنور الدين نار عزيمة * رجعت لها عن طبعها ظلماته
ملك مجالس لهوه شداته * ومشوقه بين الصفوف شذاته
تغرى بحمحمة اليراع بنانه * ان لذ حثحثة الكؤس لداته
ويروقه ثغر العدى قان دما * لا الثغر يعبق فى لماه لثاته
فصبوحه خمر الطلى وغبوقه * نطف النفوس تديرها نشواته
فتح تجمت السماء بفخره * وهفت على أغصانها عذباته
سبغت على الاسلام بيض حجوله * واختال فى أوضاحها جبهاته

وانهل فوق الابطحين غمامه * وسرت الى سكينها نفحاته
لله بجمة ليلة محصت به * واليوم ذبح وشيه ساعاته
حط القوامص فيه بعدقماصها * ضرب يصلصل فى الطلى صعقاته
نبذوا السلاح لضيغم عاداته * فرس الفوارس والقنا غاياته
لجرب عمرية غضباته * لله معتصمية غزواته
تحيا الضيق صفاده اسراؤه * وتفيض ماشؤ ونها نغماته
بين الجبال خواضعا أعناقها * كالذودنابت عن براه حداته
نشرت على حلب عقود بنودهم * حلل الربيع تناسقت زهراته
روض جناه لها مكر جياده * واستوأرت جالة جلاته
متساندين على الرحال كما انتشى * شرب امالت هامه قهواته
لم تنبت الأجام قبل رماحه * شجرا فروع أصوله ثمراته
فليجد الاسلام ما جددت له * شربات غرس هذه مخباته
وسقى صداذاك الحيا صوب الحيا * خير الثرى ما كنت أنت نباته
نصب السرير ومال عنه ومهدت * لمقر منصبك السرى سراته
ماضر هذا البدر وهو محاق * ان الكواكب فى الذرى ضراته
فى كل يوم تستطيل قناته * فوق السماء وتعتلى درجاته
وترى كشمس فى الضحى آثاره * مجدا وألسنة الزمان رواته
أين الاولى ملاؤا الطروس زخارفا * عن نزف بحر هذه قطراته
غدقوا بأعناق العواطل ماله * من جوهر فأتتهم فذاته
لو فصلوا سمطا ببعض فتوحه * سخرت بما افتعلوا الهم فعلاته
تمسى قنا نيسه بنات قيونه * فوق القوانس والقنا قيناته
صلتان من دون الملوك تقرها * حركاته وتنيمها يقظاته
فغدت بهم عن خطوه همّاتهم * وسمت به عن قطوهم هماته
سكنوا امسجذه الجبال وأسكنت * زحل الرحال مع السها عزماته
لو لاح للطائى غرة فتحه * بأءت بجحل تأوه با آته
أوهب للطبرى طيب نسيمه * لاحتش من تاريخه حشواته
صدم الصليب على صلابة عوده * فتفرقت ايدى سبا خشباته
وسقى البرنس وقد تبرنس ذلة * بالروح ممقر ماجنت غدراته
فانقاد فى خطم المنية أنفه * يوم الخطيم واقصرت ترواته
ومضى يؤنب تحت أنب همة * أمست زوافر غيها زفراته
أسد تبوأ كالغرنف بخاته * فتبوأت طرف السنان شواته
دون النجوم مغمضا ولطالما * اغضت وقد كرت لها لحظاته
بجلوته تبكى الاصادق تحته * بدم اذا ضحكت له شماته
تمشى القناة برأسه وهو الذى * نظمت مدار النيرين قناته
لو عانق العيوق يوم رفعته * لاراك شاهد خفضه اخباته
ما انقاد قبلك أنفه بحزامه * كلا ولاهت لها هدراته
طيان خلف السرح طال زئيره * نطقت سطاك له فطال صماته

لما بدا مسود رأيك فوقه * مبيض نصرك نكست راياته
ورأى سيوفك كالصوالج طاوحت * مثل الكرين فقلصت كثراته
ولى وقد شربت ظباك كماته * تحت العجاج وأسلمته حماته
ترك الكائس والكاس لذاهب * بالبيض نهب ماحواه عفاته
غلاب اروع لايميت عداته * داء المطال ولا تعيش عداته
والآن ملقى بالعرا يقتاته * ماكان قبل بصيده يقتاته
اليوم ملكك القراع قلاعه * متسنما ما استشرفت شرفاته
وغدا تحل لك الحلائل اسهم * متوزعات بينهن بناته
اوطأت أطراف السنابك هامه * فتقاذفت بعنيفها قذفاته
لازال هذا الملك يشمخ شأنه * أبدا ويلفت في الحضيض وشاته
ما أخطأتك يد الزمان فدونه * من شاء فلتسرع اليه هناته
أنت الذى تحلى الحياة حياته * وتهب أرواح القصيد هباته

﴿فصل﴾ وقال ابن الاثير وفيها سار نور الدين الى حصن فامية وهو للفرنج أيضا و بينه وبين مدينة حماه مائة مرحلة وهو حصن منيع على تل مرتفع عال من أحصن القلاع وامنعها وكان من به من الفرنج يغيرون على أعمال حماه وشيزر وينهبونها فاهل تلك الاعمال معهم تحت الذل والصغار فسار نور الدين اليه وحصره وضيق عليه ومنع من به القرار ليلا ونهارا وتابع عليهم القتال ومنعهم الاستراحة فاجتمعت الفرنج من سائر بلادهم وساروا نحوه ليزحزحوه عنها فلم يصلوا اليه الا وقد ملك الحصن وملأه ذخائر من طعام ومال وسلاح ورجال وجميع ما يحتاج اليه فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوهم فحين رأوا جدّه فى لقائهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم وكان قصاراهم ان صالحوه على ما أخذ ومدحه الشعراء واكثروا منهم أبو الحسين أحمد بن منير حيث قال

اسنى الممالك ما اطلت منارها * وجعلت مرهفة الشفار دثارها
وأحق من ملك البلاد وأهلها * رؤف تكنف عدله أقطارها
من عام سام الخافقين وحامها * منساوزاده وى نخص نزارها
مضرية طبعت مضاربه وان * عدّته ذروة فارس اسوارها
آل الرعية وهى تجهل آلها * وتعاف نطفتها وتكره دارها
فأقر ضجعتها وأنبت نيها * وأساغ جرعتها واثبت زارها
ملك أبوه سما لها فسما بها * وأجارها فعلت سهيلا جارها
نهج السبيل له فأوضح خلفه * وشدا له يمن العلى فأنارها
أنشرت بامحمود ملة أحمد * من بعد ماشمل البلى اصحارها
ان جانأت عدل السنان قوامها * أونا نأت كان الحسام جبارها
علقت مع العصم العواصم مذغدت * هذى العزائم أسرها وإسارها
وتكفلت لك ضمرة انضبتها * فى صونها ان تسترد ضمارها
كلأت هواملها واورد مطارها * ماأريشته وثقفت آطارها
كم حاولت من كفتيها غرة * غلب الاسود فقلمت أظفارها
انى وحامى سرحها من لوسمت * للفلك بسطته أحال مدارها
فى كل يوم من فتوحك سورة * للدين يجل سفره أسفارها
ومطيلة قصر المنابر ان غدا الـ * خطباء تنثر فوقها تقصارها
هم تعجلت الملوك وراءها * بدم العثار وما اقتفت آثارها

وعزائم تستوثر الآساد عن * نهش الفرائس ان أحس أوارها
أبدا تقصر طول مشرفة الذرى * بالمشرفية أو تطيل قصارها
فغزت افامية فافتتحته * كوبار أجناها الاران بوارها
أرهفت رائك فوق رائك تحتها * فخططت من شغفاتها أعفارها
أدركت ثارك فى البغاة وكنت يا * مختار أمة أحمد مختارها
عارية الزمن المغير سمالها * منك المغيرة فاسترد معارها
زأر الهزبر فقيدت عاناتها * عصر الضلال وأسلمت أعيارها
ضاءت نجومك فوقها ولربما * باتت تنافثها النجوم سرارها
أمست مع الشعرى العبور وأصبحت * شعراء تستقلى الفحول شوارها
ولكم قرعت بقربانك مثلها * تلعا وقلدت الكماة عذارها
حتى اذا اشتملتك أشرق سورها * عزا وحلاها سنانك سوارها
خر الصليب وقد علت نغماتها * واستوبلت صلواته تكرارها
لما وعاها سمع انطاكية * سرت الوقار وكشفت أستارها
فاليوم أضحت تستذم مجيرها * من جوره وغدت تذم جوارها
علمت بأن ستذوق جرعة أختها * ان زر أطواق القباء وزارها
ماض اذا قرع الركاب لبلدة * ألقت له قبل القراع ازارها
واذا مجانقه ركعن لصعبة الا * ملقاة أسجد كالجدير جدارها
ملأ البلاد مواهبا ومهابة * حتى استرقت آيه أحرارها
يذكى العيون اذا أقام لعينها * أبدا ويفضى بالظبى أبكارها
أوما الى رمم الندى فأعاشها * وهما لسابقة المنى فازارها
نبوى تشبيها لفتوح كانما * أنصاره رجعت له أنصارها
أحيا الصرح سلامها سلمانها * وأمات تحت عمارها عمارها
ان سار سار وقد تقدم جيشه * رجف يقصع فى اللهى دعارها
أوحل حل حبا القروم بهيبة * سلب البدور بدارها ابدارها
واذا الملوك تنافسوا درج العلى * ارى بنفس أفرعته خيارها
ونهى اذا هيضت تدل لجبرها * وسطى تذل اذا اعنت جبارها
تهدى لمحمود السجايا كاسمه * لو لم فاعلة بها لا بارها
الفاعل الفعلات ينظم فى الدجى * بين النجوم حسودها اسمارها
ساع سعى والسابقات وراءه * عنقا فعصفر منتماه عثارها
كالمضرحى اذا تصرصر آيبا * خرس البغاث وهاجرت أوكارها
عرفت لنور الدين نور وقائع * يغشى اذا اكتحلت به أبصارها
مشهورة سطعت وقد حاولتها الا * قدار عجزا ان تشق غبارها
لله وجهك والوجوه كأنما * حطت بها أوقار هبت قارها
والبيض تخنس فى الصدور صدورها * هبرا وتكحل الشفور شفارها
والخيل تدلج تحت أرشية القنا * جذب المواتح غاورت أبارها
فبقيت تستجلى الفتوح عرائسا * متمليا صدر العلى وصدارها
فى دولة للنصر فوق لوائها * زبر تنمق فى الطلى أسطارها

فالدين مومأة رفعت بها الصوى * وحديقة ضمنت يداك ابارها

وله فيه من قصيدة أخرى

خنس الثعالب حين زجر مصحر * ملأ البلاد هماهما وزئيرا
تركوا مشاجرة الرماح لحاذق * جعلت مخافته القصور قبورا
لربيب حرب لم تزل فعلاته * كالراء يلزم لفظها التكريرا
أسد اذا ما عاد من ظفر بمفترس أحد لمثله اظفورا
يتناذر الاعداء منه سطوة * ملأ الزمان تغيظا وزفيرا
عرفوا لنور الدين وقع وقائع * وفى بها الاسلام أمس نذورا
أبدا يظافرك القضاء على الذى * تبغى فترجع ظافرا منصورا
قوضت فانتقع الظهائر ظلمة * وقفلت فاشتعل الدياجر نورا
وعلى العواصم من دفاعك عاصم * ينشى الرشيد وينشر المنصورا

(فصل) فى وفاة معين الدين انر بدمشق وما كان من الرئيس ابن الصوفى فى هذه السنة قال أبو يعلى التميمى فصل معين الدين من عسكره بحوران ووصل الى دمشق فى أواخر ربيع الآخر لامر أوجب ذلك ودعا اليه وأمعن فى الاكل فلحقه عقيب ذلك انطلاق تمادى به وجد اجتهاده فيما يدبره على العود الى عسكره بناحية حوران وهو على هذه الصفة من الانطلاق وقد زاد به وضعفت قوته وتولد معه مرض فى الكبد فأوجب الحال عوده الى دمشق فى محفة لمداواته فوصل وقضى نحبه فى ليلة الثالث والعشرين من ربيع الآخر ودفن فى ايوان الدار الاتابكية التى كان يسكنها ثم نقل بعد ذلك الى المدرسة التى عمرها قلت قبره فى قبة بمقابر العونية شمالى دار البطيخ الآن واسمه مكتوب على بابها فلعله نقل من ثم اليها وفيه يقول الامير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ وكتب بها اليه من مصر لما التقى الفرنج فى أرض بصرى وصرخد مع نور الدين وقد تقدم ذلك كتب اليه قصيدة يقول فيها

كل يوم فتح مبين ونصر * واعتلاء على الاعادى وقهر
صدق النعت فيك أنت معين الـ * ـدين ان النعوت فال وزجر
أنت سيف الاسلام حقا فلا كل * غراريك أيها السيف دهر
لم تزل تضمر الجهاد مسرا * ثم أعلنت حين أمكن جهر
كل ذخر الملوك يفنى وذخرا * لك هما الباقيان أجر وشكر

قال وفى يوم الجمعة تاسع رجب قرئ المنشور المنشأ عن مجير الدين بعد الصلاة على المنبر بابطال الفسة المستخرجة من الرعية وازالة حكمها وتعفية رسمها وابطال دار الضرب فكثر دعاء الناس له وشكرهم قال واستوحش الرئيس مؤيد الدولة من مجير الدين استيحاشا أوجب جمع من أمكنه من سفهاء الاحداث والغوغاء وحملة السلاح من الجهلة العوام وترتيبهم حول داره ودار أخيه زين الدولة حيدرة للاحتماء بهم من مكروه يتم عليهما وذلك فى ثالث عشر رجب ووقعت المراسلات من مجير الدين بما يسكن ما ويطيب أنفسهما فما وثقا بذلك وجدا فى الجمع والاحتشاد من العوام وبعض الاجناد وأثارا الفتنة فقصدوا باب السجن وكسروا اغلاقه واطلقوا من فيه واستنفروا جماعة من أهل الشاغور وغيرهم وقصدوا الباب الشرقى وفعلوا مثل ذلك وحصلوا فى جمع كثير وامتلأت بهم الازقة والدروب فحين عرف مجير الدين وأصحابه هذه الصورة اجتمعوا فى القلعة بالسلاح الشاكى واخرج ما فى خزانته من السلاح والعدد وفرقت على العسكر وعزموا على الزحف على جميع الاوباش والايقاع بهم والنكاية فيهم فسأل جماعة من المقدمين التمهل فى هذا الامر وترك العجلة بحيث تحقن الدماء ويسلم البلد من النهب والحريق والحوا عليه الى ان أجاب سؤالهم ووقعت المراسلة والتلاطف فى اصلاح ذات البين فاشترط الرئيس وأخوه شروطا أجيبا الى بعضها وأعرض عن بعض بحيث يكون ملازما لداره ويكون ولده وولد أخيه فى الخدمة فى الديوان ولا يركب الى القلعة الا مستدعى اليها وتقررت الحال على ذلك وسكنت الدهماء ثم حدث بعد هذا التغيير عود الحال الى ما كانت

عليه

عليه من العناد واثارة الفساد وجمع الجمع الكثير من الاجناد والمقدمين والرعاع والفلاحين واتفقوا على الزحف الى القلعة وحصر من بها وطلب من عين عليه من الاعداء الاعيان فى أواخر رجب ونشبت الحرب بين الفريقين وجرح وقتل بينهم نفر يسير وعاد كل فريق منهم الى مكانه ووافق ذلك هروب السلار زين الدين اسماعيل الشحنة وأخيه الى ناحية بعلبك ولم تزل الفتنة ثائرة والمحاربة متصلة الى ان اقتضت الصورة ابعاد من التمس ابعاده من خواص مجير الدين وسكنت الفتنة وأطلقت أيدى النهابة فى دار السلارين وأصحابهما وعمها النهب والاخراب ودعت الضرورة الى تطييب نفس الرئيس وأخيه والخلع عليهما واعادة الرئيس الى الوزارة والرياسة بحيث لا يكون له فى ذلك معترض ولا مشارك قلت وفى هذه الفتنة يقول العرقله

ذرا الاتراك والعربا * وكن فى حزب من غلبا * بجلق أصبحت فتن * تجر الويل والحربا
لئن تمت فوا أسفا * وان تخرب فوا عجبا

وقال فى الرئيس لما زحف الى القلعة

زد علوا فى المجد يا ابن على * هكذا من أراد ان يتعالى * قد حوى الدين يا مؤيده منك هزبرا وديمة وهلالا
وغدت جلق تناديك عجبا * هكذا هكذا والا فلالا * جئتها فى الظلام خيلا ورجلا * وحميت النفوس والاموالا
لن تبالى من بعدها بعدو * انما ذاك كان قطعا فزالا * قد بلغت المراد من كل ضد * وكفى الله المؤمنين القتالا

قال أبو يعلى التميمى وفيها ورد الخبر من ناحية مصر بوفاة المستخلف بها الملقب بالحافظ واسمه عبد المجيد بن الآمر بن المستنصر فى خامس جمادى الآخرة وولى الامر بعده ولده الاصغر ابو منصور اسماعيل ولقب بالظافر وولى الوزارة له أمير الجيوش أبو الفتح بن مصال المغربى

(فصل) فى وفاة سيف الدين غازى بن زنكى صاحب الموصل وهو أخو نور الدين الاكبر قال ابن الاثير كان اتابك الشهيد يعنى زنكى ملك دارا وبقيت بيده الى ان قتل فأخذها صاحب ماردين ثم سار اليها سيف الدين بن الشهيد فى سنة أربع وأربعين فحاصرها وملكها واستولى على كثير من بلد ماردين بسببها ثم حصر ماردين عازما على ان يدخل ديار بكر ويستعيد ما أخذ من البلاد بعد قتل والده فتفرق العسكر فى بلدها ينهبون ويخربون فقال صاحب ماردين كنا نشكو من اتابك وأى أيامه فلقد كانت اعيادا لقد حصرنا غير مرة فلم يتعد هو وعسكره حاصل السلطان ولا أخذوا كفا من التبن بغير ثمن

رب دهر بكيت منه فلما * صرت فى غيره بكيت عليه

ثم انه راسل سيف الدين وصالحه على ما أراد وزوجه ابنته الخاتون ورحل سيف الدين عن ماردين وعاد الى الموصل وجهزت الخاتون وسيرت اليه فوصلت الى الموصل وهو مريض فتوفى ولم يدخل بها وذلك فى أواخر جمادى الآخرة وكان عمره نحو أربعين سنة وكان من أحسن الناس صورة ودفن بالمدرسة التى أنشأها بباطن الموصل وخلف ولدا ذكرا أخذه نور الدين محمود عمه فرباه فأحسن تربيته وزوجه ابنة عمه قطب الدين مودود فلم تطل أيامه وادركه أجله فى عنفوان شبابه فتوفى وانقرض عقب سيف الدين وكان كريما شجاعا ذا عزم وحزم وهو أول من حمل على رأسه سنجق من أصحاب الاطراف فانه لم يكن فيهم من يفعله لاجل السلاطين السلجوقية وهو أول من امر عسكره ان لا يركب أحدهم الا والسيف فى وسطه فلما أمر هو بذلك اقتدى به غيره من أصحاب الاطراف وبنى بالموصل المدرسة الاتابكية العتيقة وهى من أحسن المدارس وأوسعها وجعلها وقفا على الفقهاء الشافعية والحنفية بصفين وبنى رباط الصوفية بالموصل أيضا وهو الرباط المجاور لباب المشرعة ووقف عليهما الوقوف الكثيرة وكان كريما قصده شهاب الدين حيص بيص وامتدحه بقصيدته المشهورة وهى من جيد شعره فأجازه عنها ألف دينار أميرى سوى الاقامة والتعهد مدة مقامه وسوى الخلع والثياب قلت أول تلك القصيدة الى م يراك فى المجد فى زى شاعر يقول فى آخرها

اتابك ان سميت فى المهد غازيا * فسابقة معدودة فى البشائر
وفيت بها والدين قد مال روقه * وصدقتها والكفر بادى الشعائر

وعزى أبو الحسين أحمد بن منير نور الدين بأخيه بقصيدة تقدم بعضها أولها هو الجد بز التمام البدورا يقول فيها

سوى كل ماجنت الحادثا ✽ ت ما كنت ظلا علينا قريرا
أساءن وأحسن كرّ الهلال ✽ وملأتنا منك بدرا منيرا
اذا نيج البحر أخطأته ✽ فلا غرو ان ينتشفن الغديرا
وأصغر بفقدانا الذاهب ✽ ين ما عشت ناتيك ملكا كبيرا
وما أغمد الدهر ذاك الحسا ✽ م ماسلّ حداك عضبا بتورا
قسيم علاك ونعم القسـ ✽ ـيم أخ شاف نزرا وأعطى كثيرا
وكان نظيرك غار الزما ✽ ن من ان يرى لك فيه نظيرا
فدتك نفوس بك استوطنت ✽ من الامن نورا وقد كنّ بورا
وغيرك يمهد بسط العرا ✽ ء ويولى المسلمين سمعا وقورا
ومانقص الدهر اعدادكم ✽ اذا شف قطرا وأبقى بحورا
ولو أنصف المجد موتاكم ✽ لخطلهم فى السماء القبورا
حياتك أحيت رميم الرجا ✽ ء وأمطت من الجود ظهرا ظهيرا
بقيت معزا من الهالكـ ✽ ـين توقى الردو توفى الاجورا

وللقيسرانى قصيدة منها

ما أطرق الجو حتى أشرق الافق ✽ ان أغمد السيف فالصمصام يأتلق
دون الاسى منك نور الدين فى حلب ✽ هلال يتجلى عن وجهه الغسق
هو الشقيق الشفيق الغيب حين ثوى ✽ أراق ماء الكرى من جفنك الارق
تلقى الاسى من لباس الصبر فى جنن ✽ حصينة تحتها الاحشاء تحترق
ومدّة الاجل المحتوم ان خفيت ✽ فان أيامنا من دونها طرق
وانما نحن فى مضمار حلبتها ✽ خيل الى غاية الاعمار تستبق
شاو اذا ابتدر الاقوام غايته ✽ كان المؤخر فيها من له السبق
ان كان صنوك هذا قد ثوى فذوى ✽ ففى مغارسك الاثمار والورق
أو أصبحت بعده الاهواء نافرة ✽ أيدى سبا فعلى علياك نتفق
ما غاب من غاب عن آفاق مطلعه ✽ الا ليفترّ عن أنوارك الافق
مادام شمسـك فينا غير آفلة ✽ فالدين منتظم والملك متسق

﴿فصل﴾ قال ابن الاثير لما توفى سيف الدين غازى كان أخوه قطب الدين مودود بالموصل فاتفقت كلمة جمال الدين وزين الدين على توليته وتمليكه طلبا للسلامة منه فانه كان لين الجانب حسن الاخلاق كثير الحلم كريم الطباع فاحضروه من داره وحلفوه لهم وحلفوا له ونزل بدار المملكة وحلف له الامراء والاجناد واستقر فى الملك وأطاعه جميع ما كان لاخيه سيف الدين لان المرجع كان فى جميع المملكة الى جمال الدين وزين الدين ولما ملك واستقر فى الملك تزوّج امرأة أخيه التى مات ولم يدخل بها الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين فولدت لقطب الدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعده على ماسنذكره ولم يملكها من أولاد قطب الدين أحد غير أولادها قال وكانت هذه الخاتون يحل لها ان تضع خمارها عند خمس عشر ملكا من آبائها وأجدادها واخوتها وبنى اخوتها وأزواجها وأولادها وأولاد أولادها ثم ذكرهم ابن الاثير فى كتابه وسماهم وذكر انها أشبهت فى ذلك فاطمة بنت عبد الملك بن مروان زوج عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كان لها ان تضع خمارها عند ثلاثة عشر خليفة وهم من معاوية رضى الله عنه الى آخر خلفاء بنى أمية سوى آخرهم وهو مروان بن محمد فانه ابن عم لها ليس بمحرم والباقون محارم لها وماتم له ذلك الا بعد ذكره ان أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية فمعاوية جدّ أمها ويزيد جدّها لامها ومعاوية بن يزيد خالها ومروان جدّها لابيها وعبد الملك أبوها والوليد وسليمان وهشام ويزيد اخوتها وعمر بن

عبد العزيز زوجها والوليد بن يزيد بن الوليد أولاد اخوتها وهؤلاء كلهم خلفاء وعدتهم ... عشر
قلت وهذا كله مبنى على أصل فيه خلل وهوان فاطمة بنت عبد الملك ليست أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية
بل أمها امرأة مخزومية على ما بيناه فى ترجمتها فى تاريخ دمشق ولكن الصواب فى ذلك ان يقال كان لفاطمة ان تضع
خمارها عند عشرة من الخلفاء وهم مروان بن الحكم ونسله سوى مروان بن محمد وأما عاتكة فالجميع محرم لها سوى
عمر بن العزيز ومروان بن محمد بقى اثنا عشر خليفة كلهم محارم لها معاوية جدها ويزيد أبوها ومعاوية بن يزيد
أخوها ومروان حموها وعبد الملك زوجها والوليد وسليمان وهشام أولاد زوجها ويزيد بن عبد الملك ابنها والوليد بن
يزيد ابن ابنها ويزيد بن الوليد وابراهيم بن الوليد ابنا ابن زوجها ولو اضيف الى ذلك الملوك من محارم عاتكة أو فاطمة
كالاخوة والاعمام والاخوال وبنى الاخوة لتضاعف العدد كخالد بن يزيد بن معاوية أخى عاتكة وعبد العزيز
ابن مروان عم فاطمة ومسلمة وعبد الله ابنى عبد الملك وغيرهم وذلك ظاهر لمن عرف انساب بنى أمية وما ذكره
ابن الاثير من أمر بنت حسام الدين فست الشام بنت أيوب أكثر منها محارم من الملوك يجتمع لها من ذلك أكثر من
ثلاثين ملكا من اخوتها الاربعة المعظم وصلاح الدين والعادل وسيف الاسلام ومن أولادهم وأولاد أولادهم وأولاد
أخيها الاكبر شاهنشاه بن أيوب تقى الدين وذريته أصحاب حماه وفرخشاه وابنه الامجد صاحب بعلبك

(فصل) قال ابن الاثير ولما ملك قطب الدين الموصل والبلاد الجزرية كان أخوه نور الدين بحلب وهو أكبر
من قطب الدين فكاتبه بعض الامراء وطلبوه اليهم منهم المقدم والد شمس الدين بن المقدم وهو حينئذ دزدار سنجار
فسار نور الدين جريدة فى سبعين فارسا من أكابر دولته منهم أسد الدين شيركوه ومجد الدين أبو بكر بن الداية وغيرهما
فوصلوا الى ماكسين فى ستة أنفس فى يوم شديد المطر وعليهم اللبابيد فلم يعرفهم الذين بالباب وأرسلوا الى الشحنة
وأخبروه بوصول نفر من الاجناد كأنهم تركمان فلم يستتم القاصد كلامه حتى وصل نور الدين فحين رآه الشحنة
قبل يده وخرج عن الدار فنزلها نور الدين حتى لحق به أصحابه وسار مجدا الى سنجار فوصلها وليس معه الا نفر يسير
فنزل بظاهر البلد وألقى نفسه على محفورة صغيرة من شدة تعبه وأرسل الى المقدم بالقلعة يعرفه وصوله وكان المقدم
قد استدعى من الموصل لان خبره مع نور الدين بلغ من بها فارسلوا اليه فوقف عدة أيام فلم يصل نور الدين فسار الى
الموصل وترك ابنه شمس الدين بسنجار وقال له انا أتأخر فى الطريق فان وصل نور الدين فارسل من يعلمنى فلما فارق
سنجار وصل نور الدين فلما علم شمس الدين بوصوله أرسل قاصدا الى أبيه بالخبر وانهى الحال الى نور الدين فخاف
فوات الامر ووصل القاصد الذى سيره ابن المقدم الى أبيه فادركه بتل يعفر فعاد الى سنجار وسلمها الى نور الدين وكاتب
فخر الدين قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن يستنجده وبذل له قلعة الهيثم فسار اليه بجنده فلما سمع قطب الدين
الخبر جمع عساكره وسار عن الموصل نحو سنجار ومعه الجمال والزين ونزلوا بتل يعفر وأرسلوا الى نور الدين ينكرون
عليه أقدامه واخذه ما ليس له وتهددوه بقصده واخراجه من البلاد قهرا ان لم يرجع اختيارا فأعاد الجواب انى أنا
الاكبر وأنا أحق ان أدبر أمر أخى منكم وما جئت الا لما تتابعت الى كتب الامراء يذكرون كراهيتهم لولايتكم عليهم
يعنى الجمال والزين فخفت ان يحملهم الغيظ والانفة على ان يخرجوا البلاد من أيدينا فأما تهددكم اياى بالقتال فأنا
ما أقاتلكم الا بجندكم وكان قد هرب اليه جماعة من أجنادهم فخافوا ان يلقوه لئلا يخامر عليهم باقى العسكر ودخل
الامراء فى الصلح وأشار به جمال الدين الوزير وقال نحن نظهر للسلطان والخليفة انا نتبع نور الدين ونور الدين يظهر
للفرنج انه بحكمنا ويهددهم بنا فان كاشفناه وحاربناه فان ظفر بنا طمع فينا السلطان وان ظفرنا به طمع فينا الفرنج
ولنا بالشام حمص وقد صار له عندنا سنجار فهذه أنفع لنا من تلك وتلك أنفع له من هذه والرأى ان نسلم اليه حمص
ونأخذ سنجار وهو فى ثغر بازاء الفرنج ويتعين مساعدته فاتفق الجماعة على هذا الرأى وسار جمال الدين الى نور
الدين وأبرم معه الامر وتسلم حمص وسلم سنجار الى أخيه وعاد نور الدين وأخذ ما كان بسنجار من المال ولما تسلم
قطب الدين سنجار أقطعها الزين الدين لان حمص كانت لاخيه ينال وهو مقيم بها واتفقت كلمتهم واتحدت آراؤهم
وكل واحد منهما لا يصدر الا عن أمر أخيه وطلب نور الدين ان يكون الجمال عنده فقال له الجمال أنت عندك من
الكفاية ما يستغنى به عن وزير ومشير وليس عندك من الاعداء مثل ما عند أخيك لان عدوك كافر فالناس

يدفعونه بانه وأعداء أخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم واذا كنت عند أخيك فالنفع اليك عائد وأريد من بلاد أخيك معونة على كثرة خرجي فأجابه الى ذلك فقال له جمال الدين أنت عليك خرج كثير لاجل الكفار فيجب مساعدتك وأنا أقنع منك بعشرة آلاف دينار كل سنة فأمر له بها فكان نائب جمال الدين يقبضها كل سنة ويشتري بها أسرى من الفرنج ويطلقهم قلت وقرأت في ديوان القيسراني وقال في نور الدين عند قدومه وقد استولى على سنجار واعمال الرحبة والفرات وذلك في منتصف ذي القعدة سنة أربعين وخمسمائة

هذا الذي ولدت له الافكار * وتمخضت فالابه الاشعار
وجرت له خيل النهى في حلبة * وردت وصهو ضميرها المضمار
واتت به نذر القوافي برهة * ان القوافي وحيها انذار
حكمت لسيفك بالممالك عنوة * حكما لعمري ما عليه غبار
يا ايها الملك المطيل نجاده * برّيدين بهديه الابرار
يا أين السيوف وهل فخرت بنسبة * الا سما بك للجدود فخار
فارقت دار الملك غير مفارق * لك من علاك بكل ارض دار
في عسكر يخفى كواكب ليله * نقعا فيطلعها القنا الخطار
جرار أذيال العجاج وراءه * وأمامه بل جحفل جرار
تدنى لك الغايات أكبر همة * نورية همم الملوك كبار
حتى ملأت الخافقين مهابة * دانت لعظم نظامها الاقطار
وملكت سنجارا وما من بلدة * الا تمنت انها سنجار
وبسطت بالاموال كفا طالما * طالت بها الآمال وهي قصار
وجرت بامداد الجياد شعابها * جري السيول وما سواك قرار
وثنى الفرات الى يديك عنانه * والبحر ما اتصلت به الانهار
وملكت رحبة مالك فتبرجت * منها العيون كاعب معطار
جاءتك في حلل الربيع وحليها * قبل الربيع شقائق وبهار
نثرت عليك هوى القلوب محبة * وتودّ لو ان النجوم نثار
فأتت كالشمس المنيرة ان نأت * عن أفقها فلها به أقمار
من كان نور الدين ثم أخيه * ليل السرى حفت به الانوار
تدعو البلاد اليك ألسنة الظبي * فيجيبك الانجاد والاغوار
حتى عمدت الدين يا ابن عماده * بقنا أسنتها عليه منار
وقفلت من أسفار جدك قادما * كالصبح نم بثغره الاسفار
يغشى البصائر نور وجهك بعد ما اعتركت على قسماته الابصار
حتى عمرت بكل قلب صدره * حيث الصدور من القلوب قفار
ان تمس في حلب رياحك غضة * فلها بانطاكية إعصار
وغدت جيادك بالشآم مقيمة * ولها بأطراف الدروب مغار
هم سبقت بها الى مهج العدى * صرف الردى ومسيره احضار
وأرى صياح القمص كان خديعة * فطغى وجار وليس ثم وجار
خان الصنيعة غير محقوق بها * والخير يهدم ما بنى الختار
ذنب اذا ما غبت أقدم عاتيا * اقدام من لم يدن منه قرار
أمضى السلاح على عدوك بغيه * بالغدر يطعن في الوغى الغدار

فاحسم عناد ذوى العناد بجحفل * كالليل فيه من الصفيح نهار
جند على جرد امام صدورها * صدر عليه من اليقين صدار
قد بايع الاخلاص بيعة نصرة * ولكل هادى أمة أنصار
ملك له من عدله ووفائه * جيش به تستفتح الامصار
واذا الملوك تثاقلت عن غاية * وأرادها خفت به الاقدار
واذا انتضته الى الثغور عزيمة * قامت مقام جنوده الاخبار

ولابن منير من قصيدة فيه

ترنح معطف الزوراء لما * دعاك لزور سنجار لمام
وزلزلت الصعيد وراء مصر * غداة علتك فى قطنا الخيام
رجاء هزتيك وتلك خوف * ولو قد شئت ضمهما اقرام
بعيشك يا مبيد الخيل ركضا * حمام هن تحتك أم حمام

وقال ابن منير أيضا يهنيه بتسليم قلعة حمص من ينال وأنشده فى القلعة قصيدة أولها

ارحها فهى ازلام المعالى * لهن الى الوغى توق المغالى
أما ومقيلهن بكل نقع * يقوّض بالهدى عمر الضلال
وأى سيوفك الحمر الحواشى * منزلة متى دعيت نزال
مواض ان سللن سلكن جزما * نفاه من الطلى لفظ اعتلال
لقد غلب الصليب بحر حرب * يشيب أوارها لم الليالى
وشمت لنصر هذا الدين ناسا * تحرّم منه كل حمى حلال
ووقايع أنزعت فى كل فج * وقايع جوّها دامى العزال
تسائل حمص عن منسى دين * تقاضاه لك الحجج الخوالى
فوافت وهى أخت النجم بعدا * ووعدا صيغ من مطل مطال
تشامخ أنفها عزا وشدّت * على ان لا تنال يدا ينال
فما زالت رقاك تجدّ نقضا * لما تثنيه من مرر الحبال
الى ان أطلق الحسناء كرها * وآل الى ملاوحة المالى
يصد الوجه عن شمال القت * يد الاشم ذى باع طوال
شغلت بها يمينك والمواذى * تكفل ان مصرا للشمال
اذا افتتح القتال عليك أرضا * أباحك أختها الا عن قتال

(فصل) قال الرئيس أبو يعلى اتصل الخبر بنور الدين بافساد الفرنج فى الاعمال الحورانية بالنهب والسبى فعزم على التأهب لقصدهم وكتب الى من بدمشق يعلمهم بما عزم عليه من الجهاد ويستدعى المعونة على ذلك بألف فارس تصل اليه مع مقدّم يعول عليه وقد كانوا عاهدوا الفرنج على ان يكونوا يدا واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين فاحتج عليه وغولط فلما عرف ذلك رحل ونزل بمرج يبوس وبعض العسكر بيعضور فلما قرب من دمشق وعرف من بها خبره ولم يعلموا أين قصده وقد كانوا راسلوا الافرنج بخبره وتقرروا معهم الانجاد عليه وكانوا قد نهضوا الى ناحية عسقلان لعمارة غزة ووصلت أوائلهم الى بانياس وعرف نور الدين خبرهم فلم يحفل بهم وقال لا انحرف عن جهادهم وهو مع ذلك كاف أيدى أصحابه عن العيث والافساد فى الضياع وأمر باحسان الرأى فى الفلاحين والتخفيف عنهم والدعاء له مع ذلك متواصل من أهل دمشق وأعمالها وسائر البلاد وأطرافها وكان الغيث قد انحبس عن حوران والمرج والغوطه ونزح أكثر أهل حوران عنها للمحل واشتداد الامر فلما وصل نور الدين الى بعلبك اتفق نزول المطر يوم الثلاثاء ثالث ذى الحجة وأقام الى مثله فروى الاكام والوهاد وجرت الاودية وزادت الانهار

وامتلأت برك حوران ودارت ارحيتها وعاد ماصوح من الزرع والنبات طريا وحشد الناس بالدعاء لنور الدين وقالوا هذا ببركته وحسن معدلته وسيرته ثم رحل من منزله بالاعوج ونزل بجسر الخشب المعروف بمنازل العساكر في السادس والعشرين من ذي الحجة وأرسل الى مجير الدين والرئيس وقال انني ماقصدت بنزول هذا المنزل طلبا لمحاربتكم ولا منازلتكم وانما دعاني الى هذا الامر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان بان الفلاحين أخذت أموالهم وسبيت نساؤهم واطفالهم بيد الافرنج وعدم الناصر لهم ولا يسعني مع ما أعطاني الله وله الحمد من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال ان أقعد عنهم ولا انتصر لهم مع معرفتي لعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب والتقصير الذي دعاكم الى الاستصراخ بالافرنج على محاربتي وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلما لهم وتعديا عليهم وهذا امالا يرضى الله تعالى ولا أحدا من المسلمين ولابد من المعونة من ألف فارس مزاحي العلة تجرد مع من يوثق بشجاعته من المقدمين لتخليص ثغر عسقلان وغزة قال فكان الجواب عن هذه الرسالة ليس بيننا وبينك الا السيف وسيوافينا من الافرنج مايعيننا على دفعك ان قصدتنا ونزلت الينا فلما عاد الرسول بهذا الجواب ووقف عليه أكثر التعجب منه والانكار له وعزم على الزحف الى البلد ومحاربته في غد ذلك اليوم فأرسل الله من الامطار وتداركها ودوامها مامنعه من ذلك

(ثم دخلت سنة خمس وأربعين) ففي مستهل المحرم تقرر الصلح بين نور الدين وأرباب دمشق والسبب في ذلك ان نور الدين اشفق من سفك دماء المسلمين ان أقام على حربها والمضايقة لها بعدما اتصل به من أجناد دعته الى ذلك واتفق انهم بذلوا له الطاعة واقامة الخطبة له على منبر دمشق بعد الخليفة والسلطان وكذا السكة ووقعت الايمان على ذلك وخلع نور الدين على مجير الدين خلعة كاملة بالطوق وأعاده مكرما محترما وخطب له على منبر دمشق يوم الجمعة رابع عشر محرم ثم استدعى الرئيس الى المخيم وخلع عليه خلعة كاملة أيضا وأعاده الى البلد وخرج اليه جماعة من الاجناد والخواص الى المخيم واختلطوا به ووصل من استماحه من الطلاب والقراء والضعفاء بحيث ماخاب قاصده ولا أكدى سائله ورحل عن مخيمه عائدا الى حلب بعد احكام ماقرر وتكميل مادبر قلت وفي ذلك يقول القيسراني

لك الله ان حاربت فالنصر والفتح * وان شئت صلحا عد من حزبك الصلح
وهل أنت الا السيف في كل حالة * فطورا له حد وطورا له صفح
سقيت الردينيات حتى رددتها * ترنح من سكر فخل القنا تصحو
وما كان كف العز الا اشارة * الى الحزم لولم يغضب السيف والرمح
وقد علم الاعداء مذ بت جانحا * الى السلم ما تنوى بذاك وما تنحو
اذا ما دمشق ملكتك عنانها * تيقن من في ايليا انه الذبح
متى التف نقع الجحفلين على الهدى * فلا مهمه يحوى الضلال ولا سفح
اذا سار نور الدين في الجيش غازيا * فقولا لليل الافك قد طلع الصبح
تركت قلوب الشرك تشكو جراحها * فلا زالت الشكوى ولا اندمل الجرح
صبرت فكان الصبر غير مغبة * فسيق اليك الملك يسعى به النجح
كان القنا تجلو له وجه أمره * ولو أمهلت بالقدس ماغرها الصرح
بدولتك الغراء أصبح ضدها * بهيما ولولا الحسن ماعرف القبح
وكم من قريح القلب لو بات واردا * موارد هذا العدل مامسه قرح
سحابك هذا الدهر جودا على الورى * على انه مازال في طبعه شح
وقد كان يمحو رسم كل فضيلة * ونحن نراه اليوم يثبت مايمحو
بك ابتهج الالباب واتهج الحجى * وأثمرت الآداب واطرد المدح
ولاذت بك التقوى وعاذت بك العلى * ودانت لك الدنيا وعز بك السمح
فلا قلب الا قد تملكته هوى * ولا صدر الا قد جلاه لك النصح

وما الجود فى الاملاك الاتجارة ❊ فمن فاته حمد الورى فاته الربح
ولم اختصر ماقلت الالانـنى ❊ اعبر عما لا يقوم به الشرح

﴿فصل﴾ فى فتح عزاز قال أبو يعلى وورد الخبر فى الخامس من المحرّم من ناحية حلب بأن عسكرها من التركمان ظفر بابن جوسلين صاحب عزاز وأصحابه وحصلوا فى قبضة الاسر فى قلعة حلب فسرّ هذا الفتح كافة الناس وتوجه نور الدين فى عسكره الى عزاز ونزل عليها وضايقها وواظب قتالها الى ان سهل الله تعالى ملكها بالامان وهى على غاية من المنعة والحصانة والرفعة فلما تسلمها رتب فيها من ثقاته من وثق به ورحل عنها ظافرا مسرورا عائدا الى حلب فى أيام من شهر ربيع الاول قلت وذكر ابن منير فتح عزاز وغيرها وأمر دمشق فى قصيدة أوّلها

فدتك القلوب بألبابها ❊ وساح الملوك بأربابها
كتائب ترمى جنود الصليـ ❊ ـب منها بتقطيع أصلابها
اذا ما انثنت من قراع الكما ❊ ة كست وفدها وشى أسلابها
تبرنس منها البرنس الثيا ❊ ب وحلته من وقع احلابها
عشية غصت على آنب ❊ نفوس النصارى بغصابها
وقام لاحمد محمودها ❊ بجذع موارن أحزابها
تجلى لها حيدرى المصاع ❊ أغلب مود بغلابها
مورث أركاسها من أب ❊ أكول الفوارس شرابها
همام اذا أعصوصبت نبوة ❊ دهاها بهاشم اعصابها
مضى وجنى لك حلو الشها ❊ دمما تمطق من صابها
وأوصى بها لك من بعدما ❊ تجرّع ممقرا وصابها
واقسم جدّك ان لا يليـ ❊ ـق بغيرك ملبس أثوابها
صبحت دمشق بمشق الجيا ❊ د نور الوغى بين أحدابها
واصلت رايك قبل الحسا ❊ م محمد جرة اجلابها
فاعطتك مالم تنله يد ❊ وفازت رقاك باصحابها
وأنت تصرف فضل الزما ❊ م من حمص تأخير ركابها
تخوّنها الجور فاستدركت ❊ بعدلك أغبار ظبظابها
وفاجأت فورس بالشائلات ❊ تمج القنا سم اذنابها
فارمت حتى رمت بضنها ❊ اليك أزمة ضرابها
وعزت عزاز فاذللتها ❊ بمجرى مضيق لاسهابها
باشمخ من أنفها منكبا ❊ وأكثر من عدّ طورابها
دلفت لعيطا أم النجو ❊ م فى الامر ايطاء أترابها
وعذرا مذ عمرت ما اهتدت ❊ ظنون الليالى لاخزابها
تفرعتها بفروع الوشـ ❊ ـيج مثمرة هام أوشابها
وعوج اذا انبضت اغمضت ❊ ذكاء لارسال نشابها
ومحدودبات تطير الخطوب ❊ ملافظ ألسن خطابها
تصوّب عقبان ريب المنون ❊ متى زينتها باعقابها
وماركعت حول شم الهضا ❊ ب الاسجدن لانصابها
فلاذت بمعتصم بالكتا ❊ ب وهوب الممالك سلابها
بمعتصى الذرى والهدى ❊ هموس السرى غير هيابها

محلى المحل بوصف الفتو * ح ووصف التهانى وأربابها
وتعجز مداحه أن تحيط بآدابه فلك آدابها
بدائع لورد دهر رمين شبات حبيب باحبابها
وأين ابن أوس وآياته * من اللاء أودت بحسابها
من اللاء عاد عتيق لها * ورد عليها ابن خطابها
فايامه من حبور تكا * د يطير بها فرط اعجابها
لك الفضل ان راسلتك الجيا * د وقامت أدلة أنجابها
أقول لمؤ جره بالغرو * رتمطت هواها فأهوى بها
حذار فعند ابتسام الغيو * ث تخشى صواعق الهابها
ولا تخدعوا باقترار الليو * ث فالنار فى برد أنيابها

(فصل) فى صفة أسر جوسلين قال ابن الاثير سار نور الدين الى بلاد جوسلين وهى القلاع التى شمالى حلب منها تل باشر وعين تاب وعزاز وغيرها من الحصون فجمع جوسلين الفرنج فارسلهم ورا حلهم ولقوا نور الدين وكان بينهم حرب شديدة انجلت عن انهزام المسلمين وظفر الفرنج وأخذ جوسلين سلاح دار كان لنور الدين أسيرا وأخذ ما معه من السلاح فانفذه الى السلطان مسعود بن قليج ارسلان السلجوقى صاحب قونية واقصرا وغيرهما من تلك الاعمال وكان نور الدين قد تزوج ابنته وأرسل مع السلاح اليه يقول قد أنفذت لك بسلاح صهرك وسيأتيك بعد هذا غيره فعظمت الحادثة على نور الدين وأعمل الحيلة على جوسلين وعلم ان هو جمع العساكر الاسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع فاحضر نور الدين جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب من الاقطاع والاموال ان هم ظفروا بجوسلين اما قتلا واما اسرا فاتفق ان جوسلين خرج فى عسكره وأغار على طائفة من التركمان فنهب وسبى فاستحسن من السبى امرأة منهم خلا معها تحت شجرة فعاجله التركمان فركب فرسه ليقاتلهم فأخذوه أسيرا فصانعهم على مال بذله لهم فرغبوا فيه واجابوه الى ذلك وأخفوا أمره عن نور الدين فارسل جوسلين فى احضار المال فأتى بعض التركمان الى نائب نور الدين بحلب فاعلمه الحال فسير معه عسكرا أخذوا جوسلين من التركمان قهرا وكان نور الدين حينئذ بحمص وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين فانه كان شيطانا عاتيا من شياطين الفرنج شديد العداوة للمسلمين وكان هو يتقدم على الفرنج فى حروبهم لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه وشدة عداوته للملة الاسلامية وقسوة قلبه على أهلها وأصيبت النصرانية كافة باسره وعظمت المصيبة عليهم بفقده وخلت بلادهم من حاميها وثغورهم من حافظها وسهل أمرهم على المسلمين بعده وكان كثير الغدر والمكر لا يقف على يمين ولا يفى بعهد طالما صالحه نور الدين وهادنه فاذا امن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر فلقيه غدره وحاق به مكره ولا يحيق المكر السيئ الا باهله فلما أسر تيسر فتح كثير من بلادهم وقلاعهم فمنها عين تاب وعزاز وقورس والراوندان وحصن البارة وتل خالد وكفرلاثا وكفرسوب وحصن نسرفوب بجبل بنى عليم ودلوك ومرعش ونهر الجوز وبرج الرصاص قال وكان نور الدين رحمه الله اذا فتح حصنا لا يرحل عنه حتى يملأه رجالا وذخائر تكفيه عشر سنين خوفا من نصره تتجدد للفرنج على المسلمين فتكون الحصون مستعدة غير محتاجة الى شئ وقال الشعراء فى هذه الحادثة فأكثروا منهم القيسرانى قال يمدح نور الدين بعد صدوره عن دمشق واستقرار أمرها ويذكر قتل البرنس وأسر جوسلين وأخذ بلاده

دعا ما ادعى من غره النهى والامر * فما الملك الا ما حباك به الامر
ومن ثنت الدنيا اليه عنانها * تصرف فيما شاء عن اذنه الدهر
ومن راهن الاقدار فى صهوة العلى * فلن تدرك الشعرى مداه ولا الشعر
اذا الجد أمسى دون غايته المنى * فماذا عسى أن يبلغ النظم والنثر
ولم لا يلى أسنى الممالك مالك * زعيم بجيش من طلائعه النصر
ليهن دمشقا أن كرسى ملكها * حبى منك صدرا ضاق عن همه الصدر

وانك

وانك نور الدين مذ زرت أرضها * سمت بك حتى انحط عن نسرها النسر
خطبت فلم يحجبك عنها وليها * وخطب العلى بالسيف مادونه ستر
جلاها لك الاقبال حورية السنا * عليها من الفردوس أردية خضر
خلاوب أكنت من هواك محبة * نمت فانمت جهرا وسر الهوى جهر
فسقت اليها الامن والعدل نحلة * فامست ولا اسر تخاف ولا اصر
فان صافحت يمناك من بعد هجرها * فاحلى التلاقى ماتقدمه هجر
وهل هي الا كالحصان تمنعت * دلالا وان عز الحبا وغلا المهر
ولكن اذا ماافتستها بصداقها * فليس له قدر وليس لها قدر
هي الثغر أمسي بالكراديس عابسا * وأصبح عن باب الفراديس يفتر
على انها لو لم تجبك انابة * لارهقها من بأسك الخوف والذعر
فما وقفت الخيل ناقعة الصدى * على بردا من فاوقها الورق النضر
فمن بعدما أوردتها حومة الوغى * وأصدرتها والبيض من علق حمر
وجلتها نقعا أضاع شياتها * فلا شهبها شهب ولا شقرها شقر
علا النهر لما كاثر القصب القنا * مكاثرة فى كل نحر لها نحر
وقد شرقت أجرافه بدم العدى * الى ان جرى العاصى وضحضاحه غمر
صدعتهم صدع الزجاجة لا يد * لجابرها ما كل كسر له جبر
فلا ينتحل من بعدها الفخر دائل * فمن بارز الابرنز كان له الفخر
ومن بز انطاكية من مليكها * أطاعته ألحاظ المؤللة الخزر
أخو الليث لولا غدره نزعت به * الى الذئب ان الذئب شيمته الغدر
أتى رأسه ركضا وغودر شلوه * وليس سوى عافى النسور له قبر
وقد كان فى استبقائه لك منة * هى الفتك لولم تغضب البيض والسمر
كما أهدت الاقدار للقمص اسره * وأسعد قرن من حواه لك الاسر
طغى وبغى عدوا على غلوائه * فاوبقه الكفران عدواه والكفر
والقت بايديها اليك حصونه * ولولم تجب طوعا لجاء بها القسر
وأمست عزاز كاسمها بك عزة * تشق على النسرين لو انها الوكر
فسر واملأ الدنيا ضياء وبهجة * فبالافق الداجى الى ذا السنا فقر
كانى بهذا العزم لافل حده * وأقصاه بالاقصى وقد قضى الامر
وقد أصبح البيت المقدس طاهرا * وليس سوى جارى الدماء له طهر
وقد أدت البيض الحداد فروضها * فلا عهدة فى عنق سيف ولا نذر
وصلت بمعراج النبى صوارم * مساجدها شفع وساجدها وتر
وان يتيمم ساحل البحر مالكا * فلا عجب أن يملك الساحل البحر
سللت سيوفا أثكلت كل بلدة * بصاحبها حتى تخوفك البدر
اذا سار نور الدين فى عزماته * فقولا لليل الافك قد طلع الفجر
ولو لم يسر فى عسكر من جنوده * لكان له من نفسه عسكر مجر
مليك سمت شم المنابر باسمه * كما زهيت تيها به الانجم الزهر
فيا كعبة مازال فى عرصاتها * مواسم حج لا يروعها النفر
خلعت على الايام من حلل العلى * ملابس من أعلامها الحمد والشكر

وتوجت ثغر الشأم منك جلالة * تمنت لها بغداد لو أنها ثغر
فلا تفخر مصر علينا بنيلها * فيمناك نيل كل مصر بها مصر
رددت الجها د الصعب سهلا سبيله * وياطالما أمسى ومسلكه وعر
وأطمعت فى الافرنج من كان بأسه * تخوف أن يعتاده منهم فكر
وأقحمت جرد الخيل أعلى حصونها * ولولاك لم يهجم على كافر كفر
ومن يدعى فى قتلك الشرك شركة * اذا لم يكن عند القوافى له ذكر
هى القانتات الحافظات فروجها * فشاهدها عدل ورائقها سحر
ولو لم يكن فى فضلها وكمالها * سوى انها من بعد عمر الفتى عمر

وله من قصيدة يصف فيها من وقائعه أولها

أما وخيال زار ممن أحبه * لقد هاج من ذكراه ما لا أغبه
اذا ما صبا قلب المحب الى الصبا * ذكرت نسيما بالثغور مهبه
فيا نفحات الشأم رفقا بمهجة * يحامى عليها مدنف القلب صبه
فلا تسألن الصب أين فؤاده * فان فؤاد المرء مع من يحبه
وفى شعب الاكوار من هو عالم * غداة استطار البرق من طارلبه
يشيم ثغور المزن تهمى كأنها * سنا بشر نور الدين تهمل سحبه
اذا ما سما فى مبهم الخطب وجهه * تمزق عن بدر الدجنة حجبه
تولد بين الغيث والليث والتقى * منافسة أى الثلاثة تربه
يعد مضاء فى التأبى لا وضربه * بها قلل الاعداء ما السيف ضربه
مكين الحجى أرضى الزمان بنفسه * الى الآن حتى لان وانقاد صعبه
حمى قبة الاسلام بالخيل فاغتدت * وأوتادها جرد الطعان وقبه
فكم هبوة أوقعن بالكفر تحتها * فما انقشعت الا وللذل جنبه
كيوم الرها الورهاء والهام يانع * ملىّ برعى الهندوانى خصبه
وشهباء هاجتها وغى صرخدية * ثناها وليل الحرب ينقض شهبه
وعارم يوما بالعريمة فاغتدت * كوادى ثمود اذرغا فيه سقبه
وعاصى على العاصى بأرعن خاطب * دم الافك حتى أنكح النصل خطبه
بأنب لما اكسب المال وانثنى * بصاحب انطاكية وهو كسبه
غداة هوى شطرين للسيف رأسه * وللرمح حتى توج الرأس قلبه
على حين للخطى فيه عوامل * يعاقبه خفض الحسام ونصبه
ووقائع محمودية النصر لم تزل * غريبا بها عن موطن السيف غربه
يقوم مقام الجيش فيها وعيده * وتفعل افعال الكتائب كتبه
وحين انتضته عزمة من قرابه * مضى وهو نصل والممالك قربه
الى أن دعته ربها كل بلدة * فليس من الامصار ما لا يربه
ولما يرى بالقمص عجب هوى به * على أم رأس البغى والغدر عجبه
فاصبح فى الجلين ينكر خطوه * بعيد على الرجلين فى السعى قربه
تعاقبه البشرى بأخذ حصونه * فيا عانيا ضرب البشائر ضربه
تناجى عزازيا سمه تل باشر * فيلعنه لعن الصريح وسبه
فان يكن المعهود من ثل عرشه * فهذا عمود الكفر قد طاح طنبه

فقل لملوك الخافقين نصيحة ❋ كذا عن طريق الليث زأر غلبه
وخلوا عن الآفاق فالشرق شرقه ❋ بحكم الردينيات والغرب غربه
ولا يعتصم بالدرب طاغ على القنا ❋ فان القنا فى ثغرة النحر دربه
رحيب فضاء الحلم عن ذات قدره ❋ اذا ضاق من صدر الملك رحبه
عفوّ عن الجانى يكاد الذى جنى ❋ يكثر به شوقا الى الله فوذنبه
أمتخذ الاخلاص لله جنة ❋ ومن يعتصم بالله فالله حسبه
أبوك استردّ الشأم بالسيف عنوة ❋ وللروم بأس طالما غال خطبه
اذا ذب عن أضغاث دنياه مالك ❋ فانت الذى عن حوزة الدين ذبه
رأيت اتباع الحق خير مغبة ❋ فافرجت عن رأى يسرك غبه
وأوضحت مابين الفريقين سنة ❋ بها عرف المربوب من هو ربه
وبينت نور الدين ما كان يبتغى ❋ دليلا بأن الله من أنت حزبه

وقال ابن منير يمدح نور الدين بظاهر حمص

هيهات يعصم من أردت حذار ❋ انى ومن أوهاك الاقدار
طلعب عليك بجوسلين ذريعة ❋ لا سحل انشاها ولا امرار
وسعادة مازلت تمرى خلفها ❋ فيشف وهو الناتق المدرار
فارتك مايجنى الوفىّ وفاؤه ❋ وأرته كيف تحين الغدّار
عود أمرّ على ابارك طلعه ❋ فاحيل ذاك البرء بوار
مازلت تنعم وهو يكفر عاتيا ❋ والله يهدم مابنى الكفار
حتى أتاح لقومه ماجرّه ❋ لثمود من عقر الفصيل قدار
اسرى فاصبح فى براثن اسامة ❋ لازال يدمى ظفره الاظفار
يهب التلاد من البلاد وما حوت ❋ ان السماحة للبحار بحار
يقظان يخشى الله فى خلواته ❋ لا مسترف لاه ولا جبار
نصب المراقب للعواقب ناظرا ❋ فيها كذلك ترباً الابرار
لا كالذين تجلوا حسواتها ❋ وتفلسوها بعد وهى خسار
درجوا وأدرج فى ملف رفاتهم ❋ اسوا تساء لذكرها الآثار
والمرء من يطوى فينشر طيه ❋ ما أودعته صدورها الاخيار
قل للأولى ناموا على نامائه ❋ ما كل هبة بارح اعصار
لا تأمنوا فى الله بطشة ثائر ❋ لله مصل سريره اسرار
صاف اذا كدر المعادن عادل ❋ ان حاف حكام الملوك وجاروا
أعلى أبوه له النجاد وشيد فى ❋ صهواتها مما ابتناه منار
محمود المحمود آثارا اذا ❋ نظمت على جيد الدجى الاسمار
دانت له الايام صاغرة كما ❋ دانت له فى ظله الامصار

وله من أخرى أولها (ما الملك الا ما حوائت نجاده) يقول فيها

وتدين حسده لمحكم آيه ❋ والفضل ما شهدت به حساده
شمس اذا ما الحرب زرجيوبها ❋ حل المعاقد كره وطراده
الوى الدجى الشريعة جهده ❋ وأذل ناصية الضلال جهاده
صعق البرنس وقد تلالأ برقه ❋ واطار ساكن جاشه ارعاده

ولى وقد سلت فسلت ضغنه * زبرتلقى فودهن فؤاده
مستلئما مستسلما لا عدّه * ردّ المنا عنه ولا استعداده
وبجوسلين احتثهن فاصبحت * نهبى لهن بلاده وتلاده
جاءن به بعد الشماس عوابس * قوديلين لعنفهنّ قياده
وبه تصيدلك السعود وقلما * يحجو بخير من أردت مصاده
دانى له قيناه أدهم كلما * غناه طار شماتة عوّاده
سلبت عزازعزاءه وبقورس * محجوبة فرشت له اقتاده
وبتل خالد يوم تل جبينها * خلط الثرى بجبينه اخلاده
وغدا يباشرتل باشرقلبه * باحرّ ما حل القلوب عداده
منته أمانيه بشائرك التى * عادت لهن مآ ثما أعياده
وحبوت ملكك من نظيم ثغوره * حليا تناسب تحته اجياده
لا يحدعنك فانما اصلاح من * يخشى انتشاط خناقه افساده
أنزله حيث قضت له غدراته * واحله طغيانه وعناده
فى حيث لا يأوى له سجانه * حنفا ويكشط جلده جلاده
وبن هدمت بنى الضلال بهدمه * وعدت عبادك عنوة عباده
فتدكت به آيات من لمجد * ولدينه ابداؤه وعواده
أوانبسط البلد الحرام تواءمت * تثنى عليه تلاعه ووهاده
ولوان منبره أطاق تكلما * نطقت بباهر فضله اعواده
نام الخليفة واستطال لذنبه * عن سدتيه واستطير رفاده
رجعت لك العز القديم سيوفه * سازان رونق مائها اغماده
من بعد ما نعق الصليب لحزبه * ورأيت زرع الملك حان حصاده
انى تميل الحادثات رواقه * بهبويها وابن العماد عماده

(فصل) قال ابن الاثير لما سار نور الدين الى قلاع جوسلين ملك بعضا وأبقى بعضا فاجتمعت الفرنج فالتقو مع نور الدين بدلوك فهزمهم واستولى على دلوك وغيرها ففيها يقول أحمد بن منير قصيدة منها

هى الخيل خير عتاد الكريم يحضرلهم احضارها
اقت فأدررت افواهها * وسرت فقلمت أظفارها
الام ولم تبق مما غرو * ت قلوبا تكابد اذ عارها
أمافى مفصل أى القرا * ع ان تضع الحرب أوزارها
عسى ان تحم لهذا الحما * م أن يتوكر أوكارها
ومايوم من غلته واحد * فتودعه اللسن أشعارها
وأين المقاول مما فعلت ولوشفع الفطراء كثارها
فكم اجلبت خلفك الجانفا * ت فصلصل نحرك فخارها
أعدت بعصرك هذا الانيق فتوح النبى واعصارها
وكان مهاجرها تابعيك وانصار رأيك انصارها
فجددت اسلام سلمانها * وعمر جدك عمارها
وما يوم آنب الاكتيب * لك بل طال بالبوع اشبارها
وأيامك الغرمن بعده * يعيد الى الطى اغرارها

ولما هبت بمصرى سمكت باهباء خيلك أبصارها
ويوم على الجون جون السرا * ة عـز فسعطها عارها
صدمت عـزيمتها صادمة * أذابت مع الماء أحجارها
وفى تل باشر باشرتهم * بزحف تسور أسوارها
وان دال كـتهم دلوك فقد * شددت فصدقت أخبارها
وشب التدامر حتى طلعت عليها فولتك أدبارها
مشاهد مشهورة نمنمت * على صفحة الدهر اسطارها
يلذ الاغانى ترجيعها * وتستسفر السفر اسفارها
بنيت لوفد المنى كعبة * بجير المعلق استارها
ملكت الاراضى مغبرة * تكاد تحدث أخبارها
فما زلت تدجن حتى محو * ت دجاها وشعشعت أنوارها
وصلت فأعززت مسكينها * وصلت فأذللت جبارها
وصغت حلى من على أحكمت * على عنق الدهر ازرارها

قال أبو يعلى وفى رجب وردت الاخبار من ناحية نور الدين بظفره بعسكر الافرنج النازلين بازائه قريبا من تل باشر وعظيم النكاية فيهم والفتك بهم وامتلأت الايدى من غنائمهم وسبيهم واستولى على حصن خلد الذى كان مضايقه ومنازله قال وفى أيام من المحرم وصل جماعة من حجاج العراق وخراسان المأخوذين فى طريق الحج عند عودهم بجماعة من كفار العربان وحكوا مصيبة ما نزل مثلها بأحد فى السنين الخالية ولا يكون أبشع منها وذكر انه كان فى هذا الحاج من وجوه خراسان وأعيانها وفقهائها وعلمائها وقضاتها وخواتين أمراء العساكر السلطانية والحرم العدد الكثير والاموال الجمة والامتعة الوافرة فأخذ جميع ذلك وقتل الاكثر وسلم الاقل وهتكت النساء وسلبن وهلك من هلك بالجوع والعطش فضاقت الصدور لهذه النازلة فكسا العارى منهم وأطلق لهم ما استعانوا به على عودهم الى أوطانهم من أصحاب المروءة بدمشق ذلك تقدير العزيز العليم

﴿فصل﴾ قال وكان مجاهد الدين بزان قد توجه الى حصنه صرخد ليتفقد أحواله فعرضت نفرة بين مجير الدين والرئيس بسعايات أصحاب الاغراض والفساد واقتضت الحال استدعاء مجاهد الدين لاصلاح الحال فوصل وتم ذلك بوساطته على شرط ابعاد الحاجب يوسف صاحب مجير الدين عن البلد مع أصحابه وتوجهوا ولم يتعرض لشئ من أموالهم وقصد بعلبك فأكرمه واليها قال ووردت الاخبار من مصر بالخلف المستمر بين وزيرها ابن مصال وبين الامير المظفر ابن السلار ووقوع الحرب وسفك الدماء الى ان أسفرت الحال عن قتل ابن مصال الوزير وانتصاب ابن السلار موضعه فى الوزاره قال وفيها فى سابع عشر رجب توفى القاضى بهاء الدين عبد الملك ابن الفقيه عبد الوهاب الحنبلى وكان اماما فاضلا مناظرا مستقلا مفتيا على مذهب الامامين أحمد وأبى حنيفة بحكم ما كان عليه عند اقامته بخراسان لطلب العلم والتقدم وكان يعرف اللسان الفارسى مع العربى وهو حسن الحديث فى الجد والهزل وكان له يوم مشهود ودفن فى جوار أبيه وجده فى مقابر الشهداء قال وتوفى فى عقيب وفاته الشريف القاضى النقيب فخر الدولة أبو الحسين ابن أبى الجن وتفجع الناس لخيريته وشرف بيته

(ودخلت سنة ست وأربعين) ففيها حاصر نور الدين دمشق لمعاضدة أهلها الفرنج واستنصارهم بهم ومدحه ابن منير بقصيدة يحرضه فيها عليهم وكتبها اليه من حماه وهو محاصر دمشق وقد تخلف عن الخدمة لمرض عرض له منها

اخليفة الله الذى ضمنت له * تصديق واصفه سراة المنبر
لا المستطيل بمصر ظل قصوره * والمستطال اليه شقة صرصر
يا نور دين الله وابن عماده * والكوثر بن الكوثر بن الكوثر
صفر بحد السيف دار اشائب * عقلوا جيادك عن بنات الاصفر

هم شيدوا صرح النفاق وأوقدوا * نارا تخش بهم غدا فى المحشر
اذكوا بحلق حرها واستسعرت * لفحاتها بين الصفا والمشعر
شردتهم من خلفهم مستنجدا * ماظاهر الكفار من لم يكفر
لا تعف بل سق الهدى نفس الذى ادرع الضلال على اغر مشهر
قلده ماهدى على لمرحب * فلقد تهكم فى الخداع الخيبرى
ما الغش ممن أمه نصرانة * لم تختتن كالغش من متنصر
اذكت لناهذى العزائم لا خبت * ماغار من سنن الملوك الغبر
اثقاب اراء المعز وخفق را * يات العزيز ويقظة المستنصر
شمر فقد مدت اليك رقابها * لا يدرك الغايات غير مشمر
أولست من ملأ البسيطة عدله * واجتب بالمعروف أنف المنكر
حدب الاب البر الكبير ورأفة ا * لام الحفية باليتيم الاصغر
ياهضبة الاسلام من يعصم بها * يؤمن ومن يتول عنها يكفر
كانوا على صلب الصليب سرادقا * انبت بنيته بكل م ذ كر
آثارهم انجس اذال المسجد ا * لاقصى فصن مادنسوه وطهر
جار الخليل ومن بغزة هاشم * بلها ملك المتدمشق المتمصر
بعرمرم صلت وعاوعه عرى * اسماع جيحون وسيف البربر
يفتر عن ملك الملوك منحل ا * للواء بل سعد السعود الاكبر
عن طاعن الفرسان غير مكذب * ومتمم الاحسان غير مكدر
بدر المحافل والجحافل فارس الآ * ساد فى غاب الوشيج الاسمر
ملك تساوى الناس فى أوصافه * عذر المقل وبان عجز المكثر
ياأيها الملك المنادى جوده * فى سائر الآفاق هل من معسر
ان القصائد أصبحت أبكارها * فى ظل ملكك غاليات الامهر
ان كنت أحييت ابن حمدان لها * فانا الذى غبرت فى وجه السرى
ولانت أكرم من أناس نوهوا * باسم ابن اوس واستخصوا البحترى
ذلت لدولتك الرقاب ولا تزل * ان تغزتغنم أوتقاتل تظفر

وكتب اليه من حماه أيضا وهو محاصر دمشق قصيدة ينال فيها من صاحبها يقول

ابوك اب لو كان للناس كلهم * اباورضوا وطء النجوم لفندوا
وما مات حتى شد ثلمة ملكه * بك الله ترمى مارماه فتصرد
صدمت ابن ذى اللغدين فانحل عقده * وكالسلك قد أمسى يحل و يعقد
يقلب خلف السجف عينا سخينة * ويبكى بأخرى ذات شتر و يسهد
ولا غرو قد أبقى أبوه وجده * له كل يوم ثوب عجز يجدد
فيارا كبا اما عرضت فبلغن * بيوتا على جيرون بالذل تعمد
وقل لمبيد الدين وهو مجيره * بزعمه له وجه الحقيقة أزبد
حلت الصليب باغيا ونبذته * وثغرك مطووس النبات وأدرد
وحاربت حزب الله والله ناصر * لناصره ودين احمد احمد
تنصرت حينا والبلاء موكل * ولا بد من يوم به تتهود
وأقسم ماذاق اليهود ببابليا * وموضعها من بختنصر أسود

كبعض الذى جرعته فسرطته * وأيدفيه من عمالك المؤيد
ولايته عزل اليك موجه * وتصحيفه قتل عليك مؤبد
رمالك بباقلا دمشق فلم تكن * سوى بقلة حمقاء بالحق تحصد
وجالدت جلادا وأنت مؤنث * تذكرت والجلاد أدهى وأجلد
تطاولت لانفس تسمى ولاأب * ووراءك زحفا انما أنت مقعد
اسعاة نور الدين تبغى ودونها الا * لسنة تبر والعوامل تعضد
بمحمود المحمود سيفا وساعدا * جلت لقدنا جتك صما مؤيد
وهل يستوى سارتأسد طاويا * ونشوان يعلو معصما ويؤيد
تنصرت اما بل تمجست والدا * وعما فعرق الكفر فيك مردد
تخذت بنى الصوفى اسرا واسرة * لكى يصلحوا مافى يديك فأفسدوا
لعمرى لنعم العبد أنت تجيعه الا * موالى وتوليه هوانا فيحمد
اليكم بنى العلات عن متشاوس * له الشأم مرفا والعراق مرفد
ومامصر الابعض امصاره التى * الى أمره تسعى قناء وتحفد
انيبوا اليه فهو أرحم قادر * له الصفح دين واقبلوا النصح ترشدوا
ولا ترشفوا نفس المؤيدانه * عن الخير يروى أوالى المين يسند
وفروا الى مولاكم والذى له * عليكم أياد وسمها ليس يجحد
ولاتكفروه انما أنتم له * ومنه ويوم عند حوران يشهد
غداة على الجولان جول وللظبى * رعود فريص الموت منهن يرعد
ولما اكفهر اليوم واربد وجهه * وعوز مرهون وفر مزيد
وأيقن من بين السدير وجاسم * بان الجرار السود بالجرد تجرد
ردتهم على بصرى وصرخد خيله * وقد أبصرت بصرى رداها وصرخد
وطاروا تهز المرهفات طلاهم * كما انصاع من اسد نعام مشرد
وليلة ألقى الشرك بالمرج بركه * ومازج نيران الوغى تتوقد
رمى وأخوه مغرب الشمس دونكم * بمشرقها غضبان يعدو ويسئد
فوردت ماء الارنط مغذة * أثارت بشور اغلة ليس تبرد
أياسيف شامنه يد الملك صارما * فيم همد اذيسرى ويسرى فيهمد
دمشق دمشق انما القدس سرحة * ومركزها صرح عليها ممرد
حموها لكى يحموا وقد بلغ المدى * بهم أجل حتم وعمر محدد
متى انا راء طائر الفتح صادحا * يرفرف فى أرجائها ويغرد

وله من قصيدة أخرى

نذرك بالغوطتين قد ضمنت * ربوتها ربعه ومقراها
أطلع لها الشمس من جبينك لم * ترج سواها فى النوم جفناها
فالخيل صور الى تساهم سهمية * هاوملهى فى بيت لهياها
دولة من دانت البلاد له * وعماظله فأغناها
لابسواها يليق بهجتها * ولاسواه تبغى رعاياها .

قال أبو يعلى وفى عاشر المحرم نزلت أوائل عسكر نور الدين على أرض عذرا من عمل دمشق وما والاها وفى الغد قصد فريق وافر منهم ناحية السهم والنيرب وكنوا عند الجبل لعسكر دمشق فلما خرج منها اليهم أسرع النذير اليهم فخذرهم

وقد ظهر الكمين فانهزموا الى البلد وفى الغد نزل نور الدين بعسكره على عيون فاسريا بين عذراودومة وامتدوا الى تلك الجهات ونزلوا من الغد فى أراضى مجير اوزاويه فى الخلق الكثير والجم الغفير وانبسطت أيدى المفسدين من العسكر الدمشقى والاوباش من أهل العيث والفساد فى زروع الناس فحصدوها وفى الثمار فافنوها بلا مانع ولا دافع وتحرك السعر وانقطعت السابلة ووقع التأهب للحصار ووافت رسل نور الدين الى ولاة البلد يقول انا ما أوثر الاصلاح أمر المسلمين وجهاد المشركين وخلاص من فى أيديهم من الاسارى فان ظهرتم معى فى عسكر دمشق وتعاضدنا على الجهاد فذلك المراد فلم يعد الجواب اليه بما يرضاه فنزل فى أرض مسجد القدم وماوالاه من الشرق والغرب وبلغ منتهى الخيم الى المسجد الجديد قبلى البلد قلت هو الذى يسمى فى زماننا بمقبرة المعتمد بين مسجد القدم ومسجد فلوس قال وهذا منزل ما نزله أحد من مقدمى العساكر فيما سلف من السنين وأهمل الزحف الى البلد اشفاقا من قتل النفوس ووصلت الاخبار باحتشاد الفرنج واجتماعهم لانجاد أهل دمشق فضاقت صدور أهل الصلاح وزاد انكارهم لمثل هذه الاحوال المنكرة والمناوشات فى كل يوم متصلة من غير مزاحفة ولا محاربة فلم يزل ذلك الى ثالث عشر صفر فرحل العسكر النورى من هذه المنزلة ونزل فى أراضى قدايا وحلقبلتين والخامسين المصاقبة للبلد وما عرف فى قديم الزمان من أقدم على الدنو منها ثم رحل فى العشرين من صفر الى ناحية داريا بالبواصل الارجاف بقرب عساكر الافرنج من البلد لقوة عزمه على لقائهم وصار العسكر النورى فى عدد لا يحصى وفى كل يوم يزداد بما يتواصل من الجهات وطوائف التركمان ونور الدين مع هذه الحال لا يأذن لاحد من عسكره فى التسرع والظهور ولا يعودون الاخاسرين مغلولين وأقام على هذه الصورة ثم رحل الى ناحية الاعوج لقرب عسكر الافرنج وعزمهم على قصده واقتضى رأيه الرحيل الى جهة الزبدانى استجرارا لهم وافرق من عسكره فريقا ينا هز أربعين ألف فارس مع جماعة من المقدمين ليكونوا فى أعمال حوران مع العرب لقصد الافرنج ولقائهم وترقبا لوصولهم وخروج العسكر الدمشقى اليهم واجتماعهم بهم ثم يقاطع عليهم واتفق ان عسكر الفرنج رحل عقيب رحيله الى الاعوج ونزل به فى ثالث ربيع الاول ودخل منهم خلق كثير الى البلد لقضاء حوائجهم وخرج مجير الدين ومؤيد الدين فى خواصهما وجماعة وافرة من الرعية واجتمعوا بملكهم وخواصه وما صادفا عنده شيئا مما هجس فى النفوس من كثرة ولا قوة وتقرر بينهم النزول بالعسكرين على حصن بصرى لتملكه واستغلال أعماله ثم رحل عسكر الافرنج الى رأس الماء ولم يتهيأ خروج العسكر الدمشقى اليهم لعجزهم واختلافهم وقصد من كان بحوران من العسكر النورى ومن انضاف اليهم من العرب فى خلق كثير ناحية الافرنج للايقاع بهم والنكاية فيهم والتجأ عسكر الافرنج الى لجأة حوران للاعتصام بها ونمى الخبر الى نور الدين فرحل ونزل على عين الجر من البقاع عائدا الى دمشق وطالبا قصد الفرنج والعسكر الدمشقى وكان الافرنج حين اجتمعوا مع العسكر الدمشقى قد قصدوا بصرى لمضايقتها ومحاربتها فلم يتهيأ ذلك لهم وظهر اليهم سرخالك واليها فى رجاله وعادوا عنها خاسرين وانكفأ عسكر الافرنج الى أعماله وراسلوا مجير الدين ومؤيد الدين يلتمسون باقى القطيعة المبذولة لهم على ترحيل نور الدين عن دمشق وقالوا لولا نحن ندفعه مارحل عنكم قال أبو يعلى وفى هذه الايام ورد الخبر بوصول الاسطول المصرى الى ثغور الساحل فى غاية من القوة وكثرة من العدة وذكر ان عدة مراكبه سبعون مركبا حربية مشحنة بالرجال ولم يخرج مثله فى السنين الخالية وقد انفق عليه فيما حكى وقرب ثلثمائة ألف دينار وقرب من يافا من ثغور الفرنج فقتلوا وأسروا واحرقوا ما ظفروا به واستولوا على عدة وافرة من مراكب الروم والافرنج ثم قصدوا ثغر عكا ففعلوا فيه مثل ذلك وحصل فى أيديهم عدة وافرة من المراكب الحربية الفرنجية وقتلوا من حجاجهم وغيرهم خلقا عظيما وقصدوا ثغر صيدا وبيروت وطرابلس وفعلوا فى الكل مثل ذلك ووعد نور الدين بمسيره الى ناحية الاسطول المذكور لاعانته على تدويخ الفرنجية فاتفق اشتغاله بأمر دمشق وعوده اليها لمضايقتها وحدثت نفسه بملكها لعلمه بضعفها وميل الاجناد والرعية اليه واشارتهم لولايته وعدله قال وذكر ان نور الدين أمر بعرض عسكره فبلغ كمال ثلاثين ألفا مقاتلة ثم رحل ونزل بالدهمية من عمل البقاع ثم نزل بأرض كوكبا غربى داريا ثم نزل بأرض داريا الى جسر الخشب ونودى فى البلد بخروج الاجناد والاحداث اليه فلم يظهر منهم الا اليسير ممن كان يخرج أولا ثم تقدم ونزل القطيعة وماوالاها ودنا منها بحيث قرب من البلد ووقعت المناوشة بين الفريقين من غير

زحف

زحف ولاشدّ فى محاربة تحرجا من قتل المسلمين وقال لاحاجة الى قتل المسلمين بأيدى بعضهم بعضا وانا اوفرهم ليكون بذل نفوسهم فى مجاهدة المشركين قال وورد الخبر الى نور الدين بتسلم نائبه الامير حسن المنجى مدينة تل باشر بالامان فى الخامس والعشرين من ربيع الاول وورد مع المبشر جماعة من أعيان تل باشر لتقرير الاحوال وترددت المراسلات فى عقد الصلح مع أهل دمشق على شروط واقتراحات وتردد فيها الفقيه برهان الدين على البلخى والامير أسد الدين شيركوه واخوه نجم الدين أيوب وتقارب الامر فى ذلك الى ان استقر الحال على قبول الشروط المقترحة ووقعت الايمان من الجهتين على ذلك والرضى به فى عاشر ربيع الآخر ثم رحل نور الدين من الغد طالبا ناحية بصرى للنزول عليها والتمس من دمشق ماتدعو اليه الحاجة من آلات الحرب لان واليها سرخاك كان قد شاع عصيانه وخلافه ومال الى الافرنج فاعتضد بهم فأنكر نور الدين ذلك عليه وانهض اليه فريقا وافرا من عسكره قلت ولابن منير فى نور الدين بذكر وقعه الجولان وغيرها قصيدة أولها

ما برقت بيضك فى غمامها * الا وغيث الدين لابتسامها
محمود المحمود جدا وجدا * ارخص جلد الارض حكم عامها
ملك ازال الروم عن صلبانها * دفاعه وكب من اصنامها
جال على الجولان امس جولة * صفرت الادحى من نعامها
والجون قد جرعها اجونه * وفل مشحوذا من اعتزامها
وشد فى القد له مليكها * قود عتود القوط فى شبامها
وفى الرها صابت له سحابة * صاروا جفاء خف فى التطامها
وهب فى هاب له عواصف * تجهمتها الهف من جهامها
وكفر لا ثالاث فى جبينها * لم ظبى ابت على أشامها
وقايع برفص تحت وقعها * نظم الثريا فى فضا مصامها
فساعة البيض اذا اعددها * سوط عذاب صب فى أيامها
واعجبا لعصب الشرك التى * لم يعصب الرشد على احلامها
حكمة استواؤها فى غيها * فى نقض ما أحصد من ابرامها
مظفر الرايات والراى اذا ال * عرب مشت تعثر فى خطامها
عدت به حدّ العلاء شمم * هن النجوم أو نواصى هامها
جلت له الدنيا على زبرجها * عفوا فلم يلو على حطامها
رأته وهو الليث يدمى ظفره * انفذ فى المشكل من حكامها
فتوجته العز فى مرتبة * تمنطق الجوزاء فى نظامها
غضبان للاسلام لا يغيظه اس * تسلامها للقسر من اسلامها
خط على مثل اب طاعت له ال * آفاق واستشرف لاغتشامها
تصرف الدنيا على ايثاره * عراقها مستردفا بشامها
لولم يكن دون منى فات المنى * واقعد الفائز من قوامها
وامتك فيما كه رواضع * يقصر باع الدهر عن فطامها
وصار كالجسر الجار وخلا * من أهله الاشرف من مقامها
ودونها لازلت ترقى فى حمى * من مؤلم الارداء او لمامها
تلبس بيت الله وشى يمن * يقرأ آياتك من اعلامها
فانما الدين رحى قطبتها * وبازل مكنت من زمامها
امت بنا الآمال منك كعبة * سلم الليالى اية استلامها

وارشفتنا بك ثغر نعمة * لا نسأل الله سوى دوامها

وقال أيضا يمدحه

بجدك أصحب الجد الحزون * واطلع بجره الفتح المبين
وفي كنفيك سولت الليالي * وفارق طبعه الزمن الخؤون
ومنك تعلم القطع المواضي * وقد زبنت بها الحرب الزبون
وأنت السيف لم تمسسه نار * ولا شحذت مضاربه القيون
ترقرق فوق صفحته الاماني * ويقطر من غراريه المنون
وقبلك ما سمعت بذي فقار * يثير الفقر كان ولا يكون
ولا غيث سماوته سرير * ولا ليث وسادته عرين
ولا قمر له الهيجاء هال * ولا تاج له الدنيا جبين
جبلت ندى وعفوا وانتقاما * وماء كل مجبول وطين
وملكك عمر الاقطار قطرا * فأمرعت الاواعث والحزون
تلالأ تحته غرر الليالي * اذ الايام عند سواك جون
وأنت أفق للجدوى منارا * يبين لشائميه ولا يبين
وعندك مشرب الشعي زلال * اذا عبقت مشاربها الاجون
تمسكن في عطائك كل عاط * وقد شيدت من المنع الحصون
لقد أشعرت دين الله عزا * تتيه له المشاعر والحجون
وقام بنصره والناس فوضى * قوي منك في الجلى أمين
رجعت ملوكهم وهم خيوف * أسير في صفادك أو كنون
فبرنست البرنس لقاع خف * وجرع مر جوسك جوسلين
اذا ما الفعل علت تلاه حذف * يتاح له سهاه أو سكون
غنوا حتى غزوتهم فغني الصدى في أرضهم حف القطين
وكم عبر الصليب بهم صليبا * فردته قناك وفيه لين
وما خطرت بدار الشرك الا * هوى الناقوس وارتفع الاذين
ملأت عظام ساحهم عظاما * فكل ملا لقولك به جرين
وبينهم القنا تجري نجيعا * كأن عيون أكعبها عيون
وبين حرار صرخد ذبن حرا * له في كل حجبة كمين
وفين من العريمة في عرام * له في جونها الاقصى وجون
وكم حرم لحارم غادرته * ودارته لمنسفها درين
وفي شعراء قورس صغن شعرا * تدار على غراريه اللجون
وقائع صرن في صنعاء طيرا * يوقعها على عدن عدون
نماك أب اذا عد انتسابا * تراقى مصعدا والناس دون
سما الا كان املاك البرايا * وقد قبسوا به وهو اليمين
فصار قضاؤه في الارض حتما * فطاعة أهلها البنيه دين
لهذا اليوم تنتخب القوافي * ويذخر نفسه الدر المصون
ونحن أحق منك بأن نهني * اذا اقرت برؤيتك العيون
سلمت لنا فانا كل صعب * نوازيه بأن تبقى يهون

ترابطنا بعقوتك التهانى ❁ ويغبطنا بدولتك القرون

﴿فصل﴾ فى باقى حوادث هذه السنة قال أبو يعلى وورد الخبر من ناحية ديار مصر بأن أهل دمياط حدث فيهم فناء ما عهد مثله فى حديث ولا قديم بحيث أحصى المفقود منهم فى سنة خمس وأربعين فبلغ سبعة آلاف شخص وفى سنة ست وأربعين مثلهم فصار الجميع أربعة عشر ألفا وخلت دور كثيرة من أهلها وبقيت مغلقة لا ساكن فيها ولا طالب لها وفيها فى ثانى جمادى الآخرة توفى القاضى السديد الخطيب أبو الحسين بن أبى الحديد خطيب دمشق وكان خطيبا بليغا فصيحا عفيفا ولم يكن له من يقوم مقامه فى منصبه سوى أبى الحسن الفضل ولد ولده وهو حدث السن فنصب مكانه وخطب وصلى بالناس واستمر الامر له ومضى فيه قال ووردت الحكايات بحدوث زلزلة وافت الليلة الثالثة عشرة من جمادى الآخرة اهتزت الارض لها ثلاث رجفات فى أعمال بصرى وحوران وما والاها من سائر الجهات وهدمت عدة وافرة من حيطان المنازل ببصرى وغيرها ثم سكنت بقدرة من حركها سبحانه وتعالى قال وفى ثانى عشر رجب توجه مجير الدين صاحب دمشق الى حلب فى خواصه ووصل اليها ودخل على نور الدين صاحبها فأكرمه وبالغ فى الفعل الجميل فى حقه وقرر معه تقريرات اقترحها عليه بعد ان بذل له الطاعة وحسن النيابة عنه فى دمشق ورجع الى دمشق مسرورا فى سادس شعبان قلت وفى ذلك يقول القيسرانى

وفت لك الدنيا بميعادها ❁ باذلة افلاذ أكبادها
وأوفدت غر سلاطينها ❁ عليك فى همة انجادها
تبغى سناء أقصدت قصده ❁ طائعة طاعة أجنادها
خاضعة تعتد أعمارها ❁ يوم التلاقى يوم ميلادها
شامت دمشق بك برق العلى ❁ فأرسلت أصدق روادها
رأتك نور الدين نار الهدى ❁ قد أشرق الافق بايقادها
فيممت منك حيا مزنة ❁ بيض الايادى ورد وزادها
فاسأل مجير الدين عن خبرة ❁ أوردها محمودا يرادها
تبوأت من عزها قبة ❁ سمر القنا أطناب أوتادها
تنافس الناس على دولة ❁ فتت بها أعين حسادها
يغدو المعادى كالموالى لها ❁ فوالها ان شئت أوعادها
يا ملكا يزهى باسمائه ❁ منابر تسمو بأعوادها
وتأخذ الاسماع أوصافه ❁ عن جمع الدنيا وأعيادها
كم للمعالى فيك من رغبة ❁ تفنى الامانى دون تعدادها
لك المساعى الغر يا جامعا ❁ من طرفيها بين أضدادها
يغشى الورى أفرس فرسانها ❁ وفى التقى أزهد رهادها
فانت نسكا غيث ابدالها ❁ وأنت فتكا ليث آسادها
فى أمة أنت حمى دينها ❁ حينا وحينا شمس عبادها
يطوى بك العمر الى غاية ❁ حسبك تقوى الله من زادها
هذا وكم من سنة بدعة ❁ أعدمتها من بعد ايجادها
مآثر لو عدمت راويا ❁ تكفل النظم باسنادها

قال أبو يعلى وفى أواخر شعبان أغار بعض التركمان على ظاهر بانياس فخرج اليهم واليها من الافرنج فى أصحابه وظهر التركمان عليهم فقتلوا وأسروا وفى رمضان قصد بعض الفرنج ناحية من البقاع وأغاروا فأنهض اليهم والى بعلبك رجاله فلحقوهم وقد أرسل الله عليهم من الثلوج المتداركة ما ثبطهم فاستخلصوا منهم الغنيمة قلت والى بعلبك هذا هو نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف قال ابن أبى طى فى سنة ست وأربعين أغار التركمان على بانياس فخرج أهل

بانياس من الفرنج استنقذوا ما أخذوه فعاد التركمان عليهم فكسروهم واتصل ذلك بصاحب دمشق فأغضبه فعل التركمان لمكان الهدنة المنعقدة بينه وبين الفرنج فأنفذ عسكرا الى التركمان استعاد منهم ما أخذوه واتصل خبر التركمان بالفرنج فجيشوا وخرجوا في جيش عظيم وشنوا الغارة على البقاع والناس غافلون فامتلأت أيديهم من الغنائم والاسارى واتصل خبر غارة الفرنج بنجم الدين أيوب وهو في بعلبك وعنده جماعة من عسكر دمشق وأصحابه فقدم عليهم ولده شمس الدولة فخرج وأوقع بالفرنج واتفق انه كان قد أصاب الفرنج ثلج عظيم فهلك أكثرهم وجاء شمس الدولة وهم متورطون فقتل فيهم مقتلة عظيمة وخلص من كان عند الفرنج من الاسارى قال وفي هذه السنة فارق صلاح الدين والده وصار الى خدمة عمه أسد الدين بحلب فقدمه بين يدي نور الدين فقبله واقطعه اقطاعا حسنا قال أبو يعلى وفي ثاني شوال وهو الثاني من شباط وافت قبيل الظهر زلزلة اهتزت لها الارض ثلاث هزات هائلة وتحركت الدور والجدران ثم سكنت قلت وفي هذه السنة في غرة جمادى الاولى كتب أحمد بن منير من حماه الى نور الدين قصيدة يهنيه بوصول الخلع اليه من بغداد من عند الخليفة على يد الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون ويصف الفرس الاصفر الاسود القوائم والمعارف والسيف العربي أولها

لعلائك التأييد والتأميل * ولملكك التأبيد والتكميل
أبدا تهم وتقتفي فتنال ما * عز الورى ادراكه وتنيل
اما كتاب يستقل به الكتا * ئب أو رسول للنجاح رسيل
لك من أبي سعد زعيم سعادة * قمن تفاءل فيك ليس يفيل
نعم الحسام جلوته وبلوته * يرضيك حين يصل ثم يصول
سهم تعود في الكنانة عودة * ويقصر المطلوب وهو طويل
سددته فمضى وقرطس صادرا * كالنجم لا وهل ولا تهليل
فثنا القلوب الى ولائك حول * منه بما يجني رضاك كفيل
وأقام ينشر في العراق ودجلة * آيا تأولها لمصر النيل
وكساك من رأى الخليفة جبة * لا النقص يوهيها ولا التقليل
كنت الشريف أفضت في تشريفه * ماء عليه من سناك دليل
اليوسف لما طلعت مقرطقا * طمثت حصان واستخف أبيل
أم عن سليمان يفرج ضاحكا * سجف الرواق وضعضع الكبول
ومملك في السرج أم ملك سطت * لبهائه عقل وتاه عقول
وبرزت في لبس الخلافة كالهلا * ل جلاه في حلل الدجى التهليل
خلع خلعن على القلوب مسرة * سدكاتها التعظيم والتبجيل
نثرت نضارا جامدا أعلامها * وتكاد تجري رقة وتسيل
لقضى لها ان لا عديل لفخرها * رب براك فلا تلاك عديل
أنت المهند منذ سلته العلى * لم يخل من مهج عليه تسيل
مذهز قائمه الامام تألقت * غرر شدخن لملكه وحجول
واليت دولته فتهت بدولة * متكلل بصعيدها الاكليل
ونصرته فخلاك أبيض دونه * صرف الزمان اذا استكل كليل
قلدته وكلا كما متلهذم * عضب فزان المغمد المسلول
وحبا ركابك حين قرّ بزحفه القرآن واستخدى له الانجيل
باقب أصفر مشرف الهادى له التحجيل لون واللما تحجيل
قسم الدجى بين الغدائر والشوى * واعتام رونقه الاصيل أصيل

وتقاسم الراؤوه وتحت لـوائه * حيزوم مصرف عطفه جبريل
تختال فى حبك الحلى مخيلا * ان الشوامخ للبدور خيول
مرخى الذوائب كالعروس يزينه * طرف بأطراف الرماح كحيل
تتصاعق النعرات تحت لبانه * ان شب زفروا استجش صهيل
لم يجب مثلك مثله مهـدولم * يشلل على برق سواه شليل
وأنشده فى هذه السنة أيضا بحمص قصيدة منها
الدهر أنت ودارك الدنيا ومن * فى العدّ بعد مؤمّل معدود
وأزمة الاقدار طوع يديك والا * يام جندك والانام عبيد
فت الورى وعقدت ناصية المدى * بمذمر الشعرى فأين تريد
نال أباك فهل سليمان يرى * فى الدست مهد ملكه داود
جلى وسدت مصليا الا يرفع الـ * ـمعدوم مالم يشفع الموجود
لم يخترم جـدّ نماك ولا أب * ان النباهة فى الخليف خلود
شمخت منارك فى اليفاع وأمها * من لم يسدفارته كيف يسود
وهببت للاسلام وهو مصوّح * فاهتز اعضاب ورق نجود
وفتأت جرة صالبيه بصيلم * نصع الاجنة يومها المشهود
خطمتهم فوق الخطيم لوافح * نفس الارين لو أرهن برود
ورموا على الجولان منك بجولة * تؤيدها نسر الضلال وئيد
ولحا عظامهم بعرقه عارق * مازلت تمحض جوّه فيجود
وشللت بالروح السروج وفوقها * زرع لحصده الرماح حصيد
وعلى عزاز عنوا وثل عروشهم * ملك مقيد من عصاه مقيد
وبتل باشر باشر ولك فعافسوا * أهب الاساود حشوهن أسود
أودوا كما أودى بعادغيها * وعقوا كما استغوى الفصيل ثمود
ان آلموا عقـرا فانك صالح * أو آلموا غـدرا فانك هود
وزعتهم فبكل مهبط تلعة . * خـدّ به من وازع أخـدود
وعصبتهم بعصائب ملء الملا * شتى وان خل البسالة عود
آثارها محمودة وآثارها * مشهودة وشعارها محمود
لبست من اسمك فى الكريهة ملبسا * يبلى جديد الدهر وهو جديد
وقصيرة الآجال طوّل باعها * بوع يسامى هامها وقدود
مطرورة الاسلاب مذهزعتها * تاه الهدى وتبختر التوحيد
أشرعتها فعلى شريعة أحمد * مماجنته بوارق وعقود
ولكم نثرت نظيمها فى موقف * تغريد صالى حره التغريد
يجلو سنالك ظلامه ويحل ما * عقدت قناه لواؤك المعقود
فى هبوة زحم السماء وافها * والارض ترجف تحته وتميد
ضربت مخيمها فكان كأنها * أوتاده القصوى وأنت عمود
فى كل يوم من فتوحك صادح * هزج الغناء وطائر غرّيد
تهدى لعانة كاسه فرغانه * وتسيغ زبدة ماشداه زبيد
فغرار سيفك للاحابش محبس * ومثار نقعك للصعيد صعيد

لاتعدمن هذا المقلد أمة * ملقى اليه زعيمها الاقليد
الورد قرو المسارح رحبة * والرفد مد والضلال مديد
والعيش أبلج مشرق القسمات وال * أشجار غر والاصائل غيد
والملك ممدود الرواق منور ال * آفاق وضاء المنى محسود
فى دولة مذ هب نشر ربيعها * نشر الرفات وأثمر الجلمود
محموذة الآثار محمودية * كل المواسم عندها تعييد

وقال يهنيه بليلة الميلاد و يصف النازلين فى الجبل من قلعة حلب بقصيدة منها

هنيت روزى ذ راك صومك والميلاد جاء والسعد فى نسق
فذاك انحلت فيه كل يد * وذاك أخلت فيه كل نقى
وجه كصدر الحسام تصبوله العين وينقد القلب من فرق
ومقلة شوقها ليقظتها * شوق لحسادها الى الارق
ومرتقى تعجب السماء له * اذا استطالت اليه كيف رقى
توجهت شهباؤها بشرقة * مشرفة شهبها على الافق
جو تهادى منه كواكبه * طرفه طرف رجوم مسترق
فوارس تذهل القوارس ان * تهافتت من ارشاقها الرشق
من راكض فى الهواء أهوى * ومن الفتح مجرمن تحته لبق
شاو من الخصر لو تحاوله الخضر زلت عن موطئ زلق
يقول من دينه الفروسة ما * لاقك الاضرب من الالق
بدائع تغبط السماء بها الار * ض ويذكى الاشفاق فى الشفق
فى دولة جمعت ايالتها * من بدد الحسن كل مفترق
تذر أطوافها على ملك * مكتفل رزق كل مرتزق
محمود اسما وميسما وندى * واعتصب الدم كل مرتفق
طبق طوفانه فلست ترى * الامغيثا مشف على غرق
يا بحر لاخلق تدعى شبها * فات المدى ما حويت من خلق
ملكك هذا الذى تملأه * صباه يجرى والدهر فى طلق

(ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة) قال أبو يعلى وورد الخبر فى المحرم بنزول نور الدين على حصن انطرسوس فى عسكره وافتتاحه له وقتل من كان فيه من الافرنج وطلب الباقون الامان على النفوس فأجيبوا الى ذلك ورتب فيه الحفظة وعاد عنه وملك عدة من الحصون بالسبي والسيف والاخراب والاحراق والامان قال وورد أيضا ظفر رجال عسقلان بالافرنج المجاورين لهم بغزة بحيث هلك منهم العدد الكثير وانهزم الباقون قلت وقرأت فى ديوان بن منير يمدح نور الدين ويهنيه بفتح انطرسوس ويحمو وعوده عنهما فذكر قصيدة منها

ابدا يباشر وجه غزولك ضاحكا * وتؤب منه مؤيدا منصورا
تدنى لك الامل البعيد سواهم * محقت اهلتها ولكن بدورا
مثل السهام لو ابتغى ذو اربع * فى الجو مطلبها لكن طيورا
نبذت علائقها بحمص واعلقت * سحرا بعرق عرقه الاظفورا
وعدون صافيثاء لاح شوارها * قدا تلعت عنقا اليك مشيرا
القلب أنت فان تعامى عن هدى * عضوا هاب به فعاد بصيرا
عرفوا مكانك والظهيرة بينهم * يفرى بياض أديمها الديجورا

أين الذبال من الغزالة أشرقت * وجها وطبقت البسيطة نورا
غضبان اقسم لا يشيم حسامه * والارض تجهل فى الكفور كفورا
غسل العواصم امس من ادرانهم * واليوم ردّ به السواحل بورا
لم يبق بين الجولتين وآمد * وترا لمضطغن ولا موتورا
اخلى ديار الشرك من اوثانها * حتى غدا ثالوثهن نكيرا
رفع القصور على نضائد هامهم * من بعد ما جعل القصور قبورا
بشواحب الاليا ط تقطو فى الظلا * م قطا وتهوى فى الصباح نشورا
غادرت انطرسوس كالطرس انمحى * رسما وجرر دعها يجمورا
وهى الزناد لفتنة كانت على الا * سلام احكم كسرها تكسيرا
همّت طرابلس افاصبح ثغرها الـ * ـبسام من عز الثغور ثغيرا
اقليدها كانت وقد انطيته * واسأل به ممن دهته خبيرا
ان الاولى امنوا وقاعك بعدها * غرّوا وقد ركبوا الاغرّ غرورا
القى العصافين أطاع ومن عصى * منهم ودمر أرضهم تدميرا
لا يلههم ان قد منت وشنها * شعواء تصلى الكافرين سعيرا
باكر بركز قنا تنسف اسها * والخيل صور كى تزرك صورا
وتريك لامعة التريك بساحة الا * قصى مطهرة لها تطهيرا
اولست من قوم اذا هزوا القنا * فتلوا معاصمهم لها تسويرا
واذا هم خطبوا اليراع غريرة * ساقوا الشفار على المهار مهورا
القى قسيماهم اليك ازمة الا * ملك المطل على السها تأثيرا
ضحكت لك الايام واكتأب العدا * فلقا جئت مبشرا ونذيرا
لا ملك الاملاك محمود الذى * تخذ الكتاب مظاهرا ووزيرا
تمشى وراء حدوده احكامه * تأتمهن فيحكم التقديرا
يقظان ينشر عدله فى دولة * جاءت لمطوى السماح نشورا
خلف الخلائف قائما عنهم بما * عيوا به الوى الذ غيورا
البر والمعصوم والمهدى والـ * ـمأمون والسفاح والمنصورا
بشروا به فعهودهم وعهادهم * يمحين تحت لوائه منشورا

وأنشد بحلب فى هذه السنة قصيدة أولها

المجد ما ادّرعت ثراك هضابه * وتثقفتك شعوبه وشعابه
ملك تكنف دين أحمد كنه * فأضاء نيره وصاب شهابه
فالعدل حيث تصرفت احكامه * والامن حيث تصرمت اسرابه
متهلل والموت فى نبراته * يرجى ويرهب خوفه وعقابه
عقد اللواء وسار يقدمه وما * حلت عقود تميمها اترابه
اسد فرائسه الفوارس والظبى * اظفاره والسمهرية غابه
طبع الحديد فكان منه جنانه * وسنانه واهابه وثيابه
وتهش ان كتب الوجوه كانما * اعداؤه تحت الوغى احبابه
نشرت بمحمود شريعة أحمد * وأرى الصحابة ما اشتهاه صحابه

ماغا ب اصلع هاشم فيها ولالا * فاروق باء بخطبه خطابه
ابناء قيلة قائمون بنصره * ان اجلبت من قاسط احزابه
صبحوا بحلقة البرنس بحالق * حرش الضباب من القلوب ضبابه
مازال يغلب من بغاه ضلاله * حتى اتيح من الهدى غلابه
ملقى بوحش الاصرمين تزيلت * آراؤه وتزايلت آلا به
دون الارنط سخت به نجداته * ونجاده وقرابه وقرابه
سلبته درة تاجه يد ضيغم * لم تنجه من بأسه اسلابه
واتته تحلب جوسلين جنائب * هبت فقل الى القتال هبابه
اسرته لا منعت سراه وغره * بالقاع ان رام الورود سرابه
لاتـل باشره ولا كيسونه * صدت منى عنه ولا عنتابه
ضمنت شقاوته سعادة صافح * غطى على اعناته اعتابه
مازال يغدر ثم يغدر قادرا * حتى أتاه بجامح أصحابه
قصر الامانى ان يملأ عصرك الا * سلام مصر وباعليه حجابه
مجر يجر الى الغنائم قبه * وحمى يزار على الفتوح قبابه

وأنشده بحلب فى شوال من هذه السنة قصيدة منها

لقد أوطأت دين الله عزا * اديم الشعريين له رغام
دعاك وقد تناوشت الرزايا * له اهبا يوزعها العذام
فقمت بنصره والناس فوضى * فيام ذم مااقترفت فشام
جذبت بضبعه من قعر يم * له من فوق مقحمه التطام
وملت على معاقلهم تخترت * ولاء مثل ماانتقض النظام
بصرخد والحطيم وفى عزاز * وقايع هز مشهدها الانام
ولولم تعترف وتشم امسى * وأصبح لاعراق ولاشآم
صببت على الصليب صليب بأس * قواه تحت كلكله حطام
ويوم بالعريمة كان حتفا * على الاشراك أمقره العرام
لقرك كأن ماسلوه سيح وما اعتقلوه من خور ثمام
وهاب وقورس وبكفرلاثا * ذممت وأنت للجلى ذمام
صدمتهم بارعن مرجحن * كان مطارا نمره غمام
وأية ليلة لم تلف فيها * لهم طيفا يروع به منام
بنور الدين أنشر كل عدل * تعفت فى الثرى منه الرمام
وعاد الحق بعد كلال حد * حمى من ان تراع له سوام
تألق عدله وذكت سطاه * فلا حيف يخاف ولا اهتضام
بقاؤك خير مايرجو وراج * وأنفع مايبل به أوام

(فصل) وفى هذه السنة ولد بحمص لنور الدين ابن سماه أحمد وهناه به ابن منير فى بعض قصائده ثم توفى بدمشق وقبره خلف قبر معاوية رضى الله عنه اذا دخل الحظيرة فى مقابر الباب الصغير وقصيدة ابن منير قد تقدم بعضها فى أول الكتاب ومنها فى ذكر المولود

توالت الاعياد لازلت لها * تبلى ديابيج البقاء وتجد

الفطر

الفطر والميلاد والمولود لو * قابله بدر التمام لسعد
ثلاثة تعرب عن ثلاثة * لمثلها يذكر جدا من جد
فتح مبين وطلاب مدرك * ودولة ما تنتهى الى أمد

وله من أخرى يقول

وجئت بأحمد فلأت نجدا * موارد كان معذبها عذابا
تهلل وجه ملكك يوم أهدت * قوابله لك الملك اللبابا
شبيهك لا يغادر منك شيئا * سناوحيا وبذلا واستلابا
قسيم الجد الا ان حرفا * من اسمك زاد للمعنى مثابا
ألا لله يوم قر عينا * وركب نص بالبشرى الركابا

قال أبو يعلى فى أواخر صفر توجه مجير الدين فى العسكر ومعه مؤيد الدين الوزير الى ناحية حصن بصرى ونزل عليه محاصرا لسرخاك واليه لمخالفته وجوره وأراد مجير الدين المصير الى حصن صرخد لمشاهدته فاستأذن مجاهد الدين واليه فى ذلك فقال له هذا المكان بحكمك وأنا فيه وال من قبلك وأنفذ الى ولده سيف الدين محمد النائب فيه باعداد ما يحتاج اليه ويلقى مجير الدين بما يجب له فخرج فى أصحابه ومعه المفاتيح وأخلى الحصن من الرجال ودخل اليه فى خواصه وسر بذلك وتعجب من فعل مجاهد الدين وشكره على ذلك وعاد الى مخيمه على بصرى وحاربها عدة أيام الى ان استقر الصلح والدخول فيما أراد وعاد الى دمشق وفيها فى شوال توفى الامير سعد الدولة أبو عبد الله محمد بن الحسن ابن الملحى ودفن فى مقابر الكهف وكان فيه أدب وافر وكتابة حسنة ونظم جيد وتقدم والده فى حلب فى التدبير والسياسة وعرض الاجناد قال ابن الأثير وفيها توفى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمدان وعهد الى ابن أخيه ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد وخطب له ببلاد الجبل وكان الغالب على البلاد والعساكر أيام السلطان مسعود خاص بك بن بلنكرى فقام بأمر ملكشاه ولم يمهله غير قليل حتى قبض عليه وكتب الى أخيه الملك محمد بن محمود وهو بخوزستان يستدعيه اليه ليخطب له بالسلطنة وكان غرض خاص بك ان يقبض عليه أيضا فيخلو وجهه من منازع من السلجوقية وحينئذ يطلب السلطنة لنفسه فلما كاتب محمدا أجابه الى الحضور عنده وسار اليه وهو بهمذان واجتمع به وخدم خاص بك خدمة عظيمة فلما كان الغد دخل عليه خاص بك فقتله محمد وألقى رأسه الى أصحابه فتفرقوا واستقر محمد وثبتت قدمه واستولى على بلاد الجبل جميعها وكان قتل خاص بك سنة ثمان وأربعين وبقى مطروحا حتى أكلته الكلاب وكان ابتداء أمره انه كان من بعض أولاد التركمان فخدم السلطان فمال اليه وقدمه حتى فاق سائر الامراء واستولى على أكثر البلاد وهو كان السبب فى أكثر الحوادث الشاغلة للسلطان مسعود فان الامراء الاكابر كانوا يأنفون من أتباعه لما كان يقابلهم به من الهوان والاحتشام عليهم وذكر الوزير يحيى بن هبيرة فى كتاب الافصاح انه لما تطاول على الخليفة المقتفى أصحاب مسعود وأساؤا الادب ولم يمكن المجاهرة بالمحاربة اتفق الرأى على الدعاء على مسعود بن محمد شهرا كما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على رعل وذكوان شهرا فابتدى هو والخليفة سرا كل واحد فى موضعه يدعو سحرا من ليلة تسع وعشرين من جمادى الأولى سنة سبع وأربعين وخمسمائة واستمر الامر على ذلك كل ليلة فلما كان ليلة تسع وعشرين من جمادى الآخرة كان موت مسعود على سريره لم يزد عن الشهر يوما ولا ينقص يوما ووصل القصاد بذلك من همذان الى بغداد فى ستة أيام فازال الله يده ويد اتباعه عن العراق وأورثنا أرضهم وديارهم فتبارك الله رب العالمين مجيب دعوة الداعين قال وكان الشيخ محمد بن يحيى يقول لا أدل على وجود موجود أعظم من ان يدعى فيجيب

﴿ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة﴾ ففيها أخذت الفرنج خذلهم الله عسقلان وبقيت فى أيديهم الى ان فتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله سنة ثلاث وثمانين كما سيأتى ان شاء الله تعالى قال الرئيس أبو يعلى التميمى وتواصلت الاخبار من ناحية نور الدين بقوة عزمه على جمع العساكر والتركمان من سائر الاعمال والبلدان للغزو فى احزاب الشرك والطغيان ولنصرة أهل عسقلان على الافرنج النازلين عليها وقد ضايقوها بالزحف اليها بالبرج المخذول وهم

في الجمع الكثير ثم اقتضت الحال توجه مجير الدين صاحب دمشق الى نور الدين في جمهور عسكره للتعاضد على الجهاد في ثالث عشر محرم واجتمع معه في ناحية الشمال وقد ملك نور الدين الحصن المعروف بافليس بالسيف وهو في غاية المنعة والحصانة وقتل من كان فيه من الافرنج والارمن وحصل العسكر من المال والسبي الشئ الكثير ونهضوا طالبين ثغر بانياس ونزلوا عليه في آخر صفر وقد خلا من حماته وتسهلت أسباب ملكته وقد تواصلت استغاثة أهل عسقلان واستنصارهم بنور الدين فقضى الله تعالى بالخلف بينهم والقتل وهم في تقدير عشرة آلاف فارس وراجل فاجفلوا عنها من غير طارق من الافرنج طرقهم ولا عسكر رهقهم ونزلوا على المنزل المعروف بالاعوج وعزموا على معاودة النزول على بانياس وأخذها ثم أحجموا عن ذلك من غير سبب ولا موجب وتفرقوا وعاد مجير الدين الى دمشق ودخلها سالما في نفسه وجملته حادي عشر ربيع الأول وعاد نور الدين الى حمص ونزل بها في عسكره ووردت الاخبار بوصول اسطول مصر الى عسقلان فتقويت نفوس من بها بالمال والرجال والغلال وظفروا بعدة وافرة من مراكب الفرنج في البحر وهم على حالهم في محاصرتها ومضايقتها والزحف بالبرج اليهم واستمر ذلك الى ان تيسرت لهم أسباب الهجوم عليها من بعض جوانب سورها فهدموه وهجموا البلد وقتل من الفريقين الخلق الكثير وألجأت الضرورة والغلبة الى طلب الأمان فأجيبوا اليه وخرج من أمكنه الخروج في البر والبحر الى ناحية مصر وغيرها وقيل ان في هذا الثغر المفتتح من العدد الحربية والاموال والميرة والغلال ما لا يحصر فيذكر ولما شاع هذا الخبر في الاقطار ساء سماعه وضاقت الصدور وتضاعفت الافكار بحدوث مثله فسبحان من لا يرد نافذ قضائه ولا يدفع محتوم أمره عند نفوذه ومضائه

(فصل) قال وعرض بين الرئيس ابن الصوفي وبين اخويه عز الدولة وزين الدولة مشاحنات ومشاجرات اقتضت المساعاة الى مجير الدين في جمادى الاولى فأنفذ مجير الدين الى الرئيس يستدعيه للاصلاح بينهم في القلعة فامتنع من ذلك وجلس في داره وهم بالتحصن عنه باحداث البلد والغوغاء وآلت الحال الى تمكن زين الدولة منه بمعاونة مجير الدين عليه وتقرر بينهما اخراج الرئيس من البلد وجماعة الى حصن صرخد مع مجاهد الدين بزان واليه بعدان قرر له بقاء داره وبستانه وما يخصه ويخص أصحابه وتقلد أخوه زين الدولة مكانه وأمر ونهى ونفذ الاشغال على عادته في العجز والتقصير وسوء الافعال والتماس الرشا على أقل الاعمال ورأى مجير الدين عقيب ذلك التوصل الى بعلبك لتطييب نفس واليها عطاء الخادم واستصحابه معه الى دمشق لينوب عنه في تدبير الامور وعاد وهو معه واستشعر مجاهد الدين بزان ان نية مجير الدين قد تغيرت فيه فاستوحش من عوده الى البلد بغير يمين يحلف له بها على امانه في نفسه فوعد بالاجابة فعاد الى داره بدمشق ثم هجس في خاطره من مجير الدين وأصحابه ما أوحشه منهم فدعاه ذلك الى الخروج من البلد سراطا لباصرخد فحين عرف خبره انهض في طلبه وقص أثره فأدرك وقد قرب من صرخد فقبض عليه واعيد الى القلعة بدمشق واعتقل بها اعتقالا جميلا ثم تجدد من الرئيس الوزير حيدرة المقدم ذكره اشياء ظهرت عنه مع ما في نفس الملك مجير الدين منه ومن أخيه المسيب من المعرفة بالسعي والفساد ما اقتضت الحال استدعاءه الى القلعة على حين غفلة عن القضاء النازل به لسوء افعاله وقبح ظلمه وخبثه ثم عدل به الجاندارية الى الحمام بالقلعة مستهل ذي القعدة وضربت عنقه صبرا واخرج رأسه ونصب على حافة الخندق ثم طيف به والناس يلعنونه ويصفون أنواع ظلمه وتفننه في الفساد ومقاسمة اللصوص وقطاع الطريق على أموال الناس المستباحة بتقريره وتدبيره وحمايته وكثر السرور بمصرعه والابتهاج به ثم زحفت العامة والغوغاء ومن كان من اعوانه على الفساد من أهل العيث الى منازله وخزائنه ومخازن غلاته وأثاثه وذخائره فانتهبوا منها ما لا يحصى وغلبوا أعوان السلطان وجنده عليها بالكثرة فلم يحصل للسلطان من ذلك الا النزر اليسير ورد أمر الرياسة والنظر في البلد الى الرئيس رضي الدين أبي غالب عبد المنعم بن محمد بن اسد بن علي التميمي في اليوم المقدم ذكره فطاف في البلد مع اقاربه وأهله وسكنت الدهماء وبولغ في اخراب منازل الظالم ونقل أخشابها قال وكان عطاء الخادم قد استبد بتدبير الامور ومد يده في الظلم واطلق لسانه بالهجو وافرط في الاحتجاب وقصر في قضاء الاشغال فتقدم مجير الدين باعتقاله وتقييده والاستيلاء على ما في داره ومطالبته بتسليم بعلبك وما فيها من مال وغلال ثم ضربت عنقه ونهبت العوام والغوغاء بيوت أسبابه وأصحابه قال وورد الخبر من ناحية مصر بان العادل المعروف بابن السلار الذي كانت رتبته

قد علت ومنزلته فى الوزارة قد تمكنت كان لزوجته ولد يعرف بالامير عباس قد قدمه واعتمد عليه فى الاعمال، ولعباس هذا ولد قدمه الوزير وأنعم عليه وأذن له فى الدخول بغير اذن اليه فدخل عليه وهو نائم فى فراشه فقطع رأسه وحصل عباس فى منصب العادل ثم كان من أمره ما سيأتى ذكره قلت هو أبو الحسن على بن السلار وزير خليفة مصر وهو الذى بنى مدرسة الشافعية بالاسكندرية للحافظ أبى طاهر السلفى رحمه الله وكان قتله فى سادس المحرم بمواطأة من الخليفة الملقب بالظافر بن الحافظ وفيها فى آخر شعبان توفى الفقيه برهان الدين أبو الحسن على البلخى رئيس الحنفية ودفن فى مقابر الباب الصغير المجاورة لقبور الشهداء وكان من التفقه على مذهبه ما هو مشهور شائع مع الورع والدين والعفاف والتصوف وحفظ ناموس العلم والتواضع والتودد الى الناس على طريقة مرضية وسجية محمودة قال وورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الاديب أبى الحسين أحمد بن منير الشاعر فى جمادى الآخرة ووصل فى ثانى عشر شعبان الى دمشق الاديب الشاعر أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير القيسرانى من حلب باستدعاء مجير الدين له ومات بعد عشرة أيام فى الثانى والعشرين من شعبان قلت هما شاعرا الشام فى وقتهما وقد شبههما العماد الكاتب فى كتاب الخريدة بالفرزدق وجرير وكذلك كان اتفق موتهما فى سنة واحدة ومات جرير بعد الفرزدق بقليل وقد سبق من شعرهما فى مدح نور الدين رحمه الله قصائد حسنة وسيأتى غير ذلك فى موضعه لغرض سنذكره ومما قاله ابن منير من قصيدة له

أيا سيفا أعز الدين منه الـ ✻ غرار العضب والنوم الغرار
ملأت جوانح الاقطار رجفا ✻ كان الارض خامرها دوار
علاك حلى على الدنيا فتاج ✻ بمفرقها وفى يدها سوار
أضاءت شمس عدلك فى دجاها ✻ فكل زمانها كنها نهار
فتحرق من عصاك وأنت ماء ✻ وتغرق من رجاك وأنت نار
الا لله وجهك والمنايا ✻ مكحلة والبيض افترار
هتكت حجابها والنصر غيب ✻ وللهبوات طى وانتشار
بطعن للقلوب به انتظام ✻ وضرب للرؤس به انتشار
تبادره كان الموت غنم ✻ وما من عادة البدر البدار
انخت على الصليب مطاصليبا ✻ به من صك مبركه هدار
بشرفة المناكب مقربات ✻ لهن بمتن كل وغى حصار
جبين بانب أنب العناصى ✻ وأضن وللقنا منها ثمار
وفى هاب أهبت بها نجاءت ✻ كما أجلى من الكشم الصوار
وكم فى نج حارم من حريم ✻ عفته فلا جدير ولا جدار
وانطاكية استنت اليها ✻ فاجفل خيطها وله عرار
وصبح فى عزاز بها عزاز ✻ فامسى وهو وعث أو خبار
يشق بها دجى الغمرات عسفا ✻ جواد لا يشق له غبار

وله من أخرى

وما يوم الفرنجة منك فذ ✻ فتحصر عده خطط الحباب
أجاش الاربعاء لهم خميسا ✻ بعيد الغور ملتطم العباب
واحكم بالحطيم لهم خطاما ✻ أمر بريمه مر الضراب
مشوا متساندين الى صليب ✻ يبرقع هبوه الصم الصلاب
تلقفهم المنايا فى الثنايا ✻ وتفجأهم شعوب من الشعاب
أطاشتهم كبشهم هناة ✻ فكنت ذباب طائشة الذباب

حلت التاج عنه وحل تاجا * مكان العقد من عقد الكعاب
أناف على العقاب فكان أشهى * وأبهى منه فى فضل العقاب
فاشرف وهو عن شرف معوف * واصعد وهى غاية الانصباب
تكاشره الشوامت وهو مغض * ثناءمناه عن رجع الجواب
بعيدا من قراع واقتراع * يؤوب له الى يوم المآب
وكم سوط بحيلك اقبلوه الصدور فكان سوطا من عذاب
تركتهم بارض الشام شاما * لظفر تنقيه أولناب
هتكت حجابهم والشمس وسنى * بشمس لاتوارى بالحجاب
بابيض من حبيك الهند صاف * مصون المتن مبتذل الذباب
له سمة الشيوخ صفاء شيب * وفى خطواته ترف الشباب
الا ياناظر الدنيا بعين * أرته علابها خدع السراب
تبطنها فطلقها ثلاثا * على عز التملق والخلاب
فلا يأوى الى رأى شعاع * ولا يثنى الى أمل خراب
ترفع عن مجاورة الامانى * وحلق عن محاضرة التصابى
صلاة الله كل درور شمس * على مثوى أبيك من التراب
فقد ألقى الى الاسلام عضبا * يطبق فى النوائب غير نابى
تعيش له رواس كالرواسى * تمدلها جفان كالجوابى

ولهمن أخرى

مظفر العزم ممدود الرواق على * معالم الدين يرفيها ويبنيها
ردّ الكنائس كنسا للهدى فجنت * نار الضلال وواراتها اثافيها
وأورد العلم عبدا منا بالله * فاستن واقتن عبا فى صوافيها
وبث للشرك اشراكا فما درجت * طريدة منه الا استوهقت فيها
يابدر مذ أشرقت فى الدست غرته * غيث الرعية واخضلت مراعيها
أقام أحمد من محمودها علما * به استقام على البيضاء ساريها
محيى شريعته من بعدما انهدمت * واستبهجت بعد افصاح معانيها
شابت مواهبه فيها مهابته * حتى استقرت على سمت سواريها

ولهمن أخرى

عزت سيوفك فالعراق عراقها * والشام غير مدافعات شامها
ان أغمدت حمل العزائم حلها * أوجردت حرم الكرى احرامها
شخبت عداك بها فلا اشراقها * بمفازة منها ولا إعتامها
سربت فصبحها بها يقظاتها * هدأت فستهابها احلامها
كالماء الاان فى رشفانه * نارا حشاشات النفوس ضرامها
خفت على أيمانكم أوزانها * يوم الوغى واستثقلتها هامها
حتى احلن الشام شاما صرصرت * فيه جنادبها وصدع هامها
ورحصن اردان الجزيرة بعدما * غمرت بها وهدا تهاوا كامها
شطرا أبرت ومثله أنظرته * وقع الخطوب تكرها أيامها
بالخابطات الغاب تزأر أسده * والجحفل الحى اللقاح صيامها

أوردتها اجمات انطاكية * عتقا وقد شيبت الصدا اجامها
تلقى المشافر فى مراشف كلما * بردت بها الأكباد زاد هيامها
فغدت وقد عز السراح سراحها * وتوزعت فى كنسها ارامها
ومشى الضلال القهقرى واستأصل البلاذان من رجع الاذان صلامها
وغدا يخلالها الخليل سواحبا * عذبا يمر لها العذاب غمامها
غضب الدين الله حص جناحه * بغيا وأدمى صفحتيه لدامها
فالآن رد النور فيه نوره * وانجاب من تلك الهنات ظلامها
محمود المحمود اقداما اذا * خام الكماة وزلزلت اقيدامها
الفارج الكرب العظام تضاجعت * اشداقها وفرا القلوب ضغامها

وله من أخرى

أما الرعايا فانها رشفت * لديك نعمى عذبا شآ بيبها
سلكت نهج العدل القويم لها * فاجدت دينها ودنياها
وكم امنيت خوفا فامنها * مثالف الخوف خوفك الله
لله أقطارك التى قطرت * لها مناها الى منا ياها
أنب فى أنب فوارسها * تردى فتردى أولاك أخراها
أشجت لهاة البرنس هبوتها * وكم عتا عاتيا فاشجاها
وجوسلين استساغ نطفتها * فاحتلب الذل تحت مغداها
ردته صفرا من كل ما ملكت * يداه أيد ماضل مسراها
جوليس جاستك أوجه لارأت * بوسا وجاد الحيا محياها
فى سرية لو تكون فارسها * يومئذ ما انبعثت أشقاها
لازال ظل النعماء عن ملك * ما الشمس كفؤ اله اذا باها
والله جازيه عن معبده * أعزها الله مبذ تولاها
محمود المعتلى الى فلك * الحمد وتيراله ولا ياها
أعطاكه جدك المتوج بالجد ونفس لله مغزاها
نفس عزوف عن الخنا طبعت * نزهها الله يوم سواها
أنت الذى سلم الانام له * يمنى طباق العلى ويسراها
وأنت مولى الملوك قاطبة * من كل فنا خسرو وشاهنشاها
والشعر هذا لاقول أجده * أوه بديل من قولتى واها

وله من أخرى

يا ابن الذى لم يال فى نجدة الا * سلام ادلاجا وتهجيرا
تكنف الشام وقد شام بر * ق الخوف انجادا وتغويرا
وكف كلب الروم من بعد أن * انشب به نابا واظفورا
فاهله رقك ان انصفوا * رقا بحد السيف مسطورا
بدر هوى واستخلف الشمس فى * دستك اشراقا وتأثيرا

وله من أخرى

ملك كسى الاسلام من ذبه * بردا بتسديم الظبى معلما
من أصبح الشام به شامة * يقطر من قتل عداه دما

لولم يقم منصلتا دونه * لم تلق فى أقطارها مسلما

وله يمدحه بعد مصالحة صاحب حماه واهتمامه بالعرس وعوده الى حلب

الدهر مارضته بالجود والباس * مقسم بين اغراس واعراس
فتح تعاقبه فتح ومطلب * دانى المنال وملك ثابت راسى
نصرا ببصرى وصفحا عن حماة لقد * أحسنت للداء حسما أيها الآسى
ياابن الذى عنت الدنيا لدولته * من فاطمى اعزته وعباسى

وله فيه أيضا

غدا الدين باسمك سامى العلم * أمين العماد مكين القدم
لذلك لقبت نورا له * وقد أغطش الظلم فيه الظلم
أضاءت بعدلك آفاقه * وفضت عرى الدين لما ادلهم
ولم تمش رهوا لنصر الرها * ومثلك أدرك لما عزم
ويوم بسوطا بسطت الجما * م على الهضب من ركنها فانهدم
وبصرى وصرخد لولم تثر * دراكا لكانا رديفى ارم
ومذ فض جيشك فى الغوطتين * قص الصليب له ما انتظم
وفى كفرلاثا وهاب حللت * عقد البرنس ببيض خذم
معودة انها لاتسل * الامقسمة للقمم
ويوم بسرفود جرعتهم * أجاجا أغصهم واضطلم
وفوق العريمة غشاهم * عرام جيوشك سيل العرم
وأنت بكليهم فى الكبو * ل مباح الحريم مذال الحرم
وبارتهم أذنت انها * ابارتهم فليبؤا بذم
بنوها واعلوا ولم يعلموا * بما خط فى اللوح منك القلم
وانك خادم ما أحكمو * ه ومن ديننا راقع ما انخرم
فرفع من بعد خفض هدى * وتخفض من بعد رفع صنم
سمكت المدارس فوق النجو * م فكم منجم تحتها قد نجم
وعاش الحنيفى والشافعى * بما شدت منها وكانا رمم
وان لم تكن هاشمى الاصو * ل فانك فرع الهزبر الهشم
ومن يدعى فى العلى ما ادعيت * وأنت ابن من عز لما احتكم
واقسم ما غاب ميت سقت * مغارسه عين هذى الشيم

قلت وقصائد ابن منير فى مدح نور الدين كثيرة ونفسه فيها طويل ولم يبق بعد موت القيسرانى وابن منير فحل من الشعراء يصف مناقب نور الدين كما ينبغى الا ابن أسعد الموصلى وسيأتى شئ من شعره الى ان قدم العماد الكاتب الشام فى سنة اثنتين وستين فتسلم هذا الامر وعبر عن أوصاف نور الدين ومناقبه وغزواته باحسن العبارات وأتمها نظما ونثرا وسيأتى كل ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى قال ابن الاثير وفيها توفى صاحب ماردين حسام الدين تمرتاش وليها بعده نجم الدين البى بن تمرتاش ارتق قلت وقد مدحه القيسرانى والعرقلة وغيرهما من الشعراء

(ثم دخلت سنة تسع وأربعين وخمسمائة) قال ابن الاثير ففيها ملك نور الدين دمشق وأخذها من صاحبها مجير الدين أنق بن محمد وكان الذى حمل نور الدين على الجد فى ملكها ان الفرنج ملكوا فى السنة الخالية عسقلان وهى مدينة فلسطين حسنا وحصانة ولما كانوا يحصرونها كان نور الدين يتلهف ولا يقدر على ازعاجهم عنها لان دمشق فى طريقه وليس له على غيرها معبر لاعتراض بلاد الفرنج فى الوسط وقوى الفرنج بملكها حتى طمعوا فى دمشق

واستضعفوا مجير الدين وتابعوا الغارة على اعماله واكثروا القتل بها والنهب والسبي وزاد الامر بالمسلمين بها الى ان جعل الفرنج على أهل المدينة قطيعة كل سنة وكان رسولهم يجيء الى دمشق ويجبيها من أهل البلد ثم اشتد البلاء على أهلها حين أرسل الفرنج واستعرضوا عبيدهم وأساهم الذين نهبوا من سائر بلاد النصرانية وخيروهم بين المقام عندموا ليهم والعود الى أوطانهم فمن أحب المقام تركوه ومن أحب وطنه سار اليه وزالت طاعة مجير الدين عن أهل البلد الى ان حصروه فى القلعة مع انسان منهم كان يقال له مؤيد الدين ابن الصوفى فلما كانت الامور بها هكذا خاف أهلها وأشفقوا من العدو فلجأوا الى الله تعالى ودعوه ان يكشف مابهم من الخوف فاستجاب لهم وأذن فى خلاصهم مما هم فيه على يد أحب عباده اليه وأحسنهم طريقه وأمثلهم سيره وهو الملك العادل حقا نور الدين محمود فحسن له السعي فى ملك البلدة وألقاه فى روعه فلما خطر له ذلك أفكر فيه فعلم انه ان رام ملكه بالقوة والحصار تعذر عليه لان صاحبه متى رأى شيئا من ذلك راسل الفرنج واستعان بهم واستمالهم قلت وقد كان سبق له بذلك سوابق قد تقدم ذكر شئ منها ولذلك قال العرقلة يمدح أتابكه معين الدين أنر من قصيدة

يظن صلاح الدين فرسان جلق ❊ كفرسانه ما الاسد مثل الثعالب
رجال اذا فام الصلب تصلبت ❊ رماحهم فى كل ماش وراكب
غدا يطلع الشام الفرنج بفيلق ❊ مـــعودة ابطاله للمصائب
لها الليل نقع والاسنة أنجم ❊ فما غير ابطال وغير جنائب

وصلاح الدين هذا المذكور ليس هو يوسف بن أيوب المشهور فان ذلك لم يكن حينئذ ملكا يقود الجيوش وانما هذا صلاح الدين محمد بن أيوب الباغبساني صاحب جاه أحد أصحاب زنكى وقد تقدم ذكره مرارا وكانه كان فى مقدمة الجيش النورى لما قصد دمشق فى المرتين الاوليين أو فى احديهما أو فى زمن حصار زنكى لها والله أعلم قال ابن الاثير وكان أبغض الاشياء الى الفرنج ان يملك نور الدين دمشق لانه كان يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له دمشق فكيف اذا أخذها وقوى بها وانضاف الى ذلك كراهيته لسفك دماء المسلمين فان الدم كان عنده عظيما لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل فلما رأى الحال هكذا عمد الى اعمال الحيلة فراسل مجير الدين صاحبها واستماله وواصله بالهدايا وأظهر له المودة حتى وثق اليه ثم صار يكاتبه فى بعض الاوقات ويقول له ان فلانا ويذكر بعض الامراء الذين لمجير الدين قد كاتبنى فى المخامرة عليك فاحذره فتارة يأخذ اقطاع أحدهم وتارة يقبض عليه فلما خلت دمشق من الامراء قدم أميرا كان عنده يسمى عطاء بن حفاظ السلمى الخادم وكان شهما شجاعا وفوض اليه أمر دولته وكان نور الدين لا يتمكن من دمشق معه فقبض عليه مجير الدين وقتله فقال له عند قتله ان الحيلة قد تمت عليك فلا تقتلنى فانه سيظهر لك ما أقول فلم يصغ الى قوله وقتله قلت وفى بعض قصائد ابن منير ما يدل على ان عطاء هذا كان له مع نور الدين فى دمشق حديث فانه قال

ودمشق فى دمشق رجال سلم ❊ لحور نسائهم منهم نساء
هى الفردوس أصبح وهو عاف ❊ من العالى ومن خال خلاء
جنان تعرف الجنات فيها ❊ ولا رأى هنالك ولا رواء
لاسمح صعبها ودنت قصاها ❊ وامكنك اقتياد وامتطاء
ويانعم العطاء عطاء رب ❊ توسطه فانشطه عطاء
تفاءل باسمه فالفال وعد ❊ يكون على ظباك به الوفاء
هو السبب الذى شزرت قواه ❊ وهذبه لخدمتك الصفاء
وسيف ان تشمه تشم حساما ❊ وان يغمد فنار بل ذكاء
جنته لك السعادة قطف رأى ❊ لنقب الخادعيك به هناء

ويجوز انه لم يكن لعطاء فى ذلك حديث وانما هذه الابيات أو ما فى معناها كانت سبب قتله لما بلغ مجير الدين ذلك وعطاء هذا هو الذى ينسب اليه مسجد عطاء خارج الباب الشرقى بدمشق وجورة عطاء بيبت أبيات وهى أرض فيها أخشاب

كبارمن الحور تربى أوتارا بالجامع دمشق وهى وقف عليه وقد مدحه العرقلة وغيره من الشعراء قال ابن الاثير لما قتل عطاء قوى طمع نور الدين فى دمشق فراسل احداث البلد وزناطرته واستمالهم فأجابوه الى تسليم البلد فسار اليهم وحاصرهم عشرة أيام فكاتب مجير الدين الفرنج وبذل لهم الاموال وقلعة بعلبك ان رحلوا نور الدين عنه فالى ان جمعوا وجاؤا بلغهم أخذ نور الدين دمشق فعادوا بخفى حنين وأما نور الدين فانه لما حاصرهم وضيق عليهم ثار الاحداث الذين كاتبهم نور الدين وسلموا اليه البلد من الباب الشرقى فدخله بالأمان عاشر صفر وحصر مجير الدين فى القلعة وراسله وبذل له الاقطاع الكثير من جملته مدينة حمص فأجاب الى تسليم القلعة وصار الى حمص وقال ابن ابى طى أنفذ نور الدين أسد الدين شيركوه رسولا الى صاحب دمشق فخرج فى تجمل عظيم ومعه ألف فارس فعظم على مجير الدين ذلك وقال ما هذه رسالة هذه مكيدة ولم يتجاسر على الخروج الى لقائه ولا أحد من أمراء دمشق فاستوحش أسد الدين ونزل بمرج القصب وأغلظ لصاحب دمشق فى المقال وأنفذ الى نور الدين يعرّفه بما جرى عليه فسار نور الدين فى عساكره وزحف الى البلد من شرقيه وكانت الحرب فى عاشر صفر وتولى أسد الدين القتال وأبلى الجهد فكسر عساكر دمشق الى الاسوار من قبلى البلد ولم يكن أحد من المقاتلة على السور من ذلك الجانب لانّ نور الدين كان من شرقها وجلّ العسكر مقابله ورأى من كان مع نور الدين من الجاندارية والحلبيين الى خلوّ السور من المقاتلة فتسرعوا الى السور وتعلقوا به وحصلوا فى الحال على الاسوار ويقال ان امرأة كانت على السور فدلت حبلا فصعد واليه وصار على السور جماعة ونصبوا السلالم وصعد جماعة أخرى ونصبوا علما وصاحوا بشعار نور الدين فوقع على أهل البلد الخذلان وكسر باب البلد ودخلت الخيالة منه وملك نور الدين دمشق وكان لاسد الدين اليد الطولى فى فتحها فولاه نور الدين أمرها وردّ اليه جميع أحوالها وفى هذه السنة اقطعه نور الدين الرحبة وقال الرئيس أبو يعلى فى العشر الثانى من المحرّم وصل الامير أسد الدين شيركوه رسولا من نور الدين الى ظاهر دمشق وخيم بناحية القصب من المرج فى عسكر يناهز الالف فأنكر ذلك ووقع الاستيحاش منه واهمال الخروج اليه لتلقيه والاختلاط به وتحررت المراسلات فيما اقتضته الحال ولم تسفر عن سداد ولا نيل مراد وغلا سعر الاقوات لانقطاع الواصلين بالغلات ووصل نور الدين فى عسكره الى شيركوه ثالث صفر وخيم بعيون الفاسريا عند دومة ورحل فى الغد ونزل بيت الابار من الغوطة وزحف الى البلد من شرقيه وزحف اليه من عسكره واحداثه الخلق الكثير ووقع الطراد بينهم ثم عاد كل من الفريقين الى مكانه ثم زحف يوما بعد يوم وتأكد الزحف يوم الاحد عاشر صفر وظهر اليه العسكر الدمشقى فاندفع بين أيديهم حتى قربوا من سور باب كيسان والدباغة من قبلى البلد وليس على السور أحد من العسكرية والبلدية لسوء تدبير صاحب الامر غير نفر يسير لا يؤبه لهم فتسرع بعض الرجالة الى السور وعليه امرأة يهودية فأرسلت اليه حبلا فصعد فيه وحصل على السور ولم يشعر به أحد وتبعه من تبعه وطلعوا على ما نصبوه على السور وصاحوا نور الدين يا منصور وامتنع الاجناد والرعية من الممانعة لما هم عليه من المحبة لنور الدين وعدله وحسن ذكره وبادر بعض قطاعى الخشب بفأسه الى الباب الشرقى فكسر اغلاقه وفتحه فدخل منه العسكر وسعوا فى الطرقات ولم يقف لأحد بين أيديهم وفتح باب توما أيضا ودخل الناس منه ثم دخل نور الدين وخواصه وسرّ كافة الناس من الاجناد والعسكرية لما هم عليه من الجوع وغلاء الاسعار والخوف من منازلة الفرنج الكفار وكان مجير الدين لما أحس بالغلبة والقهر قد انهزم فى خواصه الى القلعة وأنفذ اليه فأومن على نفسه وماله وخرج الى نور الدين فطيب نفسه ووعده الجميل ودخل نور الدين القلعة فى اليوم المقدم ذكره وامر بالمناداة بالامان للرعية والمنع من انتهاب شئ من دورهم وتسرع قوم من الرعاع والاوباش الى سوق على وغيره فعاثوا ونهبوا وأنفذ نور الدين الى أهل البلد بما طيب نفوسهم وأزال نفرتهم وأخرج مجير الدين ما كان له فى دوره بالقلعة والخزائن من المال والآلات والاثاث على كثرته الى الدار الاتابكية دار جده وأقام أياما ثم تقدم اليه بالمسير الى حمص فى خواصه ومن أراد الكون معه من أسبابه وأتباعه بعد ان كتب له المنشور باقطاعه عدة ضياع باعمال حمص برسمه ورسم جنده وتوجه الى حمص على القضية المقررة ثم أحضر نور الدين غد ذلك اليوم أماثل الرعية من القضاة والفقهاء والتجار وخوطبوا بما زاد فى ايناسهم وسرور نفوسهم وحسن النظر لهم بما يعود بصلاح أحوالهم فأكثروا الدعاء له والثناء عليه والشكر لله تعالى على ما أصارهم اليه ثم تلا ذلك ابطال حقوق دار البطيخ وسوق البقل وضمان الانهار

وانشأ

وأنشأ بذلك المنشور وقرئ على المنبر بعد صلاة الجمعة فاستبشر الناس بصلاح الحال وأعلن الناس برفع الدعاء الى الله تعالى بدوام أيامه ونصرة أعلامه وقال ابن الاثير لما استقل نور الدين فى البلد عمل مع أهله مكرمة عظيمة وأظهر فيهم عدلا عاماقلت قد تقدم ذكره فى أول الكتاب وسيأتى منه أشياء مفرقة فيما بعد قال وألقى الاسلام جرانه بدمشق وثبتت أوتاده وأيقن الكفار بالبوار ووهنوا واستكانوا وصار جميع ما بالشام من البلاد الاسلامية بيد نور الدين وأما مجير الدين فانه أقام بحمص وأرسل أهل دمشق فى اثارة الفتنة فانتهى الامر الى نور الدين فخاف ان يحدث ما يشق تلافيه بل ربما تعذر لاسيما مع مجاورة الافرنج فأخذ حمص من مجير الدين وعوضه عنها مدينة بالس فلم يرضها وسار عن الشام الى العراق فأقام ببغداد وابتنى دارا تجاور المدرسة النظامية وتوفى بها قال ولما ملك نور الدين دمشق خافه الفرنج وعلموا انه لا يقعد عنهم وعن غزو بلادهم والمبادرة الى قتالهم فراسله كل كندوقص وتقربوا اليه ثم ان من بتل باشر راسلوه وبذلوا له تسليمها اليه فأرسل الى الامير حسان المنبجى وهو من أكابر أمراء نور الدين واقطاعه منبج فأمره ان يتسلمها منهم فسار اليها وتسلمها وحصنها ورفع اليها ذخائر كثيرة

(فصل) قال الرئيس أبو يعلى وقد كان مجاهد الدين بزان أطلق يوم الفتح من الاعتقال وأعيد الى داره ووصل الرئيس مؤيد الدين المسيب الى دمشق مع ولده النائب عنه فى صرخد الى داره معوّلا على لزومها وترك التعرض لشئ من التصرفات والاعمال فبدا منه من الاسباب المعربة عن اضمار الفساد والعدول الى خلاف مناهج السداد والرشاد ما كان داعيا الى فساد النية فيه وكان فى احدى رجليه فتح قد طال به ونسيه ثم لحقه مرض وانطلاق متدارك أفرط عليه وأسقط قوته مع فهاق متصل وقلاع فى فيه زائد فقضى نحبه فى رابع ربيع الاول ودفن فى داره واستبشر الناس بهلاكه والراحة من سوء أفعاله قال ووردت الاخبار بقتل خليفة مصر الملقب بالظافر بن الحافظ وأقيم ولده عيسى مقامه وهو صغير يناهز ثلاث سنين ولقبوه بالفائز وعباس الوزير ثم ورد الخبر بان الامير فارس الدين طلائع بن رزيك وهو من أكابر الامراء المقدمين الشجعان المذكورين لما انتهى اليه الخبر وهو غائب عن مصر قلق لذلك وامتعض وجمع واحتشد وقصد العود الى مصر فلما عرف عباس بما جمع خاف الغلبة فتأهب للهرب فى خواصه وأسبابه وحرمه وما تهيأ من ماله وسار معدا فلما قرب من أعمال عسقلان وغزة خرج اليه جماعة من خيالة الافرنج فاغتر بكثرة من معه وقلة من قصده فلما حملوا عليه فشل أصحابه وأعانوا عليه وانهزم أقبح هزيمة هو وابنه الصغير وأسر ابنه الكبير الذى قتل العادل بن السلار مع ولده وحرمه وماله وكراعه وحصلوا فى أيدى الفرنج ومن هرب لقى من الجوع والعطش شدة ومات العدد الكثير من الناس والدواب ووصل فى أثرهم فارس الدين فوضع السيف فيمن ظفر به من أصحاب عباس وانتصب فى الوزارة وتدبير الامور موضعه ووصل الى دمشق منهم من الجأه الهرب على أشنع صفة من العدم والعرى فى آخر ربيع الآخر قلت وفى ذلك يقول عمارة اليمنى من قصيدة له

لكم يابنى رزيك لازال ظلكم * مواطن سحب الموت فيها مواطر
سللتم على عباس بيض صوارم * قهرتم بها سلطانه وهو قاهر

وذكر الامير أسامة بن منقذ فى كتاب الاعتبار ان نصر بن عباس لما قتل ابن السلار وتوزر أبوه عباس كان نصر يعاشر الخليفة الظافر ويخالطه وعباس كاره لذلك مستوحش من ابنه لعلمه بمذهب القوم وضرب بعض الناس ببعض حتى يفنوهم وشرع الظافر مع ابن عباس فى حمله على أبيه ومواصلته بالعطايا الكثيرة فقالحنى فى ذلك فنهيته فاطلع والده على الامر فاستماله أبوه ولطف به وتقرر معه قتل الظافر وكانا يخرجان متنكرين وهما ترابان سنهما واحد فدعاه الى داره ورتب من أصحابه معه فى جانب الدار نفرا ثم لما استقر به المجلس خرجوا عليه فقتلوه وذلك سلخ محرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة ورموه بجب الدار وأصبح عباس جاء الى القصر ضحوة نهار للسلام وجلس فى مجلس الوزارة ينتظر جلوس الظافر فلما تجاوز وقت جلوسه استدعى صاحب زمام القصر وقال مالمولانا ما جلس للسلام فتبلد الاستاذ فى الجواب فصاح عليه وقال مالك لا تجاوبنى قال يامولاى مولانا ماندرى أين هو وقال مثل مولانا يضيع ارجع واكشف الحال فمضى ورجع فقال ما وجدنا مولانا فقال يبقى الناس بلا خليفة ادخل الى الموالى اخوته يخرج منهم واحد نبايعه فمضى وعاد وقال الموالى يقولون لك مالنا فى الامر شئ والدنا عزله عنا وجعله فى الظافر والامر لولده بعده قال أخرجوه

حتى نبايعه وعباس قد قتل الظافر وعزم على ان يقول لاخوته أنتم قتلتموه ويقتلهم فخرج ولد الظافر ولعل عمره خمس سنين يحمله الاستاذ فأخذه عباس فحمله وبكى وبكى الناس ثم دخل به الى مجلس أبيه وهو حامله وفيه أولاد الحافظ قال ابن منقذ ونحن فى الرواق جلوس وفى القصر أكثر من ألف رجل من المصريين فاراعنا الا قوم قد خرجوا من المجلس مجتمعين الى القاعة فاذا السيوف تختلف على انسان فقلت لغلام لى ارمنى انظر من هذا المقتول فمضى وعاد وقال ماهؤلاء مسلمين هذا مولاى أبو الامانة جبريل بن الحافظ قد قتلوه ثم ان واحدا شق بطنه يجذب مصارينه ثم خرج عباس وهو آخذ برأس الامير يوسف تحت ابطه وفى رأسه ضربة سيف والدم يفور منها وأبو البقاء ابن أخيهم مع ابنه نصر ثم ادخلوهما خزانة فى القصر فقتلوهما وفى الخزانة ألف سيف مجرّد قال وكان ذلك اليوم من أشدّ الايام التى جرت علىّ لانى رأيت من الفساد والبغى ما ينكره الله سبحانه وجميع خلقه وذكر الامير أسامة بن منقذ فى ديوانه قال كان لعباس أربعمائة جمل يحمل أثقاله وما تتابغل وماتتا جنيب فلما أراد الخروج من مصر يوم الجمعة رابع عشر ربيع الاول سنة تسع وأربعين وخمسمائة وقد قام عليه أهل مصر وعسكريتها فارسهم وراجلهم تقدم بشدّ خيله وبغاله وجماله ليتحمل ويخرج فلما صار الجميع على باب داره وقد ملأت ذلك الفضاء الى قصر السلطان الى الايوان خرج غلام يقال له عنبر كان على أشغاله وغلمانه كلهم تحت يده فقال للجمالين والخربندية والركابية روحوا الى بيوتكم وسيبوا الدواب ففعلوا ذلك وانحازوا الى المصريين يقاتلونه معهم وكان ما جرى من تسييك الدواب لطفا من الله تعالى به فانها سدّت الطريق بينه وبين المصريين ومنعتهم من الوصول اليه وهم فى خلق كثير ونحن فى قلة ماتبلغ خمسين رجلا وغلمان عباس ومماليكه فى ألف ومائتى غلام بالخيول الجياد والسلاح التام وثمانمائة فارس من الاتراك خرجوا كلهم من باب النصر ووقفوا فى الفضاء الذى بينه وبين رأس الطابية فرارا من القتال فشرع المصريون فى نهب الخيل والجمال والبغال فلما فتحوا طريقهم اليه خرج عباس من باب النصر وجاؤا فى أثره حتى أقفلوا الباب وعادوا الى نهب دوره وكان عباس قد أحضر من العرب نحوا من ثلاثة ألف فارس يتقوّى بهم على المصريين واستحلفهم ووهبهم هبات عظيمة فلما خرج من باب مصر غدروا به وقاتلوه أشدّ قتال ستة أيام يقاتلهم من الفجر الى الليل فاذا نزل أمهلوه الى نصف الليل ثم يركبون و يهدّون خيلهم على جانب الناس و يصيحون صيحة واحدة فتجفل الخيل وتقطع ويخرج اليهم منها ما فيه منعة وقوة فيأخذونه فكان ذلك سبب هلاك خيله وتمكن الافرنج منه واشتغاله عن سلوك طريق لا يقصده الفرنج اليه قال ودامت الحرب بينه وبينهم من يوم الجمعة ضحى نهارا الى آخر يوم الخميس ثم جاؤا اليه وأخذوا منه حسبا على أموالهم وأنفسهم وبيوتهم ظنا منهم ان له عودة اليهم وانصرفوا عنه وهم أكثر من ثلاثة آلاف فارس ويوم الاحد صبحتهم الافرنج وقد هلك الناس من الجوع والعطش وماتت خيلهم فقتلوا ابنه الاوسط وأسروا ابنه الاكبر وقتلوا خلقا كثيرا وأخذوا نساء عباس وخزائنه وأسروا أولاده صغارا وانصرفوا قلت عباس هذا هو عباس بن أبى الفتوح بن تميم بن المعز باديس الحميرى ويلقب بالافضل ركن الدين ويكنى بأبى الفضل ورأيت علامته فى الكتب أيام وزارته الحمد لله وبه أثق وفيه يقول أسامة بن منقذ

لقد عم جود الافضل السيد الورى ❊ وأغنى غناء الغيث حيث يصوب

ومن أبيات لابن أبى أسعد فيه لما قتل الظافر

وأنفق من انعامهم فى هلاكهم ❊ وأظهر ما قد كان عنه تنافق
ومدّ يدا قد طوّلوها اليهم ❊ وحلت بأهل القصر منه البوائق
سقى ربه كاس المنايا وما انقضى ❊ له الشهر الا وهو للكاس ذائق

وكان عباس قد تخيل من أسامة عند خروجه من مصر لما يعلمه بينه و بين الملك الصالح من المودّة والمصافاة فأحضره واستحلفه انه لا ينفصل عنه ثم لم يقنعه ذلك حتى أنفذ من أستاذى داره من يدخل على حرمه الى داره فأخذ أهله وأولاده فتركهم عنده أهله وأولاده وقال قد جلت ثقلهم عنك ولهم أسوة بوالدة ناصر الدين يعنى ولده ناصر الدين وباخواته فلما خرجوا ونهبت دورهم ودوابهم عجز عن حمل من يخصه فاعادهم أسامة من بلبيس وانفذ الى الملك الصالح يقول له قد انفذت أهلى وأولادى اليك وأنت ولى ما تراه فيهم فأنزلهم فى دار وأجرى عليهم الجارى الواسع

وأحسن اليهم غاية الاحسان وكان يكاتبه في الرجوع الى مصر وهو يلطف الامر معه قصدا لخلاص أهله وأولاده فلما عرف ذلك منه نسبه الى وحشة قلبه من القصور ونفوره من المصريين فأنفذ اليه يقول له تصل الى مكة في الموسم ويلقاك رسولي اليها يسلم اليك مدينة أسوان وانفذ اليك أهلك وأمدك بالاموال وهي كما علمت الثغر بيننا وبين السودان وما يسد ذلك الثغر مثلك وأكثر من الوعد وذكر رغبته في قربه ورعايته ومابينه وبينه من قديم الصحبة فاستأذن أسامة في ذلك الملك العادل نور الدين وكان في خدمته فقال يا فلان ما تساوي الحياة الشتات والرجوع الى الاخطار والبعد عن الاوطان ومنعه من ذلك باحسانه ووعده ان يستخلص أهله فكتب أسامة الى الملك الصالح يعتذر ويسأله تسيير أهله وترددت بينهما مكاتبات واشعار متصلات الى ان سيرهم وهم نيف وخمسون نسمة في الاكرام والاحترام الى آخر ولايته وذكران أهل القصور والامراء أنكروا تسييرهم وقالوا تكون أهله رهائن عندنا لنأمن ما يكون منه ووصله بعض أصحابه من دمشق وهو في العسكر النوري بحلب فأخبره ان من كان له بمصر من الاهل والاولاد والاصحاب وصلوا وان المراكب انكسرت بهم في ساحل عكا ونهب الفرنج كل ما فيه ولم يصلوا الى دمشق الا بأنفسهم وان متملك الافرنج أعطاهم خمسمائة دينار أصلحوا منها حالهم وأكتروا ظهرا الى دمشق قال أسامة

الى الله أشكو فرقة دميت لها ❁ جفوني واذكت بالهموم ضميري
تمادت الى ان لاذت النفس بالمنى ❁ وطارت بها الاشواق كل مطير
فلما قضى الله اللقاء تعرضت ❁ مساءة دهري في طريق سروري

❁(فصل)❁ قال أبو يعلى وفي آخر ربيع الاول وصل الامير مجد الدين أبو بكر محمد نائب نور الدين في حلب الى دمشق عقيب عوده من الحج وأقام أياما وعاد الى منصبه في حلب وتدبير اعمالها قلت مجد الدين هذا هو ابن الداية وكان نور الدين كثير الاعتماد عليه وعلى اخوته وسيتكرر ذكرهم في هذا الكتاب ومجد الدين أكبر اخوته وقد مدحه الشعراء قال القيسراني من بعض ما قاله فيه

دعوا ما مضى من قبل هذا المعهد ❁ فاقسم لولا المجد ما عرف المجد
كريم سمت أوصافه لعفاته ❁ ترى ان كل اثنين بينهما عقد
محياه والبشرى ويمناه والندى ❁ ونجواه والدنيا وتقواه والزهد
ففي قربه الزلفى وفي وعده الغنى ❁ وفي نيله الحسنى وفي رأيه الرشد
اذا وجه نور الدين قابل مجده ❁ فقل في كمال البدر قابله السعد

وفي موسم هذه السنة توفي أمير الحرمين هاشم بن فليته وولي الحرمين ابنه قاسم بن هاشم وهو الذي أرسل عمارة اليمني الفقيه الشاعر الى الديار المصرية وسيأتي ذكره قال أبو يعلى وفي ثامن جمادى الاولى ورد الخبر من ناحية مصر أن عدة وافرة من مراكب الفرنج من صقلية وصلت الى مدينة تنيس على حين غفلة من أهلها فهجمت عليها وقتلت وأسرت وسبت ونهبت وعادت بالغنائم بعد ثلاثة أيام وتركتها صفرا وبعد ذلك عاد من كان هرب منها في البحر بعد الحادثة ومن سلم واختفى وضاقت الصدور عند استماع هذا الخبر المكروه قال وفي شهر رمضان ورد الخبر من ناحية حلب بوفاة القاضي فخر الدين أبي منصور محمد بن عبد الصمد بن الطرسوسي وكان ذا همة ماضية ويقظة ومروءة ظاهرة في داره وولده ومن يلم به من غريب ووافد وقد نفذ أمره وتصرفه في أعمال حلب في الايام النورية وأثر في الوقوف أثرا حسنا توفر به ارتفاعها ثم اعتزل عن ذلك أجمل اعتزال

(ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة) ففيها تسلم نور الدين بعلبك من واليها ضحاك ذكر ابن الاثير ان ذلك كان في سنة اثنتين وخمسين وقال كان ضحاك البقاعي ينوب ببعلبك عن صاحب دمشق فلما ملك نور الدين دمشق امتنع ضحاك بها ولم يمكن نور الدين محاصرتها لقربها من الفرنج فلطف الحال معه الى ذلك الوقت فملكها واستولى عليها وقال ابن أبي طي لما فتح نور الدين دمشق اتصل ذلك بنجم الدين أيوب فكاتب نور الدين في تسليم بعلبك فانفذ اليه وتسلمها منه وألحقه باصحابه قال ورأيت بعض المؤرخين قد ذكر ان مجير الدين صاحب دمشق أنزل نجم الدين من القلعة وجعله في البلد وولى القلعة رجلا يقال له ضحاك فلما ملك نور الدين دمشق خرج الى بعلبك واستنزل منها ضحاكا

وتوسط أسد الدين فى أمر أخيه نجم الدين مع نور الدين فاقطعه اقطاعا وسيره الى دمشق فاقام فيها ورد نظر دمشق اليه وولى ولده تورانشاه شحنكية دمشق فساسها أحسن سياسة ولم يزل بها الى ان توفى فولى صلاح الدين شحنكية دمشق قلت هذا وهم تورانشاه هو الملك المعظم شمس الدولة الذى فتح اليمن فى أيام أخيه صلاح الدين فكيف يقول انه مات قبل ان يلى صلاح الدين شحنكية دمشق وأما كونه ولى الشحنكية بدمشق قبل صلاح الدين فهذا قريب وقد رأيت مايؤكده قرأت فى ديوان العرقله وقال يهنيه بالشحنكية بدمشق وهو فى دار عمه أسد الدين شيركوه بن شاذى

قلب لحسادك زيد وافى الحسد * قد سكن الدار وقد حاز البلد
لاتعجبوا ان حل دار عمه * اماتحل الشمس فى برج الاسد

وقال فى صلاح الدين لما ولى الشحنكية

لصوص الشام توبوا من ذنوب * تكفرها العقوبة والصفاد
لئن كان الفساد لكم صلاحا * فمولاى الصلاح لكم فساد

وله فيه أيضا

رويدكم بالصوص الشـــآم انى لكم ناصح فى مقالى
واياكم وسمى النـــبى يوسف رب الحجى والجمال
فذاك مقطع أيدى النســـاء وهذا مقطع أيدى الرجال

قال ابن ابى طى وولى صلاح الدين شحنكية دمشق والديوان فاقام فيه أياما ثم تركه وصار الى حلب لاجل واقعة جرت بينه وبين صاحب الديوان أبى سالم همام فانفذ نور الدين وأخذ ابن همام وحلق لحيته وطيف به فى دمشق قلت وابن همام هذا هو الذى ذكره الشباسى فى قصيدته وأشار الى حلق لحيته بقوله

كابى سالم بن همام لما * قام للنصح عاد يمشى ملثم

ثم قال ابن أبى طى واستخص نور الدين صلاح الدين وألحقه بخواصه فكان لايفارقه فى سفر ولا حضر وكان يفوق الناس جميعا فى لعب الكرة وكان نور الدين يحب لعب الكرة قال أبو يعلى ونزل نور الدين بعسكره بالاعمال المختصة بالملك قليج أرسلان بن الملك مسعود بن سليمان بن قيلمش ملك قونية وما والاها فلك عدة من قلاعها وحصونها بالسيف والامان وكان الملك قليج أرسلان وأخواه ذو النون ودولات مشتغلين بمحاربة أولاد الدانشمند ونصروا عليهم فى وقعة كانت باقصرا فى شعبان فلما عاد قليج أرسلان وعرف ما كان من نور الدين فى بلاده عظم عليه هذا الامر واستبشعه مع ما بينهما من الموادعة والمهادنة والصهر وراسله بالمكاتبة والانكار والوعيد والتهديد فاجابه نور الدين بحسن الاعتذار وجميل المقال وبقى الامر بينهما مستمرا على هذه الحال وعاد نور الدين من حلب الى دمشق قال وولى الاسطول المصرى مقدم شديد البأس بصير باشغال البحر فاختار جماعة من رجال البحر يتكلمون بلسان الفرنج وألبسهم ثيابهم ونهض بهم فى عدة من المراكب الاسطولية وأقلع فى البحر لكشف الاماكن والمكامن والمسالك المعروفة بمراكب الروم وتعرف أحوالها ثم قصد مينا صور وقد ذكر له ان فيه مختورة رومية كبيرة فيها رجال كثير ومال وافر فهجم عليها وملكها وقتل من فيها واستولى على ما حوته وأقام ثلاثة أيام ثم أحرقها وعاد عنها فى البحر فظفر بمراكب حجاج الفرنج فقتل وأسر وانتهب وعاد مصر بالغنائم والاسرى قلت وفى هذه السنة ورد أمر الخليفة ببغداد وهو المقتفى الى أمير الحرمين قاسم بن هاشم يأمره ان يركب على باب الكعبة المكرمة باب ساج جديدا قد ألبس جميع خشبه فضة وطلى بذهب وان يأخذ أمير الحرمين حلية الباب القديم لنفسه ويسير اليه خشب الباب القديم مجردا ليجعله تابوتا يدفن فيه عند موته وذكر ذلك الفقيه عمارة الشاعر وقال سألنى أمير الحرمين ان ابيع له الفضة التى أخذها من الباب فى اليمن ومبلغ وزنها خمسة عشر ألف درهم فتوجهت الى زبيد وعدت من مكة الى صفر سنة احدى وخمسين وحججت فى الموسم منها فدفعت لامير الحرمين ماله والزمنى الترسل عنه الى مصر يعنى مرة ثانية بسبب جناية جناها خدمه على حاج مصر والشام

﴿ثم دخلت سنة احدى وخمسين وخمسمائة﴾ قال ابن الاثير فيها حاصر نور الدين قلعة حارم وهى حصن غربى

حلب بالقرب من انطاكية وضيق على أهلها وهى من أمنع الحصون وأحصنها فى نحور المسلمين فاجتمعت الفرنج من قرب منها ومن بعد وسار وا نحوه لمنعه وكان بالحصن شيطان من شياطين الفرنج يرجعون الى رأيه فأرسل اليهم يعرفهم قوتهم وانهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة و يشير عليهم بالمطاولة وترك اللقاء وقال لهم ان لقيتموه هزمكم وأخذ حارم وغيرها وان حفظتم أنفسكم منه أطقنا الامتناع عليه ففعلوا ما أشار به عليهم وراسلوا نور الدين فى الصلح على ان يعطوه حصة من حارم فأبى أن يجيبهم الا على مناصفة الولاية فأجابوه الى ذلك فصالحهم وعاد وفى ذلك يقول بعض الشعراء من قصيدة وذكر أبياتا من قصيدة لابن منير وقد سبق ان ابن منير توفى سنة ثمان وأربعين فاما ان يكون ابن منير قال هذا الشعر فى غير هذه الغزاة واما ان تكون هذه الغزاة فى غير هذه السنة وقد قرأت فى ديوان ابن منير وقال يمدحه و يهنيه بالعود من غزاة حارم

ما فوق شأوك فى العلى مزداد ❋ فعلام يقلق عزمك الاجهاد
همم ضربن على السماء سرادقا ❋ فالشهب اطناب لها وعماد
أنت الذى خطبت له حساده ❋ والفضل ما اعترفت به الحساد
قام الدليل وسلم الخصم الیلند ❋ دوانجلى للآثر الاسناد
زهرت لدولتك البلاد فروحها ❋ ارج المهب ودوحها مياد
أحيا ربيع العدل ميت ربوعها ❋ فالبرض نجم والهشيم مراد
فالعيش الا فى جنابك ميتة ❋ والنوم الا فى حماك سهاد
واذا العدى زرعوا النفاق واحصدوا ❋ كيدا فعزمك ناقض حصاد
بالمقربات كأن فوق متونها ❋ جن الملا وكأنها أطواد
تدا ئى ومن وحى الكماة صفورها ❋ فالزجر قيد والندى قياد
سحب اذا سحبت بأرض ذيلها ❋ فالحزن سهل والهضاب وهاد
يهدى النواظر فى دجنة نقعها ❋ بدر بسرجك نير وقاد
ألبست دين محمد يانوره ❋ عزا له فوق السها إساد
مازلت تسمكه بمياد القنا ❋ حتى تثقف عوده المياد
لم يبق مذ أرهفت عزمك دونه ❋ عدد يراع به ولا استعداد
ان المنابر لوتطيق تكلما ❋ حمدتك عن خطبائها الاعواد
ولئن جت منك الاعادى مهلة ❋ فلهم الى المرعى الوبى معاد
ولكم لكم فى أرضهم من مشهد ❋ قامت به لظبا كم الاشهاد
ملق باطراف الفرنجة كلكلا ❋ طرفاه ضرب صادق وجلاد
حاموا فلما عاينوا حوض الردى ❋ حاموا برائش كيدهم أوكادوا
ورجا البرنس وقد تبرنس ذلة ❋ حرما بحارم والمصاد مصاد
ضجت ثعاليه فأخرس جرسها ❋ بيض تناسب فى الحديد حداد
وسواء ضربت بهن وبالقنا ❋ من دون ملة أحمد الاسداد
يركزن فى حلب ومن افنانها ❋ تجنى فواكهه أمنها بغداد
يامن اذا عصفت زعازع بأسه ❋ خمدت جحيم الشرك فهى رماد
عجبا لقوم حاولوك وحاولوا ❋ عودا فواتاهم اليه مراد
ورأوا لواء النصر فوقك خافقا ❋ فأقام منهم فى الضلوع فؤاد
من منكر ان ينسف السيل الربا ❋ وأبوه ذاك العارض المداد
أوان يبيد الشمس كاسفة السنا ❋ نار لها ذاك الشهاب زناد

لا ينفع الآباء ما سمكوا من الـــعلياء حتى ترفع الاولاد
ملك يقيد خوفه ورجاؤه * ولقلما تتظافر الاضداد

وقال يهنيه بالنصر يوم حارم قصيدة أولها (للملك ما تشاء من الدوام) يقول فيها

حظيت من المعالي بالمعاني * ولاذ الناس بعدك بالاسامي
عزيز المنتمى عالي المراقي * بعيد المرتمى غالي المسامي
فما أحد الى العلياء يدلي * بمجدك القسيمي القسامي
أبوك المعتلي قمم الاعادي * اذا استعرت مذامرة القمام
زكا عرق العراق وقد تكنى * به وأطال من شمم الشآم
وجدك جدّ حتى قال قوم * على الفلك ابتنى عمد الخيام
فخرت ففت أباء عظاما * اذا فخر المنافر بالعظام
وقفنا والنواظر مسجدات * وروح العنزازي الختام
أساطر كالزبور مفصلات * كأنا من صلاة في نظام
لدى ملك سجاياه سجال * تعاقب بين عفو وانتقام
كريم أكثرت يده أيادي الـــعفاة وقللت عدد الكرام
فأهللنا السالفتي هلال * وكفرنا الضا حكتي حسام
ذهلنا والسماط تخال سمطا * وقد سجد المقاول للسلام
هل الدست استقل بليث غاب * أم الفلك ارتدى بدر التمام
يطـــر به الى العلياء نفس * غروب عن ملاءمة الملام
وخير سماعه ضرب مدام * اذا طرب الملوك الى المدام
سقى الله العوامل من جبال * سعفن النفع عن نقع الاوام
فكم انتجت من أمل عقيم * بها وحسمت من داء عقام
بآبب والرعال كأن ثولا * تطاوح تحت عير من ايام
مقام كنت قطب رحاه أرحى * مقام بين زمزم والمقام
رميتهم بارعن مرجحنّ * ابارهم وكنت أبرّ رام
وقت وقد تناعس كل راع * وقام وقد تقاعس كل حام
فايدى الخيل تذرع بحر لج * من الدم من يد التثخين طام
أحلت الدين فيه وكان هما * عزيز القوم معتدل القوام
وفى شجراء حارم شاجرتهم * سواهم كالسهام بكالسهام
فلو قد مثل الاسلام شخصا * لرشف ما وطئت من السلام
فاكذب مدعين هفوا وغرّوا * بان الارض تخلو من همام
أولى الابصار كم هذا التعاشي * عن للنور المبين بل التعامي
عن القمر الذي يجلو وظل الـــعواصم في ضيا الليل التهامي
هو المهدى لا من ضل فيه * كثير واستخف سوى هشام
وقائم عصرنا لا ما يمني * به من صوغ أضغاث المنام
بنور الدين أنشر كل حق * أطيل ثواؤه تحت الرجام
وطالت قبة الاسلام حتى استوت بين الفوارس والنعام

تطابق لاسمه لفظ ومعنى ❁ أحلاه الطباق على الانام
جرى قدّامه ابن سبكتكين ❁ وقبل الوبل هينمة الرهام
وكان من النجوم بحيث تومى ❁ اليه من عنايات التسامى
وجئت فصار أشمخ مابناه ❁ لماشيدت الطأمن رغام
أطاعك اذ أطعت الله جدّ ❁ ركبت به الزمان بلا زمام
ألا يار بما اتفق الاسامى ❁ وفاضل بينها درج التسامى
جنى شرفا من استغواه حتف ❁ اليك وكم حياة من حمام
ترشفك الكماة وأنت موت ❁ كانك من طعان فى طعام

﴿فصل﴾ قال الرئيس أبو يعلى توجه نور الدين الى ناحية حلب فى بعض عسكره فى الرابع والعشرين من صفر عند انتهاء خبر الفرنج اليه بعيثهم فى اعمال حلب وافسادهم وصادفه فى طريقه المبشر بظفر عسكره الحلبى بالافرنج المفسدين على حارم وقتل جماعة منهم وأسرهم ووصل مع المبشر عدّة وافرة من رؤس الافرنج المذكورين وطيف بها فى دمشق قال وعاد نور الدين الى دمشق فى بعض أيام رمضان سالما بعد تهذيب حلب واعمالها وتفقد أحوالها واستقرّت الموادعة بينه وبين ولد السلطان مسعود صاحب قونية وزال ما كان حدث بينهما وفى شوّال تقررت الموادعة والمهادنة بينه وبين ملك الافرنج مدّة سنة كاملة أوّلها شعبان وان المقاطعة المحمولة اليهم من دمشق ثمانية ألف دينار صورية وكتبت المواصفة بذلك بعد تأكيدها بالايمان والمواثيق المشدّدة قال وفى العشر الآخر من ذى الحجة غدر الفرنج ونقضوا ما كان استقرّ من الموادعة والمهادنة بحكم وصول عدّة وكفرة من الفرنج فى البحر وقوّة شوكتهم بهم ونهضوا الى ناحية الشعراء المجاورة لبانياس وقد اجتمع فيهامن جشارات خيول العسكرية والرعية وعوامل فلاحى الضياع ومواشى الحلابين والعرب والفلاحين الشئ الكثير الذى لايحصى فيذكر للحاجة الى الرعى بها والسكون الى الهدنة المستقرّة ووقع للندو بين بحفظها تقصير فانتهزوا الفرصة واستاقوا جميع ما وجدوه وأفقروا أهله منه مع من أسروه من تركمان وغيرهم وعادوا غانمين ظافرين آمنين والله عادل فى حكمه يتولى المكافأة لهم والادالة منهم وقد فعل سبحانه ذلك على ماسيأتى فى حوادث السنة الآتية وفيها توفى القاضى أبو الفتح محمود بن اسماعيل بن قادوس كاتب الانشاء بالحضرة المصرية وأصله من دمياط ذكره العماد الكاتب فى الخريدة وأثنى عليه ومن شعره فى رجل كان يكثر التكبير فى آخر الصلاة

وفاتر النية عنينها ❁ مع كثرة الرعدة والهمزه
مكبر سبعين فى مرة ❁ كأنه صلى على حمزه

وله فى وصف كتاب

مداده فى الطرس لما بدا ❁ قبله الصب ومن يزهد
كأنما قد حل فيه اللما ❁ أوذاب فيه الحجر الاسود

وبلغنى ان القاضى الفاضل كان يعظمه كثيرا ويسميه ذا البلاغتين وهو أحد من اشتغل الفاضل عليه وكان لايتمكن من اقتباس فوائده غالبا الافى ركوبه من القصر الى منزله بمصر ومن منزله الى القصر فيسايره الفاضل ويجاريه فى فنون الكتابة والآداب والشعر قال وفيها فى يوم الثلاثاء الثالث من ربيع الاوّل من هذه السنة توفى الفقيه الزاهد أبو البيان نبأ بن محمد المعروف بابن الحورانى وكان حسن الطريقة مذ نشأ صبيا الى ان قضى متدينا نقيا عفيفا سخيا محبا للعلم والأدب والمطالعة للغة العرب وكان له عند خروج سريره لقبره فى مقابر الباب الصغير المجاورة لقبور الصحابة من الشهداء رضى الله عنهم يوم مشهود من كثرة المتأسفين له والمثنين عليه قلت وفى هذه السنة والتى بعدها كثرت الزلازل بالشام قال أبو يعلى فى ليلة الثانى والعشرين من ربيع الاوّل وافت زلزلة هائلة وجاءت قبلها وبعدها مثلها فى النهار وفى الليل ثم جاء بعد ذلك ثلاث دونهن بحيث أحصين ست مرات وفى ليلة الخامس والعشرين منه جاءت زلزلة ارتاع الناس منها فى أوّل النهار وآخره وتواصلت الاخبار من ناحية حلب وحماة بانهدام مواضع

كثيرة وانهدام برج من أبراج افاميه بهذه الزلازل المباركة وذكران الذى أحصى عدده منها تقدير الاربعين وما عرف مثل ذلك فى السنين الماضية والاعصار الخالية وفى التاسع والعشرين من الشهر بعينه وافت زلزلة آخر النهار و بالليل ثانية فى آخره وفى أوّل شهر رمضان زلزلة مروعة وثانية وثالثة وفى ثالث رمضان ثلاث زلازل وأخرى وقت الظهر وأخرى هائلة أيقظت النيام وروّعت القلوب انتصاف الليل وفى ليلة نصف رمضان زلزلة هائلة أعظم مما سبق وعند الصباح أخرى وفى الليلة التى يليها زلزلتان أوّلها وآخرها وفى اليوم الذى بعد يومها وفى ليلة الثالث والعشرين زلزلة مزعجة وفى ثانى شوّال زلزلة أعظم مما تقدم وفى سابعه وسادس عشره وفى اليوم الذى جاء بعده أربع زلازل وليلة الثانى والعشرين منه ودفع الله تعالى عن دمشق وضواحيها ماخاف أهلها من توالى ذلك وتتابعه برأفته بهم ورحمته لهم فله الحمد والشكر لكن وردت الاخبار من ناحية حلب بكثرة ذلك فيها وانهدام مساكنها وأما شيزر فان الكثير من مساكنها انهدم على سكانه بحيث قتل منهم العدد الكثير وأما كفرطاب فهرب أهلها منها خوفا على أرواحهم وأما حماه فكانت كذلك وأما باقى الاعمال الشامية فما عرف ماحدث فيها من هذه القدرة الباهرة والله أعلم ﴿ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة﴾ ففى ليلة تاسع عشر صفر وافت زلزلة عظيمة وتلاها أخرى وكذا فى ليلة العشرين واليوم بعدها وتواصلت الاخبار من الشام بعظيم تأثير هذه الزلازل وفى ليلة الخامس والعشرين من جمادى الاولى وافت اربع زلازل وضج الناس بالتهليل والتسبيح والتقديس وفى ليلة رابع جمادى الآخرة وافت زلزلتان وترادفت الاخبار من ناحية الشمال بأن هذه الزلازل أثرت فى حلب تأثيرا أزعج أهلها وأقلقهم وكذا فى حمص وهدمت مواضع فيها وفى حماه وكفرطاب وافامية وهدمت ما كان بنى من مهدوم الزلازل وحكى ان تيما اثرت فيها هذه الزلازل تأثيرا مهولا وفى رابع رجب نهارا وافت بدمشق زلزلة عظيمة لم ير مثلها فيما تقدّم ودامت رجفاتها حتى خاف الناس على أنفسهم ومنازلهم وهربوا من الدور والسقائف وانزعجوا وأثرت فى مواضع كثيرة ورمت من فص الجامع الشئ الكثير الذى يعجز عن اعادته ثم وافت عقيبها زلزلة فى الحال ثم سكنتا بقدرة من حركهما ثم تبع ذلك فى أوّل ليلة اليوم المذكور زلزلة وفى وسطه زلزلة وفى آخره زلزلة وفى ليلة الجمعة ثامن رجب زلزلة مهولة أزعجت الناس وتلاها فى النصف منها ثانية وعند انبلاج الصبح ثالثة وكذلك فى ليلة السبت وليلة الاحد وليلة الاثنين وتتابعت بعد ذلك بما يطول به الشرح ووردت الاخبار من ناحية الشمال بما يسوء سماعه ويرعب النفوس ذكره بحيث انهدمت حماه وقلعتها وسائر دورها ومنازلها على أهلها من الشيوخ والشبان والاطفال والنسوان وهم العدد الكثير والجم الغفير بحيث لم يسلم منهم الا القليل اليسير وأما شيزر فان ربضها سلم الا ما كان خرب أوّلا وأما حصنها المشهور فانه انهدم على واليها تاج الدولة بن أبى العساكر بن منقذ ومن تبعه الا اليسير ممن كان خارجا وأما حمص فان أهلها كانوا قد اختلفوا منها الى ظاهرها فسلموا وتلفت مساكنهم وتلفت قلعتها وأما حلب فهدمت بعض دورها وخرج أهلها منها الى ظاهر البلد وكفرطاب وافامية وما والاها ودنا منها وبعد عنها من الحصون والمعاقل الى جبلة وجبيل وأتلفت سلمية وما اتصل بها الى ناحية الرحبة وما جاورها ولولم يدرك العباد والبلاد رحمة الله تعالى ولطفه ورأفته لكان الخطب أفظع وقد نظم فى ذلك من قال

روّعتنا زلازل حادثات ❊ بقضاء قضاه رب السماء
هدمت حصن شيزر وحماة ❊ أهلكت أهله بسوء القضاء
وبلادا كثيرة وحصونا ❊ وثغورا موثقات البناء
واذا مارنت عيون اليها ❊ أجرت الدمع عندها بالدماء
واذا ماقضى من الله أمر ❊ سابق فى عباده بالمضاء
حار قلب اللبيب فيه ومن كا ❊ ن له فطنة وحسن ذكاء
وتراه مسبحا باكى العيـ ❊ ـن مروعا من سخطة و بلاء
جل ربى فى ملكه وتعالى ❊ عن مقال الجهال والسفهاء

قال

قال وأما أهل دمشق فلما وافتهم الزلزلة فى ليلة الاثنين التاسع والعشرين من رجب ارتاع الناس من هولها وأجفلوا من منازلهم والاماكن المسقفة الى الجامع والاماكن الخالية من البنيان خوفا على أنفسهم ووافت بعد ذلك أخرى ففتح البلد وخرج الناس الى ظاهره والبساتين والصحراء وأقاموا عدة ليال وأيام على الخوف والجزع يسبحون ويهللون ويرغبون الى خالقهم ورازقهم فى اللطف بهم والعفو عنهم قال وفى الرابع والعشرين من رمضان وافت دمشق زلزلة عظيمة تروعت الناس وأزعجتهم الموقع فى نفوسهم مما قد جرى على بلاد الشام من تتابع الزلازل فيها ووافت الاخبار من ناحية حلب بأن هذه الزلزلة جاءت فيها هائلة فقلقلت من دورها وجدرانها العدد الكثير وانها كانت بحماه أعظم مما كانت فى غيرها وانها هدمت ما كان عمر فيها من بيوت تلتجئ اليها وانها دامت فيها أياما كثيرة فى كل يوم عدة وافرة من الرجفات الهائلة يتبعها صيحات مختلفات توفى على أصوات الرعود القاصفة المزعجة فسبحان من له الحكم والامر وتلا ذلك ردفات متوالية أخف من غيرهن فلما كان ليلة السبت العاشر من شوال وافت زلزلة هائلة بعد صلاة العشاء الآخرة أزعجت وأقلقت وتلاها فى اثرها هزة خفيفة وكذا فى ليلة العاشر من ذى القعدة وفى غدها زلازل وليلة الثالث والعشرين والخامس والعشرين منه أيضا زلازل نفر الناس من هولها الى الجامع والاماكن المنكشفة وضجوا بالتكبير والتهليل والتسبيح والدعاء والتضرع الى الله تعالى وفى يوم الجمعة انسلاخ ذى القعدة وافت زلزلة رجفت لها الارض وانزعج لها الناس وقال ابن الاثير فى سنة اثنتين وخمسين كان بالشام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة متتابعة أخربت البلاد واهلكت العباد وكان أشدها بمدينة حماه وحصن شيزر فانهما خربا بالمرة وكذا ما جاورهما كحصن بارين والمعرة وغيرهما من البلاد والقرايا وهلك تحت الهدم من الخلق ما لا يحصيه الا الله تعالى وتهدمت الاسوار والدور والقلاع ولولا ان الله تعالى منّ على المسلمين بنور الدين جمع وحفظ البلاد والا كان دخلها الافرنج بغير حصار ولا قتال قال ولقد بلغنى من كثرة الهلكى ان بعض المعلمين بحماه ذكر انه فارق المكتب لمهم فجاءت الزلزلة فأخربت الدور وسقط المكتب على الصبيان جميعهم قال المعلم فلم يأت أحد يسأل عن صبى كان له فى المكتب قلت وقرأت فى ديوان الامير الفاضل مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ وقال فى الزلازل التى أهلكت كثيرا من أهل الشام وكان ابتداؤها فى شهر الله رجب سنة احدى وخمسين وخمسمائة وهلك بها من هلك من الخلق وكان نحوا من عشرة آلاف نسمة قال وكتب هذا المكتوب والزلازل الى الآن تتعاهد البلاد

غمنا عن الموت والمعاد وأصبحنا نظن اليقين احلاما
حركتنا هذى الزلازل أى * تيقظوا كم ينام من ناما

وقال أيضا

ايها الغافلون عن سكرة المو * ت واذ لا يسوغ فى الحلق ريق
كم الى كم هذا التشاغل والغفـ * ـلة حار السارى وضل الطريق
انما هزت الزلازل هذى الـ * ـارض بالغافلين كى يستفيقوا

وقال فى الزلازل أيضا وقد سكن الناس بعد الدور والنزهة فى أكواخ علوها بالاخشاب لئلا تهدمها الزلازل

يا أرحم الراحمين ارحم عبادك من * هذى الزلازل فهى الهلك والعطب
ماجت بهم أرضهم حتى كأنهم * ركاب بحر مع الانفاس يضطرب
فنصفهم هلكوا فيها ونصفهم * لمصرع السلف الماضين يرتقب
تعوضوا من مشيدات المنازل بالـ * ـاكواخ فهى قبور سقفها خشب
كأنها سفن قد أقبلت وهم * فيها فلا ملجأ منها ولا هرب

[illegible] أهله الذين هلكوا بالزلازل بحصن شيزر قصيدة منها

ما استدرج الموت قومى فى هلاكهم * ولا تخرمهم مثنى ووحدانا
فكنت اصبر عنهم صبر محتسب * وأحمد الخطب فيهم عز او هانا
واقتدى بالورى قبلى فكم فقدوا * أخا وكم فارقوا أهلا وجيرانا

لكن سقيت المنايا وسط جمعهم * رغا فخروا على الاذقان اذعانا
وفاجأتهم من الايام قارعة * سقتهم بكؤوس الموت ذيفانا
ماتوا جميعا كرجع الطرف وانقرضوا * هل ما ترى تارك للعين انسانا
اعزز على بهم من معشر صبروا * على الحفيظة ان ذو لوثة لانا
لم يترك الدهر لى من بعد فقدهم * قلبا أجشمه صبرا وسلوانا
فلو رأونى لقالوا مات أسعدنا * وعاش للهم والاحزان اشقانا
لم يترك الموت منهم من يخبرنى * عنهم فيوضح ما قالوه تبيانا
بادوا جميعا وما شادوا فواعجبا * للخطب أهلك عمارا وعمرانا
هذى قصورهم أمست قبورهم * كذاك كانوا بها من قبل سكانا
ويح الزلازل أفنت معشرى فاذا * ذكرتهم خلتنى فى القوم سكرانا
لا التقى الدهر من بعد الزلازل ما * حييت الا كسير القلب حيرانا
أخنت على معشرى الادنين فاصطلمت * منهم كهولا وشبانا وولدانا
لم يحمهم حصنهم منها ولا رهبت * بأسا تبادره الاقران ازمانا
ان اقفرت شيزر منهم فهم جعلوا * منيع اسوارها بيضا وخرصانا
هم حوها فلو شاهدتهم وهم * بها لشاهدت اسادا وخفانا
تراهم فى الورى أسدا ويوم ندى * غيثا مغيثا وفى الظلماء رهبانا
بنو أبى وبنو عمى دمى دمهم * وان أرونى مناواة وشنآنا
يطيب النفس عنهم انهم رحلوا * وخلفونى على الاثار عجلانا

وكتب اليه الصالح بن رزيك قصيدة يعزيه عن أهله منها

بابى شخصك الذى لا يغيب * عن عيانى فهو البعيد القريب
يا اخلاى بالشام ان غبتم فشوقى اليكم لا يغيب
غصبتنا الايام قربكم منا ولا بد ان ترد الغصوب
كره الشام أهله فهو محقوق بأن لا يقيم فيه لبيب
ان تجلت عنه الحروب قليلا * خلفتها زلازل وخطوب
رقصت ارضه عشية غنى الرعد فى الجو والكريم طروب
وتثنت حيطانه اذ أمالتها شمال بزمرها و جنوب
لا هبوب لنائم من أمانيه وللعاصفات فيها هبوب
وأرى البرق شامتا ضاحك السن وللجو بالغمام قطوب
ذكروا انه يذوب به السحب فما للصخور أيضا تذوب
أبذنب أصابها قدر الله فللارض كالانام ذنوب
ان ظنى والظن مثل سهام الرمى منها المخطى ومنها المصيب
ان هذا الآن غدت ساحة القد * س وما للاسلام فيها نصيب
منزل الوحى قبل بعث رسول الله فهو المحجوج والمحجوب
نزلت وسطه الخنازير والخمر وبارى الناقوس فيه الصليب
لو رآه المسيح لم يرض فعلا * ذكروا انه له منسوب
لهف نفسى على ديار من السكان أقوت فليس فيها مجيب
ان تخصيصكم بوائب مازا * لت لكم دون من سوا كم تنوب

أبعد الناس عن عبادة رب الناس قوم الاههم مصلوب
فاحتسب ما أصاب قومك مجد الدين واصبر فالحادثات ضروب
فكذاك القناة يكسر يوم الروع منها صدر وتبقى الكعوب

وقرأت فى ديوان العرقلة كان المولى صلاح الدين يوسف بن أيوب مع عبيد غلام المولى وكان عبيد هذا موصوفا بالثقل فى بيت بمدينة حماه يوم الزلزلة فوقعت المدينة بأسرها سوى ذلك البيت الذى هما فيه فقال العرقلة

قل لصلاح الدين رب الندى * بلغ عبيداً كل ما أمله
بثقله لما انضا جسمه * سلمك الله من الزلزله

وقرأت فى بعض كتب أبى الحسين الرازى عن شيوخه انه وقع بدمشق فى ذى القعدة سنة خمس وأربعين ومائتين زلازل عظيمة حكى عنها نحو مما مضى ذكره وأكثر نسأل الله تعالى تمام العافيه

(فصل) قال الرئيس أبو يعلى فى ثالث عشر ربيع الاول توجه نور الدين الى ناحية بعلبك لتفقد أحوالها وتقرير أمر المستحفظين لها وتواصلت الاخبار من ناحية حمص وحماه باغارة الفرنج الملاعين على تلك الاعمال وفى خامس عشر ربيع الاول ورد المبشر من العسكر المنصور برأس الماء بأن ناصر الدين أمير أميران لما انتهى اليه خبر الفرنج انهم قد انهضوا سرية وافرة العدد الى ناحية بانياس لتقويتها أسرع النهضة اليهم وعدتهم سبعمائة فارس سوى الرجالة فأدركهم قبل الوصول الى بانياس وقد خرج اليهم من كان فيها من حماتها فأوقع بهم وقد كان كمن لهم فى مواضع كمناً من شجعان الاتراك واندفع المسلمون بين أيديهم فى أول المجال وظهر عليهم الكمناء فأنزل الله نصره على المسلمين بحيث لم ينج منهم الا القليل وصاروا بأجمعهم بين قتيل وجريح ومسلوب وأسير وحصل فى أيدى المسلمين من خيولهم وسلاحهم وأموالهم وأسراهم ورؤس قتلاهم ما لا يحد كثرة ومحقت السيوف عامة رجالتهم من الافرنج ومسلمى جبل عاملة المضافين اليهم ووصلت الاسرى ورؤس القتلى والعدد الى دمشق وطيف بهم وقد اجتمع لمشاهدتهم الخلق وكان يوما مشهودا وأنفذ نور الدين الى بعلبك جماعة من أسرى المشركين فأمر بضرب أعناقهم صبرا قال وتبع هذا الفتح ورود البشرى الثانية من أسد الدين باجتماع العدد الكثير اليه من شجعان التركمان وانه قد ظفر من المشركين بسرية وافرة ظهرت فى معاقلهم من ناحية الشمال فانهزمت وتخطف التركمان منهم من ظفروا به قال ووصل أسد الدين الى بعلبك فى العسكر من مقدمى التركمان وابطالهم للجهاد وهم فى العدد الكثير والجم الغفير واجتمعوا بنور الدين وتقررت الحال على قصد بلاد المشركين لتدويخها والابتداء بالنزول على بانياس وقدم نور الدين دمشق فى اخراج آلات الحروب وتجهيزها الى العسكر بحيث يقيم أياما يسيرة ويتوجه وأمر بالنداء بدمشق فى الغزاة والمجاهدين فتبعه من الاحداث والمطوعة والفقهاء والصوفية والمتدينين خلق كثير وخرج يوم السبت انسلاخ شهر ربيع الاول وفى سابع ربيع الآخر عقيب نزول نور الدين على بانياس ومضايقته لها بالمجنيقات والحرب سقط بدمشق الطائر من العسكر المنصور بظاهر بانياس يتضمن كتابة الاعلام بورود المبشر من معسكر أسد الدين بناحية هونين فى التركمان والعرب بأن الافرنج خذلهم الله تعالى انهضوا سرية من أعيان مقدميهم وابطالهم تزيد على مائة فارس سوى أتباعهم لكبس المذكورين ظنا منهم بأنهم فى قل ولم يعلموا انهم فى ألوف فلما دنوا منهم وثبوا اليهم كالليوث الى فرائسها فأطبقوا عليهم بالقتل والاسر والسلب ولم يبق منهم الا اليسير ووصلت الاسرى ورؤس القتلى وعددهم من الخيول المنتخبة والطوارق والقنطاريات الى دمشق وطيف بهم فيه يوم الاثنين تالى اليوم المذكور قال وتلا هذه الموهبة المتجددة سقوط الطائر من المعسكر المحروس ببانياس فى يوم الثلاثاء تالى المذكور بذكر افتتاح مدينة بانياس بالسيف قهرا على مضى أربع ساعات من يوم الثلاثاء المذكور عند تناهى النقب واطلاق النار فيه وسقوط البرج المنقوب وهجوم الرجال فيه وبذل السيف فى قتل من فيه ونهب ما حواه وانهزام من سلم الى القلعة وانحصارهم بها وان أخذهم بمشيئة الله تعالى لا يبطئ والله يسهله ويعجله قال واتفق بعد ذلك ان الفرنج تجمعوا من معاقلهم عازمين على استنقاذ الهنفرى صاحب بانياس ومن معه من أصحابه المحصورين بقلعة بانياس وقد أشرفوا على الهلاك وبادروا بالغوا فى السؤال لنور الدين الامان ويسلمون ما فى أيديهم من القلعة وما حوته لينجوا سالمين فلم يجبهم الى ما سألوه ورغبوا فيه فلما وصل

ملك الافرنج فى جمعه من الفارس والراجل من ناحية الجبل على حين غفلة من العسكرين النازل على بانياس لحصارها والنازل على الطريق لمنع الواصل اليها اقتضت السياسة الاندفاع عنها بحيث وصلوا اليها واستخلصوا من كان فيها وحين شاهدوا ماعم بانياس من اخراب سورها ومنازل سكانها يئسوا من عمارتها بعد خرابها قال وفى تاسع جمادى الاولى سقطت الاطيار بالكتب من المعسكر النورى تتضمن الاعلام بأن الملك العادل نور الدين أعز الله نصره لما عرف ان معسكر الكفرة الافرنج على الملاحة بين طبرية وبانياس نهض فى عسكره المنصور من الاتراك والعرب وجد فى السير فلما شارفهم وهم غيارون وشاهدوا رايانه قد أظلتهم بادروا بلبس السلاح والركوب وافترقوا أربع فرق وحملوا على المسلمين فعند ذلك ترجل الملك العادل نور الدين فترجلت معه الابطال وارهقوهم بالسهام وخرصان الرماح حتى تزلزلت بهم الاقدام ودهمهم البوار والحمام فأنزل الله نصره على المسلمين وتمكنوا من فرسانهم قتلا وأسرا واستأصلت السيوف الرجالة وهم العدد الكثير فلم يفلت منهم غير عشرة نفر وقيل ان ملكهم لعنه الله فيهم وقيل انه فى جملة القتلى ولم يعرف له خبر ولم يفقد من عسكر الاسلام سوى رجلين أحدهما من الابطال المذكورين وقتل عند حضور أجله الى رحمة الله والآخر غريب لا يعرف وكل منهما مضى شهيدا مثابا مأجورا رحمهما الله وقتل أربعة من شجعان الكفرة وامتلأت أيدى العساكر من خيولهم وعددهم وكراعهم واثاث سوادهم وحصلت كنيستهم فى يد الملك نور الدين بآلاتها المشهوره وكان فتحا مبينا ونصرا عزيزا ووصلت الاسرى ورؤس القتلى الى دمشق يوم الاحد تالى يوم الفتح وقد رتبوا على كل جمل فارسين من ابطالهم ومعهما راية من راياتهم منشوره وفيها من جلود رؤسهم بشعرها عدة والمقدمون منهم وولاة المعاقل والاعمال كل واحد منهم على فرس وعليه الزردية والخوذة وفى يده راية والرجالة كل ثلاثة وأربعة وأقل وأكثر فى حبل وخرج من أهل البلد الخلق الذى لا يحصى لهم عدد من الشيوخ والشبان والنساء والصبيان لما يشاهدونه مما منح الله تعالى ذكره كافة المسلمين من هذا النصر المبين وأكثروا الشكر لله تعالى والدعاء لنور الدين المحامى عنهم المرامى دونهم والثناء على مكارمه والوصف لمحاسنه ونظم فى ذلك أبيات فى هذا المعنى

مارأينا فيما تقدم يوما * كامل الحسن غاية فى البهاء
مثل يوم الفرنج حين علتهم * ذلة الاسر والبلا والفناء
وبراياتهم على العيس زفوا * بين ذل وحسرة وعناء
بعد عزلهم وهيبة ذكر * فى مصاف الحروب والهيجاء
هكذا هكذا اهلاك الاعادى * عند شن الاغارة الشعواء
شؤم أخذ الجشار كان وبالا * عمهم فى صباحهم والمساء
نقضوا هدنة الصلاح بجهل * بعد تأكيدها بحسن الوفاء
فلقوا بغيهم عما كان منهم * من فساد بجهلهم واعتداء
لاحمى الله شملهم من شتات * بمواض تفوق حد المضاء
فجزاء الكفور قتل وأسر * وجزاء الشكور خير الجزاء
ولرب العباد حمد وشكر * دائم مع تواصل النعماء

قال وشرع نور الدين فى قصد أعمالهم لتملكها وتدويخها والله المعين والموفق وقال ابن أبى طى فى سنة اثنتين وخمسين اغارت الفرنج على بلد حمص وحماه وأفسدوا وأكثروا العيث واتصل ذلك بنور الدين فانهض اليهم عسكرا كثيفا فأوقع بهم وهزمهم الى أرض بانياس وخرج نور الدين حتى نزل على بانياس وحاصرها أشد حصار حتى افتتحها فى الثامن والعشرين من ربيع الاول وأخذ جميع ما كان للفرنج فيها وأنفذ الغنيمة والاسارى مع أسد الدين الى دمشق وأنفذ معه مقدار ألف رأس واتصل ذلك بالفرنج فأنهضت الى معارضة أسد الدين قطعة من خيالتها واتصل هذا بأسد الدين وقد همته الفرنج فلبس لامته وتقدم فى جماعة من مماليكه بين يدى العسكر وأمر الرجال بلقاء الفرنج وناجزهم الحرب فلم يتماسكوا بين يديه ورجعوا على أدبارهم وتبعهم مقدار فرسخين يقتل ويأسر وغنم منهم غنيمة حسنة وعاد الى

اصحابه ظافرا وتوجه فى وجهته مؤيدا

(فصل) قال الرئيس أبو يعلى وفى العشر الثانى من جمادى الآخرة تواصلت الاخبار بوصول ولد السلطان مسعود فى خلق كثير للنزول على انطاكية وأوجبت الصورة تقرير المهادنة بين نور الدين وملك الافرنج وتكررت المراسلات بينهما والاقتراحات والمشاجرات بحيث فسد الامر ولم يستقر على مصلحة ووصل نور الدين الى مقر عزه فى بعض عسكره وأقر باقيه ومقدميه مع العرب بازاء أعمال المشركين قال وفى ثالث رجب توجه نور الدين الى ناحية حلب واعمالها التجديد مشاهدتها وامعان النظر فى حمايتها عند ماعاث المشركون فيها وقربت عساكر الملك ابن مسعود منها قال بعد ذلك وقد تقدم من ذكر نور الدين ونهوضه فى عساكره من دمشق الى بلاد الشأم عند انتهاء الخبر اليه بتجمع أحزاب الفرنج خذلهم الله وقصدهم لها وطمعهم بحكم ماحدث من الزلازل والرجفات المتتابعة لها وماهدمت من الحصون والقلاع والمنازل فى اعمالها وثغورها لحمايتها والذب عنها وايناس من سلم من أهل حمص وشيزر وكفرطاب وحماه وغيرها بحيث اجتمع اليهم العدد الكثير والجم الغفير من رجال المعاقل والاعمال والتركمان وخيم بهم بازاء جمع الفرنج بالقرب من انطاكية وحصرهم بحيث لم يقدر فارس منهم على الاقدام على الفساد فلما مضت أيام من شهر رمضان عرض لنور الدين ابتداء مرض حاد فلما اشتد به وخاف منه على نفسه استدعى أخاه نصرة الدين أمير أميران وأسد الدين شيركوه وأعيان الامراء والمقدمين وأوصى اليهم بما اقتضاه رأيه واستصوبه وقرر معهم كون أخيه نصرة الدين القائم فى منصبه من بعده والسادلثلمة فقده لاشتهاره بالشهامة وشدة البأس يكون مقيما بحلب ويكون أسد الدين فى دمشق فى نيابة نصرة الدين واستحلف الجماعة على هذه القاعدة فلما تقررت اشتد به المرض فتوجه فى محفة الى حلب وحصل فى قلعتها وتوجه أسد الدين الى دمشق لحفظ اعمالها من فساد الافرنج وتواصلت الاراجيف بنور الدين فقلقت النفوس وانزعجت القلوب فتفرقت جموع المسلمين واضطربت الاعمال وطمع الفرنج فقصدوا مدينة شيزر وهجموها وحصلوا فيها فقتلوا وأسروا ونهبوا وتجمع من عدة جهات خلق كثير من رجال الاسماعيلية وغيرهم وظهروا عليهم فقتلوا منهم وأخرجوهم من شيزر واتفق وصول نصرة الدين الى حلب فأغلق والى القلعة مجد الدين فى وجهه الابواب وعصى عليه فثارت احداث حلب وقالوا هذا صاحبنا وملكنا بعد أخيه فزحفوا فى السلاح الى باب البلد وكسروا اغلاقه ودخل نصرة الدين فى أصحابه وحصل فى البلد وقامت الاحداث على والى القلعة باللوم والانكار والوعيد واقترحوا على نصرة الدين اقتراحات من جملتها اعادة رسمهم فى التأذين بحى على خير العمل محمد وعلى خير البشر فأجابهم الى مارغبوا فيه وأحسن القول لهم والوعد ونزل فى داره وأنفذ والى القلعة اليه والى الحلبيين يقول مولانا نور الدين حى فى نفسه وما كان الى ما فعل حاجة فقيل الذنب فى ذلك للوالى وصعد الى القلعة من شاهد نور الدين حيا يفهم مايقول ومايقال له فأنكر ما جرى وقال أنا أصفح للاحداث عن هذا الخطل ولا أؤاخذهم بالزلل وما طلبوا الاصلاح حال أخى وولى عهدى من بعدى وشاعت الاخبار وانتشرت البشائر فى الاقطار بعافيته فأنست القلوب بعد الاستيحاش وابتهجت النفوس بعد القلق والانزعاج وتزايدت العافية وصرفت الهمم الى مكاتبات المقدمين بالعود الى جهاد الملاعين وكان نصرة الدين قد ولى مدينة حران وما أضيف اليها وتوجه نحوها ولما تناصرت الاخبار بالبشائر الى أسد الدين بدمشق بعافية نور الدين واعتزامه على استدعاء العساكر الاسلامية للجهاد سارع بالنهوض من دمشق الى حلب ووصل اليها فى خيله فاجتمع بنور الدين فأكرم لقياه وشكر مسعاه وشرعوا فى حماية الاعمال من شر عصب الكفر والضلال قال ونظمت هذه الابيات فى هذا المعنى

لقد حسنت صفاتك يازمانى * وفزت بما رجوت من الامانى
فكم أصبحت مرتاعا لخوف * فبدلت المخافة بالامان
وجاءتنا أراجيف بملك * عظيم الشأن مسعود الزمان
فروعت القلوب من البرايا * وصار شجاعها مثل الجبان
وثارت فتنة تخشى أذاها * على الاسلام فى قاص ودان
ووافى بعد ذاك بشير صدق * بعافية المليك مع التهانى

فولى الخوف منهدم المبانى * وعاد الامن معمور المغانى

قال ابن أبى طى وفى هذه السنة كانت الزلزلة التى هدمت شيزر فخرج نور الدين وأخذها من بنى منقذ وسلمها الى مجد الدين بن الداية وسار الى سرمين لانه بلغه حركة الفرنج فاعترضه هنالك مرض أشفى منه فاحضر شيركوه وأوصاه بالعساكر وان يكون الامر بعده لاخيه نصرة الدين أمير أميران فسار أسد الدين الى دمشق وأقام ببرج الصفر خوفا ان يتحرك الفرنج الى جهة دمشق أو غيرها ولم يزل هنالك حتى تعافى نور الدين فعاد الى خدمته مهنئا له بالعافية وكان أخوه نصرة الدين قد حاصر قلعة حلب فى مدة مرض نور الدين فلما أفاق نور الدين من مرضه سيره الى حران وجعل ولى عهده أخاه قطب الدين صاحب الموصل قال وكان مجد الدين طامع فى الملك لنفسه فتحزم لامره وتقرب الى الناس وجعل له أصحاب أخبار وشحن الطرقات والسبل بالرجال بتفتيش الخارجين من حلب وغيرها والداخلين اليها قلت ولابن منير تهنئة لنور الدين بالعافية من مرض غير هذا

ياشمس لا كسف ولا تكدار * ولا خلت من نورك الانوار
البدر منقوص وأنت كامل * لك السرايا وله السرار
برؤك للاسلام من ادوائه * بر وفى اعدائه بوار
ما أنت الا السيف صد صدأ * عن متنه مضر به البتار
لو كان محمولا أذى عن منفس * حملته دونك الابصار
ولو فدت أرض سماء ساقت الا * ملوك فى فدائك الامصار
أنت غياث محلهم ان أجدبوا * وخيرهم ان ذكر الخيار
وفى سرير الملك منها ملك * لله فى سرائه اسرار
خير ملوك الارض جدا وابا * ان هزعطفى ماجد نجار
مدعلى الدين رواق دولة * تنازعت أسمارها السمار
علت بناه وحلت فى يده * فهى عليه السور والسوار
محمود المحمود عصر ملكه * فللعيا من مزنه اعتصار
يا نور دين أظلمت آفاقه * لولم تبلج هذه الاثار
لله أيامك ما تخططه * بالمسك من اسفارها الاسفار
سلت للاسلام ترعى سرحه * اذا دنا رعاته وجاروا
شكوت فالدنيا على سكانها * قرارة جانبها القرار
كادت تموت الارض من اشفاقها * لولا شفاء ردها تمار
زرت عليك الترك جيب نسب * يحسدها برنه نزار
لا عدمت منك الامانى ربها * معطى من الاقبال ما يختار
ما صح الدهر بان نبقى لنا * فكل جرح مسنا جبار

وله من قصيدة أخرى

لا تؤدى لانعم الله شكرا * بك يا أعظم البرية قدرا
روزعشر وافى لاقلاع ذا * جعل المنة المناة عشرا
أم مغناك ضامنا ان أيا * مك تفنى الاحقاب عصرا فعصرا
فى محل له السما كان سمك * وجدودها المجرة مجرى
أيها العادل المظفر لاقصت شبا الدهر من شباتك ظفرا
جعل الله ما استهل من الاشهر ينهل فى مغازيك نصرا
أبدا ينشر التهانى على سا * حتك الزهر فى المواسم نشرا

أنت أسرى الملوك نفسا وفلسا ❊ والى اسرهم من الطيف اسرى
ملك عنده المشارب تستمـــسرى واخلاف الجود تمرى فتفرى
فلك الله من مثمر بذر ❊ يصطفى صالحا ويحصد أجرا
عش لملك اصبحت فى الدست منه ❊ فوق كسرى عدلا وشعبا وكسرا
تفطر الطيبات للفطر فطرا ❊ وتم الاعداء فى النحر نحرا
يقتنى من كساك أنفس ملبو ❊ س ويقنيك منه أطول عمرا
أنت تملى ونحن ننظم ماتنـــثره الغر من مساعيك نثرا
صرف الله عنك عين زمان ❊ بك صارت بعد الاصابة عبرى
وتوالت لك الفتوح الى ان ❊ تملأ الخافقين نهيا وأمرا
كلما انهجت ملابس نعمى ❊ وتمليتهن جددت أخرى

وقال القيسرانى من قصيدة

أشرق البدر يا جبين الهلال ❊ خلاه لوجهك المتلالى
عن ليال حجبن عناسناها ❊ انما غيبة الهلال ليالى
لم يكن ما ألم يا نجم شكوى ❊ فتهنى لوافد الاقبال
لا ولا كان زائرا من سقام ❊ انما كان طائفا من خيال
وعكة أقلعت وأنت صحيح ❊ ويصح النسيم بالاعتلال
أو ما هذه السماء سرار الـــبدر فيها على طريق الكمال
نعمة الله لا يخص بها الخا ❊ لق الا من كان منه ببال
ولباس من المثوبة والغفـــران ألبست ضافى الاذيال
فهنيئا لك البقاء وان كا ❊ ن هناء يخص فيه المعالى
والتقى والندى ومعربة الخيـــل وبيض الظبى وسمر العوالى
والخلال التى اذا ما تحلت ❊ صدرت منك عن كريم الخلال
ان وقتك النفوس ماتتوقى ❊ فخقيق فدى الموالى الموالى
أو تحصنت فى شعار من التقـــوى فما زلت منه فى سربال
فشفى الله من أجل دوائـــيه صريح الدعاء والابتهال
ملكا أبدل المخافة بالامـــن وأضحى يعد فى الابدال
وهو تاج الملوك فالملك العا ❊ طل حال به على كل حال
واذا النيران غا با فنور الديـــن شمس لجرية الاصال
قد أرت وجهك العلى ما ريها ❊ وهى مرآة صالح الاعمال
وقضى الله ان نجمك فى الانجـــم سام وان جدك عال
كل يوم هذا المحيا محيى ❊ بالتهانى على يد الاقبال

(فصل) فى ذكر حصن شيزر وولاية بنى منقذ قال ابن الاثير وهو حصن قريب من حماه بينهما نحو من نصف نهار وهو من أمنع القلاع وأحصنها على حجر عال له طريق منقور فى طرف الجبل وقد قطع الطريق فى وسطه وجعل عليه جسر من خشب فاذا قطع ذلك الجسر تعذر الصعود اليه وكان لآل منقذ الكنانيين يتوارثونه من أيام صالح ابن مرداس الى ان انتهى الامر الى الامير أبى المرهف نصر بن على بن المقلد بن نصر بن منقذ بن نصر بن هاشم بعد أبيه أبى الحسن على فبقى به مدة طويلة الى ان مات بشيزر سنة احدى وتسعين وأربعمائة وكان شجاعا كريما صوا ما قواما فلما حضره الموت استخلف أخاه الامير ابا سلامة مرشد بن على وهو والد أسامة فقال والله لاوليته ولاخرجن

من الدنيا كماد خلتها وكان عالما بالقرآن والادب كثير الصلاح فولاها أخاه أبا العساكر سلطان بن علي وكان أصغر منه فاصطحبا أجل صحبة مدة من الزمان فولد أبو سلامة مرشد عدة أولاد ذكور فكبروا وسادوا منهم عز الدولة أبو الحسن علي ومؤيد الدولة أسامة بن مرشد وغيرهما ولم يولد لاخيه سلطان ولد ذكر الى ان كبر فجاءه أولاد فحسد أخاه على ذلك فكان كلما رأى صغر أولاده وكبر أولاد أخيه وسيادتهم ساءه ذلك وخافهم على أولاده وسعى المفسدون بينهما فغير وا كلا منهما على أخيه فكتب الامير سلطان الى أخيه شعرا يعاتبه على أشياء بلغته عنه فأجابه بأبيات جيدة في معناها وكاهم كان أديبا شاعرا فنها

ظلوم أبت في الظلم الا تماديا * وفي الصد والهجران الا تناهيا
شكت هجرنا في ذا الذنب ذنبها * فيا عجبا من ظالم جاء شاكيا
وطاوعت الواشين في وطالما * عصيت عذولا في هواها وواشيا
ومال بها تيه الجمال الى القلا * وهيهات ان أمسى لها الدهر قاليا
ولا ناسيا ما أودعت من عهودها * وان هي أبدت جفوة وتناسيا
ولما أتاني من قريضك جوهر * جمعت المعالي فيه لي والمعانيا
وكنت هجرت الشعر حينا لانه * تولى برغمي حين ولى شبابيا
وأين من الستين لفظ مفوق * اذا رمت أدنى القول منه عصانيا
وقلت أخي يرعى بني واسرتي * ويحفظ عهدي فيهم وذماميا
ويجزيهم مالم أكلفه فعله * لنفسي فقد أعددته من تراثيا
فمالك لما ان حنى الدهر صعدتي * وثلم مني صارما كان ماضيا
تنكرت حتى صار برك قسوة * وقربك مني جفوة وتنائيا
فاصبحت صفر الكف مما رجوته * كذا اليأس قد عفى سبيل رجائيا
على انني ماحلت عما عهدته * ولا غيرت هذي السنون ودادیا
فلا غرو وعند الحادثات فانني * أراك يميني والانام شماليا
تهن بها عذراء لو قرنت بها * نجوم سماء لم تعد دراريا
تحلت بدر من صفاتك زانها * كما زان منظوم اللآلى الغوانيا
وعش باقيا للجود ما كان واهنا * مشيدا من الاحسان ما كان واهيا

قال وكان الامر فيه في حياة الامير بعض الستر فلما مات سنة احدى وثلاثين وخمسمائة قلب اخوه لاولاده ظهر المجن وباداهم بما يسوءهم وتمادت الايام بينهم الى ان قوى عليهم فاخرجهم من شيزر وكان أعظم الاسباب في اخراجهم ما حدثت به عن مؤيد الدولة اسامة بن مرشد قال كنت من الشجاعة والاقدام على ما علمه الناس فبينا أنا بشيزر واذا قد أتاني انسان اخبرني ان بدجلة يغار بها أسد ضاريا فركبت فرسي وأخذت سيفي وسرت اليه لاقتله ولم أعلم أحدا من الناس لئلا امنع من ذلك فلما قربت من الاسد نزلت عن فرسي وربطته ومشيت نحوه فلما رآني قصدني ووثب فضربته بالسيف على رأسه فانفلق ثم اجهزت عليه وأخذت رأسه في مخلاة فرسي وعدت الى شيزر ودخلت على والدتي وألقيت الرأس بين يديها وحدثتها الحال فقالت يابني تجهز للخروج من شيزر فوالله لا يمكنك عمك من المقام ولا أحدا من اخوتك وأنتم على هذه الحال من الاقدام والجرأة فلما كان الغد أمر عمي باخراجنا من عنده والزمنا به الزاما لا مهلة فيه فتفرقنا في البلاد فقصدوا الملك العادل نور الدين وشكوا اليه ما لقوا من عمهم فلم يمكنه قصده ولا الاخذ بثارهم واعادتهم الى أوطانهم لاشتغاله بجهاد الفرنج ولخوفه من ان تسلم شيزر الى الفرنج وبقي في نفسه وتوفي الامير سلطان وولي بعده أولاده فبلغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنج فاشتد ما في نفسه وهو ينتظر الفرصة فلما خربت القلعة بالزلزلة ولم يسلم منها أحد كان بالحصن فبادر اليها وملكها واضافها الى بلاده وعمر ما هدم من اسوارها وأعادها كأن لم تخرب وكذلك أيضا فعل بمدينة حماه وكل

ماخرب

ماخرب بالشام بهذه الزلزلة فعادت البلاد كاحسن ما كانت قلت وسيأتى ذكر اسامة بن مرشد فى أخبار سنة اثنتين وسبعين وهى السنة التى قدم فيها دمشق من بلاد الشرق وذلك انه لما خرج من شيزر استوطن دمشق ثم فارقها الى الديار المصرية وكتب الى معين الدين انر اتابك صاحب دمشق يعاتبه فى أسباب المفارقة قصيدة أولها

ولوا فلما رجونا عدلهم ظلموا ✻ فليتهم حكموا فينا بما علموا
ما مرّ يوما بفكرى ما يريبهم ✻ ولا سعت بى الى ماساءهم قدم
ولا اضعت لهم عهدا ولا أطلعت ✻ على ودائعهم فى صدرى التهم
فليت شعرى بم استوجبت هجرهم ✻ ملوا فصدّهم عن وصلى السأم
حفظت ماضيعوا اغضيت حين جنوا ✻ وفيت اذ غدروا واصلت اذ صرموا
حرمت ما كنت أرجو من ودادهم ✻ ما الرزق الا الذى تجرى به القسم
وبعد لو قيل لى ماذا تحب وما ✻ تختار من زينة الدنيا لقلت هم
لهم محال الكرى من مقلتىّ ومن ✻ قلبى محل المنى جاروا أو احترموا
تبدّلوا بى ولا ابغى بهم بدلا ✻ حسبى هم انصفوا فى الحكم أو ظلموا
بلغ أميرى معين الدين مالكة ✻ من نازح الدار لكن ودّه أمم
وقل له أنت خير الترك فضلك الا ✻ عياء والدين والاقدام والكرم
هل لا انفت حياء أو محافظة ✻ من فعل ما انكرته العرب والعجم
اسلمتنا وسيوف الهند مغمدة ✻ ولم يروّ سنان السمهرى دم
وكنت احسب من والاك فى حرم ✻ لا يعتريه به شيب ولا هرم
وما طمان بأولى من اسامة بالـ ✻ ـوفاء لكن جرى بالكائن القلم
هبنا جنينا ذنوبا لا يكفرها ✻ عذر فما ذا جنى الاطفال والحرم
القيتهم فى رضى الافرنج متبعا ✻ رضى عدى يسخط الرحمن فعلهم
جزيهم مثل تجريبى لخبرهم ✻ فللرجال اذا ما جربوا قيم

وهى طويلة وطمان المذكور خادم تركى كان لاتابك ملك الامراء زنكى بن اق سنقر هرب من خدمته الى دمشق فطلبه ولج فيه فاشتمل عليه معين الدين للجنسية وجاه فلما لج فيه سيره للعرب وقام له بما يحتاج الى ان ردّه لخدمته بدمشق وبقى اسامة بمصر الى ان خرج منها مع عباس كما سبق ذكره وأسر الفرنج اخاه نجم الدولة محمد بن مرشد وطلب من ابن عمه ناصر الدين محمد بن سلطان صاحب شيزر الاعانة فى فكاكه فلم يفعل قال وادّخر الله سبحانه اجر خلاصه وحسن ذكره للملك العادل نور الدين رحمه الله فوهبه فارسا من مقدمى الداوية يقال له المشطوب قد بذل للافرنج فيه عشرة آلاف دينار فاستخلص به أخاه من الاسر وبلغ اسامة ان القاضى كمال الدين بن الشهرزورى أنشد نور الدين

ملك بنى منقذ تولى ✻ وكان فوق السماك سمكه
فاعتبروا وانظروا وقولوا ✻ سبحان من لا يزول ملكه

والمعروف ملك بنى برمك فغيره المنشد لما تمثل به فى غرضه فاجازها اسامة بهذه الابيات

وكل ملك الى زوال ✻ لا يعترى ذا اليقين شكه
ان لم يزل بانتقال حال ✻ ازال ذا الملك عنه هلكه
والله رب العباد باق ✻ وهالك نده وشركه
فقل لمن يظلم البرايا ✻ غرك امهاله وتركه
تنسى ذنوبا عليك تحصى ✻ يحصرها نقده وحكه
كم ناسك نسكه رياء ✻ اوبقه فى المعاد نسكه

فاحذر فما يختفى عليه * من عبده صدقه وافكه

وما أحسن ما قال اسامة فى كبره

مع الثمانين عاث الضعف فى جلدى * وساءنى ضعف رجلى واضطراب يدى
اذا كتبت فخطى خط مضطرب * كخط مرتعش الكفين مرتعد
فاعجب لضعف يدى عن حملها قلما * من بعد حطم القنا فى لبة الاسد
وان مشيت وفى كفى العصى ثقلت * رجلى كانى أخوض الوحل فى الجلد
فقل لمن يتمنى طول مدته * هذى عواقب طول العمر والمدد

(فصل) فى بواقى حوادث سنة اثنتين وخمسين قال الرئيس ابو يعلى تناصرت الاخبار بظهور امير المؤمنين المقتفى على عسكر السلطان المخالف لامره ومن انضم اليه من عسكر الموصل وغيره بحيث قتل منهم العدد الكثير ورحلوا عن بغداد مفرقين مفلولين خاسرين بعد المضايقة والتناهى فى المحاصرة والمصابرة قال و وردت الاخبار فى أوائل رجب بوفاة السلطان غياث الدين ابى الحارث سنجر بن ابى الفتح بن الب ارسلان سلطان خراسان عقيب خلاصه من الشدة التى وقع فيها والاسر الذى حصل فيه وكان يحب العدل والانصاف للرعايا وحسن السيرة جميل الفعل وقد علت سنه وطال عمره وكان قد ورد كتابه فى اواخر صفر من هذه السنة الى نور الدين بالتشوق اليه والاحماد لخلاله وما ينتهى اليه من جميل افعاله واعلامه ما من الله عليه به من خلاصه من الشدة التى وقع فيها والاسر الذى بلى به فى ايدى الاعداء الكفرة من ملوك التركمان بحيلة دبرها وسياسة احكمها وقررها بحيث عاد الى منصبه من السلطنة المشهورة واجتماع العساكر المتفرقة عنه اليه قال وفيها فى شهر رمضان ورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الشيخ مخلص الدين ابى البركات عبد القاهر بن ابى جرادة الحلبى وهو الامين على خزائن مال نور الدين وكان كاتبا بليغا حسن البلاغة نظما ونثرا مستحسن الفنون من التذهيب البديع وحسن الخط المحرر على الاصول القديمة المستظرفة مع صفاء الذهن وتوقد الفطنة والذكاء وقال وفيها رابع عشر شوال ورد الخبر من ناحية بصرى بان واليها فخر الدين سرخاك قتل غيلة بموافقة من اعيان خاصته وكان فيه افراط فى التحرز واستعمال التيقظ ولكن القضاء لا يغالب ولا يدافع قال وفيها فى اوائل ذى القعدة ورد الخبر من حمص بوفاة واليها الامير الملقب بصلاح الدين وكان فى ايام شبيبته قد حظى فى خدمة عماد الدين زنكى وتقدم عنده بالمناصحة وسداد التدبير وحسن السفارة وصواب الرأى ولما علت سنه ضعف عن ركوب الخيل والجأته الضرورة الى الحمل فى المحفة لتقرير الاحوال والنظر فى الاعمال ولم ينقص من حسه وفهمه ما ينكر عليه الى حين وفاته وخلفه من بعده أولاده فى منصبه وولايته قال وورد الى دمشق امام من أئمة فقهاء بلخ فى عنفوان شبابه وغضارة عوده ما رأيت أفصح من لسانه ببلاغتيه العربية والفارسية والاسراع فى جوابه ببراعته ولا اطيش منه قلما فى كتابته ابو الحياة محمد بن أبى القاسم بن عمر السلمى و وعظ فى جامع دمشق عدة ايام والناس يستحسنون وعظه ويستظرفون فنه وسلاطة لسانه وسرعة جوابه وحدة خاطره وصفاء حسه قال ابن الاثير وفيها فى ذى الحجة توفى الامير عز الدين ابى بكر الدبيسى صاحب جزيرة ابن عمر وكان من اكابر الامراء يأخذ نفسه مأخذ الملوك وكان عاقلا حازما ذا رأى وكيد ومكر وملك الجزيرة قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل اخو نور الدين

(ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة) قال الرئيس ابو يعلى فى أوائل المحرم تناصرت الاخبار من ناحية الفرنج المقيمين بالشام خذلهم الله تعالى بمضايقتهم لحصن حارم ومواظبتهم على رميه بحجارة المجانيق الى أن ضعف وملك بالسيف وتزايد طمعهم فى شن الغارات فى الاعمال الشامية واطلاق الايدى فى العيث والفساد فى معاقلها وضياعها بحكم تفرق العساكر الاسلامية والخلف الواقع بينهم باشتغال نور الدين بعقابيل المرض العارض له ولله المشيئة التى لا تدافع والاقضية التى لا تمانع وقال وفى صفر ورد الخبر والمبشر بنزول نور الدين من حلب للتوجه الى دمشق واتفق للكفرة الملاعين تواتر الطمع فى شن الغارات على اعمال حوران والاقليم واطلاق ايدى الفساد والعيث والاحراق والاخراب فى الضياع والنهب والسبى والاسر وقصد داريا والنزول عليها فى انسلاخ صفر واحراق منازلها

وجوامعها والتناهى فى اخرابها وظهر اليهم العسكرية والاحداث وهموا بقصدهم والاسراع الى لقائهم وكفهم فنعوا من ذلك بعد ان قربوا منهم وحين شاهد الكفار خذلهم الله تعالى كثرة العدد الظاهر اليهم رحلوا فى آخر النهار المذكور الى ناحية الاقليم ووصل نور الدين الى دمشق وحصل فى قلعته سادس ربيع الاول سالما فى نفسه وجملته ولقى بأحسن زى وترتيب وتجمل واستبشر العالم بقدمه المسعود وابتهجوا وبالغوا فى شكر الله تعالى على سلامته وعافيته والدعاء له بدوام أيامه وشرع فى تدبير أمر الاجناد والتأهب للجهاد قال وفى اوائل ربيع الاول ورد الخبر من ناحية مصر بخروج فريق وافر من عسكرها الى غزة وعسقلان واغاروا على اعمالها وخرج اليهم من كان بها من الفرنج الملاعين فاظهر الله تعالى المسلمين عليهم قتلا واسرا بحيث لم يفلت منهم الا اليسير وغنموا ما ظفروا به وعادوا سالمين ظافرين وقيل ان مقدم الغزاة فى البحر ظفر بعدة من مراكب المشركين وهى مشحونة بالفرنج فقتل واسر منهم العدد الكثير وحاز من اموالهم وعددهم واثاثهم ما لا يكاد يحصى وعاد ظافرا غانما قلت وارسل الى مؤيد الدولة اسامه بن منقذ من مصر وزيرها الملك الصالح ابو الغارات طلائع بن رزيك قصيدة يشرح فيها حال هذه الغزاة ويحرض فيها نور الدين على قتال المشركين ويذكره بما من الله تعالى عليه به من العافية والسلامة من تلك المرضة المقدم ذكرها وكان كثيرا ما يكاتبه طالبا منه اعلام نور الدين بالغزاة لحثه عليها واول هذه القصيدة

الا هكذا فى الله تمضى العزائم * وتنضى لدى الحرب السيوف الصوارم
وتستنزل الاعداء من طول عزهم * وليس سوى سمر الرماح سلالم
وتغزى جيوش الكفر فى عقر دارها * ويوطى حماها والانوف رواغم
ويوفى الكرام الناذرون بنذرهم * وان بذلت فيها النفوس الكرائم
نذرنا مسير الجيش فى صفر فما انـ * ـثنى نصفه حتى انثنى وهو غانم
بعثناه من مصر الى الشام قاطعا * مفاوز خد العيش فيهن دائم
فما هاله بعد الديار ولا ثنى * عزيمته جهد الظما والسمائم
يهجر والعصفور فى قعر وكره * ويسرى الى الاعداء والليل نائم
يبارى خيولا ما تزال كأنها * اذا ما هى انقضت نسور قشاعم
يسير بها ضرغام فى كل مارق * وما يصحب الضرغام الا الضراغم
ورفقته عين الزمان وحاتم * ويحيى وان لاقى المنية حاتم
وواجههم جمع الفرنج بجملة * يهون على الشجعان فيها الهزائم
فلقوهم زرق الاسنة وانطووا * عليهم فلم يرجع من الكفر ناجم
وما زالت الحرب العوان أشدها * اذا ما تلاقى العسكر المتضاجم
يشبههم من لاح جمعهم له * بلجة بحر موجها متلاطم
وعادوا الى حز السيوف فقطعت * رؤس وحزت للفرنج غلاصم
فلم ينج منهم يوم ذاك مخبر * ولا قيل هذا وحده اليوم سالم
نقتلهم بالرأى طورا وتارة * تدوسهم منا المذاكى الصلادم
فقولوا لنور الدين لافل جده * ولا حكمت فيه الليالى الغواشم
تجهز الى أرض العدو ولا تهن * وتظهر فتورا ان مضت منك حارم
فما مثلها تبدى احتفالا به ولا * يعض عليها الملوك الاباهم
فعندك من ألطاف ربك مابه * علمنا يقينا انه بك راحم
أعادك حيا بعد ان زعم الورى * بانك قد لاقيت ما الله حاتم
بوقت أصاب الارض ما قد أصابها * وحلت بها تلك الدواهى العظائم
وخيم جيش الكفر فى أرض شيزر * فسيقت سبايا واستحلت محارم

وقد كان تاريخ الشام وهلكه * ومن يحتويه انه لك عادم
فقم واشكر الله الكريم بنهضة * اليهم فشكر الله للخلق لازم
فنحن على ماقد عهدت نروعهم * ونحلف جهدا أننا لا نسالم
وغاراتنا ليست تفتر عنهم * وليس ينجي القوم منا الهزائم
فاسطولنا أضعاف ما كان سائرا * اليهم فلا حصن لهم منه عاصم
ونرجو بأن نجتاح باقيهم به * وتحوى الاسارى منهم والغنائم

وكتب اليه أيضا

ياسيدا يسمو بهمته الى الرتب العليه
فينال منها حين يحرم غيره أوفى مزيه
أنت الصديق وان بعد * ت وصاحب الشيم الرضيه
يهنيك ان جيوشنا * فعلت فعال الجاهليه
سارت الى الاعداء من * ابطالها مائتا سريه
فتغير هذى بكرة * وتعاود الاخرى عشيه
فالويل منها للفرنج فقد لقوا جهد البليه
جاءت رؤسهم تلو * ح على رؤس السمهريه
وقلائع قد قسمت * بين الجنود على السويه
وخلائق كثرت من الاسرى تقاد الى المنيه
فانهض فقد أنبيت مجد الدين بالحال الجليه
والمم بنور الدين واعلمه بها تيك القضيه
فهو الذى مازال يخلص منه افعالا ونيه
ويبيد جمع الكفر بالبيض الرقاق المشرفيه
فعساه ينهض نهضة * يفنى بها تلك البقيه
اما لنصرة دينه * أو ملكه أو للحميه

وكتب اليه أيضا يقول

أيها المقتدى لانت على البعد صديق لنا ونعم الصديق
ليس فيما تأتيه من بر افعا * لك للطالب الحقوق عقوق
فلهذا نرى مواصلة الكتب تباعا اليك مما يليق
ونناجيك بالمهمات اذ أنت بالقائها اليك خليق
وأهم المهم أمر جهاد الكفر فاسمع فعندنا التحقيق
واصلتهم منا السرايا فاشجا * هم بكور منا لهم وطروق
وأباحت ديارهم فاباد القوم قتل ملازم وحريق
وانتظرنا بزحفنا نور الدين علما منا بان سيفيق
وهو الآن فى أمان من الله ومايعتريه امرء يعوق
ما لهذا المهم مثلك مجد الدين فانهض به فانت حقيق
قل له لا عدا مرأى ولازا * ل لديه لكل خير طريق
أنت فى حسم داء طاغية الكفار ذاك المرجو والمرموق
فاغتنم بالجهاد أجرك كى تلقى رفيقاله ونعم الرفيق

فأجابه أسامة بقصيدة منها

يا أمير الجيوش مازال للاسلام والدين منك ركن وثيق
أسمعت دعوة الجهاد فلبا * ها مليك بالمكرمات خليق
ملك عادل أنار به الدين فم الاسلام منه الشروق
ماله عن جهاده الكفر والعد * ل وفعل الخيرات شغل يعوق
هو مثل الحسام صدر صقيل * لين مسه وحد زليق
ذو أناة تخالها الغر اهما * لا وفيها حتف الاعادى المحيق
فاسلما للاسلام كهفين ما طر * ز ثوب الظلام برق خفوق

وكتب اليه أيضا

قل لابن منقذ الذى * قد حاز فى الفضل الكمالا
فلذاك قد أضحى الانا * م على مكارمه عيالا
كم قد بعثنا نحوك الا * شعار مسرعة عجالا
وصددت عنها حين را * مت من محاسنك الوصالا
هلا بذلت لنا مقا * لا حين لم تبذل فعالا
مع اننا نوليك صبـ * ـرا فى المودة واحتمالا
ونبثك الاخبار ان * أضحت قصارا أو طوالا
سارت سرايانا لقصـ * ـد الشام تعتسف الرمالا
تزجى الى الاعداء جر * د الخيل اتباعا توالا
تمضى خفافا للغوا * ربها وتأتينا ثقالا
حتى لقد رام الاعا * دى من ديارهم ارتحالا
وعلى الوعيرة معشر * لم يعهدوا فيها القتالا
لما نأت عن يحف * ف بها يمينا أو شمالا
نهضت اليها خيلنا * من مصر تحتمل الرجالا
والبيض لامعة وبيـ * ـض الهند والاسل النهالا
فغدت كأن لم يعهدوا * فى أرضها احيا حلالا
هذا وفى تل العجا * ل ملأن بالقتلى التلالا
اذ مرمرى ليس يلـ * ـوى نحو رفقته اشتغالا
واستاق عسكرنا له * أهلا يحبهم ومالا
وسرية ابن فرنج الطا * ئى طال بهم وصالا
سارت الى أرض الخليـ * ـل فلم تدع فيها خلالا
فلو ان نور الدين يجـ * ـعل فعلنا فيهم مثالا
ويسير الاجناد جهـ * ـرا كى ينازلهم نزالا
ووفى لنا ولاهل دولـ * ـته بما قد كان قالا
لرأيت للافرنج طـ * ـرا فى معاقلها اعتقالا
وتجهزوا للسير نحـ * ـو الغرب أو قصدوا الشمالا
واذا أبى الا اطـ * ـرا * ح النصيحة واعتزالا
عدنا بتسليم الامو * ر لحكم خالقنا تعالى

فاجاب ابن منقذ بقصيدة منها

يا أشرف الوزراء اخـلاقا وأكرمهم فعالا
نبهت عبـدا طالما ❊ نبهته قـدرا وحالا
وعتبته فانلتـه ❊ فخرا ومجدا لن ينالا
لكن ذاك العتب يشـعل في جوانبه اشتعالا
أسفا لجـدحال عنـه الى مساءته ومالا
أما السرايا حـين تر ❊ جع بعد خفتها ثقالا
فكذاك عاد وفود با ❊ بك مثقلين ثنا ومالا
ومسيرها في كل أر ❊ ض تبتغي فيها المجالا
فكذاك فضلك مثل عد ❊ لك في الدنى سارا وجالا
فاسلم لنا حتى نرى ❊ لك في بني الدنيا مثالا
واشـدد يديك بودنو ❊ رالدين والق به الرجالا
فهو المحامي عن بلا ❊ دالشام جمعا ان يذالا
ومبيد امـلاك الفرنـج وجمعهـم حالا فحالا
ملك يتيه الدهر والدنـيا بدولتـه اختيالا
جمع الخلال الصالحا ❊ ت فلم يدع منها خلالا
فاذا بدا للناظـريـن رأت عيونهم الكمالا
فبقيتما للمسلمين حما وللـدنيا جمالا

وكتب اليه الصالح من قصيدة تقدم ذكرها في الزلازل

ولعمري ان المناصح في الديـن على الله أجره محسوب
وجهاد العدو بالفعل والقو ❊ ل على كل مسلم مكتوب
ولك الرتبة العلية في الامـرين مذ كنت اذ تشب الحروب
أنت فيها الشجاع مالك في الطعـن ولا في الضراب يوما ضريب
واذا ما قرضت فالشاعر المفـلق فيما يقوله والخطيب
واذا ما أشرت فالحزم لا ينـكر ان التدبير منك نصيب
لك رأي يقظان ان ضعف الرأ ❊ ي على حاملي الصليب صليب
فانهض الآن مسرعا فبامثا ❊ لك ما زال يدرك المطلوب
ألق منا رسالة عنـد نور الديـن ما في القائها ما يريب
قل له دام ملكه وعليـه ❊ من لباس الاقبال برد قشيب
أيها العادل الذي هو للـديـن شباب وللحروب شبيب
والذي لم يزل قديما عن الاسـلام بالعزم منه تجلى الكروب
وغـدا منـه للفرنج اذالا ❊ قوه يوم من الزمان عصيب
ان يرم نزف حقدهم فلا شطا ❊ ن قناه في كل قلب قليب
غير نام من يقول ماليس يمضيـه بفعل وغيرك المكذوب
قـد كتبنا اليك ما وضح الآ ❊ ن بما ذا عن الكتاب نجيب
قصـدنا ان يكون منا ومنكم ❊ أجـل في مسيرنا مضروب
فلـديـنا من العساكر ما ضا ❊ ق بادنا هم الفضاء الرحيب

وعلينا ان يستهل على الشا ✻ م مكان الغيوث مال صبيب
أو تراها مثل العروس ثراها ✻ كله من دم العدا مخضوب
لطنين السيوف فى فلق الصبـ ✻ ـح على هام أهلها تطريب
ولجمع الحشود من كل حصن ✻ سلب مهمل لهم ونهوب
وبحول الاله ذاك ومن غا ✻ لب ربى فانه مغلوب

وكتب اليه أيضا

أيها السائر المجدّ الى الشا ✻ م تبارى ركابه والخيول
خذ على بلدة بهادار مجد الديـ ✻ ـن لا ربع ربعها المأهول
وتعرف أخباره واقره منـ ✻ ـا سلاما فيه العتاب يجول
قل له أنت نعم ذخر الصديق الـ ✻ ـيوم لكنك الصديق الملول
ماظننا بان حالك فى القر ✻ ب ولا البعد بالملال تحول
لا كتاب ولا جواب ولا قو ✻ ل به لليقين منا حصول
غير انا نواصل الكتب اذ قصـ ✻ ـر منك البر الكريم الوصول
ذاكرين الفتح الذى فتح اللـ ✻ ـه علينا فالفضل منه جميل
جاءنا بعدما ذكرناه فى كتـ ✻ ـب أتاكم بهن منا رسول
ان بعض الاسطول نال من الافـ ✻ ـرنج ما لا يناله التأميل
سار فى قلة ومازال باللـ ✻ ـه وصدق النيات يحمى القليل
وبقايا الاسطول ليس له بعـ ✻ ـد الى جانب الشآم وصول
نحوى من عكا وانطرسوس ✻ عدّة لم يحط بها التحصيل
جمع دوية بهم كانت الافـ ✻ ـرنج تسطو على الورى وتصول
قيد فى وسطهم مقدّمهم يـ ✻ ـدى الينا وجيده مغلول
بعد مثوى جماعة هلكوا بالـ ✻ ـسيف منها الغريق والمقتول
هـ ✻ ـذه نعمة الاله وتعديـ ✻ ـد أيادى الاله شئ يطول
بلغوا قولنا الى الملك العا ✻ دل فهو المرجوّ والمأمول
قل له كم تماطل الدين فى الكفـ ✻ ـار فاحذر ان يغضب المطول
سر الى القدس واحتسب ذاك فى اللـ ✻ ـه فبالسير منك يشفى الغليل
واذا ما أبطا مسـ ✻ ـيرك فاللـ ✻ ـه اذا حسبنا ونعم الوكيل

فأجابه أسامة بقصيدة منها

يا أمـ ✻ ـير الجيوش يا أعدل الحكـ ✻ ـام فى فعله وفيما يقول
أنت حليت بالمكارم أهل الـ ✻ ـعصر حتى تعرف المجهول
وقسمت الفرنج بالغزو شطريـ ✻ ـن فهذا عان وهذا قتيل
بالـغ العبـد فى النيابة والتحـ ✻ ـريض وهو المفوّه المقبول
فرأى من عزيمة الغزو ما كا ✻ دت له الارض والجبال تميل
واذا عاقت المقادير فاللـ ✻ ـه اذا حسبنا ونعم الوكيل

وكتب الصالح اليه جوابا قصيدته الطائية التى أوّلها

هى البدر لكن الثريا لها قرط ✻ ومن أنجم الجوزاء فى نحرها سمط
ذخرناسطاها للفرنج لانها ✻ بهم دون أهل الارض أجدر أن تسطو

وقد كاتبوا فى الصلح لكن جوابهم * بحضرتنا ماتكتب الخط الا الخط
سطور خيول لا تغب ديارهم * لها بالمواضى والقنا الشكل والنقط
اذا أرسلت فرعا من النقع فاحما * أثيثا فاسنان الرماح لها مشط
رددنا به ابن الفنش عنا واغا * يثبته فى سرجه الشد والربط
فقولوا لنور الدين ليس لخائف الـجراحات الا الكى فى الطب والبط
وحسم أصول الداء أولى بعاقل * لبيب اذا استولى على المدنف الخلط
فدع عنك ميلا للفرنج وهدنة * بها أبدا يخطى سواهم ولم يخطوا
تأمل فكم شرط شرطت عليهم * قديما وكم غدر به نقض الشرط
وشمر فانا قـد دعنا بكل ما * سألت وجهزنا الجيوش ولم يبطوا

قال العماد فى كتاب الخريدة الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك سلطان مصر فى زمان الفائز وأول زمان العاضد ملك مصر واستولى على أمر صاحب القصر ونفق فى زمانه النظم والنثر وقرب الفضلاء واتخذهم جلساء ورحل اليه ذوو الرجاء وأفاض على الدانى والقاصى العطاء وله قصائد كثيرة مستحسنة انفذها الى الشام يذكر فيها قيامه بنصر الاسلام ومايصدق أحد ان ذلك شعره لجودته وأحكام معانى حكمته واقسام معانى بلاغته فيقال ان المهذب ابن الزبير كان ينظم له والجليس بن الحباب كان يعينه وله ديوان كبير واحسان كثير ولما جلس فى دست الوزارة نظم هذه الابيات بديهه

انظر الى ذى الدار كم * قد حل ساحتها وزير
ولكم تبختر آمنا * وسط الصفوف بها أمير
ذهبوا فلا والله ما * يبقى الصغير ولا الكبير
ولمثل ما صاروا اليـ * ـه من الفناء غدا نصير

(فصل) قال أبو يعلى ورد الخبر فى خامس عشر ربيع الاول من ناحية حلب بحدوث زلزلة هائلة روعت أهلها وأزعجتهم وزعزعت مواضع من مساكنها ثم سكنت بقدرة محركها سبحانه وتعالى وفى ليلة الخامس والعشرين من ربيع الاول وافت زلزلة فى دمشق روعت واقلقت ثم سكنت وفى التاسع من ربيع الآخر برز نور الدين من دمشق الى جسر الخشب فى العسكر المنصور بآلات الحرب لجهاد الكفر وقد كان أسد الدين قبل ذلك عند وصوله فيمن جمعه من فرسان التركمان أغار بهم على اعمال صيدا وما قرب منها فغنموا أحسن غنيمة وأوفرها وخرج اليهم من كان بها من خيالة الفرنج ورجالتها وقد كمنوا لهم فغنموهم وقتل أكثرهم وأسر الباقون وفيهم ولد المقدم المتولى حصن حارم وعادوا سالمين بالاسرى ورؤس القتلى والغنيمة ولم يصب منهم غير فارس واحد قال وفى أوائل شهر تموز الموافق لاول جمادى الآخرة من السنة وافى البقاع مطر هطال بحيث حدث منه سيل أحمر كما جرت به العادة فى تنبوك الشتاء ووصل الى بردا ووصل الى دمشق وكثر التعجب من آثار قدرة الله تعالى بحدوث مثل ذلك فى هذا الوقت قال وفى الليلة الثالثة والعشرين من رجب وافت زلزلة عند تأذين الغداة ثم أخرى فى الليلة بعدها وقت صلاة الغداة وورد الخبر من العسكر المنصور بان الفرنج تجمعوا وزحفوا الى العسكر وان المولى نور الدين نهض فى الحال فى العسكر والتقى الجمعان واتفق ان عسكر الاسلام حصل فيه فشل لبعض المقدمين فاندفعوا وتفرقوا بعد الاجتماع وبقى نور الدين ثابتا مكانه فى عدة يسيرة من شجعان غلمانه وابطال خواصه فى وجوه الفرنج وأطلقوا فيهم السهام فقتلوا منهم ومن خيولهم العدد الكثير ثم ولوا منهزمين خوفا من كمين يظهر عليهم من عسكر الاسلام ونجى الله وله الحمد نور الدين من بأسهم بمعونة الله تعالى وشدة بأسه وثبات جاشه ومشهور شجاعته وعاد الى مخيمه سالما فى جماعته ولام من كان السبب فى اندفاعه بين يدى الفرنج وتفرق جمع الفرنج الى اعمالهم وراسل ملكهم لنور الدين فى طلب الصلح والمهادنة وحرض على ذلك وترددت بين الفريقين مراسلات ولم يستقر بينهما حال وعاد نور الدين الى دمشق سالما قلت وذكر أبو الفتح بن أبى الحسن بن الاشترى المعيد كان بالمدرسة النظامية فى سيرة مختصرة جمعها لنور

الدين

الدين وقد تقدم شئ منها رحمهما الله قال وبلغنا ان نور الدين خرج الى الجهاد فى سنة ست وخمسين وخمسمائة فقضى الله بانهزام عسكر المسلمين وبقى الملك العادل مع شرذمة قليلة وطائفة يسيرة واقفا على تل يقال له تل حبيش وقد قرب عسكر الكفار بحيث اختلط رجالة المسلمين مع رجالة الكفار فوقف الملك العادل بحذائهم موليا وجهه الى قبلة الدعاء حاضرا بجميع قلبه مناجيا ربه يقول يارب العباد أنا العبد الضعيف ملكتنى هذه الولاية وأعطيتنى هذه النيابة عمرت بلادك ونصحت عبادك وأمرتهم بما أمرتنى به ونهيتهم عما نهيتنى عنه فرفعت المنكرات من بينهم وأظهرت شعار دينك فى بلادهم وقد انهزم المسلمون وأنا لا أقدر على دفع هؤلاء الكفار أعداء دينك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم ولا أملك الا نفسى هذه وقد سلمتها اليهم ذابا عن دينك وناصرا لنبيك فاستجاب الله تعالى دعاءه وأوقع فى قلوبهم الرعب وأرسل عليهم الخذلان فوقفوا مواضعهم وما جسروا على الاقدام عليه وظنوا ان الملك العادل عمل عليهم الحيلة وان عسكر المسلمين فى الكمين فان أقدموا عليه يخرج عساكر المسلمين من الكمين فلا ينفلت منهم أحد فوقفوا وما قدموا عليه قال ولولا ان ذلك إلهام من الله تعالى لكانوا قد استأسروا المسلمين وما كان ينفلت واحد من المسلمين فوقف عسكر الكفار وبرز اثنان منهم يجولان بين الصفين يطلبان البراز من المسلمين فأمر الملك العادل لخطلخ الزاهد مولى الشهيد بالخروج اليهما فخرج وجال بينهما ساعة وحمل على واحد منهما فقتله ثم جال ساعة وعمل حيلة وخدعة ورجع الى قريب صف الكفار وحمل على الآخر فقتله ورجع الى الصف قال وحدثنا الشيخ داود المقدسى خادم قبر شعيب على نبينا وعليه السلام قال كان أعطانى ملك القدس بغلة كنت راكبا عليها يعنى فى ذلك اليوم واقفا مع الملك العادل فلما وصل الكفار وقربوا منا شمت بغلتى رائحة خيل الكفار فصهلت تطلب خيلهم فسمعوا صهيل بغلتى فقالوا هذا داود راكب على البغلة مع نور الدين واقف ولولا الحيلة والكمين من المسلمين لما وقفوا مع هذه الشرذمة القليلة والطائفة اليسيرة فتحقق ذلك فى قلوبهم فوقفوا وما جسروا على الاقدام عليه قال فترجل كل من كان مع الملك العادل وتشفعوا اليه وباسوا الارض بين يديه وقالوا أيها الملك أنت بجميع المسلمين فى هذا الموضع وفى هذا الاقليم فان جرى والعياذ بالله وهن وضعف من استيلاء الكفار على المسلمين فمن الذى يقدر على تداركه قال وحلف هذا الشيخ داود انهم أخذوا بعنان فرسه كرها ورحلوا من ذلك الموضع وما كان فى عزم الملك العادل ان يرحل من ذلك الموضع فلما عرف الكفار ذلك وانه ما كان عليهم حيلة ولا كمين ندموا على ذلك ندامة عظيمة قال وكان قبل هذه الوقعة بسنة كسر الملك العادل الكفار وقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر منهم خلقا كثيرا على ما حكى عن صلاح الدين صاحب حمص انه قال قد جاز التركمان علينا فحصل فى الجريدة ألف أسير مع التركمان هذا ما جاز على بلد حمص وحده وكان قد انفلت ملك القدس ودخل الى قلعته فلما جن عليه الليل خرج من القلعة ومضى

﴿فصل﴾ قال أبو يعلى وفى رجب تجمع قوم من السفهاء العوام وعزموا على التحريض لنور الدين على اعادة ما كان أبطل وسامح به أهل دمشق من رسوم دار البطيخ وعرصة البقل والانهار وصانهم من اعنات شرار الضمان وحوالة الاجناد وكرروا السخف عقولهم الخطاب وضمنوا القيام بعشرة آلاف دينار بيض وكتبوا بذلك حتى أجيبوا الى ما راموا وشرعوا فى فرضها على أرباب الاملاك من المقدمين والاعيان والرعايا فما اهتدوا الى صواب ولا نجح لهم قصد فى خطاب ولا جواب وعسفوا الناس بجهلهم بحيث تألموا وأكثروا الضجيج والاستغاثة الى نور الدين فصرف همه الى النظر فى هذا الامر فنجحت له السعادة وايثار العدل فى الرعية الاعادة الى ما كان عليه فأمر فى عاشر رمضان باعادة الرسوم المعتادة الى ما كانت عليه من اماتتها وتعفية أثر ضمانها وأضاف الى ذلك تبرعا من نفسه ابطال ضمان الهريسة والجبن واللبن ورسم بكتب منشور يقرأ على كافة الناس بابطال هذه الرسوم جميعها وتعفية ذكرها فبالغ العالم عند ذلك فى مواصلة الادعية والثناء عليه والنشر لمحاسنه قال وفى الحادى والعشرين من رمضان وصل الحاجب محمود المسترشدى من ناحية مصر بجواب ما تحمله من المراسلات من الملك الصالح متولى أمرها ومعه رسول من مقدمى أمرائها ومعه المال المنفذ برسم الخزانة النوريه وأنواع الثياب المصريه والجياد العربيه وكانت فرقة من الفرنج خذلهم الله قد ضربوا لهم فى المعابر فاظفر الله بهم فلم يفلت منهم الا القليل النزر ثم تلا ذلك ورود الخبر من العسكر المصرى بظفره بجملة وافرة من الفرنج تناهز أربعمائة فارس وتزيد على ذلك

فى ناحية العريش من الجفار بحيث استولى عليهم القتل والاسر والسلب قال وقد كانت الاخبار تناصرت من ناحية القسطنطينية فى ذى الحجة ببروز ملك الروم منها فى العدد الكثير لقصد الاعمال والمعاقل الاسلامية ووصوله الى مروج الديباج وتخييمه فيها وبث سراياه للاغارة على اعمال انطاكية وما والاها وان قوما من التركمان ظفروا بجماعة منهم هذا بعد ان افتتح من اعمال لاوين ملك الارمن عدة من حصونه ومعاقله ولما عرف نور الدين هذا شرع فى مكاتبة الولاة بالاعمال والمعاقل باعلامهم ما حدث من الروم وبعثهم على استعمال التيقظ والتأهب للجهاد فيهم والاستعداد للنكاية بمن يظهر منهم قال ابن الاثير وفى سنة ثلاث وخمسين سار الملك محمد بن السلطان محمود فحصر بغداد وبها الخليفة المقتفى لامر الله ومعه وزيره عون الدين بن هبيرة فكاتب أصحاب الاطراف فتحركوا ووصل الخبر الى الملك محمد بأن أخاه ملكشاه قصد همدان ودخلها فى عسكر كبير ونهب وأخذ نساء الامراء الذين معه وأولادهم فاختلط العسكر وتفرقوا وعاد محمد نحو همدان وخرج أهل بغداد فنهبوا أواخر العسكر المنقطعين وشعثوا دار السلطان قلت وفى هذه السنة توفى أبو الوقت عبد الاول المحدث المنفرد بعلو رواية كتاب الجامع الصحيح للبخارى رحمه الله تعالى

﴿ثم دخلت سنة أربع وخمسين﴾ قال أبو يعلى فى أول يوم منها وافت زلزلة عظيمة ضحى نهاره وتلاها اثنتان دونها وكان قد عرض لنور الدين مرض تزايد به بحيث اضعف قوته ووقع الارجاف به من حساد دولته والمفسدين من عوام رعيته وارتاعت الرعايا واعيان الاجناد وضاقت صدور قطان الثغور والبلاد خوفا عليه واشفاقا من سوء يصل اليه لاسيما مع أخبار الروم والفرنج ولما أحس من نفسه بالضعف تقدم الى خواص أصحابه وقال لهم اننى قد عزمت على وصية اليكم عما وقع فى نفسى فكونوا لها سامعين مطيعين وبشروطها عاملين انى مشفق على الرعايا وكافة المسلمين ممن يكون بعدى من الولاة الجاهلين والظلمة الجائرين وان أخى نصرة الدين اعرف من اخلاقه وسوء افعاله ما لا ارتضى معه بتوليته أمرا من أمور المسلمين وقد وقع اختيارى على أخى قطب الدين مودود متولى الموصل لما يرجع اليه من عقل وسداد ودين وصحة اعتقاد فحلفوا له وأنفذ رسله الى أخيه باعلامه صورة الحال ليكون لها مستعدا ثم تفضل الله تعالى بابلاله من المرض وتزايد القوة فى النفس والحس وجلس للدخول اليه والسلام عليه وكان الامير مجد الدين النائب فى حلب قد رتب فى الطرقات من يحفظ السالكين فيها فظفر المقيم فى منبج برجل جمال من أهل دمشق ومعه كتب فأنفذها الى مجد الدين متولى حلب فلما وقف عليها أمر بصلب متحملها وأنفذها فى الحال الى نور الدين فوجدها من أمين الدين زين الحاج أبى القاسم متولى ديوانه ومن عز الدين والى القلعة مملوكه ومن محمد بن جفرى احد حجابه الى أخيه نصرة الدين أمير أميران صاحب حران باعلامه بوقوع اليأس من أخيه ويحضونه على المبادرة والاسراع الى دمشق لتسلم اليه فلما عرف نور الدين ذلك عرض الكتب على اربابها فاعترفوا بها فأمر باعتقالهم وكان رابعهم سعد الدين عثمان وكان قد خاف فهرب قبل ذلك بيومين وورد فى الحال كتاب صاحب قلعة جعبر يخبر بقطع نصرة الدين الفرات مجدا الى دمشق فانهض أسد الدين فى العسكر المنصور لرده ومنعه من الوصول فاتصل به خبر عوده الى مقره عند معرفته بعافية أخيه فعاد أسد الدين الى دمشق ووصلت رسل الملك العادل من ناحية الموصل بجواب ما تحملوه الى أخيه قطب الدين وفارقوه وقد برز فى عسكره متوجها الى ناحية دمشق فلما فصل عن الموصل اتصل به خبر عافيته فأقام بحيث هو وأنفذ وزيره جمال الدين أبا جعفر محمد بن على لكشف الحال فوصل الى دمشق يوم السبت الثامن من صفر فى أحسن زى وابهى تجمل وخرج الى لقائه الخلق الكثير قال وهذا الوزير قد ألهمه الله تعالى من جميل الافعال وحميد الخلال وكرم النفس وانفاق أمواله فى أبواب البر والصدقات والصلات ومستحسن الآثار فى مدينة الرسول عليه السلام ومكة ذات الحرم والبيت المعظم شرفه الله تعالى ما قد شاع ذكره وتضاعف عليه حمده وشكره واجتمع مع نور الدين وجرى بينهما من المفاوضات والتقريرات ما انتهى الى عوده الى جهته بعد الاكرام له وتوفيته حقه من الاحترام وأصحبه برسم قطب الدين أخيه وخواصه من الملاطفة ما اقتضته الحال الحاضرة وتوجه معه الامير أسد الدين وقال ابن أبى طى لما وصل الوزير جمال الدين الى حلب تلقاه موكب نور الدين وفيه وجوه الدولة وكبراء المدينة وانزل فى دار ابن الصوفى واكرم غاية الاكرام وأعيد الى صاحبه شاكرا عن نور الدين

وسير معه الامير أسد الدين شيركوه رسولا الى قطب الدين بالشكر له والثناء عليه وأنفذت معه هدايا سنية فسار وعاد الى حلب مشكورا فوجد نور الدين عازما على الخروج الى دمشق لما بلغه من افساد الفرنج فى بلد حوران فسار فى صحابته و وصل نور الدين الى دمشق فأمر الناس بالتجهز لقتال الفرنج ثم انهض أسد الدين فى قطعة من العسكر للاغارة على بلد صيدا فسار وسار معه أخوه نجم الدين أيوب وأولاده ولم يشعر الفرنج الا وهو قد عاث فى بلد صيدا وقتل واسر عالما عظيما وغنم غنيمة جليلة وعلا فاجتمع بنور الدين على جسر الخشب قلت وهذا هو ما تقدّم ذكره بعد المرضة الاولى وكأن ابن أبى طى جعل المرضتين واحدة بحلب وأبو يعلى ذكر ان الاولى بحلب والثانية بدمشق وهو أصح والله أعلم

﴿فصــــــل﴾ قال أبو يعلى وكان قد وصل من ملك الروم رسول من معسكره ومعه هدية اتحف بها الملك العادل ديباج وغير ذلك وجيل خطاب وفعال وقوبل بمثل ذلك وحكى عن ملك الفرنج خذله الله ان المصالحة بينه وبين ملك الروم تقررت والمهادنة انعقدت والله يرد بأس كل واحد منهما الى نحره ويذيقه عاقبة غدره ومكره قال وو ردت أخبار من ناحية ملك الروم باعتزامه على انطاكية وقصد المعاقل الاسلامية فبادر نور الدين بالتوجه الى البلاد الشاميه لايناس أهلها من استيحاشهم من شر الروم والافرنج خذلهم الله تعالى فسار فى العسكر صوب حمص وحماه وشيزر قال وفى ثالث ربيع الاول وافت زلزلة هائلة ماجت أربع موجات أيقظت النيام وازعجت اليقظى وخاف كل ذى مسكن مضطرب على نفسه وعلى مسكنه قال وفى تاسع جمادى الاولى هبت ريح عاصفة شديدة اقامت يومها وليلتها فاتلفت أكثر الثمار صيفيها وشتويها وافسدت بعض الاشجار ثم وافت آخر الليل زلزلة هائلة ماجت موجتين ازعجت واقلقت قال وتجددت المهادنة المؤكدة لنور الدين مع ملك الروم بعد تكرر المراسلات والاقتراحات فى التقريرات واجيب ملك الروم الى ما التمسه من اطلاق مقدّمى الافرنج المقيمين فى حبس نور الدين فأنفذهم بأسرهم وقابل ملك الروم هذا الفضل بما يضاهيه من الاتحاف بأثواب الديباج الفاخرة المختلفة الاجناس الوافرة العدد ومن الجوهر النفيس وخيمة من الديباج لها قيمة وافرة وما استحسن من الخيول الجبليه ثم رحل عقيب ذلك فى عساكره من منزله عائدا الى بلاده مشكورا محمودا ولم يؤذ أحدا من المسلمين فى العشر الاوسط من جمادى الاولى فاطمأنت القلوب بعد انزعاجها وقلقها قال وورد بعد ذلك الخبر بان نور الدين صنع لاخيه قطب الدين ولعسكره ولمن ورد معه من المقدّمين والولاة وأصحابهم الواردين لجهاد الروم والافرنج سماطا عظيما هائلا تناهى فيه وفرّق من الحصن العربية والخيول والبغال العدد الكثير ومن الخلع من أنواع الديباج المختلفة وغيره والتخوت الذهب الشئ الكثير الزائد على الكثرة وكان يوما مشهودا فى الحسن والتجمل واتفق ان جماعة من غرباء التركمان وجدوا من الناس غفلة باشتغالهم بالسماط وانتهابه فغاروا على العرب من بنى اسامة وغيرهم واستاقوا مواشيهم فلما ورد الخبر بذلك انهض نور الدين فى أثرهم فريقا وافرا من العسكر فأدركوهم ثم انهم استخلصوا منهم جميع ما أخذوه وأعيد الى أربابه قال وتقرر الرأى النورى على التوجه الى مدينة حران لمنازلتها واستعادتها من يد أخيه نصرة الدين حسبما رآه فى ذلك من الصلاح فرحل فى عسكره أوّل جمادى الآخرة فلما نزل عليها وأحاط بها وقعت المراسلات الى أن تقرر الحال على امان من بها وسلمت فى يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الآخرة وقررت احوالها وأحسن النظر فى أحوال أهلها وسلمها للامير زين الدين على سبيل الاقطاع وفوض اليه تدبير أمورها

﴿ثم دخلت سنة خمس وخمسين﴾ قال الرئيس أبو يعلى فى صفر توفى الامير مجاهد الدين بزان بن مامين أحد مقدّمى امراء الاكراد وهو من ذوى الوجاهة فى الدولة موصوف بالشجاعة والبسالة والسماحة مواظب على بث الصلات والصدقات فى المساكين والضعفاء والفقراء مع الزمان فى كل عصر ينقضى وأوان جميل المحيا حسن البشر فى اللقاء وحمل من داره بباب الفراديس الى الجامع للصلاة عليه ثم الى المدرسة المشهورة باسمه فدفن فيها فى اليوم ولم يخل من باك عليه ومؤبن له ومتأسف على فقده لجميل افعاله وحميد خلاله قلت وله أوقاف على أبواب البر منها المدرستان المنسوبتان اليه احداهما التى دفن فيها وهى لزيق باب الفراديس المجدد والاخرى قبالة باب دار سيف

الغربي في صف مدرسة نور الدين رحمه الله وله وقف على من يقرأ السبع كل يوم بمقصورة الخضر بجامع دمشق وغير ذلك وقد مدحه العرقله وغيره قال أبو يعلى وفي مستهل صفر رفع القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى ابن علي القرشي قاضي دمشق الى الملك العادل نور الدين رقعة يسأله فيها الاعفاء من القضاء والاستبدال به فأجاب سؤاله وولى قضاء دمشق القاضي كمال الدين بن الشهرزوري وهو المشهور بالتقدم و وفور العلم وصفاء الفهم والمعرفة بقوانين الاحكام وشروط استعمال الانصاف والعدل والنزاهة وتجنب الهوى والظلم واستقام له الامر على ما يهواه ويؤثره ويرضاه على ان القضاء من بعض أدواته واستقر ان يكون النائب عنه عند اشتغاله ولده قلت ولكمال الدين رحمه الله تعالى الصدقة الجارية بعده على الفقراء كل جمعة واليه ينسب الشباك الكمالي بجامع دمشق من الغرب وهو الذي حكمت فيه القضاة مدة ويصلون فيه الجمعة في زماننا والى ههنا انتهى ما نقلناه من كتاب الرئيس أبي يعلى التميمي فانه آخر كتابه وفي هذه السنة توفي رحمه الله قال ابن الاثير وفيها توفي أمير المؤمنين المقتفي لامر الله بن المستظهر بأمر الله ومولده سنة تسع وثمانين وأربعمائة وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وشهرين وبويع ولده أبو المظفر يوسف ولقب بالمستنجد بالله فأقر ابن هبيرة على وزارته قال وفيها حج زين الدين علي واحسن الى الناس في طريق مكة وأكثر الصدقات فلما وصل بغداد أكرمه المستنجد بالله فلما لبس الخلعة كانت طويلة وكان قصيرا جدا فقديده الى كمراته واخرج ماشد به وسطه وقصر الجبة فنظر المستنجد اليه واستحسن ذلك منه وقال لمن عنده مثل هذا يكون الامير والجندي لا مثلكم قلت وفيها توفي المستخلف بمصر الملقب بالفائز بن الظافر بن الحافظ وولي بعده ابن عمه العاضد بن يوسف بن الحافظ وهو آخر خلفاء مصر ووصل من الصالح بن رزيك كتاب الى ابن منقد اسامة بذلك فكتب اليه

هناء بنعمى قل عن قدرها الشكر ❊ وصبرا لرزء لا يقوم به الصبر
مضى الفائز الطهر الامام وقام بالا ❊ مامة فينا بعده العاضد الطهر
اماما هدى الله في نقل ذا الى ❊ كرامته وفي اقامة ذا سر
فعش أبدا واسلم لهم يا كفيلهم ❊ تدافع عنهم كل حادثة تعرو

❊(ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة)❊ قال ابن أبي طي في هذه السنة حج أسد الدين من الشام وخرج في تجمل عظيم وشارة رائقة واستصحب معه من الازواد والكسى أشياء عظيمة وقيل انه كان معه ألف نفس يجري عليهم الطعام والشراب وحج على كوجك المعروف بزين الدين من العراق وحج معهم أخو ضرغام وزير مصر فكان الموسم بهؤلاء الثلاثة كثير الخير واستغنى بسببهم أهل الحجاز وعاد أسد الدين سالما وخرج نور الدين الى لقائه وكان يوم وروده يوما عظيما وقال أيضا وفيها قتل الصالح بن رزيك بمصر وكان سبب قتله ان عمة العاضد عملت على قتله وأنفذت الاموال الى الامراء فبلغ ذلك الصالح فاستعاد الاموال واحتاط على عمة العاضد قال وانما كرهته عمة العاضد لاستيلائه على الامور والدولة وحفظه للاموال وقتل الصالح بسببها جماعة من الامراء ونكبهم وتمكن من الدولة تمكنا حسنا ثم ان عمة العاضد عادت واحكمت الحيلة عليه وبذلت لقوم من السودان مالا جزيلا حتى أوقعوا به الفعل جلسوا له في بيت في دهليز القصر مختفين فيه فلما كان يوم تاسع عشر رمضان ركب الى القصر ودخله وسلم على العاضد وخرج من عنده فخرج عليه الجماعة ووقعت الصيحة فعثر الصالح باذياله فطعنه أحدهم بالسيف في ظاهر رقبته فقطع أحد عمودي الرقبة وحمل الى باب القصر وأصيب ولده رزيك في كتفه ولما حصل الصالح في داره أوصى ولده رزيك ومات بعد ساعة من ذلك اليوم قال العماد وانكسفت شمس الفضائل ورخص سعر الشعر وانخفض علم العلم وضاق فضاء الفضل وعم رزء ابن رزيك وملك صرف الدهر ذلك المليك فلم تزل مصر بعده منحوسة الحظ محروسة الجد منكوسة الراية معكوسة الآية الى ان ملكها يوسفها الثاني وجعلها معان المعاني وانشر ميتها وعطر نسيمها وتسلم قصرها والتزم خصرها قال زين الدين الواعظ عمل فارس المسلمين أخو الصالح دعوة في شعبان من السنة التي قتل فيها فعمل هذه الابيات وسلمها الى

انست بكم دهرا فلما ظعنتم استقرت بقلبى وحشة التفرق
وأعجب شئ اننى يوم بينكم * بقيت وقلبى بين جنبى ما بقى
أرى البعد ما بينى وبين أحبتى * كبعد المدى ما بين غرب ومشرق
الا جدّ دى يا نفس وجدا وحسرة * فهذا فراق بعد [illegible]س نلتقى

قال فلم يبق بعدها لهم اجتماع فى مسرة وقتل فى شهر رمضان قلت ولعمارة اليمنى ولغيره مدائح فى الصالح ومراث جليلة وقد أثنى عليه كثيرا فى كتاب الوزراء المصرية ولم يكن مجلس انسه ينقطع الا بالمذاكرة فى أنواع العلوم الشرعية والادبية وفى مذاكرة وقائع الحروب مع أمراء دولته قال وكان مرتاضا قد شم أطراف المعارف وتميز عن اجلاف الملوك وكان شاعرا يحب الادب وأهله يكرم جليسه ويبسط أنيسه ولكنه كان مفرط العصبية فى مذهب الامامية وكان مرتاضا حصيفا قد لقى فى ولايته فقهاء السنة وسمع كلامهم قال ودخلت عليه قبل ان يموت بثلاث ليال وفى يده قرطاس قد كتب فيه بيتين من شعره عملهما فى تلك الساعه

نحن فى غفلة ونوم وللمو * ت عيون يقظانة لا تنام
قد رحلنا الى الحمام سنينا * ليت شعرى متى يكون الحمام

قال ومن عجيب الاتفاق انى أنشدت ابنه مجد الاسلام فى دار سعيد السعداء ليلة السادس عشر من شهر رمضان أو السابع عشر قصيدة أقول فيها

أبوك الذى تسطو الليالى بجده * وأنت يمين ان سطا وشمال
لرتبته العظمى وان طال عمره * اليك مصير واجب ومآل
تخالسك اللحظ المصون ودونها * حجاب شريف لا انقضى وحجال

قال فانتقل الملك بعد ثلاث اليه قال ومما رثيته به قولى

أفى أهل ذا النادى عليم أسائله * فانى لما بى ذاهب اللب ذاهله
سمعت حديثا أحسد الصم عنده * ويذهل واعيه ويخرس قائله
فقد رابنى من شاهد الحال اننى * أرى الدست منصوبا وما فيه كافله
وانى أرى فوق الوجوه كآبة * تدل على ان الوجوه ثواكله
دعونى فما هذا بوقت بكائه * سيأتيكم طل البكاء ووابله
ولم لا نبكيه ونندب فقده * وأولادنا أيتامه وأرامله
فياليت شعرى بعد حسن فعاله * وقد غاب عنا ما بنا الدهر فاعله
ايكرم مثوى ضيفكم وغريبكم * فيسكن أم تطوى ببين مراحله

وله من أخرى يرثيه ويذكر ولاية ابنه

طمع المرء فى الحياة غرور * وطويل الآمال فيها قصير
ولكم قدّر الفتى فاتته * نوب لم يحط بها التقدير
فض ختم الحياة عنك حمام * لا يراعى اذنا ولا يستشير
ذ يخطى أجلالك اليوم الا * قدر أمره علينا قدير
يا أمير الجيوش هل لك علم * ان حر الاسى علينا أمير
ان قبرا حللته لغنىّ * ان دهرا فارقته لفقير
انطوى ذلك البساط وعهدى * وهو بالعلم والندى مغمور
لا تظن الايام انك ميت * لم يمت من ثناؤه منشور
ان مضى كافل فهذا كفيل * أو وزير يغب فهذا وزير
دولة صالحية خلفتها * دولة عادلية لا تجور

ماشكونا كسر النوائب حتى * قيل فى الحال كسركم مجبور
نصر الناصر العلى بالعوالى * ولنعم المولى ونعم النصير

وقال أيضا يرثيه ويذكر الظفر بقاتليه ويصف نقل تابوته الى مشهده بالقرافة قصيدة طويلة منها

قدكنت أشرق من ثماد مدامعى * أسفا فكيف وقد طمى التيار
عم الورى يوم الخميس وخصنى * خطب بانف الدهر منه صغار
ماأوحش الدنيا غداة فارقت * قطبا رحى الدنيا عليه تدار
خربت ربوع المكرمات لواحد * عمرت به الاجداث وهى قفار
نعش الجدود العاثرات مشيع * عشيت برؤية نعشه الابصار
نعش بود بنات نعش لوغدت * ونظامها أسفا عليه نثار
شخص الانام اليه تحت جنازة * خفضت لرفعة قدرها الاقدار
سار الامام امامها فعلمت ان * قد شيعتها الجسة الابرار
ومشى الملوك بها حفاة بعدما * حفت ملائكة بها أطهار
فكانها تابوت موسى أودعت * فى جانبيه سكينة ووقار
لكنه ماضم غير بقية الاسلام وهو الصالح المختار
اقطنته دار الوزارة ريثما * بنيت لنقلته الكريمة دار
وتغاير الهرمان والحرمان فى * تابوته وعلى الكريم يغار
أثرت مصر امنه بالشرف الذى * حسدت قرافتها له الامصار
وجعلتها امنا به ومثابة * ترجو مثابة قصدها الزوار
قدقلت ان نقلوه نقلة ظاعن * نزحت به دار وشط مزار
ما كان الا السيف جدد غمده * بسواه وهو الصارم البتار
والبدر فارق برجه متبدلا * برحابه تتشعشع الانوار
والغيث روى بلدة ثم انتحى * أخرى فنوء سحابه مدرار
يامسبل الاستار دون جلاله * ماذا الذى رفعت له الاستار
مالى أرى الزوار بعد مهابة * فوضى ولا اذن ولا استيمار
غضب الاله على رجال أقدموا * جهلا عليك وآخرين أشاروا
لا تعجبا لقدار ناقة صالح * فلكل دهر ناقة وقدار
واخجلتا للبيض كيف تطاولت * سفها بايدى السود وهى قصار
واحسرتا كيف انفردت لاعبد * وعبيدك السادات والاحرار
رصدوك فى ضيق المجال بحيث لا الخطى متسع ولا الخطار
ما كان أقصر باعهم عن مثلها * لوكنت متروكا وما تختار
ولقد ثبت ثبات مقتدر على * خذلانهم لوساعد المقدار
وتعثرت أقدامهم بل هيبة * لولم يكن لك بالذيول عثار
أحللت دار كرامة لا تنقضى * أبدا وحل بقاتليك بوار
ياليت عينك شاهدت أحوالهم * من بعدها ورأت الى ماصاروا
وقع القصاص بهم وايسوا مقنعا * يرضى وأين من السماء غبار
ضاقت بهم سعة الفجاج وربما * نام العدو ولا ينام الثار
وتوهموا ان الفرار مطية * تنجى وأين من القضاء فرار

طاروا لقد أبو الشجاع لصيدهم * شرك الردى فكأنهم ما طاروا
فتهن بالاجر الجزيل ومنة * درجت عليها قبلك الاخيار
مات الوصى بها وحمزة عمه * وابن البتول وجعفر الطيار
نلت السعادة والشهادة والعلى * حيا وميتا ان ذا لفخار
ولقد أقر العين بعدك أروع * لولاه لم يك للعلى استقرار
الناصر الهادى الذى حسناته * عن سيئات زماننا أعذار
ولما استقام لحفظ أمة أحمد * عمرت به الاوطان والاوطار

﴿ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة﴾ قال ابن الاثير فيها جمع نور الدين العساكر وسار الى قلعة حارم وحصرها وجدّ فى قتالها فامتنعت عليه لحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج وشجعانهم واجتمع الفرنج من سائر البلاد وساروا نحوه ليرحلوه عنها فلما قاربوه طلب منهم المصاف فلم يجيبوه الى ذلك وراسلوه وتلطفوا الحال معه فعاد الى بلاده وممن كان معه فى هذه الغزاة الامير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ وكان من الشجاعة فى الغاية التى لا مزيد عليها فلما عاد الى حلب دخل الى مسجد سيرين وكان قد دخله فى العام الماضى سائرا الى الحج فلما دخله ثانيا كتب على حائطه

لك الحمد يا مولاى كم لك منة * علىّ وفضل لا يحيط به شكرى
نزلت بهذا المسجد العام قافلا * من الغزو موفور النصيب من الاجر
ومنه رحلت العيس فى عامى الذى * مضى نحو بيت الله ذى الركن والحجر
فادّيت مفروضى وأسقطت ثقل ما * تحملت من وزر الشبيبة عن ظهرى

قلت أذكرنى هذا ما كتبه اسامة ايضا بمدينة صور وقد دخل دار ابن أبى عقيل فرآها وقد تهدّمت وتغيرت زخرفتها فكتب على لوح من رخام هذه الابيات

احذر من الدنيا ولا * تغتر بالعمر القصير
وانظر الى آثار من * صرعته منا بالغرور
عمروا وشادوا ما ترا * ه من المنازل والقصور
وتحوّلوا من بعد سكانها الى سكنى القبور

قلت ابن أبى عقيل هذا هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن عياض بن أبى عقيل صاحب صور ويلقب عين الدولة مات سنة خمس وستين وأربعمائة واستولى على صور ابنه النفيس والله اعلم

﴿ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة﴾ قال ابن الاثير فيها جمع نور الدين عساكره ودخل بلاد الفرنج فنزل بالبقيعة تحت حصن الاكراد وهو للفرنج عازما على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس فبينما الناس فى بعض الايام فى خيامهم فى وسط النهار لم يرعهم الا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذى عليه الحصن فكبسوهم فأراد المسلمون دفعهم فلم يطيقوا فانهزموا ووضع الفرنج السيف وأكثروا القتل والاسر وقصدوا خيمة الملك العادل فخرج عن ظهر خيمته عجلا بغير قبا فركب فرسا هناك للنوبة ولسرعته ركبه وفى رجليه شبحة فنزل انسان من الاكراد فقطعها فنجا نور الدين وقتل الكردى فسأل نور الدين عن مخلفى ذلك الكردى فأحسن اليهم جزاء لفعله وكان أكثر القتل فى السوقه والغلمان وسار نور الدين الى مدينة حمص فأقام بظاهرها واحضر منها ما فيها من الخيام ونصبها على بحيرة قدس على فرسخ من حمص وبينها وبين مكان الواقعة أربعة فراسخ وكان الناس يظنون انه لا يقف دون حلب وكان رحمه الله أشجع من ذلك واقوى عزما ولما نزل على بحيرة قدس اجتمع اليه كل من نجا من المعركة فقال له بعض أصحابه ليس من الرأى أن تقيم هاهنا فان الفرنج ربما حملهم الطمع على المجىء الينا ونحن على هذه الحال فوبخه واسكته وقال اذا كان معى ألف فارس فلا أبالى بهم قلوا أو كثروا والله لا أستظل بجدار حتى آخذ بثار الاسلام وثارى ثم انه أرسل الى حلب ودمشق وأحضر الاموال والدواب والاسلحة والخيام

وسائر ما يحتاج اليه الجند فأكثر وفرق ذلك جميعه على من سلم وأما من قتل فانه اقر اقطاعه على أولاده فان لم يكن له ولد فعلى بعض أهله فعاد العسكر كأنه لم يفقد منه أحد وأما الفرنج فكأنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة لأنها أقرب البلاد اليهم فلما بلغهم مقام نور الدين عندها قالوا انه لم يفعل هذا الا وعنده من القوة ان يمنعنا وكان نور الدين رحمه الله قد أكثر الخرج الى ان قسم فى يوم واحد مائتى ألف دينار سوى غيرها من الدواب والخيام والسلاح وغير ذلك وتقدم الى ديوانه ان يحضروا الجند ويسألوا كل واحد منهم عن الذى أخذ منه فكل من ذكر شيئا اعطوه عوضه فحضر بعض الجند وادعى شيئا كثيرا علم بعض النواب كذبه فيما ادعاه لمعرفتهم بحالهم فأرسلوا الى نور الدين ينهون اليه القضية ويستأذنونه فى تحليف الجندى على ما ادعاه فأعاد الجواب لا تكدروا عطانا فانى أرجوا الثواب والاجر على قليله وكثيره وقال له أصحابه ان لك فى بلادك ادرارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء فلو استعنت بها الآن لكان امثل فغضب من هذا وقال والله انى لا ارجو بأولئك النصر فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنى وأنا نائم فى فراشى بسهام لا تخطى وأصرفها الى من يقاتل عنى اذا رآنى بسهام قد تخطى وتصيب ثم هؤلاء القوم لهم نصيب فى بيت المال اصرفه اليهم كيف اعطيه غيرهم فسكتوا ثم ان الفرنج أرسلوا الى نور الدين فى المهادنة فلم يجبهم اليها فتركوا عند الحصن من يحميه وعادوا الى بلادهم وتفرقوا قلت وفى هذه الحادثة تحت حصن الاكراد يقول أبو الفرج عبيد الله بن سعد الموصلى نزيل حمص من جملة قصيدة فائقة يمدح بها نور الدين رحمه الله أولها

ظبى المواضى واطراف القنا الذبل * ضوامن لك ما حازوه من نفل
وكافل لك كاف ما تحاوله * عزو عزم وبأس غير منتحل
وما يعيبك ما حازوه من سلب * بالختل قد تؤسر الآساد بالحيل
وانما أخلدوا جبنا الى خدع * اذ لم يكن لهم بالجيش من قبل
واستيقظوا وأراد الله غفلتكم * لينفذ القدر المحتوم فى الازل
حتى أتوكم ولا الماذى من أمم * ولا الظبى كثب من مرهق عجل
قنا القنا وقسى غير موترة * والخيل عازبة ترعى مع الهمل
ما يصنع الليث لا ناب ولا ظفر * بما حواليه من عفر ومن وعل
هلا وقد ركب الاسد الصقور وقد * سلوا الظبى تحت غابات من الاسل
وانما هم أضاعوا حزمهم ثقة * بجمعهم ولكم من واثق خجل
بنى الاصافر ما نلتم بمكركم * والمكر فى كل انسان أخو الفشل
وما رجعتم باسرى خاب سعيكم * غير الاراذل والاتباع والسفل
سلبتم الجرد معراة بلا لجم * والسمر مركوزة والبيض فى الخلل
هل آخذ الخيل قد اردى فوارسها * مثال آخذها فى الشكل والطول
أم سالب الرمح مركوزا كسالبه * والحرب دائرة من كف معتقل
جيش اصابتهم عين الكمال وما * يخلو من العين الا غير مكتمل
لهم بيوم حنين اسوة وهم * خير الانام وفيهم خاتم الرسل
سيقتضيكم بضرب عند اهونه * البيض كالبيض والادراع كالحلل
ملك بعيد من الادناس ذو كلف * بالصدق فى القول والاخلاص فى العمل
فالسمر ما أصبحت والشمس ما أفلت * والسيف ما فل والاطواد لم تزل
وكم تجلى بنور الدين من ظلم * وانجاب ما كان للاضلال من ظلل
وكم لعمرى كفوا الطرف من جبن * عند اللقاء وغضوا الطرف من خجل
طلبتم السهل تبغون النجاة ولو * لذتم بملككم لذتم الى الجبل

اسلموه

اسلمتموه ووليتم فأسلمكم * بثبتة لو بغاها الطود لم ينل
فقام فردا وقد ولت جحافله * فكان من نفسه فى جحفل زجل
فى مشهد لوليوث الغيل تشهده * خرت لاذقانها من شدة الوهل
وسط العدى وحده ثبت الجنان وقد * طارت قلوب على بعد من الوجل
يعود عنهم رويدا غير مكترث * بهم وقد كر فيهم غير محتفل
يزداد قدما اليهم من تيقنه * ان التأخر لا يحمى من الاجل
ما كان اقربهم من اسر ابعدكم * لوانهم لم يكونوا منه فى شغل
ثباته فى صدور الخيل انقذكم * لاتحسبوا وثبات الضمر الذلل
ما كل حين تصاب الاسد غافلة * ولا يصيب الشديد البطش ذو الشلل
والله عونك فيما أنت من معه * كما أعانك فى أيامك الاول
كم قد ملكت لهم ملكا بلا عوض * وحزت من بلد منها بلا بدل
وكم سقيت العوالى من طلى ملك * وكم قرنت العوافى من قرا بطل
لا نكبت سهمك الاقدار عن غرض * ولا ثنت يدك الايام عن أمل

قلت حاول ابن اسعد فى هذه القصيدة ما حاوله المتنبى فى قوله (غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع) القصيدة فان كل واحد منهما اعتذر عن أصحابه ومدحهم وهم المنهزمون وفدا حسنا معا عفى الله عنهما وعبيد الله بن أسعد هذا فقيه فاضل وشاعر مفلق كان مدرسا بحمص يعرف بابن الدهان وله ترجمة فى تاريخ دمشق وقد ذكره العماد الكاتب فى خريدته فأحسن ذكره وأكثر الثناء على علمه وشعره وسيأتى ذكره أيضا فى هذا الكتاب فى أخبار سنة سبعين وست وسبعين وثمان وسبعين ان شاء الله تعالى وفى هذه السنة اعنى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة توفى عبد المؤمن بن على خليفة المهدى محمد بن تومرت صاحب المغرب وولى بعده ابنه يوسف

(ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة) ففيها سار أسد الدين شيركوه بن شاذى الى مصر المرة الاولى وهو من أكابر الامراء الذين فى الخدمة النورية عازما على ملك الديار المصرية واستضافتها الى المملكة النورية وكان أسد الدين وأخوه نجم الدين أيوب وهوا كبر ابناء شاذى من بلد دوين وهى بلدة من آخر بلاد اذربيجان مما يلى الروم وأصلهما من الاكراد الروادية وهذا القبيل هو أشرف الاكراد وقدماء العراق وخدماء مجاهد الدين بهروز الخادم وهو شحنة العراق فرأى فى نجم الدين عقلا ورأيا وحسن سيرة فجعله دزدارا بتكريت وهى بلد فسار اليها ومعه أخوه أسد الدين فلما انهزم أتابك زنكى الشهيد والد نور الدين بالعراق ومعه الخواجه الساقى وهو أتابك داود بن السلطان محمود وذلك زمن المسترشد بالله سنة ست وعشرين وخمسمائة وصل الى تكريت فخدمه نجم الدين أيوب وأقام له السفن فعبر دجلة وتبعه أصحابه فأحسن نجم الدين صحبتهم وسيرهم ثم ان أسد الدين قتل انسانا نصرانيا بتكريت لملاحاة جرت بينهما فارسل مجاهد الدين اليه والى أخيه نجم الدين فأخرجهما من تكريت وقيل ان أيوب كان يحسن الرماية فرمى شخصا من مماليك بهروز بسهم فقتله فخشى على نفسه فتوجه نحو الشام وخدم مع زنكى وقيل لما قتل أسد الدين شيركوه النصرانى وكان عزيزا عند بهروز هرب الى الموصل والتحق أيوب به وسنوضح هذه القضية ان شاء الله تعالى عند ذكر وفاة أيوب فى أخبار سنة ثمان وستين ثم ان أيوب وشيركوه قصدا أتابك الشهيد فأحسن اليهما وعرف لهما خدمتهما واقطعهما اقطاعا حسنا وصارا من جملة جنده فلما فتح حصن بعلبك جعل نجم الدين دزدارا فيه فلما قتل الشهيد حصر عسكر دمشق نجم الدين فأرسل الى سيف الدين غازى وقد قام بالملك بعد والده ينهى الحال اليه فلم تتفرغ لبعلبك وضاق الامر على من بها وخاف نجم الدين ان تؤخذ عنوة وينا له أذى فأرسل فى تسليم القلعة وطلب اقطاعا ذكره فأجيب الى ذلك وحلف له صاحب دمشق عليه وسلم القلعة ووفى له بما حلف عليه من الاقطاع والتقدم وصار عنده من أكابر الامراء واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بالخدمة النورية بعد قتل الشهيد وكان يخدمه فى أيام والده فقربه نور الدين واقطعه ورأى منه فى حروبه ومشاهده آثارا يعجز عنها غيره لشجاعته وجرائته فزاده اقطاعا

وقرباحتى صارت له حمص والرحبة وغيرهما وجعله مقدّم عسكره فلما تعلقت الهمة النورية بملك دمشق أمر أسد الدين فراسل أخاه نجم الدين وهو بها فى ذلك فطلب منه المساعدة على فتحها فأجاب الى ما يراد منه وطلب هو وأسد الدين من نور الدين كثيرا من الاقطاع والاملاك ببلد دمشق وغيرها فبذل لهما ما طلبا منه وحلف لهما عليه فوفى لهما بما ملكهما وصارا عنده فى اعلى المنازل لاسيما نجم الدين فان جميع الامراء كانوا لا يقعدون عند نور الدين الا أن يأمرهم او احدهم بذلك الا نجم الدين فانه كان اذا دخل اليه قعد من غير ان يؤمر بذلك فلما كان سنة تسع وخمسين عزم نور الدين على ارسال العساكر الى مصر ولم ير لهذا الامر الكبير اقوم ولا أشجع من أسد الدين فسيره وكان سبب ذلك ان شاور بن مجير اباشجاع السعدى وهو الملقب أمير الجيوش الذى يقول فيه عمارة من قصيدة

ضجر الحديد من الحديد وشاور ✽ فى نصر آل محمد لم يضجر

حلف الزمان ليأتين بمثله ✽ حنثت يمينك يازمان فكفر

وهو وزير الملقب بالعاضد لدين الله آخر المستخلفين بمصر كان قد وصل الى دمشق فى سنة ثمان وخمسين سادس ربيع الاول الى نور الدين مستنجدا به على من أخذ منه منصبه قهرا وكانت عادة المصريين انه اذا غلب شخص صاحب المنصب وعجز صاحب المنصب عن دفعه وعرفوا عجزه وقعوا للقاهر منهم ورتبوه ومكنوه فان قوتهم انما كانت تكون بعسكرو زيرهم وهو الملقب عندهم بالسلطان وما كانوا يرون المكاشفة واغراضهم مستقيمة وقواعدهم مستقرة من أول زمانهم على هذا المثال وكان شاور قد غلب على الوزارة وانتزعها من بنى رزيك وقتل العادل بن الصالح ابن رزيك الذى وزر بعد أبيه واسمه رزيك ويلقب بالناصر أيضا وهو الذى استحضر القاضى الفاضل عبد الرحيم ابن على من الاسكندرية واستخدمه بحضرته وبين يديه فى ديوان الجيش على ماذكره عماره اليمنى فى كتاب الوزراء المصرية وقال غرس منه للدولة بل للملة شجرة مباركة متزايدة النما أصلها ثابت وفرعها فى السما ثم خرج على شاور نائب الباب وهو أمير يقال له ضرغام بن سواد ويلقب بالمنصور فجمع له جموعا كثيرة لم يكن له بها قبل فغلبه وأخرجه من القاهرة وولده طيا واستولى على الوزارة فرحل شاور الى الشام قاصدا خدمة نور الدين مستصرخا به ومستنصرا فأحسن لقاه وأكرم مثواه فطلب منه ارسال العساكر الى مصر ليعود اليها ويكون له فيها حصة ذكرها له ويتصرف على امره ونهيه واختياره ونور الدين يقدم فى ذلك رجلا ويؤخر أخرى تارة تحمله رعاية قصد شاور وطلب الزيادة فى الملك والتقوى على الفرنج وتارة يمنعه خطر الطريق وكون الفرنج فيه الاان يوغلوا فى البر فيتعرضوا الخطر آخر مع الخوف من الفرنج أيضا ثم استخار الله تعالى وأمر أسد الدين بالتجهز للسير معه قضاء لحق الوافد المستصرخ وحبسا للبلاد وتطلعا على أحوالها وكان هوى أسد الدين فى ذلك وكان عنده من الشجاعة وقوة النفس مالا يبالى معه بمخافة فتجهز وسار مع شاور فى جمادى الآخرة من سنة تسع وخمسين هكذا ذكر ابن الاثير والعماد الكاتب وقال القاضى ابن شداد كان ذلك سنة ثمان وخمسين والقول فى ذلك قولهما فقد بينا ان قدوم شاور الى الشام كان فى سنة ثمان وخمسين وارسال نور الدين العسكر كان فى جمادى سنة تسع وخمسين قالوا وأمر نور الدين أسد الدين باعادة شاور الى منصبه والانتقام ممن نازعه فى الوزارة وسار واجميعا وسار معهم نور الدين الى اطراف بلاد الاسلام مما يلى الفرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لاسد الدين فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين ووصل أسد الدين سالما الى مصر هو ومن معه فهرب المنازع لشاور فى الوزارة وقتل وطيف برأسه وعاد شاور وزيرا وتمكن من منصبه وكان عمارة قد مدح ضرغاما بقصيدة منها

وأحق من وزر الخلافة من نشا ✽ فى حضرة الاكرام والاجلال

واختص بالخلفاء وانكشفت له ✽ أسرارها بقرائن الاحوال

وتصرف الوزراء عن افعاله ✽ كتصرف الاسماء بالافعال

قال عمارة ولما جاز وابرأسه على الخليج وكنت أسكن صف الخليج بالقاهرة قلت ارتجالا

أرى حنك الوزارة صارسيفا ✽ يحذ بحده صيد الرقاب

كانك رايد البلوى والا ✽ بشير بالمنية والمصاب

ولعمارة اليمنى من قصيدة مدح بها شاور وذكر وزراتيه قوله

فنصرت فى الأولى بضرب زلزل الـ ... أقدام وهى شديدة الاقدام
ونصرت فى الاخرى بضرب صادق ❁ أضحى بطير به غراب الهام
أدركت ثارا وارتجعت وزارة ❁ نزعا بسيفك من يدى ضرغام

وكان ضرغام أولا من أصحاب شاور واتباعه وقد أشار الى ذلك عمارة فى قوله من قصيدة له

كانت وزارتك القديمة مشرعا ❁ صفوا ولكن كدرت غدرانها
غصبت رجال تاجه وسريره ❁ من بعدما سجدت له تيجانها

وله من قصيدة أخرى فى شاور

وزير تمنته الوزارة أولا ❁ وثانية عفوا بغير طلاب
فخانته فى الاولى بطانة وده ❁ ورب حبيب فى قميص حباب
وجاءته تبغى الصلح ثانى مرة ❁ فلم يرض الابعد ضرب رقاب

ولم يغلب وزير لهم وعاد غير شاور وكان مدة أخذ الوزارة منه الى ان عادت اليه تسعة أشهر سواء وهى مدة الحمل نص عمارة على ذلك وقال قتل ولده طى يوم الجمعة الثامن والعشرين من رمضان وجاز رأسه على رمح تحت الطيقان والنساء يولولن بالصراخ وكان فيهن واحدة تحفظ قولى فى الصالح

اينسى وفى العينين صورة وجهه الـ ❁ ـكريم وعهد الانتقال قريب

فمازالت تكرره حتى رأت رأس ضرغام قال وأدرك شاور ثاره فى يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الاخرة فيكون بينهما تسعة أشهر قال وقلت فى ذلك

ونزعت ملكك من رجال نازعوا ❁ فيه وكنت به أحق واقعدا
جذبوا رداءك غاصبين فلم تزل ❁ حتى كسوت القوم أردية الردى
وبردت قلبك من حرارة حرقة ❁ أمرت نسيم الليل ان لايبردا
تاريخ هذا لنلته فى مثله ❁ يوما بيوم عبرة لمن اهتدى
حملت به الايام تسعة أشهر ❁ حتى جعلن له جمادى مولدا

وله فيه أيضا

لله درك موتورا اقض به ❁ دست وسرج واجفان ومضطجع
ماغبت الايسيرا ثم لحت لنا ❁ والثار مدركه والملك مرتجع
قضية لم ينل منها ابن ذى يزن ❁ الا كما نلت والاثار تتبع

قال ابن الاثير وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة وغدر به شاور وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولاسد الدين أيضا فارسل اليه يأمره بالعود الى الشام فانف أسد الدين من هذه الحال وأعاد الجواب يطلب ما كان استقر فلم يجبه شاور اليه فلما رأى ذلك أرسل نوابه فتسلموا مدينة بلبيس وحكم على البلاد الشرقية فارسل شاور الى الفرنج يستمدهم ويخوفهم من نور الدين ان ملك مصر وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك ان ملكها نور الدين فهم خائفون فلما أرسل شاور اليهم يستنجدهم ويطلب منهم ان يساعدوه على اخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحتسبوه وسارعوا الى تلبية دعوته والمبادرة الى نصرته وطمعوا فى ملك ديار مصر وكان قد بذل لهم مالا على المسير اليه فتجهزوا وساروا فلما بلغ نور الدين خبر تجهيزهم للمسير سار بعساكره فى أطراف بلاده مما يلى الافرنج ليمتنعوا من المسير فلم يمتنعوا لعلمهم أن الخطر فى مقامهم اذا ملك أسد الدين مصر أشد من الخطر فى مسيرهم فتركوا فى بلادهم من يحفظها وسار ملك القدس فى الباقين الى مصر وكان قد وصل الى الساحل جمع كبير من الفرنج فى البحر لزيارة البيت المقدس فاستعان بهم ملك الفرنج فأعانوه وسار بعضهم معه وأقام بعض فى البلاد لحفظها فلما قارب الفرنج مصر فارقها أسد الدين وقصد مدينة بلبيس وأقام بها هو وعسكره وجعلها ظهرا يتحصن به فاجتمعت

العساكر المصرية والفرنجية ونازلوا أسد الدين بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة أشهر وقد امتنع أسد الدين بها وسورها من طين قصير جدًا وليس له خندق ولا جبيل يحميها وهو يغاديهم القتال ويراوحهم فلم يبلغوا منه غرضا ولا نالوا منه شيئا فبينما هم كذلك اذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج بحارم وملك نور الدين الحصن ومسيره الى بانياس فحينئذ سقط فى أيديهم وأرادوا العود الى البلاد ليحفظوها ولعلهم يدركون بانياس قبل أخذها فلم يدركوها الا وقد ملكها على ماسيأتى بيانه ان شاء الله تعالى وراسلوا أسد الدين فى الصلح والعود الى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها الى المصريين فاجابهم الى ذلك لانه لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنج فى الساحل قال ابن الاثير فحدثنى من رأى أسد الدين حين خرج من بلبيس قال رأيته وقد أخرج أصحابه بين يديه وبقى فى آخرهم وبيده لت من حديد يحمى ساقتهم والمسلمون والفرنج ينظرون قال فاتاه فرنجى من الفرنج الغرباء فقال له أما تخاف ان يغدر بك هؤلاء المسلمون والفرنج قد أحاطوا بك وباصحابك فلا يبقى لك معهم بقية فقال شيركوه ياليتهم فعلوا حتى كنت ترى مالم تر مثله كنت والله أضع فيهم السيف فلا اقتل حتى اقتل رجالا وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفنى ابطالهم فيملك بلادهم ويفنى من بقى منهم ووالله لو أطاعنى هؤلاء يعنى أصحابه لخرجت اليكم أول يوم لكنهم امتنعوا فصلب الفرنجى على وجهه وقال كنا نعجب من فرنج هذه الديار ومبالغتهم فى صفتك وخوفهم منك والآن فقد عذرناهم ثم رجع عنه وسار شيركوه الى الشام وعاد سالما وقال العماد الكاتب وصل شاور الى نور الدين ملتجئا فالقاه على عدوه معديا مشكيا وسير معه أسد الدين على قرار عينه وأمر بينه وبغية يدركها وخطة يملكها ومحجة واضحة فى الملك يسلكها فمضى معه ونصره وأصفى له مشرعه واسترد له موضعه وأظهره بعلوه وأظفره بعدوه فلما باد خصمه بدا وصمه وغدر بعهده وأخلف فى وعده وكان قد راسل الفرنج وهاداهم فى حرب الاسلام فوصلوا فتحصن شيركوه ومن معه بمدينة بلبيس فحاصره شاور بجنود مصر والفرنج ثلاثة أشهر من مستهل رمضان الى ذى الحجة فبذلوا له قطيعة فانصرف عنهم وعاد الى الشام وفى قلبه من شر شاور الاحن وكيف تمت بغدره تلك المحن قلت وقد أشار الى ذلك عمارة فى قوله فى مدح شاور وذكر الافرنج فقال

وأنقذت من مصر عدوا بمثله ✽ فلله من ظفر فللت وناب
صدمت جموع الكفر والشام صدمة ✽ أقتبها للقوم سوق ضراب
وقد جردت أجناد مصر عزائما ✽ مضاربها فى الصخر غير نوابى
تولوا عن الافرنج فادح ثقلها ✽ ودارت رحاها منهم بهضاب
أقامت دروع الجند تسعين ليلة ✽ ثيابا لهم ما بدلت بثياب
وهم بين مطروح هناك وطارح ✽ وبين مصيب خصمه ومصاب

وقال القاضى بن شداد سار أسد الدين الى مصر واستصحب معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وجعله مقدم عسكره وصاحب رايه وكان لايفصل أمرا ولا يقرر حالا الا بمشورته ورايه لما لاح له منه من آثار الاقبال والسعادة والفكرة الصحيحة واقتران النصر بحركاته وسكناته فساروا حتى وصلوا مصر وشاور معهم وكان لوصولهم الى مصر وقع عظيم وخافه أهل مصر ونصر شاورا على خصمه وأعاده الى منصبه ومرتبته وقرر قواعده وشاهد البلاد وعرف أحوالها وعلم انها بلاد بغير رجال تمشى الامور فيها بمجرد الايهام والمحال وكان ابتداء رحيله عنها متوجها الى الشام فى السابع من ذى الحجة فاقام بالشام مدبر الامر ومفكرا فى كيفية رجوعه الى البلاد المصرية محدثا بذلك نفسه مقررا لقواعد ذلك مع نور الدين الى سنة اثنتين وستين قلت ولفعل شاور ما فعل مع اسد الدين وصفه الشعراء بالغدر ووقعوا فيه قبل قتله وبعده على ماسنذكره وبقى متخوفا من أسد الدين فقال عرقلة الكلبى من جملة قصيدة له

وهل همَّ يوما شيركوه بجلق ✽ الى الصيد الا ارتاع فى مصر شاور
هو الملك المنصور والاسد الذى ✽ شذاذكره فى الشرق والغرب سائر

وفيها فى ذى الحجة احترقت جيرون بعد رجوع أسد الدين الى دمشق فقال العرقلة يمدحه ويذكر ذلك

جار صرف الردى على جيرون ✽ وسقى أهلها كؤس المنون

أصبحت جنة وامست جحيما * تتلظى بكل قلب حزين
كيف لاتذرف الدموع عليها * وهى فى الشام نزهة للعيون
حبذا حصنها الحصين لقد كا * ن جالالكل حصن حصين
أى سيف سطاعلى دارسيف * وزبون أتى بحرب زبون
خلت نيرانها وكل ظلام * نارليلى تلوح للمجنون
كم غنى اليمين امسى فقيرا * وفقيرامسى غنى اليمين
كل حين لها حريق جديد * ليت شعرى ماذا لها بعد حين
كل هذا البلاء عاقبة الفسق وشرب الخمور والتلحين
ولقد رد هابعزم وحزم * أسد الدين غاية المسكين
وحمى الجامع المقدس والمشهد من جرها بماء معين
ملك فعله بدجلة والبا * ب فعال الامام فى صفين

(فصل) فى فتح حارم قال العماد الكاتب وفى تلك السنة يعنى سنة تسع وخمسين اغتنم نور الدين خلو الشام من الفرنج وقصدهم واجتمعوا على حارم فضرب معهم المصاف فرزقه الله تعالى الانتقام منهم فأسرهم وقتلهم ووقع فى الاسار ابرنس انطاكية وقومص طرابلس وابن جوسلين ودوك الروم وذلك فى رمضان وقال فى الخريدة كانت نوبة البقيعة نوبة عظيمة على المسلمين وافلت نور الدين فى أقل من عشرة من عسكره ثم كسر الفرنج بعد ثلاثة أشهر على حارم وقتل فى معركة واحدة منهم عشرين ألفا واسر من نجا وأخذ القومص والابرنس والدوقس وجميع ملوكهم وكان منحا عظيما وفتحا مبينا قال ابن الاثير والسبب فى هذا الفتح ان نور الدين لما عاد منهزما على ماسبق من غزوة ناحية حصن الاكراد اقبل على الجد والاجتهاد والاستعداد للجهاد والاخذ بثاره وغزو العدو فى عقرداره وليرتق ذلك الفتق ويمحو اسمه الوهن ويعيد رونق الملك فراسل أخاه قطب الدين بالموصل وفخر الدين قرا ارسلان بالحصن ونجم الدين البى بماردين وغيرهم من أصحاب الاطراف أما قطب الدين أتابك فانه جمع عساكره وسار مجدا وعلى مقدمة عسكره زين الدين نائبه وأما فخر الدين قرا ارسلان فانه بلغنى عنه انه قال له خواصه على أى شئ عزمت فقال على القعود فان نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة فهو يلقى نفسه والناس معه فى المهالك وكلهم وافقه على ذلك فلما كان الغد أمر بالنداء فى العسكر بالتجهز للغزاة فقال له أولئك ماعدا مما بدا فارقناك بالامس على حال ونرى الآن ضدها فقال ان نور الدين قد سلك معى طريقا ان لم أنجده خرج أهل بلادى عن طاعتى واخرجوا البلاد عن يدى فانه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا يذكر لهم مالقى المسلمون من الفرنج ومانالهم من القتل والاسر والنهب ويستمد منهم الدعاء ويطلب منهم ان يحثوا المسلمين على الغزاة فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه اتباعه وأصحابه وهم يقرؤن كتب نور الدين ويبكون ويلعنونى ويدعون علىّ فلابد من أجابة دعوته ثم تجهز أيضا وسار الى نور الدين بنفسه وأما نجم الدين البى فانه سير عسكرا فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم فنزل عليها وحصرها وبلغ الخبر الى من بقى من الفرنج بالساحل انه لم يسر الى مصر فحشدوا وجاؤا ومقدم الفرنج البرنس صاحب انطاكية والقمص صاحب طرابلس وأعمالها وابن جوسلين وهومن مشاهير الفرنج وابطالها والدوك وهو رئيس الروم ومقدمها وجمعوا معهم من الراجل مالايقع عليه الاحصاء قد ملا والارض وحجبوا بقسطلهم السماء فحرض نور الدين أصحابه وفرق نفائس الاموال على شجعان الرجال فلما قاربه الفرنج رحل عن حارم الى ارتاح وهو الى لقائهم مرتاح وانما رحل طمعا ان يتبعوه ويتمكن منهم اذالقوه فساروا حتى نزلوا على عم وهو على الحقيقة تصحيف ماالقوه من الغم ثم تيقنوا انه لاطاقة لهم بقتاله ولا قدرة لهم على نزاله فعادوا الى حارم وقد حرمتهم كل خير وتبعهم نور الدين فلما تقاربوا اصطفوا للقتال وبدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وبها عسكر حلب فخر الدين فبددوا نظامهم وزلزلوا أقدامهم وولوا الادبار وتبعهم الفرنج وكانت تلك الفرة من الميمنة عن اتفاق ورأى دبروه ومكر بالعدو مكروه وهوان يبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقى من المسلمين ويضعوا فيهم السيوف ويرغموا منهم

لا انوف فاذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين لم يلقوا راجلا يلجؤون اليه ويعود المنهزمون فى آثارهم وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومن خلفهم فكان الامر على ما دبروا فان الفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف زين الدين فى عسكر الموصل على رجالتهم فافناهم قتلا وأسرا وعادت خيالتهم ولم يمعنوا فى الطلب خوفا على رجالتهم من العطب فصادفوا رجالتهم على الصعيد معفرين وبدمائهم مضرجين فسقط فى أيديهم ورأوا انهم قد ضلوا وخضعت رقابهم وذلوا فلما رجعوا عطف المنهزمون اعنتهم وعادوا فبقى العدو فى الوسط وقد احدق بهم المسلمون من كل جانب فحينئذ حمى الوطيس وباشر الحرب المرؤس والرئيس وقاتلوا الافرنج قتال من يرجو بإقدامه النجاة وحاربوا حرب من ايس من الحياة وانقضت العساكر الاسلامية عليهم انقضاض الصقور على بغاث الطيور فمزقوهم بددا وجعلوهم قددا فألقى الفرنج بأيديهم الى الاسار وعجزوا عن الهزيمة والفرار وأكثر المسلمون فيهم القتل وزادت عدة القتلى على عشرة آلاف وأما الاسرى فلم يحصوا كثرة ويكفيك دليلا على كثرتهم ان ملوكهم أسروا وهم الذين من قبل ذكروا وسار نور الدين بعد الكسرة الى حارم فملكها فى الحادى والعشرين من شهر رمضان واشار اصحابه عليه بالمسير الى انطاكية ليملكها لخلوها ممن يحميها ويدفع عنها فلم يفعل وقال أما المدينة فأمرها سهل وأما القلعة التى لها فهى منيعة لا تؤخذ الا بعد طول حصار واذا ضيقنا عليهم ارسلوا الى صاحب القسطنطينية وسلموها اليه ومجاورة بيمند احب الىّ من مجاورة ملك الروم وبث سراياه فى تلك الاعمال والولايات فنهبوا وسبوا وأوغلوا فى البلاد حتى بلغوا اللاذقية والسويدا وغير ذلك وعادوا سالمين ثم ان نور الدين اطلق بيمند صاحب انطاكية بمال جزيل أخذه منه واسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم وقال الحافظ أبو القاسم كسر نور الدين الروم والارمن والفرنج على حارم وكان عدتهم ثلاثين ألفا قال ووقع بيمند فى أسره فى نوبة حارم وباعه نفسه بمال عظيم انفقه فى الجهاد قلت وبلغنى ان نور الدين رحمه الله لما التقى الجمعان أو قبيله انفرد تحت تل حارم وسجد لربه عز وجل ومرغ وجهه وتضرع وقال يارب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك وهؤلاء عبيدك وهم اعداؤك فانصر أولياءك على أعدائك ايش فضول محمود فى الوسط يشير الى انك يارب ان نصرت المسلمين فدينك نصرت فلا تمنعهم النصر بسبب محمود ان كان غير مستحق للنصر وبلغنى انه قال اللهم انصر دينك ولا تنصر محمودا من هو محمود الكلب حتى ينصر وجرى بسبب ذلك منام حسن نذكره فى أخبار سنة خمس وستين عند رحيل الفرنج عن دمياط بعد نزولهم عليها وهذا فتح عظيم ونصر عزيز أنعم الله به على نور الدين والمسلمين مع ان جيشه عامئذ كان منه طائفة كبيرة بمصر مع شيركوه كما سبق وهذا من عجيب ما وقع واتفق

(فصل) فى ذكر وزير الموصل جمال الدين الجواد الممدح ووفاته فى هذه السنة رحمه الله وقد ذكره العماد الكاتب فى مواضع من مصنفاته واثنى عليه ثناء عظيما حسنا فمما ذكر له فى كتابه الموسوم بنصرة الفترة وعصرة الفطرة فى أخبار الوزراء السلجوقية ان قال ذكر جمال الدين أبى جعفر محمد بن على بن أبى منصور كان والده من اصفهان يدعى الكامل على وهو صاحب الوزير شمس الملك بن نظام الملك وكان أبوه أبو منصور فهادا فى عهد السلطان ملكشاه ابن الب ارسلان وابنه الكامل أديب لبيب وزادت أيامه فى السمو وايامنه فى النمو حتى تنافس فى استخدامه الملوك والوزراء واستضاءت برائه فى الحوادث الآراء وقد كان زوج بنتاله ببعض أولاد أخوال العزيز يعنى عم العماد الكاتب قال فاشتمل لذلك العزيز رحمه الله على ولده جمال الدين أبى جعفر محمد وخرجه فى الادب ودرّجه فى الرتب فأول مارتبه فى ديوان العرض السلطانى المحمودى وغلب فى تحليته ذكر الابلج فنعته الاتراك بالابلج واستقام فى نجابته على المنهج واتفق انه لما تولى زنكى بن اق سنقر الشام تزوج بأمرأة الامير كيدغدى وولدها ناصر بك ابن كيدغدى من امراء الدولة وابناء المملكة وهو يسير معها فرتبه العزيز لها صاحبك وزيرا فسار فى الصحبة وكان مقبل الوجاهة مقبول الفكاهة شهى المشاشة بهى البشاشة فتوفرت منى زنكى على منادمته وقصر صباحه ومساءه على مساهمته وعوّل عليه آخر عمره فى اشراق ديوانه وزاد المال وزان الحال بتمكينه ومكانه فلم يظهر لجمال الدين فى زمان زنكى جود ولا عرف له موجود فانه كان يقتنع باقواته وتزجية أوقاته ويرفع جميع ما يحصل له الى خزانة زنكى استبقاء لجاهه واستعلاء به على أشباهه فمكنه زنكى من أصحاب ديوانه فمنهم من استضر باساءته ومنهم من انتفع باحسانه ولما قتل زنكى صار للدولة الاتابكية ملاذا وللبيت الاقسنقرى معاذا واستوزره الامير غازى بن

زنكى وازره على كوجك على وزارته وحلف له على مظاهرته ومظافرته وجرى بين جمال الدين الوزير وبين زين الدين على كوجك وبين سيف الدين غازى التعاقد على التعاضد والتعاهد على التساعد وتولى جمال الدين وزارة الموصل واستولاه فعاش بنداه الجود وعشا الى ناديه الوفود وعادت به الموصل قبلة الاقبال وكعبة الآمال فأنارت مطالع سعوده وسارت فى الآفاق صنائع جوده وعمر الحرمين الشريفين وشمل بالبر أهلهما وجمع بالامن شملهما واجرى بحر السماح ونادى حى على الفلاح فصاحت بافضاله الفاظ الفصاح وأتوا اليه من كل فج عميق وقصد من كل بلد سحيق فقصده العظماء ومدحه الشعراء وممن وفد اليه أبو الفوارس سعد بن محمد الصفى المعروف بحيص بيص قال وأنشدنى لنفسه فيه قصيدة أوّلها

بالصوارم والرماح الذبل * نصروا ومن أنجد تمام يخذل
لوشئتما ومشيئة بمشيئة * جاد الزمان وبالعلى لم يبخل
فاقنى فخارك يامجاشع واعلمى * انى لكم من همتى فى جحفل
انا فارس اليومين يوم مقالة * ووغى أصول بصارمى وعقولى
ظلمت فضائلى المقاول مثل ما * ظلمت جمال الدين ماوى العيل
مدحوه كى يحصوا مناقب نفسه * فطمعت فسالت بالمدائح من عل
فاتيت ابذل مااستطعت ومن يرد * نقل الخضم الى المزادة يخجل
شمس من الاحسان عم ضياؤها * بل اية جاءت بحجة مرسل
يعطى الجزيل لسائلى معروفه * ويجود بالنعمى اذا لم يسأل
وتز يده شوس الخطوب طلاقة * فيكون أبسم ما يرى فى المعضل
ثقلت به الاعناق من منن الندى * فالهام مطرقه لذاك المثقل
فاذا تلاقى الناس كان حديثهم * عن كل جفن بالجمالة مسدل
أسراء معروف الوزير فكلهم * عاف تراه مطلقا كمكبل
من سمرقند الى تهامة شاهد * فضل الجمال على الحيا المتهلل
السحب تمطر ما تظل وجوده * يسرى ودار مقامه بالموصل
وتقرعين محمد بمحمد * محيى دريسى علمه والمنزل
معمار مرقده وحافظ دينه * ومعين أمته بجود مسبل
جعل المدينة مصر ربعا أهلا * نشوان يمرح بالنعيم المحصل
فكأنها بالخصب من قرباته * بلد على شط الفرات السلسل
فلوانه فى عصره نزلت له * فى مدحه سور الكتاب المنزل
عبداخ فى ضيفه ووداده * لايستميل وسيد فى المحفل
خرق نياط قيصه ورداؤه * بعباب زخار وهضبة يذبل

قال العماد وكنت أنا فى ذلك العهد متفقها ببغداد واتفق حضورى بالموصل سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة فحضرت عند جمال الدين بالجامع فى جمعتين وتكلمت عنده مع الفقهاء فى مسألتين ومما مدحته به قصيدة أوّلها

أظنهم وقد عزموا ارتحالا * ثنوا عنا جمالا لا جمالا
سروا والصبح مبيض الحواشى * فلما حال عهد الوصل حالا
هم اعتادوا الملال فكيف ملوا * وصالهم وما ملوا الملالا
احادى عيسهم بالله رفقا * فان السير اوهنها الكلالا
وعج نحو الاراك بها فانى * اراه لاجتماع الشمل فالا
سقى صوب الحيا تاءات نجد * وحيا بالحمى تلك التلالا

اخلائى وهل فى الناس خل * به اخلو ومن الاحزان بالا
لئن لم أشف صدرى من حسودى * ولم أذق العدى داءعضالا
فلا ادركت من أدبى مرادا * ولا صادفت من حسبى منالا
ولا وخدت اليك بى جمال * ولا واليت مولانا الجمالا
هو المغنى اذا ما المرء اقوى * هو المجبى اذا ما الخطب هالا
وقائلة الى الدنيا كريم * سواه فقلت لا وأبى العلالا
اطلت على الورى كرما وفخرا * كذلك من حوى هذين طالا
وحزت المجد عن كسب وارث * فيا صدر الورى حزت الكمالا
خصصت بكل منقبة وفضل * تعالى من حباك به تعالى

قلت وقد أكثر الشعراء فى مدحه منهم العرقلة له قصيدة منها

يهوى تجنيه والصدود كما * يهوى المعالى محمد بن على
جمال دين الاله خير فتى * للرزق اقلامه وللاجل
معطى القرى والقرى لقاصده * من غير من والخيل والخول
مثل فتوح الفاروق نائله * شرقا وغربا فى السهل والجبل
من قال لم يحوذا ويسكن ذا * أصبح مما يقول فى خجل
محمد خاتم الكرام كما * سميه كان خاتم الرسل

وفيه يقول أحمد بن منير من قصيدة

كسى الحرمين لبسة عبد شمس * وهاشم غرتى نسل الخليل
وللبلد الامين اجد امنا * تكنف مثله جدث الرسول
عشيتم ياولاة الامر عما * اتيح له من الاثر الجميل
وطارلها وأشفقتم فشد السيد بن على عرى المجد الاثيل
بيوت بالجازمة مقدسات * رماها الدهر بالخطب الجليل
وكان اذا الهن فصاب صونا * لمن آوته من ولد البتول
مآثر باقيات يوم يجنى الـمقال ويجتنى طيب المقيل
وكم للموصل الحدباء مما * تنيل يداه من ريف ونيل
برود الصفح ملتهب الحواشى * مهيب البطش فراس الدخول

ولأبى المجد قسيم الحموى فيه من قصيدة

اغر يبهر منه الناس فى رجل * والليث فى بشر والبدر فى غصن
سما بهمته فى المكرمات الى * علياء يقصر عنها همة الزمن
يلقاك واضح ليل الفكر راجح نيـل الكف طاهر ذيل السر والعلن
ماضى العزيمة ميمون النقيبة ربال الكتيبة عين القائل اللسن
اذا تكلم واستجليت غرته * فى محفل رحت حالى العين والاذن
كأن فى الدست منه حين تنظره * شمس النهار وصوب العارض الهتن

قال ابن الاثير وفيها فى شعبان من هذه السنة وهى سنة تسع وخمسين وخمسمائة توفى الوزير جمال الدين محمد ابن على بن أبى منصور الاصفهانى كان قد خدم الشهيد فولاه نصيبين وظهرت كفايته فأضاف اليه الرحبة فابان عن كفاية وعفة وكان من خواصه فجعله مشرف مملكته كلها وحكمه تحكيما لامزيد عليه حتى كان وزير الشهيد والحاكم فى بلاده ضياء الدين ابن الكفر توثى يحكى عن جمال الدين قال كان يدخل الى أتابك قبلى ويخرج بعدى

ولم

ولم يزل كذلك الى أن قتل الشهيد ثم وزر لولدى الشهيد سيف الدين ثم قطب الدين وكان بينه وبين زين الدين على كوجك عهود ومواثيق على المصافاة والاتفاق وكان أصحاب زين الدين يكرهونه ويقعون فيه عند زين الدين فنهاهم وكانت الموصل فى أيامه ملجأ لكل ملهوف ومأمنا لكل خائف فسعى به الحساد الى قطب الدين حتى أوغروا صدره عليه وقالوا له انه يأخذ أموالك فيتصدق بها فلم يمكنه أن يغير عليه شيئا بسبب اتفاقه مع زين الدين فوضع على زين الدين من غيره عن مصافاته ومواخاته فقبض عليه قطب الدين وحبسه بقلعة الموصل ثم ندم زين الدين على الموافقة على قبضه لان خواص قطب الدين وأصحابه كانوا يخافون جمال الدين فلما قبض تبسطوا فى الامر والنهى على خلاف غرض زين الدين فبقى جمال الدين فى الحبس نحوا من سنة ثم مرض ومضى لسبيله عظيم القدر والخطر كريم الورد والصدر عديم النظير فى سعة نفس لم ير و فى كتب الاولين ان أحدا من الوزراء اتسعت نفسه ومروءته لما اتسعت له نفس جمال الدين فلقد كان عظيم الفتوة كامل المروة قال ابن الاثير حكى لى جماعة عن الشيخ أبى القاسم الصوفى وهو رجل من الصالحين كان يتولى خدمة جمال الدين فى محبسه قال لم يزل الجمال مشغولا بأمر آخرته مدة حبسه وكان يقول كنت أخشى ان أنقل من الدست الى القبر قال فلما مرض قال لى بعض الايام يا أبا القاسم اذا جاء طائر أبيض الى الدار فعرفنى فقلت فى نفسى قد اختلط الرجل فلما كان الغداة اكثر السؤال عن ذلك الطائر واذا طائر أبيض لم ير مثله قد سقط فقلت له قد جاء الطائر فاستبشر ثم قال جاء الحق وأقبل على الشهادة وذكر الله تعالى وتوفى فلما توفى طار ذلك الطائر قال فعلمت انه رأى شيئا فى معناه ودفن بالموصل نحو سنة وكان قد قال للشيخ أبى القاسم ان بينى و بين أسد الدين شيركوه عهدا من مات منا قبل صاحبه حمله الحى الى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فدفنه بها فى التربة التى عملها فان انا مت فامض اليه وذكره فلما توفى سار الشيخ أبو القاسم الى أسد الدين فى هذا المعنى فأعطاه مالا صالحا يحمله به الى مكة والمدينة وأمر ان يحج معه جماعة من الصوفية ومن يقرأ بين يدى تابوته عند النزول والرحيل وقدوم مدينة تكون فى الطريق وينادون فى البلاد بالصلاة على فلان ففعلوا ذلك فكان يصلى عليه فى كل مدينة خلق كثير فلما كان فى الحلة اجتمع الناس للصلاة عليه فاذا شاب قد ارتفع على موضع عال ونادى بأعلى صوته

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما * سرى بره فوق الركاب ونائله
يمر على الوادى فتثنى رماله * عليه وفى النادى فتبكى ارامله

فلم ير باكيا أكثر من ذلك اليوم ثم وصلوا به الى مكة فطافوا به حول الكعبة وصلوا عليه بالحرم وحملوه الى المدينة فصلوا عليه أيضا ودفنوه بالرباط الذى أنشاه بها وبينه وبين قبر النبى صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ذراعا قلت كذا قال ابن الاثير ولقد رأيت المكان ولعله أراد الحائط الشرقى من مسجد النبى صلى الله عليه وسلم لا نفس القبر الشريف زاده الله شرفا وصلى على ساكنه ثم قال كان جمال الدين رحمه الله اسخى الناس وأكثرهم عطاء وبذلا للمال رحيما بالناس متعطفا عليهم عادلا فيهم فمن أعماله الحسنة انه جدد بناء مسجد الخيف بمنى وغرم عليه أموالا عظيمة وبنى الحجر بجانب الكعبة ورأيت اسمه عليه ثم غير وبنى غير سنة ست وسبعين وخمسمائة وزخرف الكعبة بالذهب والنقرة فكل ما فيها من ذلك فهو عمله الى سنة تسع وستمائة ولما أراد ذلك أرسل الى الامام المقتفى لامر الله هدية جليلة حتى أذن فيه وأرسل الى أمير مكة عيسى بن هاشم خلعا سنية وهدية كثيرة حتى مكنه منه وعمر أيضا المسجد الذى على جبل عرفات وعمل الدرج الذى يصعد فيها اليه وكان الناس يلقون شدة فى صعودهم وعمل بعرفات مصانع للماء واجرى الماء اليها من نعمان فى طريق معمولة تحت الجبل مبنية بالكلس فغرم على ذلك مالا كثيرا وكان يعطى أهل نعمان كل سنة مالا كثيرا ليتركوا الماء يجرى الى المصانع أيام مقام الحجاج بعرفات فكان الناس يجدون به راحة عظيمة قال ومن أعظم الاعمال التى عملها نفعا انه بنى سورا على مدينة النبى صلى الله عليه وسلم فانها كانت بغير سور ينهبها الاعراب وكان أهلها فى ضنك وضر معهم رأيت بالمدينة انسانا يصلى الجمعة فلما فرغ ترحم على جمال الدين ودعا له فسألناه عن سبب ذلك فقال يجب على كل من بالمدينة ان يدعو له لاننا كنا فى ضر وضيق ونكد عيش مع العرب لا يتركون لاحد منا ما يواريه ويشبع جوعته فبنى علينا سورا احتمينا به ممن يريدنا بسوء فاستغنينا

فكيف لا ندعو له قال وكان الخطيب بالمدينة يقول فى خطبته اللهم صن حريم من صان حرم نبيك بالسور محمد بن على ابن ابى منصور قال فلو لم يكن له الا هذه المكرمة لكفاه فخرا فكيف وقد كانت صدقاته تجوب شرق الارض وغربها وسمعت عن متولى ديوان صدقاته التى يخرجها على باب داره للفقراء سوى الادرارات والتعهدات قال كان له كل يوم مائة دينار أميرية يتصدق بها على باب داره قال ومن أبنيته العجيبة التى لم ير الناس مثلها الجسر الذى بناه على دجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس الا انه لم يفرغ لانه قبض قبل فراغه وبنى أيضا جسرا على نهر الاريادعند الجزيرة أيضا وبنى الربط بالموصل وسنجار ونصيبين وغيرها وقصده الناس من اقطار الارض ويكفيه ان صدر الدين الجندى رئيس اصحاب الشافعى رضى الله عنه باصبهان وابن الكافى قاضى قضاة همذان قصداه فاخرج عليهما الاجزيلا وكذلك غيرهما من الصدور والعلماء ومشايخ الصوفية وصارت الموصل فى أيامه مقصدا وملجأ وكان أحب الاشياء اليه اخراج المال فى الصدقات وكان يضيق على نفسه و بيته ليتصدق حكى لى والدى قال كنت يوما عنده وقد أحضر بين يديه قندز ليعمل على وبر ليلبسه بخمسة دنانير فقال هذا الثمن كثير اشتر والى قندزا بدينارين وتصدقوا بثلاثة دنانير قال فراجعناه غير مرة فلم يفعل قال وحكى لى من اثق اليه من العدول بالموصل ان الاقوات تعذرت فى بعض السنين بها وغلت الاسعار وكان بالموصل رجل من الصالحين يقال له الشيخ عمر الملا فاحضره جمال الدين وسلم اليه مالا وقال له تخرج هذا على مستحقيه وكلما فرغ ارسل الى لانفذ غيره فلم يمض الا أيام يسيرة حتى فرغ ذلك المال لكثرة المحتاجين فأنفذ له شيئا آخر ففنى ثم أرسل يطلب ما يخرجه فقال جمال الدين للرسول والله ما عندى شئ ولكن خذوا هذه المحافر التى فى دارى بيعوها وتصدقوا بثمنها الى ان يأتينى شئ آخر فترسله الى الشيخ عمر فبيعت المحافر وتصدقوا بثمنها وعرفوه ذلك فلم يكن عنده ما يرسله فأعطاه ثيابه التى كان يلبسها مع العمامة التى كانت على رأسه وأرسل الجميع قال للرسول قل للشيخ لا يمتنع من الطلب فهذه أيام مواساة فلما وصلت الثياب الى الشيخ عمر بكى وباعها وتصدق بثمنها وقال وحكى لى بعض الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النسائى شيخ الشيوخ بالموصل قال احضرنى الشيخ فقال لى انطلق الى مسجد الوزير وهو بظاهر الموصل واقعد هناك فاذا أتاك شئ فاحفظه الى ان أحضر عندك ففعلت واذا قد أقبل جمع من الحمالين يحملون أحمالا من النصافى والخام واذا قد جاء نائب جمال الدين مع الشيخ ومعهما قماش كثير وثمانية عشر ألف دينار وعدة كثيرة من الجمال فقال لى تأخذ هذه الاحمال وتسير الى الرحبة فتوصل هذه الرزمة وهذا الكتاب الى متوليها فلان فاذا احضر لك فلانا العربى فتوصل اليه هذه الرزمة الاخرى وهذا الكتاب وتسير معه فاذا أوصلك الى فلان العربى فتوصل اليه هذه الرزمة وهذا الكتاب وهكذا الى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام توصل الى وكيلى فلان هذه الاحمال وهذه الكسوات والمال الذى عليه اسم المدينة ليخرجها بمقتضى هذه الجريدة ثم يأخذ الباقى الذى عليه اسم مكة و يسير اليها فيتصدق به وكيلى بها بموجب الجريدة الاخرى قال فسرنا كذلك الى وادى القرى فرأينا به نحو مائة جمل تحمل الطعام الى المدينة وقد منعهم خوف الطريق فلما رأونا سار وامعنا اليها فوصلناها والحنطة بها كل صاعين بدينار مصرى والصاع خمسة عشر رطلا بالبغدادى فلما رأوا الطعام والمال اشتروا كل سبعة آصع بدينار فانقلبت المدينة بالدعاء له ثم سرنا الى مكة ففعلنا ما أمرنا قال وحكى لى والدى قال رأيت جمال الدين وقد حضر عنده رجل فقيه قبل ان يصير وزيرا فطلب منه شيئا وتردد اليه عدة أيام ثم انقطع فسأل عنه فقيل انه سافر فشق ذلك عليه ثم قال هكذا تنصرف الاحرار عن دور الكلاب ورد ذلك غير مرة ثم سأل عنه فقيل انه سار نحو ماردين فأرسل اليه خلعة ونفقة الى ماردين قال ولو رمت شرح مفردات أعماله لاطلت واضجرت وهى ظاهرة لا تحتاج الى بيان فلهذا تركنا أكثرها وقد ذكره الامير مؤيد الدولة اسامة بن منقذ فى كتاب الاعتبار فقال اجتمعت بجمال الدين الموصلى سنة خمس وخمسين وخمسمائة وانا متوجه الى الحج وكانت بينى وبينه مودة قديمة وعشرة ومؤانسة فعرض علىّ الدخول الى داره فى الموصل فامتنعت ونزلت بخيمتى على الشط فكان مدة مقامى كل يوم يركب يجوز على الجسر نحو نينوى وأتابك قد ركب الى الميدان وينفذ الى يقول اركب فأنا واقف أنتظرك فاركب فأسير أنا وهو فتحدث فوجدت يوما منه خلوة من أصحابى فقلت له فى نفسى شئ يتردد من حيث اجتمعنا اشتهى ان أقوله لك وما يتفق لى خلوة وقد خلونا الساعة فقال قل قلت أقول ما قاله الشريف الرضى

ما نا صحنك خفايا الودّ من أحد * مالم يصبك بمكروه من العذل
مودّتى لك تأبى ان تسامحنى * بان أراك على شئ من الزلل

وقد بسطت يدك فى انفاق المال فى الصدقات ووجوه البرّ والمعروف والسلاطين ما يحتملون اخراج المال ولا تصبر نفوسهم عليه ولوان الانسان يخرجه من ميراثه وهذا الذى أهلك البرامكة فانظر لنفسك كيف المخرج مما قد دخلت فيه فاطرق ساعة وقال جزاك الله خيرا لكن الامر قد عبر عما تخافه ففارقته وسرت الى الحجاز وعدت من مكة على طريق الشام ونكب جمال الدين ومات فى الحبس قلت ولعلم الدين الحسن بن سعيد الشاتانى فى هذا الوزير الجواد لما نكب

ماحط قدرك من أوج العلى القدر * كلا ولا غيرت أفعالك الغير
أنت الذى عم أهل الارض نائله * ولم ينل شأوه فى سودد بشر
سارت صفاتك فى الآفاق واتضحت * وصدّق السمع عنها مارأى البصر
فاصبر لصرف زمان قد منيت به * فاخر الصبر يا طود النهى الظفر
فما ترى أحدا فى الخلق يسلم من * صروف دهر له فى أهله غير
سعوا بقصدك سرا واستبت لهم * ولو سعوا نحوه جهر الما قدروا
لولا الامانى التى تحيى النفوس بها * لمت من لوعة فى القلب تستعر
وأصدق الناس فى حفظ العهود اذا * ميزت بالفكر أحوال الورى عمر
الزاهد العابد البرّ التقى ومن * يزوره ويقوّى أزره الخضر

وقال العرقلة يرثى جمال الدين الوزير والصالح بن رزيك

لا خير فى الدنيا ولا أهلها * بعد جمال الدين والصالح
بحران لولا دمع باكيهما * ما كان ماء البحر بالمالح

قال ابن الاثير قال والدى كنت أرى من الوزير جمال الدين فى الايام الشهيدية من الكفاية والنظر فى صغير الامور وكبيرها والمحاققة فيها مايدل على تمكنه من الكفاية فلما وصل الامر الى الملك قطب الدين مودود بن اتابك الشهيد وجمال الدين وزيره حينئذ وقد تمكن زين الدين على بن بكتكين فى الدولة تمكنا عظيما وتقدم عند قطب الدين جماعة من أصحابه فكان جمال الدين مع تمكنه وعلوّ محله يهمل بعض الامور قال فقلت له يوما أين تلك الكفاية التى كنا نراها منك فى الايام الشهيدية ما أرى الآن منها شيئا فقال لى والآن ما عندى كفاية فقلت ما هذا العمل من ذلك بشئ فقال أنت صبى غر ليست الكفاية عبارة عن فعل واحد فى كل زمان انما الكفاية ان يسلك الانسان فى كل زمان ما يناسبه ذلك الوقت كان لنا صاحب متمكن قوى العزم لا يتجاسر أحد على الاعتراض عليه ولا يتلاون باقوال أصحابه فحفظناه فكان ما أفعله هو الكفاية وأما الآن فلنا سلطان غير متمكن وهو محكوم عليه فهذا الذى أفعله هو الكفايه

﴿ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة﴾ قال ابن الاثير فيها فتح نور الدين قلعة بانياس من الفرنج وكان قد سار اليها بعد عوده من فتح حارم وأذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود الى بلادهم وأظهر انه يريد طبرية فجعل من بقى من الفرنج همهم حفظها وتقويتها فسار نور الدين مجدا الى بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحماة المانعين عنها ونازلها وضيق عليها وقاتلها وكان فى جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير اميران فأصابه سهم أذهب احدى عينيه فلما رآه نور الدين قال له لو كشف لك عن الاجر الذى أعدّ لك لتمنيت ان تذهب الاخرى وجدّ فى حصارها وسمع الفرنج بذلك فجمعوا فلم تتكامل عدتهم حتى فتحه الله تعالى على ان الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم فملك القلعة وملأها ذخائر وعدّة ورجالا عدة وعاد نور الدين الى دمشق وفى يده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجوهر فسقط من يده فى شعراء بانياس وهى كثيرة الاشجار ملتفة الاغصان فلما أبعد من المكان الذى ضاع فيه الفص علم به فاعاد بعض

أصحابه فى طلبه ودلهم على مكانه وقال أظنه هناك ضاع فعادوا اليه فوجدوه فقال بعض الشعراء الشاميين وأظنه أحمد بن منير من جملة قصيدة يمدحه بها ويهنيه بهذه الغزاة وعود الفص الياقوت

ان يمترِ الشكاك فيك فانك الـ ... ـمهدى مطفى جمرة الدجال
فلعودة الجبل الذى أظلته * بالامس بين عناطل وجبال
مستر جعالك بالسعادة آية * ردت مطال الفال غير مطال
لم يعطها الاسليمان وقد * نلت الرقاء بموشك الاعجال
زحزحى لسر برملكك انه * كسر يره عن كل جذر عال
فلوالبحار السبعة استهوينه * وأمرتهن قذفنه فى الحال

قلت هذه الابيات لابن منير بلاشك ولكن فى غير هذه الغزاة فان ابن منير قد سبق انه توفى سنة ثمان وأربعين وفتح بانياس كان اراه فى سنة ستين وقد قرأت فى ديوان ابن منير وقال يمدحه يعنى نورالدين ويهنيه بالعود من غزاة وضياع فص ياقوت جبل من يده لاشتغاله بالصيد شراء ألف ومائة دينار وفى نسخة ووجدان خاتم ضاع منه فى الصيد قيمته ألف ومائة دينار وأنشده اياها بقلعة حمص فذكر القصيدة أولها (يومالك يوم ندى ويوم نزال) يقول فيها

أخرست شقشقة الضلال وقدته * قود الذلول أطاع بعد صيال
ورميت دار المشركين بصيلم * ألحت فيها الحرب بعد حيال
وسعرت بين تريبهم وترابهم * ذعرا يشيب نواصى الاطفال
فوق الخطيم وقد خطمت زعيمهم * ضربا سوابقه بغير توالى
ضربا ملأت فرنجة من حره * رهبا به سيف الصقال صالى
وبفج حارم أحرمت لقراعهم * هيم أحلن النوم غير حلال
عجموا على جسر الحديد حديدها * نبعا بعاذمه ادير دصال
زلزلت أرضهم بوقع صواعق * أعطيننا امنا من الزلزال
فى مازق شمرت ذيلك تحته * والنصر فوقك مسبل الاذيال
فى دولة غراء محمودية * سحبت رداء الحمد غير مذال
تنسى الفتوح بها الفتوح وتجتنى * زهر المقال بباهر الا فعال
لبست بنور الدين نورحدائق * ثمراتهن غرائب الافضال
ملك تحجب فى السرير بزأرة * زرت حواشيها على رئبال
تجتاب عن ذى لبدتين شذاته * فى بردتى بدل من الابدال
رفع الرواق بروق انطاكية * فرمى الخليج بمرهق البلبال
بدر لاربع عشرة اقتبس السنا * من خمس عشرة سورة الانفال
فوز المآل أخاض ماء الطلى * وسواه يقعده احتياز المال
متقسم بين القسمين العلى * عن عم عم أو مخايل خال
لازلت تطلع من ثنايا جحفل * يقفو لواءك كاللوى المنهال
لك ان تطل على الكواكب راقيا * ولحاسديك بكا على الاطلال

ومما يناسب هذه السعادة فى وجدان الخاتم بعد وقوعه فى مظنة الهلاك والضياع ما بلغنى ان موسى الهادى لما ولى الخلافة سأل عن خاتم عظيم القيمة كان لابيه المهدى فبلغه ان أخاه الرشيد أخذه فطلبه منه فامتنع فالح عليه فيه فحنق الرشيد ومر على جسر بغداد فرماه فى دجلة فلما مات الهادى وولى الرشيد الخلافة أتى ذلك المكان بعينه ومعه خاتم من رصاص فرماه ثم أمر الغطاسين ان يلتمسوه ففعلوا فاستخرجوا الخاتم الاول فعد ذلك من سعادة الرشيد وبقاء ملكه قال ابن الاثير ولما فتح نورالدين حصن بانياس كان ولد معين الدين انر الذى سلم بانياس الى الافرنج قائما على

رأسه فالتفت اليه وقال له للناس بهذا الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان فقال كيف ذلك قال لان الله تعالى اليوم برّد جلدة والدك من جهنم وقد تقدم انه كان صانع بها عن دمشق لما نزل الفرنج عليها وفيها توفى وزير بغداد عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيبانى من بنى ذهل بن شيبان ابن ثعلبة بن الحصن وكان عالما دينا مدبرا حنبلى المذهب وزر للمقتفى ثم للمستنجد بعده وله عدة مصنفات منها الافصاح فى شرح الاحاديث الصحاح وكان يجمع فى مجلسه أفاضل الوقت من أعيان المذاهب الاربعة والنحاة وغيرهم ويجرى بحضرتهم فوائد كثيرة ثم توفى وهو ساجد فى صلاة الصبح من يوم الاحد ثالث عشر جمادى الاول سنة ستين وخمسمائة وروئيت له منامات حسنة ومدحه جماعة من الفضلاء ومولده فى ربيع الآخر سنة سبع وتسعين وأربعمائة بقرية من أعمال دجيل تعرف بالدور وهو الذى محا رسوم سلاطين العجم من العراق وأجلاهم عن خطتها بحسن تدبيره ومن كلامه لبعض من كان يأمر بالمعروف اجتهد ان تستر العصاة فان ظهور معاصيهم عيب فى الاسلام وأولى الامور ستر العيوب

﴿ثم دخلت سنة احدى وستين وخمسمائة﴾ ففيها توفى فتح الدين بن أسد الدين شيركوه أخو ناصر الدين وقبره بالمقبرة النجمية الى جانب قبر ابن عمه شاهنشاه بن أيوب فى قبة فيها أربع قبور هما الاوسطان منها وفى هذين الاخوين ناصر الدين وفتح الدين يقول العرقلة حسان

لله شبلا أسد خادر ❊ مافيهما جبن ولا شح
ما أقبلا الاوقال الورى ❊ قدجاء نصر الله والفتح

وفيها سار نور الدين أيضا الى حصن المنيطرة وهو للفرنج ولم يحشد له ولا جمع عساكره انما سار اليه على غرة من الفرنج وعلم انه ان جمع العساكر حذر وا وجمعوا فانتهز الفرصة وسار الى المنيطرة وحصرها وجدّ فى قتالها وأخذها عنوة وقهرا وقتل من بها وسبى وغنم غنيمة كثيرة لأ من من به فأخذتهم خيل الله بغتة وهم لا يشعرون ولم يقدر الفرنج على ان يجتمعوا لدفعه الا وقد ملكه ولو علموا انه جرد جريدة لاسرعوا وانما ظنوا ان نور الدين فى جمع كثير فلما ملكه تفرّقوا وايسوا منه هذا قول ابن الاثير وذكر القاضى ابن شدّاد ان ذلك كان فى سنة اثنتين وستين كما سيأتى والله أعلم وفيها توفى الجليس بن الحباب بمصر قال العماد فى الخريدة القاضى الجليس أبو المعالى عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الاغلبى السعدى التميمى جليس صاحب مصر فضله مشهور وشعره مأثور وكان أوحد عصره فى مصره نظما ونثرا وترسلا وشعرا ومات بها فى سنة احدى وستين وقد أناف على السبعين أنشدنى له الامير نجم الدين بن مصال من قصيدة يقول فيها

ومن عجب ان السيوف لديهم ❊ تحيض دماء والسيوف ذكور
واعجب من ذا انها فى أكفهم ❊ تأجج نارا والاكف بحور

قال وأنشدنى له الشريف ادريس الادريسى قصيدة سيرها الى الصالح بن رزيك قبل وزارته يحرضه على ادراك ثار الظافر وكان عباس وزيرهم قتله وقتل اخوته يوسف وجبريل يقول فيها

أصادفهم قولا وغيبا ومشهدا ❊ نحوهم على عمد بفعل أعادى
فأين بنو رزيك عنها ونصرهم ❊ وما لهم من منعة وذياد
فلو عاينت عيناك بالقصر يومهم ❊ ومصرعهم لم تكتحل برقاد
فخرق جموع المارقين فانها ❊ بقايا زروع أذنت بحصاد

وله فيه من أخرى فى هذه الحادثه

ولما ترامى البربرى بجهله ❊ الى فتكة مارامها قط رائم
ركبت اليه متن عزمتك التى ❊ بأمثالها تلقى الخطوب العظائم
أعدت اليهم ملكهم بعد ما لوى ❊ به غاصب حق الامامة ظالم

وأنفذ اليه فى المعنى يقول

أعدت الى جسم الوزارة روحها ❊ وما كان يرجى بعثها ونشورها

أقامت زمانا عند غيرك طامثا * فهذا الاوان قروءها وطهورها
من العدل ان يحظى بها مستحقها * ويخلعها مردودة مستعيرها
اذا ملك الحسناء من ليس كفؤها * أشار عليه بالطلاق مشيرها

وله يشكو طبيبا

واصل بليتي من قد غزاني * من السقم الملح بعسكرين
طبيب طبه كغراب بين * يفرق بين عافيتي وبيني
أتى الحمى وقد شاخت وباخت * فردّ لها الشباب بنسختين
ودبرها بتدبير لطيف * حكاه عن سنان أو حنين
وكانت نوبة فى كل يوم * فصيرها بحذق نوبتين

قلت الابيات الرائية تمثل بها الجليس وهي لمصردقراءتها في ديوانه وهي من قصيدة يمدح بها وزير الخليفة ببغداد فخر الدولة أبا نصر محمد بن محمد بن جهير ويهنيه بعوده الى الوزارة وأولها

لحاجة قلب مايفيق غرورها * وحاجة نفس ليس يقضي يسيرها
وقفنا صفوفا فى الديار كأنها * صحائف ملقاة ونحن سطورها
يقول خليلي والظباء سوانح * أهذى التي تهوى فقلت نظيرها
وقد قلتما لى ليس فى الارض جنة * أما هذه فوق الركائب حورها
أراك الحمى قل لى بأى وسيلة * وصلت الى أن صادفتك ثغورها
ومالى بها علم فهل أنت عالم * أأفواهها أولى بها أم نحورها
على رسلكم فى الحجر انا عصابة * اذا ظفرت فى الحب عف ضميرها
فقل لليالى كيف شئت تقلبي * ففي يد عبل الساعدين أمورها
أمانى فى نفس الوزارة بلغت * به كنهها حتى استحقت نذورها
لوت وجهها عن كل طالب متعة * الى خاطب حل عليه سفورها
اذا مثل الاقوام دون عرينه * تساوى به ذو طيشها ووقورها
تكاد لما قد ألبست من سكينة * ترف على تلك الرؤس طيورها

(ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة) ففيها عاد أسد الدين الى مصر تاسع ربيع الآخر وقد كان بعد رجوعه من مصر لا يزال يحدث نفسه بقصدها ومعاودتها حريصا على الدخول اليها يحدث به مع كل من يثق اليه وكان مما يحثه على العود زيادة حقده على شاور وما عامل معه فلما كان هذه السنة تجهز وسار اليها وسير نور الدين معه جماعة من الامراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وفى ذلك يقول العرقله

أقول والاتراك قد أزمعت * مصر الى حرب الاعاريب
رب كما ملكتها يوسف الـ * صدّيق من أولاد يعقوب
يملكها فى عصرنا يوسف الـ * صادق من أولاد أيوب
من لم يزل ضراب هام العدى * حقا وضراب العراقيب

ثم ان أسد الدين جدّ فى السير على البر وترك بلاد الافرنج عن يمينه فوصل الى الديار المصرية وقصد اطفيح وعبر النيل عندها الى الجانب الغربى ونزل بالجيزة مقابل مصر وتصرف فى البلاد الغربيه وأقام بها أربعا وخمسين يوما وكان شاور لما بلغه مجىء أسد الدين قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم فأتوه على الصعب والذلول فتارة يحثهم طمعهم فى ملك مصر على الجد والتشمير وتارة يحدوهم خوفهم من أن يملكها العسكر النورى على الاسراع فى المسير فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم فلما وصلوا الى مصر عبروا الى الجانب الغربى وكان أسد الدين والعسكر النورى قد ساروا الى الصعيد فبلغوا مكانا يعرف بالبابين وسارت العساكر المصرية والفرنج من ورائهم فأدركوهم

به فى الخامس والعشرين من جمادى الاولى وكان قد أرسل اليهم جواسيس فعادوا وأخبروه بكثرة عددهم وعددهم وجدهم فى طلبه فعزم على قتالهم ولقائهم وان تحكم السيوف بينه وبينهم الا أنه خاف من أصحابه ان تضعف نفوسهم عن الثبات فى هذا المقام الخطير الذى عطبهم فيه أقرب من السلامة لقلة عددهم وبعدهم عن بلادهم فاستشارهم فكلهم اشار عليه بعبور النيل الى الجانب الشرقى والعود الى الشام وقالوا له ان نحن انهزمنا وهو الذى لاشك فيه فالى أين نلتجى وبمن نحتمى وكل من فى هذه الديار من جندى وعامى وفلاح عدو لنا ويودون لو شربوا دماءنا وحق لعسكر عدتهم ألف فارس قد بعدوا عن ديارهم وقل ناصرهم أن ترتاع من لقاء عشرات ألوف مع ان كل أهل البلاد عدو لهم فلما قالوا ذلك قام انسان من المماليك النورية يقال له شرف الدين برغش وكان من الشجاعة بالمكان المشهور وقال من يخاف القتل والجراح والاسر فلا يخدم الملوك بل يكون فلاحا أو مع النساء فى بيته والله لئن عدتم الى الملك العادل من غير غلبة وبلاء تعذرون فيه ليأخذن اقطاعاتكم وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه الى يومنا هذا ويقول لكم أتأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف فيها الكفار قال أسد الدين هذا رأيى وبه أعمل ووافقهما صلاح الدين يوسف بن أيوب ثم كثر الموافقون لهم على القتال فاجتمعت الكلمة على اللقاء فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبية وقد جعل الاثقال فى القلب يتكثر بها ولانه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد ثم انه جعل صلاح الدين ابن أخيه فى القلب وقال له ولمن معه ان الفرنج والمصريين يظنون اننى فى القلب فهم يجعلون جمرتهم بازائه وحملتهم عليه فاذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم فاذا عادوا عنكم فارجعوا فى أعقابهم واختار من شجعان أصحابه جمعا يثق اليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم ووقف بهم فى الميمنة فلما تقابل الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره أسد الدين وحملوا على القلب ظنا منهم انه فيه فقاتلهم من به قتالا يسيرا ثم انهزموا بين أيديهم فتبعوهم فحينئذ حمل أسد الدين فيمن معه على من تخلف عن الفرنج الذين حملوا على القلب من المسلمين فهزموهم ووضع السيف فيهم فأثخن وأكثر القتل والاسر وانهزم الباقون فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين الذين كانوا فى القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعا ليس بها منهم ديار فانهزموا أيضا وكان هذا من أعجب ما يؤرخ ان ألفى فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل ثم سار أسد الدين الى ثغر الاسكندرية وجبى ما فى طريقها من القرايا والسواد من الاموال ووصل الى الاسكندرية فتسلمها من غير قتال سلمها اليه أهلها فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه وعاد الى الصعيد وتملكه وجبى أمواله وأقام بها حتى صام رمضان وأما المصريون والفرنج فانهم عادوا الى القاهرة وجمعوا أصحابهم وأقاموا عوض من قتل منهم واستكثروا وحشدوا وساروا الى الاسكندرية وبها صلاح الدين فى عسكر يمنعونها منهم وقد أعانهم أهلها خوفا من الفرنج فاشتد الحصار وقل الطعام بالبلد فصبر أهله على ذلك ثم ان أسد الدين سار من الصعيد نحوهم وكان قد أفسد بعض من معه من التركمان ووصله رسول المصريين والفرنج يطلبون الصلح وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد فأجابهم الى ذلك وشرط ان الفرنج لا يقيمون بمصر ولا يتسلمون منها قرية واحدة وان الاسكندرية تعاد الى المصريين فأجابوا الى ذلك واصطلحوا وعاد الى الشام فوصل دمشق ثامن عشر ذى القعدة وتسلم المصريون الاسكندرية فى النصف من شوال وأما الفرنج فانهم استقر بينهم وبين المصريين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة ويكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع الملك العادل من انفاذ عسكر اليهم ويكون للفرنج من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار هذا كله يجرى بين الفرنج وشاور وأما العاضد صاحب مصر فليس اليه من الامر شئ ولا يعلم بشئ من ذلك قد حكم عليه شاور وحجبه وعاد الفرنج الى بلادهم وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهيرهم وأعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة ثم ان الكامل شجاع بن شاور راسل نور الدين مع شهاب الدين محمود الحارمى وهو من أكابر أمراء الملك العادل وهو خال صلاح الدين يوسف ينهى محبته وولاءه ويسأله ان يأمر باصلاح الحال وجمع الكلمة بمصر على طاعته ويجمع كلمة الاسلام ويبذل مالا يحمله كل سنة فأجابه الى ذلك وحملوا الى نور الدين مالا جزيلا فبقى الامر على ذلك الى أن قصد الفرنج مصر لتملكها فكان ما نذكره ان شاء الله تعالى فى اخبار سنة اربع وستين قال القاضى أبو المحاسن ذكر عود أسد الدين الى مصر فى المرة الثانية وهى المعروفة

بوقعة البابين لم يزل أسد الدين يتحدّث بذلك بين الناس حتى بلغ شاور ذلك وداخله الخوف على البلاد من الاتراك وعلم ان أسد الدين قد طمع فى البلاد وانه لا بد له من قصدها فكاتب الفرنج وقرّر معهم انهم يجيئون الى البلاد ويمكّنونه فيها تمكينا كليا ويعينونه على استئصال أعدائه بحيث يستقر قدمه فيها وبلغ ذلك نور الدين وأسد الدين فاشتدّ خوفهما على مصر أن يملكها الكفار فيستولون على البلاد كلها فجهز أسد الدين وأنفذ نور الدين معه العسكر وألزم صلاح الدين رحمه الله بالمسير معه على كراهة منه لذلك وذلك فى أثناء ربيع الاول وكان وصولهم الى البلاد المصرية مقارنا لوصول الفرنج اليها واتفق شاور مع الفرنج على أسد الدين والمصريون بأسرهم وجرى بينهم حروب كثيرة ووقعات شديدة وانفصل الفرنج عن الديار المصرية وانفصل أسد الدين وكان سبب عود الفرنج ان نور الدين قدّس الله روحه جرد العساكر الى بلاد الافرنج وأخذ المنيطرة وعلم الفرنج ذلك فخافوا على بلادهم وعادوا وكان سبب عود أسد الدين ضعف عسكره بسبب مواقعة الفرنج والمصريين وما عانوه من الشدائد وعاينوه من الاهوال وما عاد حتى صالح الفرنج على أن ينصرفوا كلهم عن مصر وعاد الى الشام فى بقية السنة وقد انضم الى قوة الطمع فى البلاد شدّة الخوف عليها من الفرنج لعلمه بأنهم قد كشفوها كما كشفها وعرفوها من الوجه الذى عرفها فأقام بالشام على مضض وقلبه مقلقل والقضاء يجره الى شئ قد قدّر لغيره وهو لا يشعر بذلك قال وفى أثناء سنة اثنتين وستين ملك نور الدين قلعة المنيطرة بعد مسير اسد الدين فى رجب وخرّب قلعة اكاف بالبرية وفى رمضان منها اجتمع نور الدين وأخواه قطب الدين وزين الدين بحماة للغزاة وساروا الى بلاد الفرنج فخرّبوا هونين فى شوال منها وفى ذى القعدة منها كان عود أسد الدين الى مصر وفيه مات قرا ارسلان بدياربكر

❊(فصل)❊ وفى شعبان من هذه السنة قدم دمشق عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد الاصفهانى مصنف كتابى الفتح والبرق فانزله قاضى القضاة كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم بن الشهرزورى بالمدرسة النورية الشافعية عند حمام القصير بباب الفرج المنسوبة الآن الى العماد وانما نسبت اليه لان نور الدين رحمه الله ولاه اياها فى رجب سنة سبع وستين بعد الشيخ الفقيه بن عبد وكان العماد له معرفة بنجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه ابنى شاذى من تكريت بسبب ان عمه العزيز أحمد بن حامد اعتقله السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بقلعة تكريت ونجم الدين أيوب اذ ذاك واليها فانتسجت المودّة بينهم من هناك فلما سمع نجم الدين بوصوله بكر الى منزله لتبجيله وكان صلاح الدين وشيركوه حينئذ بمصر فمدح العماد نجم الدين أيوب بقصيدة أولها

يوم النوى ليس من عمرى بمحسوب ❊ ولا الفراق الى عيشى بمنسوب
ما اخترت بعدك لكن الزمان أتى ❊ كرها بما ليس يا محبوب محبوبى
ارجوا ابابى اليكم ظافرا عجلا ❊ فقد ظفرت بنجم الدين أيوب
موفق الرأى ماضى العزم مرتفع ❊ على الاعاجم مجدا والاعاريب
احبك الله اذ لازمت تجدته ❊ على جبين بتاج الملك معصوب
أخوك وابنك أصدق امنهما اعتصما ❊ بالله والنصر وعد غير مكذوب
هما هما مان فى يومى وغى وقرى ❊ تعود اضرب هام أو عراقيب
غدا يشبان فى الكفار نار وغى ❊ بلفحها يصبح الشبان كالشيب
بالك مصر ونصر المؤمنين غدا ❊ تحظى النفوس بتأنيس وتطييب
ويستقر بمصر يوسف وبه ❊ تقرّ بعد التنائى عين يعقوب
ويلتقى يوسف فيها باخوته ❊ والله يجمعهم من غير تثريب

وكان انشاده هذه القصيدة فى آخر شوال سنة اثنتين وستين وخمسمائة وتم ملكهم مصر بعد سنتين قال فنظمت ما فى الغيب تقديره قال وكان أسد الدين قد جمع وسار الى مصر فى الرمل فى النصف من ربيع الاوّل ووصل فى سادس ربيع الآخر الى اطفيح وعبر منها الى الجانب الغربى واناخ بالجيزة محاذاة مصر فاقام عليها نيفا وخمسين يوما واستعان شاور بالفرنج ورتبوا لهم سوقا بالقاهرة وعبروا بهم من البلاد الشرقية الى الغرب وعلم أسد الدين فسار امامهم فالتقوا

بموضع

بموضع يعرف بالبابين فكسرهم أسد الدين وأصحابه وتسلوا من الفرنج ومن تبعهم من المصريين الوفا وحصل منهم في الاسار سبعون فارسا من بارونيتهم فلما تمت لهم هذه الكسرة رحلوا الى الاسكندرية فوجدوا مساعدة أهلها فدخلوها ثم قال أسد الدين أنا لا يمكنني ان احصر نفسي فأخذ العسكر وسار به الى بلاد الصعيد فاستولى عليها وجبى خراجها وأقام صلاح الدين بالاسكندرية فسار اليه شاور والفرنج فحاصروه أربعة أشهر وصدق أهل الاسكندرية القتال مع صلاح الدين وقوى أسد الدين بقوص واستنهض لقصد القوم العموم والخصوص فسمع الفرنج انه جاء يقصدهم فرحلوا عن الحصار وكان شاور قد استمال جماعة من التركمان الذين مع أسد الدين بالذهب فلما راسلوه في المهادنة أجاب وطلب منهم عوض ما غرمه فبذلوا له خمسين ألف دينار فخرجوا من الاسكندرية في النصف من شوال ووصلوا الى دمشق ثامن عشر ذي القعدة وعادوا الى الخدمة النورية فاجتمع العماد بأسد الدين وأنشده هذه القصيده

بلغت بالجد مالا يبلغ البشر * ونلت ما عجزت عن نيله القدر
من يهتدي للذي أنت اهتديت له * ومن له مثل ما أثرته أثر
أسرت أم بسراك الارض قد طويت * فأنت اسكندر في السير ام خضر
أوردت خيلا باقصى الصين صادرة * عن الفرات يقاضي وردها الصدر
تناقلت ذكرك الدنيا فليس لها * الا حديثك ما بين الورى سمر
فأنت من زانت الايام سيرته * وزاد فوق الذي جاءت به السير
لو في زمان رسول الله كنت أتت * في هذه السيرة المحمودة السور
أصبحت بالعدل والاقدام منفردا * فقل لنا أعلى أنت أم عمر
اسكندر ذكروا أخبار حكمته * ونحن فيك رأينا كل ما ذكروا
ورستم خبرونا عن شجاعته * وصار فيك عيانا ذلك الخبر
أنفرفان ملوك الارض أذهلهم * ما قد فعلت فكل فيك مفتكر
سهرت اذ رقدوا بل هجت اذ سكنوا * وصلت اذ جنبوا بل طلت اذ قصروا
يستعظمون الذي ادركته عجبا * وذاك في جنب ما ترجوه محتقر
قضى القضاء بما ترجوه عن كثب * حتما ووافقك التوفيق والقدر
شكت خيولك ادمان السرى وشكت * من فلها البيض بل من حطمها السمر
يسرت فتح بلاد كان أيسرها * لغير رأيك قفلا فقعه عسر
قرنت بالحزم منك العزم فاتسقت * مارب لك عنها أسفر السفر
ومن يكن بنور الدين مهتديا * في أمره كيف لا يقوى له المرر
يرى براتك ما في الملك يبرمه * فأنت منه بحيث السمع والبصر
لقد بغت فئة الافرنج فانتصفت * منها باقدامك الهندية البتر
غرست في أرض مصر من جسومهم * اشجار خط لها من هامهم ثمر
وسال بحر نجيع في مقام وغى * به الحديد غمام والدم المطر
انهرت منهم دماء بالصعيد جرى * منها الى النيل في واديهم نهر
راؤا اليك عبور النيل اذ عدموا * نصرا فما عبروا حتى قد اعتبروا
تحت الصوارم هام المشركين كما * تحت الصوالج يوما خفت الاكر
افنت سيوفك من لاقت فان تركت * قوما فهم نفر من قبلها نفروا
لم ينج الا الذي عاقته من خبث * وحش الفلا وهو للمحذور منتظر
والساكنون القصور القاهرية قد * نادى القصور عليهم انهم قهروا
وشلو رشاورو في مكايدهم * فكاده الكيد لما خانه الحذر

كانوا من الرعب موتى فى جلودهم * وحين أمنتهم من خوفهم نشروا
وان من شيركوه الشرك منخزل * والكفر منخذل والدين منتصر
عوّل على فتنة عند اللقاء وفت * وعدّ عن تركمان قبله غدروا
وكيف يخذل جيش أنت مالكه * والقائدان له التأييد والظفر
أجاب فيك اله الخلق دعوة من * يطيب بالليل من أنفاسه السحر

وقال العماد واتصلت بينى وبين صلاح الدين يوسف بن أخيه مودة تمت لى بها على الزمان عدة ولم يزل يستهدينى نظمى ونثرى ويشعرنى انه يميل الى شعرى فأول ماخدمته به هذه الكلمه

كيف قلتم بمقلتيه فتور * وأراها بلافتور تجور
مستجير جورى وانى منه * بابن أيوب يوسف مستجير
فضله فى يد الزمان سوار * مثلها رأيه على الملك سور
كرم سابغ وجود عميم * وندى سائغ وفضل غزير
أنت من لم يزل يحن اليه * وهو فى المهد سرجه والسرير
من دم الغادرين غادرت بالاه * س صعيد الصعيد وهو غدير
ولكل مما تطاولت فيهم * امل قاصر وعمر قصير
لاذ بالنيل شاور مثل فرعو * ن فذل اللاجى وعز العبور
شارك المشركين نعيا وقدما * شاركتها قريظة والنضير
والذى يدعى الامامة بالقا * هرة ارتاع انه مقهور
وغدا الملك خائفا من سطاكم * ذا ارتعاد كأنه مقرور
وبنو الحفرىّ هابوا ففروا * ومن الاسد كل كلب فرور
انما كان للكلاب عواء * حيث ما كان للاسود زئير
وفليب عند الفرار سليب * فهو بالرعب مطلق مأسور
لم يبقوا سوى الاصاغر للسبـ * ـى فودّوا لوان الكبير صغير
وحميت الاسكندرية عنهم * ورحى من بهم عليهم تدور
حاصروها وما الذى بان من ذبـ * ـك عنها وحفظها محصور
كحصار الاحزاب طيبة قدما * ونبى الهدى بها منصور
فاشكر الله حيث اولاك نصرا * فهو نعم المولى ونعم النصير
ولكم ارجف الاعادى فقلنا * ما لما تذكرونه تأثير
ورقبنا كالعيد عودك فاليو * م به للانام عيد كبير
عاد من مصر يوسف والى يعـ * ـقوب بالتهنيات جاء البشير
فلايوب من اياب صلاح الـ * ـدين يوم به توفى النذور
ولكم عودة الى مصر بالنـ * ـصر على ذكر ها تمر العصور
فاستردّوا حق الامامة ممن * خان فيها فانه مستعير
وافترعها ابكر الما بعدى الده * ر رواح فى مدحكم وبكور
أنا سيرت طالع العزم منى * والى قصدك انتهى التسيير
وأرى خاطرى لمدحك الفا * انما يألف الخطير الخطير

وهى والتى قبلها طويلتان جدا فانتظمت معرفة العماد بصلاح الدين وكان له مساعدا عند نور الدين وقرأت فى ديوان العرقلة وقال يمدح أسد الدين شيركوه وقد أخذ الشقيف ورحل طالبا حصنا يقال له العراق

رحلت من الشقيف الى العراق * بعزم كالمهندة الرقاق
ونكست الاعادى منه قهرا * ومجدك فى ذرى الجوزاء باق
بجاشك لا بجيشك نلت هذا * وبالتوفيق لا بالاتفاق
فداؤك من مضى بالحصن قبلى * الى دار الخلود من الرفاق
وما نخشى على الاسلام بؤسا * اذا هلك الجميع وأنت باق
اشاوركم تشاور كل خب * وتنفق عند مثلك بالنفاق
اتصبران أتتك بحار خيل * وقلما ما صبرت على السواقى
متى رفعت لك السودان رأسا * وقد خلاهم مثل الرقاق
وعيشك ماله من مصر بد * ومن عندى ثلاثا بالطلاق
هو الاسد الذى ما زال حتى * بنا مجدا على السبع الطباق

(فصل) قال ابن الاثير وفى هذه السنة أرسل نور الدين الى أخيه قطب الدين يطلب ان يعبر الفرات اليه بعساكره فتجهز وسار هو وزين الدين فى العساكر الكثيرة فاجتمعوا بنور الدين على حمص فدخل بالعساكر الاسلامية بلاد الفرنج واجتاز على حصن الاكراد فأغاروا ونهبوا وأسروا وقصدوا عرقة ونزلوا عليها وحصروها وحصروا جبلة وأخربوها وتوجهت عساكر المسلمين يمينا وشمالا تغير وتخرب البلاد وفتح العريمة وصافيثا وعاد الى حمص فصام بها شهر رمضان ثم سار الى بانياس وقصد قلعة هونين وهى للفرنج أيضا من قلاعهم المنيعة فانهزم الفرنج عنها واحرقوها فقصدها نور الدين فوصلها من الغد وخرب سورها جميعه وأراد الدخول الى بيروت فتجدد فى العسكر خلل أوجب التفرق فعاد وسار قطب الدين الى الموصل واقطعه مدينة الرقة فأخذها فى طريقه قال وفى هذه السنة عصى الامير غازى بن حسان المنبجى صاحب منبج على نور الدين وهو كان اقطعه اياها فأرسل اليه نور الدين عسكرا حصره بها وأخذها منه واقطعها أخاه قطب الدين ينال ابن حسان وكان عاقلا خيرا حسن السيرة فبقى بها الى ان أخذها منه صلاح الدين سنة اثنتين وسبعين كما سيأتى وفيها توفى القاضى الرشيد أحمد بن على بن الزبير صاحب كتاب الجنان قال العماد فى الخريدة كان ذا علم غزير وفضل كثير قتله شاور صبرا فى سنة اثنتين وستين ونسب اليه انه شارك أسد الدين شيركوه فى قصده وأخوه المهذب أبو على الحسن بن على بن الزبير أشعر منه وتوفى قبله بسنة لم يكن فى زمانه أشعر منه وله شعر كثير منه قصيدة غراء فى مدح الصالح بن رزيك وذكر فيها نور الدين أولها

أعلمت حين تجاور الحيان * ان القلوب مواقد النيران
يا كاسر الاصنام قم فانهض بنا * حتى تصير مكسر الصلبان
فالشام ملكك قد ورثت بلاده * عن قومك الماضين من غسان
واذا شككت بأنها أوطانهم * فدما فسل عن حارث الجولان
أورمت ان تتلو محاسن ذكرهم * فاسند روايتها الى حسان
ما زلزلت أرض العدى بل ذا الشما * بقلوب أهليها من الخفقان
وأقول ان حصونهم سجدت لما * أوتيت من ملك ومن سلطان
ولقد بعثت الى الفرنج كتائبا * لا سد حين تصول فى خفان
لبسوا الدروع ولم تخل من قبلهم * ان البحار تحل فى غدران
عجلت فى تل العجول قراهم * وهم لك الضيفان بالذيفان
وثللت فى يوم العريش عروشهم * بشبا ضراب صادق وطعان
ألجأتهم للبحر لما ان جرى * منه ومن دمهم معا بحران
ولقد أتى الاسطول حين غزا بما * لم يأت فى حين من الاحيان
وأعدت رسل ابن القسيم اليه فى * شعبان كى يتلاءم الشعبان

والفال يشهد فى اسمه ان سوف يغــدوا الشام وهو عليكما قسمان

وأراك من بعـد الشهيـد أباله ✻ وجعلته من أقرب الاخوان

وهو الذى مازال يفعل فى العدى ✻ مالم يكن ليعـدّ فى الامكان

قتل البرنس ومن عساه أعانه ✻ لما عسا فى البغى والعـدوان

وأرى البرية حين عاد برأسـه ✻ مرّ الجنى يبدو على المرّان

وتعجبوا من زرقـة فى طرفـه ✻ وكانّ فوق الرمح نصـلا ثانى

عجبا لجود يديه اذ يبنى العـلا ✻ والسيل يهدم ثابت الاركان

قلدت أعنـاق الـبرية كلهـا ✻ مننـا تحمل ثقلهـا الثقـلان

حتى تساوى الناس فيك واصبح الــــقاصى بمنزلة القريب الدانى

وفى هذه السنة ذكر القاضى كمال الدين بن الشهرزورى للسلطان نور الدين رحمه الله حال العماد الكاتب وعرّفه به وعرض عليه قصيدة له فى مدحه مطلعها

محمد يحمــــد عيش بلدة ✻ مالكهـا بعدله محمودهـا

مؤيد أموره بعـــــزمة ✻ من السموات العلى تأييدها

لو حفظت يوم النوى عهودها ✻ ما مطلت بوصلكم وعودها

آثا ره حميــــدة وانما ✻ للمرء من آثاره حميـدهـا

ان الورى بحبـه وبغضـه ✻ يعرف من شقيها سعيدهـا

قـد جاءكم نور من الله فمن ✻ به اهتدى فانه رشيدهـا

جلا ظلام الظلم نور الدين عن ✻ أرض الشام فله تمهيدهـا

انّ الرعايا منـــه فى رعاية ✻ ونعمة مستوجب مزيدهـا

لنومهـا يسهـر بل لأمنهـا ✻ يخاف بل يخصبها بجودها

بالدين والملك له قيـامـه ✻ وللملوك عنهما قعودهـا

ودأبه ثلم ثغور الكفر لا ✻ لـثم ثغور نافـع برودهـا

قد أسبغ الله لنـا بعـدله ✻ ظلال أمن وارف مديدها

غدا ملوك الروم فى دولتـه ✻ وهـم على رغمهم عبيدهـا

لما أبت هـامـاتهم سجودهـا ✻ لله أضحى للظبى سجودهـا

ان فارقت سيوفه غمودهـا ✻ فانّ هـاماتهـم غمودهـا

كم مغلقات من حصون عزمه ✻ مفتاحها وسيفه أقليدهـا

قد ودّت الفرنج لو قرت نجت ✻ منك ولكن روعها مبيدها

قهـرتهـا حـتى لودّ حيهـا ✻ من ذلة لو أنه فقيـدهـا

أماتها رعبـك فى حصونها ✻ كانمـا حصونهـا لحودهـا

وان مصر الك تعنو بعـدما ✻ لسيفك الصعب عنا صعيدها

والملة الغـرّا خال بالها ✻ عال سناها بك حال جيدهـا

مفـترّة ثغورها ممنوعـة ✻ ثغورها محفوظة حدودهـا

وان بغى جالوتهـا ضـلالة ✻ فانت فى اهلاكه داودهـا

يا ابن قسيم الدولة الملك الذى ✻ خرّت له من الملوك صيدها

دع العـدى بغيظهـا فانما ✻ يذيب أكباد العدى حقودها

يا دولة نورية أمن الورى ✻ وخصبها وجودها وجودها

مامثل الدنيا لمن يجمعها * بالحرص الاقزة ودودها
اين الذى يرفضها عن قدرة * فلايشوب زهده زهيدها
فابق لنا يا ملكا بقاؤه * فى كل عام للرعايا عيدها
فى نعمة جديدة سعودها * ودولة سعيدة جدودها

وهى طويلة فرتبه نور الدين فى ديوانه منشئا الاستقبال سنة ثلاث وستين قال ووجدت على الايام منه الاعزاز والتمكين قلت وذلك بعد ان استعفى أبو البشر شاكر بن عبد الله من الخدمة فى كتابة الانشا وقعد فى بيته كذا ذكر العماد فى الخريدة وقال تولى ديوان الانشا بالشام سنين كثيرة وله مقاصد حسنة فى الكتب وهو حميد السيرة جميل السريرة وفيها توفى الحافظ أبو سعد عبد الكريم محمد السمعانى المروزى رحمه الله تعالى

﴿ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة﴾ فذكر العماد ان نور الدين رحل الى حمص ثم مضى الى حماه ثم شتى بقلعة حلب ومعه الاسد والصلاح ونزل العماد بمدرسة ابن العجمى وكتب الى صلاح الدين يوسف بن أيوب وقد عثر فرسه فى الميدان وهو يلعب بالكرة مع نور الدين رحمه الله تعالى

لاتشكرن لسابح عثرت به * قدم وقد حمل الخضم الزاخرا
ألقى على السلطان طرفك طرفه * فهوى هنالك للسلام مبادرا
سبق الرياح بجريه وكففته * عنها فليس على خلافك قادرا
ضعفت قواه اذ تذكر انه * فى السرج منك يقل ليثا خادرا
ومتى تطيق الريح طودا شامخا * أو يستطيع البرق جونا ماطرا
فاعذر سقوط البرق عند مسيره * فالبرق يسقط حين يخطف سائرا
وأقل جوادك عثرة ندرت له * ان الجواد لمن يقيل العاثرا
وتوق من عين الحسود وشرها * لا كان ناظرها بسوء ناظرا
وأسلم لنور الدين سلطان الورى * فى الحادثات معاضدا ومؤازرا
فاذا صلاح الدين دام لاهله * لم يحذروا للدهر صرفا ضائرا

وجرت بين العماد وبين الامام شرف الدين أبى سعد عبد الله بن أبى عصرون مكاتبات كتب اليه العماد

أيا شرف الدين ان الشتا * بكافاته كف آفاته
وكفك من كرم كافها * لقد كفلت لى بكافاته
وانك من عرفه شكرنا * غدا عاجزا عن مكافاته

قال فكتب الى شرف الدين فى جوابها

اذا ماالشتاء وأمطاره * عن الخير حابسة رادعه
فكافاته الست أعطيتها * وحوشيت من كافه السابعه
وكف المهابة والاحتشا * م لكنى عن برمانعه
وهمة كل كريم الحجا * رغيب ورأحبابه قانعه
ونفسى فى بسط عذرى اليه * جعلت الفداء له طامعه
وشوقى الى قربه زائد * ومعذرتى ان جفا واسعه

قال فكتبت اليه جوابها

أيا من له همة فى العلى * لذروتها أبدا فارعه
ومن كفه ديمة ماترا * ل بالعرف هامية هامعه
وللفضل فى سوق افضاله * بضائع نافقة نافعه
وهل كابن عصرون فى عصرنا * امام أدلته قاطعه

خبر فوائده جمة * وبحر موارده واسعه
أيا شرف الدين شرفتني * باهداء رائقة رائعه
أطعت أوامرك الساميا * ت وما برحت همتي طائعه
أرى كل جارحة لي تـ * ـودّ لو أنها أذن سامعه
وأما الشتاء وكافاته * وكفك عن كافه الرابعه
فنفسي منزهة بالعفا * ف عنها وفي غيرها طامعه
وماذا أطيق اذا لم تكن * بيسور سيدنا قانعه

وهي أكثر من هذا قال وكان ابن حسان صاحب منبج قد ساءت أفعاله فبعث اليه نور الدين من حاصره وانتزعها منه ثم توجه نور الدين اليها لتهذيب أحوالها ومدحه العماد بقصيدة منها يقول

بشرى الممالك فتح قلعة منبج * فليهن هذا النصر كل متوّج
أعطيت هذا الفتح مفتاحا به * في الملك يفتح كل باب مرتج
وافى يبشر بالفتوح وراءه * فانهض اليها بالجيوش وعرج
أبشر فبيت القدس يتلو منبجا * ولمنبج لسواه كالانموذج
ما أعجزتك الشهب في أبراجها * طلبا فكيف خوارج في أبرج
ولقد من يعصيك أحقر ان يرى * أثر العبوس بوجهك المتبلج
لكن تهذب من عصاك سياسة * في ضمنها تقويم كل معوّج
فانهض الى البيت المقدس غازيا * وعلى طرابلس ونابلس عج
قد سرت في الاسلام أحسن سيرة * مأثورة وسلكت أوضح منهج
وجميع ما استقريت من سنن الهدى * جدّدت منه كل رسم مبهج

قال العماد وسار نور الدين من منبج الى قلعة نجم وعبر الفرات الى الرها وكان بها نائل صاحب منبج وهو سديد الرأي رشيد المنهج فنقله اليها مقطعا وواليا وأقام نور الدين بقلعة الرها مدة فمدحه العماد بقصيدة وتحجب له صلاح الدين في عرضها وهي

أدركت من أمر الزمان المشتهى * وبلغت من نيل الاماني المنتهى
وبقيت في كنف السلامة آمنا * متكرما بالطبع لا متكرها
لا زلت نور الدين في فلك الهدى * ذا غرة للعالمين بها البها
يا محيي العدل الذي في ظله * من عدله رعت الاسود مع المها
محمود المحمود من أيامه * ليهاتها ضحك الزمان وقهقها
مولى الورى مولي الندى معلي الهدى * مردي العدى مسدي الجدى معطي اللها
آراؤه بصوابها مقرونة * وبمقتضاها دائر فلك النهى
متلبس بعفافه وحصانه * متقدس عن شوب مكروهها
يا من أطاع الله في خلواته * متأوّبا من خوفه متأوّها
أبدا تقدّم في المعاش لوجهه * عملا بيض في المعاد الاوجها
كل الامور وهي وامرك مبرم * مستحكم لا نقض فيه ولا وها
ما صين عنك الصين لو حاولتها * والمشرقان فكيف منبج والرها
ما للملوك لدى ظهورك رونق * واذا بدت شمس الضحى خفي السها
ان الملوك لهوا وانك من غدا * وبماله والملك منه ما لها
شرهت نفوسهم الى دنياهم * وأبى لنفسك زهدها ان تشرها

مانمت عن خير ولم يك نائما * من لا يزال على الجميل منبها
أخملت ذكر الجاهلين ولم تزل * ملكا بذكر العالمين منوها
ورأيت إرعاء الرعايا واجبا * تغنى فقيرا أو تجير مدلها
لرضاهم متحفظا ولحالهم * متفقدا ولدينهم متفقها
وبما به أمر الاله أمرتهم * من طاعة ونهيتهم عما نهى
عن رحمة لصغيرهم لم تشتغل * عن رأفة لكبيرهم لن تشدها
ماليأس عندك أمل لم يمتحن * بالرد دونك سائل لن يجبها
أتعبت نفسك كى تنال رفاهة * من ليس يتعب لا يعيش مرفها
فقت الملوك سماحة وحماسة * حتى عدمنا فيهم لك مشبها
ولك الفخار على الجميع فدونهم * أصبحت عن كل العيوب منزها
وأراك تحلم حين تصبح ساخطا * ويكاد غيرك ساخطا أن يسفها

قلت رحم الله العماد فقد نظم أوصاف نور الدين الجليلة باحسن لفظ وأرقه وهذا البيت الاخير مؤكد لما نقلناه فى أول الكتاب من قول الحافظ أبى القاسم رحمه الله فى وصف نور الدين رحمه الله انه لم يسمع منه كلمة فحش فى رضاه ولا فى ضجره وقل من الملوك من له حظ من هذه الاوصاف الفاضله والنعوت الكامله قال العماد ثم عاد نور الدين الى حلب فى شهر رجب وضربت خيمته فى رأس الميدان الاخضر قال وكان مولعا بضرب الكرة وربما دخل الظلام فلعب بها بالشموع فى الليلة المسفره وركب صلاح الدين مبكرا كل بكره وهو عارف بآدابها فى الخدمة وشروطها المعتبره قال وأقطعه فى تلك السنة ضيعتين احداهما من ضياع حلب والاخرى من ضياع كفرطاب قال وكتب اليه فى طلب كنبوش

أصبحت بغلتى تشكى من العر * ى واسراجها بلا كنبوش
قلت كفى تخير يوميك عندى * ان تنوزى بالتبن أو بالحشيش
وافرحى ليلة الشعير كما يفر * ح قوم بليلة المأشوش
لو تبصرت حالتى لتصبر * ت فما لك عندها ان تطيشى
أوما مات فى الشتاء من البر * د ومن فرط جوعه أكديشى
فثقى واسكنى بجود صلاح الـ * ـدين غرس الملوك ملك الجيوش
فهو يجلوك للعيون بكنبو * ش جديد مستحسن منقوش
كم عدو من بأسه فى عثار * وولى بجوده منعوش
والموالى على الاسرة والاعـ * ـداء تحت الهوان فوق النعوش

قال وأقطع أسد الدين حمص واعمالها فسار اليها فسد ثغورها وضبط أمورها وحمى جمهورها وكان نور الدين قد جدد سورها وحصن دورها وبلى الفرنج منه بالمغادر المراوغ ذى البأس الدامغ وسأله نور الدين فى السلو عن حب مصر وقال قد تعبت مرتين واجتهدت ولم يحصل لك ما طلبت وقد أذعنوا بالطاعه وشفعوا السؤال بالشفاعه وسمحوا بكل ما يدخل تحت الاستطاعه قلت وأنشد العماد أسد الدين فى رجب من هذه السنه

دمت فى الملك آمرا ذا نفاذ * أسد الدين شيركوه بن شاذى
يا كريم عن كل شر بطيئا * والى الخير دائم الاغذاذ
ان كهف الاسلام أنت فلا زلت * لاهل الاسلام خير ملاذ
وبقلب الكفار رعبك قد حـ * ـل بصدع الاكباد والافلاذ
لم تدع بالظبى رؤسا وأمنا * ما من المشركين غير جذاذ
أنت من نازل العيين فى مصر * لنصر الامام فى بغداذ

وبلاد الاسـلام أنقذتها أنـت مـن الشرك ايما انقاذ

(فصل) فى وفاة زين الدين قال ابن الاثير وغيره فى سنة ثلاث وستين سار زين الدين علي بن بكتكين نائب أتابك قطب الدين عن الموصل الى أربل وسلم جميع ما كان بيده من البلاد والقلاع الى قطب الدين ماعدا أربل فانها كانت له من أتابك زنكى رحمه الله تعالى فمن ذلك سنجار وحران وقلعة عفر الحميديه وقلاع الهكارية جميعها وكان نائبه بتكريت الامير تبر فأرسل اليه ليسلمها فقال ان المولى أتابك لا يقيم بتكريت ولا بد له من نائب فيها وأنا أكون ذلك النائب فليس له مثلى فما أمكن محاققته لاجل مجاورة بغداد وأما شهرزور فكان بها الامير بوزان فقال مثله أيضا فأقرت بيده فكان فى طاعة قطب الدين وسبب فراق زين الدين انه أصابه عمى وصمم وأقام بأربل الى أن توفى بها فى ذى الحجة من هذه السنة وكان قد استولى عليه الهرم وضعفت قوته وكان خيرا عادلا حسن السيرة جوادا محافظا على حسن العهد واداء الامانة قليل العذر بل عديمه وكان اذا وعد بشئ لا بد له من أن يفعله وان كان فعله خطيرا وكان حاله من أعجب الاحوال بينما يبدو منه ما يدل على سلامة صدره وغفلته حتى يبدو منه ما يدل على افراط الذكاء وغلبة الدهاء بلغنى انه أتاه بعض أصحابه بذنب فرس ذكر انه نفق له فأمر له بفرس فأخذ ذلك الذنب أيضا غيره من الاجناد فأحضره وذكر انه نفق له دابة فأمر له بفرس وتداول ذلك الذنب اثنا عشر رجلا كلهم يأخذ فرسا فلما أحضره آخرهم قال لهم أما تستحيون منى كما أستحيى أنا منكم قد أحضر هذا عندى اثنا عشر رجلا وأنا أتغافل لئلا يخجل أحدكم أتظنون اننى لا أعرفه بلى والله وانما أردت أن يصلكم عطائى بغير من ولا تكدير فلم تتركونى

ليس الغبى بسيد فى قومه ✹ لكن سيد قومه المتغابى

قال وكان يعطى كثيرا ويخلع عظيما وكان له البلاد الكثيرة فلم يخلف شيأ بل أنفذ جميعه فى العطايا والانعام على الناس وكان يلبس الغليظ ويشد على وسطه كل ما يحتاج اليه من سكين ودوفش ومطرقة ومسلة وخيوط ودسترك وغير ذلك وكان أشجع الناس ميمون النقيبة لم ينهزم له راية وكان يقوم المقام الخطير فيسلم منه بحسن نيته وكان تركيا أسمر اللون خفيف العارضين قصيرا جدا وبنى مدارس وربطا بالموصل وغيرها وبلغنى انه مدحه الحيص بيص فلما أراد الانشاد قال له أنا لا أدرى ما تقول لكن أعلم انك تريد شيأ فأمر له بخمسمائة دينار وأعطاه فرسا وخلعة وثيابا يكون مجموع ذلك ألف دينار قال ومكارمه كثيرة ولما توفى بأربل كان الحاكم بها خادمه مجاهد الدين قايماز وهو المتولى لامورها وولى بعد زين الدين ولده مظفر الدين كوكبرى مدة ثم فارقها بخلف كان بينه وبين مجاهد الدين قايماز وجرت أمور يطول ذكرها ولما فارق زين الدين الموصل استناب أتابك قطب الدين بقلعة الموصل بعده مملوكه فخر الدين عبد المسيح فسلك غير طريق زين الدين فكرهه الناس وذموه فلم تطل أيامه وسيجئ ذكر عزله فى أخبار سنة ست وستين ان شاء الله تعالى

✹ (ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة) ✹ ففى أولها ملك نور الدين رحمه الله تعالى قلعة جعبر وأخذها من صاحبها شهاب الدين بلك بن على بن بلك العقيلى من آل عقيل من بنى المسيب وكانت بيده وبيد آبائه من قبله من أيام السلطان ملكشاه وقد تقدم ذكر ذلك وهى من أمنع الحصون وأحسنها مطلة على الفرات لا يطمع فيها بحصار وقد أعجز جماعة من الملوك أخذها منه وقتل عليها عماد الدين زنكى والد نور الدين ثم اتفق ان خرج صاحبها منها يوما يتصيد فصاده بنو كلب فأخذوه أسيرا وأوثقوه وحملوه الى نور الدين فتقربوا به اليه وذلك فى رجب من سنة ثلاث وستين فحبسه بحلب وأحسن اليه ورغبه فى الاقطاع والمال ليسلم اليه القلعة فلم يفعل فعدل به نور الدين الى الشدة والعنف وتهدده فلم يفعل أيضا فسير اليها عسكرا مقدمه الامير فخر الدين مسعود بن أبى على الزعفرانى فحصرها مدة فلم يظفر منها بشئ فأمدهم بعسكر آخر وجعل على الجميع الامير مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الداية وهو أكبر أمراء نور الدين ورضيعه والى معاقله فأقام عليها وطاف حواليها فلم ير له فى قصدها مجالا ورأى أخذها بالحصر متعذرا محالا فسلك مع صاحبها طريق اللين وأشار عليه بأخذ العوض من نور الدين ولم يزل يتوسط معه حتى أذعن على أن يعطى سروج وأعمالها والملاحة التى فى عمل حلب والباب وبزاعة وعشرين ألف دينار معجلة فأخذ جميع ما شرطه مكرها فى صورة مختار قال ابن الاثير وهذا اقطاع عظيم جدا لكنه لا حظ فيه وتسلم مجد الدين قلعة جعبر

وصعد

وصعد اليها منتصف المحرم ووصل كتابه الى نور الدين بحلب فسار اليها وصعد القلعة فى العشرين من المحرم ثم سلمها نور الدين الى مجد الدين بن الداية فولاها أخاه شمس الدين على وكان هذا آخر امر بنى ملك ولكل أمر حد ولكل ولاية نهاية يؤتى الله الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء قال ابن الاثير بلغنى انه قيل لشهاب الدين أيما أحب اليك وأحسن مقاما السروج والشام أم القلعة فقال هذا أكثر مالا والعز بالقلعة فارقناه قال العماد وأنشدت نور الدين بقلعة جعبر قصيدة أولها

أسلم لبكر الفتوح مفترعا ❋ ودم لملك البلاد منتزعا
فان أولى الورى بها ملك ❋ غدا بعبء الخطوب مضطلعا
ان ضاق أمر فغير همته ❋ لكشف ضيق الامور لن يسعا
يا محيي العدل بعد ميتته ❋ ورافع الحق بعد ما اتضعا
ونور دين الهدى الذى قمع الـ ❋ شرك وعفى الضلال والبدعا
أنت سليمان فى العفاف وفى الـ ❋ ملك وتحكى بزهدك اليسعا
حزت البقا والحياء والكرم المحـ ❋ ض وحسن اليقين والورعا
أسقطت أقساطا وجدت من المكس ❋ بعدل والقاسطار تدعا
ولم تدع فى ابتغاء مصلحة الـ ❋ دين لنا باقيا ولن تدعا
وكل ما فى الملوك مفترق ❋ من المعالى لملكك اجتمعا
هتكت الربط والمدارس تبنيـ ❋ ـها ثوابا وتهدم البيعا
مازلت ذا فطنة مؤيدة ❋ على غيوب الاسرار مطلعا
بيأسك البيض والطلى اصطحبت ❋ بعدلك الذئب والطلا رتعا
كم صائد لم يقع له قنص ❋ فى شرك وهو فيه قد وقعا
ومالك حين رمت قلعته ❋ غدا مطيعا للامر متبعا
عنا خشوعا لرب مملكة ❋ لغير رب السماء ما خشعا
كان مقيما منها على الفلك الـ ❋ ـعالى شهابا بنوره سطعا
لكنما الشهب ما تنير اذا ❋ لاح عمود الصباح فانصدعا
يدفعها طائعا اليك وكم ❋ عنها اباء بجهده دفعا
هى التى فى علوها زحل ❋ كر على وردها وما كرعا
وهى التى قاربت عطارد فى الـ ❋ أفق فلاحا والفرقدين معا
كان منها السها اذا استرق السمـ ❋ ـع أتاها فى خفية ودعا
هضبة عز لولاك ما ارتقيت ❋ وطود ملك لولاك ما فرعا
ما قبلت فى ارتقاء ذروتها ❋ من ملك لارقى ولا جذعا
عزت على المالك الشهيد واعـ ❋ ـطتك قيادا مازال ممتنعا
للاب لوحل خطبها الغد ❋ محرما الابنه وما شرعا
لا زلت محمود فى أمورك محمو ❋ دا بثوب الاقبال مدرعا

(وفيها) فى سابع عشر صفر من هذه السنة توفى بهاء الدين عمر أخو مجد الدين بن الداية وفيه وفى أخويه يقول العماد الكاتب من قصيدة

أنتم لمحمود كآل محمد ❋ متهادفى الافعال والاسماء
يتلو أبا بكر على حسناته ❋ عمر الممدح فى سنا وسناء
ويليه عثمان المرجى للعلا ❋ وعلى المأمول فى اللاواء

وتقبل الحسن المجد مجدهم * فهم ذووا الاحسان والنعماء
فرعت لمجد الدين اخوته الذرى * دون الورى فى المجد والعلياء
من سابق كرما وشمس ساده * شرفا وبدر دجنة وبهاء
سرج الهدى سحب الندى شهب النهى * أسد الحروب ضراغم الهيجاء

يريد سابق الدين عثمان وشمس الدين على وبدر الدين حسن وبهاء الدين عمر ومجد الدين هو الاكبر فهم خمسة رحمهم الله

(فصل) وفى هذه السنة فتحت الديار المصرية سار اليها أسد الدين مرة ثالثة فهزم العدو وقتل شاورا وولى الوزارة مكانه ثم مات فوليها صلاح الدين وسبب ذلك ان الفرنج كانوا فى النوبتين الاوليين اللتين استعان بهم شاور فيهما على أسد الدين شيركوه قد خبروا الديار المصرية واطلعوا على عوراتها فطمعوا فيها ونقضوا ما كان استقر بينهم وبين المصريين وأسد الدين من القواعد فجمعوا وحشدوا وقالوا ما بمصر من يصدنا واذا اردناها فمن يردنا ثم قالوا نور الدين فى البلاد الشمالية والجهة الفراتية وعسكر الشام متفرق كل منهم فى بلده حافظا ما فى يده ونحن ننهض الى مصر ولا نطيل بها الحصر فانه ليس لها معقل ولا لاهلها منا مؤيل والى ان تجتمع عساكر الشام نكون قد حصلنا على المرام وقوينا بتلك الديار المصرية على سائر بلاد الاسلام فتوجهوا اليها سائرين ونحوها ثائرين واظهروا انهم على قصد حمص وشايعهم على قصد مصر جماعة من أهلها كابن الخياط وابن قرجلة وغيرهما من اعداء شاور وكان الفرنج قد جعلوا لهم شحنة بمصر والقاهرة واسكنوا فرسانهم ابواب البلدين والمفاتيح معهم على ما سبق ذكره وتحكموا تحكما كبيرا فطمعوا فى البلاد وارسلوا الى ملكهم مرى ولم يكن ملك الفرنج مذ خرجوا الى الشام مثله شجاعة ومكرا ودهاء يستدعونه لتملك البلاد واعلموه خلوها من ممانع عنها وسهلوا امرها عليه فلم يجبهم الى المسير واجتمع فرسان الفرنج وذووا الرأى والتقدم وأشاروا عليه بالمسير اليها والاستيلاء عليها فقال لهم الرأى عندى ان لا نقصدها فانها طعمة لنا واموالها تساق الينا نتقوى بها على نور الدين وان نحن قصدناها لنملكها فان صاحبها وعساكره وعامة اهل بلاده وفلاحيه لا يسلمونها الينا ويقاتلونا دونها ويحملهم الخوف منا على تسليمها الى نور الدين وان اخذها وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج واجلاؤهم من أرض الشام فلم يصغوا الى قوله وقالوا ان مصر لا مانع لها ولا حافظ والى ان يصل الخبر الى نور الدين ويجهز العساكر ويسيرهم اليها تكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة فلا يقدر عليها وكانوا قد عرفوا البلاد وانكشف لهم أمرها فاجابهم الى ذلك على كره شديد وتجهزوا وأظهروا انهم على قصد الشام وخاصة مدينة حمص وتوجهوا من عسقلان فى النصف من المحرم ووصلوا أول يوم من صفر الى بلبيس ونازلوها وحصروها فملكوها قهرا ونهبوها وسبوا اهلها وأقاموا بها خمسة أيام ثم أناخوا على القاهرة وحصروها عاشر صفر فخاف الناس منهم ان يفعلوا بهم مثل فعلهم باهل بلبيس فحملهم الخوف منهم على الامتناع فحفظوا البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم فى حفظه ولو ان الفرنج أحسنوا السيرة مع أهل بلبيس لملكوا مصر والقاهرة بسرعة ولكن الله تعالى حسن لهم ذلك ليقضى الله أمرا كان مفعولا وكان شاور أمر باحراق مدينة مصر تاسع صفر قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد خوفا عليها من الفرنج فبقيت النار فيها تحرقها أربعة وخمسين يوما الى خامس ربيع الآخر ثم ضاق الحصار وخيف البوار وعرف شاور انه يضعف عن الحماية فشرع فى تحمل الحيل وأرسل الى ملك الافرنج يذكر له مودته ومحبته القديمة وان هواه معه وتخوفه من نور الدين والعاضد وانما المسلمون لا يوافقونه على التسليم اليه ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يسلم البلاد الى نور الدين فاجابه الى الصلح على أخذ الف الف دينار مصرية يعجل البعض ويؤخر البعض واستقرت القاعدة على ذلك ورأى الفرنج ان البلاد امتنعت عليهم وربما سلمت الى نور الدين فاجابوا كارهين وقالوا ناخذ المال نتقوى به ونكثر من الرجال ثم نعود الى البلاد بقوة لا نبالى معها بنور الدين ولا غيره ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين فعجل لهم شاور مائة الف دينار وسألهم الرحيل عن البلد ليجمع لهم المال فرحلوا قريبا وكان خليفة مصر العاضد عقيب حريق مصر ارسل الى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج وأرسل فى الكتب شعور النساء وقال له هذه شعور نسائى من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج فقام نور الدين لذلك وقعد وشرع فى تجهيز

العساكر الى مصر ولما صالح شاور الفرنج على ذلك المال عاود العاضد مراسلة نور الدين واعلامه بما لقى المسلمون من الفرنج وبذل له ثلث البلاد من مصر وان يكون أسد الدين شيركوه مقيما عنده فى عسكر واقطاعهم عليه خارجا عن الثلث الذى لنور الدين هذا قول ابن الاثير وقال العماد عجل شاور للملك الفرنج بمائة ألف دينار حيلة وخداعا وارغاما له واطماعا وواصل بكتبه الى نور الدين مستصرخا مستنفرا وبما ناب الاسلام من الكفر مخبرا ويقول ان لم تبادر ذهبت البلاد وسير الكتب مسودة بمدادها كاسية لباس حدادها وفى طيها ذوائب مجزوزة وعصائب مجزوزة أظن انها شعور أهل القصر للاشعار بما عراهم من بلية الحصر وارسلها تباعا وأردف بها نجابين سراعا وأقام منتظرا ودام متحيرا وعامل الفرنج بالمطال يقدهم فى كل حين مالا ويطلب منهم امهالا ومازال يعطيهم ويستميلهم حتى أتى الغوث بعساكر نور الدين رحمه الله

﴿فصل﴾ فيما فعله نور الدين كان نور الدين لما أتاه الرسل اولا من العاضد قد أرسل الى أسد الدين ليستدعيه من حمص وهى اقطاعه فلما خرج القاصد من حلب لقى أسد الدين قد وصلها وكان سبب وصوله ان كتب المصريين أيضا وصلته فى هذا الامر فبقى مسلوب القرار مغلوب الاصطبار لانه كان قد طمع فى بلاد مصر فخاف خروجها من يده وان يستولى عليها الكفر فساق فى ليلة واحدة من حمص الى حلب واجتمع بنور الدين ساعة وصوله فتعجب نور الدين من ذلك وتفأل به وشكره وأمره بالتجهز الى مصر والسرعة فى ذلك وأعطاه مائتى ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والاسلحة وحكمه فى العساكر والخزائن فاختار من العسكر ألفى فارس واخذ المال وجمع من التركمان ستة آلاف فارس فكان فى مدة حشده للتركمان سار نور الدين لتسليم قلعة جعبر ثم سار هو ونور الدين الى دمشق ورحلا فى جميع العساكر الى رأس الماء وأعطى نور الدين كل فارس من العسكر الذين مع أسد الدين عشرين دينارا معونة لهم على الطريق غير محسوبة من القرار الذى له وأضاف الى أسد الدين جماعة من الامراء والمماليك منهم مملوكه عز الدين جرديك وغرس الدين قليج وشرف الدين برغش وناصح الدين خمارتكين وعين الدولة ابن الياروقى وقطب الدين ينال بن حسان المنبجى وغيرهم ورحلوا على قصد مصر مستنزلين من الله تعالى النصر وذلك منتصف ربيع الاول وخيم نور الدين فيمن أقام معه برأس الماء وأقام ينتظر ورود المبشرات فوصل المبشر برحيل الفرنج عن القاهرة عائدين الى بلادهم لما سمعوا بوصول عسكر نور الدين وسب الملك كل من أشار عليه بقصد مصر وامر نور الدين بضرب البشائر فى سائر بلاده وبث رسله الى الآفاق بذلك وقال القاضى أبو المحاسن لقد قال لى السلطان يعنى صلاح الدين كنت أكره الناس للخروج فى هذه الدفعة وما خرجت مع عمى باختيارى قال وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى وعسى ان تكرهوا شيأ وهو خير لكم وقال ابن الاثير احب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه حكى لى عنه انه قال لما وردت الكتب من مصر الى الملك العادل نور الدين رضى الله عنه مستصرخين ومستحضرين احضرنى واعلمنى الحال وقال تمضى الى عمك اسد الدين بحمص مع رسولى اليه بامره بالحضور وتحثه انت على الاسراع فما يحتمل الامر التأخير قال ففعلت فلما فارقنا حلب على ميل منها القيناه قادما فى هذا المعنى فقال له نور الدين تجهز للمسير فامتنع خوفا من غدرهم اولا وعدم ما ينفقه فى العساكر ثانيا فأعطاه نور الدين الاموال والرجال وقال له ان تأخرت أنت عن المسير الى مصر فالمصلحة تقتضى ان أسير انا بنفسى اليها فاننا ان أهملنا أمرها ملكها الفرنج ولا يبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره قال فالتفت الىّ عمى أسد الدين وقال تجهز يا يوسف قال فكأنما ضرب قلبى بسكين فقلت والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت اليها فلقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق ما لا انساه ابدا فقال عمى لنور الدين لا بد من مسيره معى فترسم له فامرنى نور الدين وانا استقيله ثم انقضى المجلس ثم جمع اسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم ولم يبق غير المسير فقال لى نور الدين لا بدّ من مسيرك مع عمك فشكوت اليه المضايقة وقلة الدواب وما احتاج اليه فاعطانى ما تجهزت به وكأنما أساق الى الموت وكان نور الدين مهيبا مخوفا مع لينه ورحمته فسرت معه فلما استقر أمره وتوفى اعطانى الله من ملكها ما لا كنت أتوقعه قلت وحرضه أيضا حسان العرقلة بأبيات من شعره من جملة قصيدة مدحه بها قال

وهل أخشى من الانواء بخلا ❊ اذا ما يوسف بالمال جادا

فتى للدين لم يبرح صلاحا * وللاعداء لم يبرح فسادا
لئن أعطاه نور الدين حصنا * فان الله يعطيه البلادا
الى كم ذا التوانى فى دمشق * وقد جاءتكم مصر تهادى
عروس بعلها اسد هزبر * يصيد المعتدين ولن يصادا
ألا يامعشر الاجناد سيروا * وراء لوائه تلقوا رشادا
فما كل امرىء صلى مع الناس مأموما كمن صلى فرادا

فلما سار صلاح الدين الى مصر عبر العرقلة على داره فوجدها مغلقه فقال

عبرت على دار الصلاح وقد خلت * من القمر الوضاح والمنهل العذب
فوالله لولا رعة مثل عزمه * لغرقها طرفى وأحرقها قلبى

ودار صلاح الدين هى التى وقفها رباطا للصوفية بحارة قطامش بجوار قيسارية القصاع واليها يجرى الماء من حمام نور الدين رحمه الله فقضى الله ماقضى من رحيل الفرنج وتملك صلاح الدين على ماسيأتى وللامير الفاضل أسامة بن منقذ فى صلاح الدين من قصيدة أولها (سلم على مصر لاربع بذى سلم) يقول فيها

الناصر الملك الموفى بذمته * ومن ندى كفه يغنى عن الديم
ومن اذا جرد البيض الصوارم فى الـهيجاء اغمدها فى البيض والقمم
ومن حوى الملك من بعد الطاعة فى انتزاعه بشبا الهندية الخذم
ورد طاغية الافرنج يحسب ما * رجاه من ملك مصر كان فى الحلم
ولى وراحته صفر وقد ملئت * بعد الطاعة من يأس ومن ندم
يصعدون على مافاتهم نفسا * لولا فم البحر أضحى الموج كالحمم
وفى السلامة لولا جهلهم ظفر * لمن أراد نزال الاسد فى الاجم
وهم اسود الشرى لكن أذلهم * ملك لديه الاسود الغلب كالغنم

وله من قصيدة أخرى

اقمت عمود الدين حين أماله * لطاغى الفرنج الغتم طاغى بنى سعد
وجاهدت حزب الكفر حتى رددتهم * خزايا عليهم خيبة الذل والرد
أقدت بما قدمت ملكا مخلدا * وذكرا مدى الايام يقرن بالحمد
وذكرك فى الآفاق يسرى كأنه الـصباح له نشر الالوة والند

ولابى الحسن بن الذروى فيه من قصيدة يذكر فيها ملك الفرنج مرى

ولكم أشمت الروم أشأم بارق * أضحت مياه نفوسها من قطره
ولقد أتى بحر دروعها عن مده * ومضى وقد خكمت ظباك بجزره
ولقيت مرى يا وطء حياته * حلو فبدد له القتال بمره
فاعقد اليه الرأى فى عذب القنا * واحلل بها عجلا معاقد مكره
واطرده من وكر الشآم فانه * قد طار منك بخافق من ذعره

﴿فصل﴾ فى القبض على شاور وقتله وصل أسد الدين القاهرة سابع ربيع الآخر واجتمع بالعاضد خليفة مصر فخلع عليه وأكرمه وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة ولم يمكن شاورا المنع من ذلك لرأى العساكر كثيرة بظاهر البلد ورأى هوى العاضد معهم من داخله فلم يتجاسر على اظهار ما فى نفسه فكتمه وهو يماطل أسد الدين فى تقرير ما كان بذل له من المال والاقطاع للعساكر وافراد ثلث البلاد لنور الدين وهو يركب كل يوم الى أسد الدين ويسير معه ويعده ويمنيه وما يعدهم الشيطان الاغرورا ثم انه عزم على ان يعمل دعوة لاسد الدين ومن معه من الامراء ويقبض عليهم فنهاه ابنه الكامل وقال له والله لئن عزمت على هذا الامر لاعرفن

أسد الدين فقال له أبوه والله لئن لم أفعل هذا لنقتلن جميعا فقال صدقت ولان نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من ان نقتل وقد ملكها الفرنج فليس بينك وبين عود الفرنج الا ان يسمعوا بالقبض على شيركوه وحينئذ لومشى العاضد الى نور الدين لم يرسل فارسا واحدا ويملكون البلاد فترك ما كان عزم عليه فلما رأى العسكر النورى المطل من شاور اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك وغيرهما على قتل شاور وأعلموا أسد الدين بذلك فنهاهم فقالوا انا ليس لنا فى البلاد شئ مهما هذا على حاله فأنكر ذلك واتفق ان أسد الدين سار بعض الايام الى زيارة قبر الشافعى رضى الله عنه وقصد شاور عسكره على عادته للاجتماع به فلقيه صلاح الدين وعز الدين جرديك ومعهما جمع من العسكر فخدموه وأعلموه ان أسد الدين فى الزيارة فقال نمضى اليه فساروا وهما معه قليلا ثم ساوروه وألقوه عن فرسه فهرب أصحابه وأخذ أسيرا ولم يمكنهم قتله بغير اذن أسد الدين فسجنوه فى خيمة وتوكلوا بحفظه فعلم أسد الدين الحال فعاد مسرعا ولم يمكنه الا اتمام ما عملوه وأرسل العاضد لدين الله صاحب مصر فى الوقت الى أسد الدين يطلب منه رأس شاور ويحثه على قتله وتابع الرسل بذلك فقتل شاور فى يومه وهو سابع عشر ربيع الآخر وحمل رأسه الى القصر ودخل أسد الدين القاهرة فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خافه على نفسه فقال لهم أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور فقصدها الناس ينهبونها فتفرقوا عنه هذا قول ابن الاثير وقال ابن شداد أقام أسد الدين بها يتردد اليه شاور فى الاحيان وكان وعدهم بمال فى مقابلة ما خسروه من النفقة فلم يوصل اليهم شيئا وعلقت مخاليب الاسد فى البلاد وعلم ان الفرنج متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد وان تردده اليها فى كل وقت لا يفيد وان شاورا يلعب بهم تارة وبالافرنج أخرى وملاكها قد كانوا على البدعة المشهورة عنهم وعلموا انه لا سبيل الى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور فاجمعوا أمرهم على قبضه اذ لخرج اليهم وكانوا هم يترددون الى خدمته دون أسد الدين وهو يخرج فى الاحيان الى أسد الدين يجتمع به وكان يركب على قاعدة وزارتهم بالطبل والبوق والعلم فلم يتجاسر على قبضه منهم الا السلطان نفسه يعنى صلاح الدين وذلك انه لما سار اليهم راكبا وسار الى جانبه أخذ بتلابيبه وأمر العسكر ان خذوا على أصحابه ففروا ونهبهم العسكر وقبض شاور وأنزل الى خيمة مفردة وفى الحال جاء التوقيع من المصريين على يد خادم خاص يقول لا بد من رأسه جريا على عادتهم فى وزارتهم فى تقرير قاعدة من قوى منهم على صاحبه فحزت رقبته وأنفذوا رأسه اليهم قال العماد ودخل أسد الدين فى الرابع من شهر ربيع الآخر الايوان وخلع عليه ولقى الاحسان وتردد شاور الى أسد الدين وتودد وتجدد بينهما من الوداد ما تأكد وأقام للعسكر الضيافات الكثيرة والاطعمة الواسعة والحلاوات والميرة فقال صلاح الدين هذا امر يطول ومسألة فرضها يعول ومعناه هذا العسكر الثقيل واقامته بالاقامة يقصر عنها الامد الطويل ولا أمر لنا مع استيلاء شاور ولا سيما اذا راوغ وغادر فأنفذ أسد الدين الفقيه عيسى الى شاور يشير عليه بالاحتراس وقال له أخشى عليك من عندى من الناس فلم يكترث بمقاله وركب على سبيل انبساطه واسترساله فاعترضه صلاح الدين فى الامراء النوريه وهو راكب على عادته فى هيئته الوزيريه فبغته وشحته وقبضه وأثبته ووكل به فى خيمة ضربها له وحاول أمهاله فجاء من القصر من يطلب راسه ويعجل من العمر ياسه وجاء الرسول بعد الرسول وأبوا ان يرجعوا الا بنجح السول فجز حامه وحمل الى القصر هامه قلت وبلغنى ان الذى حز رقبة شاور هو عز الدين جرديك وكان صلاح الدين لما لقيه فى اصحابه سار بجنبه وأراد افراده عن العسكر فالتمس منه المسابقة بفرسيهما فأجابه ووافقهما فى ذلك جرديك وكان ذلك عن أمر قد تقرر فحركوا خيلهم فلما بعدوا عن العسكر ووقفوا قبض صلاح الدين وجرديك على شاور داخل الخيمة وقد كثر هجاء شاور بغدره ومكره حتى قال عرقلة

لقد فاز بالملك العقيم خليفة ❊ له شيركوه العاضدى وزير
كأن ابن شاذى والصلاح وسيفه ❊ على لديه شبر وشبير
هو الاسد الضارى الذى جل خطبه ❊ وشاور كلب للرجال عقور
بغى وطغى حتى لقد قال قائل ❊ على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قبره ❊ ولا زال فيها منكر ونكير

وقال أيضا

ان امير المؤمنين الذى * مصر حماه وعلىّ أبوه
نص على شاور فرعونها * ونص موساها على شيركوه

وقد وصف الفقيه الشاعر أبو حمزة عمارة اليمنى فى كتاب الوزراء المصرية الذى صنفه حال شاور فى وزارته الاولى ثم قال وزارة شاور الثانية فيها تكشفت صفحاته وأحرقت لمحاته وأغرقت جراحاته وغضه الدهر وعصه وأوجعه الثكل وأمضه وبان غمره وثماده وجمره ورماده ولم يجف من الانكاد لبده ولا صفا من الاقذاء ورده وما هوالا ان تسلمها بالراحه وسلمت له الهموم عوضا عن الراحه وفى أوّل ليلة دخل القاهرة ارتحل أسد الدين طالبا بلبيس فأقام بها ثم عاد الى القاهرة فكسر الناس يوم التاج وأسر أخوه صبح وأصيب على باب القنطرة بحجر كاد يموت منه وتعقب ذلك بنقل القتال على القاهرة حتى دخلت من الثغرة ثم تبع هذا مجىء الفرنج وعمل البرج وحصار بلبيس ثم تلا ذلك قيام يحيى بن الخياط طالبا للوزارة ثم تلا ذلك نفاق لواتة ومن ضامهامن قبس وخروج أخيه نجم وابنه سليمان وجماعة من غلمانهم لحربهم ثم خروج ابنه الكامل فى بقية العسكر وفى أثناء هذه المدة قبضه على الاثير بن جلب راغب وقتله وأسر معالى بن فريج ثم قتله واتصل اليه الخبر من قدوم أسد الدين الى اطفيح بأم النوائب الكبر ووافق مجىء الغز قدوم الفرنج ناصرين للدولة وتوجهوا من مصر فى البرّ الشرقى تابعين للغز ثم لاحت الفرصة للفرنج فعادوا الى مصر واقترحوا من المال ما تنقطع دونه الامال وخيموا على ساحل المقسم وأظهروا رجوعهم الى الشام فتجهز الكامل للمسير صحبة الافرنج حدثنى القاضى الاجل الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى قال أنا أذكر وقد خلونا فى خيمة وليس معنا أحد انما هو شاور وابنه الكامل وأخوه نجم فعزم الكامل على النهوض مع الفرنج وعزم نجم على التغريب الى سليم وما وراءها وقال شاور لكن لا أبرح أقاتل بمن صفا معى حتى أموت فنحن فى ذلك حتى وصل الينا الداعى ابن عبد القوى وصنيعة الملك جوهر وعز وقد التزموا المال وتفرع على هذا الاصل مقام الغز بالجيزة ونوبة البابين وحصار الاسكندرية وانصراف الغز راجعين والفرنج بعدهم فما هو الا ان توهم شاور ان الدهر قد نام وغفا وصفح عن عادته وعفا واذا الا يام لا تخطب الا زواله وفوته ولا تريد الا انتقاله وموته فكان من قدوم الفرنج الى بلبيس وقتل من فيها وأسرهم بأسرهم ما أوجب حريق مصر ومكاتبة الاجل نور الدين بن القسيم وانجاده كلمة الاسلام بأسد الدين ومن معه من المسلمين الذين قلت فيهم وقد ربط الافرنج بالطريق عليهم

أخذتم على الافرنج كل ثنية * وقلتم لايدى الخيل مرّى على مرّى
لئن نصبوا فى البرّ جسرا فانكم * عبرتم بحر من حديد على الجسر

قلت وهذان البيتان من قصيدة ستأتى ومرّى هو اسم ملك الافرنج قال عمارة فقضى قدوم الغز برحيل الفرنج عن الديار المصرية ولم يلبث شاور ان مات قتيلا بعد قدوم الغز بثمانية عشر يوما وهذه السنوات التى وزر فيها شاور وزارته الثانية كثيرة الوقائع والنوازل وفيها ما هو عليه أكثر مما هو له قال ولم يرب أحد رجال الدولة مثل ماربا هم الصالح بن رزيك ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام وكانت وزارته تسعة أشهر مدة حمل الجنين ولا أتلف أموالهم مثل شاور وشاور هو الذى أطمع الغز والافرنج فى الدولة حتى انتقلت عن أهلها ولما عاد من حصار الاسكندرية أكثر من سفك الدماء بغير حق كان يأمر بضرب الرقاب بين يديه فى قاعة البستان من دار الوزارة ثم تسحب القتلى الى خارج الدار وقال الحافظ أبو القاسم لما خيف من شر شاور ومكره لما عرف من غدره وختره واتضح الامر فى ذلك واستبان تمارض الاسد ليقتنص الثعلبان فجاءه قاصدا لعيادته جاريا فى خدمته على عادته فوثب جرديك وبزغش موليا نور الدين فقتلا شاورا وأراحا العباد والبلاد من شره وما شاورا وكان ذلك برأى صلاح الدين فانه أوّل من تولى القبض عليه ومدّ يده الكريمة بالمكروه اليه وصفا الامر لاسد الدين وملك وخلع عليه الخلع وحنك واستولى أصحابه على البلاد وجرت أموره على السداد وظهر منه جميل السيرة وظهرت كلمة السنة

(فصل) فى وزارة أسد الدين وذلك عقيب قتل شاور وتنفيذ رأسه الى القصر أنفذ الى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها وسار ودخل القصر وترتب وزيرا ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش وقصد دار الوزارة فنزلها وهى التى كان

بها شاور فمن قبله من الوزراء فلم ير فيها ما يقعد عليه واستقر فى الامر ولم يبق له فيه منازع ولا مناو وولى الاعمال من يثق اليه واستبد بالولاية فاقطع البلاد العساكر التى قدمت معه وصلاح الدين مباشر للامور مقرر لها وزمام الامر والنهى مفوض اليه لمكان كفايته ودرايته وحسن تأتيه وسياسته قال العماد وكتب لاسد الدين منشور من القصر بسيط الشرح طويل الطى والنشر كتب العاضد فى طرته بخطه ولا شك انه باملاء كاتبه (هذا عهد لا عهد لوزير بمثله وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلا لحمله والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك الى نبوة النبوة واتخذه للفوز سبيلا ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) نسخة المنشور (من عبد الله ووليه أبى محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين الى السيد الاجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولى الائمة مجير الامة أسد الدين كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبى الحارث شيركوه العاضدى عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته سلام عليك فانه يحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ويسأله ان يصلى على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والائمة المهديين وسلم تسليما) ثم ذكر باقى المنشور وهو مشتمل على كلام طويل وحشو غير قليل على عادة الكتاب المتأخرين الذين تراهم بالالفاظ الكثيرة عن المعنى اليسير معبرين والبلاغة عكس ذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم (بعثت بجوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصارا)

ولما استقل أسد الدين بالوزارة طلب من القصر كاتب انشا فارسل اليه بالقاضى الفاضل عبد الرحيم بن البيسانى وكان أبوه من أهل بيسان الشام ثم ولى قضاء عسقلان وخرج الفاضل الى الديار المصرية فولى كاتبا بالاسكندرية على باب السدرة ثم انه اتصل بالكامل بن شاور فاستكتبه وزاحم به كتاب القصر فتقدم عليهم أمره فلما طلب أسد الدين كاتبا أرسل اليه وظن رؤساء ديوان المكاتبات ان هذا أمر لا يتم وان أسد الدين سيقتل كما قتل من كان قبله فأرسلوا بالفاضل اليه وقالوا لعله يقتل معه فنخلص من مزاحمته لنا فكان من أمره ما كان واستمر فى الدولة ولم يزدد فى كل يوم الا تقدما بصدقه ودينه وحسن رأيه رحمه الله وأنفذ العماد قصيدة طويلة تهنئة لاسد الدين أولها

بالجد أدركت ما ادركت لا اللعب * كم راحة جنيت من دوحة التعب
يا شيركوه بن شاذى الملك دعوة من * نادى فعرف خير ابن بخير أب
جرى الملوك وما حازوا بركضهم * من المدى فى العلى ما حزت بالخبب
تمل من ملك مصر رتبة قصرت * عنها الملوك فطالت سائر الرتب
فتحت مصر وأرجو ان تصيربها * ميسرا فتح بيت القدس عن كثب
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من * فتح البلاد فبادر نحوها وثب
أنت الذى هو فرد من بسالته * والدين من عزمه فى جحفل لجب
فى حلق ذى الشرك من عدوى سطاك شجا * والقلب فى شجن والنفس فى شجب
زارت بنى الاصفر البيض التى لقيت * حمر المنايا بها مرفوعة الحجب
وانها نقد من خلفها أسد * ارى سلامتها من أعجب العجب
لقد رفعنا الى الرحمن أيدينا * فى شكرنا ما به الاسلام منك حبى
شكا اليك بنو الاسلام يتمهم * فقمت فيهم مقام الوالد الحدب
فى كل دار من الافرنج نادبة * بما دهاهم فقد باتوا على ندب
من شر شاور انقذت العباد فكم * وكم قضيت لحزب الله من أرب
هو الذى أطمع الافرنج فى بلد الاسلام حتى سعوا للقصد والطلب
وان ذلك عند الله محتسب * فى الحشر من أفضل الطاعات والقرب
أذله الملك المنصور منتصرا * لما دعا الشرك هذا قد تعزز بى
وما غضبت لدين الله منتقما * الا لنيل رضى الرحمن بالغضب

وأنت من وقعت فى الكفر هيبته * وفى ذويه وقوع النار فى الحطب
وحين سرت الى الكفار فانهزموا * نصرت نصر رسول الله بالرعب
يامحيى الامة الهادى بدعوته * للرشد كل غوى منهم وغبى
لما سعيت لوجه الله مرتقبا * ثوابه نلت عفوا كل مرتقب
أعدت نقمة مصر نعمة فغدت * تقول كم نكت لله فى النكب
أركبت رأس سنان رأس ظالمها * عدلا وكنت لو زرغير مرتكب
رد الخلافة عباسية ودع البـــدعى فيها يصادف شر منقلب
لاتقطعن ذنب الافعى وترسلها * فالحزم عندى قطع الرأس كالذنب

وقال العماد فى الخريدة أنشدنى الحافظ أبو القاسم لنفسه وقد أعفى الملك العادل نور الدين قدس الله روحه أهل دمشق من المطالبة بالخشب فورد الخبر باستيلاء عسكره على مصر فكتب اليه يهنيه

لما سمحت لاهل الشام بالخشب * عوضت مصر بما فيها من النشب
وان بذلت لفتح القدس محتسبا * للاجر جوزيت أجرا غير محتسب
والاجر فى ذاك عند الله مرتقب * فيما يثيب عليه خير مرتقب
والذكر بالخير بين الناس تكسبه * خير من الفضة البيضاء والذهب
ولست تعذر فى ترك الجهاد وقد * أصبحت تملك من مصر الى حلب
وصاحب الموصل الفيحاء ممتثلا * لما تريد فبادر فجأة النوب
فاحزم الناس من قوى عزيمته * حتى ينال بها العالى من الرتب
فالجد والجد مقرونان فى قرن * والحزم فى العزم والادراك بالطلب
فطهر المسجد الاقصى وحوزته * من النجاسات والاثر الذو الصلب
عساك تظفر فى الدنيا بحسن ثنا * وفى القيامة تلقى خير منقلب

﴿فصل﴾ فى وفاة أسد الدين شيركوه وولاية ابن أخيه صلاح الدين مكانه توفى أسد الدين فجأة يوم السبت الثانى والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة فكانت وزارته شهرين وخمسة أيام قال ابن شداد كان أسد الدين كثير الاكل شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة تتواتر عليه التخم والخوانيق وينجو منها بعد معاناة شدة عظيمة فأخذه مرض شديد واعتراه خانوق عظيم فقتله رحمه الله وفوض الامر بعده الى صلاح الدين واستقرت القواعد واستتبت الاحوال على أحسن نظام وبذل الاموال وملك الرجال وهانت عنده الدنيا فلكها وشكر نعمة الله عليه فتاب عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص بلباس الجد والاجتهاد وماعاد عنه ولا ازداد الا جدا الى أن توفاه الله تعالى الى رحمته ولقد سمعت منه رحمه الله يقول لما يسر الله لى الديار المصرية علمت انه أراد فتح الساحل لانه أوقع ذلك فى نفسى وحين استتب له الامر مازال يشن الغارات على الفرنج الى الكرك والشوبك وبلادهما وغشى الناس من سحائب الافضال والنعم مالم يؤرخ عن غير تلك الايام هذا كله وهو وزير متابع للقوم لكنه مقوم مذهب السنة غارس فى البلاد أهل العلم والفقه والتصوف والدين والناس يهرعون اليه من كل صوب ويغدون اليه من كل جانب وهو رحمه الله لايخيب قاصدا ولا يعدم وافدا ولما عرف نور الدين استقرار أمر صلاح الدين بمصر أخذ حمص من نواب أسد الدين وذلك فى رجب من هذه السنة وقال ابن الاثير أما كيفية ولاية صلاح الدين فان جماعة من الامراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة منهم الامير عين الدولة اليارو فى وقطب الدين خسرو بن تليل وهو ابن أخى أبى الهيجاء الهذبانى الذى كان صاحب أربل ومنهم سيف الدين على بن أحمد الهكارى وجده كان صاحب قلاع الهكارية ومنهم شهاب الدين محمود الحارمى وهو خال صلاح الدين وكل من هؤلاء قد خطبها وقد جمع ليغالب عليها فأرسل الخليفة العاضد الى صلاح الدين فأمره بالحضور فى قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ويوليه الامر بعد عمه وكان الذى حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين فانه ظن انه

انه اذا ولى صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال كان فى ولايته بحكمه ولا يجسر على المخالفة وانه يضع على العسكر الشامى من يستميلهم اليه فاذا صار معه البعض أخرج الباقين وتعود البلاد اليه وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقام فالزم به وأخذ كارها ان الله ليعجب من قوم يقادون الى الجنة بسلاسل فلما حضر فى القصر خلع عليه خلعة الوزارة الجبة والعمامة وغيرهما ولقب بالملك الناصر وعاد الى دار أسد الدين فأقام بها ولم يلتفت اليه أحد من أولئك الامراء الذين يريدون الامر لانفسهم ولا خدموه وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى معه فسعى عند سيف الدين على بن أحمد حتى أماله اليه وقال له ان هذا الامر لا يصل اليك مع وجود عين الدولة والحارمى وابن تليل فمال الى صلاح الدين ثم قصد شهاب الدين الحارمى وقال له ان هذا صلاح الدين هو ابن اختك وملكه لك وقد استقام الامر له فلا تكن أول من يسعى فى اخراجه عنه فلا يصل اليك ولم يزل به حتى أحضره أيضا عنده وحلفه له ثم عدل الى قطب الدين وقال له ان صلاح الدين قد أطاعه الناس ولم يبق غيرك وغير اليارو فى وعلى كل حال فالجمع بينك وبين صلاح الدين ان أصله من الاكراد فلا يخرج الامر عنه الى الاتراك ووعده وزاد فى اقطاعه فأطاع صلاح الدين أيضا وعدل الى عين الدولة اليار وقى وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعا فلم تنفعه رقاه ولا نفذ فيه سحره وقال أنا لا أخدم يوسف أبدا وعاد الى نور الدين ومعه غيره فأنكر عليهم فراقه وقد فات الامر ليقضى الله أمرا كان مفعولا وثبت قدم صلاح الدين ورسخ ملكه وهو نائب عن الملك العادل نور الدين والخطبة لنور الدين فى البلاد كلها ولا يتصرفون الا عن أمره وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالامير الاسفهسلار ويكتب علامته فى الكتب تعظيما أن يكتب اسمه ولا يفرده فى كتاب بل يكتب الامير الاسفهسلار صلاح الدين وكافة الامراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل لهم الاموال مما كان أسد الدين قد جمعه وطلب من العاضد شيأ يخرجه فلم يمكنه منعه فمال الناس اليه وأحبوه وقويت نفسه على القيام بهذا الامر والثبات فيه وضعف امر العاضد وكان كالباحث عن حتفه بظلفه وارسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل اليه اخوته فلم يجبه الى ذلك وقال أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد ثم ان الفرنج اجتمعوا ليسيروا الى مصر فسير الى مصر نور الدين العساكر وفيهم اخوة صلاح الدين منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب وهو اكبر من صلاح الدين فلما أراد أن يسير قال له ان كنت تسير الى مصر وتنظر الى أخيك انه يوسف الذى كان يقوم فى خدمتك وأنت قاعد فلا تسر فانك تفسد البلاد وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه وان كنت تنظر اليه انه صاحب مصر وقائم فيها مقامى وتخدمه بنفسك كما تخدمنى فسر اليه واشدد أزره وساعده على ما هو بصدده قال افعل معه من الخدمة والطاعة ما يصل اليك ان شاء الله تعالى فكان كما قال وقال العماد لما فرغ بعد ثلاثة أيام من التعزية بأسد الدين اختلفت اراؤهم واختلطت أهواؤهم وكاد الشمل لا ينتظم والخلل لا يلتئم فاجتمع الامراء النورية على كلمة واحده وأيد متساعده وعقدوا لصلاح الدين الرأى والرايه وأخلصوا له الولاء والولايه وقالوا هذا قائم مقام عمه ونحن بحكمه وألزموا صاحب القصر بتوليته ونادت السعادة بتلبيته وشرع فى ترتيب الملك وتربيته وفض ختوم الخزائن وأبض رسوم المزائن وسلط الجود على الموجود وبسط الوفور للوفود وفرق ما جمعه أسد الدين فى حياته وأنارت على منار العلى اناة آياته ورأى أولياءه تحت الويته وراياته وأحبوه وما زالت محبته غالبة على مهابته وهو يبالغ فى تقريبهم كأنهم ذوو قرابته وما زاده الملك ترفعا وما أفاده الا تأصلا فى السماح وتفرعا وضم من أمر المملكة ما كان منثورا وكتب له العاضد صاحب القصر منشورا وهو بالمثال الكريم الفاضلى الذى هو السحر الحلال والعذب الزلال ثم أورده العماد وهو شبيه بمنشور أسد الدين عمه وجرى القلم فيه بما خط له القلم فى الازل من وصف جهاده وسلمه ففى ذلك المنشور (والجهاد أنت رضيع دره وناشئه بحجره وظهور الخيل مواطنك وظلال الخيام مساكنك وفى ظلمات قساطله تجلى محاسنك وفى أعقاب نوازله تتلى مناقبك فشمر عن ساق من القنا وخض فيه بحرا من الظبا وأحلل فى عقد كلمة الله وثيقات الحبا واسل الوهاد بدم العدى وأرفع برؤسهم الربا حتى يأتى الله بالفتح الذى يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذخورا لايامك وشهود الك يوم مقامك) وفى طرته بالخط العاضدى ولم يذكره العماد فى كتابه (هذا عهد أمير المؤمنين اليك وحجته عند الله سبحانه عليك فأوف بعهدك ويمينك وخذ كتاب أمير

المؤمنين بمينك ولمن مضى بجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن اسوه ولمن تبقى ممن تبعته بنا أعظم سلوه وتلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين) يعنى بمن مضى أسد الدين وبمن بقى صلاح الدين ثم قال العماد وهذا آخر منشور طويت به تلك الدولة وختمت وتبددت عقودها وما انتظمت ووصلت كتب صلاح الدين الينا الى الشام بما تسنى له من المرام ولمن يقصده بالاستدعاء والاستبطاء ولمن تأخر عنه بالخلع والعطاء وترددت الكتب الصلاحية بذكر الاشواق وشكوى الفراق وشرح الاستيحاش وبرح القلوب العطاش فان أصحابنا وان ملكوا ونالوا مقاصدهم وادركوا حصلوا بين أمة لا يعرفونها بل ينكرونها ولا يألفونها ورأوا وجوها هنالك بهم عابسه وأعين المكائد متيقظة وعن الودّ ناعسه فان أجناد مصر كانوا فى الدين مخالفين وعلى عقيدتهم معاقدين محالفين وكتب صلاح الدين الى بعض أصدقائه كتابا أوله

أيها الغائبون عنى وان كنـ ـتم لقلبى بذكركم جيرانا
اننى مذ فقدتكم لا اراكم ✽ بعيون الضمير عندى عيانا

فسألنى المكتوب اليه ان اكتب جوابه فقلت

أيها الظاعنون عنى وقلبى ✽ معهم لا يفارق الاظعانا
ملكوا مصر مثل قلبى وفى هـ ـذا وهاتيك أصبحوا اسكانا
فاعدلوا فيهما فانكم اليو ✽ م ملكتم عليهما سلطانا
لا تروعوا بالهجر قلب محب ✽ أورثته روعاته الخفقانا
حبذا معهد قضينا به العيـ ـش فكنا بربعه جيرانا
اذ وجدنا من الحوادث أمنا ✽ وأخذنا من الخطوب أمانا
ورتعنا من المنى فى رياض ✽ وسكنا من المغانى جنانا

وبعد فان وفود الهناء وامداد الدعاء متواصلة على الولاء صادرة عن محض الولاء الى عالى جنابه المأنوس ومنيع كنفه المحروس فليهنه الظفران بالملك وبالعدوّ وفرع هضاب المجد والعلو وكيف لا يكون النصر مساوقا والدين هو صلاحه والتأييد مرافقا العزم هو نجاحه وفلاحه

فالشام يغبط مصر امذ حلات بها ✽ كالفرات عليكم يحسد النيلا
نلتم من الملك عفوا ما الملوك به ✽ عنوا قديما وراموه فما نيلا

قال العماد ورثيت أسد الدين بقصيدة خدمت بها نور الدين وعزيت بها أخاه نجم الدين منها

تضعضع فى هذا المصاب المباغت ✽ من الدين لولا نوره كل ثابت
فأيام نور الدين دامت منيرة ✽ لنا خلفا من كل مود وفائت
فما بالنا نبـدى التصام غفلة ✽ وداعى المنايا ناطق غير صامت
نؤمـل فى دار الفناء بقاءنا ✽ ونرجو من الدنيا صداقة ماقت
وما الناس الا كالغصون بد الردى ✽ تقرب منها كل عود لناحت
لقد أبلغت رسل المنايا وأسمعت ✽ ولكنها لم تحظ منا بناصت
فلهفى على تلك الشمائل انها ✽ لقد كرمت فى الحسن عن نعت ناعت

وله من أخرى عزى بها أخاه نجم الدين أيوب وولده ناصر الدين محمدا يقول

ما بعد يومك للمعنى المدنف ✽ غير العويل وحسرة المتأسف
ما أجرأ الحدثان كيف سطا على الـ ـأسد الخوف سطا ولم يتخوف
من ذا رأى الاسد الهصور فريسة ✽ أم أبصر الصبح المنير وقد خفى
من ثابت دون الكماة سواه ان ✽ زلت بهم أقدامهم فى الموقف
ما كان أسنى البدر لو لم يستتر ✽ ما كان أبهى الشمس لو لم تكسف

أيام عمرك لم تزل مقسومة ❊ لله بين تعبد وتعرف
متهجدا لعبادة أو تاليا ❊ من آية أو ناظرا فى مصحف
لجمع الندى والبأس منك بحاتم ❊ وبحيدر والحلم منك باحنف
بالملك فزت وحزته عن قدرة ❊ ومضيت عنه بسيرة المتعفف
ووصفت بأسدا لدين مجد ❊ مدحا بما ملك به لم يوصف
وقفوت آثار الشريعة كلها ❊ وقد اهتدى من للشريعة يقتفى
أأنفت من دنياك حين عرفتها ❊ فلويت وجه العارف المتنكف
ياناصر الدين استعذ بتصبر ❊ مدن الى مرضاة رب مزلف
وتعز نجم الدين عنه مهنأ ❊ أبدا الزمان بملك مصر ويوسف
لانستطيع سوى الدعاء فكلنا ❊ الا بما فى الوسع غير مكلف

ولعمارة اليمنى فى صلاح الدين مدائح منها قوله

لك الحسب الباقى على عقب الدهر ❊ بل الشرف الراقى الى قمة النسر
كذا فليكن سعى الملوك اذا سعت ❊ بها الهمم العليا الى شرف الذكر
نهضتم باعباء الوزارة نهضة ❊ اقلتم بها الاقدام من زلة العثر
كشفتم عن الاقليم غمته كما ❊ كسعتم بانوار الغنى ظلمة الفقر
حميتم من الافرنج سرب خلافة ❊ جريتم لها مجرى الامان من الذعر
ولما استغاث ابن النبى بنصركم ❊ ودائرة الانصار أضيق من شبر
جلبتم اليه النصر أوسا وخزرجا ❊ وما اشتقت الانصار الا من النصر
كتائب فى جيرون منها أواخر ❊ وأولها بالنيل من شاطئى مصر
طلعتم فاطلعتم كواكب نصرة ❊ أضاءت وكان الدين ليلا بلا فجر
وأبت اليكم يا ابن أيوب دولة ❊ تراسلكم فى كل يوم مع السفر
حمى الله فيكم عزمة أسدية ❊ ففككتم بها الاسلام من ربقة الاسر
أخذتم على الافرنج كل ثنية ❊ وقلتم لايدى الخيل مرى على مرى
لئن نصبوا فى البر جسرا فانكم ❊ عبرتم ببحر من حديد على الجسر
طريق تقارعتم عليها مع العدى ❊ ففزتم بها والصخر تقرع بالصخر
وأزعجه من مصر خوف يلزه ❊ كما انهزم مهزوم من الليل بالفجر
وكم وقعة عذراء لما افتضضتها ❊ بسيفك لم تترك لغيرك من عذر
وأيديكم بالبأس كاسرة العدى ❊ ولكنها بالجود جابرة الكسر
أبوك الذى أضحى ذخيرة مجدكم ❊ وأنت له خير النفائس والذخر
ومن كنت معروفا له فاستفزه ❊ بمثلك تيه فهو فى أوسع العذر
فكيف أب أصبحت نار زناده الا ❊ كنور البدر من سنه البدر
نوقره وسط الندى كرامة ❊ وتحمل عنه ما يؤود من الوقر
وتخلفه حربا وسلما خلافة ❊ تؤلف أضدادا من الماء والجمر
وكم قفت فى بأس وجود ورتبة ❊ بما سره فى الخطب والدست والثغر
ولو أنطق الله الجمادات لم تقم ❊ لنعمتكم بالمستحق من الشكر
بدلا يقوم المسلمون بشكرها ❊ لكم آل أيوب الى آخر الدهر
بكم أمن الرحمن أعظم يثرب ❊ وأمن أركان الثنية والحجر

ولو رجعت مصر الى الكفر لانطوى * بساط الهدى من ساحة البر والبحر
ولكن شددتم أزره بوزارة * غدا لفظها يشتق من شدة الازر
فهنيتم فتحا تقدم جسله * وبشر أن الكل يتلو على الاثر
وما بقيت فى الشرك الابقية * تتمها فى ذمة البيض والسمر
وعند تمام الملك أتى مهنئا * وملتمسا أجر الكهانة والزجر
ولولا اعتقادى ان مدحك قربة * أرجى بها نيل المثوبة والاجر
لما قلت شعرا بعد اعفاء خاطرى * ولى سنوات مذ تبت عن الشعر
فاوص بى الايام خيرا فانها * مصرفة بالنهى منك وبالامر
وجائزتى تسهيل اذنى عليكم * وملقاكم لى بالطلاقة والبشر

وقال أيضا من قصيدة

ياشبيه الصديق عدلا وحسنا * وسميا حكاه معنى ومغنى
هذه مصر يوسف حل فيها * يوسف مالكا وما حل سجنا
أنت حرمت ان يثلث فيها * بسوى الله وحده أو يثنى
انما الملك والوزارة جسم * أنت روح فيه وفى اللفظ معنى

وقال أيضا من قصيدة

ملك صلاح الدين لا قوضت * أطنابه ملك البقا والصلاح
سيرة عدل حسنت عندنا * ما كان من وجه الليالى القباح
سافر فى الدنيا واقطارها * ذكر غدا عنه جيلا وراح
قل لابن أيوب وكم ناصح * أنفع ممن هو شاكى السلاح
حارب على مثل نجوم السماء * فلك مصر ما عليه اصطلاح
قولا لمن فى عزمه فترة * ارجع الى الحد وخل المزاح
فالقدس قد أذن اغلاقه * على يدى يوسف بالانفتاح

وقال أيضا من قصيدة

ونبت بمصر عن سميك يوسف * كما ناب عن سكب الحياء واكف سكب
حذوت على سجلى نداه وهديه * وان كنت لاسجن حواك ولا جب
ووافقته فى الصفح عن كل مذنب * فما منك تثريب وان عظم الخطب

وللحكيم عبد المنعم الجليانى من قصيدة طويلة

أبو المظفر مأوى كل مضطهد * بحكمه ونداه يضرب المثل
مهما يمل جائر او عاث عمه * فعند عدل صلاح الدين يعتدل
احيا به الله مصرا فهى ناشزة * وافتكها من عدو ما به قبل
كم للفرنج بها وردا ومنتجعا * ونارهم حولها تذكو وتشتعل
فأطفأ الناصر المنصور جذوتهم * وادبروا بقلوب شهمها وجل
ملك تقلد سلك الملك منتظما * وقال للمال هذا منك لى بدل
ففرق المال جمعا للقلوب به * وحسبه فيهم ادراك ما سألوا
ان الملوك الذين امتد أمرهم * لم يخزنوا المال بل مهما حووا بذلوا
كذا السياسة فالاجناد لو علموا * بخل المليك وجاءت شدة خذلوا

(فصل) وهذا الذى ذكرناه من قصة شاور وما جرى بسببه فى الديار المصرية الى ان تمت وزارة صلاح الدين

قد وجدته مبسوطا مشتملا على زيادات وفوائد فى كتاب ليحيى بن أبى طى الحلبى فى السيرة الصلاحية فأحببت ذكره مختصرا ذكر ان الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير الديار المصرية لما قتل فى رمضان سنة ست وخمسين بتدبير عمة العاضد عليه أوصى عند موته ابنه رزيك بشاور وقال له لا تزله من ولايته فانه أسلم لك ويقال انه أنشد ابياتا منها

فاذا تبدد شمل عقدكما ❋ لا تأمنا من شاور السعدى

وكان شاور متولى قوص والصعيد الأعلى فلما دفن الصالح استوزر ابنه رزيك ولقب بالعادل ولما استقرت أحواله أرسل الى عمة العاضد فخقها واجتمع الى رزيك أولاد عمته ومن جملتهم عز الدين حسام وأشاروا عليه بعزل شاور فامتنع ثم ألحوا عليه فأجاب وبلغ شاور الخبر فجاهر بالعصيان وجمع العربان وأهل الصعيد وزحفوا الى القاهرة وخرج اليه جماعة من أمرائها كانوا كاتبوه فخرج رزيك نصف الليل فضل الطريق وتاه فوقع عند اطفيح وثم بيوت عرب فقبضوا عليه وحملوه الى شاور وقد دخل القاهرة وتسلمها وأخرجت اليه خلع الوزارة وتم أمره ولما حصل رزيك عند شاور اكرمه وصلب الذى أتى به ونادى عليه هذا جزاء من لا يرعى الجميل وكان للصالح اليه احسان وتفرق آل رزيك فى البلاد ونجا حسام الذى كان سبب هلاك بنى رزيك بأموال وصار الى حماه فأقام بها واشترى القرى ولم يزل بها الى أن مات وكان فى خروجه أودع عند الفرنج سبعين ألف دينار فوفوا له وردوها عليه ثم أراد تقى الدين أخذها منه فقال من العجب ان الفرنجى يفى لى بردها وتأخذها أنت منى فكف عنه قال وتمكن شاور وكان له ثلاثة أولاد طى والكامل وسليمان فتبسطوا على الناس وتعاظموا وافحتهم الانفس وكان ملهم وأخوه ضرغام من صنائع الصالح بن رزيك فلما شاهدوا ميل الناس عن شاور بسبب أولاده أخذا فى مراسلة رزيك بن الصالح وهو فى السجن والعمل له فى اعادته الى الوزارة واتصل ذلك بطى بن شاور فدخل على أبيه وقال له أنت غافل وملهم وضرغام يفسدان أمرك وقد شرعا فى أمر رزيك واستحلفا له جماعة من الامراء ولا يمكن تلافى حالك الا بقتل رزيك فقال له شاور ان الصالح أولانى جميلا وبسببه حللت هذا المحل فتركه ولده طى ودخل على رزيك فقتله فى سجنه وسمع شاور بذلك فقامت قيامته ونمى الخبر الى ضرغام وأخيه ملهم فثار وأثارا من استحلفاه من الامراء وزحفا بالعساكر الى شاور فانهزم وخرج من باب القاهرة وهرب الى الشام وأدرك ضرغام ولديه طيا وسليمان فقتلهما وأسر الكامل فأخذه ملهم واعتقله عنده وأراد ضرغام قتله فمنعه منه ملهم وحفظ له جميلا كان قد فعله معه واستقر امر ضرغام فى الوزارة وخلع عليه ولقب بالملك المنصور ولما استقر به الامر بلغه ان جماعة من الامراء حسدوه واستصغروه وكاتبوا شاورا وكان صار الى الشام فأخذ فى اعمال الحيلة عليهم واحضرهم الى دار الوزارة ليلا فقتلهم جميعا ولم يتعرض لاموالهم ولا لمنازلهم وقيل انه قتل منهم سبعين أميرا ويقال انه جعلهم فى توابيت وكتب على كل تابوت اسم صاحبه فكان ذلك أكبر الاسباب فى هلاكه وخروج دولة المصريين عن يد أصحابها لانه أضعف عسكر مصر بقتل الامراء وأما شاور فانه لما خرج من القاهرة سار على وجهه حتى وصل الى دمشق بعد تحققه قتل ولديه ولما وصل الى بصرى اتصل خبره بنور الدين فندب جماعة الى تلقيه وانزله فى جوسق الميدان الاخضر واحسن ضيافته واكرامه ثم بعد سبعة أيام من مقدمه احضر نور الدين ابن الصوفى وجماعة من وجوه الدمشقيين وقال لهم اخرجوا الى هذا الرجل وسلموا عليه وعرفوه اعذارنا فى التقصير فى حقه وسلوه فيما قدم وما حاجته فان كان ورد علينا مختارا للاقامة افردنا له من جهاتنا ما يكفيه ويقوم بأريه واوده ونكون عونا له على زمانه وان كان ورد لغير ذلك فيفصح عن حاجته فخرج الجماعة اليه بالرسالة فشكر احسان نور الدين وسكت عما وراء ذلك فسأله القوم الجواب فقال اذا لم يبيت الرأى جاء فطيرا فعاد القوم الى نور الدين وعرفوه مادار بينهم وبينه فأمرهم بالعود اليه من غد ذلك اليوم ففعلوا وطلبوا الجواب فسكت ايضا واطال ثم قال ان رأى نور الدين أطال الله بقاءه الاجتماع بى فله علو الرأى فعرفوا نور الدين بمقالته فأجاب نور الدين ان يكون الاجتماع على ظهر بالميدان الاخضر وركب نور الدين من الغد فى وجوه دولته وخواص مملكته فى أحسن زى وأكمل شارة فلما دخل الميدان ركب شاور من الجوسق والتقيا فى وسط الميدان بالتحية فقط ولم يترجل أحدهما لصاحبه ثم سارا من موضع اجتماعهما وهو نصف الميدان الى آخره ثم انفصلا من هنالك وعاد نور الدين الى قلعة دمشق وأخذ من وقته ذلك فى جمع العساكر وأما ضرغام فانه حين استقر به

الامراء نشأ كتابا الى نور الدين على يد علم الملك بن النحاس يظهر فيه الطاعة ويعرّض بخذلان شاور فأظهر نور الدين لعلم الملك القبول فى الظاهر وهو مع شاور فى الباطن وأجاب عن الكتاب وانفصل علم الملك عن دمشق فلما كان بظاهر الكرك أخذه فليب بن الرفيق الفرنجى وحصل على جميع ما كان معه وانهزم علم الملك بنفسه وتوجه الى الساحل وسار الى مصر وفى هذه الايام أنفذ نور الدين واستحضر أسد الدين شيركوه من اقطاعه من الرحبة وكان نور الدين قد تيمن بأسد الدين وتبرك بميمون نقيبته لانه لم يرسله فى أمر إلا انجح ولم يولجه فى مضيق الا انفتح ولما حضر أسد الدين الى دمشق خلا به نور الدين وتحدث معه بأشياء فى أمر مصر وأمره بالاستعداد وكان نور الدين قد أزاح علة العسكر الذى يريد تسييره الى مصر فخرج من يومه وكان شاور قد داطمع نور الدين فى أموال مصر ورغبه فى ملكها وانه اذا ملكها كان من قبله فيها ولما بلغ شاور استتباب أمر العسكر سأل عن المقدم عليه فقيل له أسد الدين شيركوه فلم يطب له ذلك لانه ظن ان التقدمة تكون له فلما زوحم بهذا القود سقط فى يده وفت فى عضده ولم يجد بدا من المسير فخرج واجتمع بأسد الدين وسارا جميعا حتى وصلوا أطراف البلاد المصرية ونزلوا على تل فى الحوف قريب من بلبيس يعرف بتل بسطة وضربوا خيامهم هناك ولما اتصل بضرغام خبر ورود شاور وأسد الدين بالعساكر الشامية جمع أمراء مصر واستشارهم فأشار شمس الخلافة محمد بن مختار بأن تجتمع العساكر وتخرج جريدة وتلقى العساكر الشامية بصدر وهو على يومين من القاهرة فانهم لايثبتون لكونهم خرجوا من البرية ضعفاء ولمكان قلة الماء عليهم لان المسافر الى مصر يحمل الماء من ايلة مسيرة ثلاثة أيام فلم يروا ذلك واختاروا ان يلقوهم على بلبيس فأمر ضرغام الامراء بالخروج فخرجوا فى أحسن زى وأكمل عدة والمقدم عليهم ناصر الدين ملهم أخو ضرغام وجاؤا حتى احاطوا بالتل الذى كان أسد الدين نازلا عليه ولما عاين أسد الدين كثرة العساكر وانهم قد ملكوا عليهم الجهات وسدوا منافذ الطرقات قال لشاور ياهذا القد أرهقتنا وغررتنا وقلت انه ليس بمصر عساكر فجئتنا فى هذه الشرذمة فقال له شاور لا يهولنك ماتشاهد من كثرة الجموع فأكثرها الحاكة والفلاحون الذين يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا فما ظنك بهم اذا حمى الوطيس وكلبت الحرب وأما الامراء فان كتبهم عندى وعهودهم معى وسترى ذلك اذا القيناهم ثم قال أريد ان تأمر العساكر بالاستعداد والركوب ففعل ونهاهم شاور عن القتال ووقف الفريقان مصطفين من غير حرب الى ان حمى النهار والتهب الحديد على أجساد الرجال فضرب أكثر أهل مصر الخيم الصغار وخلعوا السلاح ونزلوا عن الخيول وجلسوا فى الظل فأمر شاور الناس بالحملة فكان أسعد أهل مصر من ركب فرسه وأطلق عنانه وولى منهزما وتركوا خيمهم وأموالهم ليس بها حافظ فاحتوى عليها أصحاب أسد الدين وأسر شمس الخلافة وجماعة من أمراء المصريين ولم يمكن شاور من تقييدهم والاحتياط عليهم فهربوا وساق أسد الدين وشاور فى أثر الناس ونزلوا على القاهرة وقاتلوها أياما وراسل شاور العاضد فى اصلاح الحال وان يأذن له فى الدخول الى القاهرة فاذن له وكان ضرغام صار الى تحت القصر وقال اريد أمير المؤمنين يكلمنى لاسأله عما افعل فلم يجبه أحد فذهب على وجهه منهزما وخرج من باب زويلة والعامة تلعنه وتصيح عليه فالتحقه رجل من اهل الشام ليقتله فقال له ضرغام اوصلنى الى أسد الدين ولك مناك فلم يقبل منه وحمل عليه فطعنه فارداه ونزل اليه واحتز رأسه وحمله الى أسد الدين واعلمه بما جرى بينهما فصعب على اسد الدين واوجعه ضربا واراد قتله فشفع فيه شاور ودخل شاور القاهرة وقتل ملهما اخا ضرغام عند بركة الفيل وخرج ابنه الكامل من دار ملهم وكان معتقلا فيها وخرج معه القاضى الفاضل وكان ايضا معتقلا فيها معه واستقام امر شاور فى الوزارة واقام اسد الدين على المقسم ينتظر امر شاور فيما ضمن لنور الدين وارسل اليه يقول له قد طال مقامنا فى الخيم وقد ضجر العسكر من الحر والغبار فارسل اليه شاور ثلاثين الف دينار وقال ترحل الآن فى امن الله وفى دعته فلما سمع اسد الدين ذلك ارسل اليه ان نور الدين اوصانى عند انفصالى عنه اذا ملكت شاور تكون مقيما عنده ويكون لك ثلث مغل البلاد والثلث الثانى لشاور وللعسكر والثلث الآخر لصاحب القصر يصرفه فى مصالحه فقال شاور انا ما قررت شيئا مما تقول انا طلبت نجدة من نور الدين فاذا انقضى شغلى عادوا الى الشام وقد سيرت اليكم نفقة فخذوها وانصرفوا وانا انفصل مع نور الدين فقال اسد الدين انا لا يمكننى مخالفة نور الدين ولا اقدر على الانصراف الا بامضاء امره فأمر شاور باغلاق باب القاهرة وأخذ فى الاستعداد للحصار واستعد اسد الدين أيضا

وسير صلاح الدين فى قطعة من الجيش الى بلبيس لجمع الغلال والاتبان والاحطاب وماتدعوالحاجة اليه ويكون جميع ذلك فى بلبيس ذخيرة واخذ فى قتال القاهرة وكاتب شاور ملك الفرنج مرى يستنجده ويقول له ان شيركوه طلع معى نجدة على ضرغام فلما حصلوا فى البلاد طمعوا فيها ومتى ملكوها مضافة الى بلاد الشام لم يكن لك معهم عيش ولا قرار وضمن له فى كل مرحلة يرحلها الى ديار مصر ألف دينار وقرر شيأ لقضيم دوابهم وشيأ لاسبتاريته فخرج مرى من عسقلان فى جموعه الى فاقوس فى سبع وعشرين مرحلة وقبض عنها سبعة وعشرين الف دينار ولما تحقق اسد الدين قرب الفرنج من القاهرة اجفل عنها الى بلبيس وانضاف اليه من أهلها الكنانية وخرج شاور فى عساكر مصر واجتمع بالفرنج وجاء حتى خيم على بلبيس واحاط بها محاصر الاسد الدين يباكر الحرب ويراوحها وأقاموا على ذلك مدة ثمانية أشهر وانقطعت أخبار مصر ومن بها عن نور الدين وكان اتصل بنور الدين وهو بدمشق خبر مسير الفرنج الى ديار مصر وغدر شاور فكاتب الاطراف بقدوم العساكر فقدم عليه عساكر الشرق جميعها واجتمعوا بارض حلب فنزل بهم مجد الدين بن الدايه وكان نائب نور الدين بحلب الى جهة حارم ونزل على ارتاح وخرج نور الدين من دمشق وشن الغارة على الساحل وقتل وأسر عالما عظيما ثم قصد جهة حلب وجعل طريقه حصن الاكراد فلما حصل بارضه شن الغارة فيها وغنم غنيمة عظيمة ونزل فى مرجه فخرج اليه الفرنج الاخوة من حصن الاكراد وهجموا عسكره وقتلوا جماعة من المسلمين وكان عسكر نور الدين غافلا فلم يتماسك الناس وساروا على وجوههم وسار نور الدين الى ان اجتمع بعساكره على ارتاح وكان اخوه نصر الدين مع الفرنج فلما عاين اعلام نور الدين لم يتماسك ان حمل بجميع اصحابه قاصدا اخاه نور الدين فلما قرب منه نزل وقبل الارض بين يديه فلم يلتفت اليه فتم على وجهه واصطف الناس للحرب فحملت الفرنج فكسرت الميسرة ثم عادت فوجدت راجلها جميعه قد قتل والخيل قد اطبقت عليهم فنزلوا عن الخيول وألقوا اسلحتهم واذعنوا بالامان فأخذوا جميعا قبضا بالايدى وسار الى حارم ففتحها واراد النزول على انطاكية فلم تمكن لشغل قلبه بمن فى مصر من المسلمين فانحرف قاصدا لدمشق ونزل على بانياس فافتتحها واغار على بلد طبرية وجمع اعلام الفرنج وشعافهم وجعلها فى عيبة وسلمها الى نجاب وقال له اريد ان تعمل الحيلة فى الدخول الى بلبيس وتخبر اسد الدين بما فتح الله على المسلمين وتعطيه هذه الاعلام والشعاف وتأمره بنشرها على اسوار بلبيس فان ذلك مما يفت فى أعضاد الكفار ويدخل الوهن عليهم ففعل ذلك فلما رأى الفرنج الاعلام والشعاف قلقوا لذلك وخافوا على بلادهم وسألوا شاور الاذن والانفصال فانزعج شاور لذلك وخاف من عاقبة الامر وسألهم التمهل اياما وجمع امراءه للمشورة فاشاروا عليه بمصالحة اسد الدين وتكفل له باتمام الصلح الامير شمس الخلافة فانفذه اليه فتم الصلح على يديه على ان يحمل شاور الى أسد الدين ثلاثين ألف دينار أخرى وحكى ان شاورا ارسل الى أسد الدين وهو محصور ببلبيس يقول له اعلم انى ابقيت عليك ولم امكن الفرنج منك لانهم كانوا قادرين عليك وانما فعلت ذلك لامرين أحدهما انى ما اختار ان أكسر جاه المسلمين وأقوى الفرنج عليهم والثانى انى خفت ان الفرنج اذا فتحوا بلبيس طمعوا فيها وقالوا هذه لنا لانا فتحناها بسيوفنا ومامن يوم كان يمضى الا وأنا أنفذ الى كبار الفرنج الجملة من المال وأسألهم ان يكسر واهمة الملك عن الزحف قال وأقام أسد الدين بظاهر بلبيس ثلاثة أيام ورحلت الفرنج الى جهة الساحل وسار أسد الدين قاصدا الشام وجعل مسيره على البرية واتفق ان البرنس ارناط صاحب الكرك والشوبك تأول ليمينه التى حلفها لاسد الدين وقال أنا حلفت انى ما ألحق أسد الدين ولا عسكره فى البر وأنا أريد أن ألحقه فى البحر وصار فى يوم واحد الى عسقلان وخرج منها الى الكرك والشوبك وجمع عسكره المقيم هناك وقعد مرتقبا خروج أسد الدين من البرية ليوقع به وعلم أسد الدين بمكيدة ارناط بالحدس والتخمين فسلك طريقا من خلف المكان الذى كان فيه ارناط شق الى الغور وخرج من البلقاء وسلمه الله تعالى منه ودخل دمشق فاجتمع بنور الدين وأخبره بالاحوال وأعلمه بضعف ديار مصر ورغبه فيها وشوقه الى ملكها فرغب فيها نور الدين وأمره بتجنيد الاجناد واستخدام الرجال وأما شاور فانه بعد رحيل أسد الدين والفرنج الى بلادهم عاد الى القاهرة ولم يكن له همة الا تتبع من علم ان بينه وبين أسد الدين معرفة أو صحبة كان استفسد جماعة من عسكر أسد الدين منهم خشترين الكردى وأقطعه شطنوف وقتل شاور جماعة من أهل مصر وشرد آخرين ثم توجه أسد الدين فى ربيع الاول سنة اثنتين وستين قاصدا الديار المصرية وكتم أخباره فارتاع

شاورا الاور ود كتاب مرى ملك الفرنج يعرفه فيه ان أسد الدين قد فصل عن دمشق بعساكره قاصداد
فطلب شاور منه اعادة النجدة والمقرر من المال يصل اليه على ما كان يصل اليه فى العام الماضى فسار
فى عساكر الفرنج الى مصر على جانب البحر وكان أسد الدين سائرا فى البر فسبقه الفرنج ونزلوا على ظاهر
وخرج شاور بعساكر مصر واجتمع بالملك وقعدوا جميعا فى انتظار أسد الدين وعلم أسد الدين باجتماع الفرنج
على بلبيس فنكب عن طريقهم وأم الجبل وخرج على اطفيح وهى فى الجنوب من مصر وشن الغارة هنالك و
بشاور خبره فسار فى عساكره والفرنج فى صحبته يقفوا أثره واتصل بأسد الدين ذلك فاندفع بين أيديهم حتى بلغ
من صعيد مصر وتحيل فى مراكب ركبها وعدى الى البر الغربى ولما استكمل تعديته أدرك شاور بعض ساقته ومن
عسكريته فاوقع بهم وأحضر شاور أيضا مراكب وقطع النيل فى أثر أسد الدين بجميع جيوشه وجيوش الفرنج
أسد الدين الى الجيزة وخيم بها مقدار خمسين يوما واستمال قوما يقال لهم الاشراف الجعفريين والطلحيين والقر
فانفذ أسد الدين الى شاور يقول له أنا أحلف لك بالله الذى لا اله الا هو بكل يمين يثق بها المسلم من أخيه انى
ببلاد مصر ولا أعاود اليها أبدا ولا أمكن أحدا من التعرض اليها ومن عارضك فيها كنت معك الباعليه وما
منك الا نصر الاسلام فقط وهوان العدو قد حصل بهذه البلاد والنجدة عنه بعيدة وخلاصه عسر وأريد منك
نجتمع أنا وأنت عليه وننتهز فيه الفرصة التى قد أمكنت والغنيمة التى قد كتبت فنستأصل شافته ونخمد نائر
أظن انه يعود يتفق للاسلام مثل هذه الغنيمة أبدا فلما صار الرسول الى شاور وأدى الرسالة أمر به فقتل وقال ما ه
الفرنج هؤلاء الفرج ثم أعلم الفرنج بما أرسل اليه به أسد الدين وأعلمهم بما أجابه وجدد لهم ايمانا وثقوا بها ولو بلغ
أسد الدين فاكل يديه أسفا على مخالفة شاور له فى هذا الرأى وقال لعنه الله لو أطاعنى لم يبق بالشام أحد من ه
الفرنج ونزل شاور فى اللوق والمقسم وأمر بعمل الجسر بين الجيزة والجزيرة وأمر بالمراكب فشحنت بالرجال وأم
ان يمحوا من خلف عسكر أسد الدين ولما رأى أسد الدين ذلك كتب الى أهل الاسكندرية يستنجد بهم على ش
لاجل ادخاله الفرنج الى دار الاسلام وتضييعه أموال بيت مال المسلمين فيهم فقاموا معه وأمروا عليهم نجم ا
ابن مصال وهو ابن أحد وزراء المصريين وكان لجأ الى الاسكندرية مستخفيا فظهر فى هذه الفتنه
حدثنى الشريف الادريسى نزيل حلب قال كنت بالاسكندرية يومئذ فكتب معى ابن مصال كتابا الى أسد الد
وقال لى قل له انى أخبرك ان السلاح واصل وكان أنفذ لاسد الدين خزانة من السلاح قال فسبقتها بيومين وحض
بين يدى أسد الدين وأعطيته الكتب وشافهته برسالة ابن مصال فى معنى السلاح والالات ثم وصلت الخزانة بعد
يومين مع ابن أخت الفقيه ابن عوف قال وبقينا على الجيزة يومين فوصل الينارسول ابن مدافع يخبر أسد الدين بق
شاور منه ويأمره بالنجاة فترك أسد الدين الخيام والمطابخ وما يثقل حمله وسار سيرا حثيثا حتى قارب دلجة فامر أ
الدين بنهبها فنهبت ونزل الناس لتعشية الدواب فلم تستتم عليقها حتى أمر أسد الدين بالرحيل وأوقدت المشاعل
وسرنا فاذا الجاووش ينادى فى الناس بالرجوع وعاد أسد الدين الى دلجة فنزل عليها ونزل شاور على الاشمونين وأ
أسد الدين الناس ان يقفوا على تعبية فاصبحوا على ذلك والتقوا فقتل من أصحاب أسد الدين جماعة كثيرة وانهزم
وكان أسد الدين قد فرق أصحابه فريقين فريقا معه وفريقا جعله مع صلاح الدين وأنفذه ليأتى من خلف عسكر شا
فدخل الضعف من هذا الطريق ثم ان أصحاب أسد الدين تجمعوا وتماسكوا وعلموا انه لا منجا لهم الا الصبر فحملوا
على الموت وحملوا وطلع صلاح الدين من ورائهم فلم تزل الحرب قائمة الى الليل فولت عساكر الافرنج والمصريين
الادبار وكاد مرى ملك الافرنج يؤسر وصار شاور ومن سلم معه الى منية ابن خصيب وسار أسد الدين على الفيوم ا
الاسكندرية فدخلها ونزل القصر وجعل فيه محبس الفرنج الذين أسرهم وكان فيها ابن الزبير متوليا دواوينها فحم
الى أسد الدين الاموال وقواه بالسلاح وخاف أسد الدين ان يقصده شاور والفرنج فيحصروه فربما تأذى بالحصار فاقام
صلاح الدين بالمقام بالاسكندرية وترك عنده جماعة من العسكر ومن به مرض أو جراح أو ضعف واستحلف
وجوه الاسكندرية وأوصاهم به ورحل فى أقوياء عسكره قاصدا الى الصعيد ونزل الفرنج وشاور على الاسكندر
وحاصروها مدة ثلاثة أشهر باشد القتال وبذل أهلها فى نصرة الملك الناصر أموالهم وأنفسهم وقتل منهم جماعة عظيمة و

صار

صار أسد الدين بالصعيد حصل من تلك البلاد أموالا عظيمة ولم يزل هنالك حتى صام شهر رمضان واتصل به اشتداد الامر على الاسكندرية فرحل من قوص الى جهتها واتبعه جماعة كثيرة من العربان وأهل تلك البلاد وبلغ ذلك شاورا فرحل هو والفرنج واضطر الى الصلح وضجرت الفرنج أيضا فتوسط ملك الفرنج فى ذلك فتقرر أمر الصلح على ان شاورا يحمل الى أسد الدين جميع ما غرمه فى هذه السفرة ثم يعطى الفرنج ثلاثين ألف دينار ويعود كل منهم الى بلاده وطلب صلاح الدين من ملك الفرنج مراكب يحمل فيها الضعفاء من أصحابه فانفذ له عدة مراكب قال الادريسى كنت فى جملة من خرج فى المراكب فلما وصلنا الى مينا عكا أخذنا واعتقلنا فى معصرة القصب الى أن وصل الملك مرى فأطلقنا فخرجنا الى دمشق وخرج صلاح الدين من الاسكندرية بعد ان استحلف شاورا لاهلها بان لا يتعرض لهم بسوء واجتمع بعمه أسد الدين ثم أنفذ شاور وقبض على ابن مصال وجماعة ممن أعان صلاح الدين وضيق عليهم وتتبع اهل الاسكندرية واتصل ذلك بصلاح الدين فاجتمع بملك الفرنج وقال له ان شاورا نقض الايمان قال وكيف ذلك قال لانه قبض على من لجأ الينا فقال ليس له ذلك وأنفذ الى شاور وقال له ان الايمان جرت على أن لا تتعرض لاحد من أهل مصر ولا الاسكندرية وألزمه يمينا أخرى فى أن لا يتعرض لاحد ممن لجأ الى اسد الدين أو صلاح الدين ولما شاهد من التجأ الى الاسد والصلاح فساد تلك الاحوال خافوا من شاور فأخذوا فى الرحيل الى الشام واتصل ذلك بشاور فخرج بنفسه وجمع جميع من عزم على الرحلة الى الشام وحلف لهم على الاحسان اليهم وحماية أنفسهم وأموالهم فنهم من سكن الى ايمانه ومنهم من لم يسكن ورحل والهم الله تعالى أسد الدين ان الفرنج ربما خطر لهم فى مصر خاطر فقصدتها فراسل الملك مرى وقال له قد سأل أهل مصر يمين الملك أن لا يدخل اليهم ولا يتعرض لهم فامتنع الملك ثم أجاب خوفا أن يحقق أسد الدين وشاور انه ربما قصد ديار مصر فربما اجتمعا عليه فلم يجد بدا من اليمين فحلف وحلف أصحابه وخرج أسد الدين من مصر وفى قلبه الداء الدوى منها لانه شاهدها وشاهد مغلاتها فوجدها أمرا عظيما فأخذ نور الدين فى تهوين أمر مصر عليه وأقطعه حمص وأعمالها وحدثنى أبى رحمه الله قال حدثنى غير واحد ان شاورا كاتب نور الدين فى ذلك وضمن له أن يحمل فى كل سنة عن ديار مصر مالا مصانعة ولما بلغ شاور ان نور الدين صرف همة أسد الدين عن ذكر مصر والتعرض لها أنفذ رسولا بهدية سنية وأصحبه كتابا حسنا أوله (ورد كتاب استدعى شكرى وحمدى واستخلص من الصفاء ما عندى واستفرغ فى الثناء على مرسله جهدى فكانما اشتملت معانيه مما عندى واشتملت على حقائق قصدى وسررت للاسلام وأهله والدين الذى وعد الله أن يظهره على الدين كله بأن يكون مثله ملكا من ملوكه يرجع اليه فى عقده وحله وتشير الاصابع وتعقد الخناصر على علو محله والله يزيده بمكانه تثبيتا وقوة ويحقق على يديه مخايل النصر المرجوه فما أسعد رأسا دل على نصرة الكلمه ودعا الى سبيل الفئة المسلمه ووفر على مصالح الامة قلوب رعاياها المنقسمه وأنا متمم من هذا الامر ما صدر منى وباق منه على ما نقل عنى لا أتغير عن المصلحة فيه ولا أعدل عما أظهره منه لما أخفيه ولا استكثر كبيرا أصل اليه وأتوصل به لما سبق للملك العادل من حقوق استوجب شكرها قولا وفعلا ونصرة كانت فى هجير الخطوب بردا وظلا وأنعم لا تزال أياتها بالسن الحمد تتلى وتملى ولعمرى لقد علا بنا وأها فخرا وارتفع على الاملاك قدرا وذكرا ووجب أن يستتمها فلا يصل الى مواردها الكدر ويحوطها فلا تطرق الى جوانبها الغير وورآء هذه المكاتبة من اهتمامى ما لا يعوقه عائق الا انتظام العقد على الامور المألوفه وتمام التوثقة باليمين المنصوصة الموصوفه مع ان قوله كيمينه وكتابه كصفحة يمينه والثقة به واقعة على كل حال والمحبة له توجب الاحتراس على الوداد من تطرق أسباب الاختلال)

قال وفى سنة أربع وستين طمع مرى ملك الفرنج فى مصر وعول على الدخول اليها والاستيلاء عليها وذلك لما انكشف له من عوارها وظهر له من ضعف من بقى فيها فجمع اليه ملوك الفرنج وكبراء الدولة والاسبتارية وتشاوروا فجرت بينهم فى ذلك خطوب ثم أجابوه الى الخروج معه الى الديار المصرية فاحضر وزيره وأمره باقطاع بلاد مصر لخيالته وفرق قراها على أجناده وكان لعنه الله لما دخل ديار مصر قد أقام من أصحابه من كتب له أسماء قرى مصر جميعها وتعرف له خبر ارتفاعها ثم سار حتى نزل الداروم فقامت قيامة شاور لما بلغه الخبر وانتخب أميرا من أمرائه يقال له بدران وسيره الى لقاء مرى يسأله عن السبب فى قصده فاجتمع به وسأله فتلكأ عليه ثم استلان جانبه وضمن له رضيخة على ان

يورّى عنهم ولا يكشف لشاور حالهم ويقال ان الملك أقطعه ثلاث عشرة قرية على أن يتم على المصريين الحيلة ويعلم شاور انه انما قصد مصر للخدمة ففعل ذلك بدران ولما سمع ذلك شاور أشفق منه وأحضر الامير شمس الخلافة محمد بن مختار وقال له كأنّ بدران قد غشني ولم ينصحني وأنا فواثق بك فأريد تخرج وتكشف لى حال الفرنج فسار شمس الخلافة الى مرّى وكان بينهما مؤالفة فلما دخل على الملك قال له مرحبا بشمس الخلافة فقال مرحبا بالملك الغدّار والاما الذى أقدمك الينا قال اتصل بى ان الفقيه عيسى زوج اخت الكامل بن شاور من صلاح الدين يوسف بن أيوب وتزوج الكامل أخت صلاح الدين فقلنا هذا عمل علينا فقال له شمس الخلافة ليس لهذا صحة ولو فعل ذلك لم يكن فيه نقض للعهد فقال له الملك الصحيح ان قوما من وراء البحر اتهموا البنا وغلبونا على أرائنا وخرجوا طامعين فى بلادكم فخفنا من ذلك فخرجنا نتوسط الامر بينكم وبينهم فقال شمس الخلافة فأى شئ قد طلبوا قال ألفى ألف دينار فقال مكانكم حتى أصل الى شاور وأبلغه مقالكم وأعود بالجواب فقال له ملك الفرنج فنحن ننزل على بلبيس الى أن تعود قال وحكى ان ملك الفرنج لما وصل الى الداروم كتب الى شاور يقول له انى قد قصدت الخدمة على ماقررته لى من العطا فى كل عام فأجابه شاور ان الذى قررته لك انما جعلته متى احتجت اليك أو اذا قدم على عدوّ فأما مع خلو بالى من الاعداء فلا حاجة لى اليك ولا لك عندى مقرر فاجابه مرى أن لا بد من حضورى وأخذى المقرر فعلم شاور انه قد غدر بالعهد ونقض الايمان وانه قد طمع فى البلاد فأخذ فى تجنيد الاجناد وحشد العساكر الى القاهرة وأنفذ الى بلبيس قطعة من الجيش وميزه وعدّه ثم ان ملك الفرنج سار خلف رسول شاور ولا يلوى على قول حتى خيم على بلبيس فى صفر وكان معه جماعة من المصريين منهم علم الملك ابن النحاس وابن الخياط يحيى وابن قرجلة وأرسل الى طى بن شاور وكان ببلبيس وقال له أين ننزل قال على أسنة الرماح وقال له أتحسب ان بلبيس جبنة تأكلها فأرسل اليه مرّى نعم هى جبنة والقاهرة زبدة ثم قاتل بلبيس ليلا ونهارا حتى افتتحها بالسيف وقتل من أهلها خلقا عظيما وخرب أكثرها وأحرق حلل أدرها ثم أخرج الاسارى الى ظاهر البلد وحشروا فى مكان واحد وجل فى وسطهم برمحه ففرقهم فرقتين فأخذ الفرقة التى كانت عن يمينه لنفسه وأطلق الفرقة التى كانت عن يساره لعسكره وقال لفرقته قد أطلقتكم شكرا لله تعالى على ما أولانى من فتح بلاد مصر فانى قد ملكتها بلا شك ووقف الى ان عدى أكثرهم النيل الى جهة منية حمل وأخذ العسكر نصيبهم من الاسارى فاقتسموهم وبقى أهل بلبيس الذين أسروا أكثر من أربعين سنة فى أسر الفرنج وهلك أكثرهم فى أيديهم وأفلت منهم اليسير لان الملك الناصر رحمه الله لما ملك ديار مصر وقف مغل بلبيس على كثرته على فكاك الاسرى منهم وسامح أهل بلبيس بخراجهم الى آخر أيامه ولما اتصل بشاور ما جرى على أهل بلبيس من القتل والاسر وان الفرنج شحنوها بالرجال والعدد وجعلوها لهم ظهرا أشفق من ذلك وطلب الاذن على العاضد فلما اجتمع به بكى بين يديه وقال اعلم ان البلاد قد ملكت علينا ولم يبق الا أن تكتب الى نور الدين وتشرح له ماجرى وتطلب نصرته ومعونته فكتب جميع ذلك وأرسل شاور طى تلك الكتب كتبا وسخم أعاليها بالمداد قال وحدثنى شمس الخلافة موسى بن شمس الخلافة محمد بن مختار قال انما كتب هذا الكتاب برأى أبى شمس الخلافة لانه لما رجع من عند مرى لعنه الله بعد أخذ بلبيس اجتمع بالكامل بن شاور وقال له عندى أمر لا يمكننى ان أفضى به اليك الا بعد ان تحلف لى انك لا تطلع أباك عليه فلما حلف له قال له ان أباك قد وطن نفسه على المصابرة وآخر أمره يسلم البلاد الى الفرنج ولا يكاتب نور الدين وهذا عين الفساد فاصعد أنت الى العاضد وألزمه ان يكتب الى نور الدين فليس لهذا الامر غيره فقصده الكامل وكتب الكتاب فلما وصل الى نور الدين انزعج انزعاجا عظيما وأنفذ أسد الدين وكان ذلك من مناه وأرسل الفقيه عيسى الهكارى الى مصر برسالة ظاهرة الى شاور يعلمه ان العساكر واصلة برسالة سرّية الى العاضد وأمره ان يستحلفه على أشياء عينها وان يكتم ذلك من شاور وأما الفرنج فساروا الى جهة مصر وأمر شاور باحراق مصر وانذر أهلها فخرج الناس منها على وجوههم وهجوا فى بلاد مصر وبلغ أجرة الجمل الى القاهرة ثلاثين دينارا وترك الناس أكثر أموالهم فنهبت وأحرقت مصر فى تاسع صفر وأقامت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوما ثم ان الفرنج لعنهم الله نزلوا فى بركة الحبش وانبثت أخبارهم فى الاطراف وتخطفوا من ظفروا به فأنفذ شاور شمس الخلافة الى مرى لعنه الله فلما دخل عليه سأله

ان يخرج معه الى باب الخيمة ففعل فأراه شمس الخلافة جهة مصر وقال له أترى دخانا فى السماء قال نعم قال هذا دخان مصر ما آتيت الاوقد أحرقت بعشرين ألف قارورة نفط وفرّقت فيها عشرة آلاف مشعل ومابقى فيها مايؤمل بقاؤه ونفعه فخل الآن عنك مدافعتى ومخاتلتى وكن كلما قلت لك انزل فى مكان تقدمت الى غيره ومابقى لك الآن تنزل بالقاهرة فقال هو كما تقول ولابد من نزول القاهرة ومعى فرنج من وراء البحر قد طمعوا فى اخذها ثم رحل فنزل على القاهرة مما يلى باب البرقية نزولا قاربه البلد حتى صارت سهام البرج تقع فى خيمته فقاتلوا البلد أياما فلما تيقن شاور الضعف عدل الى طريق المخادعة والمخاتلة والمغاررة والمدافعة الى ان تصل عساكر الشام فأنفذ شمس الخلافة الى مرى لعنه الله تعالى برسالة طويلة فيل بها فى غاربه ودار من حواليه وفى ضمنها (ان هذا بلد عظيم وفيه خلق كثير ولايمكن تسليمه البتة ولاأخذه الا بعدان يقتل من الفريقين عالم عظيم وما تعلم أنت ولا أنا لمن الدائرة والرأى ان تحقن دماء أصحابك ودماء أصحابى وتحصل شيئا أدفعه لك يحصل لك عفوا) فاستقرت المصانعة على أربعمائة ألف دينار وقيل ألفى ألف دينار يحمل له منها مائة ألف دينار فأجاب مرى الى ذلك وانعقدت الهدنة وحلف مرى ورحل الى بركة الحبش وحمل شاور اليه مائة ألف دينار فى عدة دفعات سوف فيها الاوقات ثم أخذ يمطله بالباقى انتظارا لقدوم العساكر ويوهم انه يجمع لهم الاموال فلم يشعر الفرنج الا بهجوم عسكر الشام عليهم فلما رأوهم رحلوا الى بلبيس ونزل أسد الدين بالمقسم ثم رحل ملك الفرنج ونزل على فاقوس وأتبعه أسد الدين ونزل على بلبيس وكان لما اتصل بشاور وصول أسد الدين الى صدر أنفذ شمس الخلافة الى ملك الفرنج يستطلق له منه بعض المال فصار اليه واجتمع به وقال قد ثقل علينا المال فقال ملك الفرنج اطلب منه شيئا فال اشتهى ان تهب لى النصف قال قد فعلت فقال شمس الخلافة مابلغنى ان ملكا فى مثل حالك وقدرتك علينا وهب مثل هذه الهبة لقوم هم فى مثل حالنا فقال ملك الفرنج أنا أعلم انك رجل عاقل وان شاورا املك وانكما ماسألتمانى ان أهبكما هذا المال العظيم الالامر قد حدث فقال له صدقت هذا أسد الدين قد وصل الى صدر نصرة لنا ومابقى لك مقام وشاور يقول لك أرى ان ترحل ونحن باقون على الهدنة فانه أوفق لك ولنا واذا حصل هذا الرجل عندنا ارضيناه من هذا المال بشئ وحملنا الباقى اليك متى قدرنا وان نحن أخرجنا فى رضاهم أكثر من هذا المال عدناعليك بما يبقى علينا من المقدار فقال ملك الفرنج أنا راض بذلك وان بقى على شئ حملته اليكم وعوّل على الرحيل فقال له بعدان تطلق طى ابن شاور وجميع من فى عسكرك من الاسارى ولاتاخذ من بلبيس بعد انصرافك شيئا فأجابه الى جميع ذلك ولما رحلت الفرنج عن القاهرة نزل اسد الدين بأرض يقال لها اللوق وأخرج اليه شاور الاقامات الحسنة والخدم الكثيرة ولما اجتمعا قال شاور لاسد الدين قد رايت من الرأى ان أخرج أنا وأنت وان ندرك الفرنج ونوقع بهم فقال أسد الدين هذا كان رأبى والفرنج على البر الغربى وليس لهم وزر وأما الآن فلا لانهم على البر المتصل ببلادهم ونحن فقد خرجنا من البر فى أسوأ حال من الضعف والتعب وقد كفانا الله شرهم ونحن الى الراحة والاستجمام أحوج ولما نزل أسد الدين باللوق أرسل له العاضد هدية عظيمة وخلعا كثيرة وأخرج الى خدمته أكابر أصحابه ثم انه خرج اليه فى الليل سرا متنكرا واجتمع به فى خيمته وأفضى اليه بأمور كثيرة منها قتل شاور ثم عاد الى قصره وكان شاور قد رأى ليلة نزل أسد الدين على القاهرة كانه دخل دار الوزارة فوجد على سريرملكه رجلا وبين يديه دواة الوزارة وهو يوقع منها بأقلامه فسأل عنه فقيل هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما حصل أسد الدين بالديار المصرية وانفصل عنها الفرنج أمنت البلاد وتراجع الناس الى بيوتهم وأخذوا فى أصلاح ماشعثه الفرنج وأفسدوه وتقاطر الناس الى خدمة أسد الدين فتلقاهم بالرحب والسعة وأحسن اليهم وأما شاور فانه أخذ فى التودد الى أسد الدين والتقرب الى قلبه بجميع ماوجد السبيل اليه وأقام له ولعسكره الميرة الكثيرة والنفقات الغزيرة حتى استحوذ على قلبه ونوى تبقيته فى ملكه وصفاله قلبه حتى أنفذ اليه سرا أحرس نفسك عساكر الشام وأما عسكر الشام فانهم لما رأوا طيب بلاد مصر وكثرة خيرها وسعة أموالها تاقت أنفسهم الى الاقامة بها واختار واسكناها ورغبوا فيها رغبة عظيمة فقوى طمع أسد فى الاستيلاء عليها والاستبداد بملكها ثم علم انه لايتم له ذلك وشاور باق فيها فأخذ فى اعمال الحيلة عليه وكان العاضد قد تقدم اليه بقتله فجمع أصحا

وشاورهم فى أمر شاور وقال لهم قد علمتم رغبتى فى هذه البلاد ومحبتى لها وحرصى عليها لاسيما وقد تحققت ان عند الفرنج منها ما عندى وعلمت انهم كشفوا عوراتها وعلموا مسالك رقعتها وتيقنت انى متى خرجت منها عادوا اليها واحتووا عليها وهى معظم دار الاسلام وحلوبة بيت مالهم وقد قوى عندى ان أثب عليها قبل وثوبهم وأملكها قبل تملكهم وأتخلص من شاور الذى يلعب بنا وبهم ويغرّنا ويغرّهم ويضرب بيننا وبينهم وقد ضيع أموال هذه البلاد فى غير وجهها وقوّى بها الفرنج علينا وما كل وقت ندرك الفرنج ونسبقهم الى هذه البلاد التى قد قل رجالها وهلكت أبطالها فتجلت الاراء بين الامراء انه لا يتم لهم أمر الا بعد القبض على شاور وتفرقوا على ايقاع القبض به وكان شاور يركب فى الابهة العظيمة والجلالة الجسيمة والعدّة الحسنة والالة الجميلة على عادتهم الاولى وكان من جملة قواعدهم ان الوزير اذا ركب حمل فى موكبه الطبل والبوق وكان شاور قليل الركوب فجعل الامراء يترصدونه ورأى أسد الدين قبل قبض شاور بليلة كأنّ شاور ادخل اليه الى داره وناوله سيفه وعمامته فتأوّله أسد الدين بالقبض عليه وأخذ منصبه ثم ان شاور اركب يوما فى أبهته وجلالته فلما عاينه الامراء هابوه وأحجموا عنه وكان يوما عظيم الضباب وكان خروج شاور من باب القنطرة للسلام على أسد الدين فتقدم صلاح الدين فسلم عليه ودخل فى موكبه ثم سايره ثم مدّ يده الى تلابيبه وصاح عليه فرجله ولما رأى ذلك عسكر الشام قويت عزماتهم ووقعوا فى عسكر شاور فنهبوا ما كان مع رجاله وقتلوا منهم جماعة وحمل الملك الناصر شاور راجلا الى خيمة لطيفة واراد قتله فلم يمكنه قتله دون مشاورة أسد الدين وفى الحال ورد على أسد الدين توقيع من العاضد على يد خادم يأمره فيه بقتل شاور فأنفذ التوقيع الى صلاح الدين فقتله فى الحال وأنفذ رأسه الى القصر وبلغ الكامل بن شاور قتل أبيه فهرب الى القصر وخلع العاضد على أسد الدين وقلده الوزارة وأنفذ اليه طبق فضة فيه رأس الكامل بن شاور ورؤس أولاد اخوته ولما خرج منشور الوزارة الى أسد الدين أمر بقراءته على رؤس الاشهاد وفرح به غاية الفرح وأعيدت قراءته عليه عدّة دفعات استحسانا لمعانيه واستظرافا لما أودع من بديع الكلام فيه قال ولما اتصل بنور الدين فتح الديار المصرية فرح بذلك فرحا شديدا وواصل الحمد والثناء على الله تعالى اذ كان فى زمنه وعلى يده وأمر بضرب البشائر فى جميع ولايته وتزيين جميع بلاده وجلس للهناء بذلك وأنشده الشعراء فى فتحها عدّة أشعار غير انه لما اتصل به ان اسد الدين وزر للعاضد واستبدّ بالامر فى ذلك الصقع امضه ذلك وأقلقه وظهرت فى مخايل قسماته وفلتات كلماته الكراهة وأخذ فى الفكرة فى أمره وسهره ليالى وافضى بسره الى مجد الدين بن الداية حدّثنى جماعة عن شمس الدين على بن الداية أخى مجد الدين وحدّثنى الموفق محمود بن النحاس الفقيه الحلبى وقد جرى ذكر فتح مصر وان نور الدين ابتهج به فقال والله ما ابتهج به لقد كان ودّه أن لا يفتح وأن لا يصير أسد الدين وصلاح الدين الى ما صارا اليه ولقد ظهرت الكراهية منه لذلك فى ألفاظه ووجهه ولقد أعمل الحيلة فى إفساد أمر أسد الدين وصلاح الدين فما تهيأ له لاسيما يوم بلغه حصول صلاح الدين على خزائن مصر فانه أقام ثلاثة أيام لا يقدر أحد ان يراه واهتم لذلك حتى افضى عليه الهم ولو لم يكن الفتح اليه منسوبا وعليه فضله محسوبا لما صبر على ما جرى ولا اغضى الملك العادل على القذى ولقد كتب العاضد عدّة دفعات فى أمر الاسد والصلاح فلم يحصل له فيهما النجاح وكثيرا ما يوجد فى كتب نور الدين الى العاضد التعريض بانفاذ أسد الدين ولو أمكنه المجاهرة بالقول لقال فمن بعض مكاتباته (ولقد افتقر العبد الى بعثته وأعوز عسكره من نقيبته واشتدّ حزب الضلال على المسلمين لغيبته لانه ما يزال يرمى شياطين الضلال بشهابه الثاقب ويصمى مقل الشرك بسهمه النافذ الصائب) قلت لعل نور الدين رحمه الله انما أقلقه من ذلك كون أسد الدين وزر للعاضد فخاف من ميله الى القوم والى مذهبهم وان يفسد جنده عليه بذلك السبب هذا ان صح ما نقله ابن أبى طى والله أعلم قال وكان أسد الدين لما ولى الوزارة لم يغير على أحد شيئا وأجرى أصحاب مصر على قواعدهم وأمورهم الى ان انقضت أيامه وفنيت أعوامه وكان ربما يحب اكل اللحم ويواظب عليه ليلا ونهارا فتواترت عليه التخم واتصلت به مرضاته الى أن ظهرت بحلقه خوانيق كان فيها تلافه ويقال انه أكل فى ذلك اليوم مضيرة ودخل الحمام فلما خرج منها أصابه الخناق قال وكان شجاعا بارعا قويا جلدا فى ذاته شديدا على الكفار وطأته عظيمة فى ذات الله صولته عفيفا دينا كثير الخير وكان يحب أهل الدين والعلم كثير الايثار حدبا على أهله وأقاربه وكان فيه امساك وخلف

مالا كثيرا وخلف من الخيل والدواب والجمال شيئا كثيرا وخلف جماعة من الغلمان خمسمائة مملوك وهم الاسدية وهو كان مشيد قواعد الدولة الشاذية والمملكة الناصرية وكان ابتداء أمره يخدم مع صاحب تكريت على اقطاع مبلغه تسعمائة دينار وتنقل الى ان ملك الديار المصرية وعقد له العزاء بالقاهرة ثلاثة ايام قلت واليه تنسب المدرسة الاسدية بالشرق القبلى ظاهر دمشق وهى المطلة على الميدان الاخضر وهى على الطائفتين الحنفية والشافعية والخانقاة الاسدية داخل باب الجابية بدرب الهاشميين قال ابن أبى طى وساعة وفاته وقع الاختلاف فيمن يولى الوزارة بين العسكر الشامى ومالت الاسدية الى صلاح الدين وفى تلك الساعة أنفذ العاضد وسأل عمن يصلح للوزارة فأرشد من جماعة من الامراء الى شهاب الدين محمود الحارمى خال صلاح الدين فأنفذ اليه وأحضره وخاطبه فى تولى الوزارة فامتنع من ذلك وأشار بولاية الملك الناصر وكان الحارمى أولا قد رغب فى الوزارة وتحدث فيها وحصل ما يحتاجه فلما رأى مزاحمة عين الدولة بن بارق وغيره عليها خاف ان يشتغل بطلبها فيفوته وربما فاتت صلاح الدين فاشار به لانها انما كانت فى ابن أخته كانت فى بيته وكان صلاح الدين قد وقع من العاضد بموقع وأعجبه عقله وسداد رأيه وشجاعته وأقدامه على شاور فى موكبه وانه قتله حين جاءه أمره ولم يتربص ولا توقف فسارع الى تقليده الوزارة وما خرج شهاب الدين الحارمى من حضرة العاضد الاوخلع الوزارة قد سبقت الى الملك الناصر وكانت خلعة الوزارة عمامة بيضاء تنيسى بطرز ذهب وثوب دبيقى بطرازى ذهب وجبة تحتها سقلاطون بطرازى ذهب وطيلسان دبيقى بطراز ذيقى ذهب وعقد جوهر قيمته عشرة ألف دينار وسيف محلى بجوهر قيمته خمسة ألف دينار وفرس حجر صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية ألف دينار لم يكن بالديار المصرية اسبق منها وطوق وتخت وسرفسار ذهب مجوهر وفى رقبة الحجر مشدة بيضاء وفى رأسها مائتا حبة جوهر وفى أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر وقصبة ذهب فى رأسها طالعة مجوهرة وفى رأسها مشدة بيضاء باعلام ذهب ومع الخلعة عدة بقج وعدة من الخيل وأشياء آخر ومنشور الوزارة ملفوف فى ثوب أطلس أبيض وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة وقرئ المنشور بين يدى الملك الناصر يوم جلوسه فى دار الوزارة وحضر جميع أرباب الدولتين المصرية والشامية وكان يوما عظيما وخلع السلطان على جماعة الامراء والكبراء ووجوه البلد وأرباب دولة العاضد وعم الناس جميعهم بالهبات والصلات ولما استقرت قدمه فى الوزارة والرياسة قام فى الرعية مقام من قام بالشريعة والسياسة ونظم بحسن تدبيره من الدولة بددها وجرى فى مناهج العدل على جددها وحمل الى جوده وفضله وبادى الى رفده وبذله وكاتب الاطراف بما صار اليه من السلطان وسر قلوب الاصدقاء والاحباب بما حصل عليه من شريف الرتبة والمكان واستدعى الى حوزته الاصحاب والاهل وزوى بفسيح كرمه من بعد منه وقرب من أهل الفضل وتاب من الخمر وعدل عن اللهو وتيقظ للتدبير وسها عن السهو وتقمص بلباس الدين وحفظ ناموس الشرع المبين وشمر عن ساق الجد والاجتهاد وافاض على الناس من كرمه وجود جوده شآبيب فضله النائب عن العهاد وورد عليه القصاد والزوار وأمر بنفائس الخطب وجواهر الاشعار حدثنى بعض الامراء قال أقبل العاضد على السلطان الملك الناصر وأحبه محبة عظيمة وبلغ من محبته له انه كان يدخل اليه الى القصر راكبا فاذا حصل عنده قام معه فى قصره اليوم والعشرة لا يعلم أين مقره قال ولما استولى الملك الناصر على الوزارة ومال اليه العاضد وحكمه فى ماله و بلاده حسده من كان معه بالديار المصرية من الامراء الشامية كابن بارق وجرديك وجماعة من غلمان نور الدين ثم انهم فارقوه وصاروا الى الشام وحدثنى أبى رحمه الله قال حدثنى جماعة من أصحاب نور الدين ان نور الدين لما اتصل به وفاة أسد الدين و وزارة صلاح الدين وما قد انعقد له من المحبة فى قلوب الرعايا أعظم ذلك وانكره وتأفف منه وأنكره وقال كيف أقدم صلاح الدين ان يفعل شيئا بغير أمرى وكتب فى ذلك عدة كتب فلم يلتفت الملك الناصر الى قوله الا انه لم يخرج عن طاعته وامره وانه ما فارق قبول رأيه واشارته وأمر نور الدين من بالشام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج اليه وطلب منه حساب مصر وما صار اليه وكان كثيرا ما يقول ملك ابن أيوب قلت هذا كله مما تقتضيه الطباع البشرية والجبلة الادمية وقد اجرى الله سبحانه وتعالى العادة بذلك الا من عصم الله ومن انصف عذر ومن عرف صبر والذى انكره نور الدين هو افراط صلاح الدين فى تفرقة الاموال

واستبداده بذلك من غير مشاورته هذا مع ان ابن أبي طي متهم فيما ينسبه الى نور الدين مما لا يليق به فان نور الدين رحمه الله كان قد أذل الشيعة بحلب وأبطل مشاعرهم وقوى أهل السنة وكان والد ابن ابى طي من رؤس الشيعة فنفاه من حلب وقد ذكر ذلك كله ابن أبي طي في كتابه مفرقا في مواضع فلهذا هو في الكتاب الذي له كبير الحمل على نور الدين رحمه الله فلا يقبل منه ما ينسبه اليه مما لا يليق به والله أعلم قال ولما ملك الملك الناصر مصر أنتزع نور الدين حمص والرحبة من ناصر الدين ابن أسد الدين وفرق عماله واعطاه تل باشر ثم أخذها منه ولقد كان يتألم للملك الملك الناصر ويقال انه لما مرض قال ما أخطأت الا في انفاذي أسد الدين الى مصر بعد علمي برغبته فيها وما يحزنني شئ كعلمي بما ينال أهلي من يوسف بن أيوب ثم التفت الى أصحابه فقال اذا انا مت فصيروا بابني اسماعيل الى حلب فانه لا يبقى عليه غيرها قال ابن أبي طي ولقد كان يبلغ الملك الناصر من أقوال نور الدين واقوال أصحابه أشياء تؤلمه وتمضه غير انه يلقاها بصدر رحب وخلق عذب حدثني أبي عن ابن قاضي الدهليز وكان من خواص الملك الناصر قال جرى يوما بين يدى السلطان ذكر نور الدين فأكثر الترحم عليه ثم قال والله لقد صبرت منه على مثل حز المدى ووخز الابر وما قدر أحد من أصحابه ان يجد علي ما يعتده ذنبا ولقد اجتهد هو بنفسه أيضا ان يجد لي هفوة يعتدها علي فلم يقدر ولقد كان يعتمد في محاطباتي ومراسلاتي على الاشياء التي لا يصبر على مثلها العلي اتضرر أو أتغير فيكون ذلك وسيلة له الى منابذتي فما أبلغه اربه يوما قط قلت قد وقفت على كتاب بخط نور الدين رحمه الله يشكر فيه من صلاح الدين رحمه الله وذلك ضد ما قاله ابن أبي طي كتب نور الدين ذلك الكتاب الى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون رحمه الله وهو بحلب ليوليه قضاء مصر صورته (حسبي الله وكفى وفق الله الشيخ الامام شرف الدين لطاعته وختم له بخير غير خاف على الشيخ ما أنا عليه وفيه وكل غرضي ومقصودي في مصالح المسلمين وما يقربني الى الله والله ولي التوفيق والمطلع على نيتي وانت تعلم نيتي كما قال عز من قائل (ومن عنده علم الكتاب) أنت تعلم ان مصر اليوم قد لزمنا النظر فيها فهي من الفتوحات الكبار التي جعلها الله تعالى دار اسلام بعدما كانت دار كفر ونفاق فلله المنة والحمد الا ان المقدم على كل شئ أمور الدين التي هي الاصل وبها النجاة وأنت تعلم ان مصر واقليمها ما هي قليلة وهي خالية من أمور الشرع وما تدخر الدموع الا للشدائد وأنا ما كنت أسخى ولا أشتهي مفارقتك والآن فقد تعين عليك وعلي أيضا ان ننظر الى مصالحها وما لنا أحد اليوم لها الا أنت ولا أقدر أولي أمورها ولا أقلدها الا لك حتى تبرأ ذمتي عند الله فيجب عليك وفقك الله ان تشمر عن ساق الاجتهاد وتتولى قضاءها وتعمل ما تعلم انه يقربك الى الله وقد برئت ذمتي وأنت تجاوب الله فاذا كنت أنت هناك وولدك أبو المعالي وفقه الله فيطيب قلبي وتبرأ ذمتي وقد كتبت هذا الخط حتى لا يبقى علي حجة تصل أنت وولدك عندي حتى أسيركم الى مصر والسلام بموافقة صاحبي واتفاق منه صلاح الدين وفقه الله فأنا منه شاكر كثير كثير جزاه الله خيرا وأبقاه ففي بقاء الصالحين والاخيار صلاح عظيم ومنفعة لأهل الاسلام الله تعالى يكثر من الاخيار وأعوان الخير وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما) قال ابن أبي طي وأبطل صلاح الدين من المكوس والمظالم ما يستخرج بديوان صناعة مصر مائة ألف دينار وما يستخرج بالاعمال القبلية والبحرية مائة ألف دينار فسامح بجميع ذلك وأمر بكتابة سجل به من ديوان الانشا وأنفذ الى سائر أعمال مصر يقرأ على المنابر وعرض عليه سياقة جرائد الدواوين في جهات المستخدمين والعاملين لعدة سنين متقدمة آخرها سنة أربع وستين وخمسمائة فكان مبلغه ينيف عن ألف ألف دينار وألفي ألف أردب غلة فسامح في جميع ذلك وأبطله من الدواوين واسقطه عن المعاملين وانهى اليه ما يستأدى من الحجاج بالحجاز المحروس من المكوس فأنكره وأكبره وعوض عنه بعدة ضياع فأغاث أهل الحجاز بما أوسعهم من العين والغلة أشياء يطول شرحها قلت وسيأتي كل ذلك في موضعه ونسخة منشور اسقاط المكوس في أخبار سنة سبع وستين وذلك باشارة نور الدين رحمه الله وفي أيامه

(فصل) ذكر العماد في ديوانه قصيدة يمدح بها نور الدين ويهنيه بملك مصر ولم يذكرها في كتاب البرق منها

بملك مصر اهنى مالك الامم * فاسعد وابشر بنصر الله عن أمم
اضحى بعدلك شمل الملك ملتئما * وهل بعدلك شئ غير ملتئم
يا فاعل الخير عن طبع بلا كلف * ومولى العرف عن خلق بلا سأم

ووامقا ثلم ثغر الكفر تجهه * لا لثم ثغر شنيب واضح شبم
لله درك نور الدين من ملك * بالعزم مفتتح بالنصر مختتم
أثار عزمك فى الاسلام واضحة * وسر ملك باد غير مكتتم
بما من العدل والاحسان تنشره * تخاف ربك خوف المذنب الاثم
أوردت مصر خيول النصر عادمة * تثنى الاعنة اقداما على الجسم
فأقبلت فى سحاب من ذوابلها * وقضبها بدماء الهام منسجم
تمكن الرعب فى قلب العدو بها * تمكن النار بالاحراق فى الفحم
سرت لتقطع ما للكفر من سبب * واه وتوصل ما للدين من رحم
مستسهلات وعور الطرق فى طلب العليا مقتحمات اصعب القحم
وعاجلات من الافرنج غلهم * والقيد فى موضع الاطواق والحزم
لقد شفت غلة الاسلام وانتقمت * من العدو بحد الصارم الخذم
أعانها الله فى اطفاء جمر اذى * من شر شاور فى الاسلام مضطرم
وأصبحت بك مصر بعد خيفتها * للامن والعز والاقبال كالحرم
والسنة اتسقت والبدعة انمحقت * وعاودت دولة الاحسان والكرم
ملوكها الك صاروا اعبدا وغدا * بها عبيدك املا كاذوى حرم
انبت عنك بها ترماينوب بها * فى البأس عن عنتر فى الجود عن هرم
لله درك نور الدين من ملك * عدل لحفظ أمور الدين ملتزم
كانت ولاية مصر قبل عزتها * بكشف دولتها الجاء على وضم
فالنيل ملتطم جار على خجل * جارا لبحر نوال منك ملتطم
أغز الفرنج فهذا وقت غزوهم * واحطم جموعهم بالذابل الحطم
وطهر القدس من رجس الصليب وثب * على البغات وثوب الاجدل القطم
فلك مصر وملك الشام قد نظما * فى عقد عز من الاسلام منتظم
محمودا الملك الغازى يسوسهما * بالفضل والعدل والافضال والنعم
بالشكر كل لسان ناطق أبدا * محمود الملك محمود بكل فم
فاشك مصر واظهر عزستها * كم تعتفى والى كم تشتكى وكم

ولعلم الدين الشاتانى فى نور الدين رحمه الله

مانال شاؤك فى المعانى سنجر * كلا ولا كسرى ولا اسكندر
ياخير من ركب الجياد وخاض فى * لجج المنايا والاسنة تقطر
هل حاز غيرك ملك مصر وصار من * اتباعه من جده المستنصر
والمستضى بالله معتمد به * ويجد وبجده مستظهر
أوسد بالشام الثغور محاميا * للدين حتى عاد عنها قيصر
يبكى فيروى الارض بحر دموعه * والجو من انفاسه يتسعر
أوما أبوك بسيفه فتح الرها * والاسد تقتنص الكماة وتزأر
هابت ملوك الارض بأس كماتها * فتقاعدوا عن قصدها وتأخروا
ماضره طى المنية ذاته * وصفاته بين البرية تنشر
فلكم على كل الملوك مزية * لوقائع مشهورة لاتنكر
واذا عددنا للانام مناقبا * فعليك قبل الكل يثنى الخنصر

في الرأى قيس في السماحة حاتم * في النطق قس في البسالة حيدر
دانت لك الدنيا وأنت تعافها * وسواك في آماله يتعثر
من ذا يصون الصين عنك وأنت من * أسد الشرى منه تخاف وتحذر

قال العماد وأنفذ صلاح الدين من مصر خلعا لجماعة من الاعيان وأنفذ للعماد عمامة ملبوسة فكتب اليه قصائد في هذا المعنى منها

يا صلاح الدين الذى أصلح الفا * سد بالعدل من خطوب الزمان
أنت اجريت نيل مصر الى الشا * م نوالأم سال نيل ثانى
وعلى نيلها لكفيك فضل * فهما بالنضار جاريتان
وصلت اعطياؤك الغرغزرا * فتلقت آمالنا بالتهانى
خلع راقت العيون ورقت * وعلا وصفها عن الامكان
مذهبات كأنها خلع الرضـ * ـوان قد أهديت لاهل الجنان
مشرقات بطرزها الذهبيا * ت الحسان الرفيعة الاثمان
فالعمامات كالغمامات والطر * ز بروق كثيرة اللمعان
والموالى بها من التيه والفخـ * ـر على الدهر ساحبو الاردان
كيف خص العماد بالادون المخـ * ـلق من دون عصبة الديوان
اخليق من نسجه لك فى المد * ح جديد بامهن الخلقان
وكذا عادة الليالى تخص الـ * ـفاضل المستحق بالحرمان
لم تزل سائرات جودك بالشـ * ـام لديه غزيرة التهتان
فاذا لم تزده مصر كمالا * فى المنى فاحمه من النقصان

وكتب الى فخر الدين أخى صلاح الدين قصيدة منها

عبدك شمس الدولة المرتجا * منتظر تشريفك المذهبا
فاعتب صلاح الدين لى حالتى * عساه بالاصلاح ان يعتبا
عرفه ماتم فانى أرى * من فضله للفضل ان يغضبا
وكيف يرضى ذاك بعض الرضى * ومجده يأباه كل الابا
وقل له جاءته ملبوسة * تخلفت من نبع فى سبا
عمامة رقت ورثت فما * نشرتها الاوطارت هبا

قال فوصل الى من نور الدين عمامة مذهبة وكتب يعتذر عن العمامة التى قبلها وكتب الى سعد الدين كمشتكين كتابا يقول فيه استعير لسانه فى الاعتذار الى العماد فانى استقل لمرامه ارم ذات العماد فكتب العماد

أما العماد فقد تضاعف شكره * نعماك شكر الروض نعمى الصيب
لعمامة ذهبية كغمامة * يبدو بها برق الطراز المغربى
ماكان أحسن حاله لوانه * شفعت عمامته بثوب مذهب

قال وكتب اليه

أهنى الملك الناصر بالملك وبالنصر * وما مهد من بنيان من دين الحق فى مصر
وما أسداه من بر * بلا عد ولا حصر * وما أحياه من عدل * وما خففف من اصر
واعلاء سنا السنـ * ـة فى بحبوحة القصر * قد استولى على مصر * بحق يوسف العصر
واحيا سنة الاحسا * ن فى البدو وفى الحضر

وكتب اليه الامير اسامة بن منقذ من قصيدة أولها يقول

ديار الهوى حيا معالمك القطر * وجادك جود الناصر الغدق الهمر
به رجعت فى عنفوان شبابها * ونضرتها من بعدما هرمت مصر
وكم خاطب ردته لم يك كفؤها * الى ان اتاها خاطب سيفه المهر
حماها حمى الليث العرين وصانها * كما صان عينا من ملم القذى شفر
وكان بها بحر اجاج فأصبحت * ومن جوده العذب النمير بها بحر

وله فيه من أخرى

فما أنت الا الشمس لولاك لم تزل * على مصر ظلماء الظلالة سرمدا
وكان بها طغيان فرعون لم يزل * كما كان لما ان طغى وتمردا
فبصرتهم بعد الغواية والعمى * وأرشدتهم تحت الضلال الى الهدى

وله فيه من أخرى

قل للملوك تزحزحوا عن ذروة الـ ـعلياء للملك الهمام الناصر
يعطى الالوف ويلتقيها باسما * طلق المحيا فى القنا المتشاجر

وقرأت فى ديوان العرقلة وقال فى المولى الملك الناصر وقد أنفذ له من ديار مصر ذهبا ولغيره سلاما

صلاح الدين قد أصلحت دنيا * شقى لم يبت الا حريصا
وأرسلت السلام لنا عموما * وجودك جاءنى وحدى خصوصا
فكنت كيوسف الصديق لما * تلقى منه يعقوب القميصا

وكان العرقلة من جملة المترددين الى صلاح الدين أيام كونه بدمشق فلما صار الى مصر وعده انه متى ملكها اعطاه ألف دينار فلما تم أمره بمصر كتب اليه العرقلة قصيدة منها

اليك صلاح الدين مولاى أشتكى * زمانا على الحر الكريم يجور
ترى أبصر الالف التى كنت واعدى * بها فى يدى قبل الممات تصير
وهيهات والافرنج بينى وبينكم * سياج قتيل دونه وأسير
ومن عجب الايام انك ذو غنى * بمصر ومثلى بالشأم فقير

وقال أيضا

قل للصلاح معينى عند اعسارى * يا ألف مولاى أين الالف دينار
أخشى من الاسران حاولت أرضكم * وماتفى جنة الفردوس بالنار
جد بها عاضدية مسطرة * من بعض ما خلف الطاغى أبو الطارى
حمرا كاسيافكم غبرا كخيلكم * عيفا ثقالا كاعدائى واطمارى

وأنفذ له من مصر عشرين ألف دينار فقال

يا مالكا ما برحت كفه * تجود بالمال على كفى
أفلح بالعشرين من لم يزل فى * رأس عشرين من الكهف
يا ألف مولاى ولكنها * محسوبة من جملة الالف

وذكر العماد فى الخريدة ان العرقلة قصد صلاح الدين الى مصر فأعطاه ذلك وأخذله من اخوته مثله فعاد الى دمشق وهو مسرور مجبور وكان ذلك ختام حياته ودنا أجل وفاته فمات بدمشق فى سنة ست أو سبع وستين وخمسمائة قلت وفى ديوانه ما يدل على قدومه مصر فان فيه وقال وكتبها على حمام عمرها المولى الملك الناصر بديار مصر المحروسه

يا داخل الحمام هنيتها * دائرة كالفلك الدائر
تأمل الجنة قد زخرفت * وعمرت للملك الناصر
كأنما فيض أنابيبها * نداه للوارد والصادر

(فصل) في قتل المؤتمن بالخرقانية ووقعة السودان بين القصرين وغير ذلك قال العماد وشرع صلاح الدين في نقض اقطاع المصريين فقطع منهم الدوائر من أجل من معه من العساكر وكان بالقصر خصي يدعى بمؤتمن الخلافة محكم في القصر فاجمع هو ومن معه على ان يكاتبوا الفرنج ويقبضوا على الاسدية والصلاحية لان صلاح الدين يخرج الى الفرنج بمن معه فيؤخذ من بقي من أصحابه بالقاهرة ويتبع من وراءهم فتكون عليهم الدائرة فكاتبوا الفرنج واتفق ان رجلا من التركمان عبر البئر البيضاء فرأى مع انسان ذي خلقان نعلين جديدين ليس بهما أثر مشي فأنكرهما فأخذهما وجاء بهما الى صلاح الدين ففتقهما فوجد مكاتبة للفرنج فيهما من أهل القصر يرجون بحركتهم حصول النصر فأخذ الكتاب وقال دلوني على كاتب هذا الخط فدلوه على يهودي من الرهط فلما أحضروه ليسألوه ويعاقبوه على خطه ويقابلوه نطق بالشهادة قبل كلامه ودخل في عصمة اسلامه ثم اعترف بما جناه وشيده من الامر وبناه وان الآمر به مؤتمن الخلافه وانه بريء من هذه الآفه فحسن لدى السلطان اسلامه وثبت اعتصامه وعرف استسلامه ورؤى اخفاء هذا السر واكتتامه واستشعر الخصي العصي وخشي ان يسبقه على شق العصا العصي فما صار يخرج من القصر مخافه واذا خرج لم يبعد مسافه وصلاح الدين عليه مغضب وعنه مغض لا يأمر فيه ببسط ولا قبض الى ان استرسل واستبسل فظن ان ما نسله من الشر العقيم نصل وكان له قصر في قرية يقال لها الخرقانية لخرقه ورقع ما يتسع عليه من خرقه وهو بقرب قليوب فخلا فيه يوما للذته ولم يدر انه يوم ذلته وانقضاء ساعاته بانقضاء دولته فانهض اليه صلاح الدين من أخذ راسه ونزع من جاء به لباسه وذلك يوم الاربعاء الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة أربع فورد موارده من رداه على ادون مشرع قال ولما قتل غار السودان وثاروا وكانوا أكثر من خمسين ألفا وكانوا اذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه واذلوه واستباحوه واستحلوه فحسبوا ان كل بيضاء شحمه وان كل سوداء فحمه فثار أصحاب صلاح الدين الى الهيجا ومقدمهم الامير أبو الهيجا واتصلت الحرب بين القصرين وأحاطت بهم العسكرية من الجانبين ودام الشر يومين حتى حسم الاساحم بالجبن وكلما لجؤا الى محلة احرقوها عليهم وحووا ما حواليهم واخرجوا الى الجيزه واذلوا بالنفي عن منازلهم العزيزه وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذي القعده فما خلص السودان بعدها من الشده ولم يجدوا الى الخلاص سبيلا وأينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا وكانت لهم على باب زويلة محلة تسمى المنصوره وكانت بهم المعمره المعموره فأخلى بنيانها من القواعد فأصبحت خاويه ثم حرثها بعض الامراء واتخذها بستانا فهي الآن جنة لها ساقيه قال وكان قد وصل الى صلاح الدين قبيل هذه النوبة أخوه الاكبر فخر الدين شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أنفذه اليه نور الدين من دمشق يشد ازره بمصر لما سمع حركة الفرنج وأهل القصر فوصل القاهرة في ثالث ذي القعدة قال وباشر بنفسه وقعة السودان هذه وكان له فيها أثر عظيم ومن عجيب ما اتفق ان العاضد كان يتطلع من المنظرة يعاين الحرب بين القصرين فقيل انه أمر من بالقصر ان يقذفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة ففعلوا وقيل ان ذلك كان عن غير اختياره فأمر شمس الدولة الزراقين باحراق منظرة العاضد فهم أحد الزراقين بذلك واذا باب المنظرة قد فتح وخرج منه زعيم الخلافة وقال أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول دونكم العبيد الكلاب اخرجوهم من بلادكم وكانت العبيد مشتدة الانفس بان العاضد راض بفعالهم فلما سمعوا ذلك فت في أعضادهم فجبنوا وتخاذلوا وادبروا ومما كتبه العماد على لسان غيره الى صلاح الدين قصيدة منها

بالملك الناصر استنارت ✽ في عصرنا أوجه الفضائل
على من حقه فروض ✽ شكر الماجاد من نوافل
يوسف مصر الذي اليه ✽ تشد آمالنا الرواحل
اجريت نيلين في ثراها ✽ نيل نجيع ونيل نائل
وما نفيت السودان حتى ✽ احكمت البيض في المقاتل
صيرت رحب الفضاء ضيقا ✽ عليهم كفه بحائل
وكل راي منهم كراء ✽ وأرض مصر كلام واصل

وقد خلت منهم المغانى * واقفرت منهم المنازل
وما أصيبوا الابطال * فكيف لو امطروا بوابل
والسود بالبيض قد أبيحوا * فهى نواز لهم نوازل
مؤتمن القوم خان حتى * غالته من شره غوائل
عاملكم بالخنا فاضحى * ورأسه فوق رأس عامل
يا مخجل البحر بالايادى * قد آن ان تفتح السواحل
فقدّس القدس من خباث * ارجاس كفر غتم أراذل

قال العماد ومما مدحت به صلاح الدين فى ذلك التاريخ تهنئة له بالملك وتعزية بعمه

أيا يوسف الاحسان والحسن خير من * حوى الفضل والافضال والنهى والامرا
ومن للهدى وجه النجاح برأيه * تجلى وثغر النصر من عزمه افترا
حمى حوزة الدين الحنيف بحوزه * من الخالق الحسنى ومن خلقه الشكرا
أبوه أبى الاالمعالى وعمه * بمعروفه عم الورى البدو والحضرا
وطال الملوك شيركوه بطوله * وما شاركوه فى العلا لحوى الفخرا
بنو الاصفر الافرنج لاقوا بيضه * وسمر عواليه منايا هم حمرا
وما أبيض يوم النصر واخضر روضه * من الخصب حتى اسودّ بالنقع واغبرا
رأى النصر فى تقوى الاله وكل من * تقوى بتقوى الله لا يعدم النصرا
ولما رأى الدنيا بعين ملالة * اغذمن الاولى مسيرا الى الاخرى
وقام صلاح الدين بالملك كافلا * وكيف ترى شمس الضحى تخلف البدرا
ولما صبت مصر الى عصر يوسف * أعاد اليها الله يوسف والعصرا
فأجرى بها من راحتيه بجرده * بحارا فسماها الورى انملا عشرا
هزمتم جنود المشركين برعبكم * فلم يلبثوا خوفا ولم يمكثوا ذعرا
وفرقتم من حول مصر جموعهم * بكسر وعاد الكسر من أهلها جبرا
وآمنتم فيها الرعايا بعدلكم * وأطفأتم من شرشا ورها الجمرا
بسفك دم حطتم دماء كثيرة * وحزتم بما أبديتم الحمد والشكرا
وما يرتوى الاسلام حتى تغادروا * لكم من دماء الغادرين بها غدرا
فصبوا على الافرنج سوط عذابها * بأن يقسموا ما بينها القتل والاسرا
ولا تهملوا البيت المقدس واعزموا * على فتحه غازين وافترعوا البكرا
تديمون بالمعروف طيب ذكركم * وما الملك الا أن تديموا لكم ذكرا
وان الذى أثرى من المال مقتر * وان تقنه فى كسب محمدة أثرى

قال وكثرت كتب صلاح الدين الى أصدقائه مبشرة بطيب أنبائه فمنها كتاب ضمنه هذا البيت

ما كنت بالمنظور أقنع منكم * ولقد رضيت اليوم بالمسموع

فقلت فى جوابه أبياتا منها هذه

ياهل لسالف عيشتى بفنائكم * من عودة محمودة ورجوع
مذ غبتم عن ناظرى ماأذنت * للقلب شمس مسرة بطلوع
كنت المشفع فى المطالب عندكم * فغدوت أطلب طيفكم بشفيع
أصبحت أقنع بالسلام على النوى * وبقربكم كم بت غير قنوع

قال ووصل أيضا منه كتاب ضمنه هذا البيت

وانثر الدمع من قبل أيضا * وقد صار منبتهم فأصبح ياقوتا

فنظمت في جوابه أبياتا منها

هنيئا لمصر حوز يوسف ملكها * بأمر من الرحمن قد كان موقوتا
وما كان فيها قتل يوسف شاورا * يماثل الا قتل داود جالوتا
وقلت لقلبي ابشر اليوم بالمنى * فقد نلت ما أملت بل حزت ما شيتا

قال وفي هذه السنة قتل العاضد بالقصر ابني شاور الكامل وأخاه يعني الطاري يوم الاثنين الرابع من جمادى الآخرة وذلك انه لما قتل شاور عادوا في القصر فكانما نزلوا في القبر فلو انهم جاؤا الى أسد الدين سلموا وامتنعوا وعصموا فانه ساءه قتل شاور وان كان أمن بقتله ما حاذر قلت الكامل هو شجاع بن شاور وكان له اخوان طي تقدم ذكر قتل ضرغام له والآخر الطاري قال الفقيه أبو الحسن علي بن محمد بن أبي السرور الروحي في تاريخه أخذ ابنا شاور شجاع الملقب بالكامل والطاري الملقب بالمعظم وأخوه الملقب بفارس المسلمين فقتلوا ودير برؤسهم قال ولما ولي صلاح الدين ساس الرعية وأظهر لهم من العدل ما لم يعلموه فاجتمع أهل البلاد وكرهوه فأوقع براجلهم وأخرجهم من القاهرة اخراجا عنيفا وأخرج بعد ذلك فارسهم وشتت شملهم فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا قال ولما كانت سنة ست وستين رفع جميع المكوس صادرها وواردها جليلها وحقيرها وغزا بلاد الشام غزوتين قال ابن شداد وفي المحرم من هذه السنة توفي ياروق الذي تنسب اليه الياروقية يعني المحلة التي بظاهر حلب قال غيره وفيها احترق جامع حلب وأسواق البز وأخذ نور الدين في عمارته آخر السنة

(ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة) ففي أول صفر منها نزل الفرنج خذلهم الله تعالى على دمياط من الديار المصرية قال ابن الاثير كان فرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك فكاتبوا الفرنج الذين بالاندلس وصقلية يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك مصر وانهم خائفون على البيت المقدس وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح واعتمدوا على النزول على دمياط ظنا منهم انهم يملكونها ويتخذونها ظهرا يملكون به ديار مصر فلما نزلوها حصروها وضيقوا على من بها فأرسل اليها صلاح الدين العساكر في النيل وحشر فيها كل من عنده وأمدهم بالمال والسلاح والذخائر وتابع رسله الى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف وانه ان تخلف عن دمياط ملكها الفرنج وان سار اليها خلفه المصريون في مخلفيه ومخلفي عسكره بالسوء وخرجوا من طاعته وصاروا من خلفه والفرنج من امامه فجهز نور الدين اليه العساكر ارسالا كلما تجهزت طائفة أرسلها فسارت اليه يتلو بعضها بعضا ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر فدخل بلاد الافرنج فنهبها وأغار عليها واستباحها ووصلت الغارات الى ما لم تكن تبلغه لخلو البلاد عن ممانع فلما رأى الافرنج تتابع العساكر الى مصر ودخول نور الدين بلادها ونهبها واخرابها رجعوا خائبين ولم يظفروا بشئ وهذا موضع المثل ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين فوصلوا الى بلادهم فرأوها خاوية على عروشها وكان مدة مقامهم على دمياط خمسين يوما أخرج فيها صلاح الدين أموالا لا تحصى حكي عنه أنه قال ما رأيت أكرم من العاضد أرسل الي مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها قال القاضي ابن شداد لما علم الفرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم وما تم من استقامة الامر في الديار المصرية علموا ان صلاح الدين يملك بلادهم ويخرب ديارهم ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة والملك فاجتمع الفرنج والروم جميعا وحدثوا نفوسهم بقصد الديار المصرية والاستيلاء عليها وملكها ورأوا قصد دمياط لتمكن القاصد لها من البر والبحر ولعلمهم انها ان حصلت لهم حصل لهم مغرس قدم يأوون اليه فاستصحبوا المجنيقات والدبابات والجروخ وآلات الحصار وغير ذلك ولما سمع الفرنج بالشام ذلك اشتد أمرهم فسرقوا حصن عكار من المسلمين وأسروا صاحبها وكان مملوكا لنور الدين يسمى خطلخ العلمدار وذلك في ربيع الآخر منها وفي رجب منها توفي العمادي صاحب نور الدين وأمير حاجبه وكان صاحب بعلبك وتدمر ولما رأى نور الدين ظهور الفرنج ونزولهم على دمياط قصد شغل قلوبهم فنزل على الكرك محاصرا لها في شعبان من هذه السنة فقصده فرنج الساحل فرحل عنها وقصد لقاءهم فلم يقفوا له ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية

بحلب فى رمضان فاشتغل قلبه لانه كان صاحب أمره فعاد يطلب الشام فبلغه خبر الزلزلة بحلب التى خربت كثيرا من البلاد وكانت فى ثانى عشر شوال من السنة المذكورة وهو بعشترا فسار يطلب حلب فبلغه موت أخيه قطب الدين بالموصل وكانت وفاته فى الثانى والعشرين من ذى الحجة وبلغه الخبر وهو بتل باشر فسار من ليلته طالبا بلاد الموصل ولما علم صلاح الدين شدة قصد العدو دمياط أنفذ الى البلد وأودعه من الرجال والابطال والفرسان والميرة وآلات السلاح ما أمن معه عليه ووعد المقيمين فيه بامدادهم بالعساكر والآلات وازعاج العدو عنهم ان نزل عليهم وبالغ فى العطايا والهبات وكان وزيرا متحكما لا يرد أمره فى شئ ثم نزل الفرنج عليها فى التاريخ المذكور واشتد زحفهم اليها وقتالهم لها وهو رحمه الله عليهم يشن الغارات عليهم من خارج والعسكر يقاتلهم من داخل ونصر الله للمسلمين يؤيدهم وحسن قصده فى نصرة دين الله يسعدهم وينجدهم حتى بان لهم الخسران وظهر على الكفر الايمان ورأوا انهم ينجون برؤسهم ويسلمون بنفوسهم فرحلوا خائبين خاسرين خرقت مجانيقهم ونهبت آلاتهم وقتل منهم خلق عظيم وسلم البلد بحمد الله ومنه وقال العماد أقام صلاح الدين بالقاهرة فى دار ملكه ومدار فلكه ينهض اليها المدد بعد المدد ويرسل اليها العدد بعد العدد يسهر ليله ولا يقيل نهاره وقد أخلص لله سره وجهاره ولا ينام ولا ينيم وعنده من ذلك المقعد المقيم وسبق تقى الدين ابن أخى السلطان الى دمياط فدخلها وكذا خاله شهاب الدين محمود فنزلها واتصل الحصار وتواصل الانصار ودب فى الفرنج الفنا وهب عليهم البلا فرحلوا عنها فى الحادى والعشرين من ربيع الاول بالذل الاكمل والصغار الاشمل وكان لما وصل الخبر الى نور الدين بوصولهم واجتماعهم على دمياط ونزولهم اغتم واهتم واستعصب الملم وأنهض من عنده عسكرا ثقيلا مقدمه الامير قطب الدين خسرو الهذبانى وكان مقداما مقداما وهماما معلما وأمره ان يسير بالعسكر ويخوض بهم بحر العجاج الاكدر فوصل فى النصف من ربيع الاول قبل رحيل الفرنج باسبوع فوقع روعه من الكفر فى كل روع قلت وبلغنى من شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط انه قرئ عليه جزء من حديث كان له به رواية فجاء فى جملة تلك الاحاديث حديث مسلسل بالتبسم فطلب منه بعض طلبة الحديث ان تبسم لتتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث فغضب من ذلك وقال انى لاستحيى من الله تعالى أن يرانى متبسما والمسلمون محاصرون بالفرنج وبلغنى ان اماما لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط فى منامه النبى صلى الله عليه وسلم وقال له اعلم نور الدين ان الفرنج قد رحلوا عن دمياط فى هذه الليلة فقال يارسول الله ربما لا يصدقنى فاذكر لى علامة يعرفها فقال قل له بعلامة ما سجدت على تل حارم وقلت يارب انصر دينك ولا تنصر محمودا من هو محمود الكلب حتى ينصر قال فانتبهت ونزلت الى المسجد وكان من عادة نور الدين انه كان ينزل اليه بغلس ولا يزال يتركع فيه حتى يصلى الصبح قال فتعرضت له فسألنى عن أمرى فأخبرته بالمنام وذكرت له العلامة الا أننى لم أذكر لفظة الكلب فقال نور الدين اذكر العلامة كلها وألح على فى ذلك فقلتها فبكى رحمه الله وصدق الرؤيا فأرخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك فى تلك الليله

﴿فصل﴾ أرسل نور الدين كتابا الى العاضد صاحب القصر يهنيه برحيل الفرنج عن ثغر دمياط وكان قد ورد عليه كتاب العاضد بالاستقالة من الاتراك فى مصر خوفا منهم والاقتصار على صلاح الدين والزامه وخواصه فكتب اليه نور الدين يمدح الاتراك ويعلمه انه ما أرسلهم واعتمد عليهم الا لعلمه بأن قنطاريات الفرنج ليس لها الاسهام الاتراك فان الفرنج لا يرهبون الامنهم ولولاهم لزاد طمعهم فى الديار المصريه وتحصلوا منها على الامنيه فلعل الله ييسر فتح المسجد الاقصى مضافا الى نعمه التى لا تحصى قلت ولعمارة اليمنى من قصيدة

من شاكر والله أعظم شاكر ❊ ما كان من نعمى بنى أيوب
طلب الهدى نصرا فقال وقد أتوا ❊ حسبى فأنتم غاية المطلوب
جلبوا الى دمياط عند حصارها ❊ عز القوى وذلة المغلوب
وجلوا عن الاسلام فيها كربة ❊ لولم يجلوها أتت بكروب
فالناس فى أعمال مصر كلها ❊ عتقاؤهم من نازح وقريب

لئن لم تظن الناس قشرا فارغا * وهم اللباب فأنت غير لبيب

وللشهاب فتيان الشاغورى من قصيدة يقول

ولا غرو ان عاد الفرنج هزيمة * ولو لم تعد لم يبق للشرك ساحل
فقد أيقنت اعداؤه ان حظهم * لديه رماح اشرعت أو سلاسل
ولما أتوا دمياط كالبحر طاميا * وليس له من كثرة القوم ساحل
يزيد عن الاحصاء والعد جمعهم * ألوف ألوف خيلهم والرواحل
رأوا دونهم أسدا بأيديهم القنا * وبيضا رقاقا أحكمتها الصياقل
ودار وابها فى البحر من كل جانب * ومن دونها سدّ من الموت حائل
رجال الكلب ملك الروم اذ ذاك فعها * نخاف فأم الملك والروم هابل
فعادوا على الاعقاب منها هزيمة * كأنهم ذل لانعام جوافل
وما أملوا أن يلحقوا ببلادهم * لتعصمهم مما رأوه المعاقل

قال العماد وسألنى كريم الملك ان أعمل له أبياتا فى صلاح الدين تهنئة بالنصر فى دمياط فعملت قصيدة منها

يا يوسف الحسن والاحسان يا ملكا * بجدّه صاعد أعداؤه هبطوا
حللت من وسط العلياء فى شرف * ومركز الشمس من افلاكها الوسط
هنيت صونك دمياط التى اجتمعت * لها الفرنج فما حلوا ولا ربطوا
مصر بيوسفها أضحت مشرفة * وكل أمرلها بالعدل منضبط
وحين وافى صلاح الدين أصلحها * فللمصالح من أيامه غبط

قال العماد ومما سيرته الى صلاح الدين قصيدة منها

كأن قلبى وحب مالكه * مصر وفيها المليك يوسفها
هذا بسلب الفؤاد يظلمنى * وهو بقتل الاعداء ينصفها
الملك الناصر الذى أبدا * بعز سلطانه يشرّفها
قام باحوالها يدبرها * حسنا واثقالها يخففها
بعدله والصلاح يعمرها * وبالندى والجميل يكنفها
من دنس الغادرين يرحضها * ومن خباث العدى ينظفها
وان مصرا بملك يوسفها * جنة خلد يروق زخرفها
وانه فى السماح حاتمها * وانه فى الوقار أحنفها
يوسف مصر الذى ملاحها * جاءت بأوصافه تعرفها
كتب التواريخ لا يزينها * الا بأيامه مصنفها
وحطت دمياط اذ احاط بها * من برجوم البلاء يقذفها
لاقت غواة الفرنج خيبتها * فزاد من حسرة تأسفها
أوردت قلب القلوب ارشية * من القنا للدماء تنزفها
وليتها سفكها فعاملها * عاملها والسنان مشرفها
يمضى لك الله فى قتالهم * عزيمة للجهاد ترهفها

وله فيه من أخرى

قد استقرت أمورى * فيه بحسب اقتراحى كما استقر صلاح الدنيا بملك الصلاح
تنير شمس أياديه فى سماء السماح * وأمره مستفاد من القضاء المتاح

وأرسله نور الدين الى خلاط ومتوليها حينئذ ظهير الدين سكمان المعروف بشاه أرمن قال فلما كنت بماردين كتبت

الى بعض المعارف

تمدنزلنا فى جوارك * وطلبنا اقرب دارك وسرينا فى الدياجى * فهدانا ضوء نارك

فتدارك أمرنا اليو * م بطول متدارك وتفرد باغتنام الـ * ـشكر من غير مشارك

قال العماد وفى هذه السنة خرج نور الدين الى داريا فأعاد عمارة جامعها وعمر مشهد أبى سليمان الدارانى وشتى بدمشق

(فصل) فى مسير نجم الدين أيوب الى مصر بباقى أولاده وأهله وقد وصف ذلك عمارة فى قصيدة مدح بها السلطان صلاح الدين تقدم بعضها يقول فيها

صحت به مصر وكانت قبله * تشكو سقاما لم يعن بطبيب

عجبا لمعجزة أتت فى عصره * والدهر ولاد لكل عجيب

ردّ الاله به قضية يوسف * نسقا على ضرب من التقريب

جاءته اخوته ووالده الى * مصر على التدريج والترتيب

فاسعد بأكرم قادم وبدولة * قد ساعدتك رياحها بهبوب

قال العماد لما دخل فصل النيروز وزاد استأذن الامير نجم الدين أيوب نور الدين فى قصده ولده صلاح الدين والخروج من دمشق الى مصر بأهله وجماعته وسبده ولبده وخيم بظاهر البلد الى ان بان وضوح جدده وسار فى حفظ فوصل الى مصر فى السابع والعشرين من رجب وقضى صاحب القصر العاضد من حق قدومه ماوجب وركب لاستقباله وزاد اقبال البلاد باقباله ولما عزم على الرحيل الى مصر شرع فى تفريق املاكه وتوفير ماله فى شركه على اشراكه وما استصحب شيأ من موجوده وجعله نهبة لجوده قلت ووقف رباطا داخل الدرب برقاق العونية بباب البريد ثم قال العماد ولما نصب نجم الدين أيوب لقصد مصر مضاربه وسحب للعلى على روض الرضى سحائبه خرج نور الدين الى رأس الماء بعسكره وخيامه وأرهف للجد فى الجهاد حد اعتزامه ثم أقام بعد توديعه والوفاء بحق تشييعه الى ان اجتمعت اليه عساكره وحضر بادى جنده وحاضره وعب بحره وماج زاخره ثم توجهنا الى بلاد الكرك مستهل شعبان ونزلنا أياما بالبلقاء على عمان وأقمنا على الكرك أربعة أيام نحاصرها ونصبنا عليها منجنيقين فورد الخبران الفرنج قد تجمعوا ووصلوا الى ماعين فقال نور الدين نرى ان نعطف أعنتنا وبالله نستعين فانا اذا كسرناهم وقسرناهم وقتلناهم وأسرناهم أدركنا المراد وملكنا البلاد فرحلنا اليهم فولوا مدبرين حين سمعوا برجوعنا وقالوا رحيلهم عن الحصن قد حصل وهو مقصودنا وعاد نور الدين الى حوران فخيم بعشترا وصام رمضان وقال ابن الاثير كان سبب حصر نور الدين الكرك ان نجم الدين أيوب والد صلاح الدين سار عن دمشق الى مصر فسير نور الدين معه عسكرا فاجتمع معهم من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أنس ومودّة مالا يعدّ فخاف نور الدين عليهم فسار الى الكرك فنزل عليه وحصره وسار نجم الدين أيوب ومن معه سالمين ونصب نور الدين على الكرك المجانيق فأتاه الخبر ان الفرنج قد جمعوا وساروا اليه وان ابن الهنفرى وفليب بن الرفيق وهما فارسا الفرنج فى وقتهما فى المقدمة اليه فرحل نور الدين رحمه الله تعالى نحوهما ليلقاهما ومن معهما قبل أن يلحق بهما باقى الفرنج وكانا فى مائتى فارس وألف تركبلى ومعهم من الراجل خلق كثير فلما قاربهما رجعا القهقرا الى من وراءهم من الفرنج وقصد نور الدين وسط بلادهم ونهب ما كان على طريقه ونزل بعشترا وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم فلم يبرحوا من مكانهم خوفا منه وقال ابن شداد أنفذ صلاح الدين فى طلب والده ليكمل له السرور وتجمع القصة مشاكلة ماجرى للنبى يوسف الصديق عليه السلام فوصل والده نجم الدين اليه وسلك معه من الادب ما كان عادته وألبسه الامر كله فأبى ان يلبسه وقال ياولدى ما اختارك الله لهذا الامر الا وأنت كفؤ له فماينبغى ان نغير موقع السعادة فحكمه فى الخزائن بأسرها وكان رحمه الله كريما يطلق ولا يرد ولم يزل صلاح الدين وزيرا محكما الى ان مات العاضد أبو محمد عبد الله وبه ختم أمر المصريين وقال ابن أبى طى الحلبى أرسل الخليفة المستنجد بالله من بغداد الى نور الدين يعاتبه من تأخير اقامة الدعوة له بمصر فأحضر الامير نجم الدين أيوب وألزمه الخروج الى ولده بمصر بذلك وحمله رسالة منها (وهذا أمر يجب المبادرة اليه لنحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت لاسيما وامام الوقت

قاض به قضت المظالم نحبها * وغدا على آثارهن معقبا
يا كاشف الحق في أيامه * غررا يدوم لها الزمان مغطيا
لم تنعش الشهباء عند عثارها * لو لم تجد لك الطود حلمك مرسيا
رجفت لسطوتك التي أرسلتها * نحو الطغاة لحد عزمك ممهيا
وتظلمت من شرهم فتململت * بمحل اجازتها عليها مبقيا
انفت من الثقلاء فيها اذ رمت * أثقالها ورأتك منها مجليا
حلب لها حلب المدامع مسيل * ان لاقت الخطب الفظيع المبكيا
وبعدل نور الدين عاود افقها * من بعد غيم الغم جوا مصحيا
أضحى لبهجتها معيدا بعدما * ذهبت وللمعروف فيها مبديا
لامورها متدبرا لشتاتها * متألفا لصلاحها متوليا
فالشرع عاد بعدله مستظهرا * والحق عاد بظله مستذريا
والدهر لاذ بعفوه مستغفرا * مما جناه مطرقا مستحييا

(فصل) في غزو صاحب البيرة ووفاة صاحب الموصل قال ابن الاثير كان شهاب الدين محمد بن الياس بن ايلغازي بن ارتق صاحب قلعة البيرة قد سار في عسكره وهم مائتا فارس الى الخدمة النورية وهو بعشترا فلما وصل الى اللبوة وهي من اعمال بعلبك ركب متصيدا فصادف ثلثمائة فارس من الفرنج قد ساروا للغارة على بلاد الاسلام وذلك سابع عشر شوال فوقع بعضهم على بعض واقتتلوا وصبر الفريقان لاسيما المسلمون لان ألف فارس منهم لا تصبر لحملة ثلثمائة فارس من الفرنج وكثر القتلى بينهم وانهزم الفرنج وعمهم القتل والاسر فلم يفلت منهم الا من لا يعتد به ولو تواعد تم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله امرا كان مفعولا وسار شهاب الدين بالاسرى ورؤس القتلى الى نور الدين فركب هو وعسكره الى لقائه واستعرض الاسرى ورؤس القتلى فرأى فيها رأس مقدم الاسبتارية صاحب حصن الاكراد وكانت الفرنج تعظمه لشجاعته ودينه عندهم ولانه شجى في حلوق المسلمين وكذلك أيضا رأى رأس غيره من مشهوري الفرنج فازداد سرورا ولله الحمد قال وفيها في شوال توفي الملك قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل وكان لما اشتد مرضه اوصى بالملك بعده لولده عماد الدين زنكي بن مودود وهو أكبر أولاده وأعزهم عليه واحبهم اليه وكان النائب عن قطب الدين حينئذ والقيم بامر دولته فخر الدين عبد المسيح وكان يكره عماد الدين زنكي لانه كان قد أكثر المقام عند عمه الملك العادل نور الدين رحمه الله تعالى وخدمه وتزوج ابنته وكان عزيزه وحبيبه وكان نور الدين يبغض عبد المسيح لظلم كان فيه ويذمه ويلوم اخاه قطب الدين على توليته لاموره فخاف عبد المسيح ان يتصرف عماد الدين في اموره عن امر عمه فيعزله ويبعده فاتفق هو والخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش زوجة قطب الدين فردوه عن هذا الرأي فلما كان الغد أحضر الامراء واستحلفهم لولده سيف الدين غازي وتوفي وقد جاوز عمره أربعين سنة وكان تام القامة كبير الوجه أسمر اللون واسع الجبهة جهوري الصوت وكانت ولايته احدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفا ولما توفي استقر سيف الدين غازي في الملك ورحل عماد الدين الى عمه نور الدين شاكيا ومستنصرا وكان عبد المسيح هو يتولى أمور سيف الدين ويحكم في مملكته وليس لسيف الدين من الامر الا اسمه لانه في عنفوان شبابه وعزة حداثته قال وهذه حادثة تحث على العدل كان من جملة أعمال جزيرة ابن عمر قرية تسمى العقيمة مقابل الجزيرة من الجانب الشرقي يفصل بينهما دجلة لها بساتين كثيرة بعضها تمسح أرضه ويؤخذ على كل جريب من الارض التي قد زرعت شئ معلوم وبعضها عليه خراج ولا مساحة عليه وبعضها مطلق منها فالممسوح منها لا يحصل لاصحابه منه الا القدر القريب وكان لنا بها عدة بساتين فحكى لي والدي قال جاءنا كتاب فخر الدين عبد المسيح الى الجزيرة وأنا حينئذ أتولى ديوانها يأمر بأن تجعل بساتين العقيمة كلها ممسوحة فشق ذلك علي لاجل أصحابها ففيها ناس صالحون ولي بهم أنس وهم فقراء فراجعته وقلت له لا تظن اني أقول هذا الاجل ملكي لا والله وانما أريد أن يدوم الناس على الدعاء للمولى قطب الدين وأنا أمسح ملكي جميعه قال فأعاد الجواب بأمر المساحة ويقول تمسح ولا ملكك

يقتدى بك غيرك ونحن نطلق لك مايكون عليه فشرع النواب بمسعون وكان بالعقيمة رجلان صالحان بيني وبينهما مودة اسم أحدهما يوسف والآخر عبادة فحضرا عندى وتضررا من هذه الحال وسألانى المكاتبة فى المعنى فأظهرت لهما كتاب عبد المسيح جوابا عن كتابى فشكرانى وقالا وأيضا تعود تراجعه فعاودت القول فأصر على المساحة ففرقتهما الحال فلما مضى عدة أيام عدت يوما الى دارى واذاهما قد صادفانى على الباب فقلت لنفسى عجبا لهذين الشيخين قد رأيا مراجعتى وهما يطلبان منى مالا أقدر عليه فقلت لهما والله انى لاستحيي منكما كلما جئتما فى هذا المعنى وقد رأيتما الحال كيف هو فقالا الاصدقت ولم نحضر الا لنعرفك ان حاجتنا قضيت فظننت انهما قد أرسلا الى الموصل من يشفع لهما فدخلت الى دارى وأدخلتهما معى وسألتهما عن الحال كيف هو ومن الذى سعى لهما فقالا ان رجلا من الصالحين الابدال شكونا اليه حالنا فقال قد قضيت حاجة أهل العقيمة كلهم قال فوقع عندى من هذا ولكن تارة أصدقهما لما أعلم من صلاح أحوالهما وتارة أعجب من سلامة صدورهما كيف يعتمدان على هذا القول ويعتقدانه واقعا لاشك فيه فلما كان بعد أيام وصل قاصد من الموصل بكتاب يأمر فيه باطلاق مساحة العقيمة واطلاق كل مسجون وبالصدقة فسألت القاصد عن السبب فأخبرنا ان قطب الدين شديد المرض قال فأفكرت فى قولهما وتعجبت منه ثم توفى بعد يومين من هذا قال ورأيت والدى اذا رأى أحد الرجلين يبالغ فى اكرامه ويحترمه ويقضى اشغاله واتخذهما صديقين قال وكان قطب الدين من أحسن الملوك وأعفهم عن أموال رعيته محسنا اليهم كثير الانعام عليهم محبوبا الى صغيرهم وكبيرهم حليما عن المذنبين سريع الانفعال للخير حدثنى والدى قال استدعانى يوما وهو بالجزيرة وكنت أتولى أعمالها فلامنى فى بعض الامر فقلت أخاف من الاستقصاء والدعى على بعض هؤلاء الملوك وأومأت الى أولاده لكانت شعرة منه تساوى الدنيا ومافيها ولنا مواضع تحتمل العمارة لو عمرت لتحصل منها أضعاف هذا فقال جزاك الله خيرا لقد نصحت وأديت الامانة فأشرع فى عمارة هذه الاماكن ففعلت وكبرت منزلتى عنده ولم يزل يثنى على قال وكان كثير الصبر والاحتمال من أصحابه لقد صبر من نوابه زين الدين وجمال الدين وغيرهما على مالم يصبر عليه سواه وكان حسن الاتفاق مع أخيه الملك العادل نور الدين كثير المساعدة والانجاد له بنفسه وعسكره وأمواله حضر معه المصاف بحارم وفتحها وفتح بانياس وكان يخطب له فى بلاده باختياره من غير خوف وكان احسانه الى أصحابه متتابعا من غير طلب منهم ولا تعريض وكان يبغض الظلم وأهله ويعاقب من يفعله قال وبالله أقسم اذا فكرت فى الملوك أولاد زنكى سيف الدين ونور الدين وقطب الدين وما جمع الله فيهم من مكارم الاخلاق ومحاسن الافعال وحسن السيرة وعمارة البلاد والرفق بالرعية الى غير ذلك من الاسباب التى يحتاج الملك اليها اذكر قول الشاعر

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم * مثل النجوم التى يسرى بها السارى

قلت وقرأت بخط الشيخ عمر الملا رحمه الله فى كتاب كتبه الى بعض الصالحين وسأله فيه الدعاء لقطب الدين صاحب الموصل وقال فيه (يا أخى لو ذهبت أشرح لك سيرته فى بلاده وعيش رعيته فى ولايته أطلت وأضجرت غير انى أذكر لك ما خصه الله به من الاخلاق الصالحة هو من اكثر الناس رحمة وأشدهم حياء وأعظمهم تواضعا وأقلهم طمعا وأزهدهم فى الظلم وأكثرهم صبرا وأبعدهم غضبا وأسرعهم رضا وهو من هذه الاخلاق على حد أحبه أنا محبة لا أقدر أصفها وبيني وبينه اخاء ومن اورد يزورنى وأزوره)

(فصل) قال ابن الاثير ولما بلغ نور الدين وفاة أخيه قطب الدين وملك ولده سيف الدين بعده واستيلاء عبد المسيح واستبداده بالامور وحكمه على سيف الدين أنف من ذلك وكبر لديه وشق عليه وكان يبغض عبد المسيح لما يبلغه من خشونته على الرعية والمبالغة فى اقامة السياسة وكان نور الدين رحمه الله لينا رفيقا عادلا فقال أنا أولى بتدبير بنى أخى وملكهم ثم سار من وقته فعبر الفرات عند قلعة جعبر أول المحرم

(ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة) وقصد الرقة فامتنع النائب بها شيأ من الامتناع ثم سلمها على شئ اقترحه فاستولى نور الدين عليها وقرر أمورها وسار الى الخابور فملكه جميعه ثم ملك نصيبين وأقام بها يجمع العساكر فانه كان قد سار جريدة فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا ارسلان صاحب الحصن وديار بكر واجتمعت عليه العساكر

وقد ترك أكثر عسكره بالشام لحفظ ثغوره واطرافه من الفرنج وغيرهم فلما اجتمعت العساكر سار الى سنجار فحصرها وأقام عليها ونصب المجانيق وكان بها عسكر كبير من الموصل فكاتبه عامة الامراء الذين بالموصل يحثونه على السرعة اليهم ليسلموا البلد اليه وأشاروا بترك سنجار فلم يقبل منهم وتام حتى ملك سنجار وسلمها الى ابن أخيه الاكبر عماد الدين زنكى ثم سار الى الموصل فأتى مدينة بلد وعبر دجلة فى مخاضة عندها الى الجانب الشرقى وسار فنزل شرقى الموصل على حصن نينوى ودجلة بينه وبين الموصل قال ومن العجب انه يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة وكان عبد المسيح قد سير عز الدين مسعود بن قطب الدين الى أتابك ايلدكز صاحب بلاد الجبل واذربيجان واران وغيرها يستنجده فأرسل ايلدكز رسولا الى نور الدين ينهاه عن قصد الموصل ويقول له ان هذه البلاد للسلطان ولا سبيل لك اليها فلم يلتفت نور الدين الى رسالته وكان بسنجار فسار الى الموصل وقال للرسول قل لصاحبك أنا أرفق ببنى أخى منك فلا تدخل نفسك بيننا وعند الفراغ من اصلاحهم يكون الحديث معك على باب همذان فانك قد ملكت النصف من بلاد الاسلام وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها وقد بليت أنا وحدى بأشجع الناس الفرنج فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم فلا يجوز لى أن أتركك على ما أنت عليه فانه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد الاسلام وازالة الظلم عن المسلمين فعاد الرسول بهذا الجواب وحصر نور الدين الموصل فلم يكن بينهم قتال وكان هوى كل من بالموصل من جندى وعامى معه لحسن سيرته وعدله وكاتبه الامراء يعلمونه على الوثوب على عبد المسيح وتسليم البلد اليه فلما علم عبد المسيح ذلك راسله فى تسليم البلد اليه وتقريره على سيف الدين ويطلب الامان واقطاعا يكون له فأجابه الى ذلك وقال لا سبيل الى ابقائه بالموصل بل يكون عندى بالشام فانى لم آت لأخذ البلاد من أولادى انما جئت لاخلص الناس منك وأتولى أنا تربية أولادى فاستقرت القاعدة على ذلك وسلمت الموصل اليه فدخلها ثالث عشر جمادى الاولى وسكن القلعة وأقر سيف الدين غازى على الموصل وولى بقلعتها خادما يقال له سعد الدين كمشتكين وجعله دزدارا فيها وقسم جميع ما خلفه أخوه قطب الدين بين أولاده بمقتضى الفريضة ولما كان يحاصر الموصل جاءته خلعة من الخليفة فلبسها فلما دخل الموصل خلعها على سيف الدين وأطلق المكوس جميعها من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد وأمر ببناء الجامع النورى بالموصل فبنى وأقيمت الصلاة فيه سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة وأقام بالموصل نحو عشرين يوما وسار الى الشام فقيل له انك تحب الموصل والمقام بها ونراك أسرعت العود فقال قد تغير قلبى فيها فان لم أفارقها ظلمت ويمنعنى أيضا انني هاهنا لا أكون مرابطا للعدو وملازما للجهاد ثم اقطع نصيبين والخابور العساكر وأقطع جزيرة ابن عمر سيف الدين غازى ابن أخيه مع الموصل وعاد الى الشام ومعه عبد المسيح فغير اسمه وسماه عبد الله وأقطعه اقطاعا كثيرا وقال العماد استدعانى نور الدين ونحن بظاهر الرقة وقال لى قد آنست بك وأمنت اليك وأنا غير مختار للفرقة لكن المهم الذى عرض لا يبلغ فيه غيرك الغرض فتمضى الى الديوان العزيز جريدة وتؤدى عنى رسالة سديدة سعيدة وتنهى انى قصدت بيتى وبيت والدى ومغنى طريفى وتالدى وأنا كبيره ووارثه والذى له حديثه وحادثه فامض وخذ لى اذنا فانى أعد كل جارحة لما أخاطب به اذنا وامثل ما يصلنى من المثال لدفع كل مكروه ركنا وأمر ناصر الدين محمد بن شيركوه ان يسيرنى الى الرحبة فى رجال مأمونى الصحبة وسرت منها على البرية غربى الفرات بخفير من بنى خفاجه فذكر انه وصل وقضى الحاجه ثم رجع من عند الخليفة المستنجد الى نور الدين وهو يحاصر سنجار فأخذها وسلمها الى ختنه ابن أخيه عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى قال ثم رحل على عزم الموصل وقصد بلد واستوضح فيها الجدد ودل هنالك فى دجلة على مخاضه وكان ذا اخلاق وهمم مرتاضه فاستسهل من خوضها والعبور فيها ما ظن مستصعبا وسهل الله لنا ذلك ورأيناه أمرا عجبا وجاء دليل تركمانى قدامنا وهو يقطع دجلة تارة طولا وتارة عرضا أمامنا ونحن وراءه كخيط واحد لا نميل يمينا ولا يسارا ولا نجد لنا فى سوى ذلك المجاز اختيارا حتى عبرنا من الجانب الغربى الى الجانب الشرقى برحالنا واثقالنا وخيلنا وبغالنا وجمالنا وأفنا بقية ذلك اليوم حتى تم عبور القوم ثم رحلنا ونزلنا على الموصل من شرقها وخيمنا على تل توبه فاستعظم أهلها تلك النوبه وما خطر ببالهم أنا نعبر بغير مراكب وأنا نأخذ عليهم ذلك الجانب فعرفوا انهم محصورون مقهورون محسورون وانقطعت عنهم السبل من الشرق وتعذر عليهم الرقع لاتساع الخرق وبسط العطا

وكشف الغطا وتكلم فى المصلحة والمصالحة الوسطا ومدّ الجسر وقضى الامر وأنعم نورالدين على أولاد أخيه ومثلوا بناديه وأقرّ سيف الدين غازيا على قاعدة أبيه وألبسه التشريف الذى وصله من أمير المؤمنين المستضيء ثم دخل قلعة الموصل وأقام بها سبعة عشر يوما وجدّد مناشير أهل المناصب وتوقيعات ذوى المراتب من القضاء والنقابة وغيرهما وأمر باسقاط جميع المكوس والضرائب وأنشا بذلك منشورا يقرأ على الناس فيه (قد قنعنا من كنز الاموال باليسير من الحلال فسحقا للسحت ومحقا للحرام الحقيق بالمقت وبعدا لما يبعد من رضى الرب ويقصى من محل القرب وقد استخرنا الله وتقربنا اليه وتوكلنا فى جميع الاحوال عليه وتقدّمنا باسقاط كل مكس وضريبه فى كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة وازالة كل جهة مشتبهة مشوبه ومحو كل سنة سيئة شنيعه ونفى كل مظلمة مظلمة فظيعه واحياء كل سنة حسنه وانتهاز كل فرصة فى الخير ممكنه واطلاق كل ماجرت العادة بأخذه من الاموال المحظوره خوفا من عواقبها الرديئة المحذورة فلا يبقى فى جميع ولايتنا جور جائر جاريا ولا عمل لايكون به الله راضيا ايثارا للثواب الآجل على الحطام العاجل وهذا حق لله قضيناه وواجب علينا أدّيناه بل هى سنة حسنة سنناها ومحجة واضحة بيناها وقاعدة محكمة مهدناها وفائدة مغنمة أفدناها)

﴿فصل﴾ قال العماد وكان بالموصل رجل صالح يعرف بعمر الملا سمى بذلك لانه كان يملا تنانير الجص بأجرة يتقوت بها وكل ماعليه من قميص ورداء وكسوة وكساء قد ملكه سواه واستعاره فلا يملك ثوبه ولا أزاره وكان له شئ فوهبه لاحد مريديه وهو يتجر لنفسه فيه فاذا جاءه ضيف قراه ذلك المريد وكان ذا معرفة باحكام القرآن والاحاديث النبويه وكان العلماء والفقهاء والملوك والامراء يزورونه فى زاويته ويتبركون بهمته ويتيمنون ببركته وله كل سنة دعوة يحتفل بها فى أيام مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحضره فيها صاحب الموصل ويحضر الشعراء وينشدون مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك المحفل وكان نورالدين من أخص محبيه يستشيره فى حضوره ويكاتبه فى مصالح أموره وكانت بالموصل خربة واسعة فى وسط البلد أشيع عنها انه ماشرع فى عمارتها الا من ذهب عمره ولم يتم على مراده فأشار الشيخ عمر على نورالدين بابتياعها ورفع بنائها جامعا تقام فيه الجمع والجماعات ففعل وانفق فيه أموالا كثيرة ووقف عليه ضيعة من ضياع الموصل ورتب فيه خطيبا ومدرّسا وكان قد وصل فى تلك السنة وافدا الفقيه عماد الدين أبو بكر النوقانى الشافعى من أصحاب الامام محمد بن يحيى فسأله ان يكون مدرّسا فى ذلك الجامع وكتب له به منشورا قال وحضر مجاهد الدين قايماز صاحب اربل الى الخدمة النوريه بالموصل وكان دخولهم اياها فى بحبوحة الشتاء فكتب العماد الى بعض كبراء الموصل قصيدة منها

ما يمنع الخادم من قصده الـ ... ـخدمة غير الطرق والوحل

كانما موصلكم مقطع ... ما يهتدى فيه الى وصل

وكل معروف بها منكر ... كما تراه ضيق السبل

وكل من حل بها لا يرى ... فى زمن الخصب سوى المحل

ومذ دخلناها حصلنا بها ... كرها على خرج بلا دخل

أصعب ما نلقاه من أهلها ... قول بلا اهل ولا سهل

وكنت أهواها ولكنني ... لقيت منها كل ما يسلى

وأنت من أصبح احسانه ... حلية هذا الزمن العطل

قال وعاد نورالدين الى سنجار فأعاد عمارة اسوارها ثم أتى حرّان وقد اقتطعها عن صاحب الموصل هى ونصيبين والخابور والمجدل ووصل حلب فى خامس رجب قال ابن شدّاد دخل حلب فى شعبان وزوّج صاحب الموصل ابنته قال العماد وفوّض القضاء والحكم بنصيبين وسنجار والخابور الى الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون فولى بها نوابه وحكم فيها أصحابه وقال القاضى ابن شدّاد لما صارت الموصل الى سيف الدين بن أخى نورالدين كان قد استولى عليه وتولى أمر البلد رجل يقال له عبد المسيح كان نصرانيا فاسلم وقيل انه كان باقيا على نصرانيته وله بيعة فى داره وتتبع أرباب العلم والدين فشتتهم وأبعدهم وأذى المسلمين فبلغ نورالدين ذلك وكتب له قصص فى ذلك فسار ونزل

على الموصل من جانب الشط والشط بينه وبينها وقال لا أقاتل هذه البلدة وأهتك حرمتها وهي لولدي وراسل سيف الدين وقال له أنا لبس مقصودي البلد وانما مقصودي حفظ البلد لك فانه قد كتب الى فى عبد المسيح كذا كذا ألف قصة بما يفعل مع المسلمين وأنا مقصودي أزيل هذا النصراني عن ولاية المسلمين قال وعبد المسيح يدبر البلد ويدور فيه والامر اليه وبذل الصلح لنور الدين فقال نور الدين أنا قد جئت ولا بد لى من دخول البلد فقال نعم لا يدخل الا من باب السر فقال نور الدين ما أدخل الا من باب السر فجرت بين نور الدين وبين ابن أخيه مراسلات الى ان علم ان نيته صالحة فصالحه فى السر وركب عبد المسيح وخرج بدر بين السورين فجاءه بعض أصحابه وقال له أنت نائم ودمك قد راح وأنت غافل فقال ما الخبر فقال سيف الدين قد صالح عمه وأنت فى مقابلة نور الدين فجاء ودخل على سيف الدين والقى شربوشه بين يديه وقال له أنت قد صالحت عمك وقد علمت ما عملت فى حفظ بلدك ومالى طاقة بمقابلة نور الدين فالله الله فى دمى فقال له مالى طاقة بدفعه عنك ولكن عليك بالشيخ عمر الملا فقال والله لو مضيت اليه لم يفتح لى لعلمه بما جرى منه فى حق المسلمين ولكن تشير أنت اليه فانفذ سيف الدين اليه واستحضره وكان معتكفا فقال له ما الخبر فقال سيف الدين لعبد المسيح منك اليه فوقف بين يديه يبكى فالتفت اليه الشيخ عمر وقال من يعادى الرجال يبكى مثل النساء فقال له قد تمسكت بك واطلب منك حقن دمى فقال أنت أمن على دمك فقال وعلى مالى فقال وعلى مالك فقال وعلى اهلى فقال وعلى أهلك وكان شرف الدين بن أبى عصرون مع نور الدين حينئذ فقال سيف الدين لعمر الملا ولما تحلف نور الدين فاحضر الفقهاء وعملوا نسخة يمين لنور الدين ونسخة يمين لعبد المسيح فأخذهما عمر وخرج الى نور الدين فقام نور الدين وخرج من خيمته والتقاه وأكرمه فقال له عمر الناس يعلمون حسن عقيدتك فى وقد خرجت فى كذا وكذا وناوله النسخة التى تتعلق بسيف الدين فقرأها وناولها الابن أبى عصرون فقال نسخة جيدة فقال له الشيخ عمر الملا أى شئ تقول فى هذه النسخة فقال جيده فقال اذا حلف بها على هذا الوجه أليس انها تقع لازمه فقال بلى فقال للحاضرين اشهدوا على الشيخ بذلك يشير الى ان نور الدين كان يجرى منه ايمان فى وقائع وكان ابن أبى عصرون يغنيه بالخروج منها فقيد عليه القول فأجاب نور الدين الى ذلك فقال له قد علم الناس حسن عقيدتك فى وان قولى مسموع عندك وقد خرجت اليك ولا بد لى من ضيافة فقال كيف لى بذلك وأنت لا تأكل طعامى ولا تقبل منى شيئا فقال تحلف لى بهذه النسخة فوقف عليها وتغير وجهه وقال أنا ما جئت الا فى هذا لاخلص المسلمين منه فقال الشيخ عمر فما أطلب منك ان توليه على المسلمين فقال قد أمنته على نفسه فقال وعلى اهله فقال ومن أهله فقال النصارى فقال امنتهم فقال وعلى ماله فقال ومن أين لهذا الكلب مال هذا مملوك لنا فقال قد أعتق وماله له وهو اليوم كان صاحب الموصل قال قد أمنته على ماله فحلف له على ذلك جميعه واستقر الصلح وخرج سيف الدين الى خدمة نور الدين فوقف بين يديه فأكرمه نور الدين وكان وصله خلعة أمير المؤمنين فخلعها عليه فدخل الى الموصل بها وانتقل الى جانب الشط الآخر ولم يدخل الى الموصل الى ان جاء مطر شديد جدا فدخل من باب السر اليها وأقام بها مدة ورتب أمورها وولى فيها كمشتكين فرأى النبى صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وهو يقول له جئت الى بلدك وطاب لك المقام به وتركت الجهاد وقتال أعداء الدين فاستيقظ من منامه وسار سحرة ذلك اليوم ولم يلبث ولم يعلم به أكثر الناس حتى خرج ولحقوه رحمه الله

﴿فصل﴾ وصل الخبر بموت الامام المستنجد بالله أبى المظفر يوسف بن المقتفى بالله ونور الدين مخيم بشرقى الموصل بتل توبه وكانت وفاته يوم السبت تاسع ربيع الآخر وبويع ابنه المستضىء بأمر الله أبو محمد الحسن وكان مولد المستنجد بالله مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة وكانت خلافته احدى عشرة سنة وستة أيام وهو الثانى والثلاثون من خلفاء بنى العباس وهذا العدد له بحساب الجمل اللام والبا وفيه يقول بعض الادبا

أصبحت لب بنى العباس كلهم ✽ ان عددت بحساب الجمل الخلفا

وكان اسمر تام القامة طويل اللحية وكان من احسن الخلفاء سيرة مع الرعية كان عادلا فيهم كثير الرفق بهم وأطلق من المكوس كثيرا ولم يترك بالعراق مكسا وكان شديدا على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس قال ابن الاثير بلغنى انه قبض على انسان كان يسعى بالناس ويكتب فيهم السعايات فأطال حبسه فحضر بعض أصحابه يشفع فيه وبذل

عنه عشرة آلف دينار فقال له انا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لى انه انا آخو مثلها احبسه لا كف شره عن الناس
وفى أيامه توفى شيخ الشيوخ اسماعيل ابن أبى سعد وصار بعده ابنه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ وذلك سنة احدى وأربعين وفى سنة ثمان وأربعين توفى محمد بن نصر القيسرانى وأحمد بن منير الشاعران وقد تقدم ذلك وفى سنة تسع وأربعين توفى الحكيم أبو الحكم الشاعر الاندلسى وفى سنة احدى وخمسين توفى الواوا الشاعر الحلبى وفى سنة ثلاث وستين توفى الشيخ أبو النجيب الصوفى الفقيه الواعظ قال العماد وجاءنا رسل دار الخلافة مبشرين بخلافة المستضىء واتفق ذلك يوم عبور دجلة وركب يوم النزول على تل توبة فى الاهبة السوداء واليد البيضاء وذلك بمرأى ومنظر من أهل الموصل الحدباء ثم أرسل الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون الى بغداد نائبا عنه فى خدمة الامام ومما نظمه العماد فيه

قد أضاء الزمان بالمستضىء * وارث البرد وابن عم النبىّ
جاء بالحق والشريعة والعدل فيا مرحبا بهذا المجىّ
فهنيئا لاهل بغداد فازوا * بعد بؤس بكل عيش هنىّ
ومضىّ ان كان فى الزمن المظلم فالعود فى الزمان المضىّ

وله من قصيدة أخرى

لهفى على زمن الشباب فاننى * بسوى التأسف عنه لم اتعوض
نقضت عهود الغانيات وانها * لولا نقاء شيبتى لم تنقض
يا حسن أيام الصبا وكأنها * أيام مولانا الامام المستضى
ذو البهجة الزهراء يشرق نورها * والطلعة الغراء والوجه الوضى
قسم السعادة والشقاوة بيننا * فى الخلق بين محبه والمبغض
فضل الخلائف والخلائق بالتقى * والفضل والافضال والخلق الرضى
فانعم أمير المؤمنين بدولة * ماتنتهى وسعادة ماتنقضى

قال ووصل نور الدين رحمه الله تعالى الى دمشق وأدّى فرض الصيام وخرج بعد العيد الى الخيام وأخرج سرادقه الى جسر الخشب وسرنا الى عشترا ثم ذكر العماد هنا سرية صاحب البيرة الارتقى باللبوة وقد مضت فى أخبار سنة خمس وستين فثم ذكرها ابن الاثير

(فصل) فيما جرى بمصر فى هذه السنة قال العماد كان بمصر حبس للشحن يعرف بدار المعونة فأعادها صلاح الدين مدرسة للشافعية فى أول سنة ست وستين وعمل فى النصف من المحرم دار الغزل مدرسة للمالكية وولى صدر الدين عبد الملك بن درباس القضاء والحكم بمصر والقاهرة وأعمالها وذلك فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة ثم خرج الى الغزاة وأغار على الرملة وعسقلان وهجم ربض غزة ثم رجع الى القاهرة ثم وصله الخبر بخروج قافلة من دمشق فيها أهله فاشفق عليها وأحب ان يجتمع بها شمله فخرج فى النصف من ربيع الاوّل وكانت بايلة قلعة فى البحر قد حصنها أهل الكفر فعمل لها مراكب وحملها الى ساحلها على الجمال وركبها الصناع هنالك وشحنها بالرجال وفتح القلعة فى العشر الاوّل من ربيع الآخر واستباح بالقتل والاسر اهلها وملأها بالعدد والعدد وحصنها باهل الجلاد والجلد واجتمع بأهله عليها وسار بهم على سمت القاهرة ودخلوا فى السادس والعشرين من جمادى الاولى اليها وسار الى الاسكندرية فى الثالث والعشرين من شعبان ليشاهدها ويرتب قواعدها وهى أوّل دفعة سار اليها فى أيام سلطانه وعم أهلها باحسانه وأمر بعمارة أسوارها وابراجها وابدانها وفى النصف من شعبان اشترى تقى الدين عمر بن شاهنشاه وهو ابن أخى صلاح الدين منازل العز بمصر وجعلها مدرسة للشافعية واشترى الروضة وحمام الذهب وغيرهما من الاملاك ووقفها عليها وفى النصف من جمادى الآخرة أغار شمس الدولة أخو السلطان بالصعيد على العربان ثم دخل القاهرة فى عاشر شهر رمضان وفى الثالث والعشرين من جمادى الآخرة توفى القاضى الموفق أبو الحجاج يوسف بن الخلال وكان من الاماثل الافاضل ولم يزل صاحب ديوان الانشاء الى ان كبر وكان الاجل الفاضل يوصل اليه كل ما كان له وقام بمدة حياته بكرم عهده ويكفله وقال فى الخريدة هو ناظر ديوان

مصر وانسان ناظره وجاء مع مفاخره وكان اليه الانشا وله قوة على الترسل يكتب ما يشاء عاش كثيرا وعطل فى آخر عمره واضرّ ولزم بيته الى ان تعوّض منه القبر ومن شعره

يا أخا الغرّة حسب الدهر من ❊ عظة المغرور ما أصبح يبدى
تؤثر الدنيا فهل نلت بها ❊ لحظة تخلص من همّ وكد

قلت وذكر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد المعروف بابن الاثير الجزرى فى أوّل كتابه المسمى بالوشى المرقوم فى حل المنظوم قال حدّثنى عبد الرحيم بن على البيسانى رحمه الله بمدينة دمشق فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة قال كان فن الكتابة بمصر فى زمن بنى عبيد غضا طريا وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكانا وبيانا ويقيم لسلطانه بقلمه سلطانا وكان من العادة انّ كلا من أرباب الدواوين اذا نشأ له ولد وشدا شيئا من علم الادب احضره الى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويرى ويسمع قال فأرسلنى والدى وكان اذ ذاك قاضيا بثغر عسقلان الى الديار المصرية فى أيام الحافظ وهو أحد خلفائها وأمرنى بالمصير الى ديوان المكاتبات وكان الذى يرأس به فى تلك الايام رجلا يقال له ابن الخلال فلما حضرت الديوان ومثلت بين يديه وعرفته من أنا وما طلبى رحب بى وسهل ثم قال ما الذى أعددت لفن الكتابة من الآلات فقلت ليس عندى شئ سوى انى أحفظ القرآن العزيز وكتاب الحماسة فقال وفى هذا بلاغ ثم أمرنى بملازمته فتردّدت اليه وتدرّبت بين يديه ثم أمرنى بعد ذلك ان احل شعر الحماسة فحللته من أوّله الى آخره ثم أمرنى ان أحله مرّة ثانية فحللته

وقال ابن أبى طى فى هذه السنة شرع السلطان يعنى صلاح الدين فى عمارة سور القاهرة لانه كان قد تهدّم أكثره وسار طريقا لا يرد داخلا ولا خارجا وولاه لقراقوش الخادم وقبض على القصورة وسلمها اليه وأمر بتغيير شعار الاسماعيلية وقطع من الاذان حى على خير العمل وشرع فى تمهيد أسباب الخطبة لبنى العباس وفيها طلب شمس الدولة من أخيه السلطان ربع الكامل بالقاهرة وازداد على اقطاعه بوش وأعمال الجيزة وسمنود وغيرها قلت وقد وقفت على كتاب فاضلى وصف فيه غزاة غزاها صلاح الدين رحمه الله فى زمان وزارته وكان الكتاب الى مدينة قوص وأظن هذه الغزاة هى التى أشار اليها العماد فى اثناء كلامه السابق أوّل الكتاب (وانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) وفيه (توجهنا من بركة الجب يوم الخميس الخامس عشر من ربيع الاوّل ووصلنا بتاريخ السابع والعشرين من الشهر المذكور والعساكر بالسهل والوعر منتظمه والهمم على السهل والصعب مزدحمه وجنود الله فى الارض المعلمة قد أيدتها جنود السماء المسومه وصابحنا الدير يوم الاربعاء بقتال جعل كل من فى حصن الدير راهبا ونصبنا عليه منجنيقا لا يزال بشهاب القذف ضاربا فلما تعالى النهار ملكنا ربضه وأطلقنا فيه النيران ورملنا الرجال بالدم وارملنا النسوان وزحفنا الى ابراجه وهى ابراج قد استعدت للبلاء جلبابا فجعلنا الكل واحد جورة مفردة وبابا وسرحنا اليهم رسل المنايا من النشاب وقصدنا أحد الابراج والبيوت تؤتى فى الحرب من غير الابواب وتقدّمت اليها نقابة الحلبية فباتت ليلتها تساوره وتراجعه بالسنة المعاول وتشاوره واسفر الصبح وقد أمكن تعليقه وتيسر تحريقه فأودعنا تلك العقود آلات الوقود فلم يكن الا مقدار اشتعالها حتى خرّ صريعا سريعا وعفر بين أيدينا سامعا مطيعا وانتذمت الرجال على أحجاره وتواثبت الى أمثاله من الابراج وأنظاره فحصلت فى القبضه وعجز من كان فيها عن النهضه واحتكم فيها العذاب بالسيف والنار وضاق عليهم مجال النفس والقرار واستقبلنا يوم الخميس نقب القلعة وتقديم المنجنيق وتيسير السبيل للقتال وتخليص الطريق هذا والسلوب والنهوب قد امتارت منها العساكر وخرجت فيها مكنونات الذخائر وأشبه اليوم يوم تبلى السرائر وطهر الارض منهم بالدم المائر فلما كان بكرة الجمعة وردتنا الاخبار بأن الملك قد زحف من غزة فى فارسه وراجله ورامحه ونابله وحشود دياره وجنود أنصاره فركبنا مستبشرين بزحفه موقنين بحتفه ولقيناه فاحطنا من بين يديه ومن خلفه وناوشته الخيل الطراد واحدقت به احداق الاغلال بالاجياد وانتظرت حملته التى كانت لها قبل ذلك اليوم موقع وصدمته التى لها من رجال الحرب موضع فملأ الله قلبه رعبا وثنى صدقه كذبا ولم يزل يخاتل ولا يقاتل ويواصل المسير ولا يطاول والقتل فى أعقابه وأيدى السيوف وسواعد الرماح لاتنى فى عقابه حتى تحصل فى الدير هو وخيله ورجله ولم يبق له من ملك الشام الا ما وطئته رجله

فناصبناه

فناصبناه الحصار فى ليلة السبت مستهل ربيع الآخر بالركوب اليه والوقوف عليه لعله يبرز ويبارز ويخرج ولا يحاجز فخرست غماغمه واستذابت ضراغمه فتركناه وراء ظهورنا وجعلنا بلاده امام صدورنا ذكانا فى توليته مرضين لله سبحانه لا مغضبين وفى تركه وراء ظهورنا ومباعدته من الله متقربين و واجهنا غزة بعساكرنا المنصوره وأطفنا بها فى أحسن صوره وهى على ماعلم من كونها بكرالم تفترعها الحوادث وحصانالم يطمثها أمل طامث هى معقل الداوية الذين هم جمرة الشرك وداهية الافك وأبى الله بنيانها من القواعد وأنجز فيها من النصر صادق المواعد ووردناها بأيمن الموارد وفتحناها من عدة جوانب ووطئناها واذاهى كامس الذاهب فألقت الينا أفلاذ كبدها وذخيرة يدها فمن بين مواش بخراب البلاد التى منها خرجت وخيول مسوّمة كأنها الركوب أسرجت وألجمت وحوامل أثقال وزوامل خففت عن عساكرنا وفرّجت وميرة كثيرة تمكنت منها يد الاجناد وأفرجت وأسارى المسلمين فكوا من القيد والقد وأنقذوا بلطف الله من سوء المكيدة وشدّة الجهد فأما الرؤس المقطوعه وأسارى الفرنج الذين أيديهم الى أعناقهم مجموعه فان الفضاء الفضى تعصفر من دمائهم وتذهب وجرى منها مابه اضطرم وقد الجحيم وتلهب وفى الحال أمرنا بالنار ان تشتغل بها وتشتعل وبالهدم ان ينقل عنها معاوله وينتقل فهل ترى لهم من باقيه أو تنظر الاطلولا على عروشها خاويه وعراصا من سكانها خاليه قدبقيت عبرة للعابر وذكرى للذاكر وموعظة سارة للمسلم مرغمة للكافر ثم عدنا بقية يوم السبت الى الملك خذله الله راجين ان يحمله الشكل على الاقدام ويخرجه حرّ النار الى مقام الانتقام فاذا شيطانه قد نصحه وقتل أصحابه قد جرحه فتبنا عليه والاسنة بفراره تعيره واستتاره يقرّعه ويقرره وأصبحنا يوم الاحد ثانى شهر ربيع الآخر والكسب قد أثقل المقاتله ونصر الله قد بلغ الغاية المستأصله ورحلنا والسلامة لصغير عسكرنا وكبيره شامله والعدوّ قد غزى فى عقره وعقر وأذل فى دار ملكه وأحتقر ووصلنا الى مستقر سلطاننا فى يوم الاثنين الحادى عشر من الشهر المذكور فاستقبلنا من مولانا صلوات الله عليه وتشريفه واستقبال ركابه ومشافهتنا بقبول دعائه الشريف ومجابه ماعظمت به النعم وجلت وزالت به وعثاء الطريق وتجلت وجادتها سماء انعامه التى لم تزل تجود ناواستهلت قلت ومن قصيدة لعمارة فى مدح صلاح الدين أوّلها (فؤاد بنار الشوق والوجد محرق) يقول فيها

لعل بنى أيوب ان علموا بما * تظلمت منه ان يرقوا ويشفقوا
غزوا عقر دار المشركين بغزة * جهارا وطرف الشرك خزيان مطرق
وزاروا مصلى عسقلان بارعن * يفيض اناء البر منه ويفهق
وكانت على ماشاهد الناس قبلهم * طرائق من شوك القنا ليس تطرق
وماعصمتهم منك الامعاقل * تأنوا على تحصينها وتأنقوا
جلبت لهم من سورة الحرب ما التقى * بوادره سور عليهم وخندق
وأخربت من أعمالهم كل عامر * يمرّ به طيف الخيال فيفرق
أضفت الى أجر الجهاد زيارة الـ * ـخليل فأبشر انت غاز موفق
وهيجت للبيت المقدس لوعة * يطول بها منه اليك التشوق
تنشق من ملقاك أعظم نفحة * تطيب على قلب الهدى حين تنشق
وغزوك هذا سلم نحو فتحه * قريبا والا رائد ومطرق
هو البيت ان تفتحه والله فاعل * فمابعده باب من الشام مغلق

(ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة) ففاستفتحها صلاح الدين رحمه الله باقامة الخطبة فى الجمعة الاولى منها بمصر لبنى العباس وفى الجمعة الثانية خطب لهم بالقاهرة وانقطع ذكر خلفاء مصر وتوفى العاضد يوم عاشوراء بالقصر انقضت تلك الدولة بانتهاء مادام لها من العصر وذكر العماد أيضا فى أخبار سنة اثنتين وسبعين كما سيأتى ان الذى خطب بمصر لبنى العباس أولا هو أبو عبد الله محمد بن المحسن بن الحسين بن أبى المضا البعلبكى وذكر ذلك أيضا ابن الدبيثى فى تاريخه وقد أشار اليه القاضى الفاضل فى كتاب له الى وزير بغداد سيأتى ذكره قال ابن الاثير كان السبب فى ذلك ان

صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبتت قدمه فى مصر وزال المخالفون له وضعف أمر العاضد وهو الخليفة بها ولم يبق من العساكر المصرية أحد كتب اليه الملك العادل نور الدين محمود يأمره بقطع الخطبة العاضديه واقامة الخطبة العباسيه فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة الى ذلك لميلهم الى العلويين فلم يصغ نور الدين الى قوله وأرسل اليه يلزمه بذلك الزاما لا فسحة له فيه واتفق ان العاضد مرض وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة له فاستشار الامراء كيف يكون الابتداء بالخطبة العباسية فمنهم من أقدم على المساعدة واشار بها ومنهم من خاف ذلك الا انه لم يمكنه الا امتثال أمر نور الدين وكان قد دخل الى مصر انسان اعجمى يعرف بالامير العالم وقد رأيناه بالموصل كثيرا فلما رأى ما هم فيه من الاحجام قال انا ابتدى بها فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضىء بامر الله فلم ينكر ذلك أحد عليه فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد واقامة الخطبة للمستضىء بامر الله ففعلوا ذلك ولم ينتطح فيها عنزان وكتب بذلك الى سائر الديار المصرية وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك وقالوا ان سلم فهو يعلم وان توفى فلا ينبغى ان ننغص عليه هذه الايام التى قد بقيت من أجله فتوفى فى يوم عاشوراء ولم يعلم قال ولما توفى جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصره وعلى جميع ما فيه وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش وهو خصى لحفظه وجعله كاستباذ دار العاضد فحفظ ما فيه حتى تسلمه صلاح الدين ونقل أهل العاضد الى مكان منفرد ووكل لحفظهم وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم فى الايوان فى القصر وجعل عندهم من يحفظهم وأخرج من كان بالقصر من العبيد والاماء فاعتق البعض ووهب البعض واباع البعض واخلى القصر من أهله وسكانه فسبحان من لا يزول ملكه ولا يغيره مر الايام وتعاقب الدهور قال ولما اشتد مرض العاضد أرسل يستدعى صلاح الدين فظن ان ذلك خديعة فلم يمض اليه فلما توفى علم صدقه فندم على تخلفه عنه قلت أخبرنى الامير أبو الفتوح بن العاضد وقد اجتمعت به سنة ثمان وعشرين وستمائة وهو محبوس مقيد بقلعة الجبل بمصر ان أباه فى مرضه استدعى صلاح الدين فحضر قال وأحضرنا يعنى اولاده وهم جماعة صغار فاوصاه بنا فالتزم أكرامنا واحترامنا رحمه الله وأما ندم صلاح الدين فبلغنى انه كان على استعجاله بقطع خطبته وهو مريض وقال لو علمت انه يموت من هذا المرض ما قطعتها الى ان يموت قال العماد وجلس السلطان للعزاء واغرب فى الحزن والبكاء وبلغ الغاية فى اجمال أمره والتوديع له الى قبره ثم تسلم القصر بما فيه من خزائنه ودفائنه وكان منذ نافق مؤتمن الخلافة وقتل صرف من هو زمام القصر وعزل ووكل بهاء الدين قراقوش بالقصر وجعله زمامه واستنابه مقام نفسه واقامه فما دخل الى القصر شئ ولا خرج الا برأى منه ومسمع ولا حصل أهل القصر بعد ذلك على صفو مشرع فلما توفى العاضد بطلت تلك القواعد ووهت المعاقد وأمر السلطان بالاحتياط على أهله واولاده فى موضع خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد وقرر ما يكون لهم برسم الكسوات والاقوات والازواد قلت اخبرنى أبو الفتوح انه جعلهم فى دار برجوان فى الحارة المنسوبة اليه بالقاهرة وهى دار كبيرة واسعة كان عيشهم فيها طيبا ثم نقلوا بعد الدولة الصلاحية منها وابعدوا عنها قال العماد وهم الى اليوم فى حفظ قراقوش واحتياطه واستظهاره يكلؤهم ويحرسهم بعين حزمه فى ليله ونهاره وجمع الباقين من عمومتهم وعترتهم من القصر فى ايوان واحترز عليهم فى ذلك المكان بكل امكان وابعد عنهم النساء لئلا يتناسلوا فيكثروا وهم الى الآن محصورون محسورون لم يظهروا وقد نقص عددهم وقلص مددهم ثم عرض من بالقصر من الجوارى والعبيد والعدة والعديد والطريف والتليد فوجد أكثرهن حرائر فاطلقهن وجمع الباقيات فوهبهن وفرقهن واخلى دوره واغلق قصوره وسلط جوده على الموجود وابطل الوزن والعد عن الموزون والمعدود وأخذ كل ما صلح له ولاهله وأمرائه ولخواص مماليكه واوليائه من أخاير الذخائر وزواهر الجواهر ونفائس الملابس ومحاسن العرائس وقلائد الفرائد والدرة اليتيمه والياقوتة العالية الغالية القيمه والمصوغات التبريه والمصنوعات العنبريه والاوانى الفضيه والصوانى الصينيه والمنسوجات المغربيه والممزوجات الذهبيه والمحوكات النضاريه والكرائم واليتائم والعقود والتمائم والنقود والمنظوم والمنضود والمحلول والمشدود والمنعوت والمنحوت والدر والياقوت والحلى والوشى والعبير والحبير والوثير والنثير والعينى والجبينى والبسط والفرش وما لا يعد احصاء ولا يحد استقصاء فوقع فيها الفناء وكشف عنها الغطاء وأسرف فيها العطاء وأطلق البيع

بعد ذلك فى كل حدث وعتيق ولبيس وسحيق وبال واسمال ورخيص وغال وكل منقول ومحمول ومصوغ ومعمول واستمر البيع فيها مدة عشر سنين وتنقلت الى البلاد بايدى المسافرين الواردين والصادرين ونقلت من ديوان العماد بخطه قال ولما وصل خبر موت العاضد الذى كان بمصر فى القصر موسوما بالامر فى ليلة عاشوراء سنة سبع وستين بعد الخطبة بها للمستضىء بالله أمير المؤمنين عملت هذه الابيات فذكر قصيدة منها

توفى العاضد الدعى فما ✽ يفتح ذو بدعة بمصر فما
وعصر فرعونها انقضى وغدا ✽ يوسفها فى الامور محتكما
وانطفأت جمرة الغواة وقد ✽ باخ من الشرك كلما اضطرما
وصار شمل الصلاح ملتئما ✽ بها وعقد السداد منتظما
لما غدا معلنا شعار بنى العباس حقا والباطل اكتتما
وبات داعى التوحيد منتصرا ✽ ومن دعاة الاشراك منتقما
وظل أهل الضلال فى ظلل ✽ داجية من غيابة وعمى
وارتبك الجاهلون فى ظلم ✽ لما أضاءت منابر العلما
وعاد بالمستضىء ممتهدا ✽ بناء حق قد كان منهدما
واعتلت الدولة التى اضطهدت ✽ وانتصر الدين بعد ما اهتضما
واهتز عطف الاسلام من جذل ✽ وافتر ثغر الايمان وابتسما
واستبشرت أوجه الهدى فرحا ✽ فليقرع الكفر سنه ندما
عاد حريم الاعداء منتهك الحمى وفئ الطغاة مقتسما
قصور أهل القصور اخربها ✽ عامر بيت من الكمال سما
ازعج بعد السكون ساكنها ✽ ومات ذلا وانفه رغما

ومن كتاب فاضلى عن السلطان صلاح الدين الى وزير بغداد على يد الخطيب شمس الدين بن أبى المضا فى بعض السنين (كتب الخادم هذه الخدمة من مستقره ودين الولاء مشروع وعلم الجهاد مرفوع وسودد السواد متبوع وحكم السداد بين الامة موضوع وسبب الفساد مقطوع ممنوع وقد توالت الفتوح عربا ويمنا وشاما وصارت البلاد بل الدنيا والشهر بل الدهر حرما حراما فاضحى الدين واحدا بعدما كان اديانا والخلافة اذا ذكر بها اهل الخلاف لم يخروا عليها الاصما وعميانا والبدعة خاشعه والجمعة جامعه والمذلة فى شيع الضلال شائعه ذلك بانهم اتخذوا عباد الله من دونه اولياء وسموا اعداء الله اصفياء وتقطعوا أمرهم بينهم شيعا وفرقوا أمر الامة وكان مجتمعا وكذبوا بالنار فعجلت لهم نار الحتوف ونثرت اقلام الظبا حروف رؤسهم نثر الاقلام للحروف ومزقوا كل ممزق واخذ منهم كل مخنق وقطع دابرهم ووعظ ايهم غابرهم ورغمت انوفهم ومنابرهم وحقت عليهم الكلمة تشريدا وقتلا وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا وليس السيف عمن سواهم من كفار الفرنج بصائم ولا الليل عن سيرا اليهم بنائم ولا خفاء عن المجلس الصاحبى ان من شد عقد خلافه وحلى عقد خلاف وقام بدولة وقعد باخرى قد عجز عنها الاخلاف والاسلاف فانه مفتقر الى أن يشكر ما نصح ويقلد ما فتح ويبلغ ما اقترح ويقدم حقه ولا يطارح ويقرب مكانه وان نزح وتاتيه التشريفات الشريفه وتتواصل اليه امداد التقويات الجليلة اللطيفه وتلبى دعوته بما أقام من دعوه وتوصل غزوته بما وصل من غزوه وترفع دونه الحجب المعترضه وترسل اليه السحب المروضه فكل ذلك تعود عوائده وتبدو فوائده بالدولة التى كشف وجهه لنصرها وجرد سيفه لرفع منارها والقيام بأمرها وقد أتى البيوت من ابوابها وطلب النجعة من سحابها وودعاء ماله الواثقة بجواب كتابها وانهض لايصال ملطفاته وتجير تشريفاته خطيب الخطباء بمصر وهو الذى اختاره لصعود درجة المنبر وقام بالامر قيام من بر واستفتح بلباس السواد الاعظم الذى جمع الله عليه السواد الاعظم املا انه يعود اليه بما يطوى الرجاء فضل عقبه ويخلد الشرف فى عقبه)

ولصاحبنا مجد الدين محمد بن الظهير الاربلى من قصيدة فى مدح بعض ذرية السلطان رحمه الله تعالى

مليك من القوم الذين رماحهم * دعائم هـذا الدين فى كل مشهد
هم نصروا التوحيد نصرا مؤزرا * به عـز فى الآفاق كل موحـد
وهم قهروا اغلب الفرنج ببأسهم * فدانوا لهـم بالرغم لا عن تودد
وردوا الى البيت المقدس نوره * وقد كان فى ليل من الشرك اسود
وهم سهلوا سبل الحجيج وآمنوا * بها الركب خوفا الكافر المتشدد
وقـد ركبت فرسانه بحـرايلة * يخوضون فى بحر من الكيد مزبد
وهم رجعوا مصرا الى دعوة الهدى * بعـزم ورأى فى العظائم محصد
وهم شيدوا اركن الخلافة بالذى * اعادوه من حق طريف ومتلد
وهـم شرفوا قدر المنابر باسمها * وذكر منوط بالرسول محمـــد
وهم وهبوا عز الممالك وا كتفوا * بسمـر العوالى والعلاء المشيد
فسل عن ظباهم يوم حطين كم قضت * بمرماد الله فى كل أصـيد
وضعف حديث العدل والباس والندى * اذا كان عن أيامهم غير مسند

وقال ابن ابى طى الحلبى قد قدمنا ذكر مكاتبة نور الدين والحاحه على صلاح الدين فى اقامة الخطبة بمصر للعباسيين وانه أنفذ اليـه اباه الامير نجم الدين أيوب لاجـل ذلك لما كتب الخليفة المستنجد الى نور الدين فى ذلك ولما ولى ابنه المستضئ اقبل ايضا على مكاتبة نور الدين فيه والح نور الدين عـلى صلاح الدين فى طلبه وافضى به الامر الى انه اتهم صلاح الدين وشنع عليه بسببه وأكثر القول فى ذلك ولما قدم الامير نجم الدين حـداه عـلى فعل ذلك فاعتذر اليه بان احواله لم تستقر بعد وأموره مضطربة واعـداؤه كثيرون وان المصريين لهـم جماعة كبيرة متفرقة فى بلاد مصر من السودان وغيرهم وان هذا الامر ان لم يؤخـذ عـلى التدريج والا فسدت احواله فلما أوقع السلطان الملك النـاصر بالسودان والارمن ونكب امر المصريين وقطع أخبارهم وترك أجناده فى دورهم ثم قطع اقطاع العـاضد وقبض جميـع ما كان بيده من البلاد واستولى على القصور ووكل بها وبمن فيها قراقوش الخادم وخلت له بلاد مصر من معاند ومنابذ ثم شرع وأبطل من الاذان حى على خير العمل وانكر على من يتسم بمذهبهم والانتساب اليهـم فلما رأى اموره مواتيه واعداؤه قليلون شرع حينئذ فى الخطبة لبنى العباس ولما عول عـلى ذلك امر والده الامير نجم الدين بالنزول الى الجامع فى جماعة من اصحابه وامراء دولته وذلك فى اول جمعة من السنة وامره ان يحضر الخطيب اليه ويأمره بما يختاره وانما فعل الملك الناصر ذلك ووكل الامر الى غـيره استظهـارا وخوفا من فادحة ربما طرآت اوعدو ربما ثار فيكون هو معتذرا من ذلك ولما حصل نجم الدين بالجامع أحضر الخطيب وقال له ان ذكرت هذا المقيم بالقصر ضربت عنقك فقـال فلمن أخطب قال للمستضىء العباسى فلما صعد المنبر وخطب ووصـل الى ذكر العـاضد لم يذكر احدا لكنه دعا للائمة المهديين وللسلطان الملك الناصر ونزل فقيل له فى ذلك فقال ماعلمت اسم المستضىء ولا نعوته ولا تقرر معى فى ذلك شئ قبل الجمعة وفى الجمعة الثانية افعل ان شاء الله مايجب فعله فى تحرير الاسم والالقاب على جارى العادة فى مثل ذلك قال وقيل ان العاضد لما اتصل به مافعل من قطع اسمه من الخطبة قال لمن خطب قيـل له لم يخطب لاحد مسمى قال فى الجمعة الاخرى يخطبون لرجل مسمى واتفق انه مات قبل الجمعة الثانية قيل انه افكر واستولى عليه الفكر والهم حتى مات وقيل انه لما سمع انه قطعت خطبته اهتم وقام ليدخل الى داره فعثر وسقط فاقام متعللا خمسة ايام ومات وقيل انه امتص فص خاتمه وكان تحته سم فمات ولما اتصل موته بالملك الناصر قال لو علمنا انه يموت فى هذه الجمعة ماغصصناه برفع اسمه من الخطبة فحكى ان القـاضى الفـاضل قال للسلطان لو علم انكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت أشار الى ان العاضد قتل نفسه وكان موته يوم عاشوراء قال وحكى ابن المارستانى فى سيرة ابن هبيرة الوزير قال ان من عجيب ماجرى فى امر المصريين ان رأى انسان من أهـل بغداد فى سـنة خمس وخمسـين وخمسمائة كأن قمرين أحدهما أنور من الآخر والانور منهما مسامت للقبلة وله لحيـة سوداء فيهـا طول ويهب أدنى نسيم فيحركها وأثر حركتها وظلها فى الارض وكان الرجـل يتعجب من ذلك وكأنه سمع أصوات جماعة يقرؤن بالحـان وأصوات لم يسمع

قط مثلها وكأنه سأل بعض من حضر فقال ما هذا فقالوا قد استبدل الناس بامامهم فقال وكان الرجل استقبل القبلة وهو يدعو الله ان يجعله اماما برّا تقيا واستيقظ الرجل وبلغ هذا المنام ابن هبيرة الوزير اذ ذاك ببغداد فعبر المنام بأن الامام الذى بمصر يستبدل به وتكون الدعوة لبنى العباس لمكان الحية السوداء وقوى هذا عنده حتى كاتب نور الدين حين دخل أسد الدين الى مصر فى أوّل مرة بأنه يظفر بمصر وتكون الخطبة لبنى العباس بها على يده وقيلت فى ذلك الزمان اشعار فى هذا منها قصيدة شمس المعالى أبى الفضائل الحسين بن محمد بن تركان وكان حاجب ابن هبيرة قالها حين سمع تأويله المنام

لتهنك يامولى الانام بشارة ❊ بها سيف دين الله بالحق مرهف
ضربت بها هام الاعادى بهمة ❊ تقاصر عنها السمهرىّ المثقف
بعثت الى شرق البلاد وغربها ❊ بعوثا من الاراء تحيى وتتلف
فقامت مقام السيف والسيف قاطر ❊ ونابت مناب الرمح والرمح يرعف
وقدت لها جيشا من الروع هائلا ❊ الى كل قلب من عداتك يرعف
ملكت به أقصى المغارب عنوة ❊ وكادت بمن فيها المشارق ترجف
ليهنك يامولاى فتحا تتابعت ❊ اليك به خوص الركائب توجف
أخذت به مصرا وقد حال دونها ❊ من الشرك ناس فى لهى الحق تقذف
وقد دنست منها المنابر عصبة ❊ يعاف التقى والدين منهم ويأنف
فطهرها من كل شرك وبدعة ❊ أغرّ غرير بالمكارم يشغف
فعادت بحمد الله باسم امامنا ❊ تتيه على كل البلاد وتشرف
ولا غروان دانت ليوسف مصره ❊ وكانت الى عليائه تتشوّف
تملكها من قبضة الكفر يوسف ❊ وخلصها من عصبة الرفض يوسف

قال يحيى بن أبى طى يريد بيوسف الاوّل يوسف الصديق النبى صلى الله عليه وسلم وبيوسف الثانى المستنجد بالله الخليفة يومئذ وقاله على سبيل الفال ألا تراه قال بعد هذا البيت

فشابهته خلقا وخلقا وعفة ❊ وكل عن الرحمن فى الارض يخلف

وجرى الفال فى البيت باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لان المستنجد مات قبل تغيير الخطبة لبنى العباس وهذا من عجيب الاتفاق قلت وذكر ابن المارستانى فى السيرة المذكورة وكان هذا المنام سببا الى ان كاتب الوزير ابن هبيرة نور الدين بن زنكى يحثه على التعرّض لمصر والبعث اليها واتفق فى أثناء ذلك نوبة شاور وزير صاحب القصر وقدومه هاربا منه الى نور الدين فحرك ذلك ما كان تخمر فى نفسه مما كان كاتبه به ابن هبيرة فاستطلع من شاور الاسباب التى يمكن بها الدخول على المصريين فشرحها وأوضحها فسير اليها أسد الدين كما سبق ذكره قال ولما قطعت خطبة العاضد استطال أهل السنة على الاسماعيلية وتتبعوهم وأذلوهم وصاروا لا يقدرون على الظهور من دورهم واذا وجد أحد من الاتراك مصريا أخذ ثيابه وعظمت الاذية بذلك وجلى أكثر أهل مصر عنها الى البلاد وفرح الناس بذلك وكتبت الكتب به الى الاقطار وتحدّث به السمار ولما وصل خبر ذلك الى نور الدين ندب للبشارة الى بغداد شهاب الدين أبا المعالى المطهر بن أبى عصرون وكتب معه نسخة بشارة تقرأ بكل مدينة يمر بها يقول فيها (اصدرنا هذه المكاتبة الى جميع البلاد الاسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا رتاجه وأوضح لنا منهاجه وهو ما اعتمدناه من اقامة الدعوة الهادية العباسيه بجميع المدن والبلاد والاقطار والامصار المصريه والاسكندرية ومصر والقاهرة وسائر الاطراف الدانية والقاصيه والبادية والحاضره وانتهت الى القريب والبعيد والى قوص وأسوان بأقصى الصعيد وهذا شرف لزماننا هذا وأهله نفتخر به على الازمنة التى مضت من قبله ومابرحت هممنا الى مصر مصروفه وعلى افتتاحها موقوفه وعزائمنا فى اقامة الدعوة الهادية بها ماضيه والاقدار فى الازل بقضاء أرائنا وتنجيز مواعدنا قاضيه حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها وقدرنا عليها وقد عجزوا عنها وطالما مرت عليها الحقب

الخوالى وآبت دونها الايام والليالى وبقيت مائتين وثمانين سنة ممنوة بدعوة المبطلين مملوة بحزب الشياطين سابغة ظلالها للضلال مقفرة المحل الامن المحال مفتقرة الى نصرة من الله بملكها ونظرة ستدركها رافعة يدها فى أشكائها منتظرة اليه ليكفل باعدائها على أعدائها حتى أذن الله انعتها بالانفراج ولعلتها بالعلاج وسبب قصد الفرنج لها وتوجههم اليها طمعا فى الاستيلاء عليها واجتمعا أن الكفر والبدعه وكلاهما شديد الروعه فلك الله تلك البلاد ومكن لنا فى الارض اوقدرنا على ماكنا نؤمله فى ازالة الالحاد والرفض من اقامة الفرض وتقدمنا الى من استنباه ان يستفتح باب السعاده ويستنجح باب مالنا من الاراده ويقيم الدعوة الهادية العباسية هنالك ويورد الادعيا ودعاة الالحاد بها المهالك) وهو كتاب طويل اختصرت منه الغرض وهو هذا قال وسار شهاب الدين بن أبى عصرون الى جهة بغداد ولم يترك مدينة الا دخلها بهذه البشارة الجليلة القدر وقرأ فيها هذا المنشور العظيم الخطر والذكر حتى وصل الى بغداد فخرج الموكب الى تلقيه وجميع أهل بغداد مكرمين لخطير وروده معظمين لجليل مورده ونثرت عليه دنانير الانعام وحبى بكل احسان واكرام وأرسلت التشريفات الى نور الدين وصلاح الدين كما سيأتى ذكره وقال العماد كان صلاح الدين لا يخرج عن أمر نور الدين ويعمل له عمل القوى الامين ويرجع فى جميع مصالحه الى رأيه المتين وقد كان كاتبه نور الدين فى شوال سنة ست وستين بتغير الخطبه وتذليل أمورها الصعبه وافتراع بكر هذه القضية وفرع الرتبه وأيقن ان أمره متبوع وقوله مسموع وحكمه مشروع ونطقت بذلك قبل التمام ألسن الخواص والعوام فسير نور الدين شهاب الدين أبا المعالى المطهر ابن الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون بهذه البشارة واشاعة ماتقدم له بها من الاشاعه وأمرنى بانشاء بشارة عامة تقرأ فى سائر بلاد الاسلام وبشارة خاصة للديوان العزيز بحضرة الامام فى مدينة السلام ثم ذكر نسخة الكتابين ونظمت قصيدة مشتملة على الخطبة بمصر أولها

قد خطبنا للمستضىء بمصر * نائب المصطفى امام العصر
وخذلنا لنصرة العضد العاضد والقاصر الذى بالقصر

أراد بالعضد وزير بغداد عضد الدين بن رئيس الرؤساء قال العماد فى كتاب الخريدة قصدت بالعضد والعاضد المجانسة ونصرة وزير الخليفة كنصرته ثم قال

وأشعنا بها شعار بنى العباس فاستبشرت وجوه النصر
وتركنا الدعى يدعو ثبورا * وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين بالخطبة للهاشمى فى أرض مصر
ولدينا تضاعفت نعم الله وجلت عن كل عد وحصر
فاغتدى الدين ثابت الركن فى مصر محوط الحمى مصون الثغر
واستنارت عزائم الملك العادل نور الدين الكريم الاغر
وبنو الاصفر القوامص منه * بوجوه من المخافة صفر
عرف الحق أهل مصر وكانوا * قبله بين منكر ومقر
قل لداعى الدعى حسبك فالله اقر الحقوق خير مقر
هو فتح بكر ودون البرايا * خصنا الله بافتراع البكر
وحصلنا بالحمد والاجر والنصر وطيب الثنا وحسن الذكر
ونشرنا أعلامنا السود قهرا * للعدى الزرق بالمنايا الحمر
واستعدنا من ادعياء حقوقا * يدعى بينهم لزيد وعمر
والذى يدعى الامامة بالقاهرة انحط فى حضيض القهر
خانه الدهر فى مناه ولا يطمع ذو اللب فى وفاء الدهر
ما يقام الامام الا بحق * ما تحاز الحسناء الا بمهر
خلفاء الهدى سراة بنى العباس والطيبون أهل الطهر

بهم الدين ظافر مستقيم * ظاهر قوة قوى الظهر
شموس الضحى كمثل بدور السم كالسحب كالنجوم الزهر
قد بلغنا بالصبر كل مراد * وبلوغ المراد عقبى الصبر
ليس مثرى الرجال من ملك الما ل ولكنما أخو اللب مثرى
ولهذا لم ينتفع صاحب القصر وقد شارف الدثور بدثر
دام نصر الهدى بملك بنى العباس حتى يقوم يوم الحشر

قال العماد فى ديوانه ونقلته من خطه قال ووصل الخبر بان الخطبة قامت فى الاسكندرية يوم الجمعة سابع شهر رمضان وفى مصر والقاهرة يوم الجمعة ثامن عشرى شهر رمضان لمولانا الامام المستضئ بأمر الله أمير المؤمنين واقامة شعار بنى العباس بها فقلت ونحن نزول بجسر الخشب من دمشق فى عاشر شوال وكتبت بها الى بغداد فذكر هذه القصيدة وقال فى البرق ووصل من دار الخلافة فى جواب هذه البشارة عماد الدين بن صندل وهو من أكابر الخدم المقتفوية من ذوى الروية والهمة القويه وتولى استاذية الدار العزيزة بعد عزل كمال الدين عضد الدين عنها فأكرم نور الدين بارسال مثله اليه وعوّل فى هذا الامر المهم عليه وهو أكرم رسول وصل فانجح الامل وجاء بالتشريف الشريف لنور الدين مكملا معظما مجملا باهبته السوداء العراقيه وحلله الموشيه وطوقه الثقيل ولوائه الجليل وعين يوم يحضر فيه الرسول ونصوا على من يحضر فى مجلس نور الدين واغفلوا ذكر العماد فطلبه نور الدين لما حضروا وقام لقيام الرسل له لما حضر وقصد ان يعرفهم منزلته عنده وناوله الكتاب ليقرأه قال فتناوله منى الموفق بن القيسرانى خالد وكان عنده فى مقام الوزير وله انبساط زائد فداريته وماماريته وتركته يقرأ وأنا أردّ عليه وأرشده فى التلاوة الى مالا يهتدى اليه حتى انهاه وأناعلى افتياته على لأنهاه فأعجب نور الدين صمتى وسمتى وأحمدنى فضل التأنى والتأتى واجتاب الاهبة ولبس الفرجية فوقها وتقلد مع تقلد السيفين طوقها وخرج وركب من داخل القلعة وهو حال بما عليه من الخلعه واللواء منشور والنضار منثور والمركبان الشريفان أحدهما مركوبه والآخر بحليته مجنوبه قال وسألت عن معنى تقليده السيفين فقيل لى هما للشام ومصر والجمع له بين البلادين وخرج الى ظاهر دمشق حتى انتهى الى منتهى الميدان الاخضر ثم عاد شريف المفخر جميل المنظر جليل المحضر حميد المخبر سعيد المورد والمصدر لبيقا بالاعظمين السرير والمنبر وكان وزن الطوق مع أكرته ألف دينار من الذهب الاحمر وحملوا لصلاح الدين تشريفا فاضلا فائقا رائقا لجاله وكماله لائقا لكن تشريف نور الدين أميز وأفضل وأجل وأكمل فسير تشريفه برمته اليه بمصر ليحظى به وسير أيضا بخلع من عنده يكرم بها أصحابه وصلت تلك الخلعة اليه ولبسها وأنس من السعادة الدائمة بقبسها وطاف بها فى الحادى والعشرين من رجب وهى أول أهبة عباسيه دخلت الديار المصريه يعنى بعد استيلاء بنى عبيد عليها قال وكانت وصلت مع الرسل اعلام وبنود ورايات سود واهب عباسيه للخطباء فى الديار المصريه فسيرت الى صلاح الدين ففرقها على المساجد والجوامع والخطباء والقضاة والعلماء والحمد لله على ما أنعم وأولى ووهب وأعطى قال ابن أبى طى ولما فرغ السلطان من أمر الخطابة أمر بالقبض على القصور وجميع ما فيها من مال وذخائر وفرش وسلاح وغير ذلك فلم يوجد من المال كبير أمر لان شاور كان قد ضيعه فى اعطائه الفرنج فى المرات التى قدمنا ذكرها ووجد فيها ذخائر جليلة من ملابس وفرش وخيول وخيام وكتب وجواهر ومن عجيب ما وجد فيه قضيب زمرد طوله شبر وكسر هو قطعة واحدة وكان سمت حجمه مقدار الابهام ووجد فيه طبل للقولنج ووجد فيه أبريق عظيم من الحجر المانع ووجد فيه سبعمائة يتيمة من الجوهر فأما قضيب الزمرد فان السلطان أخذه وأحضر صانعا ليقطعه فأبى الصانع قطعه فرماه السلطان فانقطع ثلاث قطع وفرقه السلطان على نسائه وأما طبل القولنج فانه وقع الى بعض الاكراد فلم يدر ما هو فكسره لانه ضرب به فحبق وأما الابريق فانفذه السلطان الى بغداد واحتاط السلطان على أهل العاضد وأولاده فى موضع فى خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد وقرر لهم ما يكفيهم وجعل أمرهم الى قراقوش الخادم وفرق بين النساء والرجال ليكون ذلك أسرع الى انقراضهم واستعرض من بالقصر من الجوارى والعبيد والعدّة والعديد والطريف والتليد فأطلق من كان منهم حرا وأعتق من رأى اعتاقه ووهب من أراد هبته وفرق على الامراء والاصحاب من نفائس القصر وذخائره شيأ كثيرا

وحصل هو على اليتيمات وقطع البلخش والياقوت وقضيب الزمرد وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق فأقام البيع بالقصر مدة عشر سنين قال ومن جملة ما باعوا خزانة الكتب وكانت من عجائب الدنيا الا انه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر ومن عجائبها انه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري ويقال انها كانت تحتوي على الفي ألف كتاب وكان فيها من الخطوط المنسوبة شيء كثير وحصل للقاضي الفاضل قدر منها كبير حيث شغف بحبها وذلك انه دخل اليها واعتبرها فكل كتاب صلح له قطع جلده ورماه في بركة كانت هناك فلما فرغ الناس من شراء الكتب اشترى تلك الكتب التي ألقاها في البركة على أنها مخرومة ثم جمعها بعد ذلك ومنها حصل ما حصل من الكتب كذا أخبرني جماعة من المصريين منهم الامير شمس الخلافة موسى بن محمد واقتسم الناس بعد ذلك دور القصر وأعطى السلطان القصر الشمالي للامراء فسكنوه وأسكن أباه نجم الدين في اللؤلؤة وهو قصر عظيم على الخليج الذي فيه البستان الكافوري ونقل الملك العادل الى مكان آخر منه وأخذ باقي الامراء مكان دور من كان ينتمي اليهم وزاد الامر حتى صار كل من استحسن دارا اخرج منها صاحبها وسكنها وانقضت تلك الدولة برمتها وذهبت تلك الايام بجملتها بعد ان كانوا قد احتووا على البلاد واستخدموا العباد مائتين وثمانين سنة وكسورا قال وحكى ان الشريف الجليس وهو رجل كان قريبا من العاضد يجلس معه ويحدثه عمل دعوة لشمس الدولة بن أيوب أخي السلطان بعد القبض على القصور وأخذ ما فيها وانقراض دولتهم وغرم هذا الشريف على هذه الدعوة مالا كثيرا وأحضرها أيضا جماعة من أكابر الامراء فلما جلسوا على الطعام قال شمس الدولة لهذا الشريف حدثني بأعجب ما شاهدته من أمر القوم قال نعم طلبني العاضد يوما وجماعة من الندماء فلما دخلنا عليه وجدنا عنده مملوكين من الترك عليهم اقبية مثل أقبيتكم وقلانس كقلانسكم وفي أوساطهم مناطق كمناطقكم فقلنا له يا أمير المؤمنين ماهذا الزي الذي ما رأيناه قط فقال هذه هيئة الذين يملكون ديارنا ويأخذون أموالنا وذخائرنا قال العماد وأخذت ذخائر القصر فقصها كما سبق ثم قال ومن جملتها الكتب فاني أخذت منها جملة في سنة اثنتين وسبعين وكانت خزائنها مشتملة على قريب مائة وعشرين ألف مجلدة مؤبدة من العهد القديم مخلدة وفيها بالخطوط المنسوبة ما اختطفته الايدي واقتطعه التعدي وكانت كالميراث مع أمناء الايتام يتصرف فيها بشره الانتهاب والالتهام ونقلت منها ثمانية احمال الى الشام وتقاسم الخواص بدور القصر وقصوره وشرع كل من سكن في تخريب معموره وانتقل اليه الملك العادل سيف الدين لما ناب عن أخيه واستمرت سكناه فيه وخطب للامام المستضيء في قوص وأسوان والصعيد والقاصي والداني والقريب والبعيد وشاعت البشائر وذاعت المفاخر وسار بها البادي والحاضر وتملك السلطان أملاك أشياعهم وضرب الالواح على دورهم ورباعهم ثم ملكها امراءه وخص بها أولياءه وباع أماكن ووهب مساكن وعفى الآثار القديمه واستأنف السنن الكريمه وقال ابن الاثير لما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره اختار منه ما أراد ووهب أهله وأمراءه وباع منه كثيرا وكان فيه من الجواهر والاعلاق النفيسة مالم يكن عند ملك من الملوك قد جمع على طول السنين وممر الدهور فمنه القضيب الزمرد طوله نحو قبضة ونصف والحبل الياقوت وغيرهما ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد

(فصل) ولما خطب بالديار المصرية لبني العباس ومات العاضد انقرضت تلك الدوله وخلت عن الاسلام بعصر بانقراضها الذله واستولى على مصر صلاح الدين وأهله ونوابه وكلهم من قبل نور الدين رحمه الله هم أمراؤه وخدمه وأصحابه وفيهم يقول العرقله

أصبح الملك بعد آل علي ✻ مشرقا بالملوك من آل شاذي
وغدا الشرق يحسد الغرب للقو ✻ م ومصر تزهو على بغداذ
ماحووها الا بحزم وعزم ✻ وصليل الفولاذ في الفولاذ
لا كفرعون والعزيز ومن كا ✻ ن بها كالخصيب والاستاذ

وعنى بالاستاذ كافور الاخشيدي وقوله بعد آل علي يعني بذلك بني عبيد المستظلين بها أظهروا للناس انهم شرفاء فاطميون

فاطميون فملكوا البلاد وقهروا العباد وقد ذكر جماعة من أكابر العلماء انهم لم يكونوا لذلك أهلا ولا نسبهم صحيحا بل المعروف انهم بنو عبيد وكان والد عبيد هذا من نسل القداح الملحد المجوسي وقيل كان والد عبيد هذا يهوديا من أهل سلمية من بلاد الشام وكان حدادا وعبيد هذا كان اسمه سعيدا فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله وزعم انه علوى فاطمى وادعى نسبا ليس بصحيح لم يذكره أحد من مصنفي الانساب العلوية بل ذكر جماعة من العلماء بالنسب خلافه وهو ما قدمنا ذكره ثم ترقت به الحال الى أن ملك وتسمى بالمهدى وبنى المهدية بالمغرب ونسبت اليه وكان زنديقا خبيثا عدو الاسلام متظاهرا بالتشيع متسترا به حريصا على ازالة الملة الاسلامية قتل من الفقهاء والمحدثين والصالحين جماعة كثيرة وكان قصده اعدامهم من الوجود لتبقى العالم كالبهائم فيتمكن من افساد عقائدهم وضلالتهم والله متم نوره ولو كره الكافرون ونشأت ذريته على ذلك منطوين يجهرون به اذا أمكنتهم الفرصة والا أسروه والدعاة لهم منبثون فى البلاد يضلون من أمكنهم اضلاله من العباد وبقى هذا البلاء على الاسلام من أول دولتهم الى آخرها وذلك من ذى الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين الى سنة سبع وستين وخمسمائة وفى أيامهم كثرت الرافضة واستحكم أمرهم ووضعت المكوس على الناس واقتدى بهم غيرهم وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشام كالنصيرية والدرزية والحشيشية نوع منهم وتمكن رعاتهم منهم لضعف عقولهم وجهلهم مالم يتمكنوا من غيرهم وأخذت الفرنج أكثر البلاد بالشام والجزيرة الى أن من الله على المسلمين بظهور البيت الاتابكى وتقدمه مثل صلاح الدين فاستردوا البلاد وأزالوا هذه الدولة عن ارقاب العباد وكانوا أربعة عشر مستخلفا ثلاثة منهم بافريقية وهم الملقبون بالمهدى والقائم والمنصور واحد عشر بمصر وهم الملقبون بالمعز والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلى والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد يدعون الشرف ونسبتهم الى مجوسي أو يهودى حتى اشتهر لهم ذلك بين العوام فصاروا يقولون الدولة الفاطمية والدولة العلوية وانما هى الدولة المجوسية أو اليهودية الباطنية الملحدة ومن قباحتهم انهم كانوا يأمرون الخطباء بذلك على المنابر ويكتبونه على جدران المساجد وغيرها وخطب عبدهم جوهر الذى أخذ لهم الديار المصرية وبنى لهم القاهرة المعزية بنفسه خطبة طويلة قال فيها (اللهم صل على عبدك ووليك ثمرة النبوة وسليل العترة الهادية المهدية معد أبى تميم الامام المعز لدين الله أمير المؤمنين كما صليت على آبائه الطاهرين وسلفه المنتخبين الائمة الراشدين) كذب عدو الله اللعين فلا خير فيه ولا فى سلفه أجمعين ولا فى ذريته الباقين والعترة النبوية الطاهرة منهم بمعزل رحمة الله عليهم وعلى أمثالهم من الصدر الاول وقد بين نسبهم هذا وأوضح محالهم وما كانوا عليه من التمويه وعداوة الاسلام جماعة ممن سلف من الائمة والعلماء وكل متورع منهم لا يسميهم الا بنى عبيد الادعياء أى يدعون من النسب بما ليس لهم ورحمة الله على القاضى أبى بكر محمد بن الطيب فانه كشف فى أول كتابه المسمى بكشف أسرار الباطنية عن بطلان نسب هؤلاء الى على رضى الله عنه وان القداح الذى انتسبوا اليه دعى من الادعياء ممخرق كذاب وهو أصل دعاة القرامطة لعنهم الله وأما القاضى عبد الجبار البصرى فانه استقصى الكلام فى أصولها وبينها بيانا شافيا فى آخر كتاب تثبيت النبوة له وقد نقلت كلامهما فى ذلك وكلام غيرهما فى مختصر تاريخ دمشق فى ترجمة عبد الرحيم بن الياس وهو من تلك الطائفة الذين هم بئس الناس وهذان اماما كبيران من أئمة أصول دين الاسلام وأظهر عبد الجبار القاضى فى كتابه بعض ما فعلوه من المنكرات والكفريات التى يقف الشعر عند استماعها ولكن لابد من ذكر شئ من ذلك تنفيرا لمن لعله يعتقد امامتهم ويخفى عنه محالهم ولم يعلم قباحتهم ومكابرتهم وليعذر من ازال دولتهم وأمات بدعتهم وقلل عدتهم وأفنى أمتهم وأطفأ جمرتهم ذكر عبد الجبار ان الملقب بالمهدى لعنه الله كان يتخذ الجهال ويسلطهم على أهل الفضل وكان يرسل الى الفقهاء والعلماء فيذبحون فى فرشهم وأرسل الى الروم وسلطهم على المسلمين وأكثر من الجور واستصفاء الاموال وقتل الرجال وكان له دعاة يضلون الناس على قدر طبقاتهم فيقولون لبعضهم (هو المهدى ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحجة الله على خلقه) ويقولون لآخرين (هو رسول الله وحجة الله) ويقولون لاخرى (هو الله الخالق الرازق) لا اله الا الله وحده لا شريك له تبارك سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ولما هلك قام ابنه المسمى بالقائم مقامه وزاد شره على شر ابيه اضعافا

مضاعفة وجاهر بشتم الانبياء فكان ينادى فى أسواق المهدية وغيرها (ألعنوا عائشة و بعلها ألعنوا الغار وما حوى) اللهم صل على نبيك وأصحابه وأزواجه الطاهرين والعن هؤلاء الكفرة الفجرة الملحدين وارحم من أزالهم وكان سبب قلعهم ومن جرى على يديه تفريق جمعهم وأصلهم سعيرا ولقهم ثبورا واسكنهم النار جميعا واجعلهم ممن قلت فيهم الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا (رجعنا الى الاصل) وبعث الى أبى طاهر القرمطى المقيم بالبحرين و حثه على قتل المسلمين واحراق المساجد والمصاحف وقام بعده ابنه المسمى بالمنصور فقتل أبا يزيد مخلدا الذى خرج على أبيه ينكر عليه قبيح فعله المقدّم ذكره وسلخه وصلبه واشتغل بأهل الجبال يقتلهم و يشردهم خوفا من أن يثور عليه ثائر مثل أبى يزيد وقام بعده ابنه الملقب بالمعز فبث دعاته فكانوا يقولون هو المهدى الذى يملك الارض وهو الشمس التى تطلع من مغربها وكان يسره ماينزل بالمسلمين من المصائب من أخذ الروم بلادهم واحتجب عن الناس أياما ثم ظهر وأوهم ان الله رفعه اليه وانه كان غائبا فى السماء وأخبر الناس بأشياء صدرت منهم كان ينقلها اليه جواسيس له فامتلأت قلوب العامة والجهال منه وهذا أول خلف خلفائهم بمصر وهو الذى تنسب اليه القاهرة المعزية واستدعى بفقيه الشام أبى بكر محمد بن أحمد بن سهل الرملى و يعرف بابن النابلسى فحمل اليه فى قفص خشب فأمر بسلخه فسلخ حيا وحشى جلده تبنا وصلب رحمه الله تعالى قال أبوذر الهروى سمعت أبا الحسن الدارقطنى يذكره ويبكى ويقول كان يقول وهو يسلخ كان ذلك فى الكتاب مسطورا قلت وفى أيام الملقب بالحاكم منهم أمر بكتب سب الصحابة رضى الله عنهم على حيطان الجوامع والقياسر والشوارع والطرقات وكتب السجلات الى سائر الاعمال بالسب ثم أمر بقلع ذلك وأنا رأيته مقلوعا فى بعض أبواب دمشق فى الامكنة العليا منقورا فى الحجر ودلنى اول الكلام وآخره على ذلك ثم جدد ذلك الباب وأزيل الحجر وفى أيامه طوف بدمشق برجل مغربى ونودى عليه هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر ثم ضربت عنقه وكان يجرى فى أيامهم من نحو هذا أشياء مثل قطع لسان أبى القاسم الواسطى أحد الصالحين وكان أذن ببيت المقدس وقال فى أذانه حى على الفلاح فأخذ وقطع لسانه ذكر ذلك وما قبله من قتل المغربى وأبى بكر النابلسى الحافظ أبو القاسم فى تاريخه وما كانت ولاية هؤلاء الملاعين الامحنة من الله تعالى ولهذا طالت مدتهم مع قلة عدتهم فان عدتهم عدة خلفاء بنى أمية أربعة عشر وأولئك بقوا نيفا وتسعين سنة وهؤلاء بقوا مائتى سنة وثمانيا وستين سنة فالحمد لله على مايسر من هلكهم وابادة ملكهم ورضى الله عمن سعى فى ذلك وازالهم ورحم من بين مخرقتهم وكذبهم ومحالهم وقد كشف أيضا حالهم الامام أبو القسم عبد الرحمن بن على بن نصر الشاسى فى كتاب الرد على الباطنية وذكر قبائح ما كانوا عليه من الكفر والمنكرات والفواحش فى أيام نزار وما بعده ووصل الامر الى ان وصف بعضهم ما كانوا فيه فى قصيدة سماها الايضاح عن دعوة القداح أولها

حى على مصر الى خلع الرسن ❁ فثم تعطيل فروض وسنن

وقال لو وفق ملوك الاسلام لصرفوا أعنة الخيل الى مصر لغزو الباطنية الملاعين فانهم من شر اعداء دين الاسلام وقد خرجت من حد المنافقين الى حد المجاهرين لما ظهر فى ممالك الاسلام من كفرها وفسادها وتعين على الكافه فرض جهادها وضرر هؤلاء أشد على الاسلام وأهله من ضرر الكفار اذ لم يقم بجهادها أحد الى هذه الغاية مع العلم بعظيم ضررها وفسادها فى الارض قلت ثم انى لم يقنعنى هذا من بيان أحوالهم فأفردت كتابا لذلك سميته كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيد فمن أراد الوقوف على تفاصيل أحوالهم فعليه به فانى بتوفيق الله تعالى جمعت فيه ماذكره هؤلاء الائمة المصنفون وغيرهم ووقفت على كتاب كبير صنفه الشريف الهاشمى رحمه الله وكان فى أيام الملقب بالعزيز ثانى خلفاء مصر فبين فيه أصولهم اتم بيان وأوضح كيفية ظهورهم وغلبتهم على البلاد وتتبع ذكر فضائحهم وما كان يصدر منهم من انواع الزندقه والفسق والخرقه فنقلت منه الى ما كنت جمعته قطعة كبيرة وبالله التوفيق وما أحسن ماقال فيهم بعض من مدح بنى أيوب بقصيدة منها

ألستم مزيلى دولة الكفر من بنى ❁ عبيد بمصر ان هذا هو الفضل
زنادقة شيعية باطنية ❁ مجوس وما فى الصالحين لهم أصل
يسرون كفرا يظهرون تشيعا ❁ ليستتروا شيئا وعمهم الجهل

اما فعله هؤلاء من الانتساب الى على رضوان الله عليه والتستر بالتشيع قد فعله جماعة القرامطة وصاحب الزنج والخارج بالبصرة وغيرهم من المفسدين فى الارض على ما عرف من سيرهم من وقف على اخبار الناس وكلهم كذبة فى ذلك وانما غرضهم التقرب الى العوام والجهال واستتباعهم لهم واستجلابهم الى دعوتهم بذلك البلاء ويفعل الله ما يشاء ولا يغتر بابيات الشريف الرضى فى ذلك فقد حصل الجواب عنها فى كتاب الكشف بوجوه حسنة وبالله التوفيق وقد صنف الشريف العابد الدمشقى رحمه الله كتابا فى ابطال نسبهم الى على بن أبى طالب رضى الله عنه وفصل ذلك تفصيلا حسنا وأطنب فى ذكر أخبار اخوانهم من القرامطة لعنهم الله تعالى

(فصل) فى ذكر غزو الفرنج فى هذه السنة قال ابن شداد واستمرت القواعد على الاستقامة وصلاح الدين كلما استولى على خزانة مال وهبها وكلما فتح له خزائن ملك انهبها ولا يبقى لنفسه شيئا وشرع فى التأهب للغزاة وقصد بلاد العدو وتعبية الامر لذلك وتقرير قواعده وأما نور الدين فانه عزم على الغزاة واستدعى صاحب الموصل ابن أخيه فوصل بالعساكر الى خدمته وكانت غزوة عرقا فأخذها نور الدين ومعه ابن أخيه فى المحرم سنة سبع وستين وقال ابن أبى طى جمع نور الدين عساكره وخرج الى عرقة ونازلها وقاتلها أياما حتى فتحها واحتوى على جميع ما فيها وغنم الناس غنيمة عظيمة قال ابن الاثير خرجت مراكب من مصر الى الشام فأخذ الفرنج فى اللاذقية مركبين منها مملوءتين من الامتعة والتجار وغدروا بالمسلمين وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا فلما سمع نور الدين الخبر استعظمه وراسل الفرنج فى ذلك وأمرهم باعادة ما أخذوه فغالطوه واحتجوا بأمور منها ان المركبين كانا قد دخلهما ماء البحر لكسر فيهما وكانت العادة بينهم أخذ كل مركب يدخله الماء وكانوا كاذبين فلم يقبل مغالطتهم وكان رضى الله عنه لا يهمل أمرا من أمور رعيته فلم يردوا شيئا فجمع العساكر من الشام والموصل والجزيرة وبث السرايا فى بلادهم بعضهم نحو انطاكية وبعضهم نحو طرابلس وحصر هو حصن عرقة واخرب ربضه وارسل طائفة من العسكر الى حصنى صافيثا وعريمة فأخذهما عنوة وكذلك غيرهما ونهب وخرب وغنم المسلمون الكثير وعادوا اليه وهو بعرقة فسار فى العساكر جميعها الى قريب طرابلس يخرب ويحرق وينهب وأما الذين ساروا الى انطاكية فانهم فعلوا فى ولايتها مثل ما فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس فراسله الفرنج وبذلوا اعادة ما أخذوه من المركبين ويجدد معهم الهدنة فأجابهم وكانوا فى ذلك كما يقال اليهودى لا يعطى الجزية حتى يلطم فكذلك الفرنج ما أعادوا أموال التجار بالتى هى أحسن فلما نهبت بلادهم وخربت أعادوها قال وكان لوالدى فى المركبين تجارة مع شخصين فلما أعادوا الى الناس أموالهم لم يصل الى كل انسان الا اليسير وكان يحمل المتاع فكل من كان اسمه عليه أو على ثوب أخذه وكان فى الناس من يأخذ ما ليس له وكان أحد هذين المضاربين فيه أمانة وكان نصرانيا فلم يأخذ الا ما عليه اسمه وعلامته فذهب من ماله ومالنا شئ كثير بهذا السبب وكان الذى حصل من مالنا أكثر من الذى حصل له فلما عاد الينا سلم الذى لنا الى والدى فامتنع من أخذه وقال خذ أنت الجميع فانك أحوج اليه وأنا فى غنى عنه فلم يفعل فقال خذ النصف وأنا النصف واجتهد به الدى فلم يفعل فلما كان بعض الايام واذ قد جاء الغلام ومعه عدة من الاثواب السوسية وغيرها وقال هذا من قاشنا وحضر اليوم وسبب حضوره ان انسانا فقاعيا من أهل تبريز كان معنا فى المركب وقد أعادوا عليه ماله فرأى هذه الاثواب واسمى عليها فلم يسهل عليه ان يردها يعنى عليهم وسأل عنى وقد قصدنى وهى معى وحضر عندى الساعة يسلمها الى وقال قد تركت طريقى لتبرأ ذمتى فأخذنا نحن ما عليه اسمنا بعد الجهد وطلب والدى الرجل وسأله ان يقيم عندنا ليسلم اليه مالا يتجر فيه فلم يفعل وعاد الى بلده قال وهذان الرجلان نادران فى هذا الزمان

(فصل) فى عزم نور الدين على الدخول الى مصر قال العماد وكان صلاح الدين واعده نور الدين ان يجتمعوا على الكرك والشوبك يتشاوران فيما يعود بالصلاح المشترك فخرج من القاهرة فى الثانى والعشرين من المحرم بالعزم الاجزم والرأى الاحزم فاتفق للاجتماع عائق ولم يقدر للاتفاق قدر موافق فلقى فى تلك السفرة شدة وعدم خيلا وظهرا بعده وعاد الى القاهرة فى النصف من ربيع الاول قال ابن الاثير وفى سنة سبع وستين أيضا جرى ما أوجب نفرة نور الدين من صلاح الدين وكان الحادث ان نور الدين أرسل الى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها الى بلاد الفرنج والنزول على الكرك ومحاصرته ليجمع هو أيضا عساكره ويسير اليه ويجتمعا هناك على حرب الفرنج

والاستيلاء على بلادهم فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرم وكتب الى نور الدين يعرّفه ان رحيله لا يتأخر وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو فلما أتاه الخبر بذلك رحل من دمشق عازما على قصد الكرك فوصل اليه وأقام ينتظر وصول صلاح الدين اليه فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول باختلال البلاد وانه يخاف عليها مع البعد عنها فعاد اليها فلم يقبل نور الدين عذره وكان سبب تقاعده ان أصحابه وخواصه خوّفوه من الاجتماع بنور الدين فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده وعزم على الدخول الى مصر واخراج صلاح الدين عنها فبلغ الخبر الى صلاح الدين فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الامراء وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين على قصده وأخذ مصر منه واستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشئ فقام ابن أخيه تقي الدين عمر وقال اذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن البلاد ووافقه غيره من أهله فشتمهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه وكان ذا رأى ومكر وكيد وعقل وقال لتقي الدين اقعد وسبه وقال لصلاح الدين أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك أتظن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا فقال لا فقال نجم الدين والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لا يمكننا الا ان نترجل اليه ونقبل الارض بين يديه ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا فاذا كنا نحن هكذا كيف يكون غيرنا وكل من تراه من الامراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر على الثبات على سرجه ولا وسعه الا النزول وتقبيل الارض بين يديه وهذه البلاد له وقد أقامك فيها فان أراد عزلك فاى حاجة به الى المجيء يأمرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ويولي بلاده من يريد وقال للجماعة كلهم قوموا عنا نحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريده فتفرّقوا على هذا وكتب أكثرهم الى نور الدين بالخبر ولما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين قال له أنت جاهل قليل المعرفة تجمع هذا الجمع العظيم وتطلعهم على ما في نفسك فاذا سمع نور الدين انك عازم على منعه من البلاد جعلك أهم الامور اليه وأولاها بالقصد ولو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحدا وكانوا أسلموك اليه وأما الآن بعد هذا المجلس فسيكتبون اليه ويعرّفونه قولي وتكتب أنت اليه وترسل في هذا المعنى وتقول أي حاجة الى قصدي يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي فهو اذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده والايام تندرج والله كل وقت في شان ففعل صلاح الدين ما أشار به والده فلما رأى نور الدين رحمه الله الامر هكذا عدل عن قصده وكان الامر كما قال نجم الدين توفي نور الدين ولم يقصده ولا أزاله وكان هذا من أحسن الاراء وأجودها

﴿فصل﴾ في الحمام قال ابن الاثير وفي سنة سبع وستين أمر الملك العادل نور الدين باتخاذ الحمام الهوادي وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة الى أوكارها فاتخذت في سائر بلاده وكان سبب ذلك انه اتسعت بلاده وطالت مملكته فكانت من حد النوبة الى باب همذان لا يتخللها سوى بلاد الفرنج وكان الفرنج لعنهم الله ربما نازلوا بعض الثغور فالى ان يصل الخبر ويسير اليهم يكونون قد بلغوا بعض الغرض فحينئذ أمر بذلك وكتب به الى سائر بلاده وأجرى الجرايات لها ولمربيها فوجد بها راحة كبيرة كانت الاخبار تأتيه لوقتها لانه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم فاذا رأوا أو سمعوا أمرا كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر وسرحوه الى المدينة التي هو منها في ساعته فتنقل الرقعة من طائر الى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين وهكذا الى ان تصل الاخبار اليه فانحفظت الثغور بذلك حتى ان طائفة من الفرنج نازلوا ثغرا له فأتاه الخبر ليومه فكتب الى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة وكبس العدوّ ففعلوا ذلك فظفروا والفرنج قد آمنوا لبعد نور الدين عنهم فرحم الله نور الدين ورضي عنه فما كان أحسن نظره للرعايا وللبلاد وقال العماد وكان نور الدين لا يقيم في المدينة أيام الربيع والصيف محافظة على الثغور وصونا من الحيف ليحمي البلاد من العدوّ بالسيف وهو متشوّف الى أخبار مصر وأحوالها وتحقيق اعتدالها بتحقيق اعتلالها فرأى اتخاذ الحمام المناسيب وتدريجها على الطيران لتحمل اليه الكتب بأخبار البلدان وتقدم الىّ بكتب منشور لاربابها واعزاز أصحابها وهو حينئذ بظاهر دمشق مخيم بوادي اللوان ونحن مستظهرون في ذلك الاوان عادون على أهل العدوان وذلك في سابع عشر ذي القعدة من السنة ثم ذكر نسخة المنشور ووصف فيه الحمام فقال (هي برائد الانباء المخصوصات بفضيلة الالهام والايحاء وهي فيوج الرسائل

المأمونة الابطاء والسابقات الهوج فى الاهتداء والحاملات ملطفات الاسرار فى أقرب مدة الى أبعد غايه والموصلات مهمات الاخبار فى وقتها من أقاصى الامصار بأكمل هدايه والقاطعات فى ساعتها الى البلاد أجواز القفار والموامى والنافذات بنجح المرام بعود السهام الى المرامى وهى تطوى الفراسخ البعيدة والاشواط فى ساعه وتنتهى الى أقصى عنايات الطاعة بأتم استطاعه وقد عم بها نفع المرابطين والغزاة والمجاهدين فى سبيل الله فى اهداء أخبار الكفرة اليهم من أماكنها دالة على مكايدها ومكامنها طائرة بكتبهم الى من وراءهم من الطلائع والسرايا مظهرة لهم من أحوالها خبايا الامور الخفايا وانها الميمونة المطار مأمونة العثار سالمة على الاخطار مهدية فى الاسفار امينة على الاسرار سابقة الى الاوكار صادرة بالاوطار من الاقطار سائرة الى المؤمنين بنبأ الكفار قلت وكل هذه اوصاف حسنه وعبارات مستحسنه وقد بلغنى عن القاضى الفاضل رحمه الله تعالى انه وصفها بالطف من هذه الاوصاف واخصر فقال (الطيور ملائكة الملوك) يشير الى ان نزولها على الملوك من جو الهواء نزول الملائكة على الانبياء عليهم السلام من السماء مع فرط ما فيها من الامانة لا يتوهم من جهتها خيانة فلقد أحسن فيما وصف وأبدع فيما استنبط وأنصف وهو بذلك أولى وأعرف رحم الله الجميع

(فصل) وفى باقى حوادث هذه السنة قرأت نسخة سجل باسقاط المكوس بمصر قرئ على المنبر بالقاهرة يوم الجمعة بعد الصلاة ثالث صفر سنة سبع وستين وخمسمائة عن السلطان الملك الناصر فى أيام نور الدين رحمه الله فهو كان الآمر وذاك المباشر يقول فيه (أما بعد فانا نحمد الله سبحانه على ما مكن لنا فى الارض وحسنه عندنا من أداء كل نافلة وفرض ونعبناله من ازالة النصب عن عباده واختار لنا من الجهاد فى الله حق جهاده وزهدنا فيه من متاع الدنيا القليل وألهمنا من محاسبة أنفسنا على النقير والفتيل وأولانا من شجاعة السماحة فيوما نهب ما اشتملت عليه الدواوين ويوما نقطع ماسقاه النيل فالبشائر فى أيامنا تترى شفعا ووترا والمسار كنظام الجوهر تتبع الواحدة منها الاخرى والمسامحات قد ملأت المسامع والمطامع واسخطت الخيمة والصنايع وأرضت المنبر والجامع ولما تقلدنا أمور الرعية رأينا المكوس الديوانية بمصر والقاهرة أولى ما نقلناها من ان تكون لنا فى الدنيا الى ان تكون لنا فى الآخره وان نتجرد ومنها النلبس أثواب الاجر الفاخره ونطهر منها مكاسبنا ونصون عنها مطالبنا ونكف فى الرعية ضرهم الذى يتوجه اليهم ونضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم ونعبدها اليوم كامس الذاهب ونضعها فلا ترفعها من بعد يد حاسب ولا قلم كاتب فاستخرنا الله ونجانا اليه ليرضى ورأينا فرصة أجر لا تغض عليها بصائر الابصار ولا يغضى وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر وجميع التجار المترددين اليهما والى ساحل المقسم والمنية بأبواب المكوس صادرها وواردها فيرد التاجر ويسير ويغيب عن ماله ويحضر ويقارض ويتجر براو بحرا مركا وظهرا سرا وجهرا لا يحل ماشده ولا يحاول ماعنده ولا يكشف ماستره ولا يسأل عما أورده وأصدره ولا يستوقف فى طريقه ولا يشرق بريقه ولا يؤخذ منه طعمه ولا يستباح له حرمه والذى اشتملت عليه المسامحة فى السنة من العين مائة ألف دينار مسامحة لا يشوبها تأويل ولا يتخونها تحويل ولا يعتريها زوال ولا يعتورها انتقال دائمة بدوام الكلمه قائمة ما قام دين القيمه من عارضها ردت أحكامه ومن ناقضها نقض ذمامه ومن ازالها زالت قدمه ومن أحالها حل دمه ومن تعقبها حلت اللعنة فيه وفى عقبه ومن احتاط لدنياه فيها أحاط به الجحيم الذى هو من حطبه فمن قرأه أو قرئ عليه من كافة ولاة الامر من صاحب سيف وقلم ومشارف أو ناظر فليمتثل ما مثل من الامر وليمضه على ممر الدهر مرضيا لربه ممضيا لما أمر به وفيها توفى الشيخ أبو بكر يحيى بن سعدون القرطبى المقرى النحوى وهو نزيل الموصل رحمه الله تعالى وفيها ولد العزيز والظاهر ابنا صلاح الدين والمنصور ومحمد بن تقى الدين وفيها فى ثالث شوال توفى أبو الفتوح نصر بن عبد الله الاسكندرى المعروف بابن قلاقس الشاعر بعيذاب ومولده بالاسكندرية رابع ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة فيكون عمره نحوا من خمس وثلاثين سنة

(ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة) ففيها توفى ملك النحاة الحسن بن صافى وفيها ترتب العماد الكاتب بشرفا بديوان نور الدين مضافا الى كتابة الانشاء قال وكان نور الدين ذكيا ألمعيا فطنا لوذعيا لا يشتبه عليه

الاحوال ولا يتبهرج عليه الرجال ولا يتأهل لغير أهل الفضل منه الافضال قال ولما عرض صلاح الدين بعد العاضد خزائنه واستخرج دفائنه سير منها عدة من الامتعة المستحسنة والآلات الثمينة وقطع البلور والبشم والاوانى التى لا يتصور وجودها فى الوهم ومعها ثلاث قطع من البلخش أكبرها نيف وثلاثون مثقالا والثانية ثمانية عشر والاخرى دونها وقرن بها من اللآلى مصونها ومكنونها وحمل معها من الذهب ستين ألف دينار ووصلت من غرائب المصنوعات بما لا يجتمع مثله فى اعصار واعمار ومن الطيب والعطر ما لم يخطر ببال عطار فشكر نور الدين همته وذكر بالكرم شيمته ووصف فضيلته وفضل صفته وقال ما كانت بنا حاجة الى هذا المال ولا نسد به خلة الاقلال فهو يعلم انا ما انفقنا الذهب فى ملك مصر وبنا الى الذهب فقر وما لهذا المحمول فى مقابلة ما جدنا به قدر وتمثل بقول أبى تمام

لم ينفق الذهب المربى بكثرته ❁ على الحصا وبه فقر الى الذهب

لكنه يعلم ان ثغور الشام مفتقرة الى السداد ووفور الاعداد من الاجناد وقد عم بالفرنج بلاء البلاد فيجب أن يقع التعاقد على الامداد بالمعونة والأمداد فاستنزره وما استغزره واستقل المحمول فى جنب ما حرره وتروّى فيما يدبره وأفكر فيما يقدمه من هذا المهم ويؤخره قال ابن أبى طى لم تقع هذه الهدية من نور الدين بموقع وجرد الموفق بن القيسرانى وزيره الى مصر وأمره بعمل حساب البلاد واستعلام أخبارها وارتفاعها وأين صرفت أموالها فاذا حصل جميع ذلك قرر على صلاح الدين وظيفة يحملها فى كل سنة وعظم على نور الدين أمر مصر وأخذه من استيلاء صلاح الدين عليها المقيم المقعد وأكثر فى مراسلته فى حمل الاموال حدثنى أبى قال لم يخف حال نور الدين فى كراهية الملك الناصر ولقد علم ذلك جميع الاجناد والامراء وتحدث به العوام ولا سيما حين أنفذ هذه الهدية واشتد بعد ذلك فى مراسلته وأنفذ ابن القيسرانى لكشف الاحوال ولو طال عمره لم يكن له بد من دخول مصر قال العماد وكان نور الدين منذ ملكت مصر وتوجه له فيها النصر يؤثر أن يقرر له فيها مال للحمل يستعين به على كاف الجهاد وتخفيف ماله من الثقل والايام تماطله والاعوام تطاوله وهو ينتظر ان صلاح الدين يبتدى من نفسه بما يريده وهو لا يستدعى منه ولا يستزيده فلما حمل من أخاير الذخائر والمال الحاضر ما حمله وعرف مجمله ومفصله تقدم الى الموفق خالد بن القيسرانى أن يمضى ويطلب ويقتضى ويعمل أيضا بالاعمال المصرية جزازه ولا يبقى فى نفوس ديوانه من أمرها حزازه وأرسل معه الهدايا والتحف السنايا وأقام العماد مقامه فى ديوان الاستيفاء فجمع بين الاشراف والاستيفاء ومنصب الانشاء ثم كان من أمره ما سيأتى ذكره قال العماد وخرج صلاح الدين فى النصف من شوال ومعه الفيل والحمارة العتابية والذخائر النفيسة التى كان انتخبها من خزائن القصر وهى معدودة من محاسن العصر قد سبق ذكر تسييرها الى نور الدين وقوبلت بالاحسان والتحسين ووصلت الحماره وكثرت لها النظاره وأما الفيل فانه وصل الينا فى سنة تسع وستين ونحن بحلب فى الميدان الاخضر وأهداه نور الدين الى ابن أخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل مع شئ من تحفة الثياب والعود والعنبر ثم سيره سيف الدين الى بغداد هدية للخليفه مع ما سيره معه من التحف اللطيفه وسير نور الدين الحمارة العتابية الى بغداد مع هدايا وتحف سنايا

❁(فصل)❁ فى جهاد السلطانين للفرنج فى هذه السنة قال العماد ونزل صلاح الدين على الكرك والشوبك وغيرهما من الحصون فبرح بها وفرق عنها عربها وخرب عماراتها وشن على أعمالها سراياه بغاراته ووصل منه كتاب بالمثال الفاضلى (سبب هذه الخدمة الى مولانا الملك العادل أعز الله سلطانه ومد أبدا احسانه ومكن بالنصر امكانه وشيد بالتأييد مكانه ونصر أنصاره وأعان أعوانه علم المملوك بما يؤثره المولى بأن يقصد الكفار بما يقص أجنحتهم ويغلل أسلحتهم ويقطع موادهم ويخرب بلادهم وأكبر الاسباب المعينة على ما يرومه من هذه المصلحة أن لا يبقى فى بلادهم أحد من العربان وان ينتقلوا من ذل الكفر الى عز الايمان ومما اجتهد فيه غاية الاجتهاد وعده من أعظم أسباب الجهاد ترحيل كثير من أنفارهم والحرص فى تبديل دارهم الى أن صار العدو اليوم اذا نهض لا يجد بين يديه دليلا ولا يستطيع حيلة ولا يهتدى سبيلا) ثم ذكر باقى الكتاب قال ابن شداد وهذه أول غزوة غزاها صلاح الدين من الديار المصرية فغزا بدأ بلاد الكرك والشوبك لانها كانت أقرب اليه وكانت فى الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدو فأراد توسيع الطريق

وتسهيله ليتصل البلاد بعضها ببعض وتسهل على السابلة فخرج قاصداً لها فى أثناء سنة ثمان وستين فحاصرها وجرى بينه وبين الفرنج وقعات وعاد عنها ولم يظفر منها بشئ فى تلك الدفعة وحصل ثواب القصد وأما نور الدين فانه فتح مرعش فى ذى القعدة من هذه السنة وأخذ بهسنى فى ذى الحجة منها وقال العماد حضرت عند الملك العادل نور الدين بدمشق فى العشرين من صفر ووجهه ينور البشر قد سفر والحديث يجرى فى طيب دمشق وحسن الاثها ورقة هوائها وبهجة بهائها وازهار أرضها كزهر سمائها وكل منا يمدحها ويحبه يمنحها وكل منا يطريها فقال نور الدين أنا حب الجهاد يسليني عنها فما أرغب فيها فارتجلت هذا المعنى فى الحال فقلت

ليس فى الدنيا جميعا * بلدة مثل دمشق
ويسليني عنها * فى سبيل الله عشقى
والنقى الاصل ومن * يتركها يشقى ويشقى
كم رشيق شاغل عنه بسهم الغزو رشقى
وامتشاق البيض يغنى * عنه بالاقلام مشقى

قال وسألنى نور الدين أن أعمل دوبيتيات فى معنى الجهاد على لسانه فقلت

للغزو نشاطى واليه طربى * مالى فى العيش غيره من أرب
بالجد وبالجهاد نجح الطلب * والراحة مستودعة فى التعب

وقلت أيضا

لا راحة فى العيش سوى ان * أغزو وسيفى طربا الى الطلى يهتز
فى ذل ذوى الكفر يكون العز * والقدرة فى غير جهاد عجز

وقلت أيضا

أقسمت سوى الجهاد مالى أرب * والراحة فى سواه عندى تعب
الا بالجد لا ينال الطلب * والعيش بلا جد جهاد لعب

قال واتفق خروج كلب الروم اللعين فى جنود الشياطين بقصد الغارة على رواد من ناحية حوران وهم فى جمع غلبت كثرته الخبر والعيان ونزلوا فى قرية تعرف بسمسكين فركب نور الدين وهو نازل بالكسوة اليهم وأقدم بعساكره عليهم فلما عرفوا وصوله رحلوا الى الفوار ثم الى السواد ثم نزلوا بالشلالة ونزل نور الدين فى عشترا وقد سره ما جرى فأنفذ سرية الى أعمال طبرية واغتنم خلوها فأدلجت تلك الليلة وجدت فى شن الغارة غدوها فلما عادت لحقها الفرنج عند المخاضة فوقف الشجعان وثبت من ثبته الايمان حتى عبرت السرية وانفصلت تلك القضيه ورحل نور الدين من عشترا فنزل بظاهر زرا قال العماد وكنت راكبا فى لقائهم مع الملك العادل وهو يقول لى كيف تصف ما جرى فمدحته بقصيدة

عقدت بنصرك راية الايمان * وبدت لعصرك آية الاحسان
يا غالب الغلب الملوك وصائد الصيد الليوث وفارس الفرسان
يا سالب التيجان من أربابها * حزت الفخار على ذوى التيجان
محمود المحمود ما بين الورى * فى كل اقليم بكل لسان
يا واحدا فى الفضل غير مشارك * أقسمت مالك فى البسيطة ثانى
أحلى أمانيك الجهاد وانه * لك مؤذن أبدا بكل أمان
كم بكر فتح ولدته ظباك من * حرب لقمع المشركين عوان
كم وقعة لك بالفرنج حديثها * قد سار فى الآفاق والبلدان
قمصت قومصهم رداء من ردى * وقرنت رأس برنسهم بسنان
وملكت رق ملوكهم وتركتهم * بالذل فى الاقياد والاشجان

وجعلت فى أعناقهم أغلالهم * وسحبتهم هونا على الاذقان
اذفى السوابغ تحطم السمر القنا * والبيض تخضب بالنجيع القانى
وعلى غناء المشرفية فى الطلى * والهام رقص عوالى المرّان
وكان بين النقع لمع حديدها * نار تألق من خلال دخان
فى مازق ورد الوريد مكفل * فيه برى الصارم الظمآن
غطى العجاج به نجوم سمائه * لتنوب عنها أنجم الخرصان
أوما كفاهم ذاك حتى عاودوا * طرق الضلال ومركب الطغيان
ياخيبة الافرنج حين تجمعوا * فى حيرة وأتوا الى حوران
وجلوت نورالدين ظلمة كفرهم * لما أتيت بواضح البرهان
وهزمتهم بالرأى قبل لقائهم * والرأى قبل شجاعة الشجعان
أصبحت للاسلام ركنا ثابتا * والكفر منك مضعضع الاركان
قوضت أساس الضلال بعزمك الـ * ـماضى وشدت مبانى الايمان
قل أين مثلك فى الملوك مجاهد * لله فى سر وفى اعلان
لم تلقهم ثقة بقوة شوكة * لكن وثقت بنصرة الرحمان
مازال عزمك مستقلا بالذى * لايستقل بثقله الثقلان
وبلغت بالتأييد أقصى مبلغ * ماكان فى وسع ولا امكان
دانت لك الدنيا فقاصيها اذا * حققته لنفاذ أمرك دانى
فمن العراق الى الشام الى ذرا * مصر الى قوص الى أسوان
لم تله عن باقى البلاد وانما * الهاك فرض الغزو عن همذان
للروم والافرنج منك مصائب * بالترك والاكراد والعربان
اذعنت لله المهيمن اذعنت * لك أوجه الاملاك بالاذعان
أنت الذى دون الملوك وجدته * ملآن من عرف ومن عرفان
فى بأس عمرو فى بسالة حيدر * فى نطق قس فى تقى سلمان
سيرلوان الوحى ينزل أنزلت * فى شأنها سور من القرآن
فاسلم طويل العمر ممتد المدى * صافى الحياة مخلد السلطان

وهى قصيدة طويلة وصف فيها أمراءه الحاضرين الجهاد معه ومدحهم

* (فصل) فى فتح بلاد النوبة قال العماد وفى جمادى الاولى غزا شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين بلاد النوبه وأراهم سطاه المرهوبه وفتح حصنا لهم يعرف بابريم والآن لا بريم وهى بلاد عديمة الجدوى عظيمة البلوى ثم رجع بالسبى وعاد به الى أسوان وفرق على أصحابه فى الغنائم السودان وقال ابن أبى طى الحلبى وفيها اجتمع السودان والعبيد من بلاد النوبة وخرجوا فى أمم عظيمة قاصدين ملك بلاد مصر وصاروا الى أعمال الصعيد وصمموا على قصد أسوان وحصارها ونهب قراها وكان بها الامير كنز الدولة فأنفذ يعلم الملك الناصر وطلب منه نجدة فأنفذ قطعة من جيشه مع الشجاع البعلبكى فلما وصل الى أسوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن أخربوا أرضها فاتبعهم الشجاع والكنز فجرت حرب عظيمة قتل فيها من الفريقين عالم عظيم ورجع الشجاع الى القاهرة وأخبر بفعال العبيد وتمكنهم من بلاد الصعيد فأنفذ الملك الناصر أخاه شمس الدولة فى عسكر كثيف فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة فسار قاصد بلادهم وشحن مراكب كثيرة فى البحر بالرجال والميرة وأمرها بلحاقه الى بلاد النوبة وسار اليها ونزل على قلعة ابريم وافتتحها بعد ثلاثة أيام وغنم جميع ما كان فيها من المال والكراع والميرة وخلص جماعة من الاسرى

الاسرى وأسر من وجده فيها وهرب صاحبها وكتب الى السلطان بذلك فأنشد السلطان أبو الحسن بن الذروى يهنيه بفتح ابريم قصيدة منها

فقدم العزم فذا ابتداه * يقصر عن ملك الارض منتهاه
واسحب ذيول الجيش حتى ترى * أنجمه طالعة عن دجاه
سواك من ألقى عصاه بها * قناعة لما استقرت نواه
عليك بالروم ودع صاحب التا * ج اذا شئت وتور انشاه
فقد غدت ابريم فى ملكه * تبرم أمرا فيه كبت العداه
لابد للنوبة من نوبة * ترضى لسخط الكفر دين الاله
تظل من نوبة منسوبة * لعزمة كامنة فى اناه
تكسو الغزاة القاطنى أرضها * ما نسجت للحرب أيدى الغزاه
سود وحمر الظبا حولها * كاعين الرمد بدت للاساه
أو لا فسمر يحتميها القنا * مثل دنان بزلتها السقاه
لله جيش منك لا ينثنى * الا بنصل دميت شفرتاه
ما بين عقبان ولكنها * خيل وفرسان كثمل البزاه
أساد حرب فوق أيديهم * أساود الطعن فهم كالحواه
تقلدوا الانهار واستلأموا الـ * غدران فالنيران تجرى مياه

قال ثم رجع شمس الدولة الى أسوان ثم الى قوص وكان فى صحبته أمير يقال له ابراهيم الكردى فطلب من شمس الدولة قلعة ابريم فاقطعه اياها وأنفذ معه جماعة من الاكراد البطالين فلما حصلوا فيها تفرقوا فرقا وكانوا يشنون الغارة على بلاد النوبة حتى برحوا بهم واكتسبوا أموالا كثيرة حتى عفت أرزاقهم وكثرت مواشيهم واتفق انهم عدوا الى جزيرة من بلاد النوبة تعرف بجزيرة ذيدان فغرق أميرهم ابراهيم وجماعة من أصحابه ورجع من بقى منهم الى قلعة ابريم وأخذوا جميع ما كان فيها وأخلوها بعد مقامهم بها سنتين فعاد النوبة اليها وملكوها وأنفذ ملك النوبة رسولا الى شمس الدولة وهو مقيم بقوص ومعه كتاب يطلب الصلح ومع الرسول هدية عبد وجارية فكتب له جواب كتابه وأعطاه زوجى نشاب وقال مالك عندى جواب الا هذا وجهز معه رسولا يعرف بمسعود الحلبى وأوصاه ان يكشف له خبر البلاد ليدخلها فسار الحلبى مع الرسول حتى وصل دنقلة وهى مدينة الملك قال مسعود فوجدت بلادا ضيقة ليس لهم زرع الا الذرة وعندهم نخل صغار منه ادامهم ووصف ملكهم بأوصاف منها ان قال خرج علينا يوما وهو عريان قد ركب فرسا عريا وقد التف فى ثوب أطلس وهو أقرع ليس على رأسه شعر قال فأتيت فسلمت عليه فضحك وتغاشى وأمر بى ان تكوى يدى فكوى عليها هيئة صليب وأمر لى بقدر خمسين رطلا من الدقيق ثم صرفنى قال وأما دنقلة فليس فيها عمارة الا دار الملك فقط وباقيها اخصاص

(فصل) فى وفاة نجم الدين أيوب والد صلاح الدين وطرف من أخباره قال العماد وركب نجم الدين أيوب فشب به فرسه بالقاهرة عند باب النصر وسط المحجه يوم الاثنين الثامن عشر من ذى الحجه وحمل الى منزله وعاش ثمانية أيام ثم توفى فى يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذى الحجه وكان كريما رحيما عطوفا حليما وبابه مزدحم الوفود وهو متلف الموجود يبذل الجود وكان ولده صلاح الدين عنه غائبا وفى بلاد الكرك والشوبك على الغزاة مواظبا فدفن الى جانب قبر أخيه أسد الدين فى بيت بالدار السلطانيه ثم نقلا بعد سنتين الى المدينة الشريفة النبويه على ساكنها أفضل الصلاة والسلام والتحية والاكرام والاجلال والاعظام وعلى آله وصحبه وسلم قلت وقبرهما فى تربة الوزير جمال الدين الاصفهانى وزير الموصل المقدم ذكره رحمهم الله وقال القاضى ابن شداد ولما عاد صلاح الدين من غزاته بلغه قبل وصوله الى مصر وفاة أبيه نجم الدين فشق ذلك عليه حيث لم يحضر وفاته وكان سبب وفاته وقوعه من الفرس رحمه الله وكان شديد الركض ولعابا بلعب الكرة بحيث من رآه يلعب بها يقول ما يموت الا من وقوعه عن ظهر

الفرس ومن كتاب فاضلي عن السلطان الى عز الدين فرخشاه بمصر يقول فيه (صح من المصاب بالمولى الدارج غفر الله له ذنبه وسقى بالرحمة تربه ما عظمت به اللوعه واشتدت الروعه وتضاعفت لغيبتنا عن مشهده الحسره فاستنجدنا بالصبر فابى وانحدرت العبره فيا له فقيدا فقد عليه العزاء وهانت بعده الارزاء وانتثر شمل البركة بفقده فهى بعد الاجتماع اجزاء

وتخطفته يد الردى فى غيبتي * هبنى حضرت فكنت ماذا اصنع

قال ابن أبي طى الحلبي هو الامير نجم الدين أيوب بن شاذى ولا يعرف فى نسبه أكثر من والده شاذى وحدثنى أبي رحمه الله قال كان تقي الدين عمر يزيد فيقول شاذى بن مروان قلت وسمعت أناسا يقول شاذى بن مروان بن يعقوب قال ابن أبي طى وقد ادعى ابن سيف الاسلام لما ملك اليمن انهم من بنى مروان بن محمد الجعدى المعروف بالحمار يعنى آخر خلفاء بنى أمية قال وقد نقبت عن ذلك فاجمع الجماعة من آل أيوب ان هذا كذب وان جميع آل أيوب لا يعرفون جدا فوق شاذى وكذلك أخبرنى السلطان الملك الناصر رحمه الله قلت ودليل صحة ذلك انى وقفت على كتاب وقف الرباط النجمى بدمشق ولم يزد فيه على نجم الدين أبو سعيد أيوب بن شاذى العادلى وابن سيف الاسلام هذا هو أبو الفداء اسماعيل بن طغتكين بن أيوب بن شاذى بن أخى السلطان صلاح الدين ملك اليمن بعد أبيه وتعاظم الى ان ولى نفسه الخلافة وادعى انه من بنى أمية وعزم على اعادة الخلافة من بنى هاشم الى بنى أمية وله فى ذلك اشعار كثيرة وتلقب بالامام الهادى بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين ومدحه كثير من الشعراء بذلك وزين له فعله وما هو فيه فمن شعره

وانى أنا الهادى الخليفة والذى * أدوس رقاب الغلب بالضمر الجرد
ولا بد من بغداد اطوى ربوعها * وانشرها نشر السماسر للبرد
وانصب اعلامى على شرفاتها * وأحيى بها ما كان أسسه جدى
ويخطب لى فيها على كل منبر * وأظهر دين الله فى الغور والنجد

قال ابن أبي طى وكان نجم الدين أيوب عدلا مرضيا كثير الصلاة والصلات غزير الصدقات والخيرات يحب العلماء ويميل الى الفضلاء وكان ممدحا مدحه العماد الكاتب بجملة قصائد قال وكان مولد نجم الدين أيوب ببلد شهختان كذا حكاه مؤيد الدين ابن منقذ وحدثنى جماعة ان مولد نجم الدين كان بجبل جور وربى فى بلد الموصل ونشأ شجاعا باسلا وخدم السلطان محمد بن ملكشاه فرأى منه أمانة وعقلا وسدادا وشهامة فولاه قلعة تكريت فقام فى ولايتها أحسن قيام وضبطها أكرم ضبط وأجلى من أرضها المفسدين وقطاع الطريق وأهل العيث حتى عمرت أرضها وحسن حال أهلها وامنت سبلها فلما ولى السلطان مسعود الملك اقطع قلعة تكريت لمجاهد الدين بهروز الخادم شحنة بغداد ومتولى العراق وكان هذا بهروز اميرا ينفذ أمره فى جميع العراق الى البصرة الى الموصل الى أصفهان وكانت خيله خمسة ألف فارس فاقر الامير نجم الدين فى ولاية تكريت وأضاف اليه النظر فى جميع الولاية المتاخمة له وقرر أمره عند السلطان مسعود وجعل بهروز قلعة تكريت خزانة أمواله وبيت عقائله وجعل جميع ذلك منوطا بالامير نجم الدين ومغدوقا بهمته وكان نجم الدين عظيما فى أنفس الناس بالدين والخير وحسن السياسه وكان لا يمر أحد من أهل العلم والدين به الا حمل اليه المال والضيافة الجليله وكان لا يسمع باحد من أهل الدين فى مدينة الا انفذ اليه وقد ذكر العماد الكاتب فى سيرة السلجوقية الامير نجم الدين وقرظه وأثنى عليه وذكر من دينه وعفته ووفور أمانته وكثرة خيره أشياء حسنه وحكى قضية عم العز بزجين حبس عنده بقلعة تكريت من جهة الوزير الدركزينى وأمره بقتله فابى نجم الدين الى ان قتله بهروز بنفسه بامر الدركزينى ثم ان السلطان مسعودا حشد وخرج فى أخذ السلطنة وطمع هو وأتابك زنكى ابن آقسنقر فى بغداد وجردا عسكرا فضما وسارا الى تكريت طامعين فى بغداد ودولتها ايلا وتلاقيا مع قراجه الساقى وهو أتابك ابن السلطان محمود فجرد ألف فارس عليهم ثم اردفهم بعسكر ضخم فانهزم زنكى وقتل جماعة من أصحابه وجملة ممن كان فى عسكره ولجأ الى سور تكريت وبه عدة جراحات وعلم به الامير نجم الدين وأخوه شيركوه فصعداه الى القلعة بحبال وداويا جراحاته وخدماه احسن خدمة وتقربا اليه فاقام عندهما بتكريت خمسة عشر يوما ثم سار الى الموصل وأعوزه الظهر فاعطياه جميع ما كان عندهما من الظهر حتى انهما أعطياه جملة من البقر حمل عليها ما سلم معه من

امتعته فكان زنكى يرى لايوب هذه اليد ويعرف له هذه الصنيعة ويواصله بالهدايا والالطاف مدة مقامه فى تكريت فلما انفصل عنها على ما سنذكره تلقاه زنكى بالرحب والسعة واحترمه احتراما عظيما واقطعه عدة قطائع وكان نجم الدين قد ساس الناس بتكريت أحسن سياسة حتى ملك بذلك حبات قلوبهم وكان أخوه شيركوه معه فى القلعة وكان شجاعا باسلا ينزل من القلعة ويصعد اليها فى اسبابه وحاجاته وكان نجم الدين لا يفارق القلعة ولا ينزل منها فاتفق ان أسد الدين نزل من القلعة يوما لبعض شأنه ثم عاد اليها وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارص وكان رجلا نصرانيا فاتفق فى ذلك اليوم ان النصرانى صادف أسد الدين صاعدا الى القلعة فعبث به بكلمة ممضة فجرد أسد الدين سيفه وقتل النصرانى وصعد الى القلعة وكان مهيبا فلم يتجاسر أحد على معارضته فى أمر النصرانى وأخذ النصرانى برجله فالقى من القلعة وبلغ بهروز صاحب قلعة تكريت ما جرى وحضر عنده من خوّفه جراءة أسد الدين وانه ذو عشيرة كبيرة وان أخاه نجم الدين قد ساسه وذعلى قلوب الرعايا وانه ربما كان منهما أمر تخشى عاقبته ويصعب استدراكه فكتب الى نجم الدين ينكر عليه ما جرى من أخيه ويأمره بتسليم القلعة الى نائب سيره صحبة الكتاب فاجاب نجم الدين الى ذلك بالسمع والطاعة وأنزل من القلعة جميع ما كان له بها من أهل ومال واجتمع هو وأخوه أسد الدين وصمما على قصد عماد الدين زنكى بالموصل وقيل ان أسد الدين كان خرج الى الموصل قبل نجم الدين وأعظم أهل تكريت خروج نجم الدين من بين أظهرهم ولم يبق أحد الا خرج لتوديعه وأظهر البكاء والاسف على مفارقته ولما اتصل بأتابك زنكى قدومهما فرحه ذلك وأمر الموكب بلقائهما وأكرمهما اكراما عظيما واقطعهما فى بلد شهرزور اقطاعا سنيا وقيل انه اقطع أسد الدين بالموزروجى بين أسد الدين وجمال الدين الوزير مودة عظيمة حتى حلف كل واحد منهما للآخر انه يقوم بامره فى حياته وبعد وفاته وتجرد جمال الدين فى أمر اسد الدين وأمر أخيه نجم الدين حتى قربهما من قلب أتابك وجعلهما عنده بالمنزلة العظيمة وخرجا معه الى الشام وشهدا معه حروب الكفار وقتال الفرنج لعنهم الله وكان لاسد الدين فى تلك الوقايع اليد البيضاء والفعلة الغراء وحدثنى أبى رحمه الله قال حدثنى سعد الدولة ابو الميامن المؤملى وكان أحد أصحاب نجم الدين أيوب قال وحدثنى أيضا بهذه الحكاية مجد الدين بن داية الملك الصالح قال حدثنى حسام الدين سنقر غلام الامير نجم الدين أبى طالب وكان سنقر هذا يخدم مع الامير نجم الدين أيوب بن شاذى قال كنت فى صحابة الامير نجم الدين لما انفذه نور الدين بن زنكى الى ابنه السلطان الملك الناصر الى مصر من أجل قطع خطبة المصريين وأقامة دعوة بنى العباس فى أول سنة سبع وستين وخمسمائة واتفق انى كنت حاضرا وقد اجتمع السلطان الملك الناصر ووالده الامير نجم الدين فى دار الوزارة وقد قعدا على طراحة واحدة والمجلس غاص بارباب الدولتين وعند الناس من الفرح والسرور ما قد اذهل العقول فبينا الناس كذلك اذ تقدم كاتب نصرانى كان فى خدمة الامير نجم الدين فقبل الارض بين يدى السلطان الملك الناصر ووالده نجم الدين والتفت الى نجم الدين فقال له يا مولاى هذا تأويل مقالتى لك بالامس حين ولد هذا السلطان فضحك نجم الدين وقال صدقت والله ثم أخذ فى حمد الله وشكره والثناء عليه والتفت الى الجماعة الذين حوله والقضاة والامراء وقال لكلام هذا النصرانى حكاية عجيبة وذلك انى ليلة رزقت هذا الولد يعنى السلطان الملك الناصر أمرنى صاحب قلعة تكريت بالرحلة عنها بسبب الفعلة التى كانت من أخى أسد الدين شيركوه رحمه الله وقتله النصرانى وكنت قد ألفت القلعة وصارت لى كالوطن فثقل على الخروج منها والتحول عنها الى غيرها واغتممت لذلك وفى ذلك الوقت جاءنى البشير بولادته فتشاءمت به وتطيرت لما جرى على ولم افرح به ولم أستبشر وخرجنا من القلعة واما على طيرتى به لا أكاد أذكره ولا أسميه وكان هذا النصرانى معى كاتبا فلما رأى ما نزل بى من كراهية الطفل والتشأم به استدعى منى ان أذن له فى الكلام فأذنت له فقال لى يا مولاى قد رأيت ما قد حدث عندك من الطيرة بهذا الصبى وأى شئ له من الذنب وبما استحق ذلك منك وهو لا ينفع ولا يضر ولا يغنى شيئا وهذا الذى جرى عليك قضاء من الله سبحانه وقدره ثم ما يدريك ان هذا الطفل يكون ملكا عظيم الصيت جليل المقدار فعطفنى كلامه عليه وها هو قد اوقفنى على ما كان قاله فتعجب الجماعة من هذا الاتفاق وحمد السلطان ووالده الله سبحانه وشكراه قلت ولعمارة فى نجم الدين مدائح ومراث منها قوله

ثغر الزمان بنجم الدين مبتسم * ووجهه بدوام العز متسم

اضحى بك النيل محجوجا ومعتمرا * كانما حل فيه الحل والحرم
جاءت بنوك وشمل الدين منتثر * فقام عواعنه فهو اليوم منتظم
وما درى أحد من قبل رؤيتهم * ان الحظوظ بلثم الارض تقتسم
نامت عيون الورى فى عدل سيرتهم * كان يقظتنا فى عصرهم حلم
والناصر ابنك كاف كل معضلة * اذا الحوادث لم يكشف لها غمم
اعز بالبأس والاحسان حوزتنا * فلم يلم بنا خوف ولا عدم
تبسم الدست من أيوب عن ملك * تحط عن قدره الاقدار والهمم

وقال فى مرثيته

هى الصدمة الاولى فمن بان صبره * على هول ملقاها تضاعف أجره
اذم صباح الاربعاء فانه * تبسم عن ثغر المنية فجره
أصاب الهدى فى نجمه بمصيبة * تداعى سماك الجو منها ونسره
فلا تعذلونا واعذرونا فمن بكى * على فقد أيوب فقد بان عذره
اقام باعمال الفرات وخيله * يراع بها نيل العزيز ومصره
الى ان رماها من أخيه بضيغم * فرى نابه أهل الصليب وظفره
فلما قضى نحبى حياة ودولة * بأمرك فى ادراكها تم أمره
تعاقبتما مصرا تعاقب وابل * يبيت بقطر النيل ينهل قطره
نزلت بدار حلها حلتها * ففيها ك مغناه وقطرك قطره
وواخيته فى البر حيا وميتا * فقبرك فى دار القرار وقبره
وقد شخصت أهل البقيع اليكما * والافسكان الحجون وحجره
هنيا لملك مات والعز عزه * وقدرته فوق الرجال وقدره
وأدرك من طول الحياة مراده * وما طال الا فى رضى الله عمره
وأسعد خلق الله من مات بعد ما * رأى فى بنى ابنائه مايسره
شهيد تلقى ربه وهو صائم * فكان على أجر الشهادة فطره
مضى وهو راض عنك لم يرم صدره * لضيق ولا جاشت من الغيظ قدره
حمى حوزة الاسلام والدين بعده * ثمانية من أجلهم عز نصره
فكيف لحدس آل أيوب أسده * لقد بان خوف الدهر منه وذعره
رعى الله نجما تعرف الشمس انه * أبوها ونور البدر منها وزهره
وابقى المقام الناصرى فانه * لدولتكم كنز الرجاء وذخره

وقال أيضا

صفو الحياة وان طال المدى كدر * وحادث الموت لا يبقى ولا يذر
ومايزال لسان الدهر ينذرنا * لو أثرت عندنا الآيات والنذر
فلا تقل غرت الدنيا مطامعنا * فما مع الموت لا غش ولا كدر
كأس اذا ما الردى حيا الحياة بها * لم ينج من سكرها أنثى ولا ذكر
كم شامخ العز لاقى الذل من يدها * ما أضعف القدر ان الوى به القدر
فى كل جيل وعصر من وقائعها * شعواء يقطر منها الناب والظفر
اودى على وعثمان بمخلبها * ولم يفتها أبو بكر ولا عمر
ومن أراد التأسى فى مصيبته * فلو رى برسول الله معتبر

نجم هوى من سماء الدين منكدرا * والنجم من افقه يهوى وينكدر
منظومة أبحر الجوزاء من جزع * له وعقـــد الثريا منه منتثر
وكيف ينسى محياه الكريم ومن * نعماه فى كل عيش صالح أثر
جددت من أسد الدين الشهيد لنا * حزنا به يتساوى الصبر والصبر
قد كان للدين والدنيا بعزمكما * ذكر يعبر عنه الصارم الذكر
ان فاح نشر كلام تمدحان به * مسكا فعسترة أيوب اهى العطر
تخفى ذبال مصابيح اذا طلعوا * صبحا وتنسى ملوك الارض ان ذكروا
كانما صور الله الكمال بهم * شخصا ويوسف منه السمع والبصر
لاشوبك منه معصوم ولا كرك * ولا خليل ولا قدس ولا زغر
لم يرتحل قافلا الا وساكنها * اما مباح حماه أودم هدر
ما مات أيوب الا بعد معجزة * فى الجد لم يؤتها من جنسه بشر
مضى سعيدا من الدنيا وليس له * فى رتبـــة أرب باق ولا وطر
وطول الله منه باع أربعة * منها الندى والتقى والملك والعمر
واشرف الملك ما امتدت مسافته * فى صحة اخواها العقل والكبر
ومن سعادته ان مات لا سأم * يشكوه منه معانيه ولا ضجر

(فصل) قال العماد وسار نور الدين قاصدا جانب الشمال لتسديد ما اختل هناك من الاحوال فسار الى بعلبك ومنها الى حمص ثم حلب وفعل فى كل منها من المصالح ما وجب وقصد بلاد قليج ارسلان ملك الروم ففتح مرعش فى العشرين من ذى القعدة ثم فتح بهسنى واتبع فى كل منهما الطريقة الحسنى وكتب العماد الى صديق له بدمشق وكان سافر عنها مع نور الدين فى أطيب فصولها وهو زمن المشمش

كانى فديتك من مرعش * وخوف نوائبها مرعشى
وما مر فى طرقها مبصر * صحيح النواظر الا غشى
وما حل فى أرضها آمن * من الضيم والضر الا خشى
ترنحنى نشوات الغرا * م كأنى من كأسه منتشى
أسر واعلن برح الجوى * فقلبى يسر ودمعى يشى
بذلت لكم مهجتى رشوة * فما كم حبكم مرتشى
وكيف يلذ الكرى مغرم * بنار الغرام حشاه حشى
بمرعش ابـــغى وبلوطها * مضاهاة جلق والمشمش

قال العماد فى الخريدة فسارت هذه القطعة ونمى حديثها الى نور الدين قال فاستنشدنيها فأنشدته اياها ونحن سائرون فى واد كبير مع بيتين بدهت بهما فى الحال وهما

وبالملك العادل استأنست * نجاحا منى كل مستوحش
وما فى الانام كريم سوا * ه فان كنت تنكر ذا فتش

قال ابن الاثير وفى سنة ثمان وستين سار نور الدين رحمه الله نحو ولاية الملك عز الدين قليج ارسلان بن مسعود بن قليج ارسلان بن سليمان السلجوقى وهى ملطية وسيواس وقونية واقصرا عازما على حربه وأخذ بلاده منه وكان سبب ذلك ان ذا النون بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس وغيرهما من تلك البلاد قصده قليج ارسلان وأخذ بلاده وأخرجه عنها طريدا فريدا فسار الى نور الدين مستجيرا وملتجئا الى ظله فأكرم نزله وأحسن اليه وحمل له ما يليق أن يحمل للملوك ووعده النصر والسعى فى رد ملكه اليه وكانت عادة نور الدين انه لا يقصد ولاية أحد من المسلمين الا ضرورة اما ليستعين بها على قتال الفرنج أو للخوف عليها منهم كما فعل بدمشق ومصر

وغيرها فلما قصده ذو النون راسل قليج أرسلان وشفع اليه فى اعادة ما غلبه عليه من بلاده فلم يجبه الى ذلك فسار نور الدين نحوه فابتدأ بكيسون وبهسنى ومرعش ومرزبان فملكها وما بينهما من الحصون وسير طائفة من عسكره الى سيواس فملكوها وكان قليج ارسلان لما بلغه قصد نور الدين بلاده قد سار من أطرافها التى تلى الشام الى وسطها خوفا وفرقا وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح والصفح عنه فتوقف نور الدين عن قصده رجاء ان ينصلح الامر بغير حرب فاتاه من الفرنج ما أزعجه فاجابه الى الصلح وكان فى جملة رسالة نور الدين اليه (انى أريد منك أمورا وقواعد ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء أحدها ان تجدد اسلامك على يد رسولى حتى يحل لى اقرارك على بلاد الاسلام فانى لا اعتقدك مؤمنا وكان قليج ارسلان يتهم باعتقاد مذاهب الفلاسفة والثانى اذا طلبت عسكرك للغزاة تسيره فانك قد ملكت طرفا كبيرا من بلاد الاسلام وتركت الروم وجهادهم وهادنتهم فاما أن تكون تجدنى بعسكرك لاقاتل بهم الفرنج وأما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع والجهد فى جهادهم والثالث أن تزوج ابنتك لسيف الدين غازى ولد أخى وذكر أمورا غيرها فلما سمع قليج ارسلان الرسالة قال ما قصد نور الدين الا الشناعة على بالزندقة وقد أجبته الى ما طلب أنا أجدد اسلامى على يد رسوله واستقر الصلح وعاد نور الدين وترك عسكره فى سيواس مع فخر الدين عبد المسيح فى خدمة ذى النون فبقى العسكر بها الى أن مات نور الدين فرحل العسكر عنها وعاد قليج ارسلان ملكها قال العماد (وفيها) وصل الفقيه الامام الكبير قطب الدين النيسابورى وهو فقيه عصره ونسيج وحده فسر نور الدين به وأنزله بحلب بمدرسة باب العراق ثم أطلعه الى دمشق فدرس بزاوية الجامع الغربية المعروفة بالشيخ نصر المقدسى رحمه الله ونزل بمدرسة الجاروق وشرع نور الدين فى انشاء مدرسة كبيرة للشافعية لفضله وأدركه الاجل دون ادراك عملها الاجله قلت هى المدرسة العادلية الآن التى بناها بعده الملك العادل أبو بكر بن أيوب أخو صلاح الدين وفيها تربته وقد رأيت أنا ما كان بناه نور الدين ومن بعده منها وهو موضع المسجد والمحراب الآن ثم لما بناها الملك العادل أزال تلك العمارة وبناها هذا البناء المتقن المحكم الذى لا نظير له فى بنيان المدارس وهى المأوى وبها المثوى وفيها قدر الله تعالى جمع هذا الكتاب فلا أقفر ذلك المنزل ولا أقوى وبقى قطب الدين الى أن توفى فى الايام الناصرية فى سنة ثمان وسبعين وقد وقف كتبه على طلبة العلم ونقلت بعد بناء هذه المدرسة اليها فانها تمرته اذ فاتها مباشرته رحمه الله قال العماد وكان وفد فى سنة أربع وستين شيخ الشيوخ عماد الدين أبو الفتح محمد بن على بن محمد بن حمويه فأقبل عليه نور الدين وأمرنى بانشاء منشور له بمشيخة الصوفية ورغبه فى المقام بالاحسان اليه بالشام ومن جملة ما أتحفه به عمامة باعمدة ذهبية كان قد انفذها صلاح الدين من مصر فبذل فيها ألف دينار بزنة ذهبها فلم يجب من سامها الى طلبها قلت وقد سبق ذكر هذه العمامة فى أخبار نور الدين أول الكتاب من كلام ابن الاثير وابن المعطى اياها وهو الشيخ تاج الدين عبد الله رحمهم الله ثم ذكر العماد نسخة المنشور وفيه (فلينظر فى رباط السميساطى وقبة الطواويس ورباط الطاحونة وغيرها من الرباط الذى للصوفية بدمشق المعمورة وبعلبك) ثم ذكر العماد انه فى آخر شعبان من هذه السنة قبل الرحيل من دمشق كان أهدى الى صديقه الفاضل الاديب علم الدين الحسن بن سعيد الشاتانى قطائف وكتب اليه

ماراقدات فى صحون مستوطنات فى سكون * أو كالعقائل فى الخدو رقد اعتقلن على ديون
أو كالتمائم للصحا ف ومانسبن الى جنون * صرعى ومادامت لها يومارحى الحرب الزبون
يحيين بالتغريق بل يسمن فى ضيق السجون * نضدن بالترصيع فى السجامات كالدر المصون
وقد اشتملن من اللطا ئف والصفات على فنون * يجلين أمثال العرا ئس بين أبكار وعون
هن اللذيذات اللوا ذ بالسهول من الحزون * السكريات الغريقات الغلائل والشؤون
لففن فى أكفانهن على المنى لا للمنون * المستطابات الظهو ر المستلذات البطون
المستقيمات الصفو ف وقفن كالخيل الصفون * اسمع حديثى فى انبسا طى فالحديث أخو شجون

وهى أكثر من هذا

(فصل) قال العماد قدسبق ذكر مليح بن لاون مقدم بلاد الارمن والتجائه الى نورالدين وتطاوله بقوته على الروم والارمن وكانت الدروب تحت اذنه والمصيصة وسيواس يحميها كلب الروم ويضبطها بجنده حتى استولى عليها مليح بن لاون فكسرهم وقتل وأسر وساق لنورالدين من مقدمى الروم ثلاثين أسيرا فأرسل نورالدين القاضى كمال الدين الشهرزورى بالاسرى والهدايا الى الخليفة المستضىء بامر الله ومعه كتاب يشرح هذه الكسرة وما فتح من البلاد ويقول فيه (وقسطنطينية والقدس يجريان الى أمد الفتوح فى مضمار المنافسه وكلاهما فى وحشة ليل الظلام المدلهم على انتظار صباح المؤانسه والله تعالى بكرمه يدنى قطاف الفتحين لاهل الاسلام ويوفق الخادم لحيازة مراضى الامام) وفى آخره (ومن جملة حسنات هذه الايام الزاهرة ما تيسر فى هذه النوبة من افتتاح بعض بلاد النوبة والوصول الى مواضع منها لم تطرقها سنابك الخيل الاسلاميه فى العصور الخاليه وكذلك استولت عساكر مصر أيضا على برقة وحصونها وتحكموا فى محكم معاقلها ومصونها حتى بلغوا الى حدود المغرب فظفروا من السؤل بعنقاء مغرب) قلت اتفق فى هذه السنة وصول قراقوش غلام تقى الدين من الديار المصرية مع طائفة من الترك فانضم اليهم جماعة من العرب فاستولى على طرابلس وكثير من بلاد افريقية ما خلا المهدية وسفاقس وقفصة وتونس وفى آخر ذلك الكتاب (ونسأل الله التوفيق لاستدناء قواصى المنى واقصاء عبدة الصليب الانجاس من المسجد الاقصى وان يجعل فتح البيت المقدس مفتتح مراده ومقتدح زناده ومقترحه فى جهاده وان يملكه الساحل بجميع بلاده) وسير العماد معه قصيدة منها

بالمستضىء أبى محمد الحسن * رجعت أمور المسلمين الى السنن
فى أرض مصر دعا له خطباؤها * وأتت لتخطب بكر خطبته عدن
فالمغرب الاقصى بذلك مشرق * وبنه مر مصر محقق يمن اليمن
ورأى الاله المستضىء لشرعه * وعباده نعم الامين المؤتمن
سر النبوة كامن فيه ومن * فطر الامامة مشرق نور الفطن
تقوى أبى بكر ومن عمر الهدى * وحياء عثمان وعلم أبى الحسن
وبجده عرفت مقالة حيدر * لا من دد أنى ولا منى الددن

ومنها فى مدح نورالدين رحمه الله

هل مثل محمود بن زنكى مخلص * متوحد يبغى رضاك بكل فن
ورع لدى المحراب أروع محرب * فى حالتيه ان أقام وان ظعن
يمسى ويصبح فى الجهاد وغيره * يضحى رضيع سلافة وضجيع دن
وبعزة الاسلام منتصر أحر * وبذلة الاشراك متنقما قمن

قال ابن أبى طى وفيها وصل شهاب الدين بن أبى عصرون من بغداد ومعه توقيع لنورالدين بدرب هارون وصريفين وخمسين دينارا من دنانير النثار التى نثرت يوم دخل الشهاب الى بغداد بالبشارة بالخطبة فى مصر وزن كل دينار عشرة دنانير قال العماد وكانت ناحيتا درب هارون وصريفين من أعمال العراق لزنكى والد نورالدين قديما من انعام أمير المؤمنين فسأل نورالدين احياء ذلك الرسم فى حقه فأنعم بهما الخليفة عليه ووجه بهما مثالة الشريف اليه وكان من مراده ان يستوهب ببغداد على شاطئ دجلة أرضا يبنيها مدرسة للشافعية ويقف عليها الناحيتين طلبا للاجر والذكر الباقى على ممر الدهر فقيل له ما ثم موضع يصلح لهذا الادرار المثمر ففاته أمر القدر عن قدرته على هذا الامر

(ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة) ونورالدين قد فتح من حصون الروم مرعش وغيرها ومليح بن لاون متملك الارمن فى خدمته ووصل الى خدمته ايضا ضياء الدين مسعود بن قفجاق صاحب ملطية وكان فى خدمته أيضا الامراء من المجدل فسرحهم بالعطاء الاجزل والسمت الاجل وأظهر انه ينزل على قلعة الروم على الفراة فتقبله مستخلف الارض بالبراة وحمل خمسين ألف دينار على سبيل الجزية مصانعة بذل وصغار وعاد الى حلب وقد نجح

فى كل ماطلب وأراد ان يسرع الى دمشق فالتأت سريرته لالتئات سريرته وحظى بمرض القلب لمرض جسم محظيته وجرت شكايته شكاية جاريته فتصدق عنها بألوف والتزم لله فى شفائها بنذور ووقوف ثم سيرها فى محفة تحمل على أيدى الرجال فى خفة وسارت على الطريق المهيع مع العسكر يحملها من الخدم والخواص المعشر بعد المعشر فما نقرب اليه بمثل حملها والمشى معها وتقدم بحق لازم من بخدمته شيعها وتأخر نور الدين جريدة مع عدة من مماليكه وأمرائه المماحصين فى ولايته وتقدم الى ان أسائره فى طريقه وأحاوره وأحاضره فى منازله واسامره وسرنا على طريق قبة ملاعب والمشهد وسلميه فجاءه الخبران الفرنج قد أغارت على حوران فثنى الى الجهاد العنان وسمع الفرنج به فتفرقوا وتلفوا بعد ما كانوا أقلقوا ودخلنا دمشق قلت وفى جمادى الاولى أبطل نور الدين رحمه الله فريضة الاتبان ورأيت منشوره بذلك وعلامته عليه بخطه (الحمد لله) يقول فيه (وبعد فان من سنتنا العادلة وسير أيامنا الزاهره وعوائد دولتنا القاهره أشاعة المعروف وأغاثة الملهوف وانصاف المظلوم واعفاء رسم ماسنه الظالمون من جائرات الرسوم ومازال نجدد للرعية رسما من الاحسان يرتعون فى رياضه ويرتوون من حياضه ونستقرئ أعمال بلادنا المحروسة ونصفيها من الشبه والشوائب ونمحق مايعثر عليه من بواقى رسومها الضائرة بأسقطناه من المكوس والضرائب تقربا الى الله تعالى الكافل لنا بسبوغ المواهب وبلوغ المطالب وقد أطلقنا جميع ماجرت العادة بأخذه من فريضة الاتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة وضياع الغوطة والمرج وجبل سنين وقصر حجاج والشاغور والعقيبة ومزارعها الجارية فى الاملاك وجميع مايقسط بعد المقاسمة من الاتبان على الضياع الخواص والمقطعة بسائر الاعمال المذكورة ووفرناه على أربابه طلبا لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه وهربا من انتقامه وأليم عقابه وسبيل النواب اطلاق ذلك على الدوام وتعفية آثاره والاستعفاء من أوزاره والاحتراز من التدنس بأوضاره وأبطال رسمه من الدواوين لاستقبال سنة تسع وستين ومابعدها على تعاقب الايام والسنين)

(فصل) فى فتح اليمن قال العماد وفى رجب توجه تورانشاه أكبر اخوة صلاح الدين الى اليمن فملكها وكان يحثه على المسير اليها عمارة اليمنى شاعر القصر وكان كثير المدح لتورانشاه فتجهز وسار الى مكة ثم الى زبيد فملكها وقبض على الخارجى بها وأهلكه نائبه سيف الدين مبارك بن منقذ ومضى الى عدن فأخذها واستناب فيها عز الدين عثمان الزنجيلى وفتح حصن تعز وغيره من القلاع ففتح اقليما ومنح ملكا عظيما وافترع بكرا وشيع ذكرا وقال ابن شداد ولما كان سنة تسع وستين رأى صلاح الدين قوة عسكره وكثرة عدد اخوته وقوة بأسهم وكان بلغه ان باليمن انسانا استولى عليها وملك حصونها وهو يخطب لنفسه يسمى عبد النبى بن مهدى ويزعم انه ينتشر ملكه الى الارض كلها واستتب أمره فرأى ان يسير اليها أخاه الاكبر الملك المعظم تورانشاه وكان كريما أريحيا حسن الاخلاق سمعت منه يعنى من صلاح الدين رحمه الله الثناء على كرمه ومحاسن أخلاقه وترجيحه اياه على نفسه فمضى اليها وفتح الله على يديه وقتل الخارجى الذى كان بها قلت وكان أخو هذا الخارجى قد خرج باليمن قبله ذكر عمارة اليمنى فى أول كتابه فى وزراء مصر فى أثناء كلام له قال وكان جماعة من أماثل الناس مثل بركات المقرئ وعلى بن محمد النيلى والفقيه أبى الحسن على بن مهدى القائم الذى قام باليمن وأزال دولة أهل زبيد وغيرهم قد سبقونى يعنى الى صاحب عدن فذكر كلاما يتعلق به وقال العماد فى الخريدة على بن مهدى ملك اليمن فى زماننا هذا وسفك الدماء وسبى المسلمين وأقبل على شرب الخمر وادعى الملك والامامة ودعا الى نفسه وكان يحدث نفسه بالمسير الى مكة فمات سنة ستين وتولى بعده أخوه وله شعر حسن يدل على علو همته قال ابن أبى طى كان سبب خروج شمس الدولة الى اليمن انه كان كريما جوادا وكان اقطاعه بمصر لا يقوم بفتوته ولا ينهض بمروته وكان قد انتظم فى سلكه عمارة الشاعر وكان من أهل اليمن وكان ورد الى مصر ومدح أصحابه ونفق عليهم فلما زالت دولتهم انضوى الى شمس الدولة ومدحه وكان اذا خلا به يصف له بلاد اليمن وكثرة أموالها وخيرها وضعف من فيها وانها قريبة المأخذ لمن طلبها قلت فمن جملة شعره فى ذلك قوله من قصيدة أولها

العلم مذ كان محتاج الى العلم ❁ وشفرة السيف تستغنى عن القلم

كم تترك البيض فى الاجفان ظامية ❁ الى الموارد فى الاعناق والقمم

امامك

أمامك الفتح من شام ومن يمن * فلا ترد رؤس الخيل باللجم
فعمك الملك المنصور سومها * من الفرات الى مصر بلا سأم
فاخلق لنفسك ملكا لا تضاف به * الى سواك وأور النار فى العلم
هذا ابن تومرت قد كانت بدايته * كما يقول الورى لحما على وضم
وقد ترقى الى ان اصبحت يده * من الكواكب بالانفاس والكظم
حاسب ضميرك عن رأى أتاك وقل * نصيحة وردت من غير متهم

وله من أخرى

أفاتح أرض النيل وهى عظيمة * على كل راج فتحها ومؤمل
متى توقد النار التى أنت قادح * بغمدان مشبوباسناها بجندل
وتفتح ما بين الحصين واتن * وصنعاء من حصن حصين ومعقل
وتملك من مخلاف طرف وجعفر * تقيضين من حزن خصيب ومسهل
وتخلق ملكا لا يحيل بفخره * على أحد الاعلى عزمك العلى

وله من أخرى

قالوا الى اليمن الميمون رحلته * فقلت ما دونه شئ سوى السفر
سير يسر بنى الدنيا وطيب ثنا * وطول عمر كذا يحكى عن الخضر
لا توقدن لها النار التى خمدت * خفض عليك تنل ما شئت بالشرر
المال مال عيد والقوم ملك يد * ولا أطيل وهذا جملة الخبر

قال ابن أبى طى ووافق ذلك انه كاتبه رجل من أهل اليمن شريف يقال له هاشم بن غانم واطمعه فى المعاونة لان صاحب اليمن عبد النبى كان قد تعدى على هذا الشريف هاشم فاعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن فاجابوه فتجهز ثم دخل على أخيه السلطان واستأذنه فى دخول اليمن فاذن له وأطلق له مغل قوص سنة ورده فوق ما كان فى نفسه وأصحبه جماعة من الامراء ومقدار ألف فارس خارجا عمن سيره من حلقته وسار فى البر والبحر فى البر العساكر وفى البحر الاسطول يحمل الازواد والعدد والآلات فوصل الى مكة شرفها الله تعالى فدخلها زائرا ثم خرج متوجها منها الى اليمن فوصل زبيد فى أوائل شوّال فنزل عليها ولقيه الشريف هاشم بن غانم الحسنى وجميع الاشراف بنو سليمان فى جمع جم وعدد كبير فهجم زبيد وتسلمها واحتوى على ما فيها وقبض على صاحب اليمن عبد النبى أخى على بن مهدى ثم رحل الى عدن وفى صحبته ابن مهدى ففتحها عنوة وولاها عز الدين الزنجيلى ثم سار الى المخلاف وتسلم الحصون التى كانت فى يد ابن مهدى كتعز وغيرها وسار الى صنعاء بعد فتح مدينة الجند وغيرها فاحرقت صنعاء فدخلها شمس الدولة فلم يجد بها الا شيخا وامرأة عجوزا فاقام بها ثمانية أيام ثم لم يستطع المقام لقلة الميرة فرجع الى زبيد فوجد ابن منقذ قد قتل عبد النبى بن مهدى وكان شمس الدوله قد استناب بزبيد الامير سيف الدولة المبارك ابن منقذ وأمره بحمله فلما بعد شمس الدولة خاف ابن منقذ من فساد أمره فرأى المصلحة فى قتله فقتله ابن منقذ بزبيد فلما بلغ شمس الدولة قتله استصوبه ولما حصل شمس الدولة فى زبيد انفذ اليه صاحب ظفار وصالحه هو وباقى الملوك على اداء المال ثم تتبع تلك الحصون والقلاع فاحتوى عليها جميعها وكتب بذلك الى أخيه الملك الناصر فارسل الى نور الدين يخبره بما أفاض الله عليه من الاحسان وخوله من ملك الديار والبلدان فارسل نور الدين مهذب الدين أبا الحسن على بن عيسى النقاش بالبشارة بذلك الى بغداد

(فصل) ذكر العماد هاهنا الامير مجد الدين سيف الدولة المبارك بن كامل بن منقذ المستناب بزبيد ووصفه بانه من الكفاة والكرماء والدهاة ذوى الاراء وهو فاضل من أهل بيت فضل كتب العماد من شعره

لما نزلت الدير قلت لصاحبى * قم فاخطب الصهباء من شماسه
فاتى وفى يمناه كأس خلتها * مقبوسة فى الليل من نبراسه

وكان مافى كأسه من خده * وكان مافى خده من كأسه
وكان لذة طعمها من ريقه * وأريجها الفياح من أنفاسه
لم أنس ليلة شربها بغنائه * اذبات يجلوها على جلاسه
اذ قام يسقينا المدام وكلما * عاتبته ردّ الجواب براسه

قلت ومدحه أبو الحسن بن الذروى المصرى بقصيدة غراء ذالية ما أظن انه نظم على قافية الذال أرق منها لفظا وأدق معنى أوّلها

لك الخير عرج بى على ربعهم فذى * ربوع يفوح المسك من عرفها الشذى

يقول فيها .

مبارك عيش الوفد باب مبارك * وهل منقذ القصاد غير ابن منقذ

قال العماد ثم سير نور الدين الى بغداد بشارة باص ين أحدهما فتح اليمن والآخر كسر الروم مرة ثانية ومقدّمهم الدوقس كلمان وكان قديما أسيرا عند نور الدين من نوبة حارم وفداه بخمسة وخمسين ألف دينار وخمسمائة وخمسين ثوبا أطلسا وسير معه أسرى من الروم وذلك فى شعبان هذه السنة ومما تضمنه كتاب البشارة (ولم ينج من عشرة ألف غير عشرة حمر مستنفرة فرت من قسورة) وقبل ذلك بشهرين سيرت قصيدة للعماد فى جمادى الآخرة على لسان نور الدين الى بغداد أوّلها

أطاع دمعى وصبرى فى الغرام عصى * والقلب جرع من كأس الهوى غصصا
وان صفو حياتى مايكدره * الا اشتياقى الى أحبابى الخلصا
ما أطيب العيش بالاحباب لو وصلوا * وأسعد القلب من بلواه لو خلصا
من ذا الذى سار سيرى فى ولائكم * غداة قال العدى لاسير عند عصا
قد نال عبدك محمود بها ظفرا * مازال يرقبه من قبل متربصا
من خوف سطوته ان العدوّ اذا * أم الثغور على اعقابه نكصا

وكلف نور الدين فى هذه السنة بافادة الالطاف والزيادة فى الاوقاف وتكثير الصدقات وتوفير النفقات وكسوة النسوة والايامى فى أيامها واغناء فقراء الرعية وانجادها بعد اعدامها وصون الايتام والارامل ببذله وعون الضعفاء وتقوية المقوين بعدله ثم ذكر ما قدمناذكره فى أوّل الكتاب من مناقب نور الدين وافعاله الكريمة قال العماد وفى يوم الاثنين رابع شهر رمضان ركب نور الدين على العادة وجلسنا نحن فى ديوانه حافلين فى ايوانه لبسط عدله واحسانه وتنفيذ أوامر سلطانه فجاءنى من أخبرنى ان نور الدين نزل الى المدرسة التى اتولاها وبسط سجادته فى قبلتها لسنة الضحى وصلاها فقمت فى الحال ومضيت على الاستعجال فلقيته فى الدهليز خارجا فى أجر العبادة ناجحا ولنهج العادة ناهجا فلما رآنى توقف ولقولى تشوّف فقلت له ان الموضع قد تشرف أما ترى انه من أيام الزلزلة قد تشعث فلما رأى حاله تلبث وقال نعيده الى العماره ونكسوه حلل النضاره ثم حملت له وجوه سكر وشيئا من ثياب وطيب وعنبر وكتبت معها هذه الابيات

عند سليمان على قدره * هدية النملة مقبوله
ويصغر الملوك عن نملة * عندك والرحمة مأموله
رقى لمولانا وملكى له * وذمتى بالشكر مشغوله
وكيف يقضى الحق ذو منة * ضعيفة بالعجز معلوله
وانما شيمة مولى الورى * طاهرة بالخير مجبوله

قال وكان رأى قبلة المدرسة غير مفصصه وبالترخيم والتذهيب والتهذيب غير مخصصه فانفذ لى لعمارتها فصوصا مذهبة وذهبا ثم حم مقدور حمامه وعاق القدر عن اتمامه ودفعت الى الموصل فرأيته فى المنام وهو يجاريني فى الكلام ويقول مايعود الى المدرسة معناه وقال الصلاة الصلاه فعرفت انه أشار الى المحراب وانه للآن على هيئة

الخراب فكتبت الى الفقيه الذى كان عنده الذهب ان يشرع فى عمارته ودخلت دمشق يوم فراغ الصانع منه
(فصل) قال ابن أبى طى وفى هذه السنة وصل رسول نور الدين الموفق بن القيسرانى الى الديار المصرية واجتمع بالسلطان الملك الناصر وأنهى اليه رسالة نور الدين وطالبه بحساب جميع ما حصله وارتفع اليه من المغل فصعب ذلك على السلطان وأراد شق العصى لولا ما ثاب اليه من السكينة والعقل فامر بعمل الحساب وعرضه على ابن القيسرانى وأراه جرائد الاجناد بمبالغ اقطاعهم وتعيين جامكياتهم ورواتب نفقاتهم فلما حصل عنده جميع ذلك أرسل معه هدية الى نور الدين على يد الفقيه عيسى قال ووقفت على برنامج شرحها بخط الموفق بن القيسرانى وهى خمس ختمات احداها ختمة ثلاثون جزءا مغشاة باطلس أزرق مضببة بصفائح ذهب وعليها أقفال ذهب مكتوبة بذهب بخط يانس وختمة بخط راشد مغشاة بديباج فستقى عشرة أجزاء وختمة بخط ابن البواب مجلد واحد بقفل ذهب وختمة بخط مهلهل جزء واحد وختمة بخط الحاكم البغدادى * ثلاثة أحجار بلخش حجر وزنه اثنان وعشرون مثقالا وحجر وزنه اثنا عشر مثقالا وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف * ست قصبات زمرد قصبة وزنها ثلاثة عشر مثقالا وثلث وربع وقصبة وزنها ثلاثة مثاقيل وقصبة وزنها مثقالان ونصف وقصبة وزنها مثقالان وربع وسدس وقصبة وزنها مثقالان وثلث * وحجر ياقوت وزنه سبعة مثاقيل * وحجر أزرق وزنه ستة مثاقيل وسدس * مائة عقد جوهر مختومة وزنها جميعها ثمانمائة وسبعة وخمسون مثقالا * خمسون قارورة دهن بلسان * عشرون قطعة بلور * أربعة عشر قطعة جزع وذكر تفصيلها * ابريق يشم * طشت يشم * سقرق مينا مذهب * صحون صينى وزبادى وسكارج * أربعون قطعة عود طيب قطعتين كبار * كرتان وزن احداها ثلاثون رطلا بالمصرى والاخرى احد وعشرون رطلا * مائة ثوب أطلس * أربعة وعشرون بيقارا مذهبة أربعة وعشرون ثوبا حريرى * أربعة وعشرون ثوبا من الوشى حريرية بيض * حلة فلفلى مذهبه * حلة مرايش صفرا مذهبه وذكر غير ذلك أنواعا من القماش قيمتها مائتان وخمسة وعشرون ألف دينار مصريه وعدة من الخيل والغلمان والجوارى وشيئا كثيرا من السلاح على اختلاف ضروبه قال وخرجوا بهذه الهدية فلم تصل الى نور الدين لانهم اتصل بهم وفاته فمنها ما أعيد ومنها ما استهلك لان الفقيه عيسى وابن القيسرانى وضعوا عليهم من نهبهم واستبدوا با كثرها وقيل انها وصلت جميعها الى السلطان لانه اتصل به خبر موت نور الدين فانفذ من ردها قال وحدثنى من شاهد هذه الهدية انه كان معها عشرة صناديق مالا لم يعلم مقداره وقال العماد لما وصل الى صلاح الدين رسول نور الدين وهو الموفق خالد اطلعه على كل ما هو فيه وأحصى له الطريف والتالد وقال هؤلاء الاجناد فاعرضهم واثبت أخبارهم وما ينضبط مثل هذا الاقليم الا بالمال العظيم ثم أنت تعرف اكابر الدولة وعظماءها وانهم اعتادوا من السعة والدعة على نعمائها وقد تصرفوا فى مواضع لا يمكن انتزاعها ولا يسمحون بأن ينقص ارتفاعها فالموارد مشفوهه والشدائد مكروهه والمقاصد بردعها مجبوهه والهمم بها مشدوهه وشرع فى جمع مال يسيره ويحمله بجهد يبذله وبخطر يحتمله وحصل لخالد منه ما لم يكن فى خلده وجاء مطرف غناه أضعاف متلده

(فصل) فى طلب عمارة الشاعر اليمنى وأصحابه قال العماد واجتمع جماعة من دعاة الدولة المصرية المتعصبة المتشددة المتصلبه وتوازروا وتزاوروا فيما بينهم خيفة وخفيه واعتقدوا أمنية عادت بالعقبى عليهم منيه وعينوا الخليفة والوزير وأحكموا الرأى والتدبير وتبيتوا أمرهم بليل وستروا عليه بذيل وكان عمارة اليمنى الشاعر عقيدهم ودعا للدعوة قريبهم وبعيدهم وكانوا قد أودعوا اسرارهم عند من أذاعه واستحفظوا من أضاعه وأدخلوا عدة من أنصار الدولة الناصرية فى جملتهم وعرفوهم بجملتهم وكان الفقيه الواعظ زين الدين على ابن نجا يناجيهم فيما زين لهم من سوء أعمالهم ويداخلهم فى عزم خروجهم مطلعا على أحوالهم وتقاسموا الدور والاملاك وكادت آمالهم تدنو من الادراك فجاء زين الدين الواعظ واطلع صلاح الدين على فسادهم وما سولوه من مرادهم وطلب ما لابن كامل الداعى من العقار والدور وكل ما له من الموجود والمذخور فبذل له السلطان كل ما طلبه وأمره بمخالطتهم ورغبه ثم أمر السلطان باحضار مقدميهم واعتقالهم لاقامة السياسة فيهم وصلب يوم السبت ثانى شهر رمضان جماعة منهم بين القصرين منهم عمارة وأفنى بعد ذلك من بقى منهم ومات بموتهم الخبر عنهم وكان منهم داعى الدعاة ابن عبد القوى وكان عارفا بخبايا القصر وكنوزه فباد ولم يسمح بابدائها وبقيت تلك الخزائن

مدفونه وتلك الدفائن مخزونه قد دفن دافنها وخزن تحت الثرى خازنها الى أن يأذن الله فى الوصول اليها والاطلاع عليها وجمع من أموال هؤلاء ما يحمل الى الشام للاستعانة به على حماية ثغور الاسلام قال ابن أبي طى وفى هذه السنة اجتمع جماعة من دعاة المصريين والعوام وتآمروا فيما بينهم خفية وبكوا على انقراض دولة المصريين وما صاروا اليه من الذل والفقر ثم أجمعوا آراءهم على أن يقيموا خليفة ووزيرا ويجمعوا اهم وجماعة عينوهم من الامراء وغيرهم وان يكاتبوا الفرنج وان ينبوا الملك الناصر وأدخلوا معهم فى هذا الامر ابن مصال وأعدّوا جماعة من شيعة المصريين ليلة عينوها وكتبوا الفرنج بذلك وقرروا معهم الوصول اليهم فى ذلك الزمان المقرر فخانهم ابن مصال فيما عاهدهم عليه ونكث فى اليمين وكفر عنها وصار الى الملك الناصر وعرفه بجلية ما جرى قال فأحضرهم واحدا واحدا وقررهم على هذه الحالة فأقروا واعترفوا واعتذروا بكونهم قطعت أرزاقهم وأخذت أموالهم فأحضر السلطان العلماء واستفتاهم فى أمرهم فأفتوه بقتلهم وصلبهم ونفيهم فأمر بصلبهم وقيل ان الذى أذاع سرّهم زين الدين على الواعظ وطلب جميع مالابن الداعى من العقار والمال فأعطاه جميع ذلك وكان الذين صلبوا منهم المفضل بن كامل القاضى وابن عبد القوى الداعى والعويريس وكان قد تولى ديوان النظر ثم القضاء بعد ذلك وشبرما كاتب السر وعبد الصمد القشة أحد أمراء المصريين ونجاح الحامى ورجل منجم نصرانى أرمنى كان قال لهم ان أمرهم يتم بطريق علم النجوم وعمارة اليمنى الشاعر قلت وبلغنى ان عمارة انما كان تحريضه لشمس الدولة على المسير الى اليمن ليتم هذا الامر لان فيه تقليلا لعسكر صلاح الدين وابعادا لاخيه وناصريه عنه قال العماد فى الخريدة ووقعت اتفاقات عجيبة من جملتها انه نسب اليه بيت من قصيدة ذكروا انه له يعنى فى القصيدة التى حرض فيها شمس الدولة على المسير الى اليمن أولها (العلم مذ كان محتاج الى العلم)

وقد تقدم ذكرها وأما البيت فهو هذا

قد كان أول هذا الدين من رجل ❊ سعى الى أن دعوه سيد الامم

قال العماد ويجوز أن يكون هذا البيت معمولا عليه فأفتى فقهاء مصر بقتله وحرضوا السلطان على المثلة بمثله قال ولعمارة فى مصلوب بمصر يقال له طرخان وكان خرج على الصالح بن رزيك فظفر به الصالح وصلبه وكان يستحسن أبيات عمارة فيه وهى

أراد علو مرتبة وقدر ❊ فأصبح فوق جذع وهو عال
ومدّ على صليب الجذع منه ❊ يمينا لا تطول على الشمال
ونكس رأسه لعتاب قلب ❊ دعاه الى الغواية والضلال

قال العماد فكأنه وصف حاله وما آل اليه أمره وقال فى البرق ووصل من صلاح الدين يوم وفاة نور الدين الى دمشق كتاب يتضمن هذه القضية وهو بخط ابن قريش يعنى المرتضى وقال ابن أبي طى وقد كتب القاضى الفاضل الى نور الدين كتابا شرح فيه قضية المصلبين فقال بعد مطلع الكتاب (قصر هذه الخدمة على متجدد سار للاسلام وأهله وبشارة مؤذنة بظهور وعد الله فى اظهاره على الدين كله بعد ان كانت لها مقدمات عظيمه الا انها اسفرت عن النجح وأوائل كالليلة البهيمه الا انها انفرجت عن الصبح فالاسلام ببركاته الباديه وفتكاته الماضيه قد عاد مستوطنا بعد ان كان غريبا وضرب فى البلاد بجرانه بعد ان كان الكفر يتم عليه تخيلا عجيبا الا ان الله سبحانه اطلع على أمرها من أوله وأظهر على سرها من مستقبله والمملوك يأخذ فى ذكر الخبر ويعرض عن ذكر الاثر لم يزل يتوسم من جند مصر ومن أهل القصر بعد ما أزال الله من بدعتهم ونقض من عرى دولتهم وخفض من مرفوع كلمتهم انهم أعداء وان تعدّت بهم الايام واضداد وان وقعت عليهم كلمة الاسلام وكان لا يحتقر منهم حقيرا ولا يستبعد منهم شرا كبيرا وعيونه لمقاصدهم موكله وخطراته فى الحذر زمنهم مستعمله لا تخلو سنة تمر ولا شهر يكر من مكر يجتمعون عليه وفساد يتسرعون اليه وحيلة يبرمونها ومكيدة يتممونها وكان أكثر ما يتعللون به ويستريحون اليه المكاتبات المتواتره والمراسلات المتقاطره الى الفرنج خذلهم الله التى يوسعون لهم فيها سبل المطامع ويحملونهم فيها على العظائم والفظائع ويزينون لهم الاقدام والقدوم ويخلعون فيها ربقة الاسلام خلع المرتد المخصوم ويد الفرنج بحمد الله

قصيرة عن اجابتهم الا أنهم لا يقطعون حبل طمعهم على عادتهم وكان ملك الفرنج كلما سولت له نفسه الاستتار في مراسلتهم والتحيل في مفاوضتهم سير جرج كاتبه رسولا الينا ظاهرا واليهم باطنا عارضا علينا الجميل الذي ما قبلناه قط أنفسنا وعاقدا معهم القبيح الذي يشتمل عليه في وقته علمنا ولاهل القصر والمصريين في أثناء هذه المدد رسل تتردد وكتب الى الفرنج تتجدد) ثم قال (والمولى عالم ان عادة أوليائه المستفادة من أدبه أن لا يبسطوا عقابا مؤلما ولا يعذبوا عذابا محكما واذا طال لهم الاعتقال ولم يجع السؤال أطلق سراحهم وخلي سبيلهم فلا يزيدهم العفو الاضراوه ولا الرقة عليهم الاقساوه وعند وصول جرج في هذه الدفعة الاخيرة رسولا الينا بزعمه ورد الينا كتاب ممن لا نرتاب به من قومه يذكرون انه رسول مخاتل. لا رسول مجامله وحامل بليه لا حامل هديه فأوهمناه الاغفال عن التيقظ لكل ما يصدر منه واليه فتوصل مرة بالخروج ليلا ومرة بالركوب الى الكنيسة وغيرها نهارا الى الاجتماع بحاشية القصر وخدامه وبامراء المصريين وأسبابهم وجماعة من النصارى واليهود وكلاب بهم وكتابهم فدسسنا اليهم من طائفتهم من داخلهم فصار ينقل الينا أخبارهم ويرفع الينا أحوالهم ولما تكاثرت الاقوال وكاد يشتهر علمنا بهذه الاحوال استخرنا الله تعالى وقبضنا على جماعة مفسده وطائفة من هذا الجنس متمرده قد اشتملت على الاعتقادات المارقه والسرائر المنافقه فكلا أخذ الله بذنبه فنهم من أقر طائعا عند احضاره ومنهم من أقر بعد ضربه فانكشفت أمور أخر كانت مكتومه ونوب غير التي كانت عندنا معلومه وتقريرات مختلفة في المراد متفقة في الفساد) ثم ذكر تفصيل لا حاصله انهم عينوا خليفة ووزيرا مختلفين في ذلك فنهم من طلب اقامة رجل كبير السن من بني عم العاضد ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد وان كان صغيرا واختلف هؤلاء في تعيين واحد منهم ولد بين له وأما بنو رزيك وأهل شاور فكل منهم أراد الوزارة لبيتهم من غير أن يكون لهم غرض في تعيين الخليفه ثم قال وكانوا فيما تقدم والمملوك على الكرك والشوبك بالعسكر قد كاتبوهم وقالوا لهم انه بعيد والفرصة قد أمكنت فاذا وصل الملك الفرنجي الى صدر أو الى ايلة ثارت حاشية القصر وكافة الجند وطائفة السودان وجموع الارمن وعامة الاسماعيلية وفتكت بأهلنا وأصحابنا بالقاهرة ثم قال ولما وصل جرج كتبوا الى الملك الفرنجي أن العساكر متباعدة في نواحي اقطاعاتهم وعلى قرب من موسم غلاتهم وانه لم يبق في القاهرة الا بعضهم واذا بعثت اسطولا الى بعض الثغور انهض فلانا من عنده وبقي في البلد وحده ففعلنا ما تقدم ذكره من الثورة ثم قال وفي أثناء هذه المدة كاتبوا سناناً صاحب الحشيشية بان الدعوة واحده والكلمة جامعه وان ما بين أهلها خلاف الا فيما لا يفترق به كلمه ولا يجب به قعود عن نصره واستدعوا منه من يتم على المملوك غيله أو يبيت له مكيدة وحيله والله من ورائهم محيط وكان الرسول اليهم عن المصريين خال ابن قرجلة المقيم الآن هو وابن أخته عند الفرنج ولما صح الخبر وكان حكم الله أولى ما اخذ به وأدب الله امضى فيمن خرج عن أدبه وتناصرت من أهل العلم الفتاوى وتوالت من أهل المشورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى قتل الله بسيف الشرع المطهر جماعة من الغواة الغلاة الدعاة الى النار الحاملين لاثقالهم واثقال من أضلوه من الفجار وشنقوا على أبواب قصورهم وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم ووقع التتبع لاتباعهم وشردت طائفة الاسماعيلية ونفوا ونودي بأن يرحل كافة الاجناد وحاشية القصر وراجل السودان الى أقصى بلاد الصعيد فأما من في القصر فقد وقعت الحوطة عليهم الى أن ينكشف وجه رأي يمضي فيهم ولا رأي فوق رأي المولى والله سبحانه المستخار وهو المستشار وعنده من أهل العلم من تطيب النفس بتقليده وتمضي الحدود بتحديده ورأي المملوك اخراجهم من القصر فانهم مهما بقوا فيه بقيت مادة لا تحسم الاطماع عنها فانه حبالة للضلال منصوبه وبيعة للبدع محجوبه قال المؤلف لعلها محجوبه ومما يطرف به المولى ان ثغر الاسكندرية على عموم مذهب السنة فيه أطلع البحث ان فيه داعية خبيثا أمره محتقرا شخصه عظيما كفره يسمى قديد القفاص وان المذكور مع خموله في الديار المصرية قد فشت في الشام دعوته وطبقت عقول أهل مصر فتنته وان أرباب المعايش فيه يحملون اليه جزءا من كسبهم والنسوان يبعثن اليه شطرا وافيا من أموالهن ووجدت في منزله بالاسكندرية عند القبض له والهجوم عليه كتب مجردة فيها خلع العذار وصريح الكفر الذي ما عنه اعتذار ورقاع يخاطب بها فيها ما تقشعر منه الجلود وبالجملة فقد كفى الاسلام أمره وحاق به مكره

وصرح بكفره قلت وفى قضية عمارة هذه يقول العلامة تاج الدين الكندى رحمه الله ونقلته من خطه

عمارة فى الاسلام ابدى جناية * وبايع فيها بيعة وصليبا
وامسى شريك الشرك فى بغض احمد * فاصبح فى حب الصليب صليبا
وكان خبيث الملتقى ان عجمته * تجد منه عودا فى النفاق صليبا
سيلقى غدا ما كان يسعى لاجله * ويسقى صديدا فى لظى وصليبا

قلت الصليب الاول النصارى والثانى بمعنى مصلوب والثالث من الصلابة والرابع ودك العظام وقيل هو الصديد أى يسقى ما يسيل من أهل النار نعوذ بالله منها وكان عمارة مستشعرا من الغز وهم أيضا منه لانه كان من اتباع الدولة المصرية وممن انتفع بها واختل أمره بعدها فلم تصف القلوب بعضها لبعض وصار يظهر فى فلتات لسانه فى نظمه ونثره ما يقتضى التحرز منه وابعاده وهو يرى ذلك منهم فيزداد فسادا فى نيته وان مدحهم تكلف ذلك وصرح وعرض فيه بما فى ضميره وقد قال فى كتاب الوزراء المصرية ذكر الله أيامهم بحمد لا يكل نشاطه ولا يداوى بساطه فقد وجدت فقدهم وهنت بعدهم وقال من قصيدة مدح بها نجم الدين أيوب

وكان لى فى ملوك النيل قبلكم * مكانة عرفتها العرب والعجم
وكان بينى وبين القوم ملحمة * فى حربها السن الاديان تختصم
وما تزال الى دارى عوارفهم * يسعى الىّ بها الانعام والكرم
تركت قصدك لما قيل انك لا * تجود الا على من مسه العدم
ولست بالرجل المجهول موضعه * ولا النزر من الاحسان أغتنم
ولا الى صدقات المال أطلبها * ولا عمى نال اعضائى ولا صمم
وانما أنا ضيف للملوك ولى * دون الضيوف لسان ناطق وفم

وقال من قصيدة مدح بها صلاح الدين رحمه الله

قررت لى ابناء رزيك رزقا * كان فى عصرهم مسنا مهنا
وأتت بعدهم ملوك فسنوا * فىّ ما كان صالح القوم سنا
ورعونى أما اقتداء بماض * أو لمعنى فكلهم بى يعنى

وله فيه من أخرى

فقد صارت الدنيا اليكم بأسرها * فلا نشبعوا منها ونحن جياع
اذا لم تريدونا فكونوا كمن مضى * ففى الناس أخبارلهم وسماع
وليس على مر الفطام اقامة * فهل فى ضروع المكرمات رضاع

وقال فى قصيدة مدح بها تقى الدين

هل تأذنون لمن أراد عتابكم * أم ليس فى اعتابكم من مطمع
ضيعتم من حق ضيفكم الذى * ما زال قبل اليوم غير مضيع
وتغافل السلطان عنى حين لم * اكشف قناع مذلة وتضرع
ورجوت نفعك بالشفاعة عنده * فسمحت لى بشفاعة لم تنفع
واذا نطاق الرزق ضاق مجاله * امسى مجال النطق غير موسع

وقال أيضا

يممت مصرا أطلب الجاه والغنى * فنلتهما فى ظل عيش ممنع
وزرت ملوك النيل ارتاد نيلهم * فاحمد مرتادى واخصب مربعى
وفزت بألف من عطية فائز * مواهبه للصنع لا للتصنع
وجاد ابن رزيك من الجاه والغنى * بما زاد عن مرمى رجائى ومطمعى

وأوحى الى سمعى ودائع شعره * فخبرته منى بأكرم مودع
وليست أيادى شاور بذميمة * ولا عهدها عندى بعهد مضيع
ملوك رعوا لى حرمة صار نبتها * هشيما رعته النائبات ومارعى
مذاهبهم فى الجود مذهب سنة * وان خالفونى باعتقاد التشيع
فقل لصلاح الدين والعدل شأنه * من الحاكم المصغى الى فأدعى
أقمت لكم ضيفا ثلاثة أشهر * أقول لصدرى كلما ضاق وسع
وكم فى ضيوف الباب ممن لسانه * اذا قطعوه لايقوم بأصبعى
فياراعى الاسلام كيف تركتنا * فريقى ضياع من عرايا وجوّع
دعوناك من قرب و بعد فهب لنا * جوابك فالبارى يجيب اذا دعى

وقال أيضا

اسفى على زمن الامام العاضد * اسف العقيم على فراق الواحد
جالست من وزرائه وصحبت من * أمرائه أهل الثناء الخالد
لهفى على حجرات قصرك اذ خلت * يا ابن النبى من ازدحام الوافد
وعلى انفرادك من عساكرك الذى * كانوا كأمواج الخضم الراكد
قلدت مؤتمن الخلافة أمرهم * فكبا وقصر عن صلاح الفاسد
فعسى الليالى أن ترد اليكم * ماعودتكم من جميل عوائد

وقال أيضا

قست رأفة الدنيا فلا الدهر عاطف * علىّ ولا عبد الرحيم رحيم
عفا الله عن آرائه كل فترة * كلام العدى فيها علىّ كلوم
وسامحه فى قطع رزق بفضله * وصلت اليه والزمان ذميم
الا هل له عطف علىّ فاننى * فقير الى ما اعتدت منه عديم

عبد الرحيم هو القاضى الفاضل رحمه الله وبلغنى ان عمارة لما امر وابه ليصلب عبروا به على جهة دار الفاضل فطلب الاجتماع به فقيل ليس اليه طريق فقال عبد الرحيم قد احتجب * ان الخلاص هو العجب

قال وهذه القصيدة تحقق ماذكر من الاجتماع على مكاتبة الفرنج والخوض فى فساد الدولة بل الملة وتوضح عذر السلطان فى قتله وقتل من شاركه فى ذلك وهى

رميت يادهر كف المجد بالشلل * وجيده بعد حلى الحسن بالعطل
سعيت فى منهج الرأى العثور فن * قدرت من عثرات البغى فاستقل
جذعت مارنك الاقنى فانفك لا * ينفك ما بين نقص الشين والخجل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل * سقيت مهلا اماتمشى على مهل
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة * على فجيعتنا فى أكرم الدول
قدمت مصر فاولتنى خلائفها * من المكارم ما أربى على الامل
قوم عرفت بهم كسب الالوف ومن * كمالها انها جاءت ولم أسل
وكنت من وزراء الدست حيث سما * رأس الحصان يهاديه على الكفل
ونلت من عظماء الجيش تكرمة * وخلة حرست من عارض الخلل
ياعاذلى فى هوى أبناء فاطمة * لك الملامة ان قصرت فى عذلى
بالله زر ساحة القصرين وابك معى * عليهما لا على صفين والجمل
وقل لاهلهما والله ما التحمت * فيكم قروحى ولا جرحى بمندمل

ماذا ترى كانت الافرنج فاعلة * فى نسل آل أمير المؤمنين على
هل كان فى الامر شئ غير قسمتما * ملكتم بين حكم السبي والنفل
وقد حصلتم عليها واسم جدكم * محمد وابيكم غير منتقل
مررت بالقصر والاركان خالية * من الوفود وكانت قبلة القبل
فلت عنها بوجهى خوف منتقد * من الاعادى ووجه الود لم يمل
أسبلت من أسف دمعي غداة خلت * رحابكم وغدت مهجورة السبل
أبكى على ماتراءت من مكارمكم * حال الزمان عليها وهي لم تحل
دار الضيافة كانت انس وافدكم * واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وفطرة الصوم ان أصغت مكارمكم * تشكو من الدهر حيفا غير محتمل
وكسوة الناس فى الفصلين قد درست * ورث منها جديد عنهم وبلى
وموسم كان فى كسر الخليج لكم * يأتى تجملكم فيه على الجمل
وأول العام والعيدان كان لكم * فيهن من وبل جود ليس بالوشل
والارض تهتز فى عيد الغدير بما * تهتزما بين قصريكم من الاسل
والخيل تعرض من وشى ومن شية * مثل العرائس فى حلى وفى حلل
ولا حملتم قرى الاضياف من سعة الـ * أطباق الاعلى الاعناق والجل
وما خصصتم ببر أهل ملتكم * حتى عممتم به الاقصى من الملل
كانت رواتبكم للذمتين وللضيـ * ـف المقيم وللطارى من الرسل
وللجوامع من أحباسكم نعم * لمن تصدر فى علم وفى عمل
وربما عادت الدنيا لمعقلها * منكم واضحت بكم محلولة العقل

وقال العماد فى الخريدة أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل كان داعى الدعاة بمصر للادعيا وقاضى القضاة لاولئك الاشقيا يلقبونه بفخر الامنا وهو عندهم فى المحلة العليا والمرتبة الشما والمنزلة التى فى السما حتى انكدرت نجومهم وتغيرت رسومهم وأقيم قاعدهم وعضد عاضدهم وأخليت منهم مصرهم وأجلى عنهم قصرهم فحرك ابن كامل ناقص الذب عنهم والشد منهم فامال قوما على البيعة لبعض أولاد العاضد ليبلغوا به ماتخيلوه من المقاصد وسولوه من المكايد فاثمرت بجثثهم الجذوع واقفرت من جسومهم الربوع وأحكمت فى حلومهم النسوع وهذا أول من ضمه حبل الصاب وأمه فاقره الصلب وهذا صنع الله فيمن الحد وكفر النعمة وجحد وذلك غرة رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة سمعت الملك الناصر صلاح الدين يذكره وقد ذكروه عنده بالفضل والادب ونسبوا اليه هذين البيتين فى غلام رفا وأنشدهما الملك الناصر وذكر انه كان ينكرها

يارافيا خرق كل ثوب * ويارشا حبه اعتقادى
عسى بكف الوصال ترفو * ماخرق الهجر من فؤادى

(فصل) فى التعريف بحال عمارة ونسبه وشعره قال العماد وقد أوردت شعر عمارة ابن أبى الحسن اليمنى فى كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ونقلت الى هذا الكتاب يعنى كتاب البرق الشامى لمعا من ذلك فمن ذلك ما أنشدنيه نجم الدين أبو محمد بن مصال

لوان قلبى يوم كاظمة معى * لملكته وكظمت غيظ الادمع

قال العماد انما أنشدنى فيض الادمع فرأيت غيظ الادمع اليق بالكظم

قلب كفاك من الصبابة انه * لبى نداء الظاعنين وما دعى
ومن الظنون الفاسدات توهمى * بعد اليقين بقاءه فى أضلعى
ما القلب أول غادر فالومه * هى شيمة الايام مذ خلقت معى

قال

قال وأنشدنى لعمارة أيضا

ملك اذا قابلت بشر جبينه * فارقته والبشر فوق جبينى
واذا لثمت يمينه وخرجت من * أبوابه لثم الملوك يمينى

قال وأنشدنى له عضد الدين أبو الفوارس مرهف بن اسامة بن منقذ يقول

لى فى هوى الرشاء العذرى أعذار * لم يبق لى مذ اقر الدمع انكار
لى فى القد ود وفى لثم الخدود وفى * ضم النهود لبانات وأوطار
هذا اختيارى فوافق ان رضيت به * أولا فدعنى وما أهوى واختار
لمنى جزافا وسامحنى مصارفة * فالناس فى درجات الحب أطوار
وخل عذلى ففى دارى ودائرتى * من المها درة قلبى لها دار

قلت وروى (وغر غيرى ففى أسرى ودائرتى) والابيات العينية من قصيدة فى مدح تقى الدين والنونية فى مدح نجم الدين أيوب والرائية فى مدح شمس الدولة بن أيوب وكان عمارة هذا اعرابيا فقيها أديبا وله كتاب صغير ذكر فيه أخباره وأحواله باليمن ثم بمصر فذكر انه أقام بزبيد ثلاث سنين يقرأ عليه مذهب الشافعى رضى الله عنه قال ولى فى الفرائض مصنف يقرأ باليمن وفى سنة تسع وثلاثين زارنى والدى وخمسة من اخوتى الى زبيد فانشدته شيئا من شعرى فاستحسنه ثم قال تعلم والله ان الادب لنعمة من نعم الله عليك فلا تكفرها بذم الناس واستحلفنى ان لا أهجو مسلما ببيت شعر فحلفت له على ذلك ولطف الله بى فلم أهج أحدا ما عدى انسانا هجانى بحضرة الملك الصالح يعنى ابن رزيك ببيتى شعر فاقسم الصالح على ان أجيبه ففعلت متأولا قول الله عز وجل ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل وقوله تعالى فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم قال ولم يكن شئ غير هذا

وحججت مع الملكة أم فاتك ملك زبيد وكانت تقوم لامير الحرمين بجميع ما يتناوله من حاج اليمن برا وبحرا وبجميع خفارات الطريق فذكر انه حصل له وجاهة عندها فانتفع بها حتى أثرى وكثر ماله وجاهه ثم طرأت أمور اقتضت ان هرب من اليمن وحج سنة تسع وأربعين وخمسمائة قال وفى موسم هذه السنة توفى أمير الحرمين هاشم بن فليتة وولى الحرمين ولده قاسم بن هاشم فالزمنى السفارة عنه والرسالة منه الى الدولة المصرية فقدمتها فى شهر ربيع الاول سنة خمسين والخليفة بها يومئذ الفائز بن الظافر والوزير له الملك الصالح طلايع ابن رزيك فلما حضرت للسلام عليهما فى قاعة الذهب من قصر الخليفة أنشدتهما

الحمد للعيس بعد العزم والهمم * حمدا يقوم بما أولت من النعم
لا أجحد الحق عندى للركاب يد * تمنت اللجم فيها رتبة الخطم
قربن بعد مزار العز من نظرى * حتى رأيت امام العصر من أمم
ورحن من كعبة البطحاء والحرم * وفدا الى كعبة المعروف والكرم
فهل درى البيت انى بعد زورته * ما سرت من حرم الا الى حرم
حيث الخلافة مضروب سرادقها * بين النقيضين من عفو ومن نقم
وللامامة أنوار مقدسة * تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم
وللنبوة آيات تنص لنا * على الخفيين من حكم ومن حكم
وللمكارم اعلام تعلمنا * مدح الجزيلين من بأس ومن كرم
وللعلى ألسن تثنى محامدها * على الحميدين من فعل ومن شيم
وراية الشرف البذاخ ترفعها * يد الرفيعين من مجد ومن همم
أقسمت بالفائز المعصوم معتقدا * فوز النجاة وأجر البر فى القسم
لقد حمى الدين والدنيا وأهلهما * وزيره الصالح الفراج للغمم
اللابس الفخر لم تنسج غلائله * الا يد الصنعتين السيف والقلم

وجوده أوجد الايام ما اقترحت * وجوده أعدم الشاكين للعدم
قد ملكته العوالي رق مملكة * تعير أنف الثريا عزة الشمم
أرى مقاما عظيم الشان أوهمني * في يقظتي انها من جملة الحلم
يوم من العمر لم يخطر على أمل * ولا ترقت اليه رغبة الهمم
ليت الكواكب تدنو لي فانظمها * عقود مدح فما أرضى لكم كلمي
ترى الوزارة فيه وهي باذلة * عند الخلافة نصحا غير متهم
عواطف أعلمتنا ان بينهما * قرابة من جميل الرأى لا الرحم
خليفة ووزير مدّ عدلهما * ظلا على مفرق الاسلام والامم
زيادة النيل نقص عند فيضهما * فما عسى يتعاطى منة الديم

قال وعهدي بالصالح وهو يستعيدها في حال النشيد مرارا والاستاذون والامراء والكبراء يذهبون في الاستحسان كل مذهب ثم أفيضت عليّ خلع من ثياب الخلافة مذهبة ودفع اليّ الصالح خمسمائة دينار واذا بعض الاستاذين قد خرج لي من عند السيدة بنت الامام الحافظ بخمسمائة دينار أخرى وحمل المال معي الى منزلي واطلقت لي من دار الضيافة رسوم لم تطلق لاحد قبلي وتهادتني أمراء الدولة الى منازلهم للولائم واستحضرني الصالح لمجالسه ونظمني في سلك أهل المؤانسه وانثالت عليّ صلاته وغمرني بره ووجدت بحضرته من أعيان أهل الادب الشيخ الجليس أبا المعالي ابن الحباب والموفق أبا الحجاج يوسف بن الخلال صاحب ديوان الانشاء وأبا الفتح محمود بن قادوس والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير وغيرهم وما من هذه الحلبة أحد الا ويضرب في الفضائل النفسانية والرياسة الانسانية بأوفر نصيب ومازلت أحذو على طرائقهم حتى نظموني في سلك فرائدهم فقلت

ليالي بالفسطاط من شاطئي مصر * سقى عهدك الماضي عهاد من القطر
ليال هي العمر السعيد وكلما * مضى في سواها لا يعدّ من العمر
أفادتني الاقدار فيها مواليا * صفت بهم الايام من كدر الغدر
تواصوا على أن لا ترد ارادتي * ولو سمتهم نثر الكواكب في حجري

وله في الصالح من قصيدة

ولو لم يكن أدرى بما جهل الورى * من الفضل لم تنفق لديه الفضائل
لئن كان منا قاب قوس فبيننا * فراسخ من اجلاله ومراحل

قال وأنشدت الصالح وهو بالقبو من دار الوزارة قصيدة منها

دعوا كل برق شمتم غير بارق * يلوح على الفسطاط صادق بشره
وزوروا المقام الصالحي فكل من * على الارض ينسى ذكره عند ذكره
ولا تجعلوا مقصودكم طلب الغنى * فتجنوا على مجد المقام وفخره
ولكن سلوا منه العلى تظفروا بها * فكل امرئ يرجى على قدر قدره

قال ولما جلس شاور في دار الذهب قام الشعراء والخطباء ولفيف الناس الا الاقل ينالون من بني رزيك وضرغام نائب الباب ويحيى بن الخياط الاسفهسلار فأنشدته

صحت بدولتك الايام من سقم * وزال ما يشتكيه الدهر من ألم
زالت ليالي بني رزيك وانصرمت * والحمد والذم فيها غير منصرم
كأن صالحهم يوما وعادلهم * في صدر ذا الدست لم يقعد ولم يقم
كنا نظن وبعض الظن مأثمة * بأن ذلك جمع غير منهزم
فمذ وقعت وقوع النسر خانهم * من كان مجتمعا في ذلك الرخم
ولم يكونوا عدوّا ذل جانبه * وانما غرقوا في سيلك العرم

وما قصدت بتعظيمي عداك سوى * تعظيم شأنك فاعذرني ولا تلم
ولو شكوت لياليهم محافظة * لعهدها لم يكن بالعهد من قدم
ولو فتحت فمي يوما بذمهم * لم يرض فضلك الا أن يسد فمي
والله يأمر بالاحسان عارفة * منه وينهى عن الفحشاء في الكلم

قال فشكرني شاور وأبناؤه على الوفاء لبني رزيك قلت وشعر عمارة كثير حسن وعندي في قوله الحمد للعيس وان كانت القصيدة فائقة نفرة عظيمة فانه أقام ذلك مقام قولنا الحمد لله ولا ينبغي أن يفعل ذلك مع غير الله عز وجل فله الحمد وله الشكر فهذا اللفظ كالمتعين لجهة الربوبية المقدسة وعلى ذلك اطراد استعمال السلف والخلف رضي الله عنهم

(فصل في وفاة نور الدين رحمه الله تعالى) قال العماد وأمر نور الدين بتطهير ولده الملك الصالح اسماعيل يوم عيد الفطر واختلفنا لهذا الامر وغدونا أياما قال ونظمت للهناء بالعيد والطهور قصيدة منها

عيدان فطر وطهر * فتح قريب ونصر * كلاهما لك فيه * حقا هناء وأجر
وفيهما بالتهاني * رسم لنا مستمر * طهارة طاب منها * أصل وفرع وذكر
تجل على الطهر نام * زكا له منك نجر * محمود الملك العاد * ل الكريم الاغر
وبابنه الملك الصا * لح العيون تقر * مولى به اشتد للديـ * ـن والشريعة ازر
نور تجلى عيانا * مادونه اليوم ستر * أضحت مساعيك غرا * كما أياديك غزر
وكل قصدك رشد * وكل فعلك بر * وان حبك دين * وان بغضك كفر
لنا بيمناك يمن * كما بيسراك يسر * وللموالين نفع * وللمعادين ضر
وللسماء سحاب * وسحب كفيك عشر * ناديك بالرفد رحب * نداك للوفد بحر
للبحر مد وجزر * وما لجودك جزر * عدل عميم وجود * غمر وبسر وبشر
وفي العطية حلو * وفي الحمية مر * قد استوى منك تقوى الـ * ـاله سر وجهر
تقاك والملك عند الـ * ـقياس عقد ونحر * يا أعظم الناس قدرا * وهل لغيرك قدر
وساهرا حين ناموا * وقائما حين قروا * ما اعتدت الا وفاء * وعادة القوم غدر
وفعلك الدهر غزو * للمشركين وقهر * وفعل غيرك ظلم * للمسلمين وقسر
يفتر من كل ثغر * الى ابتسامك ثغر * روم به وفرنج * في شفعهم لك وتر
حرب عوان وفتح * على مرادك بكر * بنو الاصافر من خشـ * ـية انتقامك صفر
لم يبق للكفر ظفر * لا كان للكفر ظفر * ومادجى ليل خطب * الا وعزمك فجر
أصبحت بالغزو صبا * وعنه مالك صبر * لكسر كل يتيم * اسعاف برك جبر
في كل قلب حسود * من حر بأسك جمر * تمل تطهير ملك * له الملوك تخر
يزهى سرير وتاج * به ودست وصدر * وكيف يعمل للطا * هر المطهر طهر
هذا الطهور ظهور * على الزمان وأمر * وذا الختان ختام * بمسكه طاب نشر
رزقت عمرا طويلا * ما طال للدهر عمر

قال وفي يوم العيد يوم الاحد ركب نور الدين على الرسم المعتاد محفوفا من الله بالاسعاد مكنوفا من السماء والارض بالاجناد والقدر يقول له هذا آخر الاعياد ووقف في الميدان الاخضر الشمالي لطعن الحلق ورمى القبق وكان مسجد صلاته في الميدان القبلي الاخضر وأمر بوضع المنبر وخطب له القاضي شمس الدين محمد بن المقدم قاضي العسكر بعد ان صلى به وذكر وعاد الى القلعة طالع البهجة بهيج الطلعة وأنهب العطايا والانعام على رسم الاتراك وأكابر الاملاك ثم حضرنا على خوانه المتاص وله عقد كالمصون من الانتقاض والانتقاص وما أوضح بشره وأضوع نشره وأضحك سنه وأبرك يمنه وفي يوم الاثنين ثاني العيد بكر وركب وجمل الموكب وكان الفلك

بنيرمجار والطود الثابت بمرور السحاب فى وقار وكأنه القمر فى هالته والقدر فى جلالته والبدر فى دائرته سائر بين سيارته ودخل الميدان والعظماء يسايرونه والفهماء يحاورونه وفيهم همام الدين مودود وهو فى الاكابر معدود وكان قديما فى أوّل دولته والى حلب وقد جرّب الدهر بحنكته ولاشطره حلب فقال لنور الدين فى كلامه عظة لمن يعتبر بأيامه هل نكون ههنا فى مثل هذا اليوم فى العام القابل فقال نور الدين قل هل نكون بعد شهر فان السنة بعيدة فجرى على منطقهما ماجرى به القضاء السابق فان نور الدين لم يصل الى الشهر والهمام لم يصل الى العام ثم شرع نور الدين فى اللعب بالكره مع خواصه البرره فاعترضه فى حاله أميرآخر اسمه برتقش وقال له باش فأحدث له الغيظ والاستيحاش واغتاظ على خلاف مذهبه الكريم وخلقه الحليم فزجره وزبره ونهاه ونهره وساق ودخل القلعة ونزل واحتجب واعتزل فبقى اسبوعا فى منزله مشغولا بنازله مغلوبا عن عاجله بحديث أجله والناس من الختان لاهون بأوطارهم فى الاوطان فهذا يروح بجوده وذاك يجود بروحه فما انتهت تلك الافراح الابالاتراح وما صلح الملك بعده الا بملك الصلاح قال واتصل مرض نور الدين وأشار عليه الاطباء بالفصد فامتنع وكان مهيبا فما روجع وانتقل حادى عشر شوّال يوم الاربعاء من مربع الفناء الى مرتع البقاء ولقد كان من اولياء الله المؤمنين وعباده الصالحين وصار الى جنات عدن أعدت للمتقين وكانت له صفة فى الدار التى على النهر الداخل الى القلعة من الشمال وكان جلوسه عليها فى جميع الاحوال فلما جاءت سنة الزلزلة بنى بازاء تلك الصفة بيتا من الاخشاب مأمون الاضطراب فهو يبيت فيه ويصبح ويخلو بعبادته ولا يبرح فدفن فى ذلك البيت الذى اتخذه حمى من الحمام وأذن بناؤه لبانيه بالاهدام قال العماد وقلت فى ذلك

عجبت من الموت كيف أتى * الى ملك فى سجايا ملك
وكيف ثوى الفلك المستديـر فى الارض والارض وسط الفلك

وله فيه رحمهما الله تعالى

ياملكا أيامه لم تزل * لفضله فاضلة فاخره
غاصت بحار الجود مذغيبت * أنملك الفائضة الزاخره
ملكت دنياك وخلفتها * وسرت حتى تملك الآخره

قال ابن شدّاد وكانت وفاة نور الدين رحمه الله بسبب خوانيق أعترته عجز الاطباء عن علاجها ولقد حكى لى صلاح الدين قال كان يبلغنا عن نور الدين انه ربما قصدنا بالديار المصريه وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف يردّه اذا تحقق قصده وكنت وحدى أخالفهم وأقول لا يجوز ان يقال شئ من ذلك ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته رحمه الله ورضى عنه قال ابن الاثير وكان نور الدين قد شرع بتجهيز المسير الى مصر لاخذها من صلاح الدين لانه رأى منه فتورا فى غزو الفرنج من ناحيته فأرسل الى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر ليتركها بالشام لمنعه من الفرنج ليسير هو بعساكره الى مصر وكان المانع لصلاح الدين من الغزو الخوف من نور الدين فانه كان يعتقد ان نور الدين متى زال عن طريقة الفرنج أخذ البلاد منه فكان يحتمى بهم عليه ولا يؤثر استئصالهم وكان نور الدين لا يرى الا الجدّ فى غزوهم بجهده وطاقته فلما رأى اخلال صلاح الدين بالغزو وعلم غرضه تجهز بالمسير اليه فأتاه أمر الله الذى لا يردّ قلت ولو علم نور الدين ماذا ادّخر الله تعالى للاسلام من الفتوح الجليلة على يد صلاح الدين من بعده لقرّت عينه فانه بنى على ما أسسه نور الدين من جهاد المشركين وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها رحمهما الله تعالى قال وحكى لى طبيب بدمشق يعرف بالرحبى وهو من حذاق الاطباء قال استدعانى نور الدين فى مرضه الذى توفى فيه مع غيرى من الاطباء فدخلنا عليه وهو فى بيت صغير بقلعة دمشق وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته وكان يخلو فيه للتعبد فى أكثر أوقاته فابتدأ به المرض فيه فلم ينتقل عنه فلما دخلنا عليه ورأينا مابه قلت كان ينبغى ان لا يؤخروا احضارنا الى ان يشتدّ بك المرض الى هذا الحدّ فالآن ينبغى ان تنتقل الى مكان فسيح فله أثر فى هذا المرض وشرعنا فى علاجه فلم ينفع فيه الدواء وعظم الداء ومات عن قريب رضى الله عنه قال ابن الاثير وكان أسمر طويل القامة ليس له لحية

الا فى حنكه وكان واسع الجبهه حسن الصوره حلو العينين وكان قد اتسع ملكه جدا فلك الموصل وديار الجزيرة وأطاعه أصحاب ديار بكر وملك الشام والديار المصرية واليمن وخطب له بالحرمين الشريفين مكة والمدينة وطبق الارض ذكره لحسن سيرته وعدله ولم يكن مثله الا الشاذ النادر رحمة الله تعالى عليه قال الحافظ أبو القاسم بعدما ذكر أوصاف نور الدين الجليلة المتقدمة مفرقة ومجموعة فى هذا الكتاب هذا مع ما جمع الله له من العقل المتين والرأى الثاقب الرصين والاقتداء بسيرة السلف الماضين والتشبه بالعلماء والصالحين والاقتفاء لسيرة من سلف منهم فى حسن سمتهم والاتباع لهم فى حفظ حالهم ووقتهم حتى روى حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم واسمعه وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه حرصا منه على الخير فى نشر السنة بالاداء والتحديث ورجاء ان يكون ممن حفظ على الامة أربعين حديثا كما جاء فى الحديث فمن رآه شاهد من خلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره فاذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه ما يحيره يحب الصالحين ويواخيهم ويزورهم في مساكنهم لحسن ظنه فيهم واذا احتلم مماليكه أعتقهم وزوّج ذكرانهم باناثهم ورزقهم ومتى تكررت الشكاية اليه من أحد من ولاته أمره بالكف عن أذى من تظلم بشكاته فمن لم يرجع منهم الى العدل قابله باسقاط المنزلة والعزل فلما جمع الله له من شريف الخصال تيسر له جميع ما يقصده من الاعمال وسهل على يديه فتح الحصون والقلاع ومكن له فى البلدان والبقاع ثم قال بعد كلام كثير ومناقبه خطيره ومدائحه كثيره ومدحه جماعة من الشعراء فأكثروا ولم يبلغوا وصف آلائه بل قصروا وهو قليل الابتهاج بالشعر زيادة فى تواضعه لعلو القدر ومولده على ماذكر لى كاتبه أبو اليسر شاكر بن عبد الله وقت طلوع الشمس من يوم الاحد سابع عشر شوال سنة احدى عشرة وخمسمائة وتوفى يوم الاربعاء الحادى عشر من شوال سنة تسع وستين وخمسمائة ودفن بقلعة دمشق ثم نقل الى تربة تجاور مدرسته التى بناها لاصحاب أبى حنيفة رضى الله عنه جوار الخواصين فى الشارع الغربى رحمه الله قلت وفى هذه المدرسة يقول العرقله

ومدرسة سيدرس كل شئ * وتبقى فى حمى علم ونسك
تضوّع ذكرها شرقا وغربا * بنور الدين محمود بن زنكى
يقول وقوله حق وصدق * بغير كناية وبغير شك
دمشق فى المدائن بيت ملكى * وهذى فى المدارس بيت ملكى

ولما اشتهر من قلة ابتهاجه بالمدح لما علم من تزايد الشعراء وهى طريقة عمر بن عبد العزيز زاهد الخلفاء قال يحيى بن محمد الوهرانى فى مقامة له وقد سئل فى بغداد عن نور الدين (هو سهم للدولة سديد وركن للخلافة شديد وأمير زاهد وملك مجاهد تساعده الافلاك وتعضده الجيوش والاملاك غير انه عرف بالمرعى الوبيل لابن السبيل وبالمحل الجديب للشاعر الاديب فما يرزى ولا يعزى ولا لشاعر عنده من نعمة تجزى) واياه عنى أسامة بن منقذ بقوله

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا * له فكل على الخيرات منكمش
أيامه مثل شهر الصوم طاهرة * من المعاصى وفيها الجوع والعطش

قلت رحمه الله ما كان يبذل أموال المسلمين الا فى الجهاد وما يعود نفعه على العباد وكان كما قيل فى حق عبد الله بن محيريز وهو من سادات التابعين بالشام قال يعقوب بن سفيان الحافظ حدثنا ضمرة عن الشيبانى قال كان ابن الديلمى من أنصر الناس لاخوانه فذكر ابن محيريز فى مجلسه فقال رجل كان بخيلا فغضب ابن الديلمى وقال كان جوادا حيث يحب الله بخيلا حيث تحبون وأما شعر ابن منقذ فلا اعتبار به فهو القائل فى ليلة الميلاد يمدح نور الدين رحمه الله

فى كل عام للبرية ليلة * فيها تشب النار بالايقاد
لكن لنور الدين من دون الورى * ناران نار قرى ونار جهاد
أبدا يصرّفها نداه وبأسه * فالعام أجمع ليلة الميلاد
ملك له فى كل جيد منة * أبهى من الاطواق فى الاجياد
أعلى الملوك يدا وأمنعهم حمى * وأمدّهم كفا ببذل تلاد

يعطى الجزيل من النوال تبرعا * من غير مسألة ولا ميعاد
لازال فى سعد وملك دائم * مادامت الدنيا بغير نفاد

وقد تقدم من شعر ابن منير وابن القيسرانى والعماد الكاتب وغيرهم من مدح نور الدين بالكرم والجود ما قليل منه يرد قول الوهرانى وابن منقذ على ان ابن منقذ قد رددنا شعره لشعره كما تراه وانما الشعراء وأكثر الناس كما قال الله تعالى فى وصف قوم فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون وما كل وقت ينفق العطاء ويفعل الله ما يشاء

(فصل) قال ابن الاثير لما توفى نور الدين جلس ابنه الملك الصالح اسماعيل فى الملك وحلف له ولم يبلغ الحلم وحلف له الامراء والمقدمون بدمشق وأقام بها واطاعه الناس فى سائر بلاد الشام وصلاح الدين بمصر وخطب له بها وضرب السكة باسمه فيها وتولى تربيته الامير شمس الدين محمد بن المقدم قال العماد واخرجوا يوم وفاة نور الدين ولده الملك الصالح اسماعيل وقد أبدى الحزن والعويل وهو مجزوز الذوائب مشقوق الجيب حاسر حاف مما جفاه وجفه من الريب واجلسوه فى الايوان الشمالى من الدست والتخت الباقى من عهد تاج الدولة تتش فاستوحى كل قلب حزنه واستوحش فوقف الناس يضطرمون ويضطربون ويتلهفون ويلتهبون ولما كفن بحلة الكرامه ودفن فى روضة بابها الى باب رضوان من دار المقامه وقضوا الجزع وقوضوا الفزع وغيبوا الدمعه واحضروا الربعه حضر القاضى كمال الدين وشمس الدين بن المقدم وجمال الدولة ريحان وهو أكبر الخدم والعدل أبو صالح بن العجمى أمين الاعمال والشيخ اسماعيل خازن بيت المال وتحالفوا على أن تكون أيديهم واحده وعزائمهم متعاقده وان ابن المقدم مقدم العسكر واليه المرجع والمصدر قال وانشأت فى ذلك اليوم كتابا عن الملك الصالح الى صلاح الدين فى تعزيته بنور الدين ترجمته (اسماعيل بن محمود) وفيه (اطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر وعظم أجرنا وأجره فى والدنا الملك العادل ندب الشام بل الاسلام حافظ ثغوره وملاحظ أموره ومقدام الجهاد مقتنى فضيلته ومؤدى فريضته ومحيى سنته وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريره على انه يعز ان يرى الزمان نظيره وماههنا ما يشغل السر ويقسم الفكر الأمر الفرنج خذلهم الله وما كان اعتماد مولانا الملك العادل عليه وسكونه اليه الامثل هذا الحادث الجلل والصرف الكارث المذهل فقد اذخره لكفايات النوائب واعده لحسم ادواء المعضلات اللوازب وأمله ليومه ولغده ورجاه لنفسه ولولده ومكنه قوة لعضده فما فقد رحمه الله الاصورة والمعنى باق والله تعالى حافظ لبيته واق وهل غيره مدام سخوه من مؤازر وهل سوى السيد الاجل الناصر من ناصر وقد عرفناه المقترح ليروض برأيه من الامر ما جمح والاهم شغل الكفار عن هذه الديار بما كان عازما عليه من قصدهم والنكاية فيهم على البدار ويجرى على العادة الحسنى فى أحياء ذكر الوالد وتجديد ذكرنا راغبا فى اغتنام ثنائنا وشكرنا) قلت وكان قد بلغ صلاح الدين خبر نور الدين فأرسل كتابا بالمثال الفاضلى فيه (ورد خبر من جانب العدو اللعين عن المولى نور الدين أعاذنا الله فيه من سماع المكروه ونور بعافيته القلوب والوجوه فاشتد به الامر وضاق به الصدر وانقصم بحادثه الظهر وعز فيه التثبت وأعوز الصبر فان كان والعياذ بالله قد تم وخصه الحكم الذى عم فللحوادث تدخر النصال وللايام تصطنع الرجال وما رتب الملوك ممالكها الالاولادها ولا استودعت الارض الكريمة البذر الالتؤدى حقها يوم حصادها فالله الله ان تختلف القلوب والايدى فتبلغ الاعداء مرادها وتعدم الاراء رشادها وتنتقل النعم التى تعبت الايام فيها الى ان اعطت قيادها فكونوا يدا واحده واعضادا متساعده وقلوبا يجمعها ود وسيوفا يضمها غمد ولا تختلفوا فتنكلوا ولا تنازعوا فتفشلوا وقوموا على امشاط الارجل ولا تأخذوا الامر باطراف الانمل فالعداوة محدقة بكم من كل مكان والكفر مجتمع على الايمان ولهذا البيت منا ناصر لا نخذله وقائم لا نسلمه وقد كانت وصيته الينا سبقت ورسالته عندنا تحققت بان ولده القائم بالامر وسعد الدين كمشتكين الاتابك بين يديه فان كانت الوصية ظهرت وقبلت والطاعة فى الغيبة والحضور أديت وفعلت والانفس لهذا الولد يد على من ناواه وسيف على من عاداه وان اسفر الخبر عن معافاه فهو الغرض المطلوب والنذر الذى يحل على الايدى والقلوب) قال العماد وورد كتاب صلاح الدين بالمثال الفاضلى معزيا بالابن نور الدين وفى آخره (وأما العدو خذله الله فوراءه من الخادم من يطلبه طلب ليل لنهاره وسيل لقراره الى ان يزعجه من مجاثمه ويستوقفه عن مواقف مغانمه وذلك من أقل فروض البيت الكريم

وايسر لوازمه اصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذى القعده وهو اليوم الذى أقيمت فيه الخطبه بالاسم الكريم وصرح فيه بذكره فى الموقف العظيم والجمع الذى لا لغو فيه ولا تأثيم وأشبه يوم الخادم أمسه فى الخدمه ووفى مالزمه من حقوق النعمه وجمع كلمة الاسلام عالما ان الجماعة رحمه والله تعالى يخلد ملك المولى الملك الصالح ويصلح به وعلى يديه ويؤكد عهود النعماء الراهنة لديه ويجعل للاسلام واقية باقية عليه ويوفق الخادم لما ينويه من توثيق سلطانه وتشييده ومضاعفة ملكه ومزيده وييسر منال كل أمر صالح وتقريب بعيده ان شاء الله) ومن كتاب آخر (الخادم مستمر على بدأته من الاستشراف لاوامرها والتعرض لمراسمها والرفع لكلمتها والا بالة لعسكرها والتحقق بخدمتها فى بواطن الاحوال وظواهرها والترقب لان يؤمر فيمتثل ويكلف فيحتمل وان يرمى به فى نحر العدو فيسدد بجهده ويوفى أيام الدولة العالية بوما يكشف الله فيه للمولى ضمير عبده) قال العماد ولما توفى نور الدين اختل أمرى واعتل سرى وعلت حسادى وبلغ مرادهم اضدادى وكان الملك الصالح صغيرا فصار العدل ابن العجمى له وزيرا وتصرف المخالفون فى الخزانة والدولة كما أرادوا وولوا وصرفوا ونقصوا وزادوا واقتصروا لى على الكتابه محروم الدعوة من الاجابه ومما نظمته فى مرثية نور الدين قصيدة منها

لفقد الملك العادل يبكى الملك والعدل * وقد أظلمت الآفا * ق لاشمس ولاظل
ولما غاب نور الديـــن عنا أظلم الحفل * وزال الخصب والخيــر وزاد الشر والمحل
ومات البأس والجود * وعاش اليأس والبخل * وعز النقص لماها * ن اهل الفضل والفضل
وهل ينفق ذو الطـــم اذا ما نفق الجهل * وما كان لنور الديـــن لولا نجله مثل

* (فصل) وقال العماد واتفق نزول الفرنج بعد وفاة نور الدين على الثغر وقصدهم بانياس ورجوا ان يتم لهم الامر ثم ظهرت خيبتهم وبان الياس وذلك ان شمس الدين ابن المقدم خرج وراسل الفرنج وخوفهم بقصد صلاح الدين لبلادهم وانه قد عزم على جهادهم وتكلموا فى الهدنه وقطع مواد الحرب والفتنه وحصلوا بقطيعة استعجلوها وعدة من اساراهم استطلقوها وتمت المصالحة وبلغ ذلك صلاح الدين فأنكره ولم يعجبه وكتب الى جماعة الاعيان كتبا دالة على التوبيخ والملام ومن جملتها كتاب بالمثال الفاضلى الى الشيخ شرف الدين ابن أبى عصرون يخبره فيه انه لما أتاه كتاب الملك الصالح بقصد الفرنج تجهز وخرج وسار أربع مراحل ثم جاءه الخبر بالهدنة المؤذنة ببذل الاسلام من دفع القطيعة واطلاق الاسارى وسيدنا الشيخ أولى من أطلق لسانه الذى تغمد له السيوف وتجرد وقام فى سبيل الله قيام من يقطع عادية من تعدى وتمرد وفى آخره وكتب من المنزل بفاقوس والفجر قد هم ان يشق ثوب الصباح لولا ان الثريا تعرضت تعرض أثناء الوشاح وهذه الليلة سافرة عن نهار يوم الجمعة ثانى عشر ذى الحجه بلغه الله فيه امله وقبل عمله بالغاسنى المراد وأفضله وقال ابن الاثير لما توفى نور الدين قال الامراء منهم شمس الدين ابن المقدم وحسام الدين الحسين بن عيسى الجراحى وغيرهما من أكابر الامراء قد علمتم ان صلاح الدين من مماليك نور الدين ونوابه والمصلحة ان نشاوره فيما نفعله ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعة الملك الصالح ويجعل ذلك حجة علينا وهو أقوى منا لان له مثل مصر وربما أخرجنا وتولى هو خدمة الملك الصالح فلم يوافق اغراضهم هذا القول وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجوا قال فلم يمض غير قليل حتى وصلت كتب صلاح الدين الى الملك الصالح يهنيه بالملك ويعزيه بأبيه وأرسل دنانير مصرية وعليها اسمه ويعرفه ان الخطبة والطاعة له كما كانت لوالده فلما سار سيف الدين غازى بن عمه قطب الدين وملك الديار الجزرية ولم يرسل من مع الملك الصالح من الامراء الى صلاح الدين ولا أعلموه الحال كتب الى الملك الصالح يعتبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده ليحضر فى خدمته ويمنعه وكتب الى الامراء يقول ان الملك العادل لو علم ان فيكم من يقوم مقامى أو يثق اليه مثل ثقته بى لسلم اليه مصر التى هى أعظم ممالكه ولا يانه ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد الى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته سوائى وأراكم قد تفردتم بخدمة مولاى وابن مولاى دونى فسوف أصل الى خدمته وأجازى انعام والده بخدمة يظهر أثرها وأقابل كلا منكم على سوء صنيعه واهمال أمر الملك الصالح ومصالحه حتى أخذت بلاده فأقام الصالح بدمشق ومعه جماعة من الامراء لم يمكنوه من المسير الى حلب لئلا يغلبهم عليه شمس الدين على بن الداية فانه كان أكبر الامراء النورية وانما تأخر عن خدمة الملك

الصالح بعد وفاة نور الدين لمرض لحقه وكان هو واخوته بحلب وأمرها اليهم وعسكرها معهم فى حياة نور الدين وبعده ولما عجز عن الحركة أرسل الى الملك الصالح يدعوه الى حلب ليمنع البلاد من سيف الدين ابن عمه وأرسل الى الامراء يقول لهم ان سيف الدين قد ملك الى الفرات ولئن لم ترسلوا الملك الصالح الى حلب حتى يجمع العساكر ويسترد ما أخذ منه والا عبر سيف الدين الفرات الى حلب ولا نقوى على منعه فلم يرسلوه ولا مكنوه من قصد حلب قال وكان نور الدين من قبل ان يمرض قد أرسل عساكره فلما كان ببعض الطريق أتاه الخبر بموت عمه نور الدين فعاد الى نصيبين فملكها وأرسل الشحن الى الخابور فاستولوا عليها وسار هو الى حران فحصرها عدة أيام ثم أخذها وملك الرها والرقة وسروج واستكمل ملك سائر ديار الجزيرة سوى قلعة جعبر فقال له فخر الدين عبد المسيح وكان قد فارق سيواس بعد وفاة نور الدين وقصد سيف الدين ظنا منه ان سيف الدين يرعى له خدمته وقيامه فى أخذ الملك له من والده قطب الدين على ما ذكرناه أولا فلم يجن ثمرة ما غرس وكان عنده كبعض الامراء ليس بالشام من يمنعك فاعبر الفرات وأملك البلاد فاشار أمير آخر معه وهو أكبر أمرائه قد ملكت أكثر من والدك والمصلحة ان تعود فرجع الى الموصل

(فصل) قال ابن الاثير قد سبق ان نور الدين كان قد جعل بقلعة الموصل لما ملكها دزداراله وهو سعد الدين كمشتكين بعض خدمه الخصيان فلما سار سيف الدين الى الشام كان فى مقدمته على مرحلة فلما أتاه خبر وفاة نور الدين هرب وأرسل سيف الدين فى أثره فلم يدركه فنهب بركه ودوابه وسار الى حلب وتمسك بخدمة شمس الدين بن الداية واخوته واستقر بينهم وبينه ان يسير الى دمشق ويحضر الملك الصالح فسار الى دمشق فاخرج ابن المقدم عسكرا لينهبه فعاد منهزما الى حلب فاخلف عليه شمس الدين ابن الداية ما أخذ منه وجهزه وسير الى دمشق وعلى نفسها تجنى براقش فلما وصلها سعد الدين دخلها واجتمع بالملك الصالح والامراء واعلمهم ما فى قصد الملك الصالح الى حلب من المصالح فاجابوا الى تسييره فسار اليها فلما وصلها وصعد الى قلعتها قبض الخادم سعد الدين على شمس الدين ابن الداية واخوته وعلى ابن الخشاب رئيس حلب قال ابن الاثير ولولا مرض شمس الدين لم يتمكن منه ولا جرى من ذلك الخلف والوهن شئ وكان أمر الله قدرا مقدورا فاستبد سعد الدين بتدبير أمر الملك الصالح فخافه ابن المقدم وغيره من الامراء الذين بدمشق وكاتبوا سيف الدين ليسلموا اليه دمشق فلم يفعل وخاف ان تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير الى دمشق فيمنع عنها ويقصده ابن عمه من وراء ظهره فلا يمكنه الثبات فراسل الملك الصالح وصالحه على اقرار ما أخذه بيده وبقى الملك الصالح بحلب وسعد الدين بين يديه يدبر أمره وتمكن منه تمكنا عظيما يقارب الحجر عليه قال العماد كان كمشتكين الخادم النائب بالموصل فد سمع بمرض نور الدين فاخفاه واستأذن فى الوصول الى الشام فطلب سيف الدين غازى رضاه وخرج وسار مرحلتين وسمع النعى فاغذ السير والسعى ونجا بماله وبحاله وندم صاحب الموصل على الرضى بترحاله وكانت عنده بوفاة عمه بشاره وظهرت على صفحاته منها اماره فانه لم يزل من كمشتكين متشكيا فانه كان لحجر الامر عليه مذكيا وكان المرحوم قد أمر باراقة الخمور وازالة المحظور واسقاط المكوس واعدام اقساط البوس فنودى فى الموصل يوم ورود الخبر بالفسحة فى الشرب جهارا ليلا ونهارا وزال العرف وعاد النكر وأنشد قول ابن هانى (ولا تسقنى سرا فقد أمكن الجهر) وقيل أخذ المنادى على يده دنا وعليه قدح وزمر وزعم انه خرج بهذا أمر فلا حرج على من يغنى ويشرب وعادت الضرائب وضربت العوائد فاما كمشتكين فانه وصل الى حلب بعد ان جرى ما جرى وتمثل عند الصباح يحمد القوم السرى واجتمع هناك بالامير شمس الدين على ابن الداية واخوته أخوه مجد الدين وأظهر انه لهم من المخلصين وكان مجد الدين أبو بكر أخو رضاع نور الدين وقد تربى معه ولزمه وتبعه الى ان ملك الشام بعد والده ففوض الى مجد الدين جميع مقاصده من طريفه وتالده وحكمه فى الملك ونظمه فى السلك فلا يحل ولا يعقد الا برأيه وكانت حصونه محصنة وهو يسكن عنده فى قلعة حلب والحاضر عنده صباحا ومساء اذا طلب وشيزر مع أخيه شمس الدين على وقلعة جعبر وتل باشر مع سابق الدين عثمان وحارم مع بدر الدين حسن وعين تاب وعزاز وغيرها نوابه فيها وهو يصونها ويحميها ولما توفى جرت اخوته فى القرب والانبساط على عادته وهم أعيان الدولة وأعضادها وابدال أرضها وأوتادها وامجادها واجوادها فلما توفى نور الدين لم يشكوا فى انهم يكفلون ولده ويربونه ويحبهم لاجل سابقتهم ويحبونه فاقام شمس الدين على وهو أكبرهم وأوجههم ودخل قلعة

حلب

حلب وبها واليا شاذبخت وسكنها وأسر مصلحة الدولة وأعلنها وعرف ماجرى بدمشق من الاجتماع واتفاق ذوى الاطماع فكاتبهم وأمرهم بالوصول اليه فى خدمة الملك الصالح وانفذ أخاه سابق الدين عثمان وكان قليل الخبرة بعيدا من الدهاء فاستقر الامر على ان يحملوا الملك الصالح اليه ويقدموا به عليه وهو يتسلم ممالكه ويكون أتابكه ووصل كمشتكين الى دمشق فى تلك الايام فوافقهم على مادبروه من المرام وسار الصالح ومعه كمشتكين والعدل ابن العجمى واسماعيل الخازن فبغتوا أخوة مجد الدين الثلاثة فقبضوهم واعتقلوهم وجاء ابن الخشاب أبو الفضل مقدم الشيعة فسفك وادمه وأقام شمس الدين ابن المقدم بدمشق على عساكرها مقدما وفى مصالحها محكما وجمال الدين ريحان والى القلعة والشحن من قبله والامر اليه بتفصيله وجمله والقاضى كمال الدين الشهر زورى الحاكم النافذ حكمه الصائب سهمه الثاقب نجمه وكان مسير الملك الصالح من دمشق فى الثالث والعشرين من ذى الحجة وغاظ صلاح الدين ما فعل بأخوة مجد الدين وقال ابن أبى طى الحلبى لما مات نور الدين اجتمع أمراء دولته واتفقوا على ان يكونوا فى خدمة الملك الصالح بن نور الدين وكان يومئذ صبيا وأجمعوا على منابذة الملك الناصر وقبض أصحابه الذين بالشام ومصالحة الفرنج على يد ابن المقدم شمس الدين مقدم العساكر وتم ذلك واستقر وركب الملك الصالح بدمشق وخطب له وكانت الفرنج قد تحركت الى قصد دمشق فخرج ابن المقدم ونزل على بانياس فى عساكر نور الدين وراسل الفرنج فى الهدنة فأجابوه بعد ان قطعوا قطيعة على المسلمين فعجل حملها وتم أمر الصلح وعادت الفرنج الى بلادها وابن المقدم الى دمشق واتصل خبر هذه الهدنة بالملك الناصر وكان قد خرج من مصر أربع مراحل فأعظم أمرها وأكبره واستصغر أمر أهل الشام وعلم ضعفهم فراسل ابن المقدم وغيره من الامراء بانكار ذلك والتوبيخ عليه وقال فى كتابه الى ابن أبى عصرون (ورد الخبر بصلح بين الفرنج والدمشقيين وبقية بلاد المسلمين ما دخلت فى العقد ولا انتظمت فى سلك هذا القصد والعدو وهما واحد وصرف مال الله الذى أعد لمغنم الطاعه ومصلحة الجماعه فى هذه المعصية المغضبة لله ولرسوله ولصالحى الامه وكان مذخور الكشف الغمه فصارعونا وان أسارى من طبرية وفرسانها كانت وطأتهم شديده وشوكتهم حديده دفعوا فى القطيعه وجعلوا الى السلم السبب والذريعه فلما بلغنا هذا الخبر وقفنا به بين الورود والصدر وان أتمنا ناظر بنا غير مارئ يد وان قعدنا فالعدو من بقية الثغور التى لم تدخل فى الهدنة غير بعيد وان فرقنا العساكر لدينا فاجتماعها بعد افتراقها شديد فرأينا ان سيرنا الى حضرة الامير شمس الدين أبى الحسن على واخوته من يعرفهم قدر خطر هذا الارتباك وانه أمر ربما عجز فيه عن الاستدراك وان العدو طالب لا يغفل وجاد لا يكسل وليث لا يضيع الفرصه مجد لا يميل الى الرخصه فان كانت الجماعة ساخطين فيظهر امارات السخط والتغيير ولا يمسك فى الاول فيعجز عن الاخير لا سيما ونحن نغار لله ونغير ونقصد للمسلمين ما نجمع به صلاح الرأى وصواب التدبير وقد منعنا عساكرنا ان تفترق خوفا أن يقصد العدو ناحية حارم بالمال الذى قويت به قوته وثرت به ثروته وانبسطت به خطوته فانه ما دام يعلم انا مجتمعون وعلى طلبه مجمعون لا يمكنه أن يزايل مراكزه ولا يبادر مناهزه) قال وكان متولى قلعة حلب شاذبخت الخادم النورى وكان شمس الدين على أخو مجد الدين بن الداية اليه أمور الجيش والديوان والى أخيه بدر الدين حسن الشحنكية وكان بيده وبيد اخوته جميع المعاقل التى حول حلب فلما بلغ عليا موت نور الدين صعد الى القلعة وكان مقعدا واضطرب البلد ثم سكنه ابن الخشاب فامتنع من الصعود اليهم وترددت بينهم الرسالة وتحزب الناس بحلب اهل السنة مع بنى الدايه والشيعة مع ابن الخشاب وجرت أسباب اقتضت أن أنزل حسن بن الداية جماعة من القلعيين وأهل الحاضرة وزحفوا الى دار ابن الخشاب فملكوها ونهبوها واختفى ابن الخشاب واتصلت هذه الاخبار بمن فى دمشق وأخذوا الملك الصالح وساروا الى حلب فى الثالث والعشرين من ذى الحجة وسار مع الملك الصالح سعد الدين كمشتكين وجرديك واسماعيل الخازن وسابق الدين عثمان بن الداية وقد وكلت الجماعة به وهو لا يعلم وساروا الى حلب وخرج الناس الى لقائهم وكان حسن قد رتب فى تلك الليلة جماعة من الحلبيين ليصيح ويصلبهم فلما خرج الى لقاء الملك الصالح ووقعت عينه عليه ترجل ليخدم هو وجماعة من أصحابه فتقدم جرديك وأخذ بيده وشتمه وجذبه فأركبه خلفه رديفا وقبض سابق الدين أخوه فى الحال وتخطفت أصحابهم جميعهم واحتيط عليهم وساروا مجدين حتى سبقوا الخبر الى القلعة وصعدوا اليها وقبضوا على شمس الدين

على ابن الداية من فراشه وحمل الى بين يدى الملك الصالح فاستقبله أحدهما اليك نور الدين المعروف بالجفنية فركله برجله ركلة دحاه بها على وجهه فانشقت جبهته ثم صفدوا جميعا وحبسوا فى جب القلعة وقبضوا على جميع الاجناد الذين حلفوا لاولاد الداية وأخرجوا جميعا من القلعه قلت وفى آخر هذه السنة توفى مرى الفرنجى الملك الذى كان حاصر القاهرة وأشرف على أخذ الديار المصرية وفى كتاب فاضلى (ورد كتاب من الداروم يذكر انه لما كان عشية الخميس تاسع ذى الحجة هلك مرى ملك الفرنج لعنه الله ونقله الى عذاب كاسمه مشتقا وأقدمه على نار تلظى لا يصلاها الا الاشقى)

﴿ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة﴾ قال ابن أبى طى فى أولها ضمن القطب ابن العجمى أبو صالح وابن أمين الدولة لجرديك ان قتل ابن الخشاب ردوا عليه جميع ما نهب له فى دار ابن أمين الدولة فدخل على الملك الصالح وتحدث معه وأخذ خاتمه أمانا لابن الخشاب ونودى عليه فحضر وركب الى القلعة فقتل وعلق رأسه على أحد ابراج القلعة وبقى الملك الصالح فى قلعة حلب ومضى العماد الكاتب الى الموصل قال وعزمت على خدمة سيف الدين صاحبها وقد أخذ من بلاد الجزيرة الى حد الفرات ومضى اليه ابن العجمى للاصلاح فأصلح بين ابن العجمى وعلق رهن أخوة مجد الدين فى الاعتقال وضيقوا عليهم فى القيود والاغلال وألزموهم بتسليم الحصون وتقديم الرهون الى أن غصبوا دورهم وخربوا معمورهم قال وكان الموفق خالد ابن القيسرانى قد وصل ونحن بدمشق من مصر فلزم داره ولم يدخل مع القوم فأما صلاح الدين فانه اعتقد ان ولد نور الدين يتولاه بعده أخوة مجد الدين لما جرى ما جرى ساءه ذلك وقال أنا أحق برعى العهود والسعى المحمود فانه ان استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعه وضاقت المناهج المتسعه وانفردت مصر عن الشام وطمع أهل الكفر فى بلاد الاسلام وكتب الى ابن المقدم ينكر ما أقدموا عليه من تفريق الكلمة وكيف اجترءوا على اعضاد الدولة وأركانها بل أهلها واخوانها وانه يلزمه أمرهم وأمرها ويضره ضرهم وضرها فكتب ابن المقدم اليه يردعه عن هذه العزيمه ويقبح له استحسان هذه الشيمه ويقول له (لا يقال عنك انك طمعت فى بيت من غرسك وربالك وأسسك وأصفى مشربك وأضفى ملبسك وأجلى سكونك الملك مصر وفى دسته أجلسك فما يليق بحالك ومحاسن اخلاقك وخلالك غير فضلك وافضالك) فكتب اليه صلاح الدين بالانشاء الفاضلى (انا لا نؤثر للاسلام وأهله الا ما جمع شملهم وألف كلمتهم وللبيت الاتابكى أعلاه الله الا ما حفظ أصله وفرعه ودفع ضره وجلب نفعه فالوفاء انما يكون بعد الوفاه والمحبة انما تظهر آثارها عند تكاثر اطماع العداه وبالجملة انا فى واد والظانون بنا ظن السوء فى واد ولنا من الصلاح مراد ولمن يبعدنا عنه مراد ولا يقال لمن طلب الصلاح انك قادح ولمن ألقى السلاح انك جارح)

﴿فصل﴾ قال العماد ثم عزم السلطان على أن يسارع الى تلافى الامر فاعترضه امران أحدهما وصول اسطول صقلية الى الاسكندرية وادراكه والثانى نوبة الكنز ونفاقه وهلاكه أما وصول الاسطول فكان يوم الاحد السادس والعشرين من ذى الحجة سنة تسع وستين وانهزم فى أول المحرم سنة سبعين ثم ذكر كتابا وصل من صلاح الدين الى بعض الامراء بالشام يشرح الحال وحاصله ان أول الاسطول وصل وقت الظهر ولم يزل متواصلا متكاملا الى وقت العصر وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر لا على حين خفاء من الخبر فأمر ذلك الاسطول كان قد اشتهر وروع به ابن عبد المؤمن فى البلاد المغربيه وهدد به فى الجزائر الروميه صاحب قسطنطينيه فشوهد فى الثغر من وفور عدته وكثرة عدته وعظيم الهمة به وفرط الاستكثار منه ما ملأ البحر واشتد به الامر فحمى أهل الثغر عليهم البر ثم اشير عليهم أن يقربوا من السور فأمكن الاسطول النزول فاستنزلوا خيولهم من الطرائد وراجلهم من المراكب فكانت الخيل ألفا وخمسمائة رأس وكانوا ثلاثين ألف مقاتل ما بين فارس وراجل وكانت عدة الطرائد ستة وثلاثين طريدة تحمل الخيل وكان معهم مائتا شينى فى كل شينى مائة وخمسون راجلا وكانت عدة السفن التى تحمل آلات الحرب والحصار من الاخشاب الكبار وغيرها ست سفن وكانت عدة المراكب الحمالة برسم الازواد والرجال أربعين مركبا وفيها من الراجل المتفرق وغلمان الخيالة وصناع المراكب وابراج الزحف ودباباته والمنجنيقية ما يتمم خمسين ألف رجل ولما تكاملوا نازلين على البر خارجين من البحر حملوا على المسلمين حملة أوصلوهم الى السور وفقد من أهل

الثغر فى وقت الحملة ما يناهز سبعة أنفس واستشهد محمود بن البصار وبسهم جرح وحذفت مراكب الفرنج داخلة الى المينا وكان به مراكب مقاتله ومراكب مسافره فسبقهم أصحابنا اليها فخسفوها وغرقوها وغلبوهم على أخذها وأحرقوا ما احترق منها واتصل القتال الى المساء فضربوا خيامهم بالبر وكان عدتهم ثلثمائة خيمة فلما أصبحوا زحفوا وضايقوا وحاصروا ونصبوا ثلاث دبابات بكباشها وثلاثة مجانيق كبار المقادير تضرب بحجارة سود استصحبوها من صقلية وتعجب أصحابنا من شدة أثرها وعظم حجرها وأما الدبابات فانها تشبه الابراج فى جفاء أخشابها وارتفاعها وكثرة مقاتلتها واتساعها وزحفوا بها الى ان قاربت السور ولجوا فى القتال عامة النهار المذكور وورد الخبر الى منزلة العساكر بفاقوس يوم الثلاثاء ثالث يوم نزول العدو على جناح الطائر فاستنهضنا العساكر الى الثغرين اسكندرية ودمياط احترازا عليها واحتياطا فى أمرها وخوفا من مخالفة العدو اليها واستمر القتال وقدمت الدبابات وضربت المنجنيقات وزاحمت السور الى ان صارت منه بمقدار أماج البحر واهاج الدور فاتفق أصحابنا على ان يفتحوا ابوابا قبالتها من السور ويتركوها معلقة بالقشور ثم فتحوا الابواب وتكاثر صالح أهل الثغر من كل الجهات فاحرقوا الدبابات المنصوبه وصدقوا عندها من القتال وأنزل الله على المسلمين النصر وعلى الكفار الخذلان والقهر واتصل القتال الى العصر من يوم الاربعاء وقد ظهر فشل الفرنج ورعبهم وقصرت عزائمهم وفترحربهم وأحرقت آلات قتالهم واستحر القتل والجراح فى رجالهم ودخل المسلمون الى الثغر لاجل قضاء فريضة الصلاه وأخذ منابه قيام الحياه وهم على نية المباكره والعدو على نية الهرب والمبادره ثم كر المسلمون عليهم بغتة وقد كاد يختلط الظلام فهاجموهم فى الخيام فتسلموها بما فيها وفتكوا فى الرجالة أعظم فتك وتسلموا الخيالة ولم يسلم منهم الا من نزع لبسه ورمى فى البحر نفسه وتقحم أصحابنا فى البحر على بعض المراكب فخسفوها وأتلفوها فولت بقية المراكب هاربه وجاءتها أحكام الله الغالبه وبقى العدو بين قتل وغرق وأسر وفرق واحتمى ثلثمائة فارس منهم فى رأس تل فأخذت خيولهم ثم قتلوا وأسروا وأخذ من المتاع والآلات والاسلحة ما لا يملك مثله واقلع هذا الاسطول عن الثغر يوم الخميس وذكر ابن شداد ان نزول هذا العدو كان فى شهر صفر وكانوا ثلاثين ألفا فى ستمائة قطعة ما بين شينى وطراده وبسطه وغير ذلك

﴿فصل﴾ وأما نوبة الكنز فقال ابن شداد الكنز انسان مقدم من المصريين كان قد انتزح الى أسوان فأقام بها ولم يزل يدبر أمره ويجمع السودان عليه ويخيل لهم انه يملك البلاد ويعيد الدولة مصريه وكان فى قلوب القوم من المهاواة للمصريين ما تستصغر هذه الافعال عنده فاجتمع عليه خلق كثير وجمع وافر من السودان وقصد قوص وأعمالها فانتهى خبره الى صلاح الدين فجرد له عسكرا عظيما شاكين فى السلاح من الذين ذاقوا حلاوة ملك الديار المصرية وخافوا على فوت ذلك منهم وقدم عليهم أخاه سيف الدين وسار بهم حتى أتى القوم فلقيهم بمصاف فكسرهم وقتل منهم خلقا عظيما واستأصل شأفتهم وأخذ نائرتهم وذلك فى السابع من صفر سنة سبعين واستقرت قواعد الملك قال العماد وفى أول سنة سبعين مستهلها اقام المعروف بالكنز فى الصعيد وجمع من كان فى البلاد من السودان والعبيد وعداو دعا القريب والبعيد وكان عنده من الامراء أخ لحسام الدين ابى الهيجاء السمين ففتك به وبمن هناك من المنقطعين فغارت حمية أخيه وثارت ثائرته وساعده أخو السلطان سيف الدين وعز الدين موسك بن خاله وعدة من أمرائه ورجاله وجاؤا الى مدينة طود فاحتمت عليهم وامتنعت فأسرعت البلية اليها وبها وقعت وأتى السيف على أهلها وباءت بعد عزها بذلها ثم قصد الكنز وهو فى طغيانه وعدوانه وسوءه وسودانه فسفك دمه وظهر بعد ظهور وجوده عدمه وارتقب دماء سوده وهجم غابه على اسوده ولم يبق للدولة بعد كنزها كنز وطل دمه ولم ينتطح فيه عنز وارتدع المارقون فارقوا بعده سلم نفاق والله لناصرى دينه ناصر وواق وقال ابن أبى طى واتفق أيضا ان خرج بقرية من قرى الصعيد يقال لها طود رجل يعرف بعباس بن شاذى وثار فى بلاد قوص ونهبها وخربها وأخذ أموال الناس واتصل ذلك بالملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب وكان السلطان قد استنابه بمصر فجمع له العساكر وأوقع به وبدد شمله وفض جموعه وقتله ثم قصد بعده كنز الدولة الوالى بأسوان وكان قصد بلد طود فقتل أكثر عسكره وهرب فأدركه بعض أصحاب الملك العادل فقتله

﴿فصل﴾ فى توجه صلاح الدين الى دمشق ودخوله اليها فى يوم الاثنين آخر شهر ربيع الاول قال العماد لما خلا

باله مما تقدم ذكره فتجهز لقصد الشام فخرج الى البركة مستهل صفر واقام حتى اجتمع العسكر ثم رحل الى بلبيس ثالث عشر ربيع الاول وكانت رسل شمس الدين صاحب بصرى صديق ابن جادلى وشمس الدين بن المقدم عنده تستورى فى الحث والبعث زنده وتستقدمه وجنده وسار على صدر وائلة ووصل السير بالسرى حتى أناخ على بصرى بصيرا بالعلى نصيرا للهدى فاستقبله صاحب بصرى وشدّ ازره وسدّد أمره واستضاف الى بصرى صرخد وتفرد بالسبق الى الخدمة وتوحد وسار فى الخدمة معه الى الكسوة وبكر صلاح الدين يوم الاثنين انسلاخ الشهر وسار فى موكب قوى بالعدد والعدد وحسب ان يمتنع عليه البلد وان الاطراف توثق والابواب تغلق فاقبل وهو يسوق واقباله يشوق حتى دخل دمشق وخرقها وكأن الله تعالى له خلقها ودخل الى دار العقيقى مسكن أبيه وبقى جمال الدين ريحان الخادم فى القلعة على تأبيه فراسله حتى استماله وأغزر له نواله وتملك المدينة والقلعه ونزل بالقلعة سيف الاسلام أخو السلطان صلاح الدين وملك ابن المقدم داره وكل ما حر اليها و بذل له طلبته التى أشار اليها ونص عليها وأظهر انه قد جاء لتربية الملك الصالح وحفظ ماله من المصالح وتدبير ملكه فهو أحق بصيانة حقه واجتمع به أعيانها وخلص لولاية اسرارها واعلانها وأصبح وهو سلطانها ووزاره القاضى كمال الدين ابن الشهرزورى فوفاه حقه من الاحترام واوفر له حظ التبجيل والاعظام ونفذت الكتب بالامثلة الفاضلية الى مصر بهذا الفتح والنصر وفى بعضها (يوم وصولنا الى بصرى وقبله وفدت وهاجرت وتزاحمت وتكاثرت وتوافت الامراء والاجناد الاتراك والاكراد والعربان وراجل الاعمال وأعيان الرجال وورد كتاب من دمشق بعد كتاب وكل مخبر وذاكر وهو غائب بكتابه حاضر يذكران البلاد ممكنة القياد مذعنة الى المراد وأما الفرنج خذلهم الله فانا فى هذه السفرة المباركة نزلنا فى بلادهم نزول المتحكم واقمنا بها اقامة الحاضر المتخيم وعيونهم متناومه وجزنا وأنوفهم راغمه ووطئنا ورقابهم صغر ومررنا وعيشهم مر والله يزيدهم ذلا ويجعل عداوة الاسلام فى صدورهم غلا وفى أعناقهم غلا) وفى كتاب آخر (وكان رحيلنا من بصرى يوم الاربعاء الرابع والعشرين من ربيع الاول وقد توجه صاحبها بين أيدينا قائما بشروط الخدمة ولوازمها ثم لقينا الاجل ناصر الدين ابن المولى أسد الدين رحمة الله عليه وأدام نعمته والامير سعد الدين ابن أنر فى يوم السبت السابع والعشرين ونزلنا يوم الاحد بجسر الخشب والاجناد الدمشقية الينا متوافيه والوجوه على أبوابنا مترامية ولم يتأخر الامن أبقى وجهه وراقب صاحبه ومن اعتقد بالقعود انه قد نظر لنفسه فى العاقبه ولما كان يوم الاثنين التاسع والعشرين من الشهر ركبنا على خيرة الله تعالى وعرض دون الدخول عدد من الرجال فدعستهم عساكرنا المنصورة وصدمتهم وعرفتهم كيف يكون اللقاء وعلمتهم ودخلنا البلد واستقرت بنا دار والدنا رحمة الله عليه قرير ة عيوننا مستقرا سكون الرعية وسكوننا واذعنا فى ارجاء البلد النداء باطابة النفوس وازالة المكوس وكانت الولاية فيهم قد ساءت وأسرفت واليد المتعدية قد امتدت الى أحوالهم وأجحفت فشرعنا فى امتثال أمر الشرع برفعها واعفاء الامة منها بوضعها قال ابن الاثير لما خاف من بدمشق من الامراء ان يقصدهم كمشتكين والملك الصالح من حلب فيعاملهم بما عامل به بنى الداية راسلوا سيف الدين غازى ليسلموها اليه فلم يجبهم فحملهم الخوف على ان راسلوا صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر وكان كبيرهم فى ذلك شمس الدين ابن المقدم ومن أشبه أباه فما ظلم فلما أتته الرسل لم يتوقف وسار الى الشام فلما وصل دمشق سلمها اليه من بها من الامراء ودخلها واستقر بها ولم يقطع خطبة الملك الصالح وانما أظهر انى انما جئت لاخدمه واسترد له بلاده التى أخذها ابن عمه وجرت أمور آخرها انه اصطلح هو وسيف الدين والملك الصالح على ما بيده وقال القاضى ابن شداد لما تحقق صلاح الدين وفاة نور الدين وكون ولده طفلا لا ينهض باعباء الملك ولا يستقل بدفع عدو الله عن البلاد تجهز للخروج الى الشام اذ هو أصل بلاد الاسلام تجهز بجمع كثير من العساكر وخلف بالديار المصرية من يستقل بحفظها وحراستها ونظم أمورها وسياستها وخرج هو سائرا مع جمع من أهله وأقاربه وهو يكاتب أهل البلاد وأمراءها واختلفت كلمة أصحاب الملك الصالح واختلت تدبيراتهم وخاف بعضهم من بعض وقبض البعض على جماعة منهم وكان ذلك سبب خوف الباقين ممن فعل ذلك وسببا للتنفير قلوب الناس عن الصبى فاقتضى الحال ان كاتب ابن المقدم صلاح الدين فوصل الى البلاد مطالبا بالملك الصالح ليكون هو الذى يتولى أمره وتربيته حاله فدخل دمشق يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر وكان أول دخوله الى دار أبيه واجتمع

الناس اليه وفرحوا به وانفق فى ذلك اليوم فى الناس مالا طائلا واظهر الفرح والسرور بالدمشقيين واظهروا الفرح به وصعد القلعة واستقر قدمه فى ملكها فلم يلبث ان سار فى طلب حلب فنازل حمص وأخذ مدينتها فى جمادى الاولى ولم يشتغل بقلعتها وسار حتى أتى حلب ونازلها سلخ جمادى المذكور وهى الدفعة الاولى وقال ابن أبى طى بلغ السلطان ان ابن المقدّم نقض عهد الملك الصالح وهو كان السبب فى خروج سيف الدين صاحب الموصل واستيلائه على البلاد الشرقية ومضايقته للملك الصالح فى ممالكه وقيل ان ابن المقدّم كاتب السلطان ودعاه الى الخروج وقيل انما خرج الى الشام خوفا من حركة تنشأ من جانب الفرنج بسبب اختلاف أمراء الشام وشغل بعضهم ببعض وبجواب بعض ورد من ابن المقدّم ولما تيقن ابن المقدّم خروج السلطان الى جهة دمشق أشفق من ذلك واستدرك ما بدا منه وتذلل له ووعده تسليم دمشق اليه قال ولما حصل على دمشق وقلعتها واستوطن بقعتها نشر علم العدل والاحسان وعفى آثار الظلم والعدوان وابطل ما كان الولاة استجدّوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات والمون والضرائب المحرّمات قلت وكان قد كتب اليه أسامة بن منقذ قصيدة بعد مصاف عسقلان أوّلها

تهنّ يا أطول الملوك يدا ✽ فى بسط عدل وسطوة وندى
أجرا وذكرا من ذلك الشكر فى الـ ✽ ـدنيا ومن ذلك الجنان غدا
لا تستقل الذى صنعت فقد ✽ قمت بفرض الجهاد مجتهدا
وجست أرض العدى وأفنيت من ✽ أبطالهم ما يجاوز العددا
وما رأينا غزا الفرنج من الـ ✽ ـملوك فى عقر دارهم أحدا
فسر الى الشام فالملائكة الـ ✽ ـأبرار تلقاك ملتقى جددا
فهو فقير اليك يأمل أن ✽ تصلح بالعدل منه ما فسدا
والله يعطيك فيه عاقبة الـ ✽ ـنصر كما فى كتابه وعدا
فاحباك الورى والهمك الـ ✽ ـعدل وأعطاك ما ملكت سدى

ومدح وحيش الاسدى صلاح الدين عند أخذه دمشق بقصيدة أوّلها

قد جاءك النصر والتوفيق فاصطحبا ✽ فكن لاضعاف هذا النصر مرتقبا
لله أنت صلاح الدين من أسد ✽ أدنى فريسته الايام ان وثبا
رأيت جلق ثغر الانظير له ✽ فجئتها عامرا منها الذى خربا
نادتك بالذل لما قلّ ناصرها ✽ وأزمع الخلق من أوطانها هربا
أحييتها مثل ما أحييت مصر فقد ✽ أعدت من عدلها ما كان قد ذهبا
هذا الذى نصر الاسلام فاتضحت ✽ سبيله وأهان الكفر والصلبا
ويوم شاور والايمان قد هزمت ✽ جيوشه كان فيه الجحفل اللجبا
أبت له الضيم نفس مرة ويد ✽ فعالة وفؤاد قط ما وجبا
يستكثر المدح يتلى فى مكارمه ✽ زهدا ويستصغر الدنيا اذا وهبا
ويوم دمياط والاسكندرية قد ✽ أصارهم مثلا فى الارض قد ضربا
والشام لولم يدارك أهله اندرست ✽ آثاره وعفت آياته حقبا

✽(فصل)✽ فيما جرى بعد فتح دمشق من فتح حمص وحماه وحصار حلب قال ابن أبى طى لما اتصل بمن فى حلب حصول دمشق للملك الناصر وميل الناس اليه وانعكافهم عليه خافوا وأشفقوا وأجمعوا على مراسلته فحملوا قطب الدين ينال بن حسان رسالة أرعدوا فيها وأبرقوا وقالوا والله هذه السيوف التى ملكتك مصر بأيدينا والرماح التى حويت بها قصور المصريين على أكتافنا والرجال التى ردّت عنك تلك العساكر هى تردك وعما تصديت له تصدك وأنت فقد تعدّيت طورك وتجاوزت حدّك وأنت أحد غلمان نور الدين وممن يجب عليه حفظه فى ولده قال ولما بلغ السلطان ورود ابن حسان عليه رسولا تلقاه بموكبه وبنفسه وبالغ فى اكرامه والاحسان اليه ثم أحضره بعد ثالثة لسماع

الرسالة منه فلما فاه ابن حسان بتلك الشقاشق الباطله وقعقع بتلك التمويهات العاطله لم يعره السلطان رحمه الله طرفا ولا سمعا ولا ردّ عليه خفضا ولا رفعا بل ضرب عنه صفحا وتغاضيا وترك جوابه احسانا وتجافيا وجرى فى ميدان أريحيته واستن فى سنن مروته وخاطبه بكلام لطيف رقيق وقال له ياهذا اعلم انى وصلت الى الشام لجمع كلمة الاسلام وتهذيب الامور وحياطة الجمهور وسد الثغور وتربية ولد نور الدين وكف عادية المعتدين فقال له ابن حسان انك انما وردت لاخذ الملك لنفسك ونحن لانطاوعك على ذلك ودون ما ترومه خرط القتاد وفت الاكباد وإيتام الاولاد فلم يلتفت السلطان لمقاله وتراد فى احتماله وأومى الى رجاله باقامته من بين يديه بعد ان كاد يسطو عليه ونادى فى عساكره بالاستعداد لقصد الشام الاسفل ورحل متوجها الى حمص فتسلم البلد وقاتل القلعة ولم ير تضييع الزمان عليها فوكل بها من يحصرها ورحل الى جهة حماه فلما وصل الى الرستن خرج صاحبها عز الدين جرديك وأمر من فيها من العسكر بطاعة أخيه شمس الدين على واتباع أمره وسار جرديك حتى لقى السلطان واجتمع به بالرستن وأقام عنده يوما وليله وظهر من نتيجة اجتماعه به انه سلم اليه حماه وسأله أن يكون السفير بينه وبين من بحلب فأجابه السلطان الى مراده وسار الى حلب وبقى أخو جرديك بقلعة حماه قال وسار جرديك الى حلب وهو ظان انه قد فعل شيئا وحصل عند من بحلب يدا فاجتمع بالامراء والملك الصالح وأشار عليهم بمصالحة الملك الناصر فاتهمه الامراء بالمخامرة وردّوا مشورته وأشاروا بقبضه فامتنع الملك الصالح ولج سعد الدين كمشتكين فى القبض عليه فقبض وثقل بالحديد وأخذ بالعذاب الشديد وحمل الى الجب الذى فيه أولاد الدايه قال ولما قدم جرديك وشد فى وسطه الحبل ودلى الى الجب وأحس به أولاد الداية قام اليه منهم حسن وشتمه أقبح شتم وسبه الأم سب وحلف بالله ان أنزل اليهم ليقتلنه فامتنعوا من تدليته فاعلم سعد الدين كمشتكين فحضر الى الجب وصاح على حسن وشتمه وتوعده فسكن حسن وامسك وانزل جرديك الجب فكان عند أولاد الدايه واسمعه حسن كل مكروه قال وكتب أبى الى حلب حين اتصل به قبض أولاد الداية وجرديك وكانوا تعصبوا عليه حتى نفاه نور الدين من حلب قصيدة منها

بنو فلانة اعوان الضلالة قد * قضى بذلهم الافلاك والقدر

واصبحوا بعد عز الملك فى صفد * وقعر مظلمة يغشى لها البصر

وجرد الدهر فى جرديك عزمته * والدهر لا ملجأ منه ولا وزر

قال ولم يزل السلطان مقيما على الرستن ثم طال عليه الامر فسار الى جباب التركمان فلقيه أحد غلمان جرديك واخبره بما جرى على جرديك من الاعتقال والقهر فرحل السلطان من ساعته عائدا الى حماه وطلب من أخى جرديك تسليم حماه اليه وأخبره بما جرى على أخيه ففعل وصعد السلطان الى قلعة حماه واعتبر أحوالها وولاها مبارز الدين على بن أبى الفوارس وذلك مستهل جمادى الآخر وسار السلطان الى حلب ونزل على أنف جبل جوشن فوق مشهد الدكة ثالث الشهر وامتدت عساكره الى الحناقية والى السعدى وكان من بحلب يظنون ان السلطان لا يقدم عليهم فلم يرعهم الا وعساكره قد نازلت حلب وخيمه تضرب على جبل جوشن واعلامه قد نشرت فخافوا من الحلبيين أن يسلموا البلد كما فعل أهل دمشق فأرادوا تطييب قلوب العامة فأشير على ابن نور الدين أن يجمعهم فى الميدان ويقبل عليهم بنفسه ويخاطبهم بنفسه انهم الوزر والملجأ فأمر أن ينادى باجتماع الناس الى ميدان باب العراق فاجتمعوا حتى غص الميدان بالناس فنزل الصالح من باب الدرجة وصعد من الخندق ووقف فى رأس الميدان من الشمال وقال لهم ياأهل حلب أنا ربيبكم وتربيتكم واللاجى اليكم كبيركم عندى بمنزلة الاب وشابكم عندى بمنزلة الاخ وصغيركم عندى يحل محل الولد قال وخنقته العبره وسبقته الدمعه وعلا نشيجه فافتتن الناس وصاحوا صيحة واحده ورموا بعمائمهم وضجوا بالبكاء والعويل وقالوا نحن عبيدك وعبيد أبيك نقاتل بين يديك ونبذل أموالنا وأنفسنا لك واقبلوا على الدعاء له والترحم على أبيه وكانوا قد اشترطوا على الملك الصالح انه يعيد اليهم شرقية الجامع يصلون فيها على قاعدتهم القديمه وأن يجهر بحى على خير العمل والاذان والتذكير فى الاسواق وقدام الجنائز بأسماء الائمة الاثنى عشر وان يصلوا على أمواتهم خمس تكبيرات وان يكون عقود الانكحة الى الشريف الطاهر أبى المكارم حمزة بن زهرة الحسنى وان تكون العصبية مرتفعة والناموس وازع لمن أراد الفتنة وأشياء كثيرة اقترحوها مما كان قد أبطله نور الدين رحمه الله فأجيبوا الى ذلك قال ابن أبى طى

فأذن المؤذنون فى منارة الجامع وغيره بحى على خير العمل وصلى أبى فى الشرقية مسبلا وصلى وجوه الحلبيين خلفه وذكروا فى الاسواق وقدام الجنائز بأسماء الائمة وصلوا على الاموات خمس تكبيرات وأذن للشريف فى ان يكون عقود الحلبيين من الامامية اليه وفعلوا جميع ماوقعت الايمان عليه

﴿فصل﴾ قال ابن أبى طى وكانت هذه السنة شديدة البرد كثيرة الثلوج عظيمة الامطار هائجة الاهوية وكان السلطان قد جعل أولاد الداية علالة له وسببا يقطع به السنة من ينكر عليه الخروج الى الشام وقصد الملك الصالح ويقول أنا انما أتيت لاستخلاص أولاد الداية واصلاح شأنهم وأرسل السلطان الى حلب رسولا يعرّض بطلب الصلح فامتنع كمشتكين فاشتدّ حينئذ السلطان فى قتال البلد وكانت ليالى الجماعة عند الملك الصالح لاتنقضى الا بنصب الحبائل للسلطان والفكرة فى مخاتلته وارسال المكروه اليه فاجمعوا آراءهم على مراسلة سنان صاحب الحشيشية فى ارصاد المتالف للسلطان وارسال من يفتك به وضمنوا له على ذلك أموالا جمة وعدة من القرى فأرسل سنان جماعة من فتاك أصحابه لاغتيال السلطان فجاؤوا الى جبل جوشن واختلطوا بالعسكر فعرفهم صاحب بوقبيس لانه كان مشاغرا لهم فقال لهم ياويلكم كيف تجاسرتم على الوصول الى هذا العسكر ومثلى فيه فخافوا غائلته فوثبوا عليه فقتلوه فى موضعه وجاء قوم للدفع عنه فجرحوا بعضهم وقتلوا البعض وبدر من الحشيشية أحدهم وبيده سكينة مشهورة ليقصد السلطان ويهجم عليه فلما صار الى باب الخيمة اعترضه طغريل أمير جاندار فقتله وطلب الباقون فقتلوا بعد ان قتلوا جماعة قال ولما فات من بحلب الغرض من السلطان بطريق الحشيشية كاتبوا قمص طرابلس وضمنوا له أشياء كثيرة متى رحل السلطان عن حلب وكان لعنه الله فى أسر نور الدين منذ كسرة حارم وكان قد بذل فى نفسه الاموال العظيمة فلم يقبلها نور الدين فلما كان قبل موت نور الدين سعى له فخر الدين مسعود بن الزعفرانى حتى باعه نور الدين بمبلغ مائة وخمسين ألف دينار وفكاك ألف أسير واتفق فى أوّل هذه السنة موت ملك الفرنج صاحب القدس وطبرية وغيرهما فتكفل هذا القمص بأمر ولده المجذوم فعظم شأنه وزاد خطره فأرسل الى السلطان فى أمر الحلبيين وأخبره الرسول ان الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يدا واحده فقال السلطان لست ممن يرهب بتألب الفرنج وها أنا سائر اليهم ثم انهض قطعة من جيشه وأمرهم بقصد انطاكيه فغنموا غنيمة حسنة وعادوا فقصد القمص جهة حمص فرحل السلطان من حلب اليها فسمع الملعون فنكص راجعا الى بلاده وحصل الغرض من رحيل السلطان عن حلب ووصل الى حمص فتسلم القلعة ورتب فيها واليا من قبله قال وفى فتح قلعة حمص يقول العماد الكاتب من قصيدة وستأتى

يابن أيوب نحو الشآ	م على كل مايرتجيه ظهور
بيوسف مصر وأيامه	قرّ العيون وتشفى الصدور
رأت منك حمص لها كافيا	فوافاك منها القوى العسير

ومن كتاب فاضلى عن السلطان الى زين الدين بن نجا الواعظ يقول فى وصف قلعة حمص (والشيخ الفقيه قد شاهد مايشهد به من كونها نجما فى سحاب وعقابا فى عقاب وهامة لها الغمامة عمامه وانمله اذا خضبها الاصيل كان الهلال منها قلامه عاقدة حبوة صالحها الدهر على أن لا يحلها بقرعه عاهدة عصمة صالحها الزمن على أن لا يروعها بخلعه فاكتنفت بها عقارب منجنيقات لاتطبع طبع حمص فى العقارب وضربت حجارتها الجاره فأظهرت فيها العداوة المعلومة بين الاقارب فلم يكن غير ثالثة من الحدّ الا وقد أثرت فيها جدريا يضربها ولم تصل السابع الا والبحران منذر بنقبها واتسع الخرق على الراقع وسقط سعدها عن الطالع الى مولدها والبها الطالع وفتحت الابراج فكانت أبوابا وسيرت الجبال بها فكانت سرابا فهنالك بدت نقوب يرى قائم من دونها ماوراءها وحشيت فيها النار فلولا الشعاع من الشعاع اضاءها) ومن كتاب آخر فاضلى عن السلطان الى أخيه العادل (قد اجتمع عندنا الى هذه الغاية مايزاحم سبعة ألف فارس وتكاثفت الجموع الى الحدّ الذى يخرج عن العد وبعد أن نرتب احوال حمص حرسها الله نتوجه الى حماه والله المعين على مانتويه من الرشاد وننظفه من طرق الجهاد) وقال العماد لما سمع المدبرون للملك الصالح باقبال صلاح الدين المؤذن بادبارهم سقط فى أيديهم وراسلوا المواصلة وكاتبوهم وارسلوا الى صلاح الدين.

بالاغلاظ والاحفاظ وكان الواصل منهم قطب الدين ينال بن حسان وقال له هذه السيوف التي ملكتك مصر وأشار الى سيفه اليمانى ذلك وعما تصديت له تصدّك فحلم عنه السلطان واحتمله وتغافل كرما واغفله وخاطبه بما أبى أن يقبله وذكر انه وصل لترتيب الامور وتهذيب الجمهور وسد الثغور وتربية ولد نور الدين واستنقاذ اخوة مجد الدين فقال له أنت تريد الملك لنفسك ونحن لا ننزع في قوسك ولا نأنس بأنسك ولا نرتاع لجرسك ولا نبنى على اسك فارجع حيث جئت اوا جهد واصنع ماشئت ولا تطمع فيما ليس فيه مطمع ولا تطلع حيث ما السعودك فيه مطلع ونال من تقطيب القطب ينال كل ما أحال الحال وابلى البال وابدى له التبسم واخفى الاحتمال ثم انه استناب أخاه سيف الاسلام طغتكين بدمشق وسار بالعسكر ونزل على حمص فأخذها يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الاولى وامتنعت القلعة فأقام عليها من يحصرها ورحل الى حماه فأخذها مستهل جمادى الآخرة ثم مضى ونزل على حلب فحصرها ثالث الشهر فلما اشتد على الحلبيين الحصار واعوزهم الانتصار استغاثوا بالاسماعيلية وعينوا لهم ضياعا وبذلوا لهم من البذول أنواعا فجاء منهم في يوم بارد شات من قتاكهم كل عات فعرفهم الامير ناصح الدين خمارتكين صاحب بوقبيس وكان مثاغر اللاسماعيلية فقال لهم لاى شئ جئتم وكيف تجاسرتم على الوصول وما خشيتم فقتلوه وجاء من يدفع عنه فاثخنوه وعدا أحدهم ليهجم على السلطان في مقامه وقد شهر سكين انتقامه وطغريل أمير جاندار واقف ثابت ساكن ساكت حتى وصل اليه فشغل بالسيف رأسه وما قتل الباقون حتى قتلوا عده ولاقى من لاقاهم شدّه وعصم الله حشاشته في تلك النوبة من سكاكين الحشيشيه فأقام الى مستهل رجب ثم رحل الى حمص بسبب ان الحلبيين كاتبوا القمص طرابلس وقد كان في أسر نور الدين مذ كسره تحارم وبقى في الاسر أكثر من عشر سنين ثم فدا نفسه بمبلغ مائة ألف وخمسين ألف دينار وفكاك ألف أسير فتوجه في الافرنجية الى حمص فلما سمع بالسلطان رجع ناكصا على عقبيه خوفا مما يقع فيه ويتم عليه ومن كتاب فاضلى عن السلطان الى العادل (قد اعلمنا المجلس ان العدوّ خذله الله كان الحلبيون قد استنجدوا بصلبانهم واستصالوا على الاسلام بعدوانهم وانه خرج الى بلد حمص فوردنا حاه وأخذنا في ترتيب الاطلاب لطلبه ولقاه فسار الى حصن الاكراد متعلقا بحبله متحصنا بحيله وهذا فتح تفتح له أبواب القلوب وظفر وان كان قد كفى الله تعالى فيه القتال المحسوب فان العدوّ قد سقطت حشمته وانحطت فيه همته وولى ظهرا كان صدره يصونه ونكس صليبا كانت ترفعه شياطينه) وقال العماد في الخريدة لما خيم السلطان بظاهر حمص قصده المهذب بن اسعد بقصيدة أوّلها

مانام بعد البين يستحلى الكرى ❊ الاليطرقه الخيال اذا سرى
كلف بقربكم فلما عاقه ❊ بعد المدى سلك الطريق الاخصرا
ومودع أمر التفرّق دمعه ❊ ونهته رقبة كاشح فتحيرا
تردى الكتائب كتبه فاذا غدت ❊ لم يدر أنفذ اسطرا أم عسكرا
لم يحسن الاتراب فوق سطورها ❊ الالان الجيش يعقد عثيرا

فقال القاضي الفاضل لصلاح الدين هذا الذي يقول (والشعر مازال عند الترك متروكا)
فجعل جائزته لتكذيب قوله وتصديق ظنه فشرّفه وجمع له بين الخلعة والضيعة وعنى الفاضل ما قاله في قصيدة في مدح الصالح بن رزيك التي أوّلها (أما كفاك تلافى في تلافيكا)
يقول فيها

ياكعبة الجود ان الفقر اقعدنى ❊ ورقة الحال عن مفروض حجيكا
من ارتجى ياكريم الدهر ينعشنى ❊ جدواه ان خاب سعيى في رجائيكا
أأمدح الترك أبغى الفضل عندهم ❊ والشعر مازال عند الترك متروكا
أم أمدح السوقة النوكى لرفدهم ❊ واضيعتا ان تخطتني أياديكا
لا تتركنى وما أملت في سفرى ❊ سواك اقفل نحو الاهل صعلوكا

قلت وتقدمني ذكر ابن أسعد هذا في اخبار سنة ثمان وخمسين وسيأتى من شعره أيضا في أخبار سنة ست وسبعين وثمان وسبعين وما أحسن ما خرج ابن الدهان من الغزل الى مدح ابن رزيك في قوله من قصيدة أوّلها

اذا

اذالاح برق من جنابك لامع * أضاء لواش ماتجن الاضالع

يقول فيها

تمادى بنافى جاهلية نحلها * وقدقام بالمعروف فى الناس شارع
وتحسب ليل الشح يمتد بعدما * بداطالعا شمس السخاء طلابع

(فصل) ثم أرسل السلطان الخطيب شمس الدين بن الوزير أبى المضا الى الديوان العزيز برسالة ضمنها القاضى الفاضل كتابا طويلا رائقا فائقا يشتمل على تعداد ما للسلطان من الايادى من جهاد الافرنج فى حياة نور الدين ثم فتح مصر واليمن وبلاد جمة من أطراف المغرب وأقامه الخطبة العباسية بها يقول فى أوله للرسول (فاذاقضى التسليم حق اللقاء واستدعى الاخلاص جهد الدعاء فليعد وليعد حوادث ما كانت حديثا يفترى وجوارى أمور ان قال فيها كثيرا فأكثر منه ماقد جرى وليشرح صدرا منها لعله يشرح مناصدرا وليوضح الاحوال المستسرة فان الله لايعبد سرا

ومن الغرائب ان تسير غرائب * فى الارض لم يعلم بها المأمول
كالعيس أقتل مايكون لها الصدى * والماء فوق ظهورها محمول

فانا كانقتبس النار باكفنا وغيرنا يستنير ونستنبط الماء بايدينا وسوانا يستمير ونلقى السهام بنحورنا وغيرنا يعتمد التصوير ونصافح الصفاح بصدورنا وغيرنا يدعى التصدير ولابدان تسترد بضاعتنا بموقف العدل الذى ترد به الغصوب وتظهر طاعتنا فنأخذ بحظ الالسن كما أخذنا بحظ القلوب وما كان العائق الا انا كنا ننتظر ابتداء من الجانب الشريف بالنعمه يضاهى ابتداءنا بالخدمه وايجابا للحق يشاكل ايجابنا للسبق كان أول أمرنا انا كنا فى الشام لفتح الفتوح مباشرين بانفسنا ونجاهد الكفار متقدمين لعساكرنا نحن ووالدنا وعمنا فى اى مدينة فتحت أو معقل ملك أو عسكر للعدو كسر او مصاف للاسلام معه ضرب فما يجهل أحد صنعنا ولا يجحد عدونا انا نصطلى الجمره ونملك الكره ونتقدم الجماعه ونرتب المقاتله وندبر التعبيه الى ان ظهرت فى الشام الآثار التى لنا أجرها ولا يضرنا ان يكون لغيرنا ذكرها وكانت أخبار مصر تتصل بنا بما الاحوال عليه فيها من سوء تدبير وبما دولتها عليه من غلبة صغير على كبير وان النظام بها قد فسد والاسلام بها قد ضعف عن اقامة كل من هام وقعد والفرنج قد احتاج من يدبرها الى ان يقاطعهم باموال كثيره لها مقادير خطيره وان كلمة السنة بها وان كانت مجموعه فانها مقموعه وأحكام الشريعة وان كانت مسماه فانها متحاماه وتلك البدع بها على مايعلم وتلك الضلالات فيها على مايفتى فيه بفراق الاسلام ويحكم وذلك المذهب قد خالط من أهله اللحم والدم وتلك الانصاب قد نصبت آلهة تعبد من دون الله وتعظم وتفخم فتعالى الله عن شبه العباد وويل لمن غره تقلب الذين كفروا فى البلاد فسمت هممنا دون هم أهل الارض الى ان نستفتح مقفلها ونسترجع للاسلام شاردها ونعيد على الدين ضالته منها فسرنا اليها فى عساكر ضخمه وجموع جمه وبأموال انتهكت الموجود وبلغت منا المجهود أنفقناها من حاصل ذممنا وكسب أيدينا وثمن أسارى الفرنج الواقعين فى قبضتنا فعرضت عوارض منعت وتوجهت للمصريين رسل باستنجاد الفرنج قطعت ولكل أجل كتاب ولكل أمل باب وكان فى تقدير الله انا نملكها على الوجه الاحسن ونأخذها بالحكم الاقوى الامكن فغدر الفرنج بالمصريين غدرة فى هدنة عظم خطبها وخبطها وعلم ان استئصال كلمة الاسلام محطها فكاتبنا المسلمون من مصر فى ذلك الزمان كما كاتبنا المسلمون من الشام فى هذا الاوان باناان لم ندرك الامر والاخرج عن اليدوان لم ندفع غريم اليوم لم نمهل الى الغد فسرنا بالعساكر المجموعة والامراء والاهل المعروفة الى بلاد قد تمهد لنا بها أمران وتقرر لنا فى القلوب ودان الاول ماعلموه من ايثارنا للمذهب الاقوم واحياء الحق الاقدم والآخر مايرجونه من فك اسارهم واقالة عثارهم ففعل الله ماهو أهله وجاء الخبر الى العدو فانقطع حبله وضاقت به سبله وأفرج عن الديار بعدان كانت ضياعها ورساتيقها وبلادها واقاليمها قد نفذت فيها أوامره وخفقت عليها صلبانه ونصبت بها أوثانه وايس من ان يسترجع ما كان بايديهم حاصلا وأن يستنقذ ماصار فى ملكهم داخلا ووصلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير وسوادهم كبير واموالهم واسعه وكلمتهم جامعه وهم على حرب الاسلام أقدر منهم على حرب الكفر والحيلة فى السر فيهم أنفذ من العزيمة فى الجهر وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف كلهم أغتام أعجام ان هم الا كالانعام لا يعرفون ربا الاساكن قصره ولا قبلة الا

ما يتوجهون اليه من ركنه وامتثال أمره وبها عسكر من الارمن باقون على النصرانيه موضوعة عنهم الجزيه كانت لهم شوكة وشكه وحدة وجيه ولهم حواش لقصورهم من بين داع تتلطف فى الضلال مداخله وتصيب القلوب مخاتله ومن بين كتاب تفعل أقلامهم أفعال الاسل وخدام يجمعون الى سواد الوجوه سواد النحل ودولة قد كبر عليها الصغير ولم يعرف غيرها الكبير ومهابة تمنع ما يكنه الضمير فكيف بخطوات التدبير هذا الى استباحة للمحارم ظاهره وتعطيل للفرائض على عادة جارية جائره وتحريف للشريعة بالتأويل وعدول الى غير مراد الله بالتنزيل وكفر سمي بغير اسمه وشرع يتستر به ويحكم بغير حكمه فمازلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار ونتحيفهم تحيف الليل والنهار بعجائب تدبير لا تحتملها المساطير وغرائب تقدير لا تحملها الاساطير ولطيف توصل ما كان من حيلة البشر ولا قدرتهم لولا اعانة المقادير وفى أثناء ذلك استنجدوا علينا الفرنج دفعة الى بلبيس ودفعة الى دمياط وفى كل دفعة منهما وصلوا بالعدد المجهر والحشد الاوفر وخصوصا فى نوبة دمياط فانهم نازلوها بحرا فى ألف مركب مقاتل وحامل وبرا فى مائتى الف فارس وراجل وحصروها شهرين يباكرونها ويراوحونها ويماسونها ويصابحونها القتال الذى يصليه الصليب والقراع الذى ينادى به الموت من مكان قريب ونحن نقاتل العدوين الباطن والظاهر ونصابر الضدين المنافق والكافر حتى أتى الله بأمره وأيدنا بنصره وخابت المطامع من المصريين والفرنج وشرعنا فى تلك الطوائف من الارمن والسودان والاجناد فأخرجناهم من القاهرة تارة بالاوامر المرهقة لهم وتارة بالامور الفاضحة منهم وطورا بالسيوف المجرده وبالنار المحرقه حتى بقى القصر ومن به من خدم ومن ذرية قد تفرقت شيعه وتمزقت بدعه وخفتت دعوته وخفيت ضلالته فهنالك تم لنا اقامة الكلمه والجهر بالخطبه والرفع للواء الاسود الاعظم وعاجل الله الطاغية الاكبر بهلاكه وفنائه وبرأنا من عهدة يمين كان اثم حنثها أيسر من اثم ابقائه لانه عوجل لفرط روعته ووافق هلاك شخصه هلاك دولته ولما خلا ذرعنا ورحب وسعنا نظرنا فى الغزوات الى بلاد الكفار فلم تخرج سنة الا عن سنة أقيمت فيها برا وبحرا مركبا وظهرا الى ان أوسعناهم قتلا وأسرا وملكنا رقابهم قهرا وقسرا وفتحنا لهم معاقل ما خطر أهل الاسلام فيها مذ أخذت من أيديهم ولا أوجفت عليها خيلهم ولا ركابهم مذ ملكها أعاديهم فمنها ما حكمت فيه يد الخراب ومنها ما استولت عليه يد الاكتساب ومنها قلعة بثغر ايلة كان العدو قد بناها فى بحر الهند وهو المسلوك منه الى الحرمين واليمن وغزا ساحل الحرم فسبا منه خلقا وخرق الكفر فى هذا الجانب خرقا فكادت القبلة ان يستولى على أصلها ومشاعر الله ان يسكنها غير أهلها ومقام الخليل عليه السلام ان يقوم به من ناره غير برد وسلام ومضجع الرسول صلى الله عليه وسلم ان يتطرقه من لا يدين بما جاء به من الاسلام فاخذت هذه القلعة وصارت معقلا للجهاد وموئلا لسفار البلاد وغيرهم من عباد العباد) ثم قال (وكان باليمن ما علم من امر ابن مهدى الضال الملحد المبدع المتمرد وله آثار فى الاسلام وثار طالبه النبى صلى الله عليه وسلم لانه سبى الشرائف الصالحات وباعهن بالثمن البخس واستباح منهن كل ما لا يقر لمسلم عليه نفس ودان ببدعه ودعا الى قبر أبيه وسماه كعبة وأخذ أموال الرعايا المعصومة وأجاحها واحل الفروج المحرمة وأباحها فانهضنا اليه أخانا بعسكرنا بعد ان تكلفنا له نفقات واسعه واسلحة رائعه وسار فأخذناه ولله الحمد وأنجز الله فيه القصد والكلمة هنالك بمشيئة الله الى الهند سامية والى ما يفتض الاسلام عذرته متماديه ولنا فى الغرب أثر أغرب وفى اعماله اعمال دون مطلبها مهالك كما يكون المهالك دون المطلب وذلك ان بنى عبد المؤمن قد اشتهر ان أمرهم قد أمر وملكهم قد عمر وجيوشهم لا تطاق وأمرهم لا يشاق ونحن بحمد الله قد تملكنا ما يجاورنا منه بلادا تزيد مسافتها على شهر وسيرنا اليها عسكرا بعد عسكر فرجع بنصر بعد نصر ومن البلاد المشاهير والاقاليم الجماهير برقه قفصه قسطيليه توزر كل هذا تقام فيها الخطبة لمولانا الامام المستضىء بامر الله أمير المؤمنين سلام الله عليه ولا عهد للاسلام باقامتها وينفذ فيها الاحكام بعلمها المنصور وعلامتها وفى هذه السنة كان عندنا وفد قد شاهده وفود الامصار ورموه باسماع وأبصار مقداره سبعون راكبا كلهم يطلب لسلطان بلده تقليدا ويرجو منا وعدا ويخاف وعيدا وقد صدرت عنا بحمد الله تقاليدها والقيت الينا مقاليدها وسيرنا الخلع والمناشير والالويه بما فيها من الاوامر والاقضيه فاما الاعداء المحدقون بهذه البلاد والكفار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام والعزائم الشداد فمنهم صاحب قسطنطينيه وهو الطاغية الاكبر والجالوت الاكفر وصاحب

المملكة التى أكلت على الدهر وشربت وقائم النصرانية الذى حكمت دولته على ممالكها وغلبت جرت لنا معه غزوات بحريه ومناقلات ظاهرة وسريه ولم نخرج من مصر الى ان وصلتنا رسله فى جمعة واحدة نوبتين بكتابين كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح والقاء السلاح والانتقال من معاداة الى مهاداه ومن مفاضحة الى مناصحه حتى انه انذر بصاحب صقلية واساطيله التى تردد ذكرها وعساكره التى لم يخف أمرها ومن هؤلاء الكفار هذا صاحب صقلية كان حين علم بان صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا فى نوبة دمياط فغلبا وقسرا وهزما وكسرا أراد ان يظهر قوته المستقلة فعمر اسطولا يستوعب فيه ماله وزمانه فله الآن خمس سنين تكثر عدته وتتخير عدته الى ان وصل منها فى السنة الخالية الى الاسكندرية أمر رائع وخطب هائل ما أثقل ظهر البحر مثل حمله ولا ملأ صدره مثل خيله ورجله وما هو الا اقليم بل أقاليم نقله وجيش ما احتفل ملك قط بنظيره لولا ان الله خذله ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنة والجنوية كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم ولا تطفأ شرارة شرهم وتارة يكونون سفارا يحتكمون على الاسلام فى الاموال المجلوبه وتقصر عنهم يد الاحكام المرهوبه ومامنهم الامن هو الآن يجلب الى بلدنا آلة قتاله وجهاده ويتقرب الينا باهداء طرائف اعماله وتلاده وكلهم قد قررت معهم المواصله وانتظمت معهم المسالمه على ما نريد ويكرهون وعلى ما نؤثره وهم لا يؤثرون ولما قضى الله سبحانه بالوفاة النورية وكان فى تلك السنة على نية الغزاة والعساكر قد تجهزت والمضارب قد برزت ونزل الفرنج على بانياس واشرفوا على احتيازها ورأوها فرصة مدوا ايد انتهازها استصرخ بنا صاحبها فسرنا مراحل اتصل بالعدو أمرها وعوجل بالهدنة الدمشقية التى لولا مسيرنا ما انتظم حكمها ثم عدنا الى البلاد وتوافت الينا الاخبار بما المملكة النوريه عليه من تشعب الاراء وتوزعها وتشتت الامور وتقطعها وان كل قلعة قد حصل فيها صاحب وكل جانب قد طمح اليه طالب والفرنج قد بنوا قلاعا يتخوفون بها الاطراف الاسلاميه ويضايقون بها البلاد الشاميه وأمراء الدولة النوريه قد سجن كبارهم وعوقبوا وصودروا واوالمماليك الاعداد الذين خلقوا للاطراف لا للصدور وجعلوا للقيام لا للقعود فى المجلس المحضور قد مدوا الايدى والاعين والسيوف وسارت سيرتهم فى الامر بالمنكر والنهى عن المعروف وكل واحد يتخذ عند الفرنج يدا ويجعلهم لظهره سندا وعلمنا ان البيت المقدس ان لم تتيسر الاسباب لفتحه وأمر الكفران لم يتجرد العزم فى قلعه والا نبتت عروقه واتسعت على أهل الدين خروقه وكانت الحجة لله قائمه وهمم القادرين بالقعود نائمه واناالا نتمكن بمصر منه مع بعد المسافه وانقطاع العماره وكلال الدواب التى بها على الجهاد القوه واذا جاورناه كانت المصلحة باديه والمنفعة جامعه واليد قادره والبلاد قريبه والغزوة ممكنه والميرة متسعه والخيل مستريحه والعساكر كثيرة الجوع والاوقات مساعده وأصلحنا ما فى الشام من عقائد معتله وأمور مختله وأراء فاسده وأمراء متحاسده واطماع غالبه وعقول غائبه وحفظنا الولد القائم بعد أبيه فانا به أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه ويظهرون الوفاء فى خدمته وهم عاملون بظلمه والمراد الآن هو كل ما يقوى الدوله ويؤكد الدعوه ويجمع الامه ويحفظ الالفه ويضمن الرأفه ويفتح بقية البلاد وان يطبق بالاسم العباسى كل ما تطبقه العهاد وهو تقليد جامع بمصر واليمن والمغرب والشام وكل ما تشتمل عليه الولاية النوريه وكل ما يفتحه الله للدولة العباسيه بسيوفنا وسيوف عساكرنا ولمن نقيمه من أخ أو ولد من بعدنا تقليدا يضمن للنعمة تخليدا وللدعوة تجديدا مع ما ينعم به من السمات التى فيها الملك وبالجملة فالشام لا ينتظم أموره بمن فيه والبيت المقدس ليس له قرن يقوم به ويكفيه والفرنج فهم يعرفون منا خصما لا يمل الشرحتى يملوا وقرنا لا يزال محرم السيف حتى يحلوا واذا شد رأينا حسن الرأى ضربنا بسيف يقطع فى غمده وبلغنا المنى بمشيئة الله ويد كل مؤمن تحت برده واستنقذنا أسيرا من المسجد الذى أسرى الله اليه بعبده) ومن كتاب آخر فاضلى عن السلطان الى الديوان فى تعداد ماله من الايادى (والذى أجراه الله على يد المملوك من الممالك التى دوخها وسنن الضلال التى نسخها وعقود الالحاد التى فسخها ومنابر الباطل التى رحضها وحجج الزندقة التى دحضها فلله عليه المنة فيه اذا هله لشرف مشهده وما فعله الا لوجهه ويد الله كانت عون يده والا فقد تقضت الليالى والايام على تلك الامور وما تحركت للفلك فى قلعها نابضه وغيرت الاحوال على تلك البدعة وما ثارت لافراسها رابضه فشكر يد الله تعالى فيما أجراه على يده

منها ان يجتهد في اخرى مثلها في الكفار وقد عاد الاسلام الى وطنه وصوحت من الكفر خضراء دمنه) ومن كتاب آخر للفاضل يذكر فيه اعادة صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية يقول فيه (حتى أتى الدنيا ابن بجدتها فقضى من الامر ما قضى وأسخط من الله في سخطه رضا وجعل وجه لابسي السواد مبيضا فأدرك لهم بثار نامت عنه الهمم ودوّخت عليه الامم وشفى الصدور وجاء بالحق الى من غرّه بالله الغرور واستبضع الى الله تعالى تجارة لن تبور) ومن كتاب آخر (قد بورك للخادم في الطاعة التي لبس الاولياء شعارها وأمضى في الاعداء شفارها وجمع عليها الدين وكان أديانا واستقامت بها القلوب على صبغة التكلف وكانت ألوانا) ومن كتاب آخر (لم يكن سبب خروج المملوك من بيته الا وعد كان انعقد بينه وبين نور الدين رحمه الله في ان يتجاذبا طرفي الغزاة من مصر والشام المملوك بعسكري بره وبحره ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره فلما قضى الله بالمحتوم على أحدهما وحدثت بعد الامور أمور اشتهرت للمسلمين عورات وضاعت ثغور وتحكمت الآراء الفاسده وفورقت المحاج القاصده وصارت الباطنية بطانة من دون المؤمنين والكفار محمولة اليها جزى المسلمين والامراء الذين كانوا للاسلام قواعد وكانت سيوفهم للنصر موارد يشكون ضيق حلقات الاسار وتطرق الكفار بالبناء في الحدود الاسلامية ولا خفاء ان الفرنج بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقعدوا واستنجدوا علينا أنصار النصرانية في الاقطار وسيروا الصليب ومن كسي مذابحهم بتمامه وهددوا طاغية كفرهم باشراط القيامه وانفذوا البطارقة والقسيسين برسائل صور من يصوّرونه ممن يسمونهم القديسين وقالوا ان الغفلة ان وقعت أوقعت فيما لا يستدرك فارطه وان كلامس صاحب قسطنطينية وصاحب صقلية وملك الالمان وملوك ماوراء البحر وأصحاب الجزائر كالبندقية والبيشانية والجنوية وغيرهم قد تأهبوا بالعمائر البحريه والاساطيل القويه وللاسلام بأمير المؤمنين أعز ناصر لاسيما وهم ينصرون باطلا وهو ينصر حقا وهو يعبد خالقا وهم يعبدون خلقا)

(فصل) قال العماد وكنت بالموصل فسئلت نظم مرثية في نور الدين فنظمت بعد عودي الى دمشق في رجب

الدين في ظلم لغيبة نوره ❊ والدهر في غم لفقد أميره
فليندب الاسلام حامي أهله ❊ والشام حافظ ملكه وثغوره
ما أعظم المقدار في اخطاره ❊ اذ كان هذا الخطب في مقدوره
ما أكثر المتأسفين لفقد من ❊ قرّت نواظرهم بفقد نظيره
ما أغوص الانسان في نسيانه ❊ أو ما كفاه الموت في تذكيره
من للمساجد والمدارس بانيا ❊ لله طوعا عن خلوص ضميره
من ينصر الاسلام في غزواته ❊ فلقد أصيب بركنه وظهيره
من للفرنج ومن لاسر ملوكها ❊ من للهدى يبغي فكاك أسيره
من للخطوب مذللا لجماحها ❊ من للزمان مسهلا لوعوره
من كاشف للمعضلات برأيه ❊ من مشرق في الداجيات بنوره
من للكريم ومن لنعش عثاره ❊ من لليتيم ومن لجبر كسيره
من للبلاد ومن لنصر جيوشها ❊ من للجهاد ومن لحفظ أموره
من للفتوح محاولا أبكارها ❊ بروا حه في غزوه وبكوره
من للعلى وعهودها من للندى ❊ ووفوده من للحجى ووفوره
ما كنت أحسب نور دين محمد ❊ يخبو وليل الشرك في ديجوره
اعزز علي بليث غاب للهدى ❊ يخلو الشرا من زوره وزئيره
اعزز علي بأن أراه مغيبا ❊ عن محفل متشرف بحضوره
لهفي على تلك الانامل انها ❊ مذ غيبت غاض الندى ببحوره
ولقد أتى من كنت تجري رسمه ❊ فضع العلامة منك في منشوره

ولقد أتى من كنت نكشف كربه ❊ فارفع ظلامته بنصر عشيره
ولقد أتى من كنت تؤمن سربه ❊ وقع له بالامن من محذوره
ولقد أتى من كنت تؤثر قربه ❊ فأدم له التقريب فى تقريره
والجيش قد ركب الغداة لعرضه ❊ فاركب لتبصره أوان عبوره
أنت الذى أحييت شرع محمد ❊ وقضيت بعد وفاته بنشوره
كم قد أهجت من الشريعة معلما ❊ هو منذ غبت معرّض لدثوره
كم قد أمرت بحفر خندق معقل ❊ حتى سكنت اللحد فى محفوره
كم قيصر للروم رمت بقسره ❊ ارواء بيض الهند من تاموره
أوتيت فتح حصونه وملكت عقـ ❊ ـسر بلاده وسبيت أهل قصوره
أزهدت فى دار الفناء وأهلها ❊ ورغبت فى الخلد المقيم وحوره
أو ما وعدت القدس انك منجز ❊ ميعاده فى فتحه وظهوره
فتى تجير القدس من دنس العدى ❊ وتقدّس الرحمن فى تطهيره
ياحاملين سريره مهلا فمن ❊ عجب نهوضكم بحمل ثبيره
ياعابرين بنعشه انشقتم ❊ من صالح الاعمال نشر عبيره
نزلت ملائكة السماء لدفنه ❊ مستجمعين على شفير حفيره
ومن الجفاء له مقامى بعده ❊ هلا وفيت وسرت عند مسيره
حياك معتل الصبا بنسيمه ❊ وسقاك منهل الحيا بدروره
ولبست رضوان المهيمن ساحبا ❊ أذيال سندس خزه وحريره
وسكنت عليين فى فردوسه ❊ حلف المسرة ظافرا باجوره

قال العماد وجاء نجاب الى الموصل وذكر انه فارق صلاح الدين بقرب دمشق بالكسوه وهو الآن يستكمل من هلك دمشق الحظوه فهاجنى الطرب لقصده لسابق معرفته وقديم ودّه فقدمت دمشق على طريق البرية والسلطان على حلب وكان العماد فى عقابيل ألم تماشي وعاد السلطان الى حمص قصده فيها وقد تسلم قلعتها فى شعبان فى الحادى والعشرين منه قال وكنت نظمت قصيدة فى الشوق الى دمشق والتأسف عليها ثم جعلت مدح السلطان مخلصها وهى طويلة أوّلها

أجيران جيرون مالى مجير ❊ سوى عطفكم فاعدلوا أو فجوروا
ومالى سوى طيفكم زائر ❊ فلا تمنعوه اذا لم تزوروا
يعز علىّ بأن الفؤاد ❊ لديكم أسير وعنكم أسير
وما كنت أعلم انى أعيـ ❊ ـش بعد الاحبة انى صبور
وفت أدمعى غير ان الكرى ❊ وقلبى وصبرى كل غدور
الى ناس بنياس لى صبوة ❊ لها الوجد داع وذكرى مثير
يزيدا شتيا فى وينمو كما ❊ يزيد يزيد وثورا يثور
ومن برد أبرد قلبى المشوق ❊ فها أنا من حره مستجير
وبالمرج مرجو عيشى الذى ❊ على ذكره العذب عيشى مرير
فقدتكم ففقدت الحياة ❊ ويوم اللقاء يكون النشور
تطاول لسؤلى عند القصير ❊ فعن نيله اليوم باعى قصير
وكن لى بريدا بباب البريد ❊ فأنت بأخبار شوقى خبير

متى تجد الرى بالقريتين * خوامص أثرفيها الهجير
ونحو الجليل أزجى المطى * لقد جل هذا المرام الخطير
ترانى أنيخ بأدنى ضمير * مطايا براها الوجا والضمور
وعند القطيفة والمشتهاة * قطوف بها للامانى سفور
ومنها بكورى نحو القصير * ومنية عمرى ذاك البكور
و ياطيب بشراى من جلق * اذا جاءنى بالنجاح البشير
و يستبشر الاصدقاء الكرام * هنالك بى وتوفى النذور
ترى بالسلامة يوما يكون * بباب السلامة منى عبور
وان جوازى بباب الصغير * لعمرى من العمر حظ كبير
وما جنة الخلد الا دمشق * وفى القلب شوق اليها سعير
ميادينها الخضر فيح الرحاب * وسلسالها العذب صاف نمير
وجامعها الرحب والقبة المنيفه والفلك المستدير
وفى قبة النسر لى سادة * بهم للمكارم أفق منير
وباب الفراديس فردوسها * وسكانها أحسن الناس حور
والارزه فالسهم فالنيربان * لجنات مزتها فالكفور
كأن الجواسق مأهولة * بروج تطلع منها البدور
بنير بها تستبير الهموم * بربوتها يتربى السرور
وما غر فى الربوة العاشقين بالحسن الا الربيب الغرير
وعند المغارة يوم الخميس * أغار على القلب منى مغير
وعند المنيبع عين الحياة * مدى الدهر نابعة ماتغور
بجسر ابن شواش ثم السكون * لنفسى بنفسى تلك الجسور
وماانس لاانس انس العبور * على جسر جسرين انى جسور
وكم بت الهو بقرب الحبيب فى بيت لهيا ونام الغيور
فاين اغتباطى بالغوطتين * وتلك الليالى وتلك العصور
وأشجار سطرا بدت كالسطو * رغفقهن البليغ البصير
وأين تأملت فلك يدور * وعين تفور وبحر يمور
وأين نظرت نسيم يرق وزهر يروق وروض نضير
الام القساوة ياقاسيون * وبين السنا يتجلى سنير
ومنذ ثوى نوردين الاله لم يبق للدين والشام نور
وللناس بالملك الناصر الصلاح صلاح ونصر وخير
هو الشمس أفلاكه فى البلاد * ومطلعه سرجه والسرير
اذا ماسطا أو حبى واحتبى * فما الليث ماحاتم ماثبير
بيوسف مصر وأيامه * تقر العيون وتشفى الصدور
ملكت فاسجح فما للبلاد * سواك مجير ومولى نصير
وفى معصم الملك للعز منك سوار ومنك على الدين سور
لك الله فى كل ماتبتغيه بحق ظهير ونعم الظهير
اما المفسدون بمصر عصوك * وهذى ديارهم اليوم قور

اما الادعياء بها اذ نشطت لابعادهم زال منك الفتور
ويوم الفرنج اذا مالقوك * عبوس برغمهم قطرير
نهوضا الى القدس يشفى العليل * بفتح الفتوح وماذا عسير
سل الله تسهيل صعب الخطوب * فهو على كل شئ قدير
اليك هجرت ملوك الزمان * فمالك والله فيهم نظير
وبحرك فيه القرى والقرآن * جميعا وبحر الجميع الفجور
وأنت تريق دماء الفرنج * وعندهم لا تراق الخمور

(فصل) فى فتح بعلبك قال العماد ولما فرغ السلطان من حمص وحصنها سار الى بعلبك فتسلمها فى رابع شهر رمضان قال ابن أبى طى وكان بها خادم يقال له يمن فلما شاهد كثرة عساكر السلطان اضطرب فى أمره وراسل من بحلب على جناح طائر فلم يرجع اليه منهم خبر فطلب الامان وسلم بعلبك الى السلطان قال العماد وهنأته بأبيات منها

بفتوح عصرك يفخر الاسلام * وبنور نصرك تشرق الايام
وبفتح قلعة بعلبك تهذبت * هذى الممالك واستقام الشام
وبكى الحسود دما وثغر الثغر من * فرح بنصرك للهدى بسام
فتح تسنى فى الصيام كانما * شكرا لما منح الاله صيام
من ذا رأى فى الصوم عيد سعادة * حلت لنا والفطر فيه حرام
أسدى صلاح الدين والدنيا يدا * بنوالها سوق الرجاء تقام
فتمل فتحك واقصد الفتح الذى * بحصوله لفتوحك الاتمام
دم للعلى حتى يدوم نظامها * واسلم يعز بنصرك الاسلام

قال ولزمت خدمته ارحل برحيله وأنزل بنزوله وكنت ليلة عنده وهو يذكر جماعة من شعراء الزمان وعنده ديوان الامير مؤيد الدولة اسامة بن مرشد بن سديد الملك على بن منقذ وهو به مشغوف وخاطره على تأمله موقوف والى استحسانه مصروف وقد استحسن قصيدة له طائية لو عاش الطائيان لاقرا بفضلها وان خواطر المبتكرين لتقصر عن مثلها على ان الشعراء المحدثين ما منهم الا من نظم على رويها ووزنها واستمد خصب خاطره من مزنها فمنهم المعرى وابن أبى حصينة والارجانى والصالح ابن رزيك وقد أوردت جميعها فى كتاب الخريدة ومطلع قصيدة المعرى

(لمن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا)

فنظمت فى السلطان ونحن على بعلبك بتاريخ انسلاخ شعبان قصيدة طائية منها

عفا الله عنكم مالكم أيها الرهط * قسطتم ومن قلب المحب لكم قسط
شرطتم لنا حفظ الوداد وخنتم * خيانتكم ماهكذا الود والشرط
جعلتم فؤاد المستهام بكم لكم * محطا فغنه ثقل همكم حطوا
ملكتم فانكرتم قديم مودتى * كان لم يكن فى البين معرفة قط
فدت مهجتى من لا يذم لمهجتى * اذا ما كته وهو فى الحكم مشتط
وما كنت أدرى قبل سطوة طرفه * بان ضعيفا فاترا مثله يسطو
واهيف للاشفاق من ضعف خصره * يحل نطاقا للقلوب به ربط
يلازم قلبى فى الهوى القبض مثلما * يلازم كف الناصر الملك البسط
مليك حوى الملك العقيم بضبطه * كريم وما للمال فى يده ضبط
اذا لثمت أيدى الملوك فعنده * مدى الدهر اجلالا له تلثم البسط
عنالك طوعا نيل مصر ودجلة الـ * ـعراق ودان الغرب والعجم والقبط

وللنيل شـط ينتهى سيبه به * ونيلك للراجين نيـل ولا شـط
عدوك مثل الشمع فى نار حقده * له عنق اصلاح فاسده القط

وهى ثمانية وثمانون بيتا ولسعادة الاعمى قصيدة طائية فى السلطان سيأتى ذكرها قال العماد ولما وصلت الى السلطان ورغبت منه فى الاحسان وجدته لامرى مغفلا ولشغلى مهملا ثم عرفت ان حسادى قالوا له متى أعدت ديوان الكتابة الى العماد وهو لا شك بمحل الوثوق والاعتماد وهذا منصب الاجل الفاضل وهو عنده فى أجل المنازل ربما ضاق صدره وتشعث سره فلما عرفت هذا المعنى لجأت الى الفضل الفاضلى لانه به يعنى فقام بامرى ونوه بقدرى وأراح سرى وشد أزرى

*(فصل) فيما جرى للمواصلة والحلبيين مع السلطان فى هذه السنة قال ابن شداد ولما احس سيف الدين صاحب الموصل بما جرى علم ان الرجل قد استفحل أمره وعظم شأنه وعلت كلمته وخاف انه ان غفل عنه استحوذ على البلاد واستقر قدمه فى الملك وتعدى الامر اليه فجهز عسكرا وافرا وجيشا عظيما وقدم عليهم أخاه عز الدين مسعودا وساروا يريدون لقاء السلطان وضرب المصاف معه ورده عن البلاد فوصل الى حلب والسلطان بحمص وانضم اليه من كان بحلب من العسكر وخرجوا فى جمع عظيم ولما عرف السلطان بمسيرهم سار حتى وافاهم بقرون حماه وراسلهم وراسلوه واجتهد ان يصالحهم فما صالحوه ورأوا ان المصاف ربما نالوا به الغرض الاكبر والمقصود الاوفر والقضاء يجر الى أمور وهم بها لا يشعرون وقام المصاف بين العسكرين فقضى الله تعالى ان انكسروا بين يديه وأسر جماعة منهم ومن عليهم وأطلقهم وذلك عند قرون حماه فى تاسع عشر شهر رمضان ثم سار عقيب انكسارهم ونزل على حلب وهى الدفعة الثانية وصالحوه على ان أخذ المعرة وكفر طاب وبارين قال العماد لما تسلم السلطان قلعة بعلبك عاد الى حمص وقد وصل عز الدين مسعود أخو صاحب الموصل الى حلب نجدة ولما عرفوا ان السلطان مشغول بالحصون جاؤا الى حماه فحصروها وراسلوا فى الصلح فقدم السلطان فى خف من أصحابه وجاء كمشتكين وابن العجمى وغيرهما وأجابهم السلطان الى ما طلبوا وان يرد عليهم الحصون وان يقنع بدمشق نائبا عن الملك الصالح وله خاطبا وعلى الانتماء اليه مواظبا وان يرد كل ما أخذه من الخزانه وان يسلك فيه سبيل الامانه فلما رأوه مجيبا لكل ما يلتمس منه وهو فى عسكر خفيف قالوا اما خبره صحيح فشرعوا فى الاشتطاط فطلبوا الرحبة واعمالها فقال هى لابن عمى ناصر الدين محمد بن شيركوه وكيف الحق به فى رضاكم المكروه فنفروا وجفلوا وأصبحوا على الرحيل الى جانب العاصى قريبا من شيزر وجمعوا العسكر وأظهروا انهم على المصاف وعزم الانتصاف فعبر السلطان الى سفح قرون حماه خيامه وركز على مقابلتهم اعلامه ووصل العسكر المصرى فى عشرة من المقدمين منهم فرخشاه واخوه تقى الدين والتقوا فهزمهم السلطان ونزل فى منزلتهم قال العماد ومما نظمت فى هذه الوقعة فى مدح ناصر الدين محمد بن شيركوه قصيدة فقد كان له فيها عناء وبلاء حسن منها

ولقد ألفت نفارها وهويتها * اذليس ينكر للظباء نفار
ياجارة للقلب جائرة دمى * ظلمى والا قلت جار الجار
قلبى كطرفى مايفيق افاقة * سكران مادارت عليه عقار
صب بصب الدمع محترق الحشا * خطرت ببال بلائه الاخطار
لم يخش من خطر الهوى حتى حمى * ذاك القوام شبيهه الخطار
يذرى الدموع كانهن عوارف * لابن الملك شيركوه غزار
من آل شاذى الشائدين بنا العلى * اركانهن هادم وشفار
حسنت بهم للدولة الايام والـ * اعمال والاحوال والآثار
قد حاز ملك الشام يوسف الذى * فى مصر تغبط عصره الاعصار
نصر الهدى فتوطد الاسلام فى * أيامه وتضعضع الكفار
لما لقيت جموعهم منظومة * صيرت ذاك النظم وهو نثار
فى حالتى جود وبأس لم يزل * للتبر والاعداء منك تبار

تهب

تهب الالوف ولا تهاب ألوفهم * هان العدوّ عليك والدينار
لما جرى العاصى هنالك طائعا * بدمائهم جرت به الانهار
وتحطمت عند القرون قرونهم * بل كلت الانياب والاظفار
عبروا المعرة مالكين معرة * والعار يملك تارة ويعار
أوما كفاهم يوم حمص وكفهم * فى بعلبك بمثلها الانذار

قال وهنأت الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بقصيدة منها

لاتقف من فرق الفراق الادمعا * فهى الشهود على الغرام المدّعى
واستبق صبرك مااستطعت فانه * عون لقلبك ان هما ثبتا معا
قلب أصابته العيون ولم يزل * من مسها بالهاجسات مروّعا
ما باله قد صدّ عند صدودهم * عنى ولما ودّعونى ودّعا
ومن التحير انى أبصرته * فى ظعنهم وسألت عنه الاضلعا
أصبحت اذ شيعتهم لثلاثة * صبرى وغمضى والفؤاد مشيعا
أوما اتقيتم حين رعتم سربه * فيه تقى الدين ذاك الاروعا
عمر بن شاهنشاه من هو عامر * أركان ملك الشام حين تضعضعا
خضع العدوّ وذل بعد تعزز * لكم وحق عدوّكم ان يخضعا
من معشر غر يرون جميع مالم * يبذلوه فى السماح مضيعا
فى مصر واليمن اجتلينا منهم * فى عصرنا تبعا ليوسف تبعا
الحاويان بملك مصر ومكة * والشام واليمن الحظايا الاربعا
لما عصى الاعداء بالعاصى جرى * بدمائهم طوعا سيولا دفعا

وقال ابن أبى طى لما تسلم السلطان بعلبك وأزاح عللها عاد الى حمص ونزل بها فاتصل به ورود عز الدين مسعود أخى سيف الدين صاحب الموصل نجدة للملك الصالح وكان سبب وروده ان جماعة من أمراء حلب لما كان السلطان نازلا على حلب أجمعوا آراءهم وكاتبوا سيف الدين والزموه نجدة ابن عمه وأخبروه ان السلطان متى ملك حلب لم يكن له قصد الا الموصل وأرسلوا بذلك أمين الدين هاشما خطيب حلب وقطب الدين ينال بن حسان وغرس الدين قليج وكان سيف الدين منازلا لسنجار وفيها أخوه عماد الدين بن زنكى وكان عماد الدين قد أظهر الانتماء الى السلطان فانجده السلطان بقطعة من جيشه فكسرهم ونهبهم عماد الدين بهم وبعسكره فلما وصلت رسالة الحلبيين الى سيف الدين صالح أخاه عماد الدين وحشد عسكره وأنفذ يجيبهم مع أخيه عز الدين مسعود فورد حلب بعد رحيل السلطان عنها الى بعلبك فاغتنم الحلبيون بعد السلطان عنهم فاحتشدوا وخرجوا جميعا حتى خيموا على حماه وأخذوا فى حصارها واتصل بالسلطان ذلك فرحل من بعلبك الى حمص وبلغ عز الدين فعاد عن حماه ونزل قريبا من جباب التركمان الى جهة العاصى الى قريب من شيزر وراسل النائب بحماه على بن أبى الفوارس يقول له انما وصلت فى اصلاح الحال ووضع أوزار القتال وسأله مكاتبة السلطان فيما يجمع الكلمه ويلم شعب الفرقه فكتب ابن أبى الفوارس بذلك الى السلطان وحسن له الصلح وتلطف فى ذلك غاية التلطف وقدم أبو صالح ابن العجمى وسعد الدين كمشتكين لطلب الصلح فاجابهما السلطان الى ما أرادوا وتقرر الامر على انه يردّ اليهم جميع الحصون والبلاد ويقنع بدمشق وحدها ويكون نائبا للملك الصالح فلما عاين سعد الدين أجابة السلطان الى الصلح والنزول عن جميع الحصون التى أخذها حمص وحماه وبعلبك طمع فى جانب السلطان وتجاوز الحدّ فى الاقتراح وطلب الرحبة واعمالها فقال هى لابن عمى ولا سبيل الى أخذها فقام سعد الدين من بين يديه نافرا وكان ذلك برأى أبى صالح ابن العجمى لانه كان معه فاجتهد السلطان به ان يرجع فلم يفعل وخرج الى عز الدين مسعود وكان بعد نازلا على حماه وحدّثه بما دار بينه وبين السلطان وهون عليه أبو صالح أمر السلطان وأخبره بقلة من معه وكان السلطان لما كوتب فى أمر الصلح سار فى خف من أصحابه

فلما علموا بذلك طمعوا فى جانبه وعولوا على لقائه وانتهاز الفرصة فى أمره فكاتب باقى أصحابه واستعد لحربهم وسار الى ان نزل على قرون حماه وأخذ فى مدافعة الايام حتى يقدم عليه باقى عسكره وراسلهم فى التلطف للاحوال فلم يجمع فيهم حال وكانوا فى كل يوم يعزمون على لقائه وقتاله فيبطل عزيمتهم بمراسلة يقتعلها تسويفا للاوقات وتقطيعا للزمان حتى يقدم عليه عسكره وكانت هيبته قد ملأت صدور القوم ولولا ذلك لكانوا قد ناهزوا الفرصة ونالوا منه الغرض قال وفى يوم الاحد تاسع عشر رمضان التقوا ولم يكن بعد قد وصل للسلطان من عسكره أحد فتجمع أصحاب السلطان كردوسا واحدا وأخذوا يحملون يمنة ويسرة ويدافعون الاوقات رجاء ان يتصل بهم بعض العسكر وضرى عسكر حلب والعسكر الموصلى على أصحاب السلطان حين شاهدوا قلتهم واجتماعهم وكاد أصحاب السلطان يولون الادبار فوصل تقى الدين عمر عند الحاجة اليه لتمام السعادة للسلطان فانه لو تأخر ساعة لانكسر عسكره فوصل تقى الدين فى عسكر مصر وجماعة من الامراء وهم غير عالمين بالحرب وقيامها فلما رأوا الناس فى الكر والضرب الهبر حملوا جميعا بعد ان افترقوا فى الميمنة والميسرة فصدموا عسكر الموصل صدمة ضعضعتهم وكان السلطان فى هذه المدة قد كاتب جماعة من عسكرهم واستفسدهم اليه وحمل اليهم الاموال وهذا هو الذى ابطأ بهم الى ان وصلت عساكره والا فلو كان عسكر حلب نصح لم يقدر السلطان على الثبوت ساعة فلما اشتد القتال لم ينصح الجماعة التى كاتبها السلطان بل كانوا متبطين مخوفين لمن قرب منهم ثم انهم بعد ذلك انهزموا وتبعهم عسكر السلطان واستباحوا أموالهم وخيامهم وأمر السلطان أصحابه ان لا يوغلوا فى طلبهم ولا يقتلوا من رأوه منهزما ولا يذففوا على جريح ورحل حتى نزل فى منزلتهم ثم سار من وقته مجدا حتى نزل بمرج قراحصار ولم يزل هناك حتى عيد عيد الفطر فجاءته رسل الملك الصالح يسألونه المهادنة وأن يقر الملك الصالح على ما فى يده وما هو جار تحت حكمه من الشام الاسفل الى بلد حماه فلم يرض بذلك فجعلوا له مع حماه المعرة وكفرطاب فرضى بذلك وحلف على نسخة رأيتها وعليها خطه قال وكان فى جملة اليمين انه متى قصد الملك الصالح عدو حضر بنفسه وجيوشه ودافع عنه وان لا يغير الدعاء له من جميع منابر البلاد التى تحت يد السلطان وولاية أصحابه وان تكون السكة باسمه ولما حلف السلطان والملك الصالح وأمراؤه عاد السلطان قاصدا دمشق فلما وصل الى حماه وصلت اليه رسل الخليفة المستضىء ومعهم التشريفات الجليلة والاعلام السود وتوقيع من الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام وفى هذه الخلع يقول ابن سعدان الحلبى

يا أيها الملك الغز برفضله * لقد غدوت بالعلى مليا
كفى أمير المؤمنين شرفا * انك أصبحت له وليا
طارحك الود على شحط النوى * فكنت ذاك الصادق الوفيا
أولاك من لباسه زخرفة * لم يولها قبلك أدميا
ناسبت الروض سنا وبهجة * حتى حكته رونقا وريا

قال ورحل السلطان من حماه الى بعرين وكان فيها فخر الدين مسعود ابن الزعفرانى وكان خرج الى السلطان لما وصل الى الشام وتطارح عليه وخدمه وظن ان السلطان يقدمه على عساكره فلم يلتفت اليه فترك السلطان وعاد الى حصن بعرين فاغضب السلطان ذلك وسار اليه وحاصره حتى تسلم حصنه وقال العماد نزل السلطان قراحصار بنية الحصار فجاءت رسلهم بالانقياد وأجابوا الى المراد وقالوا اقنعوا بما أخذتموه الى حماه ولا تشمتوا بنا العداه فاستزدناعليهم كفرطاب والمعرة واستوفينا عليهم الايمان المستقرة وسألهم فى المعتقلين اخوة مجد الدين فأجابوا وأفرجوا عنهم وتم الصلح وعم النجح ورحلنا ظاهرين ظافرين ونزلنا حماه يوم الاثنين ثانى عشر شوال وبها وصلت اليه رسل الديوان العزيز بالتشريفات والتقليد بما أراد من الولايات وأفاضوا على السلطان وأقاربه الخلع وخص ناصر الدين محمد بن شيركوه بمزيد تفضيل على أقارب السلطان وكأنه رعاية لحق والده أسد الدين رحمه الله ثم تسلم السلطان حصن بعرين وكان بيد الامير فخر الدين مسعود ابن الزعفرانى وهو من أكابر أمراء نور الدين وذلك فى أواخر شوال واقطع مدينة حماه لابن خاله وصهره الامير شهاب الدين محمود وانعم بحمص على ابن عمه ناصر الدين قال العماد واذكر انا عبرنا نهر العاصى عائدين وقد انكسفت الشمس وادلهم النهار وغلب على القلوب الاستشعار

وطاحت الانوار وخفيت الرسوم وظهرت النجوم وجئنا حمص ثم بعلبك ثم البقاع ووصلنا دمشق في ذي القعده

(فصل) قال العماد قد سبق ذكر ما قرره حسادي في خاطر السلطان وقالوا شغله المكاتبة وهي منصب الأجل الفاضل وهو يستنيب فيه من رآه من الافاضل وهذا تصرفه برفد جزيل ووجه جميل والسلطان مع شدة رغبته متوقف والى ظهور وجه النجاح في أمري متشوف وكنت قد أنست مدة مقامي بالعسكر بذي المجد والمفخر ومورد الكرم والمصدر الامير نجم الدين بن مصال وهو ذو فضل وافضال وقبول واقبال وله من السلطان ومن الفاضل لجلالة قدره اجلال وقد مال الى فضله ونباهته ونبله وكان أبوه قد وزر للحافظ في آخر عهده منفردا بسودده ومجده وكان من أهل السنة والجماعه والتقى والورع والعفاف والطاعه وله يد عند السلطان في النوب التي قصدوا فيها مصر وأجزل عنده الاحسان والبر لاسيما عند كونه بالاسكندرية محصورا وكان احسانه مشكورا واعتناؤه لحفظه مشهورا فلما ملك أحبه واختار قربه فلزمت له التودد وجعلته الوسيط بيني وبين الاجل الفاضل واتخذته من انجح الوسائل ووقفت خاطري على تقاضيه نظما ونثرا ورسالة وشعرا فمن ذلك ما كتبته اليه

لعل نجم الدين ذا الفضل * يذكر الفاضل في شغلي
ان أجل الناس قدرا فتى * بفضله يتعب من أجلي
ومثله من يعتني بالعلى * ويستديم الحمد من مثلي

قال وأول ما أهديته للفاضل مدحة حين لقيته بحمص في شعبان منها

عاينت طود سكينة ورأيت شمس فضيلة ووردت بحر فواضل
ورأيت سحبان البلاغة ساحبا * ببيانه ذيل الفخار لوائل
أبصرت قسا في الفصاحة معجزا * فعرفت اني في فهاهة باقل
حلف الحصافة والفصاحة والسما * حة والحماسة والتقى والنائل
بحر من الفضل الغزير خضمه * طامي العباب وماله من ساحل
وجميع ما في الارض سبعة أبحر * وبحوره تسعى بعشر أنامل
في كفه قلم يعجل جريه * ما كان من أجل ورزق آجل
يجري ولا جري الحسام اذا جرى * حداه بل جري القضاء النازل
نابت كتابته مناب كتيبة * كفلت بهزم كتائب وجحافل
فعدوه في عدوه ووليه * في عدله اكرم بعاد عادل
ريان من ماء التقى صاد الى * كسب المحامد وهي خير مناهل
يا واحد العصر الذي بذ الورى * فضلا بغير مشابه ومشاكل
مالي وجاه الجاهلين فاغنني * عنهم كفيتهم وجد بالجاه لي
أرجوك معتنيا لدى السلطان بي * كرما فمثلك يعتني بأماثل
قرر لي الشغل المجل مخليا * بالي من الهم المقيم الشاغل

قال فدخل الفاضل الى السلطان وعرفه انه في راغب وقال انا لا يمكنني الملازمة الدائمة في كل سفرة وغد يكاتبك ملوك الاعاجم ولا تستغني في الملك عن عقد الملطفات وحل التراجم والعماد يفي بذلك ولك اختيار وقد عرف في الدولة النورية مقداره وأخذ لي خط السلطان بما قرره لي من شغلي وقد عرف ان الاجل الفاضل قد أجل فضلي قال وخدمت أمير المؤمنين المستضيء بالله في ذي القعدة مع الرسل بهذه القصيدة

أصح عقود الغانيات مريضها * وافتك الحاظ الحسان غضيضها
ومن عجب صلت لقبلة بأسهم * رؤس أعاد من ظباهم محيضها

قال ابن ابي طي وظهر في مشغرا قرية من قرى دمشق رجل ادعى النبوة وكان من أهل المغرب وأظهر من التخاييل والتمويهات ما فتن به الناس واتبعه عالم عظيم من الفلاحين وأهل السواد وعصى على أهل دمشق ثم هرب من

مشغرا في الليل وصار الى بلد حلب وعاد الى افساد عقول الفلاحين بما يريهم من الشعبذة والتخاييل وهوى امرأة وعلمها ذلك وادّعت أيضا النبوّة قال وفيها توفي شهاب الدين الياس الارتقي صاحب البيرة وأوصى الى الملك الناصر صلاح الدين بولده شهاب الدين محمد

(ثم دخلت سنة احدى وسبعين) قال العماد والسلطان نازل بمرج الصفر من دمشق فجاءه رسول الفرنج يطلب الهدنة فأجابهم السلطان بعد ان اشترط عليهم أمورا فالتزموها وكان الشام ذلك العام جدبا فاذن السلطان للعساكر المصرية في الرحيل الى بلادهم واذا استغلوها خرجوا اليه وسار معهم الفاضل واعتمد على العماد فيما كان بصدده وواظب السلطان على الجلوس في دار العدل وعلى الصيد ومدحه العماد بقصيدة منها

سواك لسهم العلى لن يريشا ❊ فنسأل رب العلى ان تعيشا
من الناس بالبرصدت الكرا ❊ م وبالبأس في البرصدت الوحوشا
وكم سرت من مصر نحو العريـ ❊ ـش فهدمت للمشركين العروشا
سرايا ك تبعث قدامها ❊ من الرعب نحو الاعادي جيوشا
ويوم حماة تركت العدا ❊ كما طيرت بالفلا الريح ريشا

قال ومدحت مستهل ربيع الاول تقي الدين بقصيدة موسومه وكان قد فوّض اليه ولاية دمشق ومنها بيتان ابتكرت المعنى فيهما ولم أسبق اليهما وهما

يفيد العاقل اليقظ التغابي ❊ ليدرك في الغنى حظ الغبيّ
ولم تصب السهام على اعتدال ❊ بها لولا اعوجاج في القسيّ
فقل للدهر يقصر عن عنادي ❊ أما هو يتقي بأس التقيّ
حلفت برب مكة والمصلى ❊ وثاوي ترب طيبه والغريّ
لانتم يا بني أيوب خير الـ ❊ ـورى بعد الامام المستضيّ

قال وفي اوّل هذه السنة وصل الى دمشق الجماعة الذين خرجوا من بغداد لموافقة قطب الدين قايماز فاخذوا لانفسهم بالالتجاء الى السلطان والاحتراز وكان قايماز هذا محكما في الدولة الامامية من أوّل الايام المستنجديه وقوي في الايام المستضيئيه على وزير الخليفة عضد الدين ابن رئيس الرؤساء وسامه أنواع البلاء وأخافه ورام اتلافه حتى استعاذ منه برباط صدر الدين شيخ الشيوخ فسلم به ثم ان قايماز خالف الخليفة وشق العصى وعنّ له حصار الدار فأمر الخليفة بالقبض عليه فلم ينج لما احيط بداره الا بفتح باب في جداره وانهزم فوصل الى الحله في أوائل ذي القعده سنة [redacted] الحج فجمع رجاله وتوجه الى الموصل وخانه اخوانه وخذله أصحابه فتوفي في بعض قرى الموصل وتفرّق أصحابه في البلاد فمنهم من رجع الى بغداد ومنهم من أتى الشام منهم حسام الدين تمريك وعز الدين اقبوري بن ازغش وكان صهر السلطان قديما وعنده كريما فاقطعه في الديار المصرية وكتب في حقه الى الديوان شفاعة في تخليص ماله واستقامة حاله وكان اذا خزائن مملوّه وخيل مسوّمه فلم يكن ذنبه عندهم في متابعة قايماز ما يقبل الصفح وكان اقبوري زوج أخت السلطان والسلطان خال بنته وهي زوجة عز الدين فرخشاه ابن أخي السلطان قلت وفي بعض الكتب المحررة عن السلطان الى وزير بغداد بالمثال الفاضلي (وما نحسب أنا مع الموالاة المتناصرة المستظهره والمساعي التي كانت لنا رات هذه الدولة بالغة غير متقاصره ولمنازعيهم الامر قاصمه ولمجاذبيهم الحق واقمه وبحقوق الله تعالى الواجبة لهم قائمه وكوننا ما اعنّا منها بنجدة من رجال ولا بمادة من مال ولا باعانة بحال من الاحوال يردّ سؤالنا من الدولة أعلاها الله في ذي قربى لا نستطيع دفعه ولا يقبل اسباب النفع اذا أردنا نفعه فالاجبار عندنا واسعه والاعواض لدينا غير متعذره والولايات التي نفوّضها اليه عن كفايته غير مستغنيه ولكنه ما باع بمكانه من الخدمة مكانا ولا آثر غير سلطانه سلطانا وله اعذار لا بأس ان نعيره فيها لسانا وبيانا) ثم ذكرها ثم قال (وهذا الامير جزء منا فكيف يعدّ جزء منا عاصيا وبالسنتنا وسيوفنا يدعى الخلق الى الطاعه وكيف تخلو دار الخلافة من واحد من أهلنا ينوب عنا وعن بقية الجماعة فنحن في أنفسنا نشفع وعن جاهنا ندفع ومن مكاننا نسأل ويحفظنا

الذى لانسمع به للاسلام نجل وأنت أيها الامير السائر ثالث رسول ندب فى أمر هذا الامير والله ولى التدبير) وقال العماد فى الخريدة كنت جالسا بين يدى الملك الناصر صلاح الدين بدمشق فى دار العدل أنفذ ما يأمر به من الشغل فحضر سعادة الاعمى من أهل حمص وكان مملوكا لبعض الدمشقيين مولدا ويكتب على قصائده سعيد بن عبد الله فوقف ينشد هذه القصيدة فى عاشر شعبان سنة احدى وسبعين

حييتك أعطاف القدود بانها ❊ لما انثنت تيها على كثبانها

ثم ذكر القصيدة وغزلها فى وصف دمشق ثم قال

سلطانها الملك ابن أيوب الذى ❊ كفاه لا ينكف عن هطلانها
بمواهب لو لم أكن نوحا لما ❊ نجيت يوم نداه من طوفانها
سمح يروح الى الندى براحة ❊ قد اعشب المعروف بين بنانها
وفتى اذا زخرت بحار نواله ❊ غرقت بحار الارض فى خلجانها
تلك السيوف المرهفات بكفه ❊ امضى على الايام من حدثانها
ملك اذا جليت عرائس ملكه ❊ رصعت فريد العدل فى تيجانها
فأسلم صلاح الدين وابق لدولة ❊ ذلت لدولتها ملوك زمانها
وانهض الى فتح السواحل نهضة ❊ قادت لك الاعداء بعد حرانها

وهى طويلة قال وقام اليوم الذى يليه وقد جلس السلطان للعدل فأنشده قصيدة منها

هل بعد جلق الآن ترى حلبا ❊ وقد تحلل منها مشكل عقد
وقد أتتك كما تختار طائعة ❊ وقد عنا لك منها الحصن والبلد

قال وكان سعادة سافر الى مصر فى أول مملكة الملك الناصر فمدحه بقصيدة طائية فاعطاه ألف دينار فيها يصف غارته على غزه وعوده من ذلك الغزو بالعزه

فتى مذ غزى بالخيل والرجل غزة ❊ نأى عن نواحيها الرضى ودنا السخط
رماها بأسد ما لهن مرابض ❊ ولا أجم الا الذى تنبت الخط
وعاث ضواحيها ضحى بكتائب ❊ من الترك لا نوب طغام ولا قبط

وله فى السلطان قصائد اخر قال وقام البهاء السنجارى وأنشد الملك الناصر قصيدة فى دار العدل بدمشق سنة احدى وسبعين فى شعبان منها

ياطيبة الهرمين من مصر على الـ ❊ ـربع السلام اذا تقوض أو عفا
اصبو الى عصر تقادم عهده ❊ فأزيد من وله عليه تلهفا
أحبابنا بالقصر لو قصرتم الـ ❊ ـهجران ماشمت الحسود ولا اشتفى
اشكو الى الوادى فيحنو انه ❊ من رقة الشكوى على تعطفا
وجرى بى الامل الطموح فأم بى ❊ سلطان أرض الله طرا يوسفا
الناهب الارواح فى طلب العلى ❊ والواهب الآجال فى حسن الوفا

﴿فصل﴾ فيما تجدد للمواصلة والحلبيين قد سبق ذكر الصلح الذى جرى بين السلطان والحلبيين فلما سمع به المواصلة عتبوا عليهم ووبخوهم ونسبوهم الى العجلة فى ذلك وسلوك غير طريق الحزم فحملوهم على النقض والنكث وأنفذوا من أخذ عليهم المواثيق وتوجه ذلك الرسول منهم الى دمشق ليأخذ للمواصلة من السلطان عهده ويكشف أيضا ما عنده فلما خلا به طالبه السلطان بنسخة الرأى فغلط واخرج من كمه نسخة يمين الحلبيين لهم وناولها اياه فتأملها واخفى سره وما أبداه واطلع على ما اتفقوا عليه وردها اليه وقال لعلها قد تبدلت فعرف الرسول انه قد غلط ولم يمكنه تلافى ما فرط وقال السلطان كيف حلف الحلبيون للمواصلة ومن شرط ايمانهم انهم لا يعتمدون أمر الا بمراجعتهم لنا واستئذانهم وعرف من ذلك اليوم ان العهد منقوض والوفاء مرفوض وشاع الخبر عن المواصلة بالخروج فى الربيع

فكتب السلطان الى أخيه العادل وهونائبه بمصر يعلمه بذلك ويأمره أن يأمر العساكر بالاستعداد للخروج فى شعبان قلت وفى كتاب طويل فاضلى جليل الى بغداد عن السلطان (يطالع بأن الحلبيين والموصليين لما وضعوا السلاح وخفضوا الجناح اقتصرنا بعد ان كانت البلاد فى أيدينا على استخدام عسكر الحلبيين فى البيكارات الى الكفر وعرضنا عليهم الامانة فحملوها والايمان فبذلوها وسار رسولنا وحلف صاحب الموصل بحضر من فقهاء بلده وأمراء مشهده يمينا جعل الله فيها حكما وضيق فى نكثها المجال على من كان حنيفا مسلما وعاد رسوله ليسمع منا اليمين فلما حضر واحضر نسختها أومى بيده ليخرجها فاخرج نسخة يمين كانت بين الموصليين والحلبيين مضمونها الاتفاق على حربنا والتداعى الى حربنا والتساعد على ازالة خطبنا والاستنفار لمن هو على بعدنا وقربنا وقد حلف بها كمشتكين الخادم بحلب وجماعة معه يمينا ناقضت الاولى فرددنا اليمين الى يمين الرسول وقلنا هذه يمين على الايمان خارجه وأردت عمرا وأراد الله خارجه وانصرف الرسول عن بابنا وقد نزهنا الله ان يكون اسمه معرّضا للحنث العظيم والنكث الذميم وعلمنا ان الناقد بصير والآخذ قدير والمواقف الشريفة النبوية أعلاها الله مستخرجة الاوامر الى الموصلى امابكتاب مؤكد بأن لا ينقض عهد الله من بعد ميثاقه واما ان تكون الفسحة واقعة لنا فى تضييق خناقه) ثم ذكر أمر الفرنج ثم قال (والملوك بين عدوّ اسلام يشاركونه فى هذا الاسم لفظا ولا ينوون لما استحفظوا حفظا وعدوّ كفر فيجاورهم الا بلاده ولا يقارعهم الا أجناده ثم طلب خروج الامر بخطاب جميع ملوك الاطراف ان يكونوا للملوك على المشركين اعوانا وان يمتثل أمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى ان يكونوا بنيانا فيعضدوه اذا سعى ويلبوه اذا دعا ولا يقعدوا عن المعاضدة فى فتح البيت المقدس الذى طابت النفوس عن ثاره وطأطأت الرؤس تحت عاره وصارت القلوب صخرة لا ترق على صخرته والعزائم قاصية عن تطهير اقصاه من رجس الشرك ومعرّته فان قعدت بهم العزائم وأخذتهم فى الله لومة لائم فلا أقل من ان لا يكونوا أعوانا عليه يلقنونه عن قصده حريصين على اتصال المكروه اليه) قال ابن شدّاد لما وقعت الوقعة الاولى مع الحلبيين والمواصلة كان سيف الدين صاحب الموصل على سنجار يحاصر أخاه عماد الدين يقصد أخذها منه ودخوله فى طاعته وكان أخوه قد أظهر الانتماء الى السلطان صلاح الدين واعتصم بذلك واشتدّ سيف الدين فى حصار المكان وضربه بالمنجنيق حتى استهدم من سوره ثلم كثيرة وأشرف على الاخذ فبلغه وقوع هذه الواقعة فخاف ان يبلغ ذلك أخاه فيشتد أمره ويقوى جاشه فراسله فى الصلح فصالحه ثم سار من وقته الى نصيبين واهتم بجمع العساكر والانفاق فيها وسار حتى أتى الفرات وعبر بالبيرة وخيم على جانب الفرات الشامى وراسل كمشتكين والملك الصالح حتى تستقرّ قاعدة يصل عليها اليهم فوصل كمشتكين اليه وجرت مراجعات كبيرة عزم فيها على العود مرارا حتى استقرّ اجتماعه بالملك الصالح وسعوا به وسار ووصل حلب وخرج الصالح الى لقائه بنفسه فالتقاه قريب القلعة واعتنقه وضمه اليه وبكى ثم أمره بالعود الى القلعة فعاد اليها وسار هو حتى نزل بعين المباركة وأقام بها مدّة وعسكر حلب يخرج الى خدمته فى كل يوم وصعد القلعة جريدة وأكل فيها خبزا ونزل وسار راحلا الى تل السلطان ومعه جمع كبير وأهل ديار بكر والسلطان رحمه الله قد أنفذ فى طلب العساكر من مصر وهو يرقب وصولها وهؤلاء يتأخرون فى أمورهم وتدابيرهم وهم لا يشعرون ان التأخير تدمير حتى وصل عسكر مصر فسار رحمه الله حتى أتى قرون حماه فبلغهم انه قد قارب عسكرهم فأخرجوا اليزك ووجهوا من كشف الاخبار فوجدوه قد وصل جريدة الى جباب التركمان وتفرق عسكره يسقى فلو أراد الله نصرتهم لقصدوه فى تلك الساعة لكن صبروا عليه حتى سقى خيله هو وعسكره واجتمعوا وتعبوا تعبية القتال وأصبح القوم على مصاف وذلك بكرة الخميس العاشر من شوال فالتقى العسكران وتصادما وجرى قتال عظيم وانكسرت ميسرة السلطان بابن زين الدين بن مظفر الدين فانه كان فى ميمنة سيف الدين وحمل السلطان بنفسه فانكسر القوم وأسر منهم جمعا عظيما من كبار الامراء منهم الامير فخر الدين عبد المسيح فمنّ عليهم وأطلقهم وعاد سيف الدين الى حلب فأخذ منها خزانته وسار حتى عبر الفرات وعاد الى بلاده وامسك هو رحمه الله عن تتبع العسكر ونزل فى بقية ذلك اليوم فى خيم القوم فانهم كانوا قد أبقوا الثقل على ما كان عليه والمطابخ قد عملت ففرق الاصطبلات ووهب الخزائن وأعطى خيمة سيف الدين عز الدين فرخشاه وقال العماد رحلنا فى شهر رمضان من دمشق مستأنفين فعبرنا العاصى لله طائعين والى المسار مسارعين فاعرجنا على بلد ولا انتظرنا

ماوراءنا من مدد ونزلنا الغسولة وجزنا حماه وخيمنا فى مرج بوقبيس وجاء الخبر انهم فى عشرين الف فارس سوى سوادهم وما وراءهم من امدادهم وانهم موعودون من الفرنج بالنجده وانهم يزيدون فى كل يوم قوة وشده وما كان اجتمع من عسكرنا سوى ألف فارس فرتب السلطان عسكره وقوى بقوة قلبه قلبه وأمدّالله بحزب ملائكته حزبه ولما وصل المواصلة الى حلب أطلقوا من كان فى الاسر من ملوك الفرنج منهم ارناط ابرنس الكرك وجوسلين خال الملك وقرروا معهم ان يدخلوا من مساعدتهم فى الدرك فلما عيدنا وصل الى السلطان الخبر بوصولهم الى تل السلطان فعبرنا العاصى عند شيزر ورتبنا العسكر وأعدنا الاثقال الى حماه ثم وصف الوقعة الى ان قال وركب السلطان أكتافهم فشل مثنيهم والافهم حتى أخرجهم من خيامهم وأشرقهم بمائهم ووكل بسرادق سيف الدين غازى ومضاربه ابن أخيه فرخشاه وركض وراءه حتى علم انه تعدّاه ووقع فى الاسر جماعة من الامراء المقدمين ثم منّ عليهم بالخلع بعد ان نقلهم الى حماه وأطلقهم ثم نزل فى السرادق السيفى فتسلمه بخزائنه ومحاسنه واصطبلاته ومطابخه ورواسى عزه ورواسخه فبسط فى جميع ذلك أيدى الجود وفرقها على الحضور والشهود وأبقى منها نصيبا للرسل والوفود ورأى فى بيت الشراب بل فى السرادق الخاص طيورا من القمارى والبلابل والهزار والببغا فى الاقفاص فاستدعى أحد الندماء مظفر الاقرع فآنسه وقال خذ هذه الاقفاص واطلب بها [illegible] واذهب بها الى سيف الدين فأوصلها اليه وسلم منا عليه وقل له عد الى اللعب بهذه الطيور فهى سليمة لا توقعك فى مثل هذا المحذور قال ولما كسر القوم ولوا مدبرين الى حلب فلم يقف بعضهم على بعض وظنوا ان العساكر وراءهم ركضا وراء ركض فنبحت خيولهم وتموجت سيولهم وماصدقوا كيف يصلون الى حلب ويغلقون أبوابها ويسكنون اضطرابها وأما سيف الدين فانه ركض فى يومه من تل السلطان الى بزاعه وجاوز فى سوقه الاستطاعه وفرق وفارق الجماعه وفى كتاب ابن أبى طى ان ميسرة سيف الدين انكسرت فتحرك الى جانبها ليكون ردا لها ومددا فظن باقى العسكر انه قد انهزم فانهزموا فحقق ما كان وهما فسار على وجهه لا يلوى على شئ وتبعهم السلطان فهلك منهم جماعة قتلا وغرقا وأسر جماعة كثيرة من وجوههم وأمرائهم ثم رجع وأمر أصحابه برفع السيف عن الناس وترك التعرض لمن وجد منهم بقتل أونهب وفرق ما وجد فى خزائن سيف الدين وسير جواريه وحظاياه الى حلب وأرسل اليه بالاقفاص وقال له عد الى اللعب بهذه الطيور فانها الذ من مقاساة الحرب ووجد السلطان عسكر الموصل كالحانة من كثرة الخمور والبرابط والعيدان والجنوك والمغنيين والمغنيات قال واشتهر انه كان مع سيف الدين أكثر من مائة مغنية وان السلطان أرى ذلك لعسكره واستعاذ من هذه البلية وكان أنفذ الامراء الذين أسرهم الى حماه ثم ردّهم وخلع عليهم وأرسلهم الى حلب وهنأ العماد للسلطان بقصيدة منها

فالحمد لله الذى افضاله * حلو الجنى عالى السنا وضاحه
عاد العدو بظلمة من ظلمه * فى ليل ويل قد خبا مصباحه
وجنا عليه جهله بوقوعه * فى قبضة البازى فهيض جناحه
حمل السلاح الى القتال ومادرى * ان الذى يجنى عليه سلاحه
أضحى يريد مواصليه صدوده * وغدا يجيد رثاءه مداحه
ان أفسد الدين الغلاة بجنشهم * فالناصر الملك الصلاح صلاحه
قد كان عزمك للاله مصمما * فيهم فلاح كما رأيت فلاحه
وكانى بالساحل الاقصى وقد * ساحت بنحر دم الفرنجة ساحه
فاعبر الى القوم الفرات ليشربوا الـموت الاجاج فقد طمى طفاحه
لتفك من أيديهم رهن الرها * عجلا ويدرك ليلها اصباحه
وابغوا لحران الخلاص فكم بها * حرّان قلب نحوكم ملتاحه
نجوا البلاد من البلاء بعدلكم * فالظلم باد فى الجميع صراحه
واستفتحوا ما كان من مستغلق * فيها فربكم لكم فتاحه

أنتم رجال الدهر بل فرسانه * ولدى الحلوم الطائشات رجاحه
فتاكه نساكه ضراره * نفاعه مناعه مناحه
وأبو المظفر يوسف مطعامه * مطعانه مقدامه جحاحه
واذا انتدى فى محفل حييه * واذا غدى فى جحفل فوقاحه

قال وكان لعز الدين فرخشاه فى هذه الوقعة يد بيضاء وهو محب للفضل وأهله باعث للخواطر على مدحه بذله فنظمت فيه قصيدة منها

نصر أنار الملكم برهانه * وعلا لذلة شانئيكم شانه
ما أسعد الاسلام وهو مظفر * وأبو المظفر يوسف سلطانه
الملك مرفوع لكم مقداره * والعدل موضوع بكم ميزانه
والدهر لا يأتى بغير مرادكم * فهل القضاء لاجلكم جريانه
وكانما الله فى أحكامه * فلك على ايثاركم دورانه
فخرا بنى أيوب ان فخاركم * بذ الملوك السابقين رهانه
يكفى حسودكم اعتقالاهه * فكانما أشجانه أسجانه
الدين عز الدين عز بنصركم * والكفر ذل بعونكم أعوانه
قد كان جيشكم كبحر زاخر * واللابسون جواشنا حيتانه
فطما الهلكهم عليهم بحركم * بأسا وغرق فلككم طوفانه
فضل الملوك الاكرمين بفضله * فعلا زمانهم البهيج زمانه
فى فضله فى عدله فى حلمه * صديقه فاروقه عثمانه
هو فى السماح وفى اللقاء عليه * هو فى العفاف وفى التقى سلمانه
من آل شاذى الشائدين لمجده * ببنيه بيتا عاليا بنيانه
بيت من العلياء سام شاهق * يبنى على كيوانها ايوانه
ياسالب التيجان من أربابها * ومن الثناء مصوغة تيجانه
والحمد مال أنتم بذ اله * والمال حمد أنتم خزانه

قال ثم ان صاحب الموصل أسرع عودته وواصل لذته والحلبيون أوثقوا الاسباب وغلقوا الابواب وسقط فى أيديهم حين أفرطوا فى تعديهم وتهيئوا للحصار وخافوا من البوار وتبلدوا وتلددوا وتجادلوا ثم تجلدوا وقال ابن سعدان الحلبى من جملة قصيدة يهنى بها السلطان بهذه الكسره

وما شك قوم حين قت عليهم * غداة التقى الجمعان انك غالب
ولو لم تقد تلك المقانب لاغتدى * لنفسك فى نفس العدو مقانب

قال ابن أبى طى وأما سيف الدين فانه امتدت به الهزيمة الى بزاعة فأقام بها حتى تلاحق به من سلم من أصحابه ثم خرج منها حتى قطع الفرات وصار الى الموصل وصار باقى عسكر حلب الى حلب فى سابع شوال فى أقبح حال وأسوئه عراة حفاة فقراء يتلاومون على نقض الايمان والعهود وخاف أهل حلب من قصد السلطان لهم فاخذوا فى الاستعداد للحصار وجاء السلطان وخيم عليها أياما ثم قال الرأى ان نقصد ما حولها من الحصون والمعاقل والقلاع فنفتحها فانا اذا فعلنا ذلك ضعفت حلب وهان أمرها فصوبوا رأيه فنزلوا على بزاعة فتسلمها بالامان وولاها عز الدين خشترين الكردى

(فصل) فى فتح جملة من البلاد حوالى حلب قال العماد ثم نزل السلطان على حصن بزاعة وتسلمه فى الثانى والعشرين من شوال ثم فتح منبج فى التاسع والعشرين منه وكان فيها الامير قطب الدين ينال بن حسان والسلطان لا ينال به احسان بل كان فى جر عسكر الموصل اليه أقوى سبب ولا يماذقه ولا يحفظ معه شرط أدب ويواجهه بما

يكره

يكره فسلم القلعة بما فيها وقوم ما كان سلمه بثلثمائة ألف دينار منها عين ونقود ومصوغ ومطبوع ومصنوع ومنسوج وغلات وساومه على ان يخدم فأبى وأنف وكبرت نفسه فتعب سره وذهب ماجمعه ومضى الى صاحب الموصل فاقطعه الرقة فبقى فيها الى ان أخذها السلطان منه مرة ثانية فى سنة ثمان وسبعين قال العماد

نزولك فى منبج * على الظفر المبهج ❁ ونجحك فى المرتجى * وفتحك للمرتج
دليل على نجح ما * تحاول أو ترتجى ❁ أمورك فيما ترو * م واضحة المنهج
وشانيك دامى الشؤ * ن منك شقى شجى ❁ ومن كان فى حصنه * ومن قبل لم يخرج
يقال له ليس ذا * بعشك قم فادرج ❁ فرأيك يستنزل الــ * نجوم من الابرج
فعجل عبور الفرا * ت وأسرو سر وادلج ❁ وعج نحو تلك البلا * د وعن غيرها عرج
لحران والرقتا * ن تاليتا منبج ❁ وجل عن المسلمـــ * ين ليلهم المدجى

قال ابن أبى طى لما ملك السلطان منبج وتسلم الحصن صعد اليه وجلس يستعرض أموال ابن حسان وذخائره فكان فى جملة أمواله ثلثمائة ألف دينار ومن الفضة والآنية الذهبية والاسلحة والذخائر ما يناهز ألفى ألف دينار فخان من السلطان التفاتة فرأى على الاكياس والآنية مكتوبا يوسف فسأل عن هذا الاسم فقيل له ولد يحبه ويؤثره اسمه يوسف كان يدخر هذه الاموال له فقال السلطان أنا يوسف وقد أخذت ماخبئ لى فتعجب الناس من ذلك قال ولما فرغ من منبج نزل على عزاز ونصب عليها عدة مجانيق وجد فى القتال وبذل الاموال قال العماد ثم نزل السلطان على حصن عزاز وقطع بين الحلبيين وبين الفرنج الجواز وهو حصن منيع رفيع فحاصره ثمانية وثلاثين يوما وكان السلطان قد اشفق على هذا الحصن من موافقة الحلبيين للفرنج فان الغيظ حملهم على مهادنة الفرنج واطلاق ملوكهم الذين تعب نور الدين رحمه الله فى أسرهم فرأى السلطان ان يحتاط على المعاقل ويصونها صون العقائل فتسلمها حادى عشر ذى الحجة بعد مدة حصارها المذكورة وقال العماد قصيدة منها

أعطاه رب العالمين دولة ❁ عزة أهل الدين فى اعزازها
حاز العلى بباسه وجوده ❁ وهو احق الخلق باحتيازها
بجده أفنى كنوزا فنى الـــ * ملوك فى الجد على اكتنازها
مهلك أهل الشرك طرا ورومها ❁ ارمنها افرنجها ابخازها
تفاخر الاسلام من سلطانه ❁ تفاخر الفرس بابراوازها
تهن من فتح عزاز نصرة ❁ أوقعت العداة فى اهتزازها
واليوم ذلت حلب فانها ❁ كانت تنال العز من عزازها
وحلب تنفى كشتكينها ❁ كما انتفت بغداد من قيمازها
برزت فى نصر الهدى بجحة ❁ وضوح نهج الحق فى ابرازها
كم حامل للرمح عاد مبديا ❁ عجز عجوز الحى عن عكازها
ارفع حظوظى من حضيض نقصها ❁ وعد عن همازها لمازها
والشعر لابد له من باعث ❁ كحاجة الخيل الى مهمازها

قال وأغار عسكر حلب على عسكرنا فى مدة مقامنا على عزاز فاخذوا على غرة وغفلة ما تجملوه وعادوا فركب أصحابنا فى طلبهم فما أدركوا الا فارسا واحدا فأمر السلطان بقطع يده بحكم حرده فقلت للأمور وذلك بسمع من السلطان تمهل ساعه لعله يقبل منى شفاعه ثم قلت هذا الايحل وقدرك يبل دينك عن هذا يجل ومازلت أكرر عليه الحديث حتى تبسم وعادت عاطفته ورحم وأمر بحبسه وسرنى سلامة نفسه ودخل ناصر الدين بن أسد الدين وقال ماهذا الفشل والونا وان سكتم أنتم فما أسكت أنا ودمدم وزمجر وغضب وزأر وقال لم لايقتل هذا الرجل ولماذا اعتقل فوعظه السلطان واستعطفه وسكن غضبه وتعطفه وتلا عليه ولاتزر وازرة وزر أخرى وأطلق سراحه وتم فى نجاته نجاحه

(فصل) في وثوب الحشيشية على السلطان مرة ثانية على عزاز وكانت الاولى على حلب قال العماد وفي حادي عشر ذي القعدة قفز الحشيشية على السلطان ليلة الاحد وهو نازل على عزاز وكان للامير جاولي الاسدي خيمة قريبة من المنجنيقات وكان السلطان يحضر فيها كل يوم لمشاهدة الآلات وترتيب المهمات وحض الرجال والحث على القتال وهو بار بيث أياديه قار على الدهر بكف عواديه والحشيشية في زي الاجناد وقوف والرجال عنده صفوف اذ قفز واحد منهم فضرب رأسه بسكينه فعاقته صفائح الحديد المدفونه في لمته عن تمكينه ولفحت المدية خده فخدشته فقوى السلطان قلبه وحاش رأس الحشيشي اليه وجذبه ووقع عليه وركبه وأدركه سيف الدين بازكوج فاخذ حشاشة الحشيشي وبضعه وقطعه وجاء آخر فاعترضه الامير داود بن منكلان فمنعه وجرحه الحشيشي في جنبه فمات بعد أيام وجاء آخر فعانقه الامير علي بن أبي الفوارس وضمه من تحت ابطيه وبقيت يد الحشيشي من ورائه لا يتمكن من الضرب ولا يتأتى له كشف ما عراه من الكرب فنادى اقتلوني معه فقد قتلني واذهب قوتي وأذهلني فطعنه ناصر الدين بن شيركوه بسيفه وخرج آخر من الخيمة منهزما وعلى الفتك بمن يعارضه مقدما فثار عليه أهل السوق فقطعوه وأما السلطان فانه ركب وجاء الى سرادقه وقد خرعه الحادث وفزعه الكارث وصوته جهوري وزئيره قسوري ودم خده سائل وعطف روعه مائل وطوق كراغنده بتلك الضربة مفكوك ونهج سلامته مسلوك وكان سلامته وأقام القوم قيامته ومن بعد ذلك رعب ورهب واحترز واحتجب وضرب حول سرادقه على مثل خشب الخركاه تأزيرا ووقفه تحجيرا وجلس في بيت الخشب وبرز للناس كالمحتجب وما صرف الامن عرفه ومن لم يعرفه صرفه واذا ركب وأبصر من لا يعرفه في موكبه أبعده ثم سأل عنه فان كان مستشعفا أو مستسعدا اسعفه وأسعده ومن كتاب فاضلي الى العادل (السلامة شامله والراحة بحمد الله للجسم الشريف الناصري حاصله ولم ينله من الحشيشي الملعون الا خدش قطرت منه قطرات دم خفيفة انقطعت لوقتها واندملت لساعتها والركوب على رسمه والحصار لعزاز على حكمه وليس في الامر بحمد الله ما يضيق صدرا ولا ما يشغل سرا) وقال ابن أبي طي لما فتح السلطان حصن بزاعة ومنبج أيقن من بحلب بخروج ما في أيديهم من المعاقل والقلاع فعادوا الى عادتهم في نصب الحبائل للسلطان فكاتبوا سنانا صاحب الحشيشية مرة ثانية ورغبوه بالاموال والمواعيد وحملوه على انفاذ من يفتك بالسلطان فأرسل لعنه الله جماعة من أصحابه فجاؤا بزي الاجناد ودخلوا بين المقاتلة وباشروا الحرب وابلوا فيها أحسن البلاء وامتزجوا باصحاب السلطان لعلهم يجدون فرصة ينتهزونها فبينما السلطان يوما جالسا في خيمة جاولي والحرب قائمه والسلطان مشغول بالنظر الى القتال اذ وثب عليه أحد الحشيشية وضربه بسكينة على رأسه وكان رحمه الله محترزا خائفا من الحشيشية لا ينزع الزردية عن بدنه ولا صفائح الحديد عن رأسه فلم تصنع ضربة الحشيشي شيئا لمكان صفائح الحديد وأحس الحشيشي بصفائح الحديد على رأس السلطان فسد يده بالسكينة الى خد السلطان فجرحه وجرى الدم على وجهه فتتعتع السلطان لذلك ولما رأى الحشيشي ذلك هجم على السلطان وجذب رأسه ووضعه على الارض وركبه لينحره وكان من حول السلطان قد ادركهم دهشة أخذت بعقولهم وحضر في ذلك الوقت سيف الدين بازكوج وقيل انه كان حاضرا فاخترط سيفه وضرب الحشيشي فقتله وجاء آخر من الحشيشية أيضا يقصد السلطان فاعترضه الامير منكلان الكردي وضربه بالسيف وسبق الحشيشي الى منكلان فجرحه في جبهته وقتله منكلان ومات منكلان من ضربة الحشيشي بعد أيام وجاء آخر من الباطنية فحصل في سهم الامير علي بن أبي الفوارس فهجم على الباطني ودخل الباطني فيه ليضربه فأخذه على تحت ابطه وبقيت يد الباطني من ورائه لا يتمكن من ضربه فصاح على اقتلوه واقتلوني معه فجاء ناصر الدين محمد ابن شيركوه فطعن بطن الباطني بسيفه ومازال يخضخضه فيه حتى سقط ميتا ونجا ابن أبي الفوارس وخرج آخر من الحشيشية منهزما فلقيه الامير شهاب الدين محمود خال السلطان فتنكب الباطني عن طريق شهاب الدين فقصده أصحابه وقطعوه بالسيوف وأما السلطان فانه ركب من وقته الى سرادقه ودمه على خده سائل وأخذ من ذلك الوقت في الاحتراس والاحتراز وضرب حول سرادقه برجا من الخشب كان يجلس فيه وينام ولا يدخل عليه الا من يعرفه وبطلت الحرب في ذلك اليوم وخاف الناس على السلطان واضطرب العسكر وخاف الناس بعضهم من بعض فألجأت

الحال الى ركوب السلطان ليشاهده الناس فركب حتى سكن العسكر وعاد الى خيمته وأخذ فى قتال عزاز فقاتلها مدة ثمانية وثلاثين يوما حتى عجز من كان فيها وسألوا الامان فتسلمها حادى عشر ذى الحجة وصعد اليها واصلح ما انهدم منها ثم أقطعها لابن أخيه تقى الدين عمر وكانت عزاز أولا للجفنية غلام نور الدين فلما ملك السلطان منبج أخذها منه الملك الصالح وقواها لعله يحفظها من الملك الناصر فلم يبلغ ذلك ولما فرغ السلطان من أمر عزاز حقد على من بحلب لما فعلوه من أمر الحشيشية فسار حتى نزل على حلب خامس عشر ذى الحجة وضربت خيمته على رأس الباروقية فوق جبل جوشن وجبى أموالها واقطع ضياعها وضيق على أهلها ولم يفسح لعسكره فى مقاتلتها بل كان يمنع أن يدخل اليها شئ أو يخرج منها أحد وكان سعد الدين كمشتكين فى حارم وكانت اقطاعه فى يد نوابه وكان انتزعها من يد أولاد الداية بعد ان عصى نائبها وكان سبب خروجه اليها ان السلطان لما نزل على عزاز خاف كمشتكين أن ينتقل منها الى حارم فخرج اليها فلما نزل السلطان على حلب ندم كمشتكين على كونه خارجا فى حارم وخاف أن يجرى بين السلطان وبين الامراء الحلبيين صلح فلا يكون له فيه ذكر ولا اسم فراسل السلطان يتلطف معه الحال ويقول لو فسح لى فى الدخول الى حلب لسارعت فى الخدمة وأصلحت الامر على ما يرومه السلطان وراسل أيضا الملك الصالح والامراء بحلب يقول لهم قد حصلت خارجا وقد بلغتنى امور ولا بد من طلبى من الملك الناصر ليأذن لى فى الصيرورة اليكم فان الذى قد حصل عندى لا يمكننى الكلام فيه فراسل الملك الصالح السلطان فى الاذن له فى الدخول الى حلب فأذن له وطلبوا الرهائن منه فانفذ السلطان اليهم رهينة شمس الدين ابن أبى المضا الخطيب والعماد كاتب الانشا وأنفذوا من حلب الى السلطان رهينة نصرة الدين ابن زنكى وحكى العماد الكاتب قال لما حصلنا داخل حلب أخذنا برأى العدل ابن العجمى وجعلنا فى بيت ومنع منا غلماننا ولم يحضر لنا طعام ولا مصباح وبتنا فى انكد عيش وفى تلك الليلة دخل كمشتكين الى حلب فلما أصبحوا أحضرت أنا وابن أبى المضا الى مجلس الملك الصالح وكان عنده ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود وجماعة من أرباب الدولة وكان صاحب الكلام العدل ابن العجمى فأخذ يتحدث بلثغته ويترجم بلكنته ويضرب صفحا عنى ويوهم الجماعة انى وانى

وما درى الغمر بأنى أمرؤ ❊ أميز التبر من الترب
قد عارك الاهوال حتى غدا ❊ بين الورى كالصارم العضب
قد راضه الدهر فلو أمه ❊ بخطبه ما ريع للخطب

قال وعرضت نسخة اليمين علينا وصرفنا ولم يلتفت الينا فلما صارا الى السلطان واخبراه بما جرى فى حقهما من الهوان علم ان ذلك كان حيلة عليه حتى دخل كمشتكين الى حلب فأطلق نصرة الدين وقاتل أهل حلب ولم يزل منازلا لحلب الى انسلاخ سنة احدى وسبعين وخمسمائة ثم كان ما سيأتى ذكره

﴿فصل﴾ فى بواقى حوادث هذه السنة ودخول قراقوش الى المغرب قال العماد وفى سابع شوال وصل أخو السلطان شمس الدولة من اليمن الى دمشق وذكر ابن شداد انه قدم فى ذى الحجة قلت ولما سمع السلطان بقدومه أرسل اليه بالمثال الفاضلى كتابا أوله (أنا يوسف وهذا أخى قد منّ الله علينا) وقال فى آخره (ولقد أحسن عدنان المبشر اذ طلع علينا طلوع الفجر قبل شمسه وغرس فى القلوب ما يسرّنا ويسرّه جنى غرسه) قال ابن ابى طى كان سبب خروجه من اليمن كراهية البلاد والشوق الى أخيه الملك الناصر وان يرى ملوك الشام وغيرها وأمر للعساكر بما أنعم الله به عليه من النعم والاموال قال وحكى انه لما تحدث الناس بخروج شمس الدولة من اليمن كان باليمن رجل يقال له عباس وكان صهر ياسر بن بلال الحبشى صاحب عدن وكان بين عباس وياسر عداوة فافتعل عباس كتابا على لسان ياسر وزوّر عليه علامته الى زيد بن عمرو بن حاتم صاحب صنعاء يقول فيه ان شمس الدولة سائر الى أخيه الملك الناصر الى الشام وسبب خروجه ضعفه عن اليمن فامسكوا ما كنتم تحملون اليه من الاتاوة والرشوة يبقى لكم واحتال حتى وصل الكتاب الى شمس الدولة وكان نازلا على حصن يعرف بالخضرا يحاصره فلما وقف شمس الدولة على الكتاب استدعى ياسرا وقال له هذا خطك وعلامتك قال كأنه هو وقال بأى شئ استحققت منك هذا وقد قربت منزلتك وأبقيت عليك بلادك ورفعت بضبعك على أهل اقليمك وأراه الكتاب فلما وقف عليه ياسر حلف انه

ما كتبه ولا يعرفه ولا املاه لاحد ولم يعلم خبره فلم يصدقه شمس الدولة وأمر به فقتل بين يديه صبرا فهاب شمس الدولة ملوك اليمن وحملوا اليه الاموال وحلفوا له على الطاعة ثم ان شمس الدولة خرج الى تهامة وتوجه الى الشام واستخلف على تهامة سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ وعثمان بن على الزنجيلي على عدن وتوجه الى حضرموت ففتحها واستناب عنه بها رجلا كرديا يسمى هارون وكان مقامه بشبام واستمر الكردي بها مدة ثم ان صاحب حضرموت تحرك وجمع فقتل وعاث هارون في تلك البلاد واستقام أمره وولى شمس الدولة ثغر تعز مملوكه ياقوت وجعل اليه أمر الجند وولى قلعة بعكر مملوكه قايماز قال وكان وصول شمس الدولة الى السلطان قبل وقعة المواصلة وكسرتهم وكان شمس الدولة هو سبب الظفر واعطاه السلطان سرادق سيف الدين صاحب الموصل بما كان فيه من الفرش والاثاث والآلات وولاه دمشق واعمالها والشام وأمره ان يكون في وجه الفرنج لان السلطان خاف من الحلبيين ان يكاتبوا الفرنج كعادتهم قال وفيها قتل صديق بن جولة صاحب بصرى وصرخد قتله ابن أخيه وملك بعده بصرى وصرخد شهورا فكاتبه شمس الدولة أخو السلطان وحلف له على ما يريده من اقطاع واقترح شمس الدولة ان يكتب هو ما يريده ليحلف عليه فأنفذ من بصرى نسخة يمين كتبها قاضي بصرى وكان قليل المعرفة بالفقه والتصرف في القول فلم يستقص فيها وجوه التأويل فلما استوثق بها من شمس الدولة وخرج اليه تأول عليه شمس الدولة في اليمين وقبضه ثم اقطعه عشرين ضيعة ثم أخذها منه بعد ان قتله قال وفيها عصى الامير غرس الدين قليج بتل خالد بسبب كلام جرى بينه وبين كمشتكين فانفذ اليه من حلب عسكر الحاصروه أياما وسلم الحصن وصلحت حاله قال ولما ملك شمس الدولة اليمن سمت نفس ابن أخيه تقي الدين الى الملك وجعل يرتاد مكانا يحتوى عليه فأخبر ان قلعة از برى هي فم درب المغرب وكانت خرابا فأشير عليه بعمارتها وقيل له متى عمرت وسكنها اجناد اقوياء شجعان ملكت برقة واذا ملكت برقة ملك ما وراءها فأنفذ مملوكه بهاء الدين قراقوش وقدمه على جماعة من اجناده ومماليكه فصار الى القلعة المذكورة وشرعوا في عمارتها واجتمع بقراقوش رجل من المغرب فحدثه عن بلاد الجريد وفزان وذكر له كثرة خيرها وغزارة أموالها وضعف أهلها ورغبه في الدخول اليها فأخذ جماعة من أصحابه وسار في حادي عشر المحرم من هذه السنة فكان يكمن النهار ويسير الليل مدة خمسة أيام وأشرف على مدينة أوجلة فلقيه صاحبها واكرمه واحترمه وسأله المقام عنده ليعتضد به ويزوجه بنته ويحفظ البلاد من العرب وله ثلث ارتفاعها ففعل قراقوش ذلك فحصل له من ثلث الارتفاع ثلاثون ألف دينار فأخذ عشرة آلاف لنفسه وفرق على رجاله عشرين ألفا وكان الى جانب أوجلة مدينة يقال لها الازراقية فبلغ أهلها صنيع قراقوش في أوجلة وانه حرس غلالهم فصاروا اليه ووصفوا له بلدهم وكثرة خيره وطيب هوائه ورغبوه في المصير اليهم على انهم يملكونه عليهم فأجاب على ذلك واستخلف على أوجلة رجلا من أصحابه يقال له صباح ومعه تسعة فوارس من أصحابه فحصل لقراقوش أموال كثيرة واتفق ان صاحب أوجلة مات فقتل أهل أوجلة أصحاب قراقوش فجاء قراقوش وحاصرها حتى افتتحها عنوة وقتل من أهلها سبعمائة رجل وغنم أصحابه منها غنيمة عظيمة واستولى على البلد ثم ان أصحابه رغبوا في الرجوع الى مصر وخشي قراقوش ان يقيم وحده فرجع معهم فلما حصل بمصر طاب له المقام وثقل عليه العود وزوجه تقي الدين باحدى جواريه وكان استناب بأوجلة وقال لاهلها أنا أمضي الى مصر لتجديد رجال وأعود اليكم

قال ابن الاثير وفيها في ربيع الآخر استوزر سيف الدين صاحب الموصل جلال الدين أبا الحسن على بن جمال الدين الوزير رحمهما الله تعالى وقد مكنه في ولايته فظهرت منه كفاية لم يظنها الناس وبدا منه معرفة بقواعد الدول وأوضاع الدواوين وتقرير الامور والاطلاع على دقائق الحسبانات والعلم بصناعة الكتابة الحسابية والانشاء حيرت العقول ووضع في كتابة الانشاء وضعا لم يعرفوه وكان عمره حين ولى الوزارة خمسا وعشرين سنة ثم قبض عليه في شعبان سنة ثلاث وسبعين وشفع فيه كمال الدين بن بلسان وزير صاحب أمد وكان قد زوجه بابنته فاطلق وسار اليه وبقي بآمد يسيرا مريضا ثم فارقها وتوفى بدنيسر سنة أربع وسبعين وحمل الى الموصل فدفن بها ثم حمل منها في موسم الحج الى المدينة ودفن عند والده وكان من أحسن الناس صورة ومعنى رحمه الله تعالى

قال ثم ان سيف الدين استناب دزدارا بقلعة الموصل الامير مجاهد الدين قايماز في ذى الحجة سنة احدى وسبعين ورد.

اليه أزمة الامور فى الحل والعقد والرفع والخفض وكان بيده قبل هذه الولاية مدينة أربل واعمالها ومعه فيها ولد صغير لزين الدين على لقبه أيضا زين الدين فكان البلد لولد زين الدين اسما لامعنى تحته وهو لمجاهد الدين صورة ومعنى قلت وفيها فى حادى عشر رجب توفى حافظ الشام أبو القاسم على بن الحسن بن عساكر صاحب التاريخ الدمشقى رحمه الله تعالى وحضر السلطان صلاح الدين جنازته ودفن فى مقابر باب الصغير وفيها قدم دمشق أبو الفتوح عبد السلام ابن يوسف بن محمد بن مقلد الدمشقى الاصل البغدادى المولد التنوخى الجاهرى الصوفى ابن الصوفى ذكره العماد فى الخريدة وقال كان صديقى وجلس للوعظ وحضر عنده صلاح الدين وأحسن اليه وعاد الى بغداد وذكر العماد من أشعاره مقطعات منها فى الحقائق وأنشدها فى مجلسه

يامالكا مهجتى يامنتهى أملى * ياحاضرا شاهدا فى القلب والفكر
خلقتنى من تراب أنت خالقه * حتى اذا صرت تمثالا من الصور
أجريت فى قالبى روحا منورة * تمر فيه كجرى الماء فى الشجر
جمعت بين صفا روح منورة * وهيكل صغته من معدن كدر
ان غبت فيك فيا فخرى ويا شرفى * وان حضرت فيا سمعى ويا بصرى
أو احتجبت فسرى منك فى وله * وان خطرت فقلبى منك فى خطر
تبدو فتمحو رسومى ثم تثبتها * وان تغيبت عنى عشت بالاثر

﴿ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة﴾ قال العماد والسلطان مقيم بظاهر حلب فعرف أهلها ان العقوبة أليمة والعاقبة وخيمة فدخلوا من باب التذلل ولاذوا بالتوسل وخاطبوا فى التفضل وطلبوا الصلح فاجابهم وعفا وعف وكفى وكف وأبقى للملك الصالح حلب واعمالها واستقرى كل عثرة لهم وأقالها وارادله الاعزاز فردّ عليه عزاز وقال ابن شداد أخرجوا اليه ابنة لنور الدين صغيرة سألت منه عزاز فوهبها اياها قال ابن أبى طى لما تم الصلح وانعقدت الايمان عوّل الملك الصالح على مراسلة السلطان وطلب عزاز منه فاشار الامراء عليه بانفاذ أخته وكانت صغيرة فاخرجت اليه فاكرمها السلطان اكراما عظيما وقدم لها أشياء كثيرة وأطلق لها قلعة عزاز وجميع ما فيها من مال وسلاح وميرة وغير ذلك وقال غيره بعث الملك الصالح أخته الخاتون بنت نور الدين الى صلاح الدين فى الليل فدخلت عليه فقام قائما وقبل الارض وبكى على نور الدين فسألت ان يرد عليهم عزاز فقال سمعا وطاعة فاعطاها اياها وقدم لها من الجواهر والتحف والمال شيئا كثيرا واتفق مع الملك الصالح ان له من حماه وما فتحه الى مصر وان يطلق الملك الصالح أولاد الداية قال العماد وحلفوا له على كل ماشرطه واعتذروا عن كل ما اسخطه وكان الصلح عاما لهم وللمواصلة وأهل ديار بكر وكتبت فى نسخة اليمين انه اذا غدر منهم واحد وخالف ولم يف بما عليه حالف كان الباقون عليه يدا واحده وعزيمة متعاقده حتى يفىء الى الوفاء والوفاق ويرجع الى مرافقة الرفاق فلما انتظم الصلح ذكر السلطان ثاره عن الاسماعيليه وكيف قصدوه بتلك البليه فرحل يوم الجمعة لعشر بقين من المحرم فحصر حصنهم مصيات ونصب عليه المجانيق الكبار وأوسعهم قتلا وأسرا وساق ابقارهم وخرب ديارهم وهدم اعمارهم وهتك أستارهم حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب حماه وكانوا قد راسلوه فى ذلك لانهم جيرانه فرحل عنهم وقد انتقم منهم قال وكان الفرنج قد أغاروا على البقاع فخرج اليهم شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم وهو متولى بعلبك ومقطع اعمالها ومدبر أحوالها والمتحكم فى أموالها فقتل منهم وأسر أكثر من مائتى أسير وأحضرهم عند السلطان وهو على حصار مصيات فجدد منه الى غزو الفرنج والانبعاث قال ابن أبى طى وهذا أكبر الدواعى فى مصالحة السلطان لسنان وخروجه من بلاد الاسماعيليه لان السلطان خاف أن تهيج الفرنج فى الشام الاعلى وهو بعيد عنه فربما ظفر وامن البلاد بطائل فصالح سنانا وعاد الى دمشق قال العماد وكان قد خرج شمس الدولة أخو السلطان من دمشق حين سمع ان الفرنج على الخروج وباسطهم عند عين الجر فى تلك المروج ووقع من أصحابه عدة فى الاسار منهم سيف الدين أبو بكر بن السلار ووصل السلطان الى حماه وقد استكمل الظفر واجتمع فيها بأخيه شمس الدولة ثانى صفر وهو أول لقائه بعدما أزمع عنه الى

اليمن السفر وتعانق الاخوان فى المخيم بالميدان وتحدثا فى الحدثان وروعات الفراق ولوعات الاشواق وكان قد وصل الى السلطان من أخيه هذا عند مفارقته بلاد اليمن كتاب ضمنه أبياتا ناظمها من شعر ابن المنجم المصرى أولها

الشوق أولع بالقلوب وأوجع * فعلام أدفع منه ما لا يدفع
وحلت من وجد الاحبة مفردا * ما ليس تحمله الاحبة أجمع
لا يستقر بى النوى فى موضع * الا تقاضانى الترحل موضع
فالى صلاح الدين أشكو اننى * من بعده مضنى الجوانح موجع
جزعا لبعد الدار منه ولم أكن * لولا هواه لبعد دار أجزع
فلاركبن اليه متن عزائمى * ويخب بى ركب الغرام ويوضع
حتى أشاهد منه أسعد طلعة * من أفقها صبح السعادة يطلع

قال العماد فسألنى السلطان أن أكتب له فى جوابها على رويها ووزنها فقلت قصيدة منها

مولاى شمس الدولة الملك الذى * شمس السيادة من سناه تطلع
مالى سواك من الحوادث ملجأ * مالى سواك من النوائب مفزع
ولأنت فخر الدين فخرى فى العلى * وملاذ آمالى وركنى الارفع
الا بخدمتك المجلة موقعى * والله ما للملك عندى موقع
وبغير قربك كلما أرجوه من * درك المنى متعذر متمنع
للنصر ان أقبلت نحوى مقبل * واليمن ان أسرعت نحوى مسرع

قال ثم سرنا الى دمشق ووصلنا اليها سابع عشر صفر وفوض ملك دمشق الى أخيه الملك المعظم شمس الدولة وعزم الى مصر السفر

(فصل) فى ذكر جماعة من الاعيان تجدد لهم ما اقتضى ذكره فى هذه السنة قال العماد فى السادس من المحرم توفى بدمشق القاضى كمال الدين بن الشهرزورى وعمره ثمانون سنة لان مولده فى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة وكان فى الايام النورية بدمشق هو الحاكم المتحكم وصلاح الدين اذ ذاك يتولى الشحنكية بدمشق وكمال الدين يعكس مقاصده بتوجيه الاحكام الشرعية وربما كسر اغراضه وأبدى عن قبوله اعراضه ويقصد فى كل ما يعرض له اعتراضه وكم صبر على جماحه بحلمه وراضه الى أن نقله الله سبحانه من نيابة الشحنكية الى الملك وصار كمال الدين من قضاة ممالكه المنتظمة فى السلك وكان فى قلبه مما فرط فيه وما فرط منه ما فات وقت تلافيه فلما ملك دمشق يجراه على حكمه ولم يؤاخذه بجرمه واحترم نوابه وأكرم أصحابه وفتح للشرع بابه وخاطبه واستحسن جوابه ولم يزل استفتيه ويستهديه ويعرض على رأيه ما يعيده ويبديه وكان ابن أخيه ضياء الدين ابن تاج الدين الشهرزورى قد هاجر الى صلاح الدين بمصر فى ريعان ملكه وأذنت هجرته فى درك ارادته بادارة فلكه وأنعم عليه هناك بجزيرة الذهب ومن دار الملك بمصر بدار الذهب ووفر حظه من الذهب وملكه دارا بالقاهرة نفيسة جميلة جلية جليلة ورتب له وظائف وخصه بلطائف ووصل مع صلاح الدين الى الشام وأمره جار على النظام ولما اشتد بكمال الدين المرض وكاد يفارق جوهره العرض أراد أن يبقى القضاء فى ذويه فوصى مع حضور ولده بالقضاء لضياء الدين ابن أخيه علما منه بأن السلطان يمضى حكمه لاجل سوالفه ويجعله عنده من عوائد عوارفه ومات ولم يخلف مثله ومن شاهده شاهد العقل والفضل كله بارا بالابرار مختارا للاخيار مكرما للكرام ماضيا فى الاحكام وقد قواه نور الدين رحمه الله وولده فى أيامه وسدد مرامى مرامه وهو الذى سن دار العدل لتنفذ أحكامه بحضرة السلطان فلا يبقى عليه مغمز ولا ملمز لذوى الشنآن وهو الذى تولى له بناء أسوار دمشق ومدارسها والبيمارستان فاستمرت عادته واستقرت قاعدته فى دولة السلطان وتوفى ونحن بحلب محاصرون وذكر العماد فى الخريدة لابنه محيى الدين قصيدة فى مرثيته منها

ألموا بسفحى قاسيون فسلموا * على جدث بادى السنا وترحموا
وبالرغم منى أن أناجيه بالمنى * واسأل مع بعد المدى من يسلم

لقد عدمت منك البرية والدا ❊ أحن من الام الرؤف وأرحم
ولاسيما اخوان صدق بجلق ❊ هم فى سماء المجد والجود أنجم
نشرت لواء العدل فوق رؤسهم ❊ فما كان فيهم من يضام ويظلم
لقيت من الرحمن عفوا ورحمة ❊ كما كنت تعفو ما حييت وترحم

قال العماد وجلس ابن أخيه ضياء الدين مكانه وأحسن احسانه وابقى نواب عمه وأنفذ أحكامه بنافذ حكمه وكان الفقيه شرف الدين أبو سعد عبد الله بن ابى عصرون قد هاجر من حلب الى السلطان وقد أنزله عنده بدمشق فى ظل الاحسان وهو شيخ مذهب الشافعى رضى الله عنه والاقوم بالفتيا وأعرفهم بما تقتضيه الشريعة من أمر الدين والدنيا والسلطان يؤثر ان يفوّض اليه منصب القضا ولا يرى عزل الضيا فأفضى بسر مراده الى الاجل الفاضل وكان الفقيه ضياء الدين عيسى يتعصب لشيخه فاستشعر الضياء من العزل وأشير عليه بالاستعفا ففعل فاعفى وبقيت عليه الوكالة الشرعية عنه فى بيع الاملاك قال العماد وأوّل ما اشتريت منه بوكالة السلطان الارض التى ببستان بقر الوحش التى بنيت فيها المواضع من الحمام والدور والاصطبل والخان وكنت قد احتكرتها فى الايام النورية هلكتها فى الايام الصلاحيه قلت قد خربت هذه الاماكن فى سنة ثلاث وأربعين وستمائة بسبب الحصار واستمر خرابها وعفت آثارها وصارت طريقا على حافة بردا وأنت خارج من جسر الصفى خارج باب الفرج مارا الى ناحية الميدان قال فلما استعفى ضياء الدين ابن الشهرزورى من القضاء لم يبق فى منصب القضاء الا فقيه يعرف بالاوحد داود بن ابراهيم بن عمر بن بلال الشافعى وكان ينوب عن كمال الدين فأمره السلطان ان يجرى على رسمه و يتصرف فى حكمه وكان السلطان لاحياء القضاء فى البيت الزكوى مؤثرا ولذكر مناقبه مكثرا وقد سبق منه الوعد للشيخ شرف الدين بن أبى عصرون وهو راج وبطلب نجازعدته مناج ففوّض اليه القضا والحكم والانفاذ والامضا على ان يتولى محيى الدين أبو المعالى محمد بن زكى الدين والاوحد قاضيين فى دمشق يحكمان وهما عن نيابته يوردان و يصدران وتوليتهما بتوقيع من السلطان ولم يزل الشيخ شرف الدين ابن أبى عصرون متوليا للقضا منفردا بالحكم والامضا سنة اثنتين وثلاث وسبعين فى ولاية أخى السلطان الملك المعظم فخر الدين فلما عدنا الى الشام تكلم الناس فى ذهاب نور بصره وانه لا يقوم فى القضاء بورده وصدره ففوّض السلطان القضاء بالاشارة الفاضلية الى ابنه محيى الدين أبى حامد محمد كأنه نائب أبيه ولا يظهر للناس صرفه عما هو متوليه واستمر القضاء له الى انقضاء أشهر من سنة سبع وثمانين ثم صرف واستقل به ابن زكى الدين فأقام فى مدة ولايته للشرع القواعد والقوانين وفوّض ديوان الوقوف بجامع دمشق وغيره من المساجد والمشاهد الى أخيه مجد الدين ابن الزكى فتولاه الى ان انتقل من أعمال الوقوف الى موقف اعتبار الأعمال وتولاها بعده أخوه محيى الدين على الاستقلال الى آخر عهد السلطان وبعده قلت وفيها فى صفر وقف السلطان قرية خربة باللوى من حوران على الجماعة الذين يشتغلون بعلم الشريعة أو بعلم يحتاج اليه الفقيه والحضر لسماع الدروس بالزاوية الغربية من جامع دمشق المعروفة بالفقيه الزاهد نصر المقدسى رحمه الله وعلى من هو مدرسهم بهذا الموضع من أصحاب الامام الشافعى رضى الله عنه وجعل النظر لقطب الدين النيسابورى رحمه الله ورأيت كتاب الوقف بذلك على هذه الصورة وعليه علامة السلطان رحمه الله (الحمد لله وبه توفيقى) قال العماد وفيها فى ليلة الجمعة الثانى عشر من صفر ونحن فى طريق الوصول الى دمشق توفى شمس الدين ابن الوزير أبى المضا بدمشق وهو أوّل خطيب بالديار المصريه للدولة العباسيه وكان يتولى الرسالة الى الديوان العزيز ويقصده الشعراء ويحضره الكرماء فيكثر خلعهم وجوائزهم ويبعث على مدحه غرائزهم فحمل السلطان همه وقرب ولده وجبر بتربيته يتمه ثم تعين ضياء الدين ابن الشهرزورى بعده للرسالة الى الديوان وصارت منصبا له ينافس عليه واستتبت له هذه السفارة الى آخر العهد السلطانى وذلك بعد المضى الى مصر والعود الى الشام فانه بعد ذلك خاطب فى هذا المرام فأما فى هذه السنة فانه كان فى مسيرنا الى مصر فى الصحبه وهو متودد الى بصفاء المحبه وفيها فى آخر صفر تزوّج السلطان بالخاتون المنعوتة عصمة الدين بنت الامير معين الدين انر وكانت فى عصمة نور الدين رحمه الله فلما توفى اقامت فى منزلها بقلعة دمشق رفيعة القدر مستقلة بامرها كثيرة الصدقات والاعمال الصالحات فأراد السلطان حفظ حرمتها وصيانتها

وعصمتها فأحضر شرف الدين ابن أبي عصرون وعدوله وزوّجها اياها بحضرتهم أخوها لابيها الامير سعد الدين مسعود بن انر باذنها ودخل بها وبات عندها وقرن بسعده سعدها وخرج بعد يومين الى مصر وذكر العماد بعد وفاة ابن الشهرزوري وابن أبي المضا الامير مؤيد الدولة أبا الحارث اسامة بن مرشد بن سديد الملك أبي الحسن علي بن منقذ وعوده الى الشام عند علمه بوصول السلطان فقال هذا مؤيد الدولة من الامراء الفضلاء والكرماء الكبراء والسادة القادة العظماء وقد متعه الله بالعمر وطول البقاء وهو من المعدودين من شجعان الشام وفرسان الاسلام ولم تزل بنو منقذ ملاك شيزر وقد جمعوا السيادة والمفخر ولما تفرّد بالمعقل منهم من تولاه لم يرد ان يكون معه فيه سواه فخرجوا منه في سنة أربع وعشرين وخمسمائة وسكنوا دمشق وغيرها من البلاد وكلهم من الاجواد الامجاد وما فيهم الا ذو فضل وبذل واحسان وعدل وما منهم الا من له نظم مطبوع وشعر مصنوع ومن له قصيدة وله مقطوع وهذا مؤيد الدولة أعرقهم في الحسب وأعرفهم بالادب وكانت جرت له نبوة في أيام الدمشقيين وسافر الى مصر وأقام هناك سنين في أيام المصريين فتمت نوبة قتل المنعوت بالظافر وقتل عباس وزيرها اخوته واقامة المنعوت بالفائز وما ردف ذلك من الهزاهز فعاد مؤيد الدولة الى الشام وسار الى حصن كيفا وتوطن بها ولما سمع بالملك الصلاحي جاء الى دمشق وذلك في سنة سبعين وقال

جحدت على طول عمري المشيبا * وان كنت أكثرت فيه الذنوبا
لاني حييت الى ان لقيت بعد العدوّ صديقا حبيبا

قال وكنت أسمع بفضله وأنا باصبهان في أيام الشبيبة وأنشدني له مجد العرب العامري باصفهان في سنة خمس وأربعين هذين البيتين وهما من مبتكرات معانيه في سن قلعها

وصاحب لا أمل الدهر صحبته * يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا * لناظريّ افترقنا فرقة الابد

قال فلما لقيته بدمشق في سنة سبعين أنشدنيهما لنفسه مع كثير من شعره المبتكر من جنسه قلت ومن عجيب ما اتفق اني وجدت هذين البيتين مع بيتين آخرين المجموع أربعة أبيات في ديوان أبي الحسين أحمد بن منير الاطرابلسي ومات ابن منير سنة ثمان وأربعين وخمسمائة قرأت في ديوانه وقال في الضرس

وصاحب لا أمل الدهر صحبته * يسعى لنفعي وأجني ضره بيدي
أدنى الى القلب من سمعي ومن بصري * ومن تلادي ومن مالي ومن ولدي
أخلو بيه مسن خال بوجنته * مداده زائد التقصير للمدد

ثم قال (لم ألقه مذ تصاحبنا البيت) فالاشبه ان ابن منير أخذهما وزاد عليهما ولهذا غير فيهما كلمات وقد وجدت هذا البيت الاول على صورة أخرى حسنة (وصاحب ناصح لي في معاملتي) ويجوز ان يكون أسامة أنشدهما متمثلا فنسبا اليه لما كان مظنة ذلك ويجوز ان يكون اتفاقا والله اعلم قال العماد وشاهدت ولده عضد الدين أبا الفوارس مرهفا وهو جليس صلاح الدين وأنيسه وقد كتب ديوان شعر أبيه لصلاح الدين وهو لشغفه به يفضله على جميع الدواوين ولم يزل هذا الامير العضد مرهف مصاحباله بمصر والشام والى آخر عصره وتوطن بمصر فلما جاء مؤيد الدولة أبوه أنزله ارحب منزل وأورده أعذب منهل وملكه من اعمال المعرة ضيعة زعم انها كانت قديما تجري في املاكه وأعطاه بدمشق دارا وادرارا واذا كان بدمشق جالسه وآنسه وذاكره في الادب ودارسه وكان ذا رأي وتجربة وحنكة مهذبة فهو يستشيره في نوائبه ويستنير برأيه في غياهبه واذا غاب عنه في غزواته كاتبه واعلمه بواقعاته ووقعاته واستخرج رأيه في كشف مهماته وحل مشكلاته وبلغ عمره ستا وتسعين سنة فان مولده سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وتوفي سنة اربع وثمانين وخمسمائة قلت وقد تقدم من أخباره في قتل الاسد في شبيبته أيام كونه بشيزر وذكرت أيضا له ترجمة حسنة في تاريخ دمشق

(فصل) في رجوع السلطان الى مصر خرج من دمشق يوم الجمعة رابع شهر ربيع الاول قال العماد لما استتمت

للسلطان

السلطان بالشام أمورممالكه وأمن على مناهج أمره ومسالكه أزمع الى مصر الاياب وقد أمحلت من بعده من جود جود السحاب وتقدمه الامراء والملوك وخرج بكرة الجمعة ونزل برج الصفر ثم رحل عنه قبل العصر الى قريب الصفين وخرجت معه وقلبى مروع الى أهلى فما نزلت منزلا الا نظمت أبياتا فقلت يوم المسير وقد عبرت بالخياره

أقول لركب بالخيارة نزل * أثيروا فما لى فى المقام خيار
هم رحلوا عنك الغداة وبادروا * بأنهم قد خلفوك وساروا
حليف اشتياق لا يرى من يحبه * وفى القلب من نار الغرام أوار
أجيروا من البلوى فؤادى فعندكم * ذمام له يا سادتى وجوار

وقلت وقد نزلنا بالفقيع

رأيتنى بالفقيع منفردا أضيـــع من فقع قاعها الضائع
بعت بمصر دمشق عن غرر * منى فيا غبن صفقة البائع
صبرى والقلب عاصيان وما * غير هوى وأدمعى طائعى

وقلت بالفوار

تحدر بالفوار دمعى على الفور * فقلت لجيرانى أجيروا من الجور
وأصعب ما لاقيت انى قانع * من الطيف مذ بنتم بزور من الزور

وقلت بالزرقا

ولم انس بالزرقاء يوم وداعنا * أنامل تدمى حيرة للتندم
أعدتك يا زرقاء حمراء اننى * بكيتك حتى شيب ماؤك بالدم
تأخر قلبى عندهم متخلفا * وخالفتهم فى عزمتى والتقدم
فياليت شعرى هل أعود اليهم * وهل ليت شعرى نافع للمتيم

قال وقلت وقد عبرنا على مسالك قريبة من قلعة الشوبك وفيها تختطف الافرنج القاصدين الى مصر

طريق مصر ضيق المسلك * سالكه لا شك فى مهلك
وحب مصر صار حبا لمن * أوقعه فى شبك الشوبك
لكنما من دونها كعبـــة * محجوجة مبرورة المنسك
بها صلاح الدين يشكى الذى * اليـــه من أيامه يشتكى

قال ونظمت فى طريق مصر قصيدة مشتملة على ذكر المنازل بالترتيب وايراد البعيد منها والقريب واتفق ان السلطان سير الى مصر الملك المظفر تقى الدين وكان لا يستدعى من شاديه الا انشادها فى ناديه ويطرب لسماعها ويعجب بابداعها وكان قد فارق أهله بدمشق كما فارقت بها أهلى وجمع الله بهم بعد ذلك شملى وهى هذه

هجرتكم لا عن ملال ولا غـــدر * ولكن لمقـدور أتيح من الامر
واعلم انى مخطئ فى فراقكم * وعذرى فى ذنبى وذنبى فى عذرى
أرى نوب الدهر تحصى ولا أرى * أشد من الهجران فى نوب الدهر
بعينى الى لقيا سواكم غشاوة * وسمعى عن نجوى سواكم ذو وقر
وقلبى وصبرى فارقانى لبعدكم * فلا صبر فى قلبى ولا قلب فى صدرى
وانى على العهد الذى تعهدونه * وسرى لكم سرى وجهرى لكم جهرى
تجرعت صرف الهم من كاس شوقكم * وها أنا فى صحوى تريف من السكر
وان زمانا ليس يعمر موطنى * بسكناكم فيه فليس من العمر
واقسم لو لم يقسم البـــين بيننا * جوى الهم ما أمسيت مقتسم الفكر
أسير الى مصر وقلبى أسيركم * ومن عجب أسرى وقلبى فى أسر

اخلاى قد شط المزار فارسلوا الـــخيال وزوروا فى الكرى وارجعوا جرى
تذكرت أحبابى بجلق بعدما * ترحلت والمشتاق يأنس بالذكر
وناديت صبرى مستغيثا فلم يجب * فاسبلت دمعى للبكاء على صبرى
ولما قصدنا من دمشق غباغبا * وبتنا من الشوق الممض على الجمر
نزلنا برأس الماء عند وداعنا * موارد من ماء الدموع التى تجرى
نزلنا بصحراء الفقيع وغودرت * فواقع من فيض المدامع فى الغدر
ونهنهت بالفوار فيض مدامعى * ففاضت وباحت بالمكتم من سرى
سرينا الى الزرقاء منها ومن يصب * اوامايسر حتى يرى الورد أو يسرى
تذكرت حمام القصير وأهله * وقد جزت بالحمام فى البلد القفر
وبالقريتين القريتين وأين من * مغانى الغوانى منزل الادم والعفر
وردنا من الزيتون حسمى وايلة * ولم نسترح حتى صدرنا الى صدر
غشينا الغواشى وهى يابسة الثرى * بعيدة عهد القطر بالعهد والقطر
وضن علينا بالندى ثمد الحصى * ومن يرتجى ريا من الثمد النزر
فقلت اشرحى بالحسى صدر امطيتى * بصدر والاجادلك النيل للعشر
رأينا بها عين المواساة اننا * الى عين موسى نبذل الزاد للسفر
وما حسرت عينى على فيض عبرة * اكفكفها حتى عبرنا على الجسر
وملنا الى أرض السدير وجنة * هنالك من طلح نضيد ومن سدر
وجبنا الفلا حتى أصبنا مباركا * على بركة الجب المبشر بالقصر
ولما بدا الفسطاط بشرت رفقتى * بمن يتلقى الوفد بالوفر والبشر
بكت أم عمرو من وشيك ترحلى * فيا خجلتى من أم عمرو ومن عمرو
تقول الى مصر تصير تعجبا * وماذا الذى تبغى ومن لك فى مصر
فقلت ملاذى الناصر الملك الذى * حصلت بجدواه على الملك والنصر
فقالت اقم لا تعدم الخير عندنا * فقلت وهل تغنى السواقى عن البحر
ثقى برجوع يضمن الله نجحه * ولا يقتضى ان نبدل العسر باليسر
عطيته قد ضاعفت منة الرجا * ونعمته قد أضعفت منة الشكر

قال وكان الدخول الى القاهرة يوم السبت سادس عشر ربيع الاول بالزى الاجمل والعز الاكمل وتلقى السلطان أخوه ونائبه الملك العادل سيف الدين الى صدر وعبر الينا عند بحر القلزم الجسر وتلة تاخير مصر ووصلت الينا ثمراتها وجليت علينا زهراتها فظهر بنا نشاطها وزاد اغتباطها ودخل السلطان داره ووفق الله فى جميع الامور ايراده واصداره وكانت قد صعبت على مفارقة دمشق وأهلها لقلة لوثوق بانى احصل بمثلها فنظمت يوم خروجى منها أبياتا الى ناصر الدين محمد بن شيركوه منها

بمهجتى خنث العطف مستلذ الدلال * يقول لى بانكسار * ورقة واعتلال
معاتبا بحديث * اصفى من السلسال * ما مصر مثل دمشق * بعت الهدى بالضلال
فقلت عنت أمور * عجيبة الاشكال * أسير فى طلب العز مثل سير الهلال
لم يبلغ البدر لولا المسير أوج الكمال * وكيف أترك شغلى * وانه رأس مالى
صلاح حالى صلاح الدين الغزير النوال * مالى أفارق ملكا * ملكته أمالى
يا ناصر الدين قلبى * عليه فى بلبال

ثم ذكر العماد المحسنين اليه بالقاهرة وسيدهم المولى الاجل الفاضل وقد مدحه بقصيدة منها

كيف لا يغتدى لى الدهر عبدا * وأنا عبد عبد عبد الرحيم
بدوام الاجل سيدنا الفا * ضل يادولة الافاضل دومى
اذ أراه ينوب عنى لدى الملـ * ـك مناب الارواح عند الجسوم
ماله الحل فى الممالك والعقـ * ـد وحكم التحليل والتحريم
معمل للنفاذ فى كل قطر * قلما حاكما على اقليم
يتلقى الملوك فى كل أرض * كتبه القادمات بالتعظيم
ناحل الجسم ذو خطاب به يصـ * ـغر للدهر كل خطب جسيم

ثم ذكر الاخوين تقى الدين عمر وعز الدين فرخشاه وهما ابنا أخى السلطان وهو شاهنشاه بن أيوب وهمام الدين برغش الشنباشى والى القاهرة ومدح فرخشاه بقصيدة حسنة منها

شادن كالقضيب لدن المهزه * سلبت مقلتاه قلبى بغمزه
كلما رمت وصله رام هجرى * واذا زدت ذلة زاد عزه
للصبا من عذاره نسج حسن * رقم المسك فى الشقائق طرزه
وعزيز علىّ أن اصطبارى * فيه قد عزه الغرام وبزه
ما رأى ما رأيت مجنون ليلى * فى هواه ولا كثير عزه
ماذكرنا الفسطاط الانسينا * ما رأينا بالنيربين والارزه
فبها الجيزة الجوازى لها المـ * ـزة حسنا على ظباء المزه
ونصيرى عليه نائل عز الديـ * ـن ذى الفضل خلد الله عزه
فرغ الكنز من ذخائر مال * ماله من نفائس الحمد كنزه
همة مستـ * ـتهامة بالمعالى * للدنا يا أبيه مشمئزه

قال العماد وتوفرنا على الاجتماع فى المغانى لاستماع الاغانى والتنزه فى الجزيرة والجيزه والاماكن العزيزه ومنازل العز والروضة ودار الملك والنيل والمقياس ومرامى السفن ومجارى الفلك والقصور بالقرافه وربوع الضيافه ورواية الاحاديث النبويه والمباحثة فى المسائل الفقهيه والمعانى الادبيه قال واقترحنا على القاضى ضياء الدين ابن الشهرزورى أن يفرجنا فى الاهرام فقد شغفنا بأخبارها فى الشام فخرج بنا اليها ودار بنا حوالبها ودرنا تلك البرابى والبرارى والرمال والصحارى وأحمدنا المقار والمقارى وهما انشا أبو الهول وضاق فى وصفه مجال القول ورأينا العجائب وروينا الغرائب واستصغرنا فى جنب الهرمين كل ما استعظمناه وتداولنا الحديث فى الهرم ومن بناه فكل يأتى فى وصفهما بما نقله لا بما عقله واجتهدوا فى الصعود اليه فلم يوجد من توقله وحارت العقول فى عقوده وطارت الافكار عن توهم حدوده فياله من مولود للدهر قبل الطوفان انقرضت القرون الخالية على آبائه وجدوده وسمار الاخبار بذكر حديث اجداث عاد وثموده ويدل احكامه وعلوه على همة بانيه فى بأسه وجوده وان فى الارض الهرمين كما ان فى السماء الفرقدين وهما كالطودين الراسخين وكالجبلين الشامخين قد فنيت الدهور وهما باقيان وتقاصرت القصور وهما راقيان وكأنهما الام الارض ثديان وعلى ترائب التراب نهدان ولسلطان العالم علمان والى مراقى الاملاك سلمان وهما الليل والنهار رقيبان ولرضوى ولشمام نسيبان ومن زحل والمريخ قريبان ولعوادى الخطوب خطيبان ولثور الفلك روقان ولشخص الكرة الترابية ساقان

قلت ثم ذكر العماد جماعة ممن كان يقيم الضيافة له ولمثله من الفضلاء والاعيان فذكر منهم الناصح مؤدب أولاد السلطان وله دار مشرفة على النيل وذكر منهم اللسان الصوفى البلخى وكان له صحبة قديمة بنجم الدين أيوب والد السلطان وله دار أيضا على شاطئ النيل برسم ضيافة من نزل به قال ثم وقف السلطان داره على الصوفية من بعده وانتقل بعد سنين الى النعيم وخلده

(فصل) في بيع الكتب وعمارة القلعة والمدرسة والبيمارستان قال العماد وكان لبيع الكتب في القصر كل أسبوع يومان وهي تباع بأرخص الاثمان وخزائنها في القصر مرتبة البيوت مقسمة الرفوف مفهرسة بالمعروف فقيل للامير بهاء الدين قراقوش متولى القصر والحال والعاقد للامر هذه الكتب قد عاث فيها العث وتساوى سمينها والغث ولا غنى عن تهويتها ونفضها واخراجها من بيوت الخزانة الى أرضها وهو تركى لا خبرة له بالكتب ولا دربة له باسفار الادب وكان مقصود دلالى الكتب أن يوكسوها ويخرموها ويعكسوها فأخرجت وهي أكثر من مائة ألف من أماكنها وغربت من مساكنها وخربت أوكارها وذهبت أنوارها وشتت شملها وبت حبلها واختلط أدبيها بنجوميها وشرعيها بمنطقيها وطبيها بهندسيها وتواريخها بتفاسيرها ومجاهيلها بمشاهيرها وكان فيها من الكتب الكبار وتواريخ الامصار ومصنفات الاخبار ما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين جزأ مجلدا اذا فقد منها جزء لا يخلف أبدا فاختلطت واختبطت فكان الدلال يخرج عشرة عشرة من كل فن كتبا مبتره فتسام بالدون وتباع بالهون والدلال يعرف كل شدة وما فيها من عدة ويعلم ان عنده من أجناسها وأنواعها وقد شارك غيره في ابتياعها حتى اذا لفق كتابا قد تقوم عليه بعشرة باعه بعد ذلك لنفسه بمائة قال فلما رأيت الامر حضرت القصر واشتريت كما اشتروا ومريت الاطباء كما مروا واستكثرت من المتاع المبتاع وحويت نفائس الانواع ولما عرف السلطان ما ابتعته وكان بثمين أنعم على بها وأبرأ ذمتي من ذهبها ثم وهب لي أيضا من خزانة القصر ما عينت عينه من كتبها ودخلت عليه يوما وبين يديه مجلدات كثيره انتقيت له من القصر وهو ينظر في بعضها ويبسط يدي لقبضها قال وكنت طلبت كتبا عينتها فقال وهل في هذه شيء منها فقلت كلها وما استغنى عنها فأخرجتها من عنده بحمال وكان هذا منه بالاضافة الى سماحه أقل نوال

قال وكان السلطان لما تملك مصر رأى ان مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يمنعها فقال ان أفردت كل واحدة بسور احتاجت الى جند مفرد يحميها وانى ارى أن أدير عليهما سورا واحدا من الشاطئ الى الشاطئ وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم فابتدا من ظاهر القاهرة ببرج في المقسم وانتهى به الى أعلى مصر ببروج وصلها بالبرج الاعظم ووجدت في عهد السلطان بيتا رفعه النواب وتكمل فيه الحساب ومبلغه وهو دائر البلدين مصر والقاهرة بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل تسعة وعشرون ألفا وثلثمائة وذراعان من ذلك ما بين قلعة المقسم على شاطئ النيل والبرج بالكوم الاحمر بساحل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع ومن القلعة بالمقسم الى حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلثمائة واثنان وتسعون ذراعا ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة الى البرج بالكوم الاحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع ودائر القلعة بجبل مسجد سعد الدولة ثلاث آلاف ومائتان وعشر أذرع وذلك طول قوسه في أبدانه وابراجه من النيل الى النيل على التحقيق والتعديل وذلك بالذراع القاسمي بتولى الامير شهاب الدين قراقوش الاسدى وبنى القلعة على الجبل وأعطاها حقها من إحكام العمل وقطع الخندق وتعميقه وحفر واديه وتضييق طريقه وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدولة فاشتملت القلعة عليها ودخلت في الجملة وحفر في رأس الجبل بئرا ينزل فيها بالدرج المنحوتة من الجبل الى الماء المعين ولم يتأت له هذا كله في سنين متقاربة لولا أعانه ربه المعين وتوفى السلطان وقد بقي من السور مواضع والعمارة فيه مستمره ووظائف نفقاتها مستدره قال وأمر ببناء المدرسة بالتربة المقدسة الشافعية ورتب قواعدها بفرط الالمعيه وتولاها الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشاني وهو الشيخ الصالح الفقيه الورع التقي النقي قال وأمر باتخاذ دار في القصر بيمارستانا للمرضى وأستغفر الله بذلك وأسترضى ووقف على البيمارستان والمدرسة وقوفا وقد أبطل منكرا وأشاع معروفا وأضرب عن ضرائب قمعها وهب الى مواهب فأسداها واهتم بفرائض ونوافل فأداها

(فصل) في خروج السلطان الى الاسكندرية وغير ذلك من بواقي حوادث هذه السنة قال العماد ثم خرج من القاهرة يوم الاربعاء الثاني والعشرين من شعبان واستصحب ولديه الافضل عليا والعزيز عثمان وجعل طريقه على دمياط ورأى في الحضور بالثغر المذكور ومشاهدته الاحتياط وكان له بها سبي كثير جلبه الاسطول فامتد بظاهر البلد يومين ووهب لي منه جاريه ثم وصلنا الى ثغر الاسكندرية وترددنا مع السلطان الى الشيخ الحافظ أبي طاهر

أحمد بن محمد السلفى وداومنا الحضور عنده واجتلينا من وجهه نور الايمان وسعده وسمعنا عليه ثلاثة أيام الخميس والجمعة والسبت رابع شهر رمضان واغتنمنا فرصة الزمان فتلك الايام الثلاثة هى التى حسبناها من العمر فهى آخر ما اجتمعنا به فى ذلك الثغر وشاهدنا ما استجده السلطان من السور الدائر وما أبقاه من حسن الآثار والمآثر وما انصرف حتى أمر باتمام الثغور وتعمير الاسطول قال ابن أبى طى ولما نوى السلطان المقام بالاسكندرية ليصوم فيها رأى انه لا يخلى نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد الى بلاد الكفار والجهاد فى المشركين فرأى الاسطول وقد أخلقت سفنه وتغيرت آلاته فأمر بتعمير الاسطول وجمع له من الاخشاب والصناع أشياء كثيرة ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج الاسطول اليه وشحنه بالرجال وولى فيه أحد أصحابه وأفرد له اقطاعا مخصوصا وديوانا مفردا وكتب الى سائر البلاد يقول القول قول صاحب الاسطول وان لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج اليه وأمر صاحب الاسطول ان لا يبارح البحر ويغزى الى جزائر البحر قال العماد وقلت فى معنى تنقلى فى البلاد

يوما بجى ويوما فى دمشق وبالـــ ـفسطاط يوما ويوما بالعراقين
كأن جسمى وقلبى الصب ما خلقا * الا ليقتسما بالشوق والبين

وقلت يوم الخروج من القاهره

يا باخلا عند الوداع بوقفة * لو سامنى روحى بها لم أبخل
ما كان ضرك لو وقفت لسائل * ترك الفؤاد بدائه فى المنزل
هلا وقفت لقلب من أحرقته * مقدار اطفاء الحريق المشعل
ان أسر من تحلا ففى أسر الهوى * قلبى لديك مقيد لم يرحل
عذب العذاب لدى فؤادى المبتلى * اذ كنت أنت معذبى والمبتلى

وقلت وقد نزلنا بين منية غمر ومنية سمنود *

نزلت بأرض المنيتين ومنيتى * لقاؤكم الشافى ووصلكم المجدى
سابلى ولا تبلى سريرة ودكم * وتؤنسنى ان مت فى وحشة اللحد

قال وعدنا من الاسكندرية فى شهر رمضان فصمنا بقية الشهر بالقاهرة والسلطان متوفر فى ليله ونهاره على نشر العدل وانشاره وافاضة الجود واغزاره وسماع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأخباره وأشاعه العلم والاعلان باسراره وأبدا شعار الشرع واظهاره وابقاء المعروف على قراره وافناء اعلام الباطل وانكاره وقال ومن مدائحى فى السلطان ما أنشدته اياه سادس شوال

فديتك من ظالم منصف * وناهيك من باخل مسرف
أيبلغ دهرى قصدى وقد * قصدت بمصر ذرا يوسف
ويوسف مصر بغير التقى * وبذل الصنائع لم يوصف
فسر وافتح القدس واسفك به * دما متى تجرها ينظف
واهد الى الاسبتار البتا * ر وهد السقوف على الاسقف
وخلص من الكفر تلك البلا * د يخلصك الله فى الموقف

وفيها وصل رسل المواصلة وصاحبى الحصن وماردين الى دمشق فاستوثقوا بتحليف أخى السلطان شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ثم قصدوا مصر ووقع رسول صاحب حصن كيفا فى الاسر قال ابن أبى طى وصل رسول الموصل القاضى عماد الدين بن كمال الدين بن الشهرزورى بهدية وقود فخرج الموكب الى لقائه وأكرمه السلطان واحترمه وقدم بعده رسول نور الدين قرا أرسلان ورسول صاحب ماردين بهدايا واجتمعوا فى دمشق وخرجوا الى السلطان بمصر فاعترضهم الفرنج فاسر رسول صاحب الحصن ولم يزل فى الاسر حتى فتح السلطان بيت الاحزان فأطلقه وأحسن اليه قال وفيها رجع قراقوش الى أوجلة وتلك البلاد فجمع أموالا ورجع الى مصر ثم أراد الرجوع فمنعه العادل ثم خلصه

فرخشاه فرجع وفتح بلاد قزان باسرها قال العماد ثم خرج السلطان الى مرج فاقوس من أعمال مصر الشرقية لارهاب العدو وهو يركب للصيد والقنص والتطلع الى أخبار الفرنج لانتهاز الفرص واقترح على أن أمدح عز الدين فرخشاه بقصيدة موسومة ألزم فيها الشين قبل الهاء فعملت ذلك فى أواخر ذى الحجة فقلت

مولاى عز الدين فرخشته * الدهر من يرجك لا يخشه
تلقاه سمح الكف دفاقها * طلق المحيا كرما بشه
ان شئت فوتا بالردى فالقه * أوشئت فوزا بالعلى فاغشه
يديم بالايدى وبالايد فى * خزى لها والعدى بطشه
كم ملك عاداكم لم يبت * الا جعلتم عرشه نعشه
خوفتم الشرك فلاقصه * أمنتم يوما ولا فنشه
أورثك السودد يا ابن العلى * والدك السيد شاهنشه

قال فى الخريدة كنا مخيمين بمرج فاقوس مصممين على الغزاة الى غزة وقد وصلت أساطيل ثغرى دمياط والاسكندرية بسبى الكفار وقد أوفت على ألف رأس عدة من وصل فى قيد الاسار فحضر ابن رواحة منشدا مهنئا بعيد النحر سنة اثنتين وسبعين ومعرضا بما وهبه الملك الناصر من الاماء والعبيد قصيدة منها

لقد خبر التجارب منه حزم * وقلب دهره ظهرا لبطن
فساق الى الفرنج الخيل برا * وأدركهم على بحر بسفن
وقد جلب الجوارى بالجوارى * يمدن بكل قد مرجحن
يزيدهم اجتماع الشمل بؤسا * فريان يبوح على مرن
زهت اسكندرية يوم سيقوا * ودمياط الى الميناء بغبن
يرون خياله كالطيف يسرى * فلو هجعوا أتاهم بعد وهن
أبادهم تخوفه فامسى * مناهم لو تبيتهم بأمن
تملك حولهم شرقا وغربا * فصاروا للاقتناص تحت رهن
أقام بآل أيوب رباطا * رأت منه الفرنجة ضيق سجن
رجا أقصى الملوك السلم منهم * ولم يرجهده فى البأس يغنى

فيها أبطل السلطان المكس الذى كان بمكة على الحاج وسيأتى ذكره فى أخبار سنة أربع وسبعين قال ابن الاثير فى سنة اثنتين وسبعين شرع مجاهد الدين يعنى قايماز دزدار قلعة الموصل فى عمارة جامعه بظاهر الموصل بباب الجسر وهو من أحسن الجوامع ثم بنى بعد ذلك الرباط والمدرسة والبيمارستان وكلاهما متجاوران قال وتوفى فى شهر ربيع الاول من سنة خمس وتسعين بقلعة الموصل وهو متوليها والحاكم فى الدولة الاتابكية النورية وكان ابتداء ولايته القلعة فى ذى الحجة سنة احدى وسبعين ثم قبض عليه سنة تسع وثمانين وأعيد الى ولايتها بعد الافراج عنه وبقى الى الآن وكان أصله من أعمال شهرزان وأخذ منها وهو طفل وكان عاقلا خيرا دينا فاضلا تعلم الفقه على مذهب الامام أبى حنيفة رضى الله عنه وكان يحفظ من الاشعار والحكايات والنوادر والتواريخ شيئا كثيرا الى غير ذلك من المعارف الحسنة وكان يكثر الصوم وله ورد يصليه كل ليلة ويكثر الصدقة وبنى عدة جوامع منها الذى بظاهر الموصل وبنى عدة خانقاهات منها التى بالموصل ومدارس وقناطر على الانهار الى غير ذلك من المصالح ومناقبه كثيرة قال العماد فى الخريدة نزلنا ببركة الجب لقصد فرض الجهاد وعرض الاجناد فكتب الاسعد بن مماتى الى قصيدة فى الملك الناصر ويعرض بالشطرنج فانه كان يشتغل به وذلك فى ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين

يا كريم الخيم فى الخيم * أهيف كالريم ذو شمم * عجبى للشمس اذا طلعت * منه فى داج من الظلم
كيف لا تصمى لواحظه * ورماة الطرف فى العجم * لا تصد قلب المحب لكم * لا يحل الصيد فى الحرم
يا صلاح الدين يا ملكا * مذ براه الله للامم * أضحت الكفار فى نقم * وغدا الاسلام فى نعم

ان ملك الشطرنج مشغلة * لعى القدر والهمم * فهى فى ناديك تذكرة * لامور الحرب والكرم
فلكم ضاعفت عدتها * بالعطاء الجم لا القلم * ونصبت الحرب نصبتها * فانثنت كفاك بالقمم
فابق للاقدار ترفعها * وأمر الاقدار كالخدم

وفيها توفى بالاسكندرية القاضى الشريف أبو محمد عبد الله العثمانى الديباجى من ولد الديباج محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان رضى الله عنهم ويعرف بابن أبى الياس من بيت القضاء والعلم وكان واسع الباع فى علم الاحاديث كثير الرواية قيما بالادب متصرفا فى النظم والنثر الا انه مقل من النظم أوحد عصره فى علم الشروط وقوله المقبول على كل العدول ذكر ذلك العماد رحمه الله فى الخريده

(ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة) والسلطان مخيم ببرج فاقوس فنظم العماد فى الاجل الفاضل قصيدة ميمية فى منتصف المحرم وخدمه بها هنالك فى المخيم أولها

ريم هضيم يروم هضمى * من سقم عينيه عين سقمى
ان رمت ياعاذلى صلاحى * خالنى والهوى وزعمى
لومك يذكى الغرام قل لى * أنت نصيحى أم أنت خصمى
يا زمانى الغشوم اقصر * انك لا تستطيع غشمى
عبد الرحيم الرحيم أضحى * عونى على خطبك الملم
الفاضل الافضل الاجل المفضل الاشرف الاشم
غيث غياث وجود جود * وبحر علم وطود حلم
يراعه فى اليمين منه * تستخرج الدر من خضم

قال وكان عندنا بالمخيم بالعباسة فى المحرم علم الدين الشاتانى وهو من ادباء الموصل وشعرائها وفصحائها وظرفائها وفد سنة اثنتين وسبعين الى مصر وأهدى النظم والنثر واصطنعه عز الدين فرخشاه وأنزله فى جواره وجمع له من رفده ومن الامراء الف دينار فمدح السلطان بالمخيم بكلمة مطلعها

غدا النصر معقودا برايتك الصفرا * فسر وافتح الدنيا فأنت بها أحرى

قلت لم يذكر العماد من هذه القصيدة غير هذا البيت وانه لقائم مقام قصائد كثيرة والشاتانى هو أبو على الحسن بن سعيد له ترجمة فى تاريخ دمشق وذكره العماد فى الخريده وذكر فيها من هذه القصيده

يمينك فيها اليمن واليسر فى اليسرى * فبشرى لمن يرجو الندى منهما بشرى

قال العماد وكانت الاعلام السلطانية صفرا لا يفارق نشرها نصرا قلت وفيها يقول بعض الفضلاء

واسود خطب دونه الموت أحمر * أتت بالايادى البيض أعلامه الصفر
وقد ظهرت منصوبة جزمت بها * ظهور العدى من رفعها الخفض والجر
واضحت تجوز الارض شرقا ومغربا * ولله فى اعلاء رتبته سر

وقال العماد عاد السلطان الى القاهرة وأقام بها ثم اهتمت بالغزاة همته الى غزة وعسقلان فخرج يوم الجمعة ثالث جمادى الاولى بعد الصلاة وخيم بظاهر بلبيس فى خامسه بخميسه ثم تقدمنا منه الى السدير وخيمنا بالمبرز ثم نودى خذوا زاد عشرة أيام أخرى زيادة للاستظهار ولاعواز ذلك عند توسط ديار الكفار قال العماد فركبت الى سوق العسكر للابتياع وقد أخذ السعر فى الارتفاع فقلت لغلامى قد بدالى وقد خطر الرجوع من الخطر ببالى فاعرض للبيع احمالى وأثقالى وانتهز فرصة هذا السعر الغالى وأنا صاحب قلم لا صاحب علم وقد استشعرت نفسى فى هذه الغزوة من عاقبة ندم والمدى بعيد والخطب شديد وهذه نوبة السيوف لا نوبة الاقلام وفى سلامتنا سلامة الاسلام والواجب على كل منا ان يلزم شغله ولا يتعدى حده ولا يتجاوز محله لاسيما ونواب الديوان قد استأذنوا فى العوده وأظهروا قلة العده وأظهرت سرى للمولى الاجل الفاضل فسر بذلك اشفاقا على واحسانا الى وكان السلطان أيضا يؤثر ايثارى ويختار اختيارى فقال لى أنت معنا أو عزمت ان تدعنا ولا تتبعنا فقلت الامر للمولى وما يختاره لى فهو أولى فقال تعود

وندعو لنا ونسأل الله ان يبلغنا من النصر سؤلنا وكنت قد كتبت أبياتا الى المخدوم الفاضل ونحن بالبرز فى العشرين من الشهر

قيل فى مصر نائل عدد الرمل ووفر كنيلها الموفور
فاغتررنا بها وسرنا اليها * ووقعنا كما ترى فى الغرور
وحظينا بالرمل والسير فيه * ومنعنا من نيلها الميسور
وبرزنا الى المبرز نشكو * سدرا من نزولنا بالسدير
قيل لى سر الى الجهاد وماذا * بالغ فى الجهاد جهد مسيرى
ليس يقوى فى الجيش جاشى ولا قو * سى يرى موتورا الى موتور
انا للكتب لا الكتائب اقدامى وللصحف لا الصفاح حضورى
كاد فضلى يضيع لولا اهتمام الـفاضل الفائض الندى بأمورى
فانا منه فى ملابس جاه * رافلا منه فى حبير حبورى
فهو رقى من الحضيض حظوظى * وسمابى الى سرير السرور

وقال وما انقطعت عن السلطان فى غزواته الا فى هذه الغزوه وقد عظم الله فيها من النبوه وكانت غزوات السلطان بعدها مؤيده والسعادات فيها مجدده وكنت لمفارقت القاهرة استوحشت وتشوقت الى اصدقائى وتشوشت وكتبت من المخيم ببلبيس الى القاضى شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش وقد أقام بالقاهرة وكان صاحبالى من الايام النوريه واستشرته فى التأخر عن السلطان فكتب فى الجواب رافقه ولا تفارقه فكرهت رأيه فكتبت اليه

اذا رضيتم بمكروهى فذاك رضا * لا أبتغى غير ما تبغون لى غرضا
وان رأيتم شفاء القلب فى مرضى * فاننى مستطيب ذلك المرضا
أنتم أشرتم بتعذيبى فصرت له * مستعذبا استلذ الهم والمضضا
أصبحت متعظا بى فى محبتكم * حاش لله ان أبغى بكم عوضا
لله عيش تقضى عندكم ومضى * وكان مثل سحاب برقه ومضا
العيش دان جناه الغض عندكم * والقلب محترق منى بجمر غضا
ما كنت أعهد منكم ذا الجفاء ولا * حسبت ان ودادى عندكم رفضا
قد أظلم الافق فى عينى لغيبتكم * فان أذنت لشخصى فى الحضور اضا
ولست أول صب من أحبته * لما جفوا ما قضى أوطاره وقضى
مروا بما شئتم من محنة وأذى * فقد رأيت امتثال الامر مفترضا
طوبى لكم مصر والدار التى قضيت * فيها المآرب والعيش الذى خفضا
بعيشكم ان خلوتم بانبساطكم * تذكروا ضجرا بالعيش منقبضا
رضيتم سفرى عنكم واعهدكم * بسفرتى عنكم لا تظهرون رضا
هلا تكلفتم قولا أسر به * هيهات جوهركم قد عاد لى عرضا
تفضلوا واشرحوا صدرى بقربكم * أو فاشرحوا لى ذا المعنى الذى غمضا

فكتب الى فى جوابها أبياتا منها

لا تنسبونى الى ايثار بعدكم * فلست أرضى اذا فارقتكم عوضا
ولى وداد تولى الصدق عقدته * فما تراه على الايام منتقضا
يلقاك قلبى على سبل العتاب له * بصحة ليس يخشى بعدها مرضا
وصرت كالدهر يجنى أهله أسفا * ويلتقى من عتاب المذنب المضضا

ل ثم ودعت وعدت ونهضوا وقعدت

(فصل) فى نوبة كسرة الرمله وكانت على المسلمين بالجمله وذلك يوم الجمعة غرة جمادى الآخرة أو ثانيه ورحل السلطان بعساكره فنزل على عسقلان يوم الاربعاء التاسع والعشرين من جمادى الاولى فسبى وسلب وغنم وغلب وأسر وقسر وكسب وكسر وجمع هنالك من كان معه من الاسارى فضرب أعناقهم وتفرق عسكره فى الاعمال مغيرين ومبيدين فلما رأوا ان الفرنج خامدون استرسلوا وانبسطوا وتوسط السلطان البلاد واستقبل يوم الجمعة مستهل جمادى الآخرة بالرمله تراحلا للقصد بعض المعاقل فاعترضه نهر عليه تل الصافيه فازدحمت على العبور أثقال العساكر المتوافيه فما شعروا الا بالفرنج طالبة باطلابها حازبة باحزابها ذابة بذئابها عاوية بكلابها وقد نفر نفيرهم وزفر زفيرهم وسرايا المسلمين فى الضياع مغيره ورحى الحرب عليهم فى دورهم مديره فوقف الملك المظفر تقى الدين وتلقاهم وباشرهم ببيضه وسمره فاستشهد من أصحابه عدة من الكرام انتقلوا الى نعيم دار المقام وهلك من الفرنج اضعافها وكان لتقى الدين ولد يقال له أحمد أول ما طر شاربه فاستشهد بعد ما أردى فارسا قال وكان لتقى الدين أيضا ولد آخر اسمه شاهنشاه وقع فى أسر الفرنج وذلك ان بعض مستأمنى الفرنج بدمشق خدعه وقال له تجىء الى الملك وهو يعطيك الملك وزوّر له كتابا فسكن الى صدقه وخرج معه فلما تفرد به شدّوثاقه وغله وقيده وحمله الى الداوية وأخذ به مالا وجدد عندهم حالا وجمالا وبقى فى الاسر أكثر من سبع سنين حتى فكه السلطان بمال كثير وأطلق للداوية كل من كان لهم عنده من أسير فغلظ القلب القوى على ذلك الولد جرهلاك أخيه ولما عاد من الغزوة زرناه للتعزية فيه قال ولوان لتقى الدين رداء لاردى القوم لكن الناس تفرقوا وراء أثقالهم ثم نجوا برحالهم وصوب العدوّ بجلتهم حملتهم على السلطان فثبت ووقف على تقدمه من تخلف وسمعته يوما يصف تلك النوبه ويشكر من جماعته الصحبه ويقول رأيت فارسا يحث نحوى حصانه وقد صوّب الى نحرى سنانه فكاد يبلغنى طعانه ومعه آخران قد جعلا شأنهما شانه فرأيت ثلاثة من أصحابى خرج كل واحد الى واحد منهم فبادروه وطعنوه وقد تمكن من قربى فما مكنوه وهم ابراهيم بن قنابر وفضل الفيضى وسويد بن غشم المصرى وكانوا فرسان العسكر وشجعان المعشر واتفق السعادة السلطان ان هؤلاء الثلاثة رافقوه وما فارقوه وفارعوا العدوّ دونه وضايقوه فما زال السلطان يسير ويقف حتى لم يبق من ظن انه يتخلف ودخل الليل وسلك الرمل ولا ماء ولا دليل ولا كثير من الزاد والعلف ولا قليل وتعسفوا السلوك فى تلك الرمال والاوعاث والاوعار وبقوا أياما وليالى بغير ماء ولا زاد حتى وصلوا الى الديار وأذن ذلك بتلف الدواب وترجل الركاب ولغوب الاصحاب وفقد كثير ممن لم يعرف له خبر ولم يظهر له أثر وفقد الفقيه ضياء الدين عيسى وأخوه الظهير ومن كان فى صحبتهم فضل الطريق عنهم وكانوا سائرين الى وراء فأصبحوا بقرب الاعداء فاكنوا فى مغاره وانتظروا من يدلهم من بلد الاسلام على عماره فدل عليهم الفرنج من زعم انه يدل بهم وسعى فى أسرهم وعطبهم فاسروا وما خلص الفقيه عيسى وأخوه الا بعد سنين بستين او سبعين ألف دينار وفكاك جماعة من الكفار قال وما اشتدت هذه النوبة بكسره ولا عدم نصره فان النكاية فى العدوّ وبلاده بلغت منتهاها وادركت كل نفس مؤمنة مشتهاها لكن الخروج من تلك البلاد شتت الشمل وأوعر السهل وسلك مع عدم الماء والدليل الرمل ومما قدره الله تعالى من أسباب السلامه والهداية الى الاستقامه ان الاجل الفاضل استظهر فى دخول بلاد الاعداء باستصحاب الكنانية والادلا وانهم ما كانوا يفارقونه فى الغداء والعشا فلما وقعت الواقعة خرج بدوابه وغلمانه وأصحابه وأدلائه وأثقاله وبث أصحابه فى تلك الرمال والوهاد والتلال حتى أخذ خبر السلطان وقصده وأوضح بأدلائه جدده وفرق ما كان معه من الازواد على المنقطعين وجمعهم فى خدمة السلطان أجمعين فسهل ذلك الوعر وأنس بعد الوحشة القفر وجبر الكسر وكان الناس فى مبدأ توجه السلطان الى الجهاد ودخول الاجل الفاضل معه الى البلاد ربما تحدثوا وقالوا لوقعد وتخلف كان أولى به فان الحرب ليست من دأبه ثم عرف ان السلامة والبركة والنجاة كانت فى استصحابه وجاء الخبر الى القاهرة مع نجابين خلع عليهم وأركبوا وأشيع بأن السلطان نصره الله وان الفرنج كسروا وغلبوا فركبت لاسمع حديث النجابين وكيف نصر الله المسلمين واذا هم يقولون ابشروا فان السلطان وأهله سالمون وانهم واصلون غانمون فقلت لرفيقى ما بشر بسلامة السلطان الا وقد تمت كسره وما ثم

سوى سلامته نصره ولما قرب خرجنا لتلقيه وشكرنا الله على ما يسره من ترقيه وتوقيه ودخل القاهرة يوم الخميس منتصف الشهر ونابت سلامته مناب الدهر وسيرنا بها البشائر وأنهضنا بيطاقاتها الطائر لاخراس السنة الاراجيف وابدال التأمين من التخويف فقد كانت نوبتها هائله ووقعتها غائله قال القاضي ابن شداد خرج السلطان يطلب الساحل حتى وافى الفرنج على الرملة وذلك فى أوائل جمادى الاولى وكان مقدم الفرنج البرنس ارناط وكان قد بيع بحلب فانه كان أسيرا بها من زمن نور الدين رحمه الله وجرى خلل فى ذلك اليوم على المسلمين ولقد حكى السلطان قدس الله روحه صورة الكسرة فى ذلك اليوم وذلك ان المسلمين كانوا قد تعبوا تعبية الحرب فلما قارب العدو رأى بعض الجماعة تغيير الميمنة الى جهة الميسرة والميسرة الى جهة القلب ليكون حال الالتقاء وراء ظهورهم تل معروف بأرض الرملة فبينما اشتغلوا بهذه التعبية هجم الفرنج وقدر الله كسرهم فانكسروا كسرة عظيمة ولم يكن لهم حصن قريب يأوون اليه فطلبوا جهة الديار المصرية وضلوا فى الطريق وتبددوا وأسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى وكان وهنا عظيما جبره الله تعالى بوقعة حطين المشهوره ولله الحمد قلت وذلك بعد عشر سنين فكسرة الرملة هذه كانت فى سنة ثلاث وسبعين وكسرة حطين كانت فى سنة ثلاث وثمانين قال العماد الكاتب وحيث كانت للملك المظفر تقي الدين فى هذه الغزوة اليد البيضاء أنشدته قصيدة منها

سقى الله العراق وساكنيه ✻ وحياه حيا الغيث الهتون
وجيرانا امنت الجور منهم ✻ ومافيهم سوى واف أمين
صفوا والدهر ذو كدر وقدما ✻ وفوا بالعهد فى الزمن الخؤون
بنو أيوب زانوا الملك منهم ✻ بحلية سودد وتقى ودين
ملوك أصبحوا خير البرايا ✻ لخير رعية فى خير دين
أسانيد السيادة عن علاهم ✻ معنعنة مصححة المتون
بنو ايوب مثل قريش مجدا ✻ وأنت لها كانزعها البطين
أخفت الشرك حتى الذعر منهم ✻ يرى قبل الولادة فى الجنين
ويوم الرملة المرهوب بأسا ✻ تركت الشرك منزعج القطين
وكنت لعسكر الاسلام كهفا ✻ اوى منه الى حصن حصين
وقد عرف الفرنج سطاك لما ✻ رأوا آثارها عين اليقين
وأنت ثبت دون الدين تحمى ✻ حماه أوان ولى كل دين

قال واهتم السلطان بعد ذلك بافاضة الجود وتفرق الموجود وافتقاد الناس بالنقود والمنا بالصادقة الوعود وجبر الكسير وفك الاسير وتوفير العدد وتكثير المدد وتعويض ما نفق من الدواب فسلوا امانا بهم ولم يأسوا على ما أصابهم قال ابن أبي طى وقال ابن سعد ان الحلبي يمدح السلطان ويذكر ما فعله على عسقلان ويهون عليه أمر هذه الكسرة من قصيدة

قربت من عسقلان كل نائبة ✻ باتت تقلقل بوكاف من الاسل
فاض النجيع عليها وهي ممحلة ✻ فأصبحت مرتعا للخيل والابل
قل للفرنجية الجذلى رويدكم ✻ بالثار أو تخرج الشعرى من الحمل
ترقبوها من الفوارط العنة ✻ خوارق الارض تمحور ونق الاصل
كأنني بنواصيهن يقدمها ✻ كاس من الجود عريان من البخل
حسب العدا يا صلاح الدين حسبهم ✻ أن يقرفوك بجرح غير مندمل
وهل يخاف لسان النحل ملتمس ✻ مرت على أصبعيه لذة العسل

(**فصل**) فى وفاة كمشتكين وخروج السلطان من مصر بسبب حركة الفرنج قال العماد وقعت المنافسة بين الحلبيين مدبري الملك الصالح واستولى على أمره العدل ابن العجمي وكان سعد الدين كمشتكين الخادم مقدم العسكر.

وامير المعشر وهو صاحب حصن حارم وقد حسده امثاله من الامراء والخدام فسلموا لابن العجمى الاستبداد بتدبير الدولة فقفز عليه الاسماعيلية يوم الجمعة بعد الصلاة فى جامع حلب فقتلوه واستقل كمشتكين بالامر فتكلم فيه حساده وقالوا للملك الصالح ما قتل وزيرك ومشيرك ابن العجمى الا كمشتكين فهو الذى حسن ذلك للاسماعيلية وقالوا له أنت السلطان وكيف يكون لغيرك حكم أوامر فازالوا به حتى قبض عليه وطالبوه بتسليم قلعة حارم وأوقعوا بها الاجلة العظائم فكتب الى نوابه بها فنبوا وأبوا فحملوه ووقفوا به تحت القلعه وخوفوه بالصرعه فما طال أمره وقصر عمره واستبد الصغار بعده بالامور الكبار وامتنعت عليه قلعة حارم وجرد اليها العزائم ونزل عليه الافرنج ثم رحلوا بقطيعة بذلها لهم الملك الصالح واستنزل عنها أصحاب كمشتكين وولى بها مملوكا لابيه يقال له سرخك وقال ابن الاثير سار الملك الصالح من حلب الى حارم ومعه كمشتكين فعاقبه ليأمر من بها بالتسليم فلم يجب الى ما طلب منه فعلق منكوسا ودخن تحت أنفه فمات وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها ثم انه أخذها بعد ذلك قال ابن شداد أما الملك الصالح فانه تخبط أمره وقبض كمشتكين صاحب دولته وطلب منه تسليم حارم اليه فلم يفعل فقتله ولما سمع الفرنج بقتله نزلوا على حارم طمعا فيها وذلك فى جمادى الآخرة وقاتل عسكر الملك الصالح العساكر الفرنجية ولما رأى أهل القلعة خطرها من جانب الفرنج سلموها الى الملك الصالح فى العشر الاواخر من شهر رمضان ولما عرف الفرنج بذلك رحلوا عن حارم طالبين بلادهم ثم عاد الصالح الى حلب ولم يزل أصحابه على اختلاف بميل بعضهم الى جانب السلطان قدس الله روحه قال العماد ووصل فى هذه السنة الى الساحل من البحر كند كبير يقال له اقلندس أكبر طواغيت الكفر واعتقد خلو الشام من ناصرى الاسلام ومن جملة شروط هدنة الفرنج انهم اذا وصل لهم ملك أو كبير مالهم فى دفعه تدبير انهم يعاونونه ولا يباينونه ويحالفونه ولا يخالفونه فاذا عاد عادت الهدنة كما كانت وهانت الشدة ولانت وبحكم هذا الشرط حشدوا الحشود وجندوا الجنود ونزلوا على حماه فى العشرين من جمادى الاولى وصاحبها شهاب الدين محمود الحارمى مريض ونائب السلطان بدمشق يومئذ أخوه الاكبر تورانشاه وهو والامراء مشغولون بذاتهم وكان سيف الدين على بن أحمد المشطوب بالقرب فدخلها وخرج للحرب واجتمع اليها رجال الطعن والضرب وجرت ضروب من الحروب وكادت الفرنج تهجم البلد فاخرجوهم من الدروب ونصر الله اهل الاسلام بعد حصارهم لهم أربعة أيام فانهزم الملاعين ونزلوا على حصن حارم كما تقدم ذكره فرحلهم عنه الملك الصالح بعد حصار أربعة أشهر ومن كتاب فاضلى الى بغداد (خرج الكفار الى البلاد الشامية فاسحين لعقد كان محكما غادرين غدرا صريحا مقدرين ان يجهزوا على الشام لما كان بالجدب جريحا ونزلوا على طاهر حماه يوم الاثنين الحادى والعشرين من جمادى الاولى وزحفوا اليها فى ثانيه فخرج اليهم أصحابنا وتقدمهم كتاب سيف الدين (يعنى المشطوب) ان القتلى من الفرنج تزيد على ألف رجل ما بين فارس وراجل شفى الله منهم الصدور ورزق عليهم النصر والظهور ثم انصرفوا مجموعا لهم بين تنكيس الصلب وتحطيم الاصلاب مفرقة أحزابهم عن المدينة المحروسة كما افترقت عن المدينة الشريفة النبوية الاحزاب) قال العماد وتسامع الحلبيون بيوم رحيلنا من مصر لقصد الشام لنصرة الاسلام وقالوا أول ما يصل صلاح الدين نسلم حارم فراسلوا الفرنج وقاربوهم وأرغبوهم وأرهبوهم وقالوا لهم صلاح الدين واصل وما لكم بعد حصوله عندكم حاصل فرحل الفرنج بقطيعة من المال أخذوها وعدة من الاسارى خلصوها ثم توفى خاله السلطان شهاب الدين محمود بن تكش الحارمى فى جمادى الآخرة وتوفى ولده تكش بن خال السلطان قبله بثلاثة أيام وذلك أوان وقعة الرملة ولما سمع السلطان بنزول الفرنج على حارم رحل من البركة يوم عيد الفطر بعساكره ووصل ايلة فى عاشر الشهر واستناب بمصر أخاه العادل وأقام بها أيضا القاضى الفاضل بنية الحج فى السنة القابلة ووصل السلطان الى دمشق فى الرابع والعشرين من شوال ومما نظمه العماد فى التشوق الى مصر قوله

ساكنى مصر هنا كم طيبها ❁ ان عيشى بعدكم لم يطب
لا عدمتم راحة من قربها ❁ فانا من بعدها فى تعب
بعد العهد باخباركم ❁ فابعثوا أخباركم فى الكتب
ليت مصرا عرفت انى وان ❁ غبت عنها فالهوى لم يغب

ومن ذلك قوله

تذكرت في جلق داركم * بمصر ويا بعد ما بيننا
وما أتمنى سوى قربكم * وذلك والله كل المنى
لكم بالجنان وطيب المقا * م وحسن النعيم بمصر الهنا

ومن ذلك أيضا

ياساكني مصر قد فقتم بفضلكم * ذوي الفضائل من سكان أمصار
لله دركم من عصبة كرمت * ودر مصركم الغناء من دار

ومن ذلك أيضا

ياحبذا مصر وبر * كتم بها وصدر والعريش
فهناك أملاكي الذيـ * ـن سمت بعزهم العروش

قال ووصل كتاب من الفاضل يذكر فيه ان العدو خذله الله نهض ووصل الى صدر وقاتل القلعة ولم يتم له أمر فصرف الله شره وكفى أمره ووصل من الفرنج مستأمن وذكر انهم يريدون الغارة على فاقوس فاستقلوا أنفسهم وعرجوا وذكر انهم مضوا بنية تجديد الحشد ومعاودة القصد قال وأما نوبة العدو في الرملة فقد كانت عثرة علينا ظاهرها وعلى الكفار باطنها ولزمنا ما نسي من اسمها ولزمهم ما بقي من عزمها ولا دليل أدل على القوة من المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتها الى الشام نخوض بلاد الفرنج بالقوافل الثقيله والحشود الكبيره والحريم المستور والمال العظيم الموفور قال العماد ولما دخلنا دمشق وجدنا رسل دار الخلافة قد وصلوا بأسباب العاطفة والرأفه وكان حينئذ صاحب المخزن ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر العطار وهو من ذوي الاخطار وله التحكم في الايراد والاصدار وقد توفر على محبة السلطان وتربية رجائه وتلبية دعائه ووصل كتابه ورسوله بكل ما سر السرائر ونور البصائر

(فصل) في ذكر أولاد السلطان قال العماد وفي هذه السنة ولد بمصر للسلطان ابنه أبو سليمان داود وكتب الفاضل الى السلطان يهنئه به ويقول (انه ولد لسبع بقين من ذي القعدة وهذا الولد المبارك هو الموفي لاثني عشر ولدا بل لاثني عشر نجما متوقدا فقد زاد الله في أنجمه على أنجم يوسف عليه السلام نجما ورآهم المولى يقظة ورأى تلك الانجم حلما ورآهم ساجدين له ورأينا الخلق له سجودا وهو قادر سبحانه ان يزيد جدود المولى الى ان يراهم آباء وجدودا) قال العماد وكنت في بعض الليالي عند السلطان في آخر عهده وجرى ذكر أولاده واعتضاده بهم واعتداده فقلت له لو عرفت أيام مواليدهم في أعوامها لانشأت رسالة على نظامها فذكر لي ما أثبته على ترتيب أسنانهم

(ماصورته)

الملك الافضل نور الدين أبو الحسن علي ولد بمصر ليلة عيد الفطر عند العصر سنة خمس وستين وخمسمائه

العزيز أبو الفتح عثمان عماد الدين ولد بمصر ثامن جمادى الاولى سنة سبع وستين

الظافر أبو العباس خضر مظفر الدين ولد بمصر في خامس شعبان سنة ثمان وستين وهو أخو الافضل لابويه

الظاهر أبو منصور غازي غياث الدين ولد بمصر منتصف رمضان سنة ثمان وستين

المعز أبو يعقوب اسحاق فتح الدين ولد بمصر في ربيع الاول سنة سبعين

المؤيد أبو الفتح مسعود نجم الدين ولد بدمشق في ربيع الاول سنة احدى وسبعين وهو أخو العزيز لابويه

الاعز أبو يوسف يعقوب شرف الدين ولد بمصر في ربيع الآخر سنة اثنتين وسبعين وهو أخو العزيز لامه

الزاهر أبو سليمان داود مجير الدين ولد بمصر في ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين وهو أخو الظاهر لامه

المفضل أبو موسى قطب الدين ثم نعت بالمظفر ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين وهو أخو الافضل لامه

الاشرف أبو عبد الله محمد عز الدين ولد بالشام سنة خمس وسبعين وخمسمائه

المحسن أبو العباس أحمد ظهير الدين ولد بمصر في ربيع الاول سنة سبع وسبعين وهو لام الاشرف

المعظم أبو منصور توران شاه فخر الدين ولد بمصر في ربيع الاول سنة سبع وسبعين

قلت ومات سنة ثمان وخمسين وهى السنة التى أخرب العدوّ من التتار خذلهم الله تعالى مدينة حلب وغيرها والله أعلم

الجواد أبو سعيد أيوب ركن الدين ولد فى ربيع الاوّل سنة ثمان وسبعين وهو لام المعز

الغالب أبو الفتح ملكشاه نصير الدين مولده بالشام فى رجب سنة ثمان وسبعين وهو لام المعظم

المنصور أبو بكر وهو أيضا أخو المعظم لابويه ولد بحران بعد وفاة السلطان

قلت فهذه خمسة عشر ولدا ذكرهم العماد فى هذا الموضع وقال فى آخر كتاب الفتح القدسى على ماسنذكره فى آخر هذا الكتاب ان السلطان لما توفى خلف سبعة عشر ولدا وابنة صغيرة فقد فاته هنا ذكر اثنين وهما عماد الدين شاذى لام ولد ونصرة الدين مروان لام ولد وأما البنت فهى مؤنسة خاتون تزوّجها الملك الكامل محمد على ماسنذكره وهو ابن عمها الملك العادل أبى بكر بن أيوب وللسلطان غير هؤلاء الاولاد ممن درج فى حياته كالملك المنصور حسن وسيأتى ذكر وفاته والامير أحمد وهو الذى رثاه العرقلة بقوله

أى هلال كسفا * وأى غصن قصفا ❊ كان سراجا قد طفى * على الورى ثم انطفا

لم يركب الخيل ولم * يقد دوه مرهفا ❊ تل للحماة ويحكم * أحمد لم قد صرفا

صبرا صلاح الدين يا ❊ رب السماح والوفا

قال العماد وورد من الفاضل كتاب تاريخه منتصف ذى الحجة سنة ثلاث وسبعين يذكر فيه فصولا متعدّدة منها للمولى أولاد دوقد صار وارجالا ويجب ان تستجند للقلاع رجالا كما فعل السابقون أعمارا وأعمالا وقيل القلاع أنوف من حلها شمخ بها (مافى الرجال على النساء امين) ومنها أبيات فى ذكر السلام

مملوك مولانا ومملوك ابنه ❊ وأخيه وابن أخيه والجيران

طى الكتاب اليه منه أجابة ❊ لسلام مولانا ابنه عثمان

والله قد ذكر السلام وانه ❊ يجزى باحسن منه فى القرآن

وغريبة قد جئت فيها أوّلا ❊ ومن اقتفاها كان بعدى الثانى

فرسولى السلطان فى ارسالها ❊ والناس رسلهم الى السلطان

قلت وقد وصف الفاضل الملك المؤيد فى كتاب آخر فقال (وقد تمطت به السنّ وامتدّت وتأهبت السعادة لخطبته واعتدّت ولاحظته العيون بالوقار وطرفت دون جلالته وارتدّت) وفى بعض كتب الفاضل عن السلطان الى ولده الافضل (إعزازه لاهل الفضل دليل على فضله وان الاولى ان تكون كتب الادب عند أهله وما أبهجنا اذ جال فى فضاء الفضائل وخطب من أبكار المعالى كرائم العقائل وآخى بين السيف والقلم وصار فى موكبه العلم والعلم) ومن كتاب آخر فى المعنى (فلقد زادت هذه المنقبة فى مناقبه ونظمت عقود سودد فى ترائبه

فما ترجم الانسان عن سر فضله ❊ بأفضل من تقريبه لاولى الفضل

قال العماد وخرج السلطان للصيد فى ذى الحجة نحو قارا فشكوت ضرسى وعدمت أنسى فرجعت مع عز الدين فرخشاه لحى عرته فشكا منها الا تزور الا نهارا جهارا ولا تفارق بعرق بالضد من الحمى التى وصفها أبو الطيب المتنبى فنظمت فيه كلمة طويلة أوّلها

يمينك دأبها بذل اليسار ❊ وكفك صوبها بدر النضار

وأنك من ملوك الارض طرا ❊ بمنزلة اليمين من اليسار

وأنت البحر فى بث العطايا ❊ وأنت الطود فى بادى الوقار

ومنها فى وصف الحمى

وزائرة وليس بها حياة ❊ فليس تزور الا فى النهار

ولو رهبت لدى الاقدام جورى ❊ لما رغبت جهارا فى جوارى

أتت والقلب فى وهج اشتياق ❊ ليظهر ما أوارى من أوارى

ولو عرفت لظى سطوات عزمى * لكانت من سطاى على حذار
تقيم لخيفة تبصر من أناتى * ثبات الطود تسرع فى الفرار
تفارقنى على غير اغتسال * فلم أحلل لزورتها إزارى
أيا شمس الملوك بقيت شمسا * تنير على الممالك والديار
أحالك استعارت لفح نار * لعزمك لم تزل ذات استعار

(فصل) قال العماد وفى العشر الاول من ذى القعدة قتل عضد الدين بن رئيس الرؤساء وزير الخليفة ببغداد على أيدى الملاحدة وكان قد توجه الى الحج فوقف له فى مضيق وطفشاغرى دجلة كهل فى يده قصة يزعم انه يريد رفعها الى الوزير من يده الى يده فأومأ ليوصل قصته فانتهز فيه فرصته فقتله وبدر كمال الدين أبو الفضل بن الوزير فقتل قاتل أبيه بسيفه وكان مع ذلك الجاهل الملحد رفيقان له فجرح أحدهما حاجب الباب ابن المعوج فمات وجرح آخر ولد قاضى القضاة وقطع الملاحدة وأحرقوا واستقل ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر المعروف بابن العطار صاحب المخزن بالدولة وكان للسلطان خدنا مصافيا قلت وابن العطار هذا هو المرجوم المسحوب بعد موته ببغداد كما سيأتى ذكره فى آخر حوادث سنة خمس وسبعين قال ابن الاثير وكنت حينئذ ببغداد عازما على الحج فعبر عضد الدين دجلة فى شبارة فلما ركب دابته والناس معه ما بين راكب وراجل تقدم اليه بعض العامة ليدعوا له فمنعه أصحابه فزجرهم وأمرهم ان لا يمنعوا أحدا عنه فتقدم اليه الباطنية فقتلوه بالجانب الغربى فتوفى بها قال العماد ووردت مطالعة الفاضل الى السلطان تتضمن التوجع لقتل الوزير عضد الدين وفيها (وما ربك بظلام للعبيد فقد كان عفا الله عنه قتل ولدى الوزير بن هبيرة وأزهق أنفسهما وجماعة لا تحصى (من ذا يسر بذنبه * والدهر لا يغتر به) وهذا البيت بيت ابن المسلمة عريق فى القتل وجده هو المقتول بيد البساسيرى فى وقت اخراج الخليفة القائم فى أيام الملقب بالمستنصر بمصر فهو ومن ذريته لم تزل قاتلة مقتوله ومازالت السيوف عليها ومنها مسلوله فهم فى هذه الحادثة المسمعة المصمه كما قال دريد (أبى الموت الا ال صمه) والابيات المولى يحفظها وهى فى الحماسة وقد ختمت له السعاده بما ختمت به له الشهاده لا سيما وهو خارج من بيته الى بيت الله قال الله سبحانه ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله

ان المساءة قد تسر وربما * كان السرور بما كرهت جديرا
ان الوزير وزير آل محمد * أودى فمن يشناك كان وزيرا

وهذان البيتان قيلا فى أبى سلمة الخلال أول وزير لبنى العباس قلت وبلغنى ان الفاضل قال فى ذلك

وأحسن من نيل الوزارة للفتى * حياة تريه مصرع الوزراء

قال العماد وكان ضياء الدين بن الشهرزورى قد سار فى الرسالة الى بغداد وتوقف فى الموصل لحادثة الوزير ووافق وصوله الى الموصل وفاة ابن عمه القاضى عماد الدين احمد بن القاضى كمال الدين بن الشهرزورى وكان شابا وجاء كتاب الفاضل يذكر ذلك وفيه (يدلى ابن عشرين فى لحده والتسعون صاحبها راتع اغتبط الولد مع نضارة الشباب المقبل وعاد الوالد مع ذبول المشيب المشتمل ليعلم ان الشيب ليس بمسلم وان الشباب الغض ليس بمانع وليكون العبد حذرا من بغتات الآجال فى كل الاحوال والله يطيل للمولى العمر كما أطال له فى القدر ونسمع منه ولا نسمع فيه ويبقيه سندا للدين الحنيفى فان بقاءه يكفيه

وهذا آخر الجزء الاول من كتاب الروضتين في أخبار الدولتين يتلوه ان شاء الله تعالى في الجزء الثاني ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة قال العماد وكان شمس الدين ابن المقدم من أكابر الامرا الى آخره قال ناسخ نسخة الاصل التي حصل عليها تمثيل هذا الطبع ووافق الفراغ من نسخه يوم الاربعا ثالث عشر شهر ربيع الآخر سنة أربع وثلاثين وسبعمائة على يد أضعف الخلق وأحوجهم الى عفو الله أحمد بن العلم بن عبد الله غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وازواجه الطيبين الطاهرين وسلم تسليما

وعلى نسخة الاصل المذكوره أيضا نص هذه العبارة المسطوره شاهدت على نسخة الاصل المنقول منها هذه النسخة وهي جميعها بخط قاضي القضاة نجم الدين المصري الشافعي رحمه الله ما صورته يقول شاهدت على آخر الجزء الاول من الاصل المنقول منه هذه النسخة بخط المؤلف في آخر المجلدة الاولى من كتاب الروضتين فرغ منها مصنفها نسخا في حادي عشر شهر رمضان المبارك سنة احدى وخمسين وستمائة واشتملت هذه النسخة المبيضة على زيادات كثيره فاتت النسخ المتقدمة على هذا التاريخ المنقولة من المسودة وكل ما نقل من هذه النسخة هو الاصل الذي يعتمد عليه ويركن اليه كتبه عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم الشافعي مصنفه عفا الله عنه

وشاهدت عليه ما صورته مختصرا سمع جميع هذا المجلد على مؤلفه الشيخ شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم الشافعي ولده محيي الدين ابو الهدى أحمد وشهاب الدين أبو العباس أحمد بن فرح الاشبيلي وزين الدين علي بن أحمد بن يوسف القرطبي وشمس الدين اسماعيل بن أحمد بن ابراهيم المالكي وابنه محمد وعفيف الدين محمد بن ابي بكر ابن ابراهيم المؤذن الشاغوري ومحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الكنجي وسمع آخرون بفوات عينوا في الاصل وصح ذلك بقراءة يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعي في مجالس آخرها ثامن محرم سنة أربع وستين وستمائة بدار الحديث الاشرفيه كتبه قارئه يوسف بن محمد حامدا لله مصليا على نبيه محمد ومسلما نقل ذلك كله مختصرا احمد بن صصرى التغلبي الشافعي غفر الله له

وشاهدت عليه أيضا بخطه ما صورته مختصرا قرأ علي هذه المجلدة جميعها الامام الفاضل مجد الدين محمد بن أحمد ابن عمر الاربلي فسمعه بقراءته شهاب الدين أحمد الامام زين الدين أبي زكريا يحيي الحضرمي وآخرون بفوات ذكروا في الاصل وفرغ من ذلك يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر ربيع الاول سنة خمس وخمسين وستمائة في أربعة عشر مجلسا كتبه مصنفه عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم الشافعي عفا الله عنه

يقول العبد الفقير المعروف بابي السعود أفندي محرر صحيفة وادي النيل قد تم بحمد الله وحسن توفيقه بمطبعة وادي النيل في اواخر سنة ١٢٨٧ طبع هذا الجزء الاول من كتاب الروضتين في تاريخ الدولتين الذي هو كما لا يخفى على كل ذي فضل فضيل كتاب جليل وسفر جميل ولقد اعتنى هذا العبد الضئيل باحياء مواته وتصحيحه واستحياء رفاته وتصليحه على قدر الطاقه حتى جاء بعون الله كروضة الغنا وقد صاح فيها البلابل وغنى يحيي من اطلال الاسلام بعض دوارسها ويعيد من آثار السلف الصالح شيأ من مغارسها والمرجو من المولى سبحانه ان يتم احسانه ويعين على نجاز الجزء الثاني كما أعان على تمام طبع هذا الجزء الاول وصلى الله على سيدنا محمد وسلم وشرف وعظم وكرم وبجل .

﴿فهرست﴾

(مالابد من التنبيه عليه من الخطأ والصواب في الجزء الاول من هذا الكتاب)

صفحه	سطر	خطا	صواب
٥	٢٩	جارم	حارم
٦	٣٦	سياتكم	سيئاتكم
١٤	٢٧	بكا	بكى
١٧	٠٧	بحبل	بجبل
٢٢	١١	ياسوطه	باسوطه
٢٢	١٦	بثم	يتم
٢٢	٣٠	الغار	العار
٢٤	٢٤	ثم	تم
٢٥	١٥	منقد	منقذ (وهكذا)
٢٦	٣٦	وحفظبا	وحفظا
٢٨	٢٥	شنجر	سنجر
٢٨	٢٨	قلج ارسلان	قليج ارسلان (وهكذا)
٣٤	١٠	ااباك	أتابك (وهكذا)
٣٤	١٦	ليله الهرير	ليلة الهرير
٣٤	٢٧	مفترع	مقترع
٣٩	١٥	بغا	بغى
٤٠	١٦	فاخلتها	فأحلتها
٤٠	٣٥	البثره	البيره
٤٧	٣٠	اسعرد	اسغرد
٥٠	١٧	البستانى	البيسانى
٥١	١٢	اعنفت	اعتقت
٥٦	٢٢	عبداوتهم	عداوتهم
٦٥	٣٤	الحم يراك فى المجد	الحم يراك المجلدفى
٦٦	٠٢	وملأتنا	وملأتنا
٦٦	١٣	الرد	الردى

صحيفه	سطر	خطا	صواب
٨٦	١٣	توجهت شهباؤها	توجت شهباءها
٩٧	٠٩	المبجى ـ منبج	المنبجى ـ منبج
٩٧	٢٠٠	معدّا	مغذا
١٠١	٢٥	جمت	حمت
١١٥	١٨	وخد العيش	وخد العيس
١٢٢	١٠	الجفار	الكفار
١٣٠	٣٦	حنك	جنك
١٣٢	٠٣	جبيل	معقل
١٣٤	٠١	لاانوف	الانوف
١٤٩	٢٨	السابعه	الرابعه
١٥٢	٢٧	بلك	فلك
١٥٣	٠٣	ملك	فلك
١٦٤	٣٠	ناشزة	ناشرة
١٧٠	٣٣	واصلة برسالة	واصله برسالة
١٧١	٢٧	اصحا	اصحابه
١٨٥	٢٧	قال والعمادفى	قال العمادوفى
١٩١	٣٣	منازل العز	منازل الغز
١٩٦	١٥	المستضى	المستضئ
١٩٨	٠٦	استنباه	إستنبذاه
٢٠٧	٠٤	الانها	الانتها
٢١٥	٣٠	مثالة	مثاله
٢٤١	١٠	عرائب	غرائب
٢٦٢	٢٦	مرامى مرامى	مرامى مرامه
٢٧٢	٢٠	السعاده	لسعادة
٢٧٢	١٥	تسجند	تستنجد
٢٧٧	١٥	عف	عفا

هذا ولربما لم يزل يوجد فى طبع هذا السفر الشريف بعض تحريف وتصحيف كنقص بعض نقط أو عدم ضبط فى طبع بعض الحروف لا تخفى على فهم القارئ البصير والله سبحانه وحده هو المنزه عن الغلط والسقط وهو العليم الخبير

﴿ فهرست الجزء الاول من كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ﴾

صحيفه

صحيفه

صحيفه